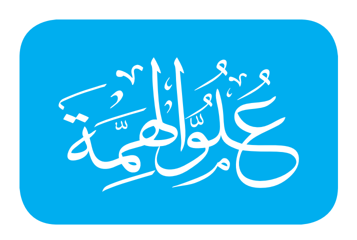



علو الهمة







الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

رقم الإيداع

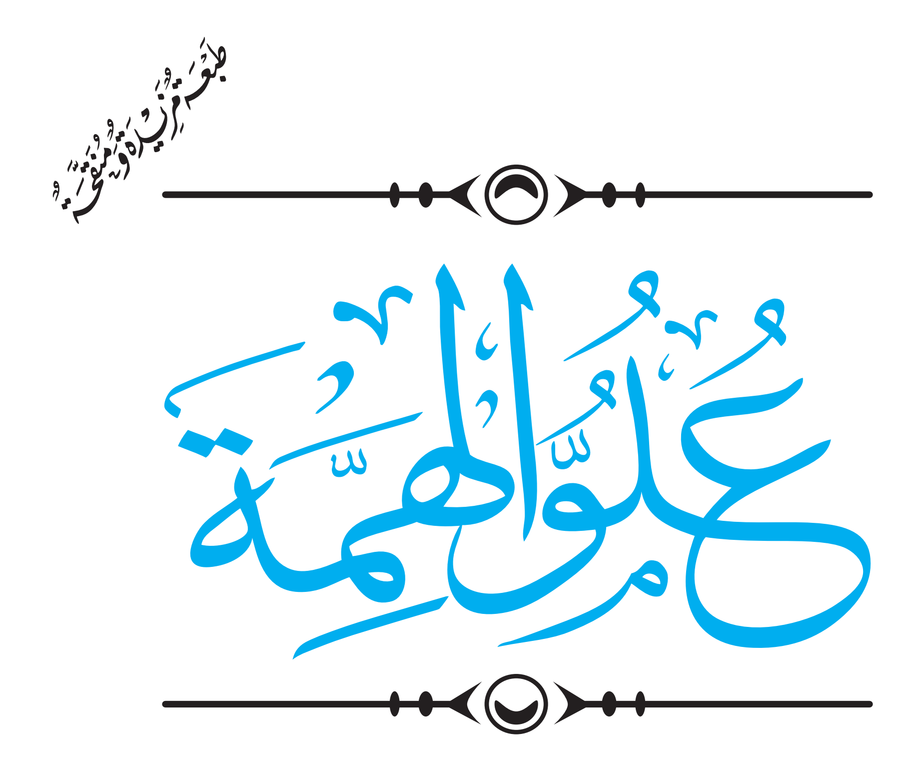
٢٠١٧/٥١٧١م

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-6546-44-8





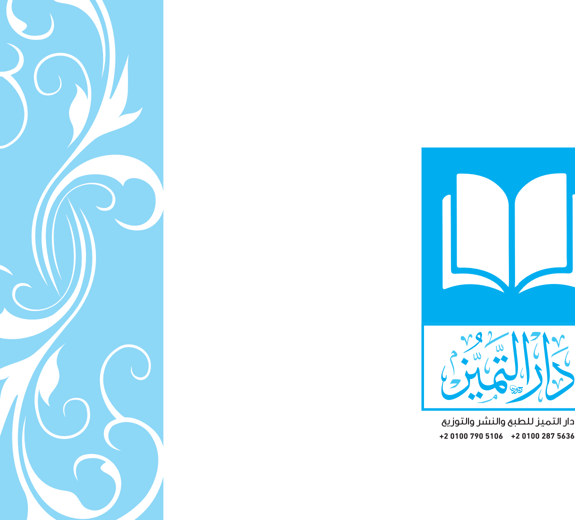




تأليف

محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم

عفا الله عنه



دار التميز للطبع والنشر والتوزيع

+2 0100 790 5106 +2 0100 287 5636



دار الأمل

للطبع والنشر والتوزيع

daralamal2014@gmail.com

(+2) 01000282166

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة هذه الطبعة

الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رَشد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسه، ولا يضرُّ الله شيئًا.

أما بعد،

فقد نال الأستاذ أحمد زكي باشا (ت:١٩٣٤م) بواسطة أحمد حشمت باشا وزير معارف مصر، اعتمادًا بعشرة آلاف جنيه لطبع مجموعة من الكتب العربية القديمة النادرة، تبلغ سبعة وعشرين كتابًا، ومنها ما يدخل في بضعة مجلدات، فتباطأ زكي باشا في الطبع، ومضت السنة، فقُيِّد المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة، ولم يُخرج الباشا شيئًا، وهكذا حتى أُلغي الاعتماد باستقالة حشمت باشا.

وهنا غضب العلامة الشيخ طاهر الجزائري (ت:١٩٢٠م) رَحِمَهُ ٱللَّهُ غضبة مُضَرية من عمل زكي باشا، وصارحه بقوله: «لقد أسأتَ إلى الأمة العربية بإبطائك في إخراج الكتب للناس، وإذا ادَّعيت أنك تقصد نشرها سالمة من الخطأ، مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعاليق، فالتأنق لا حد له، ويكفي أن ينتفع الناس بالموجود، وظل الشيخ أشهرًا لا يكلم صديقه الزكي إلا متكلِّفًا كأنه





عَبِث به، وحمل الضرر إلى مصلحته المباشرة، وأي مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف» اهـ[(١)].

فالدرس المستفاد إذن: «أن الإتقان لا حَدَّ له، وأن الأغلاط تُصحَّح مع الزمن».

ومن موارد التنقيح والإتقان:

- قارئ الكتاب نفسُه، قال الأديب إبراهيم الصولي:

«المتصفح للكتاب أبصرُ بمواقع الخلل فيه من مُنشئه»[(٢)].

ومنها: مصنف الكتاب نفسُه، وقد قال الإمام المزني: قرأت كتاب (الرسالة) على الشافعي ثمانين مرة، فما من مرة إلا وكان يقف على خطأ، فقال الشافعي: «هيه، أبى الله أن يكون كتابًا صحيحًا غير كتابه».

ما خَطَّ كفُّ امرئٍ شيئًا وراجَعَهُ ... إلا وعَـنَّ لـه تـبـديـلُ مـا فيه

وقال ذاك كذا أولى وذاك كذا ... وإن يكن هكذا تسمو معانيه

وقد انفرد الله تعالى بالكمال، ولم يبرأ أحد من النقصان:

قال القاضي الفاضل البيساني (ت٥٩٦هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبر، وهو دليلُ استيلاء النقص على جملة البشر».



---

(١) انظر: «ترجمة العلامة طاهر الجزائري» في تقديم كتابه «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بعلوم القرآن» (ص٢٣، ٢٤).

(٢) «ثمرات الأوراق» للحموي (ص٢٣٦).



وقال الثعالبي في (يتيمة الدهر): «وحين أعرتُه -أي كتابه المذكور- على الأيام بصري، وأعدتُ فيه نظري؛ تبينت مِصداقَ ما قرأته في بعض الكتب: إن أول ما يبدو ضعفُ ابن آدم أنه لا يكتب كتابًا فيبيت عنده ليلة واحدة إلا أحبَّ في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة، فكيف في سنين عدة» اهـ[١].

★ لقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (علو الهمة) في سنة (١٤١٦هـ-١٩٩٥م) رغمًا عني، إذ اختلفتُ مع أخي في الله الأستاذ أبي همام ناصر السيد حَفِظَهُ اللهُ، وكان مُصِرًّا على التعجيل بإخراجه مطبوعًا، وكنت مُصِرًّا على التريث والتمهل من أجل المزيد من التنقيح والتحرير والإتقان، وكَسَبَ الجولة، وانتصر عَلَيَّ بقوله: «أنا أعرفك، لو تمهَّلْتَ إلى أن ترضى عنه فلن يرى النور»، وسيلحق بغيره مما أجَّلته من سنين للغرض نفسِه، ولهذا أنجِزْه حسبما يتيسر، وباشر تنقيحَه في الطبعات المقبلة، فخضعتُ لنصحه، وطُبع الكتاب. والآن، بعد مُضي اثنتين وعشرين سنة أدركتُ كم كان مُسدَّدًا في رأيه، وكم كان رأيي مَعيبًا! إذ طُبع الكتاب عشراتِ المرات خلال تلك السنوات، وبلغني أنه عمَّ الانتفاع به هنا وهناك -بفضل الله وحده-، مع أني لم أُضِفْ إليه كلمة، ولم أحذف منه سطرًا واحدًا، وهذا درس نافع أُزْجِيهِ لغيري.

★ نحن -معشرَ المسلمين- أمة مُجْتَباة مصطفاة، تكاملت في حقها كلُّ جهاتِ الفضل والشرف، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقال سبحانه:



(١) «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» (١/ ٢٧).

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ الآية [الحج:٧٨]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران:١١٠].

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسيرها: «خيرَ الناسِ للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنكم تتِمُّون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(٢).

وبينما نرى الأمم الفقيرة بالقدوات التاريخية الغابرة تخترع أساطير وحكايات عن شخصيات وهمية لدفع شعوبها نحو الحركة والتقدم والبناء، فإن تاريخنا -ولله الحمد- غني حافل بنماذج نادرة لشخصيات واقعية حقيقية، دُوِّنت أخبارهم بكل صدق ودقة وأمانة، وحُفِظت لتكون لنا نبراسًا يبعث فينا الأمل، وينبوعًا تتفجر منه الطاقات والقوى.

لقد أحسن علماؤنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلينا أمة الإسلام، وأمة «الإسناد» أيما إحسانٍ حين صنفوا الكتب والمطوَّلات ليسجلوا تراجم أئمتنا ورموز نهضتنا في القديم والحديث.

وحفل تاريخنا بنماذج فذة من الرجال الذين لا يظهرون في التاريخ إلا على ندرة، ويُحدثون بكفاحهم وعلو همتهم موجاتٍ قويةً من الحركة والتجديد

(١) رواه البخاري [٤٥٥٧].
(٢) رواه الترمذي [٣٠٠١]، وحسَّنه، والحاكم (٤/ ٨٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.



والبعث والإحياء كانوا «كأن مادتهم من السُّحُب: فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلو والجمال، يثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل»[(١)].

★ إن القصص من جنود الله تعالى، وهي صور ناطقة تخبرنا بما كان عليه الأولون، كي نتخذهم قدوات تحركنا نحو الارتقاء بالذات في درجات الكمالات.

قال بعض العلماء: «الحكايات جندٌ من جنود الله تعالى، يُثبِّت بها قلوبَ أوليائه»، وشَاهِدُه قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

وقال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم»، وشاهِدُه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز، ويذكر محاسنه وينشرها، فاعلم أن من وراء ذلك خيرًا، إن شاء الله».

ونصح أبو حيان بنيه فقال: «عليكم بمطالعة التاريخ، فإنها تُلقِّح عقلًا جديدًا».

اقــرؤوا الـتـاريـخَ إذ فـيـه الـعِـبَرْ ضـل قـومٌ لـيـس يَـدْرون الـخَـبَرْ

(١) انظر: «وحي القلم» (٢/ ٢٩١).



آخر:

إذا علم العبدُ أخبار مَن مضى — **توهَّمتَه قد عاش من أول الدهرِ**
وتحسبه قد عاش آخرَ عمرِه — **إذا كان قد أبقى الجميل من الذكرِ**

وقال شوقي:

فارفع لنفسِك بعد موتك ذِكْرَها — **فالذكرُ للإنسانِ عُمْرٌ ثاني**

★ إن هذا الكتاب الماثل بين يديك -أخي المكرم- يعينك على أن تنافس في أمور دينك غيرَك من المتسابقين إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ويحجزك عن أن تنافس المتصارعين في حلبة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ الآية [الحجر:٨٨].

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظروا إلى مَن هو أسفلَ منكم**(١)، **ولا تنظروا إلى مَن فوقَكم**(٢)، **فإنه**(٣) **أجدر أن لا تزدروا نعمةَ الله عليكم**»(٤)، ومفهومه: الحث على النظر إلى من هو فوقَنا في الدين والطاعة(٥).

(١) أي: في أمور الدنيا.
(٢) أي: في الدنيا.
(٣) أي: فإن النظر إلى من هو أسفل لا إلى من هو فوق حقيقٌ (أن لا تزدروا) أي بأن لا تحتقروا نعمة الله عليكم، فإن المرء إذا نظر إلى من فُضِّل عليه في الدنيا طمحت له نفسُه، واستصغر ما عنده من نعم الله، وحرص على الازدياد ليلحقه أو يقاربه، وإذا نظر لمن هو أقل منه شَكَر النعمةَ، وتواضع، وحمد الله تعالى، وانظر: «فيض القدير» (٣/ ٥٩، ٦٠).
(٤) رواه الإمام أحمد رقم [٧٤٤٩]، ومسلم، والترمذي، وصححه، وابن ماجه.
(٥) وقد رُوي هذا المفهوم صريحًا فيما رواه الترمذي مرفوعًا بلفظ:
«خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرًا صابرًا، ومن لم تكن فيه لم يكتبه الله شاكرًا ولا صابرًا: من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله =



إن في القلوب «لَجَمرةً يغطيها الرماد، وشرارة يقدحها الزناد، فإن وَجَدت نافخًا في جمرها وقادحًا لشررها، استيقظت، وتحفزت، وعملت، وصَعِدت، وكلما ذاقت لذة العمل والرقي، زادت حُبًّا له، وهُيامًا به»[١].

وتخلف الإنسان عن موكب الكُمَّل إما من عدم البصيرة، أو من ضعف العزيمة، «وخير وسيلةٍ لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثابة، وقدح المواهب، وإذكاء الهمم، وتقويم الأخلاق، والتسامي إلى معالي الأمور، والترفُّع عن سَفسافها، والائتساء بالأسلاف الأجِلَّاء، هو قراءة سِيَر النبغاء الصلحاء، والتملِّي من اجتلاء مناقب الصالحين الربانيين، والاقتراب من العلماء والنُبهاء العاملين المجدِّدين، فذلك خير مهماز لرفع الهمم، وشد العزائم، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب، واحتلال ذُرَى المجد الرفيع، واغتنام الباقيات الصالحات، وإخلاص النيات»[٢].

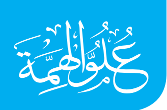
فسِرْ يا أخي في سِرْبهم، وتناول من شربهم، واسلك طريقهم، تكن رفيقَهم.

وقد عكفتُ طويلًا على جمع مادة هذا الكتاب، وتخيرت أخباره قدر ما قدرتُ عليه، وأَلَّفْتُ بينها، وفرشت في صدر كل باب من أبوابه ما يمهد له، وما



=به عليه كتبه الله شاكرًا صابرًا، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكرًا ولا صابرًا».
وضعفه الترمذي بقوله: «هذا حديث غريب»، وقال العراقي: «ضعيف»، وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم [٦٣٣]: «لا أصل له بهذا اللفظ».

(١) انظر: «دراسات إسلامية» لسيد قطب (ص٢٩).
(٢) انظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص١٧، ١٨).





سواه فمأخوذ من تراثنا الثري، ولا فضل لي إلا في جمعه وترتيبه وقِرانِ كل جنس إلى جنسه، وقد حَلَّيْتُها بشواهدَ شعرية تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مَراميها، فإن صادفْتُ قَبولًا، وبلغتُ مأمولًا، فعسى أن يقع سهمي سديدًا، ويكون سَعْدي سعيدًا، وإن وقفت بي قدرتي دون همتي فمبلغ علمي، والمعاذير تُقبل.

أسير خلفَ رِكابِ النُّجْبِ ذا عَرجٍ ... مُؤَمِّلًا كشفَ ما لاقيتُ من عِوَجِ

فإن لَحِقْتُ بهم مِن بعدِ ما سبقوا ... فكم لربِّ السَّما في الناسِ من فرجِ

وإن ظللتُ بِقَفْرِ الأرضِ منقطِعًا ... فما على أعرجٍ في ذاك مِن حرجِ

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، أن يُمَنَّ علينا بالعافية واليقين، وأن يتوفانا على الإسلام والسنة، ويُسكننا الفردوسَ الأعلى من الجنة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وتلك أمنيتي حينَ ألقى مَنِيتّي، لا أتعداها، ولا أتمنَّى من جُودِه وكرمِه وفضله سواها.

والحمد لله رب العالمين

ثغر الإسكندرية في

الاثنين ٢٣ من جمادى الأولى ١٤٣٨هـ

الموافق ٢٠ من فبراير ٢٠١٧م



مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، والشكر له على ما أولى من نِعَمٍ سابغةٍ، وأسدى، أحمده سبحانه، وهو الوليُّ الحميد، وأتوب إليه جل شأنه، وهو التواب الرشيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له شهادةً نستجلب بها نِعَمَه، ونَستدفع بها نِقَمَه، ونَدَّخِرُها عُدَّةً لنا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسولُه، وصَفِيُّه من خلقه وخليلُه، صلى الله عليه، وعلى آله نجومِ المهتدين، ورُجومِ المعتدين.

ورضي الله عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صُحبته، وحِفظ شريعته، وتبليغ دينه إلى سائر أمته، فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

أمَّا بَعد:

ففي قرنٍ وبعضِ قرنٍ، وثب المسلمون وثبةً مَلَؤوا بها الأرضَ قوةً وبأسًا، وحكمة وعلمًا، ونورًا وهداية، فراضوا الأممَ، وهاضُوا الممالك، وركزوا ألويتَهم في قلب آسيا، وهامات أفريقية، وأطرافِ أوربة، وتركوا دينَهم، وشِرعتَهم، ولغتَهم، وعلمَهم، وأدبَهم، تَدِينُ لها القلوب، وتتقلب بها الألسنةُ، وتَحقَّق فيهم الأنموذج الفريد، والمثالُ الأعلى للبشرية باعتبارهم «خير أمة أخرجت للناس»، بعد أن كانوا فرائق بَددًا، لا نظام، ولا قِوام، ولا علم، ولا شريعة.






لقد قطع المسلمون تلك المرحلة التي سَهَم لها الدهر، ووَجَمَ لروعتها التاريخ، وهم يعرفون معالم طريق المجد، ونهج السعادة في الدارين، وأمعنوا بكل ثقة في هذا السبيل مدفوعين بطاقةٍ خارقة، وقوةٍ دافعة، كانوا إذن يدركون بكل دقة معالمَ الطريق كأن معهم «خارطة» مفصلة أودَعُوها «قوتَهم العلمية»، وكان الوقود الذي يتزودون به لبلوغ غاياتهم هو «القوة العملية»، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذان هما سر عظمة المسلمين، وخيريتهم وتفوقهم على الأمم: «العلم» و«الإرادة».

أما العلم فحسبنا أنه الحاكم على الممالك، والسياسات، والأموال، والأقلام، فمُلْك لا يتأيد بعلم لا يقوم، وسيف بلا علم مِخراق لاعب، وقلم بلا علم حركةُ عابث، والعلم مُسَلَّط حاكم على ذلك كله، ولا يَحكم شيء من ذلك على العلم.

ولن نفيض في ذكر فضائل العلم فذاك حديث يطول، وكم صنف المتقدم والمتأخر في شرفه والحث عليه، ولكن المقصود من هذا المبحث إلقاء الضوء على قَسيم العلم وتوأمه وشريكه في صناعة المجد، وإحياء الأمة، ألا وهو «القوة العملية» أو «الإرادة» أو «الهمة».



الباب الأول

المقدمـــاتُ





المقدمَـاتُ

ما هي الهمة؟

تعريف الهمة لغةً: الهَمُّ أصل صحيح، والهمة مأخوذة من الهم.

قال الأزهري (ت:٣٧٠هـ): «الهَمُّ: ما هممتَ به من أمر في نفسك. تقول: أهمَّني الأمر. والمُهِمَّاتُ من الأمور: الشدائد. قال: والهم: الحزن. والهمة: ما هممتَ به من أمر لتفعله. وتقول: إنه لعظيم الهمة»[(١)].

وقال ابن فارس (ت:٣٩٥هـ): «الهمُّ: ما هممت به، وكذلك الهمة، ثم تشتق من الهِمَّة: الهُمام: أي الملك عظيم الهمة، ومُهِمُّ الأمر: شديده، وأهمَّني: أقلقني»[(٢)].



وقال أبو هلال العسكري (ت بعد ٣٩٥هـ): «الهمة اتساع الهم وبُعد موقعه؛ ولهذا يُمدح بها الإنسان، فيُقال: فلان ذو همّةٍ وذو عزيمة»[(٣)].

وقال ابن منظور (ت:٧١١هـ): «الهمُّ ما هم به نفسه؛ تقول: أهمني هذا الأمر، والهَمة والهِمة -بالفتح والكسر-: ما هم به من أمر ليفعله، وتقول: إنه

(١) «تهذيب اللغة» (٥/ ٢٤٨) مادة (همم).
(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٦/ ١٣، ١٤) مادة (همم).
(٣) «الفروق اللغوية» (١/ ٥٥٨).

لعظيم الهَمِّ، وإنه لبعيد الهمة.. وهم بالشيء، يهم همًّا، نواه وأراده، وعزم عليه، والهُمام: الملك العظيم الهِمَّة، وقيل: لأنه إذا هم بأمر أمضاه، ولا يُرد عنه بل ينفذ كما أراد، وقيل: الهُمام السيد الشجاع السخي»[(١)].

وقال أبو العباس الفيومي (ت:٧٧٠هـ): «الهمة بالكسر: أوّل العزم، وقد تطلق على العزم القوي، فيُقال: له همة عالية»[(٢)].

وقال مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي (ت:٨١٧هـ): «والهَمُّ هو: الحزن الشديد، والجمع الهُموم، وأهمَّه الأمر: أقلقه وأحزنه، فكأن كل ما يهمُّ به في نفسه من جنس الهمِّ، ومنه اشتقت الهَمَّة والهِمَّة -بالفتح والكسر-، وهو كل ما هم به من أمر ليفعله، فإذا همَّ بالشيء أراده»[(٣)].





(١) «لسان العرب» (٦/ ٤٧٠٢) مادة (همم).
(٢) «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» (١/ ٣٣٠) مادة (همم).
(٣) «القاموس المحيط» (ص١١٧١) باب الميم، فصل الهاء.




قالوا في الهمة

تعددت أقوال أهل العلم في حقيقة الهمة: فقال الراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ): «الكبير الهمة على الإطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قَدْرَ وُسْعِهِ، فلا يصير عبد بطنه وفرجه، بل يجتهد أن يتصف بمكارم الشريعة»(١).

وقال أبو الفرج ابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ): «الهمة خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها من العلم والعمل»(٢).

وقال الجرجاني (ت:٨١٦هـ): «الهم: هو عقد القلب على فعل شيء قبل أن يفعل، من خير أو شر. والهمة: توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق، لحصول الكمال له أو لغيره»(٣).

وقال عمرو بن بحر الجاحظ المعتزلي (ت:٢٥٥هـ): «الهِمَّة استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب العالية السامية، واستحقار ما



---

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص٢٩١).

(٢) «صيد الخاطر» (ص١٨٩) وقال في شرح معناه:
«ينبغي لمن له أنفة أن يأنف من التقصير الممكن دفعه عن النفس، فلو كانت النبوة -مثلًا- تأتي بكسب، لم يجز له أن يقنع بالوَلاية، أو تصور أن يكون مثلًا خليفة، لم يحسن به أن يقتنع بإمارة، ولو صَحَّ له أن يكون مَلَكًا، لم يرض أن يكون بشرًا، والمقصود أن ينتهي بالنفس إلى كمالها الممكن في العلم والعمل» اهـ. (ص٢٠٠، ٢٠١).

(٣) «التعريفات» (ص٣٢٠).

يجود به الإنسان عند العطية، والاستخفاف بأوساط الأمور وطلب الغايات، والتهاون بما يملكه، وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به»(١).

وقال ابن عجيبة الحسيني (ت:١٢٢٤هـ): «الهمة هي القوة الباعثة على السير ووقوفها مع الشيء، واعتقادها أن ما وصلت إليه هو الغاية، أو فيه الكفاية»(٢).

وقال أيضًا مُبينًا نوعَيْ الهمة: «الهمة قوة انبعاث القلب في طلب الشيء والاهتمام به، فإن كان الأمر رفيعًا كمعرفة الله وطلب رضوانه سميت همة عالية، وإن كان أمرًا خسيسًا كطلب الدنيا وحظوظها سميت هِمَّة دنيئة»(٣).





(١) «تهذيب الأخلاق» (ص٢٨).
(٢) «إيقاظ الهمم في شرح الحِكَم» (ص١٦٥).
(٣) نفسه (ص١٩).

الهمة في شرح (منازل السائرين)

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين):

«الهِمَّة: فِعْلَة من الهمِّ، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهَمُّ مبدؤها، والهِمَّة نهايتها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «في بعض الآثار الإلهية قول الله تعالى: إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته.

قال: والعامة تقول: قيمة كل امرئٍ ما يحسن. والخاصة تقول: قيمة كل امرئٍ ما يطلب»[١]، يريد: أن قيمة المرء همته ومطلبه.

قال صاحب (المنازل):

«الهمة: ما يملك الانبعاث للمقصود صِرفًا، لا يتمالك صاحبها، ولا يلتفت عنها».

قوله: «يملك الانبعاث للمقصود» أي: يستولي عليه كاستيلاء المالك على المملوك، و«صرفًا» أي: خالصًا صرفًا.

والمراد: أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا، فتلك هي الهمة العالية، التي «لا يتمالك صاحبها» أي: لا يقدر على المهلة، ولا يتمالك صبره، لغلبة سلطانه عليه، وشدة إلزامها إياه بطلب المقصود «ولا يلتفت عنها»



(١) ومن ثم يصح أن نقول: حدِّثني عن طموحاتك؛ أقل لك من أنت.





إلى ما سوى أحكامها، وصاحب هذه الهمة: سريعٌ وصولُه وظفره بمطلوبه، ما لم تَعُقْهُ العوائق، وتقطعه العلائق، والله أعلم»[(١)] اهـ.

وقال أيضًا:

(علو الهمة: أن لا تقف[(٢)] دون الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلًا منه، ولا تبيع حظها من الله، وقربه والأنس به، والفرح والسرور والابتهاج به، بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية، فالهمة العالية على الهمم: كالطائر العالي على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن «الهمة» كلما علت، بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجواذب، وهي لا تعلو إلى المكان العالي فتجتذب منه، وإنما تجتذب من المكان السافل، فعلو همة المرء: عنوان فلاحه، وسفول همته: عنوان حرمانه»[(٣)] اهـ.

رُوِيَ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا تصغرنَّ هِمَّتُكم؛ فإني لم أرَ أقعدَ عن المكرمات من صِغَرِ الهمم».

والهمة طليعة الأعمال ومقدمتها، قال أحد الصالحين: «همتك فاحفظها، فإن الهمة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها، صلح له ما وراء ذلك من الأعمال»[(٤)]، وعن عبيد الله بن زياد بن ظبيان قال: كان لي خال من «كلب»، فكان يقول لي: «يا عبيد هِمَّ؛ فإن الهمة نصف المروءة».

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٣، ٤).

(٢) أي: النفس.

(٣) السابق (٣/ ١٧١، ١٧٢).

(٤) «بصائر تربوية» (ص١٣٧).





الهِمَّةُ مَوْلُودَةٌ مَعَ الآدميّ

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما تقف همة إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون، وقد عُرف بالدليل أن الهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حُثَّتْ سارت، ومتى رأيت في نفسك عجزًا فسل المنعم، أو كسلًا فسل الموفق، فلن تنال خيرًا إلا بطاعته، فمن الذي أقبل عليه ولم ير كل مراد؟ ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة؟ أو حظي بغرض من أغراضه؟» اهـ[(١)].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات» بسبب عجز أو كسل، أو ركون إلى وسوسة الشيطان، وركوب الهوى، وتسويل النفس الأمارة بالسوء، فهنا تحتاج الهمة إلى إيقاظ وتنبيه وتذكير برضا مَن تطلب؟ وفي أي نعيم ترغب؟ ومن أي عقاب ترهب؟ كما فعل ذلك البطل الذي لا نعرف اسمه، لكن حسبه أن الله يعلمه، وهو وحده الذي يثيبه:

عن عبد الله بن قيس، أبي أمية الغفاري قال: كنا في غزاة لنا، فحضر عدوُّهم، فصِيحَ في الناس، فهم يثوبون إلى مصافِّهم، إذا رجل أمامي، رأسُ فرسي عند عَجُز فرسه، وهو يخاطب نفسه ويقول: «أيْ نفس ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟

(١) «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» (ص٣١). مكتبة الإمام البخاري.



فقلتِ لي: أهلُكَ وعيالُك فأطعتكِ ورجعتُ؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلتِ: أهلُك وعيالُك فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله، أَخَذَكِ، أو تركك»، فقلت: لأرمُقنَّه اليوم، فرمقته، فحمل الناسُ على عدوهم، فكان في أوائلهم، ثم إن العدوَّ حمل على الناس فانكشفوا، فكان في حُماتهم، ثم إن الناس حملوا، فكان في أوائلهم، ثم حمل العدو، وانكشف الناس، فكان في حُماتهم، قال: «فوالله ما زال ذلك دأبه حتى رأيته صريعًا، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنةً»(١).





(١) «صفة الصفوة» (٤/ ٤٢١).





لا حول ولا قوة إلا بالله

لقد حثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإكثار من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكْثِروا من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) فإنها كَنز من كنوز الجنة**»، وهي غِراس الجنة، وباب من أبواب الجنة.

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير «لا حول[(١)] ولا قوة[(٢)] إلا بالله»:

«نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها، إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه، وقضائه وقدره، غلبت مشيئتُه المشيئاتِ كُلَّها، وعكست إرادتُه الإراداتِ كلَّها، وغلب قضاؤه الحِيَلَ كلها» اهـ.

وهاك نقولًا عن بعض السلف في بيان معناها:

١- قال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في «لا حول ولا قوة إلا بالله» أي: «لا حول بنا على العمل بالطاعة إلا بالله، ولا قوة لنا على ترك المعصية إلا بالله».

٢- ورُوي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في معناها أي: «لا حول عن معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته».

---

(١) **الحَوْل**: هو التحرك، يقال: حال الرجل في متن فرسه حَولًا وحُؤُولًا: إذا وثب عليه، وحالَ الشخصُ: إذا تحرك، وكذلك كل متحول عن حاله. «معجم مقاييس اللغة (٢/ ١٢١).

(٢) **القوة**: هي الشدة وخلاف الضعف.



٣- ورُوِيَ عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معناها أي: «أنا لا نملك مع الله شيئًا، ولا نملك مِن دونه، ولا نملك إلا ما مَلَّكنا مما هو أملكُ به منا».

٤- وسئل زهير بن محمد عن تفسير «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقال: «لا تأخذ ما تحب إلا بالله، ولا تمتنع مما تكره إلَّا بعون الله».

٥- وسئل أبو الهيثم الرازي (ت٢٧٦هـ)، وهو إمام في اللغة عن تفسير «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقال: «الحول: الحركة، يقال حال الشخص إذا تحرك فكأن القائل إذا قال: لا حول ولا قوة، يقول: لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله».

٦- وقيل معناها: «لا حول في دفع شرٍّ، ولا قوة في تحصيل خيرٍ إلا بالله».

وهذه المعاني كلها متقاربة.

لقد فرض الله على كل مؤمن أن يستعين به كل يوم وليلة سبع عشرة مرة حين يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وعلى المؤمن أن يستحضر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، وقولَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، وقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣]، وقول شُعيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وقولَ العبد الصالح: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩].

وقولَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عينٍ أبدًا**»، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعاء الاستخارة: «**وأستقدرك بقدرتك**»، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**استعن بالله، ولا تعجز**»، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم أَعِنِّي على ذكرِك وشُكرِك وحُسْنِ عبادتِك**».

وليحذر أن يكون كمن قال الله فيه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦، ٧]، وكقارونَ القائل: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، وكالأبرص والأقرع اللذَيْنِ قال كل منهما: «إنما وَرِثتُه كابرًا عن كابِر»[(١)].

فالمؤمن يستمد قوته من قوة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا غنى به عن توفيق الله وإعانته وتأييده، وذلك خلافًا لكثير من أرباب «التنمية البشرية» و«البرمجة العصبية اللغوية» و«الطاقة البشرية والكونية» الذين ينفخون في قدرات «العقل الباطن»، ويضخمون تأثيرها:

كقول د. «جوزيف ميرفي» في مقدمة كتابه (قوة عقلك الباطن): «تستطيع هذه القوة المعجزة الفاعلة للعقل الباطن أن تشفيك من المرض، وتعطيك الحيوية والقوة من جديد».

وكقول «نيتشه»: «سنُخرج الرجل (السوبرمان) الذي لا يحتاج لفكرة الإله».

وكقول «وليام جيمس»، ومن سار على دربه: «أنا أستطيع، أنا قادر، أنا غني، أنا أجذب قَدَري»[(٢)].



---

(١) أي: ورثته عن آبائي وأجدادي، كبيرًا عن كبيرٍ، في العِزِّ والشرَف.

(٢) وما أحسن ما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في المكروه من الألفاظ: وليحذر كل الحذر من طغيان «أنا»، و«لي»، و«عندي»؛ فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتُلِي بها إبليس، وفرعون، وقارون، فـ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لإبليس، و﴿لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ لفرعون، و﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ لقارون، وأحسن ما وُضِعَتْ «أنا» في قول العبد: «أنا العبد المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف» ونحوه. =

ويتشدقون بأن التغيير المُستهدَف «حَتْمي»، ولا يستثنون، ولا يذكرون قَدْرَ الله تعالى، وقدرته، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١]، وقال تعالى حاكيًا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٣، ١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣، ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:١٧-٣٣].

فأين هؤلاء المغرورون -الذين لا يؤمنون بالله، ولا يعتبرون للوحي الإلهي أيَّةَ مرجعية[١]- من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]. وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[٢] [الإنسان:١]،

= و«لي»، في قوله: «لي الذنب»، و«لي الجُرم»، و«لي المسكنة»، و«لي الفقر، والذل»، و«عندي» في قوله: «اغفر لي جِدِّي، وهزلي، وخطئي، وعمدي، وكل ذلك عندي» اهـ. من «زاد المعاد» (٢/ ٤٧٥)، وانظر أيضًا كلامه في شرح منزلة «الفقر» في كتابه: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (١/ ١٢-٥٩) ط. دار عالم الفوائد.

(١) انظر: نقد علم النفس الغربي في «فطرية الدين» للمؤلف (ص١٥٤-١٥٧)، (ص١٨٠) هامش رقم (٢).

(٢) وقد روى الإمام أحمد في مسنده رقم (١٧٨٤٢) من حديث بُسْر بن جِحَاش القرشي أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصق يومًا في كفِّه فوضع عليها إصبعه ثمَّ قال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: بُنَيَّ آدم، أنَّى تعجزني! وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بُردين، وللأرض منك** =



وما عُذر الذين ينساقون وراءهم من أهل التوحيد والإيمان الذين يتحقق فيهم قولُ الشاعر:

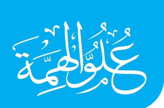
أعمى يقود بصيرًا لا أبا لكمُ ... قد ضل من كانت العُميانُ تهديه





=وئيد، **فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلَغَتِ التراقيَ قلت: أتصدَّق، وأنَّى أوانُ الصدقة!**»، ورواه ابن ماجه (٢٧٠٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٥)، وصححه، وكذلك صححه ابن حجر في «الإصابة» (١/ ١٥٣)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١٤٣).

والوئيد: صوت شدة الوطء على الأرض، يُسمَع كالدويِّ من بُعد.





لابُدَّ للسالِكِ مِن همةٍ تُسيِّرُه، وتُرقِّيهِ، وعلم يُبصِّرُه، وَيهدِيه

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة، أعاضهم أفضل منها، وهو ما أعطاهم من عهده الذي جعله سببًا موصِّلًا لهم إليه، وطريقًا واضحًا بَيِّنَ الدلالة عليه، من تمسك به؛ فاز واهتدى، ومن أعرض عنه؛ شَقِيَ وغوى، ولما كان هذا العهد الكريم، والصراط المستقيم والنبأ العظيم، لا يُوصَل إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة، فالإرادة باب الوصول إليه، والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحُه عليه، وكمال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين «همة تُرَقِّيه» و«علم يُبصِّره، ويهديه»،فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما: إما أن لا يكون له علم بها، فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالمًا بها، ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبه عن كماله الذي خُلِق له مصدودًا منكوسًا، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيًا مع الهَمَل، واستطاب لِقِيعات الراحة والبطالة، واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رُفع له عَلَم فشمَّر إليه، وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه، واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابنَ سبيل يرافقه في سبيله.



ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرفُ العلم تابعًا لشرف معلومه، كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها، ولا حياة له إلا بها؛ أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همته مسافرة إلى حضرة الحي الذي لا يموت، ولا سبيل له إلى هذا المطلب الأسنى، والحظ الأوفى؛ إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعيًا، وأقامه على هذا الطريق هاديًا، وجعله واسطة بينه وبين الأنام، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه، أو يقبل من أحدٍ منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه، ومنتهيًا إليه، صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[١] اهـ.



(١) «مفتاح دار السعادة، ومنشور وَلاية العلم والإرادة» (١/ ٥٩).

أقسَامُ الناس
من حيث القوتان العلمية والعملية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كمال الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثار الحق على الباطل(١) وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة؛ إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص:٤٥] فالأيدي: القوة في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق، وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام.

- فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق، وأكرمهم على الله تعالى.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون، وحُمَّى الأرواح،

(١) وفي الأثر: «اللهم أرني الحق حقًّا وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلًا، وارزقني اجتنابه»، فهؤلاء هم الذين رزقوا علمًا، وأعينوا بقوة العزيمة على العمل، وهم الموصوفون في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥] وبقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فبالحياة تُنال العزيمة، وبالنور يُنال العلم، وأئمة هذا القسم هم أولو العزم من الرسل.



وسقم القلوب، يُضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يُستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة في الهدى ومعرفة به، ولكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه، ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمنِ الضعيف، والمؤمنُ القوي خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحمًا، والدواء النافع سُمًّا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] فأخبر سبحانه أنهم بالصبر واليقين بآيات الله نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر -الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين- على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]»[(١)]. اهـ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه، ويكون



(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص٨٢).




ضعيفًا في القوة العملية يبصر الحقائق، ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب، ولا يتوقاها[١]، فهو فقيه ما لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله، ولا قوة إلا بالله.

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والجِد والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد[٢]، والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات، كما كان الأول

(١) وفي مثله يصدق قول الشاعر:

فليس يُزيح الكفرَ رأيٌ مسدَّدٌ … إذا هو لم يؤنَس برمي مُسددِ

(٢) إن نفوس الناس تختلف، ومشاربهم لا تأتلف؛ فكل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها، وقد علم كل أناس مشربهم، وكلٌّ ميسر لما خلق له.

فهناك من الناس من تكون همته عالية، وإرادته قوية، ولكنه ينزع بها إلى الشر والفساد، كحال بعض المجرمين الذين إذا عزموا على نوع من الإجرام لا يثني عزمَهم شيء، بل إن إرادتهم قد تَفْضُل إرادة كثير من الأخيار في قوتها، ولكن عيبهم سوءُ الوجهة، وتسخيرُ هذه الطاقة في الشر.

وقد يتحلى المبتدع بقوة الإرادة، والزهد والعبادة، دون أن يستلزم هذا أن يكون من أولياء الله تعالى، ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون.

وأقرب مثال يوضح هذا حال الخوارج المارقين الذين قال فيهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة**».

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لأمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خرج عليه الخوارج: «يا أمير المؤمنين أَبْرِدْ بالصلاة لعَلِّي أدخل على هؤلاء القوم فأكلمهم. فقال: إني أخاف عليك. فقلت: كلا وكنت رجلًا حسن الخلق لا أوذي أحدًا، فأذن لي فلبست حلة من أحسن ما يكون من اليمن، وترجَّلت فدخلت عليهم نصف النهار، فدخلت على قوم لم أر قط أشد منهم اجتهادًا، جباههم قرحة من السجود، وأياديهم كأنها ثفن الإبل، وعليهم قمص مرحضة مشمرين، مسهمة وجوههم من السهر»، =







ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداء هذا من جهله، وداء الأول من فساد إرادته، وضعف عقله، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة، يُرى أحدهم أعمى عن

=وعن جندب الأزدي قال: لما عدلنا إلى الخوارج ونحن مع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فانتهينا إلى معسكرهم فإذا لهم دوي كدوي النحل من قراءة القرآن.

ولقي الخوارج في طريقهم عبد الله بن خباب فقالوا: هل سمعت من أبيك حديثًا تحدثه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدثناه قال: نعم سمعت أبي يحدث:

عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذكر «**فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركت ذلك فكن عبد الله المقتول**» قالوا: أنت سمعت هذا من أبيك يحدثه عن رسول الله؟ قال: نعم، فقدَّموه إلى شفير النهر، فضربوا عنقه، فسال دمه كأنه شراك نعل، وبقروا بطن أم ولده عما في بطنها، وكانت حبلى، ونزلوا تحت نخل مواقير بنهروان فسقطت رطبة فأخذها أحدهم فقذف بها في فيه. فقال أحدهم: «أخذتها بغير حلِّها وبغير ثمنها»، فلفظها من فيه، واخترط أحدهم سيفه فأخذ يهزه فمر به خنزير لأهل الذمة فضربه به يُجرِّبُه فيه، فقالوا: «هذا فساد في الأرض» فلقي صاحب الخنزير فأرضاه في ثمنه. قال: فبعث إليهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أخرِجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب»، فقالوا: «كلنا قتله»، فناداهم ثلاثًا كل ذلك يقولون هذا القول. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأصحابه: «دونكم القوم»، فما لبثوا أن قتلوهم، وكان وقت القتال يقول بعضهم لبعض: «تهيأ للقاء الرب، الرواح الرواح إلى الجنة».

فلما قُتِل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُخرج ابن ملجم ليُقتل، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم. فكحل عينيه بمسمار محمي فلم يجزع فجعل يقرأ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١، ٢] حتى ختمها وإن عينيه لتسيلان، فعُولج على قطع لسانه فجزع. فقيل له: لِمَ تجزع؟ فقال: «أكره أن أكون في الدنيا مواتًا لا أذكر الله»، وكان رجلًا أسمر في جبهته أثر السجود لعنة الله عليه.

علق الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ قائلًا: ولهم قصص تطول ومذاهب عجيبة لهم لم أر التطويل بذكرها وإنما المقصود النظر في حيل إبليس وتلبيسه على هؤلاء الحمقى الذين عملوا بواقعاتهم، واعتقدوا أن عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه على الخطأ ومن معه من المهاجرين والأنصار على الخطأ وأنهم على الصواب، واستحلوا دماء الأطفال، ولم يستحلوا أكل ثمرة بغير ثمنها، وتعبوا في العبادات، وسهروا، وجزع ابن ملجم عند قطع لسانه من فوات الذكر، واستحل قتل علي كرم الله وجهه» اهـ. من «تلبيس إبليس» (ص١٠٣-١٠٨) ط. مكتبة الصفا - القاهرة - ١٤٢٢هـ.



مطلوبه لا يدري مَن يعبد؟ ولا بماذا يعبده؟ فتارة يعبده بذوقه ووَجده، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه مِن لُبس معين، وكشف رأس أو حلق لحية ونحوها، وتارة يعبده بالأوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس لها أصل في الدين، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنًا ما كان، وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد.

فهؤلاء كلهم عُمْي عن ربهم وعن شريعته ودينه، لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ولا يقبل من أحدٍ دينًا سواه، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرَّف بها إلى عباده على ألسنة رسله، ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له.

ومن كانت له هاتان القوتان؛ استقام له سَيره إلى الله، ورُجِيَ له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع كثيرة، شأنها شديد، لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها، وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد، «والوقت -كما قيل- سيف فإن قطعتَه، وإلا قطعك»، فإذا كان السيرُ ضعيفًا، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا، والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة؛ فإنه جَهْدُ البلاء، ودَرْكُ الشقاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب، فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع، والله ولي التوفيق) اهـ.



الهمَّة مَحَلهَا القلب

الهمة عمل قلبي، والقلب لا سلطان عليه لغير صاحبه، وكما أن الطائر يطير بجناحيه، كذلك يطير المرء بهمته، فتحلق به إلى أعلى الآفاق، طليقةً من القيود التي تكبل الأجساد.

إن يَسْلُب القومُ العِدا مُلْـ ـكي وتُسْلِمْني الجموعْ
فالقلب بين ضُلُو عِهِ لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوعْ

آخر:

كَلَّفْتَ هِمتَكَ السُّموَّ فَحَلَّقَتْ فكأنما هي دعوةٌ في ظالمِ

ونقل ابن قتيبة عن بعض كتب الحكمة: «ذو الهمة إن حُطَّ، فنفسه تأبى إلا عُلُوًّا، كالشعلة من النار يُصَوِّبُها صاحبها، وتأبى إلا ارتِفاعًا»[١].





(١) «عيون الأخبار» (٣/ ٢٣١).

همة المؤمن أبلغ من عمله

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يروي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة، فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هم بها وعملها، كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة، فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها، كتبها الله له سيئة واحدة**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٠٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن تجهز للجهاد، ثم أدركه الموت: «**قد أوقع الله أجره على قدر نيته**»(٣).

(١) رواه البخاري [٦٤٩١]، ومسلم [١٣١].
(٢) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.
(٣) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني.







وقال ﷺ في حق المتخلفين عن غزوة تبوك من الحريصين على الخروج معه: «**إن بالمدينة لرجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**[(١)]، **حَبَسَهم العذر**»، وفي رواية: «**حبسهم المرض**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**ما من امرئٍ تكون له صلاة بليل، يغلبه عليها نوم، إلا كُتب له أجرُ صلاته، وكان نومُه عليه صدقةً**»[(٣)].

فليس الشأن فيمن يقوم الليل، إنما الشأن فيمن ينام على فراشه، ثم يصبح، وقد سبق الركبَ بعلو همته، وطهارة قلبه، وقوة يقينه، وشدة إخلاصه، وفي ذلك قيل:

مَن لي بمِثلِ سَيْرِكَ المدللِ ... تمشي رويدًا وتجيء في الأوَّلِ

وما أحسن قول الشاعر مخاطبًا الحجيج، وقد انطلقوا للحج:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد ... سِرْتم جُسومًا وسرنا نحن أرواحا

إنا أقمنا على عُذْرٍ وعن قَدَرٍ ... ومن أقام على عُذرٍ فقد راحا





(١) يعني: في إدراك الأجر والثواب.

(٢) رواه عن أنس رضي الله عنه البخاري [٢٨٣٩]، [٤٤٢٣]، ومسلم [١٩١١] عن جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني.





فضل جُهْدِ المُقِلِّ

وقد يتفوق المؤمن بهمته العالية كما بَيَّن ذلك الصادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «**سبق درهم مائة ألف**»، قالوا: «يا رسول الله! كيف يسبق درهم مائة ألف؟»، قال: «**رجل كان له درهمان، فأخذ أحدهما، فتصدق به، وآخر له مال كثير، فأخذ من عُرْضها مائة ألف**»(١) يعني: فتصدق بها.

فهمة الأول جادت بنصف ما يملك، بخلاف الآخر، وإن كان الأمر الظاهر المعاين أن الآخَر أنفق مائة ألف ضعفِ ما أنفق الأول، لكن تفوَّق الأول بهمته العالية.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «يا رسول الله، أيُّ الصدقة أفضل؟» فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جُهْدُ المقِلِّ، وابدأ بمن تعول**»(٢).

والجمع بين هذا الحديث، وبين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتفق عليه: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًى**» أنه يختلف باختلاف أحوال الناس في الصبر على الفاقة والشدة والاكتفاء بأقل الكفاية.



---

(١) رواه النسائي [٢٥٣٠]، وابن حبان [٣٣٤٧]، وصححه، وقال الألباني: «حديث حسن»، وقوله: «من عُرْضها» أي: من ناحيتها أو جانِبها، وهي بالنسبة لما يملك قليل من كثير.

(٢) رواه الإمام أحمد رقم [٨٧٠٢]، وغيره، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح».





هل يؤاخذ العبد إذا هَمَّ بمعصية؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

«من الناس من قال: يُؤاخَذ بها إذا كانت عزمًا، ومنهم من قال: لا يؤاخذ بها، والتحقيق: أن الهمة إذا صارت عزمًا فلابد أن يقترن بها قول أو فعل؛ فإن الإرادة مع القدرة تستلزم وجود المقدور.

والذين قالوا: يؤاخذ بها احتجوا بقوله: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» الحديث، وهذا لا حجة فيه؛ فإنه ذكر ذلك في رجلين اقتتلا، كل منهما يريد قتل الآخر، وهذا ليس عزمًا مجردًا؛ بل هو عزم مع فعل المقدور؛ لكنه عاجز عن إتمام مراده، وهذا يؤاخَذ باتفاق المسلمين، فمن اجتهد على شرب الخمر، وسعى في ذلك بقوله وعمله، ثم عجز فإنه آثم باتفاق المسلمين، وهو كالشارب وإن لم يقع منه شرب، وكذلك من اجتهد على الزنا والسرقة ونحو ذلك بقوله وعمله، ثم عجز فهو آثم كالفاعل، ومثل ذلك في قتل النفس وغيره، كما جُعِلَ الداعي إلى الخير له مثل أجر المدعوِّ ووزره لأنه أراد فعل المدعو، وفعل ما يقدر عليه فالإرادة الجازمة، مع فعل المقدور من ذلك، فيحصل له مثل أجر الفاعل ووزره، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النساء:٩٥].







وفصل الخطاب في الآية أن ﴿أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ نوعان:

- (نوع) لهم عزم تام على الجهاد، ولو تمكنوا لما قعدوا، ولا تخلفوا، وإنما أقعدهم العذر، فهم كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن بالمدينة رجالًا ما سِرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**». وهم أيضًا كما قال في حديث أبي كبشة الأنماري: «**هما في الأجر سواء**»، وكما في حديث أبي موسى: «**إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ له من العمل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**»، فأثبت له مثل ذلك العمل؛ لأن عزمه تام، وإنما منعه العذر.

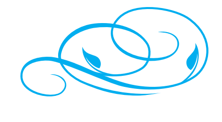
- و(النوع الثاني) من «أولي الضرر» الذين ليس لهم عزم على الخروج، فهؤلاء يفضل عليهم الخارجون المجاهدون وأولو الضرر العازمون عزمًا جازمًا على الخروج...» إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وهكذا حال المقتتلين من المسلمين في الفتن الواقعة بينهم، فلا تكون عاقبتها إلا عاقبة سوء، الغالب والمغلوب، فإنه لم يحصل له دنيا ولا آخرة، كما قال الشعبي: «أصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أشقياء»، وأما الغالب: فإنه يحصل له حظٌّ عاجل، ثم ينتقم منه في الآخرة، وقد يُعَجِّلُ اللهُ له الانتقام في الدنيا، كما جرى لعامة الغالبين في الفتن، فإنهم أصيبوا في الدنيا، كالغالبين في الحَرَّة، وفتنةِ أبي مسلم الخراساني ونحو ذلك .

وأما من قال : إنه لا يؤاخذ بالعزم القلبي فاحتجوا بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن اللّٰه تجاوز لأمتي عما حَدَّثَتْ به أنفسها**» وهذا ليس فيه أنه عافٍ لهم عن العزم، بل فيه أنه عفا عن حديث النفس إلى أن يتكلم أو يعمل، فدل على أنه ما لم يتكلم أو يعمل لا يؤاخذ؛ ولكن ظن من ظن أن ذلك عزمٌ وليس كذلك؛ بل ما





لم يتكلم أو يعمل لا يكون عزمًا -فإن العزم لابد أن يقترن به المقدور وإن لم يصل العازم إلى المقصود، فالذي يعزم على القتل أو الزنا أو نحوه عزمًا جازمًا لابد أن يتحرك ولو برأسه، أو يمشي، أو يأخذ آلة، أو يتكلم كلمة، أو يقول أو يفعل شيئًا- فهذا كله ما يؤاخذ به، أما زنا العين واللسان والرِّجْل، فإن هذا يؤاخذ به، وهو من مقدمات الزنا التام بالفَرْجِ، وإنما وقع العفو عما لم يبرز خارجًا بقول أو فعل، ولم يقترن به أمر ظاهر قط، فهذا يُعفى عنه لمن قام بما يجب على القلب من فعل المأمور به، سواء كان المأمور به في القلب وموجبه في الجسد، أو كان المأمور به ظاهرًا في الجسد وفي القلب معرفته وقصده، فهؤلاء إذا حَدَّثوا أنفسهم بشيء كان عفوًا مثل هَمٍّ ثابتٍ بلا فعل، ومثل الوسواس الذي يكرهونه وهم يثابون على كراهته، وعلى ترك ما هموا به وعزموا عليه لله تعالى وخوفًا منه» اهـ[1].





(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/ ١٢٢-١٢٨) باختصار وتصرف.





قُوَّةُ المؤمِن في قَلْبِهِ

قال الإمام المحقق «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب، لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج:٣٢]، وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التقوى ههنا**»، وأشار إلى صدره[١]، فالكَيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية، مع العمل القليل أضعافَ أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير[٢]، والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تُذهب المشقة وتُطَيِّب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم؛ وصدق الرغبة، والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الإسلامُ الإحسانَ، فأكمل الهدي هديُ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان موفيًا كلَّ واحدٍ منهما حَقَّه، فكان مع كماله وإرادته وأحواله مع الله يقوم حتى تَرِمَ

(١) رواه مسلم [٢٥٦٤].

(٢) وفي هذا قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يا حبذا نوم الأكياس وفِطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم...».







قدماه، ويصوم حتى يقال لا يفطر، ويجاهد في سبيل الله، ويخالط أصحابه، ولا يحتجب عنهم، ولا يترك شيئًا من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تعجز عن حملها قوى البشر» اهـ[(١)].



(١) «الفوائد» (ص١٤١).



حَيَاةُ القَلْبِ بالْعِلْمِ وَالْهِمَّةِ

«إن ضعْفَ الإرادةِ والطلب من ضعفِ حياةِ القلبِ، وكلَّما كان القَلبُ أتمَّ حياةً، كانت همَّتُهُ أعلى، وإرادتُهُ ومحبتهُ أقوى، فإنَّ الإرادةَ والمحبةَ تَتبَعُ الشعور بالمرادِ المحبوب، وسلامةَ القلبِ من الآفةِ التي تَحولُ بينَهُ وبينَ طلبِه وإرادتِهِ، فضعفُ الطلب وفتورُ الهمَّةِ إما من نقصانِ الشعور والإحساس، وإمَّا من وجودِ الآفةِ المضعِفة للحياةِ، فقَوةُ الشعورِ وقوةُ الإرادةِ دليلٌ على قوةِ الحياةِ، وضَعْفُها دليل على ضَعْفِها، وكما أنَّ علوَّ الهمةِ، وصدقَ الإرادةِ والطلب، من كمالِ الحياة، فهُو سبب إلى حصولِ أكملِ الحياةِ وأطيَبِها، فإنَّ الحياةَ الطيبةَ إنَّما تُنالُ بالهمَّةِ العالية، والمحبةِ الصادقةِ، والإرادةِ الخالصةِ، فعلى قَدرِ ذلك تكونُ الحياةُ الطيبةُ، وأخَسُّ الناس حياةً أخسُّهُم همَّةً، وأضعفُهم محبةً وطلبًا، وحياةُ البهائم خير من حياتِهِ، كما قيل:

نَهارُكَ يا مَغْرورُ سَهوٌ وَغَفْلَة ... وَلَيْلُكَ نومٌ والرَّدى لَكَ لازِمُ
وَتَكْدَح فيما سَوْفَ تُنْكِرُ غِبَّهُ ... كَذلكَ في الدُّنيا تعيشُ البهائمُ
تُسَرُّ بما يَفْنى، وَتَفرَحُ بالْمُنَى ... كما غُرَّ باللَّذاتِ في النومِ حالمُ»[١]



(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٩٤٥).



لماذا يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ؟

إن النفس الأبية لا ترضى بالدون، وقد عاب الله سبحانه أقوامًا استبدلوا طعامًا أدنى، ونعى ذلك عليهم، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ(١) فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ(٢) بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا(٣) فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:٦٠].

فهذا الاستبدال دلَّ على وضاعة أنفسهم وقلة قيمتها.

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «ومن الفوائد في الآية: أن علو الهمة أن ينظر الإنسان للأكمل والأفضل في كل الأمور»(٤).

(١) وهو المن والسلوى، وإنما قال: «واحد» لمساواته في الأزمنة المختلفة، كقولك: إن فلانًا يفعل فعلًا واحدًا في كل يوم، وإن كثرت أفعاله، إذا تحرى طريقة واحدة، وداوم عليها.

(٢) **أدنى**: أي أدون قدرًا، وأصل الدنو القرب في المكان، فاستعير للخسة، كما استُعير البُعد للشرف والرفعة، فقيل: بعيد الهمة.

(٣) أيَّ مصر من الأمصار، فإن ما سألتموه ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته، وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. وانظر: «محاسن التأويل» (٢/ ١٣٧، ١٣٨).

(٤) «تفسير القرآن الكريم» (١/ ١٥٢).



قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قبح الله همة تتسامى ... عن كبار الأقدار دون الصغار

هي أهل لما عراها من الذلْـ ... ـلِ وما مسها من الاحتقار[(١)]

(والسبب الذي يجعل كثيرًا من الناس يطلبون الأدنى من الأمور، ويقصدون ما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا -فساد العلم، وكثرة الجهل، وضعف الهمَّة، فكلَّما صحَّ العلم، وانتفى الجهل، وصحَّت العزيمة، وعظمت الهمَّة؛ طلب الإنسان معالي الأمور، فبعض الناس همُّه لقمة يسدُّ بها جوعته، وشَربة روية تُذهِب ظمأه، ولباس يواري سوأته- وهو مذهبٌ ذمَّ أهل الجاهلية أصحابه، وفي مثل هؤلاء يقول حاتم طَيِّيء:

لَحَى[(٢)] اللهُ صُعْلُوكًا[(٣)] مُنَاهُ وَهَمُّهُ ... مِنَ الْعَيْشِ أنْ يَلْقَى لُبُوسًا وَمَطْعَما

يَرَى الْخُمْصَ[(٤)] تَعْذِيبًا وَإِنْ يَلْقَ شَبْعَةً ... يَبِتْ قَلْبُهُ مِنْ قِلَّةِ الهَمِّ مُبْهَما[(٥)]

ومن الناس من يكون مطلبه التمتع بمتاع الحياة الدنيا كحال طَرَفَة بن العبد، فقد قيل له: ما أطيب عيش الدنيا؟ فقال: «مطعمٌ شهيٌّ، وملبسٌ دفيٌّ، ومركب وطيٌّ»، وقال أيضًا مبينًا غايته من الحياة:

وَلولا ثَلاثٌ هُنَّ مِن عِيشَةِ الفتى ... وَجَدِّكَ[(٦)] لَمْ أحْفِلْ[(٧)] مَتَى قَامَ عُوَّدِي[(٨)]

---

(١) «أسلاك الجوهر» (ص١٩٥).

(٢) **لحاه**: قَبَّحَهُ.

(٣) **صعلوكًا**: فقيرًا.

(٤) **الخُمْص**: خلو البطن.

(٥) **مُبهمًا**: خاليًا.

(٦) **الجدُّ**: الحظ والبخت، وقوله: «وجَدِّك» قَسَم.

(٧) **لم أحفل**: لم أبالِ.

(٨) **عُوَّدي**: جمع عائد من العيادة للمريض.

فَمِنْهُنَّ سَبْقي العَاذِلاتِ[١] بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ[٢] مَتَى مَا تُعْلَ بالمْاء تُزْبِدِ[٣]

وَكَرِّي[٤] إذَا نَادَى المُضَافُ[٥] مُحَنَّبًا[٦] ... كَسِيدِ[٧] الْغَضَا[٨] نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ[٩]

وَتَقْصِيرُ[١٠] يَوْمِ الدجنِ[١١] وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ[١٢] تَحْتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ[١٣]

كثير من الناس همُّه من دنياه همُّ هذا الشاعر المسكين[١٤]، شَربة خمر، والتمتع بامرأة حسناء، وإغاثة المذعور المستجير[١٥]، ولولاها لم يبال بالمنية متى نزلت به.

---

(١) جمع عاذلة، **والعذل**: الملامة.

(٢) **الكميت**: اسم من أسماء الخمر فيها حمرة وسواد.

(٣) **الزَّبَد**: الرغوة.

(٤) **الكر**: العطف.

(٥) **المضاف**: المذعور الذي ضافته الهموم.

(٦) **المحنب**: الفرس الذى في ساقه انحناء.

(٧) **السِّيد**: الذئب، نوع من الذئاب هو أخبثها.

(٨) **الغضا**: الشجر.

(٩) **المتورد**: الذي ورد الماء.

(١٠) **قصَّرت الشيء**: جعلته قصيرًا.

(١١) **الدجن**: إلباس الغيم آفاق السماء.

(١٢) **البهكنة**: المرأة الحسنة الخَلْق السمينة.

(١٣) **المعمد**: المرفوع بالعمد.

(١٤) وقد اقتدى به أبو نواس فقال:

إنما العيش سماع ... ومدامٌ ونِدامُ

فإذا فاتك هذا ... فعلى العيش السلامُ

وهذا جميل بثينة شاعر قصر همته على ملاحقة النساء يجيب من أمره بالجهاد في سبيل الله:

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ ... وأي جهاد غيرهن أريدُ

لكل حديثٍ بينهن بشاشةٌ ... وكلُّ قتيل عندهن شهيدُ

(١٥) وهذا يُحمَد دون سائر ما ذكره.



وقد يكون مسعى الناس ومطلبهم أمورًا يعدُّ طالبها سامي الهمَّة عالي القصد كحال امريء القيس، عندما أفاق من سُكره وعبثه على زوال ملك أبيه، فانقلب جادًّا طالبًا إعادة هذا الملك:

فَلَوْ أنَّ مَا أسْعَى لأدْنَى مَعِيشَةٍ ... كَفَانِي وَلَمْ أطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أسْعَى لِمَجْدٍ مؤثَّلٍ ... وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ المؤَثَّلَ أمْثَالِي

ولقد طال تَطلابه للملك، حتى قضى نحبه في طلبه:

بَكَى صَاحِبي لَما رَأى الدَّرْبَ دونَهُ ... وَأيقَنَ أنَّا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا[(١)]

فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبكِ عَينُكَ إنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكًا أو نَمُوتَ فَنُعْذَرا

لقد ضيَّع حياته أولًا في المتع والشهوات، وقضى شطر عمره الثاني في طلب الملك الضائع، وانتهت حياته، ولم يحصِّل مطلوبه، ومات كما مات المتنبي من بعده، طلبا الملك والإمارة، فأعياهما الطلب) اهـ[(٢)].

وما أكثر الذين طلبوا الملك للرياسة، وألحوا في طلبه، فحامت حوله همتهم، وطافت به عزيمتهم: كان «الأبيوردي» يدعو عقب كل صلاة: «اللهم مَلِّكني مشارقَ الأرض ومغاربها»[(٣)]، وله في ذلك الأشعار الفائقة، التي تكشف عن شخصية ونفسية شديدة الشبه بشخصية المتنبي.

---

(١) يريد بصاحبه عمرو بن قميئة اليشكري، **والدرب**: ما بين بلاد العرب والعجم.

(٢) «مقاصد المكلفين» للدكتور عمر الأشقر (ص٣٦٦-٣٦٨) بتصرف، وهو من نفائس الكتب الجديرة بالمدارسة، لا يكاد يستغني عنه مسلم.

(٣) «فكر ومباحث» للشيخ علي الطنطاوي (ص١٩٦).

وقيل ليزيد بن المهلب: «ألا تبني دارًا؟»، فقال: «منزلي دار الإمارة أو الحبس».

وقال آخر:

وعِش مَلِكًا أو مُت كريمًا، وإن تَمُتْ وسيفُك مشهور بكفِّك تُعْذَرِ









أمم أمثالكم

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصارَ الأسد، ومنهم من يعدو عَدْوَ الذئب، ومنهم من ينبح نُباحَ الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو أُلقي إليها الطعامُ الطيب عافته، فإذا قام الرجلُ عن رجيعه وَلَغتْ فيه، فلذلك تجد من الآدميينَ من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدةً منها، وإن أخطأ رجل تروَّاه وحفظه»، قال الخطابي: «ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة! وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمُه مطاوِعًا لظاهره وَجَبَ المصيرُ إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخِلقة والصورة منعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفًا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق، وإذا كان الأمر كذلك، فاعلم أنك إنما تعاشرُ البهائمَ والسباعَ، فليكن حِذْرُك منهم، ومباعدتُك إياهم على حسب ذلك» انتهى كلامه[(١)].

(١) انظر: «شفاء العليل» (ص١٦٦، ١٦٧).

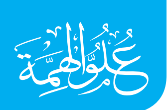


وقال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البَهْم أمورًا تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤] قال أبو جعفرٍ الباقر: «والله ما اقتصر على تشبيهِهِم بالأنعام حتى جعلهم أضلَّ سبيلًا منها»».

وقيل لرجل: من علَّمك اللَّجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: مَنْ علَّم الخنفساءَ إذا صعدت في الحائط تسقط ثم تصعدُ، ثم تسقط مرارًا عديدة حتى تستمر صاعدةً. وقيل لآخر: مَن علمك البكور في حوائجك أولَ النهار لا تخِلُّ به، قال: مَن علم الطير تغدو خِماصًا كل بُكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض. وقيل لآخر: مَن علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبتَ وثوبَ الأسد على فريسته؟ فقال: الذي عَلَّم الهِرَّةَ أن ترصد جُحرَ الفأرة فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرةُ وثبت عليها كالأسد. وقيل لآخر: من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: من علم أبا أيوب[1] صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمَّال وضربه، فالثِّقْلُ والكَلُّ على ظهره، ومرارةُ الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملء جوارحه، ولا يعدلُ به ذلك عن الصبر. وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علم

(١) أبو أيوب: كُنية الجَمَل، ويكنى أيضًا أبا صفوان.






الديك يصادفُ الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها فلا يأكلها بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلبًا حثيثًا حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها، وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وُضِع له الحَبُّ الكثير فَرَّقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج، لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يَستبِدَّ وحدَه بالطعام.

... ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسةِ غيره لم يدنُ منها ولو جهده الجوع» اهـ[١].

وعن فارس الإسلام أحمد بن إسحاق السرماري قال: «ينبغي لقائد الغزاة أن يكون فيه عشر خصال: أن يكون في قلب الأسد: لا يَجْبُنُ، وفي كبر النمر: لا يتواضع، وفي شجاعة الدب: يقتل بجوارحه كلها، وفي حملة الخنزير: لا يولي دبره، وفي غارة الذئب: إذا أيس من وجهٍ أغار من وجه، وفي حمل السلاح كالنملة: تحمل أكثر من وزنها، وفي الثبات كالصخر، وفي الصبر كالحمار، وفي الوقاحة كالكلب: لو دخل صيدُه النارَ لدخل خلفه، وفي التماس الفرصة كالدِّيك»[٢].





(١) من «شفاء العليل» (ص١٦٢، ١٦٣) بتصرف.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٧، ٣٨).





تَفاوتُ الهِممِ حَتَّى بَين الحيوانات

تتفاوت الهمم في جميع الحيوانات:

فالعنكبوت من حين يولد ينسج لنفسه بيتًا، ولا يقبل مِنَّة الأم، والحية تطلب ما حفر غيرها، إذ طبعها الظلم، والغراب يتبع الجيف، والصقر لا يقع إلا على الحيِّ، والأسد لا يأكل البايت، ولا يعمل لغيره، لعلو همته، والدب لا يعمل لغيره لخساسته، والفيل يتملق حتى يأكل، والخنفساء تُطردُ فتعود، وإذا دُفِنت في الورد لم تتحرك، وإذا أعيدت إلى الرَّوْثِ رَتَعَتْ.

قال المُتَلَمِّس:

إن الهـوانَ حِمـارُ البيت يَألفه	**والحُـرُّ يُنـكِره والفـيلُ والأسَـدُ**
ولا يُـقيـم بـدارِ الـذلِّ يألفها	**إلا الـذليلان عَـيرُ الحـي والوتدُ**
هذا على الخَسْف مربوط بِرُمَّتِهِ	**وذا يُشَجُّ فما يأوِي[١] له أحدُ[٢]**





(١) يأوي: يرق.
(٢) «بهجة المجالس وأنس المجالس» (١/ ٢٣٨).

تَفَاضُل الناس بِتفاوت هِمَمِهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤].

والهمة رزق من الله عَزَّوَجَلَّ، والله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ومن حكمته سبحانه أنْ فاضَلَ بين خلقه في قواهم العملية، كما فاضل بينهم في قواهم العلمية.

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وتعظم في عين الصغير صغارُها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

آخر:

إذا صَحَّ عزم المرء فالبحرُ ضَحْضَحٌ ... وإن خارَ فالنَّضْحُ اليسيرُ عُبابُ[(١)]

آخر:

تالله ما جئتكم زائرًا ... إلا وجدتُ الأرض تُطوى لي

ولا انثنى عزمي عن بابكم ... إلا تعثَّرتُ بأذيالي

اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك ابن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: «تمنَّوا»، فقالوا: «ابدأ أنت»، فقال: «وِلاية العراق، وتزوُّج سُكَينة ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله»،

---

(١) **ماء ضحضاح**: قريب القعر، **خار يخور خَوَرًا**: ضَعُفَ.
والنضح: الرش اليسير، **والعُباب**: مُعظَم السيل، **والعُبُب**: المياه المتدفقة.

فنال ذلك، وأصدق كل واحدة خمسمائة ألف درهم، وجهَّزها بمثلها، وتمنى عروة ابن الزبير الفقه، وأن يُحمل عنه الحديثُ، فنال ذلك، وتمنى عبد الملك الخلافة، فنالها، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة.

وقال العلاء بن زياد: «لو كنت متمنيًا لتمنيتُ فقهَ الحسن، وورع ابنِ سيرين، وصوابَ مُطَرِّف».

ويدل على تفاوت الهمم أن من الناس من ينشط للسهر في سماع سمر، ولا يسهل عليه السهر في سماع القرآن الكريم، ومنهم من يحفظ بعض القرآن، ولا يتوق إلى التمام، ومنهم من يعرف قليلًا من الفقه، ومنهم قنوع بصلاة ركعتين في الليل، ومنهم من يطلب معالي الأمور، دون أن تكون له إرادة وسعي في تحقيقها، فهذا مغتر بالأماني الكاذبة:

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

وما استعصى على قوم منال ... إذا الإقدام كان لهم ركابا

ولو علت بهم الهمم لجدَّت في تحصيل كل الفضائل، ونَبَتْ عن النقص، فاستخدمت البدن، كما قال الشاعر:

ولكل جسم في النُّحول بَلِيَّةٌ ... وبلاءُ جسمي من تفاوت همتي

وقال المتنبي:

وإذا النفوس كُنَّ كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسامُ

آخر:

إذا ما علا المرء رام العُلا ... ويقنع بالدون من كان دُونا



آخر:

وقـائـلـةٍ: لِمْ غـيرتْـكَ الهـمومُ　　وأمــرك ممـتـثَـل في الأمَــمْ

فـقـلـتُ: ذريــني عـلـى غُـصَّـتي　　فـإن الهـمـومَ بـقـدر الهِـمَـمْ

لما ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخلافة خيَّر امرأته «فاطمة» بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت، وبكى جواريها لبكائها، فسُمِعَتْ ضجة في داره، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رَحِمَهَا ٱللَّهُ.

وقال له رجل: «تَفَرَّغ لنا يا أمير المؤمنين»، فأنشأ يقول:

قــد جــاء شــغــلٌ شـاغـل　　وعـدلْـت عـن طـرق الـسـلامـهْ

ذهــب الـــفـــراغ فـــلا فـــرا　　غَ لـنـا إلى يـوم الـقـيـامـهْ

قال سفيان الثوري: «إني أدخِلتُ على المهدي، فقلت له: انظر إلى عمر بن الخطاب، فقال: عمر كان له أصحاب، فقلت: فعمر بن عبد العزيز، فقد كان في فتنة وفيها كان فيه، فما تكلَّم بشيء إلا صار سُنَّة، فقال: إن لم أُطِق؟ فقلت: اجلس في بيتك».

وقال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الجسم يُذيبه حقوقُ الخِدمَهْ　　والـقـلـب عـذابـه عـلـوُّ الهـمـهْ

والـعـمـر بـذاك ينقضى في تعب　　والـراحـة ماتت فعليها الرحمهْ

وقال العلامة محمد الخضر حسين:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى　　لفتَّشتُ عن وادٍ أعيش به وحدي

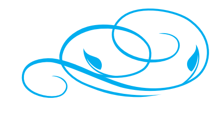




وقال أيضًا:

أنـــا لـــولا هـــمـــةٌ تحـــدو إلى خـدمـة الإسـلام آثـرتُ الحِماما

وصدق من قال: «إن العظائم كُفْؤُها العظماء».









تهذيبي في تعذيبي

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ابتُلِي الإنسان قط بأعظم من علو همته. فإن من علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعده الزمان، وقد تضعف الآلة، فيبقى في عذاب.

وإني أعطيت من علو الهمة طرفًا فأنا به في عذاب، ولا أقول ليته لم يكن، فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل.

ولقد رأيت أقوامًا يصفون علوّ هممهم، فتأملتها فإذا بها في فن واحد. ولا يبالون بالنقص فيما هو أهم، قال الرضي:

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي

فنظرت فإذا غايةُ أمله الإمارة.

وكان أبو مسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك فقال: ذهن صاف، وهم بعيد، ونفس تتوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهَمَجِ الرَّعاع.

قيل: فما الذي يبرد غليلك. قال: الظفر بالملك.

قيل: فاطلبه، قال: لا يطلب إلا بالأهوال.

قيل: فاركب الأهوال، قال: العقل مانع.



قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلي جهلًا، وأحاول به خطرًا لا يُنال إلا بالجهل، وأدبر بالعقل ما لا يُحفظ إلا به، فإن الخمول أخو العدم.

فنظرت إلى حال هذا المسكين فإذا هو قد ضَيَّعَ أهم المهمات وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الوِلايات. فكم فتك وقتل؟ حتى نال بعضَ مراده من لذات الدنيا،

ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين.

ثم اغتيل، ونسي تدبير العقل، فقتل، ومضى إلى الآخرة على أقبح حال.

وكان المتنبي يقول:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه	ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلبًا -بين جنبيَّ- ما له	مدى ينتهي بي في مراد أحدُّه
يرى جسمه يكسى شفوفًا تربُّه	فيختار أن يكسى دروعًا تهدُّه

فتأملت هذا الآخَر فإذا نهمته فيما يتعلق بالدنيا فحسب.

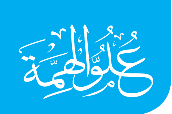
ونظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبًا، وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصل إليه، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونها.

وأريد استقصاء كل فن، هذا أمر يعجز العمر عن بعضه.

فإن عرض لي ذو همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصًا في غيره. فلا أعد همته تامة.

مثل المحدث فاته الفقه. والفقيه فاته علم الحديث. فلا أرى الرضى بنقصان من العلوم إلا حادثًا عن نقص الهمة.







ثم إني أروم نهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بِشر، وزهادة معروف، وهذا -مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتهم- بعيد.

ثم إني أروم الغنى عن الخلق، وأستشرف الإفضال عليهم، والاشتغال بالعلم مانع من الكسب. وقبول المنن مما تأباه الهمة العالية.

ثم إني أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، ليبقى الخَلَفان نائبين عني بعد التلف. وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد.

ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال، ثم لو حصل فَرَّقَ جمعَ الهمة.

وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود للترفه واللطف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمع بين أضداد.

فأين أنا وما وصفته من حال مَن كانت غاية همته الدنيا.

وأنا لا أحب أن يخدِش حصولُ شيء من الدنيا وَجْهَ ديني بسبب.

ولا أن يؤثر في علمي ولا في عملي.

فواقلقي من طلب قيام الليل، وتحقيق الورع مع إعادة العلم، وشغل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم.

وواأسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم.

ويا كدر الورع مع طلب ما لابد منه للعائلة.



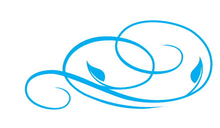




غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تهذيبي في تعذيبي، لأن علو الهمة تَطَلُّبُ المعالي المقربة إلى الحق عَزَّوَجَلَّ.

وربما كانت الحيرة في الطلب دليلًا إلى المقصود. وها أَنَذا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نفس في غير فائدة.

وإن بلغ همي مراده؛ وإلا فنية المؤمن أبلغ من عمله»[1] اهـ.





(١) بنصه من «صيد الخاطر» (ص٢٧٩-٢٨٢).

البَابُ الثَّانِي

خصائصُ كبِير الهِمة





خصائصُ كبِير الهِمة

يَا عَالي الهِمَّة بِقَدرِمَا تتعَنَّى، تنالُ مَا تتمنى

إن عالي الهمة يجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته، وتحقيق بغيته، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره، وأن المصالح والخيرات، واللذات والكمالات كلها لا تُنال إلا بحظ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا على جسر من التعب:

بَصُرتُ بالراحة الكبرى فلم أرها … تُنال إلا على جسر من التعبِ

آخر:

فقل لِمُرَجِّي معالي الأمور … بغير اجتهاد: رجوتَ المحالا

آخر:

لا يُدرِك المجدَ إلا سيدٌ فَطِنٌ … لِما يشقُّ على الساداتِ فَعَّالُ

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلهمُ … الجودُ يُفقِرُ، والإقدامُ قَتَّالُ

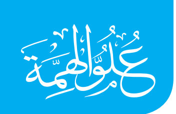
آخر:

والذي يركب بحرًا سيرى … قُحَمَ الأهوالِ من بعدِ قُحَمْ

آخر:

لا يَمْتَطِي المجدَ من لم يركب الخَطَرا … ولا ينالُ العُلا مَنْ قدَّم الحَذرا






آخر:

الـذل في دَعَـة الـنـفـوس ولا أرى ... عِـزَّ المعيشة دون أن يُـشْـقـىَ لها

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طلب الراحة للرجال غفلة».

وكان أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصوم حتى يعود كالخِلال -العود الذي يُخَلَّلُ به الأسنان- فقيل له: «لو أجْمَمْتَ نفسك؟» -أي: تركتها تستريح- فقال: «هيهات! إنما يسبق من الخيل المُضَمَّرة».

وقد قيل: من طلب الراحة، ترك الراحة.

فـيـا وصـلَ الـحـبـيـبِ أمـا إليه ... بـغـير مـشـقـةٍ أبـــدًا طـريـقُ

إن مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل:

لأستسهلنَّ الصعْبَ أو أبلغَ المنى ... فما انـقـادتِ الآمـالُ إلا لصابرِ

آخر:

الـصبرُ مـثـلُ اسمِـه مُـرٌّ مَذَاقَتُه ... لـكنْ عـواقِبُـه أحـلـى مـن العسلِ

آخر:

تـعـبٌ كـلـهـا الـحـيـاة فـمـا أعجبُ ... إلا مِــن راغـــبٍ في ازديـــادِ

عاش الأمير الهمام البطل أسامة بن منقذ حياة طويلة عامرة بالجهاد مليئة بالهموم، لخصَّها في هذا البيت البليغ:

وإذا عَــدَدْتُ سِـنِـيَّ ثـم نَقَصْتُها ... زمنَ الهُموم فتلك ساعةُ مولدِي[1]

---

(١) مقدمة «لباب الآداب» (ص٢٧).





قال الإمام المحقق رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة، فاتته الراحة، وأنَّ بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هَمَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلًا، استراح طويلًا، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة؛ قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله.

وكلما كانت النفوس أشرف، والهمة أعلى، كان تعب البدن أوفر، وحظه من الراحة أقل، كما قال المتنبي:

وإذا النفوسُ كُنَّ كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسامُ

وقال ابن الرومي:

قلب يظل على أفكاره ويَدٌ ... تُمْضِي الأمورَ ونفسٌ لهوُها التعَبُ

وقال البارودي:

سِواي بتَحْنانِ الأغاريدِ يَطربُ ... وغيري باللذاتِ يلهو ويُعجَبُ

وما أنا ممن تأسِرُ الخمرُ لبَّه ... ويملك سَمْعَيْهِ اليَرَاعُ المُثَقَّبُ

ولكن أخو هَمٍّ إذا ما ترجَّحَتْ ... به سَورةٌ نحوَ العُلا راح يدأب

نفى النومَ عن عينيه نفسٌ أبيةٌ ... لها بين أطرافِ الأسنةِ مَطلب

وقال مسلم في (صحيحه): قال يحيى بن أبي كثير: «لا يُنال العلم براحة البدن».



ولا ريب عند كل عاقل أن كمال الراحة بحسب التعب، وكمال النعيم بحسب تحمل المشاق في طريقه، وإنما تخلص الراحة واللذة والنعيم في دار السلام، فأما في هذه الدار فكلا ولَمَّا)[١] اهـ.

لَعَمْرُكَ ليس يُدْرَكُ بالتواني ... ولا بالعجزِ غاياتُ الأماني

قال الصديق أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «والله ما نمتُ فحلمت، ولا توهَّمتُ فسهوت، وإني لعلى السبيل ما زغتُ»، أي: شغلته حروب الردة والفتوح وإرساء جهاز دولة الخلافة إلى حَدٍّ أنه لا يتسنى له أن يستغرق في نومه، ولا يتاح له أن يحلم.

وقالت فاطمة بنت عبد الملك في أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استُخلِف».

وقال الإمام أحمد لابنه في المحنة: «يا بني! لقد أعطيتُ المجهودَ من نفسي».

وقال الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كبير الهمة دومًا في عناء، وهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضي، وتعب لا يفرغ: لأن من علت همته وكبرت؛ طلب العلوم كلها، ولم تقتصر همته على بعضها، وطلب من كل علم نهايته، وهذا لا يحتمله البدن، ثم يرى أن المراد العمل فيجتهد في قيام الليل، وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب، ثم يرى ترك الدنيا، ويحتاج إلى ما لا بد منه، ويحب الإيثار، ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرمُ البذل، وتمنعه عزة النفس من الكسب من وجوه التبذل، فإن هو جرى على

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص٣٦٦، ٣٦٧).

طبعه من الكرم احتاج وافتقر، وتأثر بدنه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك، ولكن تعب العالي الهمة راحة في المعنى، وراحة القصير الهمة تعب وشَيْن إن كان ثمة فهم» اهـ[١]. ومصداقه في قول عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر:

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... ويقصُر دونَ مبلغِهن حالي
فنفسي لا تطاوعُني ببخلٍ ... ومالي لا يُبَلِّغُني فِعالي

وقال ابن العماد الأصفهاني:

وما هذه الأيام إلا صحائف ... نُؤَرِّخُ فيها ثم تُمحى وتُمحَقُ
ولم أرَ في دهري كدائرةِ المُنَى ... تُوَسِّعُها الآمال والعُمْرُ ضَيِّقُ

وقيل للربيع بن خثيم: «لو أرحتَ نفسك؟»، قال: «راحتَها أريد».

وربما كان مكروه النفوس إلى ... محبوبها سببًا ما مثله سببُ

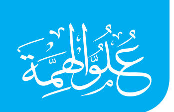
آخر:

صحب الله راكبين إلى العز ... طريقًا من المخافة وَعْرا
شربوا الموت في الكريهة حُلوًا ... خوفَ أن يشربوا من الضَّيْمِ مُرَّا

قال الحسن: «القلب الذي يُحِبُّ الله يُحِبُّ التعب، ويؤثر النصَب، هيهات لا ينال الجنة من يؤثر الراحة، من أحبَّ ما عند الله سخا بنفسه إن صدق وترك الأماني، فإنها سلاح النَّوْكَى».



(١) راجع: «تهذيبي في تعذيبي» (ص ٦٠).





وقال أحمد بن داود أبو سعيد الواسطي:

دخلت على أحمد الحبس قبل الضرب، فقلت له في بعض كلامي: «يا أبا عبد الله! عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور» -كأني أسهِّل عليه الإجابة- فقال لي أحمد بن حنبل: «إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد، فقد استرحتَ».

وقال محمد بن حسنويه: حضرت أبا عبد الله أحمد بن حنبل وجاءه رجل من أهل خراسان فقال: «يا أبا عبد الله قصدتك من خراسان، أسألك عن مسألة»، قال له: سل، قال: «متى يجد العبد طعم الراحة؟»، فقال: «عند أوَّلِ قدمٍ يضعها في الجنة».

أحزان قلبي لا تزولْ ... حتى أبشر بالقَبولْ
وأرى كتابي باليمين ... وتُسَرَّ عيني بالرسول

وقال القسطلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما تنال المطالب على قدر همة الطالب، وإنما تدرك المقاصد على قدر عناء القاصد».

وقال الأمير شمس المعالي قابوس: «ابتناء المناقب باحتمال المتاعب، وإحراز الذكر الجميل بالسعي في الخطب الجليل».

ونحن أناس لا توسط عندنا ... لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ
تهون علينا في المعالي نفوسُنا ... ومن خطب الحسناء لم يُغْلِه المهرُ

وقيل لبعض العلماء: «ما هي وصيتك إذا حضرتك الوفاة؟»، فقال: «هي تكرار المبدأ الذي وضعته لأولادي: النجاح لا ينفعنا، بل ينفعنا الامتيازُ في النجاح».



وقال أحدهم لما عوتب لشدة اجتهاده: «إن الدنيا كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، ولا أحب أن أُغبَنَ أيامي».

بقدر الكدِّ تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

تروم العزَّ ثم تنام ليلا ... يغوص البحرَ من طلب اللآلي

وقال أبو فراس الحمداني:

إني أبيتُ قليلَ النوم أرَّقني ... قلبٌ تَصارعَ فيه الهَمُّ والهِمَمُ

آخر:

انفضوا النوم وهُبُّوا للعلا ... فالعُلا وَقْفٌ على مَن لم ينم

فالصلاةُ خير من النوم، والتجلُّد خير من التبلُّد، والمنية خير من الدنية، ومن عَزَّ بَزَّ:

فثِبْ وثبةً فيها المنايا أو المنى ... فكل محبٍّ للحياة ذليلُ

فترى عالي الهمة منطلقًا بثقة وقوة وإقدام نحو غايته التي حددها على بصيرة وعلم، فيقتحم الأهوال، ويستهين بالصعاب، قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عليكم بكل أمرٍ مَزْلَقة مَهْلَكَة» أي: عليكم بجسام الأمور دون خسائسها.

وقال أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من طلب عظيمًا، خاطر بعظيمته».

ذريني وأهوالَ الزمان أُعانِها ... فأهوالُها العظمى تليها رغائبه

وقال كعب بن زهير:

وليس لمن لم يركب الهولَ بُغْيَةٌ ... وليس لِرَحْلٍ حَطَّه اللهُ حامِلُ

وأتعبُ الناس: مَن جَلَّتْ مطالبُه.







ذريـني أنـل مـا لا يُنـال مـن العُلا ... فصعب العلا في الصعب، والسهلُ في السهلِ
تـريـديـن إدراكَ المعـالـي رخيصة ... ولابُدَّ دون الشَّهْدِ مِن إبر النحْلِ

وقال الشريف الرضي:

رُمْـتُ المعـالـيَ فامتنعن ولم يزل ... أبــدًا يُمــانِــعُ عــاشـقًـا معشوقُ
وصــبرتُ حـتـى نِـلْـتُـهـن ولم أقل ... ضَجَرًا: دواءُ الفاركِ[(١)] التطليقُ

آخر:

دببتُ للمجدِ والساعون قد بلغوا ... جهد النفوس وألقوا دونه الأُزرا
وكابروا المجدَ حتى ملَّ أكثرهم ... وعانق المجدَ من أوفى ومن صبرا
لا تحسبن المجَد تَمْـرا أنـت آكِلُه ... لن تبلـغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا



(١) **الفِرك**: هو بغض أحد الزوجين الآخر.





كبير الهمة وطنُه حيث يحقق وَطَره

وعالي الهمة دائم الترحال في طلب مبتغاه:

حتى متى أنا في حَلٍّ وتَرحالِ ... وطولِ سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ

ونازحُ الدار لا أنفك مغتربًا ... عن الأحبةِ لا يدرون ما حالي

وقال القاضي عبد الوهاب:

أطال بَيْنَ الديارِ تَرْحالي ... قصورُ مالي وطول آمالي

إن بِتُّ في بلدةٍ مشيتُ إلى ... أخرى فما تستقر أجمالي[1]

كأنني فِكْرةُ الموَسْوِسِ لا ... تبقى له ساعةً على حالِ

وقال العباس بن الأحنف:

سألونا عن حالنا كيف أنتم ... فَقَرنَّا وداعَهم بالسؤالِ

ما حللنا حتى ارتحلنا فما نفـ ... ـرقُ بين النزول والتَّرحالِ

آخر:

هِمَمٌ تقاذفتِ الخطوبُ بها ... فهُرِعْن من بلدٍ إلى بلدِ

آخر:

إذا لم أجد في بلدة ما أريده ... فعندي لأخرى عَزْمَةٌ ورِكابُ



---

(١) جَمَل: جمعه أَجْمال وأَجْمُل وجِمال.





وقال مالك بن الرَّيْب:

وفي الأرض عن دار المذلة مذهبٌ ... وكلُّ بلادٍ أُوْطِنَتْ كبلادي

آخر:

سأضرب في طولِ البلاد وعرْضِها ... أنالَ مُرادي أو أموتَ غريبا

فإن تَلِفَتْ نفسي فللَّهِ دَرُّها ... وإن سَلِمْتَ كان الرجوعُ قريبا

وقال المتنبي:

وإني لَنَجمٌ تهتدي بي صُحبتي ... إذا حال مِن دونِ النجوم سحابُ

غَنيٌّ عن الأوطانِ لا يستفزني ... إلى بلدٍ سافرتُ عنه إيابُ(١)

ومما ينسب إلى أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائدِ

تَفَرُّجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجِدِ

فإن قيل في الأسفار ذل ومحنة ... وقطع الفيافي وارتكاب الشدائد

فموت الفتى خير له من قيامه ... بدارِ هوانٍ بين واشٍ وحاسدِ

ومن دُرر الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ما في المقام لذي عقل وذي أدبِ ... من راحة فدع الأوطان واغتربِ

سافر تجد عوضًا عمن تفارقه ... وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب



---

(١) يريد أنه لا يعشق الأوطان، وأن جميع البلاد عنده سواء، فإذا سافر عن وطن لم يُشَوِّقْه الإياب إلى ذلك الوطن، لأنه مستغنٍ بالسفر عن الوطن، لأنه شريف الخصال، مشهور الحال، فحيث حلَّ فهو جليل القدر، وحيث كان فهو رفيع الذكر.



والأسد لولا فراق الأرض ما افترست	والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة	لملَّها الناس من عُجم ومن عَرَب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت	إليه في كل حين عينُ مرتقب
والتِّبْرُ كالتُّربِ مُلقًى في أماكنه	والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه	وإن تغرب ذاك عَزَّ كالذهبِ

وفي معناه قال العلامة ابن الطيب الفاسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدح السفر:

سافر إلى نيل المعزة	إن في السفر الظفرْ
وانفر لنيل المجد فيـ	ـمن للمعالي قد نفر
واعلم بأن المكث في الـ	أوطان يدعو للضجر
ويُوَرِّث الأخلاط والأ	جسام أنواع الضرر
أوَما رأيت المال لطول	المكث يعلوه الوضر[1]
والبدر لو لزم الإقا	مة في محل ما بدر
والدر لو أبقوه في	قعر البحار لما افتخر
والتِّبْرُ ترب في المعا	دن وهو أفخر مدخر
والعود معدود لدى الـ	غابات من جنس الشجر
والباتر المغمود لو	لم يخرجوه لما بتر
فادأب على الترحال في الـ	أحوال أجمعها تسر
واعلم بأن البعد عن	وطن به تم الوطر[2]

(١) **الوضر**: الدرن والدسم، قال ابن سيده: الوضر: وسخ الدسم واللبن وغُسالة السقاء والقصعة، وقيل: هو بمعنى الوسخ الأخضر الذي يعلو الماء الراكد في البرك ونحوها.

(٢) «المختار المصون من أعلام القرون» (٢/ ١٣٤٢).



ولا يزال يطير إلى المعالي بجناح الهمة، لا يلوي على شيء، ولا يستفزه لوم اللائمين، ولا تثبيط القاعدين:

سبقتُ العالَمين إلى المعالي ... بصائب فكرة وعلوِّ هِمَّهْ

ولاح بحكمتي نور الهدى في ... ليالٍ للضلالة مُدْلهمهْ

يريد الجاهلون ليطفئوه ... ويأبى الله إلا أنْ يُتِمَّهْ

وقال الشماخ بن ضرار في عرابة الأوسي:

رأيتُ عُرابةَ الأوسيَّ يسمو ... إلى الخيراتِ مُنقطِعَ القرينِ

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ ... تلقَّاها عُرابةُ باليمينِ

وقال ابن نُباتة السعدي:

أعاذلتي على إتعاب نفسي ... ورعيي في الدجى روضَ السهادِ

إذا شام الفتى برقَ المعالي ... فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقاد

آخر:

يُعنِّفُني في بغيتي رتبةَ العُلى ... جهول أراه راكبًا غيرَ مركبي

ومن أراد الجنة سلعةَ الله الغالية؛ لم يلتفت إلى لوم لائم، ولا عَذْلِ عاذل، ومضى يكدح في السعي لها: قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩] وقال ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(١)، وقدر السلعة يُعرف بقدر مشتريها، والثمن المبذول فيها، والمنادي عليها، فإذا كان

(١) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب»، والحاكم، وصححه، وأقره الذهبي.

المشتري عظيمًا، والثمن خطيرًا، والمنادي جليلًا؛ كانت السلعة نفيسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

قال الشاعر على لسان إحدى الحور العين:

أنت يا مفتونُ دَوْمًا	في الدُّنا ثم المنامْ
فدعِ النومَ وبادرْ	مثلَ فِعلِ المُسْتَهام
وابكِ بالوَجْدِ دَوامًا	بدموعٍ وانسجام
ثم نُحْ يا ذا كثيرًا	في نهارٍ وظلام
أيها اللائمُ دعني	لستُ أصغي للمَلام
في عروس قد تبدَّتْ	فاقت البدرَ التمام
طرفُها يرشُقُ باللَّحْظِ	مُصيبًا كالسِّهام
ولها صُدْغٌ مُنيرٌ	مثل نونٍ تحت لام
أحسنُ الأتراب قَدًّا	في اعتدالٍ وقَوام
مَهْرُها أن قامَ ليلًا	وهْوَ باكٍ في الظلام(١)





(١) «فتوح الشام» للواقدي (٢/ ٥٧) ط. المكتبة الشعبية – بيروت.

عَليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراكُ النجاح

إن الداعية العالي الهمة يتمثل دومًا قول الصالحين قبله: ﴿ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٤]، فإن لم يستطع الدعاة تحقيق كل غاياتهم فحسبهم أنهم كانوا كما قال صاحب (الظلال) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا: عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم، ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر، لا شأن الأجير»[(١)]، وحسبهم أن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان والثلاثة، وقد يأتي نبي وليس معه أحد، قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ ﴾ الآية [البقرة:٢٧٢].

قد لا يتسنى لمن يروم المعاليَ إدراك بغيته، وتحقيقُ غايته لأمور خارجة عن إرادته، فلا يفل ذلك من عزيمته، ولا يحط من همته، بل يُعزِّي نفسه أنه أدَّى ما عليه، وأعذر إلى نفسه.

قال الشاعر:

عَجِبْتُ لهم قالوا: تماديت في المنى	وفي المثُلِ العُليا، وفي المرتقى الصعبِ
فاقصر، ولا تُجْهِدْ يراعَك إنما	ستبذر حَبًّا في ثَرًى ليس بالخِصْبِ

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٤٣٩).



فقلت لهم: مهلًا، فما اليأس شيمتي | سأبذر حَبي، والثمارُ من الربِّ
إذا أنا أبلغت الرسالة جاهدًا | ولم أجد السمع المجيب فما ذنبي

قال الطائي:

ورَكْبٍ كأطرافِ الأسِنَّة عرَّسوا | على مثلها، والليل تسطو غياهِبُهْ
لأمرٍ عليهم أن تتم صدورُه | وليس عليهم أن تتمَّ عواقبه

وقال آخر:

سأضرب في طول البلاد وعرضها | أنال مرادي أو أموت غريبا
فإن تلفت نفسي فلله دَرُّها | وإن سلمت كان الرجوع قريبا

آخر:

فانهض إلى ذِروة العلياء مُبتدرا | عزمًا لترقى مكانا دونه زُحَلُ
فإن ظفرت فقد جاوزت مكرمة | بقاؤها ببقاء الله متصل
وإن قضيتَ بهم وَجْدًا فأحسن ما | يُقال عنك قضى من وَجدِه الرجلُ

وقال عنترة:

دعوني أجدُّ السعي في طلب العلا | فأدركَ سُؤْلي أو أموتَ فأُعذَرا

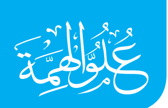
وقال عروة بن الورد العبسي:

ومن يك مثلي ذا عِيالٍ ومُقْترا | من المالِ يطْرَح نفسه كل مطرحِ[1]
ليبلغ عُذْرًا أو يصيبَ رغيبةً | ومُبْلِغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنْجِحِ[2]



(١) أي من يك مثلي مُعيلًا مقترًا: أي فقيرًا يطرح نفسه في كل بلاء ومشقة.

(٢) ليبلغ عذرًا: أي ليقيم لنفسه عذرًا، فلا يُنسب إلى الكسل، أو يصيب رغيبة: أي ينال مالًا، والمُنْجِح: الغانم. والمعنى: أنه إما أن ينال عذرًا أو حظًّا من المال، ومن أبلغ نفسًا عُذرها تخلصًا من الكسل والجبن، فهو كمن نجح في سعيه.




وقال سليمان بن عبد الملك -أو غيره من أهل بيته-: «ما لمت نفسي على فوت أمر بدأته بحزم، ولا حمدتها على درك أمر بدأته بعجز»(١).

إن النجاح في إنشاء إرادة الإنجاز في الابتداء، دليل على إمكان الإنجاز في الانتهاء، قال الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البدء في تحقيق الشيء العسير حسبه أن يثبت معنى الإمكان فيه».

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، وما لم يستعجل**»، قيل: وما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أر يُسْتجابُ لي، فيستحسر عند ذلك، ويَدَعُ الدعاءَ**»(٢).

قال شيخ الأزهر الأسبق العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخَطَلُ أن ينزع الرجل إلى خصلة شريفة، حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة انصرف عنها جملة، والتحق بالطائفة التي ليس لها في هذه الخصلة من نصيب.

---

(١) «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي (٣/ ٢٢١).

(٢) رواه مسلم والترمذي.

ومعنى يستحسر: ينقطع.

ودعوة المؤمن لا ترد، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية [غافر:٦٠]. وهي إما أن تُعجَّل له الإجابة، وإما أن تدفع عنه من السوء مثلها، وإما أن يُدَّخَرَ له في الآخرة خير مما سأل، فينبغي للمؤمن أن لا يترك الطلب من ربه فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض. فمن موانع الإجابة الاستعجال، الذي يترتب عليه أنه يسأم، فيترك الدعاء، فيكون كالمانِّ بدعائه، أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة، فيصير كالمُبَخِّل ربَّه الكريم الذي لا تعجزه الإجابة، ولا ينقصه العطاء.







والذي يوافق الحكمة، ويقتضيه حق التعاون في سعادة الجماعة أن يذهب في همه إلى الغايات البعيدة، ثم يسعى لها سعيها، ولا يقف دون النهاية إلا حيث ينفذه جهده، ولا يهتدي للمزيد على ما فعل سبيلًا»[(١)].

إن من الخصائص السلوكية للشخصية السوية: مستوى الطموح، «وهو أن يضع الشخصُ نُصْبَ عينيه مستويات يسعى إليها، حتى لو كانت في بعض الأحيان بعيدة المنال، فالتوافق المتكامل ليس معناه تحقيق الكمال، بل معناه الجهاد والعمل المستمر طبقًا لخير ما يمكن أن يتصوره من مبادئ»[(٢)].





---

(١) «رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٧).

(٢) «علم النفس الديني» للدكتور رشاد موسى وآخرين (ص٣٣٠).





كبير الهمة لا ينقض عزمه
وإذا مضى لا يلتفت خلفه

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا عزمت فبادر ولا تتأخر، وتوكل على الله؛ لأن للتأخر آفاتٍ، والتردد يضيع الأوقات»[(١)].

إن القائد الذي يملك زمام حياته، أو يقود غيره بحزم وعزيمة إذا قرَّر أمرًا فيه رشد، لا يُسرع بنقضه، بل يثبت عليه، ويمضي قُدُمًا نحو هدفه إلى أن ينجزه بحول الله وقوته، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ الآية [النحل:٩٢].

وامتدح سبحانه الصالحين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٣].

وفي البخاري أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وضع زوجه هاجر وابنه إسماعيل في وادٍ لا زرع فيه، ولا أنيس، وانصرف، فنادته هاجر: «يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا

(١) «التحرير والتنوير» (٣/ ٢٦٥).



في هذا الوادي الذي لا أُنس فيه ولا شيء؟»، فلم يرد عليها، ولم يلتفت إليها حتى قالت له: «آلله الذي أمرك بهذا؟»، قال: نعم، قالت: «إذن لا يضيعنا».

وقال تعالى لنبيه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر:٦٥].

ولما أشار الشباب على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل غزوة أحد - بالخروج إلى المشركين ومقاتلتهم خارج المدينة، نزل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأيهم، وبعد أن صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين، دخل إلى منزله، فتدجج بسلاحه، فظاهر بين درعين، ثم خرج على قومه بكامل عدته الحربية، وأذن فيهم بالخروج إلى العدو، وكان ذوو الرأي قد ندموا حين شعروا أنهم استكرهوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على اتباع خطة لمقاتلة العدو، كان يُفَضِّل غيرها، فقالوا له: «ما كان لنا أن نخالفك، ولا نستكرهك على الخروج، فاصنع ما شئت، امكث كما أمرتنا»، فلم يرض أن ينقض همته، وقال لهم مصممًا على الخروج: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأْمَتَه أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**» الحديث(١).



(١) رواه البخاري معلقًا (١٣/ ٣٤٠)، قال في كتاب «الاعتصام»، باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، قال: وشاور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته، وعزم، قالوا: أَقِمْ، فلم يَمِلْ إليهم بعد العزم، وقال: «**لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله**»، ورواه -موصولًا- الإمام أحمد (٣/ ٣٥١)، والدارمي (٢/ ١٢٩)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» اهـ. من «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٧).
واللأْمَة: هي الدرع، وقيل: الأداة، وهي الآلة من دِرع وبيضة وغيرهما من السلاح، **واستلأم للقتال**: إذا لبس سلاحه كاملًا.



وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم خيبر: «**لأُعطينَّ هذه الرايةَ**[١] [**غدًا**] **رَجُلًا يحبُّ الله ورسولَه، [ويحبه الله ورسوله]، يفتح الله على يديه**»، [فبات الناس يَدُوكون -يعني: يخوضون- ليلَهم أيهم يُعطى]، قال عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما أحْبَبْتُ الإمارة إلا يومئذ»، قال: فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدْعَى لها، [فلما أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَوْا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يرجون أن يُعطاها] فدعا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ ابنَ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأعطاه إياها، وقال: «**امْشِ، ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك**»، قال: فسار عليٌّ شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: «يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟» قال: «**قاتِلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فإذا فعلوا ذلك، فقد مَنَعُوا منكَ دِمَاءهم وأَموالَهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله**»[٢].

وروى مسلم بسنده أن فقيمًا اللخمي قال لعقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تختلف بين هذين الغرضين وأنت كبير يَشُقُّ عليك؟»، قال عقبة: لولا كلام سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم أُعَانِهِ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من عَلِمَ الرميَ ثم تركه فليس منا أو: قد عصى**».

وفي الحديث أن هرقل ملك الروم قال لأبي سفيان: «وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حيث تخالط بشاشته القلوب» الحديث.



---

(١) العَلَم، التي هي علامة للإمارة، وآية للفتح.
(٢) انظر: «جامع الأصول» (٨/ ٣١٧، ٦٥١ إلى ٦٥٥).

وبعد وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: أرسلت الأنصار عمر إلى أبي بكر ليحبس الجيش، أو ليولي عليهم رجلًا أقدمَ سِنًّا من أسامة، فقال أبو بكر: «والله لو علمت أن السباع تجر برجلي إن لم أَرُدَّه ما رددتُه، ولا حللت لواءً عقده رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ»، فقال عمر: «إن الأنصار أمروني أن أبلغك، وهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلا أقدم سنًّا من أسامة»، فوثب أبو بكر -وكان جالسًا- فأخذ بلحية عمر، فقال: «ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب! استعمله رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وتأمرني أن أنزعه!».

فخرج عمر إلى الناس، فقالوا له: «ما صنعت؟» فقال: «امضوا، ثكلتكم أمهاتكم، حسبي ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله».

- وحين جاءه عمر في حروب الردة يقول: «تَأَلَّفِ الناسَ، وارفق بهم»، فقال أبو بكر: «رجوت نصرتك، وجئتني بخذلانك!! أجبار في الجاهلية، وخوار في الإسلام؟! إنه قد انقطع الوحي، وتم الدين، أَوَ يَنْقُص وأنا حي!!».

قال عمر: «فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق».

وكان هذا المبدأ -وهو عدم نقض العزم- هو ما اعتمده فريق من المهاجرين رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ حين استشارهم أمير المؤمنين عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وأخبرهم أن الوباء وقع بالشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: «خرجتَ لأمرٍ، ولا نرى أن ترجع عنه»[١].



(١) هذا هو الشاهد بغض النظر عن ارتفاع خلافهم بعدُ بقياس عمر، ثم بحديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وانظر: «فتح الباري» (١٠/ ١٧٩)، «وصحيح مسلم» [٢٢١٩].





وعَدَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعرب بعد الهجرة من كبائر الذنوب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سأل رجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ فقال: «**هن تسع**» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر،** -وفي رواية: «**وتعلم السحر**»- **وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والشح، وعقوق الوالدين المسلمَيْنِ، واستحلال البيت الحرام، قبلتكم أحياءً وأمواتًا، والتعرب بعد الهجرة**».

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهداه إذا علموا ذلك، والواشمة، والموشومة للحسن، ومانع الصدقة، والمرتد أعرابيًّا بعد الهجرة، ملعونون على لسان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة».

وكذلك رُوِيَ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذكر في الكبائر: «الأعرابية بعد الهجرة».

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهو أحد فقهاء التابعين، أن علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «رجعة المهاجر على عقبيه من الكبائر».

وقال الحافظ ابن حجر: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عد من جملة أصحاب الكبائر من رجع بعد هجرته أعرابيًّا».

ثم قال: «وقال ابن الأثير في (النهاية): كل من رجع بعد هجرته أعرابيًّا إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد».



وأخرج البخاري عن التابعي يزيد بن أبي عبيد أن سلمة بن الأكوع رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ دخل مسجد الكوفة آتيًا من مسكنه في البادية، فقال له الحجاج بن يوسف الثقفي: يا بن الأكوع! ارتددت على عقبيك؟ تَعَرَّبْتَ؟ قال: «لا، ولكن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أذن لي في البدو».

ورُوي مرسلًا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نهى «أن يتزوج الأعرابي المهاجِرة يُخرِجها إلى الأعراب».

ومع أن حكم اعتبار التعرب كبيرةً حكم خاص بجيل المهاجرين من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ غير أننا نذكره هنا في سياق الثبات على العمل، والمضي فيه قدمًا، وعدم (الالتفات) فضلًا عن (الرجوع إلى الوراء)، ولو فُتح باب التعرب وقتها فمن كان يدعو، ويفتح البلاد، ويُعلِّم التابعين، ويدير الدولة التي اتسعت وتمددت؟!

- وقال جعفر الخلدي البغدادي: «ما عقدتُ لله على نفسي عقدًا، فنكثته».

لِـكـلٍّ إلى شَـأْوِ الـعُـلا حـركـات ولـكـنْ عـزيـزٌ في الـرجـالِ ثبات

وعن حمد بن عباد المهلبي عن أبيه قال: أتيت ابن عون فسلمت، قال: فرجعت إلى البيت فإذا أنا بإنسان قد ضرب الباب، فإذا هو ابن عون، فقلت: ادخل، ما جاء به إلا أمر، وإنما فارقته الساعة، فقلت: يابنَ عَوْنٍ مَهْ؟ قال: «أردتُ أن آتيك فأسلم عليك، فكرهت أن أعوِّدَ نفسي هذه العادة: أن أنوي شيئًا، ثم لا أفي به».

- وقال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل:

عزم أبي على الخروج إلى مكة، ورافق يحيى بن معين، فقال أبي: «نحج، ونمضي إلى صنعاء إلى عبد الرزاق»، قال: فمضينا حتى دخلنا مكة، فإذا عبد الرزاق في الطواف، وكان يحيى يعرفه، فطفنا، ثم جئنا إلى عبد الرزاق، فسلم







عليه يحيى، وقال: «هذا أخوك أحمد بن حنبل»، فقال: «حياه الله، إنه ليبلغني عنه كل ما أسر به، ثبته الله على ذلك»، ثم قام لينصرف، فقال يحيى: «ألا نأخذ عليه الموعد؟»، فأبى أحمد، وقال: «لِمَ أغير النية في رحلتي إليه؟»، أو كما قال، ثم سافر إلى اليمن لأجله، وسمع منه الكتب، وأكثر عنه.

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا

- وقال الحافظ أبو إسحاق الحبَّال: كنتُ يومًا عند أبي نصر السِّجزي، فدُقَّ الباب، فقُمتُ ففتحتُه، فَدَخَلَت امرأة وأخرَجتْ كيسًا فيه ألفُ دينار، فوضعَتْه بين يدي الشيخ، وقالت: «أنفِقْها كما ترى»، قال: «ما المقصود؟»، قالت: «تتزوَّجُني، ولا حاجة لي في الزواج، ولكن لأخدمك»، فأمَرَهَا بأخذ الكيس، وأن تنصرف.

فلما انصرفَتْ، قال: «خرجتُ من سِجِستْان بِنيّةِ طلب العلم، ومتى تزوَّجتُ سقَطَ عني هذا الاسم، وما أُوثِرُ على ثواب طلب العلم شيئًا».

وقال الحافظ محمد بن طاهر المقدسي: كنتُ يومًا أقرأ على أبي إسحاق الحبَّالِ جزءًا، فجاء لي رجلٌ من أهل بلدي، وأسرَّ إليَّ كلامًا قال فيه: «إن أخاك قد وصل من الشام»، وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس، وقتل الناس بها، فأخذت في القراءة، فاختلطت عليَّ السطور، ولم يمكنِّي أقرأ، فقال أبو إسحاق: ما لك؟ قلت: خير، قال: لابدَّ أن تخبرني، فأخبرته، فقال: وكم لك لم ترَ أخاك؟ قلتُ: سنين، قال: ولِمَ لا تذهب إليه؟ قلتُ: «حتى أتمَّ الجزء»، قال: «ما أعظم حرصَكم يا أهل الحديث! قد تمَّ المجلس، وصلى الله على محمد»، وانصرف.



انتبــــه!
الوقــوف رجــوع

قال الإمام المحقق ابن القيم ما ملخصه:

«توبة الخواصِّ تكون من تضييع الوقت في لغو أو لهو، فإنه يفضي إلى درك النقيصة، ويطفيءُ نور المراقبة، وأما الحافظ لوقته فهو مترقٍّ على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخرٌ ولابد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوقٍ، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام، وإما إلى وراءٍ، وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف ألبته، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طيٍّ إلى الجنة أو إلى النار، فمسرعٌ ومبطئٌ، ومتقدمٌ ومتأخرٌ، وليس في الطريق واقف ألبتة، وإنما يتخالفون في جهة السير، وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣٥-٣٧]. ولم يذكر واقفًا، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالكٍ إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخرٌ إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجدٍّ في طلب شيءٍ لابُدَّ أن يعرض له وقفةٌ وفتورٌ، ثم ينهض إلى طلبه.






قلت: لابدَّ من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجمَّ نفسه، ويُعِدَّها للسير، فهذا وقفتهُ سيرٌ، ولا تضُرُّهُ الوقفةُ، فإن «**لكل عمل شِرَّة، ولكل شرةٍ فَتْرة**»[(١)].

وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه، فإن أجابه أخَّرَهُ ولابُدَّ، فإن تداركه الله برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخُّرِهِ، نهض نهضة الغضبان الأسِفِ على الانقطاع، ووثب واشتدَّ سعيًا ليلحق الرَّكب، وإن استمرَّ مع داعي التأخُّر، وأصغى إليه لم يرض بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يردَّهُ إلى أسوأ منها وأنزل دركًا، وهو بمنزلة النَّكْسَةِ الشديدة عَقيبَ الإبلال من المرض، فإنَّها أخطرُ منه وأصعبُ.

وبالجملة فإنْ تدارك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا العبد بجذبةٍ منه من يد عَدُوِّهِ، وتخليصه، وإلا فهو في تأخُّرٍ إلى الممات، راجعٌ القهقرى، ناكصٌ على عقبيه، أو مُوَلٍّ ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمَهُ الله»[(٢)].





(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٨٨، ٢١٠)، وابن حبان [١١]، والطحاوي في «مشكل الآثار (٢/ ٨٨) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

عَلامَ يندَمُ كبيرُ الهِمَّة؟

قال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم المصائب للرجل أن يعلم من نفسه تقصيرًا، ثم لا يبالي، ولا يحزن عليه».

وقال أحمد بن أبي الحواري ريحانةُ الشام: «أفضل البكاء: بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة، أو بكاءٌ على ما سبق له من المخالفة».

وقال إبراهيم بن أدهم: مرض بعض العباد فدخلنا عليه نعوده، فجعل يتنفس ويتأسف، فقلت له: على ماذا تتأسف؟ قال: «على ليلة نمتها، ويوم أفطرته، وساعةٍ غفلت فيها عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال أبو داود الحفري: دخلت على كرز بن وبرة بيته، فإذا هو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: «إن بابي مغلق، وإن سِتْري لَمُسْبَل، ومُنِعتُ حزبي أن أقرأه البارحة، وما هو إلا من ذنب أحدثته».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البكاء ينبغي أن يكون على خساسة الهمم».

إن كبير الهمة كائن متميز في كل خصائصه، حتى في ندمه، وبينما يندم خسيس الهمة لفوات لذاته، أو يتحسر لفراق شهواته، فإن لكبير الهمة شأنًا آخر حتى وهو يندم:






- فهو يتحسر على ساعة مرت به في الدنيا، لا لأنه عصى الله فيها، وإنما لأنه لم يعمرها بذكر الله عَزَّوَجَلَّ: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليس يتحسر أهل الجنة على شيءٍ، إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله** عَزَّوَجَلَّ **فيها**».

وكان عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يصلي على الجنازة ثم ينصرف، فلما بلغه قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا حتى يُصَلَّى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن** (وفي رواية: **حتى يُفرغ منها**) **فله قيراطان من الأجر**»، قيل: «يا رسول الله وما القيراطان؟»، قال: «**مثل الجبلين العظيمين**»، (وفي رواية: كل قيراط مثل أحد)، وكان قد أخذ ابن عمر قبضة من حصى بالمسجد يقلبها في يده، فلما بلغه أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قاله، ضَرَبَ بالحصى الذي كان في يده الأرض، ثم قال: «لقد فَرَّطنا في قراريط كثيرة».

كم فرصةٍ ذهبت فعادت غُصَّةً ... تُشْجِي بطولِ تلهفٍ وتندُّمِ

ولما احتُضِر معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ جعل يقول: «أعوذ بالله من ليلة صباحها النار، مرحبًا بالموت مرحبًا زائر مُغِبٌّ حبيبٌ جاء على فاقة، اللهم إني قد كنتُ أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْي الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذِّكر».

- وهذا سيف الله المسلول «خالد بن الوليد» رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يتحسر لموته على فراشه، فقد قال لما حضرته الوفاة:





«لقد شهدت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح، أو رمية سهم، ثم هأنذا أموت على فراشي حتفَ أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

– وكان أبو محجن الثقفي مُولعًا بالشراب، مشتهرًا به، وكان سَعْدُ بن أبي وقَّاص حبسه فيه، فلمَّا كان يومُ القادِسيَّة وبلَغه ما يفعل المشركون بالمسلمين، وهو عند أمِّ ولدٍ لسَعْدٍ، قال:

كفَى حَزَنًا أن تُطْعَنَ الخَيْلُ بالقَنَا ... وأُتــرَكَ مَـشْـدُودًا علـيَّ وَثَاقيَا

إذَا قُمْتُ عَنَّاني الحَديدُ وغُلِّقَت ... مَغَالِيقُ من دُوني تُصِمُّ المُنَادِيَا

وقد كُنْتُ ذَا أهْلٍ كَثير وإخْوَةٍ ... فَقَدْ تَرَكُوني واحدًا لَّا أخا ليَا

هَلُمَّ سِلَاحي، لا أبا لَكَ، إننِي ... أرى الحَرْبَ لا تَزْدَادُ الا تَمَاديَا

فقالت له أمُّ ولد سعدٍ: «أَتَجْعَلُ لي إنْ أنا أطلقتُك أن ترجعَ حتَّى أُعيدَكَ في الوَثاق؟!» قال: «نعم»، فأطلقَتْه، وركب فرسًا لسعْدٍ بَلْقاءَ، وحَمَل على المشركين، فجعل سعد يقول: «لولَا أنَ أبا مِحْجَن في الوَثاق لظننتُ أنَّه أبو محجن وأنَّها فَرسي»، وانكشف المشركون، وجاءَ أبو محجن فأعادتْه في الوَثاق، وأتت سعدًا فأخبرتْه، فأرسل إلى أبي محجن فأطلقَه، وقال: «والله لا حبستُك فيها أبدًا»، قال أبو محجن: «وأنا واللهِ لا أشربُها بعدَ اليوم أبدًا».

– وعن قتادة أن عامر بن قيس لما حُضِر جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وعلى قيام ليالي الشتاء».



- وبكى أبو الشعثاء عند موته، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: «لم أَشْتَفِ من قيام الليل».

- وكان السلف إذا فاتتهم تكبيرة الإحرام عَزُّوا أنفسهم ثلاثة أيام، وإذا فاتتهم الجماعة عزوا أنفسهم سبعة أيام.

- وكان أبو الليث يُعَزَّى، فقيل: ما شأنه؟ قالوا: «فاتته صلاة الجماعة».

- وقال حاتم الأصم: «مصيبة الدين أعظم من مصيبة الدنيا، ولقد ماتت لي بنت فعزَّاني أكثر من عشرة آلاف، وفاتتني صلاة الجماعة، فلم يعزني أحد».

- ولما احتُضِر عبد الرحمن بن الأسود بكى، فقيل له، فقال: «أسفًا على الصلاةِ والصوم».

- وبكى يزيد الرقاشي عند موته فقيل: ما يبكيك؟ فقال: «أبكي على ما يفوتني من قيام الليل وصيام النهار»، ثم جعل يقول: «يا يزيد من يُصلي لك، ومن يصوم عنك، ومن يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالأعمال بعدك؟ ويحكم يا إخواني، لا تغتروا بشبابكم، فكأن قد حَلَّ بكم مثلُ ما قد حَلَّ بي».

- وبكى بعض العباد عند موته فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: «أن يصوم الصائمون، ولست فيهم، ويذكر الذاكرون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولستُ فيهم».

وعن مُطَرِّفٍ قال: كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه اختطافًا. وكان إذا سمع الحديث لم يحفظه أخذه العويل والزويل[1] حتى يحفظه. وإن كان الحديث

(١) **الزويل:** مصدر زال يزول، وزال: تنحَّى، وابتعد، وانتقل.

طويلًا. بحيث لا يمكن حفظه في مجلس واحد حفظ نصفه، ثم عاد في مجلس آخر فحفظ بقيته.

- وذكروا لشعبة حديثًا لم يسمعه، فجعل يقول: «واحزناه!»، وكان يقول: «إني لَأُذاكَر بالحديث، فيفوتني، فأمرض».

وقال سفيان بن عيينة: لما مات مسلمُ بنُ يسار قال الحسن البصري: «وامُعَلِّمَاهُ!».

وقال القاسم بن سلام: دخلت البصرة لأسمع من «حماد بن زيد»، فإذا هو ميت، فشكوت ذلك إلى «ابن مهدي»، فقال لي: «مهما سُبِقْتَ، فلا تُسْبَقَنَّ بتقوى الله».

وكان مالك بن يخامر السكسكي من تلاميذ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد عاش ما عاش ناقلًا من روح معاذ إلى روحه، ومن قلب معاذ إلى قلبه، ومن عقل معاذ وإيمانه إلى عقله وإيمانه، فلما حضرت معاذًا الوفاةُ بكى، فقال له معاذ: «ما يُبكيك؟»، قال: «والله ما أبكي على دنيا كنتُ أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذَين كنت أستفيدهما منك»، فأجابه معاذ وهو يجود بروحه:

«إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فاطلب العلم عند أربعة، فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو في الأرض، فاطلبه من مُعَلِّم إبراهيم»[١].



---

(١) ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إذا أشكلت عليه المسائل يقول: «يا مُعَلِّمَ إبراهيم عَلِّمْني»، انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص٤٢).

وروى الكديمي عن عبد الله بن داوود الخُرَيْبي قال: «كان سبب دخولي البصرة لأن ألقى ابن عون، فلما صِرْتُ إلى قناطر سردار، تلقاني نَعْيُه، فَدَخلني ما الله به عليم».

- ولما حج أبو بكر السمعاني والسِّلَفيُّ ظفرا بأبي مكتوم عيسى بن أبي ذر، فتهاونا، فسارع في النَّفْر الأول، ورجع إلى موطنه سراة بني شبابة، وفاتهما، فتحزَّن تاج الإسلام أبو بكر، فأخذ السلفي يُسَلّيه، ويقول: «ما كان معه سوى (صحيح البخاري)، وأنت في إسناده مثله».

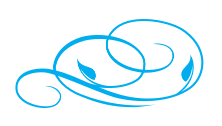
- وكان القفطي صاحب كتاب (إنباه الرواة على أنباه النحاة) شديد الحرص جدًّا على جمع الكتب، وجمع مكتبة من أنفس ما جُمع، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: عُرِض عليَّ كتاب (الأنساب) للسمعاني بخط مصنفه الأجزاء الثاني والثالث والرابع، والأول بخط مؤلفه كان مفقودًا في ذلك الوقت -وبين القفطي والسمعاني نحو مائتين وخمسين عامًا أو قريبًا منها- فاشترى القفطي هذه الأجزاء الثلاثة، قال: اشتريتها، فلما مضت مدة من الزمن -وفي ظنه أن الجزء الأول من الكتاب بخط مؤلفه مفقود، وانتهى الأمر على ذلك- يقول القفطي: فمرة جاءني خادمي بصُرَّة من بقولٍ خضر يعني الخضراوات وقد لُفَّتْ بورق كتابٍ. قال: فأخذتُ الورقة فلما نظرت إليها فإذا هو خط السمعاني الذي أعرفه، فأتيت بنسخة الأنساب فإذا هذا الورق من الجزء الأول المفقود. قال: فذهبتُ سريعًا إلى الذي يبيع البقول، فوجدت عنده بعض أوراقٍ بقيت من الكتاب، فقلت له: أين بقية هذه الأوراق؟ قال: لففنا بها البقول، أي أنها تفرقت في البيوت. فقال القفطي: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فأقام مناحة شهرًا على فقد الاهتمام بالكتب، وقيل: إنه تأسف غاية



التأسف على هذا الضياع، حتى كاد يمرض، وامتنع أيامًا عن خدمة الأمير في قصره، فصارت عِدَّة من الأفاضل والأعيان يزورونه تعزية له، كأنه قد مات أحدُ أقاربه المحبوبين.

وقال حمزة: سمعت أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس يقول: لما ورد نعي «محمد بن أيوب الرازي» دخلت الدار، وبكيت فاجتمع عليَّ أهلي، ومن في منزلي، وقالوا: ما أصابك؟ قلت: نعي «محمد بن أيوب الرازي» وقد منعوني الارتحال إليه، فسَلَّوْا قلبي، وأذنوا لي في الخروج عند ذلك، وأصحبوني خالي إلى «نَسا» إلى الحسن بن سنان، فكان ذلك أول رحلتي في الحديث.

- ولما مات أبو أحمد العسَّال، وجلس بنوه للتعزية، دخل رجلان في لباس سوادٍ، وأخذا يُوَلوِلان، ويقولان: «وا إسْلاماه»، فَسُئِلا عن حالهما، فقالا: «إنا وردنا من أغمات[1] من المغرب، لنا سنة ونصف في الطريق في الرحلة إلى هذا الإمام لنسمع منه، فوافق ورُودُنا وفاتَه».





(١) ناحية من بلاد المغرب قرب مراكش.

يا كبير الهمة: لا يضرك التفرد
فإن طرق العلاء قليلة الإيناس

إن كبير الهمة على الإطلاق من يتحرى الفضائل، لا للذة، ولا لثروة، ولا لاستشعار نخوة، واستعلاء على البرية، بل يتحرى مصالح العباد شاكرًا بذلك نعمة الله، وطالبًا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه، فإنه إذا عظم المطلوب قلَّ المساعد، وطرق العلاء قليلة الإيناس.

أَهُمُّ بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونها وأُطاردُ
فريدٌ عن الخِلَّان في كل بلدة ... إذا عَظُم المطلوبُ قلَّ المساعِدُ

عن ابن جدعان قال: سمع عمر رجلًا يقول: «اللهم اجعلني من الأقلين»، فقال: «يا عبد الله! وما الأقلون؟»، قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وذكر آيات أخر، فقال عمر: «كل أحد أفقه من عمر».

وقال سفيان بن عيينة: «اسلكوا سبل الحق، ولا تستوحشوا من قلة أهلها».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الزم طريق الهدى، ولا يضرَّك قلة السالكين، وإياك وطرقَ الضلالة، ولا تغتر بكثرة الهالكين».



وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يقل مع الحق فريد، ولا يقوى مع الباطل عديد».

وقال سليمان الداراني: «لو شك الناس كلهم في الحق، ما شككت فيه وحدي».

وقال بعض الصالحين: «انفرادك في طريق طلبك، دليل على صدق الطلب».

فعالي الهمة ترقَّى في مدارج الكمال بحيث صار لا يأبه بقلة السالكين، ووحشة الطريق لأنه يُحَصِّل مع كل مرتبة يرتقي إليها من الأنس بالله ما يزيل هذه الوحشة[١]، وإلا انقطع به السبيل.

عجبًا بأنك سالِمٌ من وحشةٍ ... في غايةٍ ما زلتَ فيها مُفْرَدا

(إن أول ثمرات العزة الإيمانية التي يحسها المؤمن: إدراكه ما في الإسلام من قوة الحقيقة التي يكفي لكي تعلن عن نفسها أن تتمثل في فرد واحد، وما في الآراء الجاهلية المخالفة من زيف الباطل، واحتياجها إلى سواد كثير، وعدد كبير



(١) وتوضيح ذلك بمراتب الدين فهي ثلاثة كما جاء في حديث جبريل: «الإسلام، والإيمان، والإحسان»، فالإسلام أخص من الإيمان من حيث المعنى، لكنه أعم من حيث الأفراد، والإيمان أخص من الإحسان من حيث المعنى، لكنه أعم من حيث الأفراد، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، وليس كل مؤمن محسنًا، وفي هذه المراتب درجات ودرجات، فكلما ارتفع السالك درجة شعر بقلة في السالكين، فإذا لم يكن قد حَصَّل مع ارتفاع كل درجة من الأنس بالله بقدر شعوره بقلة السالكين في هذه الدرجة، لاستولى عليه الشعور بالوحشة، فأحسن أحواله حينئذ أن ينقطع عن الرقي أو يمله وهو بذلك مغبون، وإما أن يعود القهقرى، وهو في هذه الحالة خاسر مردود، فلا ييأس، وليعاود السير عساه أن يربح فلا يخسر أبدًا.

من الأفراد، يأسر منظرهم كل ساذَج، فيغتر، وينطلي زيف الباطل عليه، دون أن يدرك ما هم فيه من الضلال.

ومن ها هنا رأينا تمثل الأمة الإسلامية أكثر من مرة بمؤمن واحد فقط، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠] قال ابن تيمية: «أي: كان مؤمنًا وحده، وكان الناس كفارًا جميعًا»(١) وفي (صحيح البخاري) أنه قال لزوجه سارة: «يا سارة! ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك».

ثم كما تمثلت حينًا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده)(٢).

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد أُوذيتُ في الله وما يؤذَى أحد، وأخِفْتُ في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عَليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة، ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال**»(٣).

فمن ثم (انسدَّ باب شعور المؤمن بالغربة، فهو -لأنه يمثل الإيمان والحقيقة- يشعر بأن الناس جميعًا، وهم في ضلالهم هم الغرباء التائهون، ولذلك فإنه لما توهَّم واهم، فوصف عبد الوهاب عزام بالغربة؛ كان جوابه سريعًا، فقال:

قال لي صاحب: أراك غريبًا ... بين هذا الأنام دون خليلِ
قلت: كلا، بل الأنام غريب ... أنا في عالمي، وهذي سبيلي)(٤)

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٣٦).
(٢) «المنطلق» (ص٢٣٥).
(٣) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» [٢٤٧٢].
(٤) «المنطلق» (ص٢٣٦)، وقال مؤلفه الأستاذ الفاضل محمد أحمد الراشد حَفِظَهُ ٱللَّهُ: «أما غربة الغرباء الذين ذُكروا في الحديث الشريف (طوبى للغرباء)، فهي غربة بالنسبة للواقع، أي: لندرتهم وقلتهم بين غثاء ضال، أما في عالم الضمير والشعور، فإن للمؤمن الفرد من إيمانه أنيسًا ورفيقًا وخليلًا يبعد الغربة» اهـ.

وكبير الهمة –كما يقول الامام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

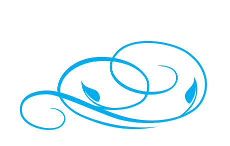
(لا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له، فإنهم هم الأقلون قدرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين»، وكلما استوحشتَ في تفردك؛ فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغُضَّ الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يُغنوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك، وعاقوك)[(١)] اهـ.

والملتفت لنعيق الباطل كالظبي، و «الظبي أشد سعيًا من الكلب، ولكنه إذا أحسَّ به؛ التفت إليه، فيضعف سعيه، فيدركه الكلبُ، فيأخذه»[(٢)].

وقال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المعنى:

أخي فامضِ لا تلتفت للوراءْ … طريقك قد خَضَّبَتْهُ الدماءْ

ولا تلتفت ها هنا أو هناك … ولا تتطلع لغير السَّماء





(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢١).

(٢) نفسه (١/ ٢٢).

أحوالُ خَسِيس الهِمَّة

إن الإنسان المسمى بالحيوان الناطق موضع تجاذب بين أخلاق وطباع العالم السفلي، وبين صفات وصفاء العالم العلوي:

فَيَحِنُّ ذاك لأرضه بِتَسَفُّلٍ ... ويحن ذا لسمائه بتصعُّدِ

قال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها، وأحمدها عاقبة.

والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك، والنفوس الحقيرة بالضد من ذلك»(١).

قال أحمد بن خِضرويه: «القلوب جوالة: فإما أن تجول حول العرش، وإما أن تجول حول الحُشِّ»، وقال بعضهم: «نزول همة الكسَّاح؛ دلَّاه في جُبِّ العَذِرَةِ»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج، وليس ما أُعِدَّ للاستفراخ كمن هُيِّيء للسباق».



---

(١) «الفوائد» (ص٢٢٦).

(٢) أي: أنه لما كسل عن تعلم حرفة أو علم ينتفع به، ويكرمه بين الناس؛ لم يكن أمامه إلا النزول إلى الجُبِّ لتنظيفه من الغائط.

خلق الله للحروب رجالا ورجالا لقصعةٍ وثريدِ

فإن رفض ذلك الإنسان الارتقاء إلى عِليين، وعشق الظلمة، ومقت النور، وأبى إلا أن يهبط بنفسه إلى وَحْل الشهوات، فتمرَّغ فيها، وانحطَّ إلى نزوات الحُمُر، وسفاسف الأمور، ونزغات الشياطين، وتثاقل إلى الأرض؛ سقط إلى سِجِّين، وما أدراك ما سجين، وانحدر دون مرتبة ذوات الحوافر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢].

فهم كالأنعام ليس لهم هَمٌّ إلا تحصيل الشهوات:

كالعير ليس له بشيء همَّةٌ إلا اقتضام القَضْبِ[١] حول المِذودِ[٢]

كما أن الأنعام تسهو، وتلهو بالطعام، وتغفل عن عاقبة النحر والذبح بعده، وهؤلاء أيضًا ساهون عما في غدهم.

وهم أضل من الأنعام، لأنها تبصر منافعها ومضارها، وتتبع مالكها، وهم بخلاف ذلك، قال عطاء: «الأنعام تعرف الله، والكافر لا يعرفه».

قال الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجد كيفما وجد، وحيثما جاء موضعه من الوجود؛ إذ هو يُولَد ويكدح



(١) القَضْب: ما أكل من النبات المقتَضَب (المقطوع) غَضًّا.
(٢) المِذْوَد: مُعْتَلَف الدابة.

ويكد؛ ليكون لحمًا، وعظمًا، وصوفًا، ووبرًا، وشعرًا وأثاثًا، ومتاعًا، وكأنه ضربٌ من النبات إلا أنه نوعٌ آخر من المنفعة»[(١)].

وصف سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المشركين، فقال: «رأيت قومًا ليس لهم فضل على أنعامهم، لا يهمهم إلا ما يجعلونه في بطونهم وعلى ظهورهم، وأعجب منهم: قوم يعرفون ما جهل أولئك، ويشتهون كشهوتهم».

وإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤْلَه ... وفرجَك نالا منتهى الذمِّ أجمعا

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إياكم والبِطْنَة في الطعام والشراب؛ فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة»، ووصف الشاعر أكولًا، يستغرق حياته في نهمه وشهوته، فقال:

عريضُ البِطانِ[(٢)] جديد الخوان ... قريب المَراثِ[(٣)] من المرتَعِ

فنِصفُ النهارِ لكِرْياسِه[(٤)] ... ونصفٌ لمأكلِهِ أجمعِ

قيل لابن الحطيئة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلان رُزق نعمة ومَعِدَة»، فقال: «حسدوه على التردد إلى الخلاء»[(٥)].

ورُوِيَ أن رجلًا من الأكَّالين مَرَّ بصومعة راهب، فقدم له أربعة أرغفة، وذهب ليحضر له عَدَسًا، فحمله وجاء به، فوجده أكل الخبز، فذهب وأتى إليه

---

(١) «وحي القلم» (٣/ ٣٧٩).
(٢) **أصل البطان**: حزام القتب الذي يجعل تحت بطن الدابة، ولعله يريد به كبر بطنه.
(٣) **المراث**: مكان الروث.
(٤) **الكِرياس**: الكنيف الذي يكون مشرفًا على سطح بقناة إلى الأرض.
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٤٧).

بالخبز، فوجده أكل العدس، ففعل ذلك معه عشر مرات! فسأله الراهب: أين مقصدك؟ فقال: إلى الري. فقال له: لماذا قصدتَ؟ قال: بلغني أن بها طبيبًا حاذقًا أسأله عما يُصلح مَعِدتي، فإني قليل الاشتهاء للطعام! فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة! قال: وما هي؟ قال: «إذا ذهبت وصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك إليَّ ثانيًا!»[١].

وعن محمد بن الحنفية قال: «من كَرُمت عليه نفسه، هانت عليه الدنيا»، وقيل لمحمد بن واسع: «إنك لترضى بالدون»، قال: «إنما رضي بالدون مَن رضي بالدنيا».

منافسةُ الفتى فيما يزولُ ... على نُقصانِ همتهِ دليلُ

آخر:

يا خاطبَ الدنيا إلى نفسها ... تنحَّ عن خِطبتها تَسْلمِ

إن التي تخطبُ غرَّارة ... قريبةُ العُرْسِ من المأتمِ

ومن مظاهر خساسة الهمة افتقاد الطموح إلى العلم ونضوب الفضول والتطلع إلى كشف حقائقه: ذكر ابن القطاع النحوي صاحب كتاب (الأفعال) أنه ذكر لطلابه مرة أنه وجد السر في تسمية كتاب أبي إسحاق الشيباني في اللغة بـ(الجيم)، مع أنه لم يبتدئ فيه بحرف الجيم؛ كما هو حال كتاب (العين) للخليل ابن أحمد، مع أن العلماء نظروا في تسمية كتاب «الشيباني»، ولهم تخريجات، ولكن ليس ثمة شيء مقبول، قال ابن القطاع: «فطرحتها على بعض القوم، وقلت لهم: وجدتُ السرَّ في تسمية كتاب (الجيم)، فمن أراد أن يعرف سر هذا الكتاب،



(١) «دكانة الكتب» (ص٢٤٧).




فليدفع عشرة دنانير، قال: فلم ينبس أحد منهم بشفة». قال القفطي في ترجمته له: «فلعن الله دنيا تُختار على استفادة العلوم!»[١].

ورُوِيَ أن رجلًا قال لخالد بن صفوان: «ما لي إذا رأيتكم تذاكرون الأخبار، وتدارسون الآثار، وتناشدون الأشعار، وقع عليَّ النوم؟» فقال: «لأنك حمار في مسلاخ إنسان».

ومن سفلة الهمم الذين أخبر عنهم الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ**[٢] **له، الذين هم فيكم تبعًا، لا يبغون أهلًا ولا مالًا**»[٣] الحديث، فهو قانع بكونه ذيلاً، ومسبوقًا، وتابعًا، فارٌّ من المسئولية وتبعاتها، ورُوح الشريعة الحنيفية تُنَفِّر من العزوبة، وتُنكِر على من يُرَغِّبُ فيها ويُثْني عليها، كما قال أحدهم:

أنا في حالتي التي قد تراني ... إن تأمَّلتَ أحسنُ الناس حالا
أجعل الساعد اليمين وِسادِي ... ثم أَثْني إذا انقلبت الشمالا
ليس لي والدٌ ولا مولود ... لا، ولا حُزْتُ مُذْ عقلتُ عِيالا

وفي هؤلاء يقول الشاعر:

شبابٌ قُنَّعٌ لا خير فيهم ... وبُورِك في الشباب الطامحينا

وهم «الغثاء» الذين أخبر عنهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكَلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: «ومن قلة نحن يومئذ؟»

(١) انظر: «إنباه الرواة على أنباه النحاة» (١/ ٢٠).
(٢) أي: لا عقل له يمنعه مما لا ينبغي، وقيل: هو الذي لا مال له.
(٣) رواه مسلم [٢٨٦٥] (٤/ ٢١٩٧).



قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوَهَن**»، فقال قائل: «يا رسول الله وما الوهن؟» قال: «**حب الدنيا، وكراهية الموت**»[١].

وفيهم قال دِعْبِل:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهمُ ... والله يعلم أني لم أقل فَنَدا

إني لأُغلِق عيني ثم أفتحُها ... على كثيرٍ ولكن ما أرى أحدا

فهم كَسَقَطِ المتاع، موتهم وحياتهم سواء، قال الشاعر:

إذا كنتَ لا مالٌ لديك تُفيدنا ... ولا أنت ذو علمٍ فنرجوك للدينِ

ولا أنت ممن يُرتجى لملمةٍ ... عملنا مثالًا مثلَ شخصِك من طينِ

وفيهم قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لا يدرون لم خلقوا، ولا المراد منهم، وغاية همتهم: حصول بغيتهم من أغراضهم، ولا يسألون عند نيلها ما اجتلبت لهم من ذم، يبذلون العِرْضَ دون الغرض، ويؤثرون لذة ساعة، وإن اجتلبت زمانَ مرض، يلبسون عند التجارات ثياب محتال، في شعار مختال، ويُلبِّسون في المعاملات، ويسترون الحال، إن كسبوا: فشبهة، وإن أكلوا: فشهوة، ينامون الليل، وإن كانوا نيامًا بالنهار في المعنى[٢]،

---

(١) انظر تخريجه (ص٥٦٧).

(٢) وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

يخبرني البواب أنك نائم ... وأنت إذا استيقظت أيضًا فنائمُ

ويقول الشاعر واعظًا من أدمن هذا النوع من النوم:

فحتام لا تصحو وقد قرب المدى ... وحتام لا ينجاب عن قلبك السُّكْرُ

بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... وتذكر قولي حين لا ينفع الذكر

ولا نوم بهذه الصورة، فإذا أصبحوا، سعوا في تحصيل شهواتهم بحرص خنزير، وتبصيص كلب، وافتراس أسد، وغارة ذئب، وروغان ثعلب، ويتأسفون عند الموت على فقد الهوى، لا على عدم التقوى، ذلك مبلغهم من العلم» اهـ.

كلما همَّ أحدهم أن يسمو إلى المعالي، ختم الشيطان على قلبه: «عليك ليل طويل، فارقد»، وكلما سعى في إقالة عثرته، والارتقاء بهمته، عاجلته جيوش التسويف والبطالة والتمني، ودعثرته، ونادته نفسه الأمارة بالسوء: «أنت أكبر أم الواقع؟».

لا تطلبِ المجدَ واقنعْ ... إن المجدَ سُلَّمُه صعبُ

وقال ابن خلكان: لما وزر لصلاح الدين؛ قال هبة الله بن سناء الملك:

قال الزمانُ لغيره لو رامها ... تَرِبت يمينُك لستَ من أربابها

اذهب طريقَك لستَ مِن أربابها ... وارجعْ وراءك لستَ من أترابها

وقد جزع الزبرقان بن بدر أشدَّ الجزع، لما هجاه الحطيئة[١] بقوله:

دَع المكارم لا ترحل لبُغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي



(١) كان الحطيئة العَبْسي شاعرًا مخضرمًا هجَّاءً، وكان الزبرقان بن بدر التميمي سيد قومه، استعمله النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والشيخان، فكان يجمع زكاة قومه ويؤديها لهم، فلما هجاه الحطيئة اشتكاه إلى أمير المؤمنين عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، فقال له عمر: وما قال لك؟ قال: قال لي:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال عمر: «ما أسمع هجاء، ولكنها معاتبة!»، فقال الزبرقان: «أَوَلا تبلغُ مروءتي إلا أن آكل وألبس؟! والله يا أمير المؤمنين ما هُجِيت ببيتٍ قط أشد عليَّ منه»، فدعا عمر حسان بن ثابت رَضِوَاللَّهُعَنْهُ وسأله: «أتراه هجاه؟» قال حسان: «نعم، وسَلَحَ عليه» أي: بال عليه.

فحبس عمر الحطيئة، فجعل الحطيئة يستعطفه ويرسل إليه الأبيات، فأطلقه، وأخذ عليه عهدًا أن لا يهجو أحدًا، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم.

لأنه جعل همته لا تجاوز أن يأكل ويلبس.

إن خسيس الهمة يقنع بالسلامة، ويستكين أمام واقعه، فلا يثور عليه، ولا يجرؤ أن يفك وَثاق همته[١]:

ومــن يـتـهـيـبْ صـعـودَ الجبال ... يَـعِـشْ أبـدَ الـدهـرِ بـين الحُـفَـرْ

هـو الـكـونُ حـيٌّ يحـب الحـيـاة ... ويحـتـقِـرُ المَـيِّـتَ المُـنْـدَثِـرْ

وإن نازعته نفسه إلى طلب المعالي، والارتقاء بهمته، واقتحام الأهوال، والتخلي عن البَطالة والعجز والكسل، زجرها قائلًا:

ذريـني تَجِـئْـني مِـيتتي مطمئنةً ... ولم أتـقـحَّـمْ هَـوْلَ تـلـك المـواردِ

فـإن كـريمـاتِ المعـالـي مَشُوبة ... بمستودَعات في بطون الأساودِ[٢]

وقال ابن وكيع:

لـقـد رضِـيَـتْ هـمـتي بالخمول ... ولم تـــرضَ بـالـرتـب الـعـالـيـهْ

ومـا جهـلـت طـيـبَ طـعـمِ العلا ... ولـكـنـهـا تـؤثـر الـعـافـيـهْ

آخر:

بـقـدر الـصـعـود يـكـون الهبوط ... فـإيـاك والـرتـبَ الـعـالـيـهْ

وكـن في مـكـانٍ إذا مـا سقطتَ ... تـقـومُ ورجـلاك في عـافـيـه

---

(١) وقد ضرب بعض العلماء مثلًا لخسيس الهمة، فقال:
هب أن الكلب قال للأسد: «يا سيد السباع! غيِّر اسمي فإنه قبيح»، فقال له: «أنت خائن لا يصلح لك غير هذا الاسم»، قال: «فجربني»، فأعطاه شقة لحم، وقال: «احفظ لي هذه إلى غدٍ، وأنا أغير اسمك»، فجاع، وجعل ينظر إلى اللحم ويصبر، فلما غلبته نفسه، قال: «وأي شيء باسمي؟!، وما (كلب) إلا اسم حسن»، فأكل.
قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا: «وهكذا خسيس الهمة، القنوع بأقل المنازل، المختار عاجل الهوى على آجل الفضائل .. فالله الله في حريق الهوى إذا ثار، وانظر كيف تطفئه» اهـ.

(٢) **أساود**: جمع أسود، وهو العظيم من الحيات، وفيه سواد، وهو أخبثها وأنكاها.



آخر:

لــذَّ خمــولــي وحـــلا مُـــرُّهُ	إذْ صـانـنـي عـن كـل مخلـوقِ
نـفـسـي مـعـشـوقـي ولــي غَـيْرَة	تمـنـعـني مـن بــذلِ معشوقي

آخر:

تُـنـازِعُـني الـنـفـسُ أعـلـى الأمـور	ولـيـس مـن الـعـجـز لا أنـشـطُ
ولـــكـــن لأن بـــقـــدر الـمـكـان	تـكـون سـلامـةُ مـن يـسـقـطُ[(١)]

وفي شأنهم وأمثالهم يقول الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لا شيء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلًا عن الفضائل الدينية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، فمن كان كذلك فهو من الهمج الرَّعاع، الذين يكدرون الماء، ويغلون الأسعار، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد، فقدهم راحة للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السماء، ولا تستوحش لهم الغبراء»[(٢)] اهـ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الذين حُرِموا العلم والبصيرة، والهمة والعزيمة: (هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢]، وبقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، وبقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل:٨٠] وبقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر:٢٢].

(١) انظر: «الكشكول» (ص٣٠٤).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٣٤).



وهذا الضَّرْبُ شر البرية، يضيِّقون الديار، ويُغْلُون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكنْ ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويتعلمون، ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون، ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون، ويؤمنون، ولكن بالجبت والطاغوت، ويعبدون، ولكن يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، ويجادلون، ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ويتفكرون ويبيِّتون، ولكن ما لا يرضى من القول يبيتون، ويَدْعون، ولكن مع الله إلهًا آخر يدعون، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون، ويقولون: إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، فهذا الضرب: ناس بالصورة، وشياطين بالحقيقة، وجُلُّهم إذا فكرت لها حمير أو كلاب أو ذئاب، وصدق البحتري في قوله:

لم يبق من جُلِّ هذا الناس باقيةٌ ... ينالُها الوهمُ إلا هذه الصُّوَرُ

وقال آخر:

لا تخدعنْك اللِّحى ولا الصورُ ... تسعةُ أعشارِ مَن ترى بقرُ

في شجَرِ السَّرْوِ منهم مثلٌ ... لها رُواء وما لها ثَمَرُ

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون:٤]، عالِمهم كما قيل فيه:

زوامِلُ للأسفار لا علم عندهم ... بجيِّدها إلا كعلم الأباعرِ

لعمرك ما يدري البعيرُ إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما في الغَرائرِ



وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥]) اهـ[١].





(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣١٦-٣١٨) بتصرف، ط. دار عالم الفوائد.





أصدق الأسماء حارِث، وَهَمَّام

(الناس جميعًا مؤمنون وكفار لابد لهم من مراد يقصدونه، ويتوجهون إليه، على ذلك فطرهم الله، فالإنسان دائم الهم والإرادة، دائب العمل والحركة، ولذلك فإن «أصدق الأسماء: حارث، وهمامٌ» كما ورد في الحديث[(١)]، لأن كل إنسان حارث: بمعنى كاسب، وكل إنسان همَّام: أي كثير الهم والإرادة.

فالإنسان مجبول على أن يقصد[(٢)] شيئًا، ويريده، ويستعينه، ويعتمد عليه في تحصيل مطلبه، قد يكون هو الله، وقد يكون غيره، ولكن الإنسان لا يمكن إلا أن يكون كذلك، أي له مراد يقصده، ويتوجه إليه.

والسبب في ذلك أن الإنسان فقير إلى غيره محتاج اليه، كي يَسُدَّ نقصه، ويكمل عجزه، ويحصِّل حاجته، وفقره هذا دائم لا يتوقف، ولا ينقطع.

ومن عجائب الإنسان أنه إذا أراد شيئًا من المخلوقات، ثم حصل عليه مَلَّه، وطلب غيره، أو أكثر منه، وفي ذلك يقول الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو كان**



(١) أصل الحديث رواه ابن وهب الجشمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه البخاري في «الأدب المفرد» وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٤٠).

(٢) وقد قيل: «لو كُلِّف الإنسان أن يفعل شيئًا بغير قصد ولا نية، لكان تكليفًا بما لا يُطاق».

لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثًا»[١]، فالنفس الإنسانية دائمة التَّطلاب لما لم تحصل عليه، ولم تصل إليه، وليس هناك مِن شيء يمكن أن يسدَّ فقرها وحاجتها إلا أن تصل إلى ربها ومعبودها، فتعرفه، وتقصده دون سواه، عند ذلك يجد القلب مطلوبه، وتحصل النفس على مرادها، فيكون الاطمئنان والراحة والهناء، وفي ذلك يقول رب العزة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، فليس هناك ما يمكن أن يجلب الطمأنينة إلا الوصول إلى الرب المعبود معرفة وقصدًا وتوجهًا)[٢] اهـ.





(١) متفق عليه، وفي آخره: «ولا يملأ جوفَ ابنِ آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» أي: لا يزال حريصًا على الدنيا حتى يموت، ويمتلئ جوفه من تراب قبره، إلا من وفقه الله وعصمه من الحرص المذموم.

(٢) انظر: «مقاصد المكلفين» (ص٣٦٥، ٣٦٦).



الله عَزَّوَجَلَّ هو الغاية العظمى التي ليس وراءها غاية

قال ذو النون المصري: «ما رجع من رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا ما رجعوا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

«وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٤٢]، وفي الدعاء المأثور الذي ذكره مالك في (الموطأ): حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله مرمى، وفي رواية: ليس وراء الله منتهى» اهـ[١].

وقال تلميذه الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم:٤٢].

متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يُرَدْ لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكلُّ محبوبٍ لا يُحَبُّ لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر:٢١].



(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٣١٤).

واجتمع ما يراد له في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]. فليس وراءه سبحانه غاية تُطلَب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره.

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى.

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره، بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوجَ ما يكون إليه.

ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه؛ ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد»[١].

لقد كان يسبي القلبَ في كل ليلة ... ثمانون بل تسعون نفسًا وأرجحُ
يهيم بهذا ثم يألف غيره ... ويسلوهم من فوره حين يصبح
وقد كان قلبي ضائعًا قبل حبكم ... فكان بحب الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه ... فلستُ أراه عن خِبائك يبرح
وكم مشترٍ في الخلق قد سام قلبه ... فلم يره إلا لحبك يصلح
هوى غيركم نارٌ تلظى ومحبس ... وحبكم الفردوس أو هو أفسحُ
فيا ضَيمَ قلب قد تعلق غيركم ... ويا رحمة مما يجول ويكدح[٢]

(١) «الفوائد» (ص١٩٦، ١٩٧).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص١٧، ١٨).

(والنفس في طلب مرادها مترقية متسامية، تطلب الأكمل والأفضل، والكمال كله والفضل كله حازته الذات الإلهية، فإذا وجَّه الإنسانُ قصده وهمته لغير فاطره، فإنه يشقى ولا بد، لأن همومه تتعدد، وغاياته تتشتت، فإذا لم يكن هم العبد همًّا واحدًا تقاسمته هموم الدنيا، فعند ذلك لا يدري إلى أين يسير؟ ولا كيف يتجه؟ فمرةً يُشَرِّقُ، ومرة يُغَرِّبُ، ومرة يعبد صنمًا، وأخرى شمسًا وقمرًا، ويحاول إرضاء هذا مرة، وذاك مرة، والذى رضي عنه قد يغضب عليه، والذي زيَّن له العمل قد يستقبحه منه بعد حين، فيؤول الأمر به إلى الصراع، والقلق الروحي، والعقد النفسية، وقد ينتهي به إلى الانتحار.

أما المسلم فغايته واحدة، ومنهجه الذي يؤدي إلى هذه الغاية واحد، وهو قادر على أن يُرضِيَ الله، ويسير على هداه، وبذلك تتوحد همته، ويتحقق مطلوبه، وفي ذلك يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت نيته الآخرة، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته طلبُ الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتَّت عليه أمره، ولا يأتيه منها إلا ما كُتِبَ له**»)[1] اهـ.

ومُشَتَّتُ العزمات ينفق عُمره ... حيرانَ لا ظَفَرٌ ولا إخفاقُ





(١) «مقاصد المكلفين» (ص٣٧١) بتصرف.





عُلوِيَّةُ الروح وَسُفليَّةُ البدَنِ

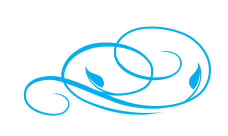
قال الإمام المحقق «ابن القيم» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

«خُلق بدن ابن آدم من الأرض، وروحه من ملكوت السماء، وقرن بينهما، فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه في الخدمة، وجدت روحه خفة وراحة، فتاقت إلى الموضع الذي خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوي، وإذا أشبعه، ونعَّمه، ونوَّمه، واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذي خُلق منه، فانجذبت الروح معه، فصارت في السجن، فلولا أنها ألفت السجن، لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذي خلقت منه، كما يستغيث المعذب.

وبالجملة: فكلما خَفَّ البدنُ؛ لطفت الروح، وخفت، وطلبت عالمها العلوي، وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة؛ ثقلت الروح، وهبطت من عالمها، وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه في الرفيق الأعلى، وبدنه عندك، فيكون نائمًا على فراشه، وروحه عند سدرة المنتهى، تجول حول العرش، وآخر واقف في الخدمة ببدنه، وروحه في السفل تجول حول السفليات، فإذا فارقت الروحُ البدنَ، التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين، وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة، وعند الرفيق الأسفل كل هَمٍّ وغَم وضيق وحزن وحياة نكدة، ومعيشة ضنك، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ



عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه:١٢٤]، فذِكره: كلامه الذي أنزله على رسوله ﷺ، والإعراض عنه: ترك تدبره والعملِ به، والمعيشة الضنك: فأكثر ما جاء في التفسير أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وابن عباس رضي الله عنهم؛ وفيه حديث مرفوع؛ وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة، فإن النفس كلما وسَّعْتَ عليها، ضَيَّقْتَ على القلب حتى تصير معيشة ضنكًا، وكلما ضيقت عليها، وسَّعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى؛ سَعتها في البرزخ والآخرة، وسَعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكُها في البرزخ والآخرة، فآثِرْ أحسن المعيشتين، وأطيبها، وأدومها، وأشْقِ البدن بنعيم الروح، ولا تُشْقِ الروح بنعيم البدن، فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون، والله المستعان»[1] اهـ.



(١) «الفوائد» (ص١٣٣، ١٣٤).





عَالِي الهِمةِ لا يَقنع بالدونِ
وَلا يُرضيه إلا معالِي الأمُور

إن الهمم العالية لا تعطي الدنية، ولا تقنع بالسفاسف، ولا ترضى إلا بمعالي الأمور، قال نابغة بني جعدة:

بلغنا السما مجدًا وجودًا وسؤددًا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وقال أبو العلاء المعري:

ولي نفس تحُل بيَ الروابي ... وتأبى أن تحل بي الوِهادا

تمد لتقبض القمرين كفًّا ... وتحمل كي تَبُزَّ النجمَ زادا

آخر:

قلت للصقر وهو في الجو عالٍ ... اهبط الأرضَ فالهواءُ جَديب

قال لي الصقر: في جناحي وعزمي ... وعَنانِ السماء مرعًى خصيب

وهذا المرعى لا شك يجهله الأرضيون، حيث ثقلة التراب، ومطامع الأرض.

وما أنا راضٍ أنني واطيء الثرى ... ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا

وقال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرُومِ ... فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

فطَعْمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ ... كطَعْمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ







وقال صفي الدين الحلي عبد العزيز بن سرايا الطائي (ت:٧٥٠هـ) لما وثب المسلمون لقتال التتر والمغول عندما غزوا العراق، في رائعته: «سَلي الرماحَ»:

إنا لَقوم أَبَتْ أخلاقُنا شَرَفًا ... أن نبتدي بالأذى مَن ليس يُؤذينا

بِيضٌ صنائعُنا، سودٌ وقائعنا ... خُضْرٌ مرابعُنا، حُمْرٌ مواضينا[١]

لا يظهر العجز منا دون نيل مُنًى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

إذا جرينا إلى سَبق العُلى طَلَقًا ... إن لم نكن سُبَّقًا كُنا مُصَلِّينا[٢]

وقال الباروديُّ:

فانهض إلى صَهَوات[٣] المجد معتليا ... فالبازُ[٤] لم يأوِ إلا عالي القُلَلِ[٥]

ودع من الأمر أدناه لأبعده ... في لُجَّة البحر ما يغني عن الوَشَلِ[٦]

قد يظفر الفاتك[٧] الألوى[٨] بحاجته ... ويقعدُ العجزُ بالهيَّابةِ[٩] الوَكِلِ[١٠]

إن عالي الهمة يعلم أنه إذا لم يزد شيئًا في الدنيا فسوف يكون زائدًا عليها، ومن ثم فهو لا يرضى بأن يحتل هامش الحياة، بل لا بد أن يكون في صلبها ومتنها عضوًا مؤثرًا:

---

(١) **المواضي** جمع ماضٍ: وهو السيف، أي أن سيوفنا حمراء من تقاطر الدماء في محاربة الأعداء.
(٢) **السابق**: الأول في السباق، **والثاني**: مُصَلٍّ.
(٣) **مقعد الفرس**: أي: ذرى المجد.
(٤) الصقر.
(٥) قمم الجبال.
(٦) الماء القليل.
(٧) الجريء.
(٨) الشديد.
(٩) الذي يخاف الناس.
(١٠) العاجز الذي إذا نابه أمر لا ينهض فيه، بل يكله إلى غيره.



وما للمرء خيرٌ في حياةٍ ... إذا ما عُدَّ من سَقَطِ[١] المتاع

آخر:

ولا تكن كواوِ عمروٍ زائدًا ... في القوم أو كنونِ الملحَقِ

وقال علي بن محمد الكاتب البُستي:

إذا ما مضى يوم ولم أصطنع يدًا ... ولم أقتبس علمًا فما هو من عمري

إن كبير الهمة نوع من البشر تتحدى همته -بحول الله وقوته- ما يراه غيرُه مستحيلًا، وينجز -بتوفيق الله إياه- ما ينوء به العصبة أولو القوة، ويقتحم -بتوكله على الله- الصعاب والأهوال، لا يلوي على شيء:

له هِممٌ لا منتهى لكبارها ... وهمتُه الصغرى أَجَلُّ من الدهرِ

فمن ثم قيل: «ليس في علو الهمة إفراط في الحقيقة»، لأن الهمم العالية طموحة وثَّابة، دائمة الترقي والصعود، لا تعرف الدعة والسكون.

إذا أظمأتْكَ أكفُّ الرجال ... كفتك القناعة شَبْعًا وَرِيَّا

فكن رجلًا رجلُه في الثرى ... وهامةُ همتِه في الثريا

بل قال ابن طباطبا العلوي:

له همة إن قِسْتَ فرطَ علوِّها ... حسبتَ الثريَّا في قرار قليبِ

بل إن همته تتجاوز الثريا، ولا تقنع بدون أعلى درجات الجنة.

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ لدُكين لما جاءه: «يا دُكين، إن لي نفسًا توَّاقة، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلتُها تاقت إلى الخلافة، فلما نِلتها تاقت إلى الجنة».

---

(١) السَّقَطُ: الرديء الحقير من المتاع والطعام.

قومٌ سمت بهم العوارفُ والنهى	أن يرغبوا في كل فانٍ قالي
قوم أبت بهم المفاخر والعلا	أن يشتروا غير النفيس الغالي

قال الإمام «ابن الجوزي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(من أعمل فكره الصافي؛ دله على طلب أشرف المقامات، ونهاه عن الرضى بالنقص في كل حال، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا	كنقص القادرين على التمامِ

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه:

فلو كان يُتصور للآدمي صعود السموات، لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد، رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض.

غير أنه إذا لم يمكن ذلك، فينبغي أن يطلب الممكن، والسيرة الجميلة عند الحكماء: خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل.

وأنا أشرح من ذلك ما يدل مذكوره على مُغْفَلِه:

أما في البدن: فليست الصورة داخلة تحت كسب الآدمي؛ بل يدخل تحت كسبه تحسينُها، وتزيينها، فقبيح بالعاقل إهمالُ نفسه، وقد نبه الشارع على الكل بالبعض: فأمر بقصِّ الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، ونهى عن أكل الثوم والبصل النيىء لأجل الرائحة، وينبغي له أن يقيس على ذلك، ويطلب غاية النظافة، ونهاية الزينة، وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعرف مجيئه بريح الطيب، فكان الغاية في النظافة والنزاهة.







ولست آمر بزيادة التقشف الذي يستعمله الموسوس، ولكن التوسط هو المحمود...).

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وينبغي له أن يجتهد في التجارة والكسب ليفضل على غيره، ولا يفضل غيره عليه، وليبلغ من ذلك غاية لا تمنعه عن العلم، ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في العلم.

ومن أقبح النقص: التقليد، فإن قويت همته رقته إلى أن يختار لنفسه مذهبًا، ولا يتمذهب لأحد، فإن المقلِّد أعمى يقوده مقلَّده.

ثم ينبغي له أن يطلب الغاية في معرفة الله تعالى ومعاملته، وفي الجملة لا يترك فضيلة يمكن تحصيلها إلا حصَّلها، فإن القنوع حالة الأراذل:

فكن رجلًا رِجْلُه في الثرى وهامةُ همتهِ في الثريَّا

ولو أمكنك عبورُ كل أحد من العلماء والزهاد فافعل، فإنهم كانوا رجالًا، وأنت رجل[(١)]، وما قعد من قعد إلا لدناءة الهمة وخساستها.

(١) وقد قيل: ليس كلمة أضرَّ بالعلم من قولهم: «ما ترك الأول للآخر»، لأنه يقطع الآمال عن العلم، ويحمل على التقاعد عن التعلم، والصواب أن يقال: «كم ترك الأول للآخِر»، قالوا: وليس كلمة أحضَّ على طلب العلم من قول علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «قيمة كل امرىء ما يحسن»، وانظر: «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٣٨، ٣٩).

وما أحسن ما قال الشاعر الإدكاوي (ت:١١٨٤هـ):

كن للمعاصرِ خيرَ ناصرْ كم للأوائل من مفاخرْ
لا تحقرن جديدَهم كم في جديدهمُ جواهر
ودع التعصبَ للأوا ئل يا فتى أو للأواخر
من كان منهم مُبدعًا فاعقد عليه من الخناصر



واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تُنتهب، ولا تخلد إلى كسل، فما فات من فات إلا بالكسل، ولا نال من نال إلا بالجد والعزم.

وإن الهمة لتغلي في القلوب غليان ما في القدور، وقد قال بعض من سلف:

ليس لي مال سوى كرِّي   فبه أحيا من العدمِ

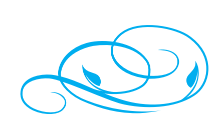
قَنِعَت نفسي بما رُزِقَتْ   وتَمَطَّتْ في العُلا هِمَمي)[1] اهـ

ومن غليان الهمة في الصدور يفزع صاحبها إلى المجد فزعًا:

إذا ذُكِرَ المجدُ ألفيتَه   تأزَّر بالمجد ثم ارتدى

وقال طرفة بن العبد:

إذا القومُ قالوا: مَن فتًى خِلْتُ أنني   عُنِيتُ فلم أكسلْ ولم أتبلدِ





(١) «صيد الخاطر» (١٨٩-١٩٢).

نُدْرَةُ كبيري الهِمَّة في الناسِ

وكبيرو الهمة يتسابقون إلى المكارم، لا يَكِلُّون، ولا يَمَلون، ولا يقنطون ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

وجد القنوطُ إلى الرجالِ سبيلَه — وإليكَ لم يجدِ القنوطُ سبيلا

ولَرُبَّ فردٍ في سُمُوِّ فِعاله — وعُلُوِّه هِمَمًا يعادل جيلا

وهم في الناس كالعملة النادرة، أو كالكِبريت الأحمر، يصدق عليهم قول رسول الله ﷺ: «**تجدون الناس كإبل مائة، لا يجد الرجل فيها راحلة**»(١).

وهم في الناس ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين:

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلا — فقد صاروا أعَزَّ من القليلِ

الواحد منهم بأمة، والفرد منهم بألف:

قال رسول الله ﷺ: «**لَصوتُ أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل**».

(١) رواه مسلم وغيره، **والراحلة**: النجيبة المختارة من الإبل للركوب وغيره، فهي كاملة الأوصاف، فإذا كانت في إبل عُرِفت، والهاء فيها للمبالغة كما يقال: رجل نسَّابة، وفهامة، وسميت راحلة؛ لأنها تُرْحل، أي: يُجعل عليها الرحْل، فهي فاعلة بمعنى مفعولة، كعيشةٍ راضية، أي: مرضية، ونظائره. ومعنى الحديث: أن المرضيَّ الأحوال من الناس، الكامل الأوصاف، الحسن المنظر، القوي على الأحمال والأسفار، قليل جدًّا، كقلة الراحلة في الإبل، وانظر: «شرح النووي» (١٦/ ١٠١).



ولم أرَ أمثالَ الرجالِ تفاوتًا ... إلى المجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

ولذا عظمت المصيبة بفقدهم، وعمت الرزية بموتهم:

تَعَلَّم ما الرزية فقدُ مالٍ ... ولا شاةٌ تموت ولا بعيرُ

ولكنَّ الرزيةَ فَقْدُ حُرٍّ ... يموت بموته بشر كثيرُ

آخر:

فما كان قيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ... ولكنه بنيانُ قوم تَهَدَّما

قال بعض السلف: «موت العالم ثُلْمَةٌ في الإسلام، لا يسدها شيء».

ومما قيل في رثاء عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ:

عَمَّت صنائعه، فعم هلاكُه ... فالناسُ فيه كلهم مأجورُ

والناس مَأتمهم عليه واحدٌ ... في كل دارٍ رَنَّةٌ وزفيرُ

يُثني عليك لسانُ مَن لم تُولِهِ ... خيرًا، لأنك بالثناء جديرُ

رَدَّتْ صنائعُه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشورُ

وقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صوت القعقاع -أي: ابن عمرو التيمي- في الجيش خير من ألف رجل».

ولما طلب عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فتح مصر كتب إليه:

«أما بعد: فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف: رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومَسْلَمة بن خالد».



وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا لأصحابه: «تَمَنُّوا» فقال رجل: «أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا، أنفقه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ»، فقال: «تمنوا»، فقال رجل: «أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا وجوهرًا أنفقه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وأتصدق به»، ثم قال: «تمنوا»، قالوا: «ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟»، قال عمر: «لكني أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة ابن الجراح»، أخرجه صاحب (الصفوة)، وأخرجه الفضائلي وزاد: فقال رجل: «ما آلوتَ(١) الإسلام»، قال: «ذلك الذي أردتُ».

وقال أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن علي الباقرُ:

«لكل قوم نجيبةٌ، وإن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز، إنه يُبْعَث أمَةً وَحْدَهُ».

وقال الأصمعي: لما صافَّ قتيبةُ بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: «هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبصُ بأصبعه نحوَ السماء»، قال: «تلك الأصبعُ أحبُّ إلَّي من مئة ألف سيف شهير، وشاب طرير».

وقد يُقرن ذو الهمة بالعجائب، بل يوفي عليها:

قال يحيى بن معين إمام المحدثين:

«رأيت بمصر ثلاث عجائب: النيل، والأهرام، وسعيد بن عفير».

---

(١) أي: ما قصرت في النصح للدين.

وهو الإمام الحافظ العلامة الأخباري الثقة أبو عثمان المصري كان من بحور العلم، وحسبك أن ينبهر به يحيى بن معين!

وسئل ابن المبارك عن الجماعة؟ فقال: «أبو بكر وعمر»، فقيل له: «قد مات أبو بكر وعمر»، قال: «فلانٌ وفلان»، قيل: «قد مات فلانٌ وفلان؟»، قال ابن المبارك: «أبو حمزة السكري جماعة»(١).





(١) هو محمد بن ميمون المروزي، ثقة، فاضل من الطبقة السابعة، روى له الجماعة، ولم يكن يبيع السكر، وإنما سُمِّيَ السكري لحلاوة كلامه، «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٨٦)، وانظر: «شرح السنة» (١/ ٢١٦).





عَالي الهمة لا يَرضَى بِمَا دُونَ الجنَّة

لما كان كمالُ الإرادة بكمال المراد، فإن أكمل الناس إرادة هو من أراد الله عَزَّوَجَلَّ، فوحَّده، ولم يشرك به شيئًا، وسعى إلى مجاورة الرفيق الأعلى في دار كرامته التي رضيها الله لأوليائه، وتجافى عن دار الغرور التي جعلها للمؤمن سجنًا، وللكافر جنة، قيل للعتَّابي: «فلان بعيد الهمة»، قال: «إِذن لا يكونُ له غاية دون الجنة».

إنها الجنة التي عليها تفاني المحبون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون، وفيها تنافس المتنافسون، وبرَوْح نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون.

قال رجل لابن السماك: عظني، فقال: «احذر أن تقدم على جنة عرضها السماوات والأرض، وليس لك فيها موضعُ قدم».

قد هيَّؤوك لأمر لو فطنتَ له ... فاربأ بنفسِك أن ترعى مع الهَمَلِ

وقد قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ليس السعيدُ الذي دنياه تُسعده ... إن السعيدَ لمن ينجو من النار

ولما كان مجد الآخرة أعظم المجد كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمَّ الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمم العلية، والنفوس الكبيرة الزكية.





أما الدنيا فإنها في نظرهم -مهما بلغت أمجادها- قليلة القيمة في جنب الآخرة؛ لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا»[١].

قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله عَزَّوَجَلَّ... وبائعُ نفسِه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى»[٢] ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

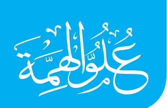
وإذا كانت لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفسًا، وأعلاهم همة، وأرفعهم قدرًا مَنْ لذتهم في معرفة الله ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (منهاج العابدين):

«الملك والكرامة بالحقيقة في الدنيا لأولياء الله عَزَّوَجَلَّ وأصفيائه الراضين بقضائه، فالبر والبحر والأرض والحجر والمدر لهم ذهب وفضة، والجن والإنس والبهائم والطير لهم مسخرون، لا يشاءون إلا ما شاء الله، وما شاء الله كان، ولا يهابون أحدًا من الخلق، ويهابهم كل الخلق، ولا يخدمون أحدًا إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ويخدمهم كل من دون الله، وأين لملوك الدنيا بعُشْر هذه الرتبة، بل هم أقل وأذل، وأما مُلك الآخرة فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠]



(١) «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٧٥).
(٢) «الأخلاق والسير» (ص١٦) بتصرف.





وأعظِم بما يقول فيه رب العزة (إنه مُلك كبير)[١]، وأنت تعلم أن الدنيا بأسرها قليلة، وأن بقاءها من أولها إلى آخرها لقليل، ونصيب أحدنا من هذا القليل قليل، ثم الواحد منا قد يبذل ماله وروحه حتى ربما يظفر بقدر قليل من هذا القليل في بقاءٍ قليل، وإن حصل له ذلك فيُعذَر، بل يُغْبَط، ولا يستكثر ما بذل فيه من المال والنفس[٢]، نحو ما ذكر عن امرىء القيس حيث يقول:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنَّا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عينك إنما	نحاول ملكًا، أو نموتَ فنعذرا

فكيف حال من يطلب الملك الكبير في دار النعيم الخالد المقيم؛ أيستكثر مع ذلك أن يصلي ركعتين لله تعالى أو ينفق درهمين أو يسهر ليلتين، كلا بل لو كان له ألف ألف نفس، وألف ألف روح، وألف ألف عمر كل عمر مثل الدنيا وأكبر وأكثر، فبذل ذلك كله في المطلوب العزيز؛ لكان ذلك قليلًا، ولئن ظفر بعده بما طلب، لكان ذلك غُنْمًا عظيمًا، وفضلًا من الذي أعطاه كثيرًا» اهـ[٣].

قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لو أن رجلًا يجر على وجهه من يوم وُلد إلى يوم يموت هرمًا في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ لحقره يوم القيامة»[٤]، وذلك لما يرى وينكشف له عِيانًا من عظيم نواله، وباهر عطائه.

(١) وقد قال رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو روحة خيرٌ من الدنيا وما فيها**» رواه البخاري.

(٢) راجع (ص٥٠).

(٣) «منهاج العابدين» (ص٢٤٧، ٢٤٨)، وانظر: قصة عبد الله بن حذافة (ص٤٤١، ٤٤٢).

(٤) رواه الإمام أحمد، والبخارى في «التاريخ»، والطبراني في «الكبير»، وقال الهيثمي: «إسناد أحمد جيد»، وفي سند الطبراني بقية، مدلس، لكنه صرح بالتحديث، وبقية رجاله وثقوا» اهـ.



فأخلِق بمثل هذا إذا عاين جنة الرضوان أن يتمثل قول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بيَ الهوى إلى غايةٍ ما بعدها لي مذهبُ
فلما تلاقينا، وعاينتُ حُسْنَهَا تيقنتُ أني إنما كنتُ ألعب

إن كبير الهمة لا يعتد بما له فناء، ولا يرضى بحياة مستعارة، ولا بِقُنْيةٍ(١) مستردة، بل همه قنية مؤبدة، وحياة مخلدة، فهو لا يزال يحلِّق في سماء المعالي، ولا ينتهي تحليقه دون عليين، فهي غايته العظمى، وهمه الأسمى، حيث لا نقص ولا كدر، ولا تعب ولا نصب، ولا هم ولا غم ولا حَزَن، إنما هي نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في مقام أبدي، في حَبرة ونَضرة، في دور عالية بهية، وهناك فقط تقر عينه، وتهدأ نفسه، ويستريح قلبه، قال تعالى في أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾

[الكهف:١٠٧، ١٠٨].

فالجنة هي الوطن، والأوطار إنما تطلب في الأوطان، أما الدنيا فهي دار غربة منذ أُهبِط إليها الأبوان:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأولِ
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدًا لأولِ منزلِ
فحيَّ على جنات عدن فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم



(١) القنية: بضم القاف وكسرها، وسكون النون، ما اكتُسِبَ.

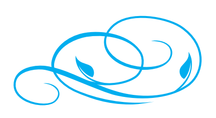




وقال الإمام تقي الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لعمرك إن لي نفسًا تسامى ... إلى ما لم ينل دارا بنُ دارا[(١)]

فمِن هذا أرى الدنيا هباءً ... ولا أرضى سوى الفردوس دارا





(١) **دارا**: من ملوك الفرس كان ضابطًا لملكه، قاهرًا لمن حوله من الملوك، يؤدون إليه الخراج، ملك من بعده ابنه (دارا) فأساء السير في رعيته فقتلوه في أثناء حربه مع الإسكندر، وتزوج الإسكندر ابنته. انظر: «تاريخ الأمم والرسل والملوك» (١/ ٣٣٦).



الدُّنيَا جيفَةٌ، وَالأَسدُ لا يقعُ على الجيَفِ

بعثت «بِلْقيس» إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هدية لتمتحن بها قدر همته: فإن رأتها قاصرة، علمت أنها لا تصلح للمعاشرة، وإن رأتها عالية تطلب ما هو أعلى، تيقنت أنه يصلح:

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل:٣٥، ٣٦].

فالدنيا هدية بِلقيس، فارفضها، وتشوَّف إلى ما هو أنفس منها.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«من أراد الآخرة، أضَرَّ بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة[١]، يا قوم! فأضِروا بالفاني للباقي».

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ومن يذق طعم الحياة فإني خبرتُها ... وسيق إلَيَّ عَذْبُها وعذابُها

فلم أرها إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلابٌ هَمُّهُنَّ اجتذابها

فإن تجتنبها عشت سِلمًا لأهلها ... وإن تجتذبها ناهشتك كلابُها



(١) وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسَعَّر بهم النار بيان كافٍ لمدى هذا الضرر الذي نشأ عن همة خسيسة أرادت الدنيا بأعمال الآخرة.

لِمَاذَا لَا يوصَفُ الكافِرُ بعلو الهِمَةَ؟

يخطئ بعض الناس حين يصفون بعض شعوب الكفار كالألمان مثلًا أو اليابانيين، أو أفرادهم من المخترعين والباحثين، بالهمة العالية، وهذا خطأ بيِّن، لأن الهمة العالية حِكر على طلاب الآخرة، وهي -من شرفها وعزتها- تأنف أن تسكن قلبًا قد تنجس بالشرك والكفران، وتلطخ بأقبح معصية في الوجود، وحصر هِمَّته في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شَبَّه حال المشرك في تفرقه وهلاكه بحال الهاوي من السماء في أنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع، بحيث تُسقطه الريح؛ فهو هالك لا محالة، إما باستلاب الطير لحمه، وإما بسقوطه إلى المكان السحيق» اهـ[1]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه:١٥].

---

(١) «معالم التنزيل» (٥/ ٣٨٤).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩].

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الآية [البقرة:٢٢١].

وكان من دعاء الصادق المصدوق صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا، ولا مبلغ علمنا**».

وقد بينَّا أن كمال «الإرادة» بكمال «المراد».

فمن نظر إلى «الإرادة»، وقطع النظر عن «المراد» وقع في هذا الخطأ البين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: «ومن هذا الجنس حال خفراء -أي حُرَّاس- الكافرين، والمبتدعين والظالمين، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة، كما يكون للمشركين وأهل الكتاب، وكما كان للخوارج المارقين[١]... وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة، كما يكون لهم ملكة ظاهرة، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر، ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون»[٢].



(١) انظر: هامش (ص٣٤، ٣٥).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٤٤) بتصرف.

وقد تواترت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية على ذم الدنيا وتحقيرها، ومدح الآخرة وتعظيمها، وهذا الكافر ليس له مراد إلا تعمير الدنيا، فلها يكدح، وعليها يقاتل، مع إعراضه عن الآخرة، وزهده فيها، أو تكذيبه بالبعث والنشور، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧، ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ [الرعد:٢٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢١٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة:٢٠٠].

قال محيي السنة البغوي في تفسيرها:

«أراد به المشركين كانوا لا يسألون الله تعالى في الحج إلا الدنيا يقولون: اللهم أعطنا غنمًا وإبلًا وبقرًا وعبيدًا، وكان الرجل يقوم فيقول: يا رب! إن أبي كان عظيم القبة، كبير الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته، قال قتادة: هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونَصَبَ، وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب»[١].

---

(١) «معالم التنزيل» (١/ ١٧٧).

وبَيَّن تعالى أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية فقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]، ولذلك شنع على الذين يفضلون الدنيا على الآخرة، ويشتغلون بها عنها؛ فقال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠، ٢١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠].

وحذر نبيَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من التطلع إلى زهرة الدنيا، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا(١) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١]، وقال للمؤمنين: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيُقال له: ألم أجعل لك سمعًا، وبصرًا، ومالًا، وولَدًا؟ وسخَّرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس، وترْبَعُ؟ فكنتَ تظن أنك ملاقي يومِك هذا؟**»،



(١) قال النسفي في «تفسيره»: (ولقد شدَّد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة، وعُدد الفسقة، في ملابسهم ومراكبهم، حتى قال الحسن: «لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب») اهـ. (٢/ ٣٨٧).

فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»(١)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما رأيت مثلَ النارِ نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها**»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكرَ اللهِ وما والاه**(٣)**، أو عالمًا أو متعلمًا**»(٤).

وحسبنا أن هذه الدنيا الدنية وصفها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كلمة واحدة بذلك الوصف الحاسم البليغ: «باطل»، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لَبيد: ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل**»(٥).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مضطجع على سرير مُرَمَّل(٦) بشريط، وتحت رأسه وسادة من أدَمٍ حشوها ليف، فدخل عليه نفر من أصحابه، ودخل عمر، فانحرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انحرافة، فلم يَرَ عمر بين جنبه وبين الشريط ثوبًا، وقد أثَّر الشريط بجنب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكى عمر، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يُبكيك يا عمر؟**»، قال: والله، إلا أن أكون أعلم(٧) أنك أكرم على الله عَزَّ وَجَلَّ من كسرى

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي، وابن خزيمة.
(٢) رواه الترمذي، وحسَّنه لغيره الألباني في «الصحيحة» [٩٥٣].
(٣) **ما والاه**: أي: ما أحبه الله مما يجري في الدنيا، وقيل: المراد بها يوالي ذكر الله طاعتُه واتباع أمره، وتجنب نهيه، لأن ذكر الله يقتضي ذلك.
(٤) رواه الترمذي، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه، وحسنه الألباني في «الصحيحة» [٢٧٩٧].
(٥) رواه البخاري.
(٦) أي: كان السرير قد نسج بالسعف، ولم يكن على السرير وطاء.
(٧) أي: والله ما يُبكيني إلا أن أكون أعلم... إلخ.

وقيصر، وهما يعبثان[١] في الدنيا فيما يعبثان فيه، وأنت يا رسول الله بالمكان الذي أرى؟، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا، ولنا الآخرة؟**»، قال: بلى، قال: «**فإنه كذلك**»[٢].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«**يُؤتى بأنعمِ أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبَغُ في جهنم صَبغة، ثم يقال له: يا بن آدم! هل رأيتَ خيرًا قط؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قَط؟، فيقول: لا والله يا ربِّ، ويُؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغ في الجنة صَبغة، فيقال له: يا بنَ آدم! هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مَر بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مَر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[٣].

فكيف يكون عاليَ الهمة مَن أمكنه أن يكون ملِكًا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فتقوم الملائكة في خدمته، وتدخل عليه من كل باب: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٤]، فإذا به يتنكب طريق الإيمان، ويتمرغ في وحل الكفر والفسوق والعصيان، ويزهد في جنة الرضوان، ويأبى إلا أن يكون حطبًا للنيران؟!

ويبذل نفسه وماله وولده في سبيل صد الناس عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٦٧]،



(١) أي: أقبلت عليهما الدنيا، حتى صارا يلعبان بأموالها ومتاعها لعبًا، وأنت لا تجد فراشًا يقي جسمك من تأثير الحصير.
(٢) رواه الإمام أحمد، والشيخان.
(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

وكيف يكون عالي الهمة من فطره الله على التوحيد، فأفسد فطرته، وآتاه نعمة العقل، فعطَّلَها، وبثَّ له آياتِ توحيده، ودلائلَ صدقِ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآفاق وفي نفسه، وأنزل كتابه المعجز، فأعرض عن ذلك كله، ولم يرفع به رأسًا، وجعل الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٣-٨٥].

وقد رُويَ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال:

قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله يُبغضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ**(١) **جَوَّاظٍ**(٢)، **سَخَّابٍ**(٣) **في الأسواقِ، جِيفةٍ**(٤) **بالليلِ، حِمارٍ بالنهارِ، عالمٍ بأمرِ الدنيا، جاهلٍ بأمرِ الآخرةِ**»(٥).

---

(١) **الجعظري**: الفظ الغليظ المتكبر، وقيل: هو الذى ينتفخ بما ليس عنده.

(٢) **الجواظ**: الجَمُوع المَنوع، وقيل: الكثير اللحم، المُختال في مِشيته.

(٣) **السخاب**: السخب والصخب بمعنى الصياح، فالسخاب هو كثير الضجيج والخصام، قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي حديث المنافقين: «**خُشُب بالليل، سُخُب بالنهار**»، أي إذا جن عليهم الليل سقطوا نيامًا كأنهم خُشُب، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحًّا وحرصًا) اهـ.

(٤) **جيفة**: أي: كالجيفة، لأنه يعمل كالحمار طوال النهار لدنياه، وينام طوال الليل كالجيفة التي لا تتحرك.

(٥) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم [٢٣٠٤].



فما أشدَّ انطباقَ هذا الحديث على هؤلاء الكفار الذين لا يهتمون لآخرتهم، مع علمهم بأمور دنياهم، وفرحهم بما عندهم منها، كما قال تعالى فيهم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧]، وقال سبحانه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم:٢٩، ٣٠]، فهم يجتهدون في العلم بأمور دنياهم، ويُمعِنون في تحصيلها، مع جهلهم التام بأشرف العلوم، وهي علوم الآخرة التي هي شرف لازم لا يزول، دائم لا يُمَل، فجدير بمن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير أن يبغضه الله، ويمقته لشقاوته وإدباره، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كرمهم بنعمة العقل، وميزهم بها على العجماوات، فسخروها أعظم تسخير في كل شيء من أغراض الدنيا الخسيسة؛ كالتأنق في الشهوات والمأكل والملبس والترفه، إلا الشيء الذي خُلقوا من أجله، وهو عبادة الله وحده، لا شريك له، واتباع رسله عليهم الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٧١]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢].

وصف سعد بن معاذ المشركين فقال:

«رأيت قومًا ليس لهم فضل على أنعامهم، لا يهمهم إلا ما يجعلونه في بطونهم، وعلى ظهورهم، وأعجبُ منهم قوم يعرفون ما جهل أولئك، ويشتهون كشهوتهم».





وقال -عز مِن قائل- في سورة الروم: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٦] بحكمته تعالى، في كونه، وأفعاله المحكمة، الجارية على وفق العدل، لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو ما يوافق شهواتهم وأهواءهم ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ التي هي المطلب الأعلى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: لا يخطرونها ببالهم، فهم جاهلون بها، تاركون لعملها.

وقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه، ويَسُدُّ مَسَدَّه، ليُعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا.

﴿ظَٰهِرًا﴾ يفيد أن للدنيا ظاهرًا وباطنًا، فظاهرها: ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها، والتنعم بملاذها، وباطنُها، وحقيقتُها: أنها مجاز إلى الآخرة، يُتَزَوَّدُ منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة، وقيل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني أمر معايشهم ودنياهم: متى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ وكيف يغرسون؟ وكيف يبنون؟ وحدِّث ولا حرج عن مظاهر استغراق كفار زماننا وبخاصة الغربيون منهم في علوم الدنيا ودقائقها؛ مع إعراضهم التام عن علوم الآخرة.

ومن الكفار من يريد الجنة، ويكدح لنيلها، لكنه يخطىء الطريق إليها، إذ يريد دخولها بعد أن سُدَّت كل الطرق المؤدية إليها إلا طريقًا على رأسه خاتَم النبيين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يأبى الإيمان برسالته، والانقياد لشريعته، ويكابر

في الحق بعد ما تبين، وظهرت أدلته، أو يكتفي بتقليد الآباء والأجداد، والرؤساء والسادات[(١)]، فيكون جوابه إذا سئل عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره: «سمعت الناس يقولون شيئًا، فقلته».

عاشوا كما عاش آباء لهم سَلَفُوا ... وأُورِثُوا الدِّينَ تقليدًا كما وَجَدُوا

لم تنبعث همته للبحث عن الحق، والنظر في الأدلة، في حين أنها كانت تنبعث في الدنيا في طلب سفاسف الأمور وأحقرها، وهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ[(٢)] ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ[(٣)] ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٢-٤]، وقال سبحانه فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣، ١٠٤]، وقال أيضًا: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧].

وكيف يُعْجَبُ مسلم بكافر، ويمدحه بعلو الهمة بسبب أعمالٍ غايتها تعمير الدنيا[(٤)] وإصلاحها، أو تعبدات بشريعة منسوخة.



---

(١) انظر: «الشهادتان أول واجب على كل إنسان» للمؤلف (ص٢٢١، ٢٢٢).

(٢) **خاشعة**: ذليلة بالعذاب.

(٣) قال سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم: «هم الرهبان أصحاب الصوامع»، وعن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الشام، أتاه راهب شيخ كبير مُتَقَهِّل (أي شعِث وسِخ)، عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: «يا أمير المؤمنين، ما يبكيك؟»، قال: «هذا المسكين طلب أمرًا، فلم يُصِبْهُ، ورجا رجاءً فأخطأه»، وقرأ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ اهـ. من «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠/ ٧٢).

(٤) انظر: «مآلات الخطاب المدني» للشيخ إبراهيم عمر السكران.



ثم إن كان قد فعلها تعبدًا دون أن يُسْلِمَ لله عَزَّوَجَلَّ فإنها لا تنفعه قطعًا في الآخرة، بل يجعلها الله هباء منثورًا: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [إبراهيم:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور:٣٩].





استِخفَافُ السَّلَف الصالح بِأَعراض الدنيا

كبير الهمة على الإطلاق: هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه، فلا يصير عبد عارية ببطنه وفرجه، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة، فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا، ومن مجاوريه في الآخرة، وصغير الهمة من كان على الضد من ذلك[١].

«وإذا علمت نفسٌ -طاب عنصرها، وشرف وجدانها- أن مطمح الهمم إنما هي غاية وحياة وراء حياتها الطبيعية -لم تقف بسعيها عند حد غذاء يقوتها، وكساء يسترها، ومسكن تأوي إليه.

بل لا تستفيق جهدها، ويطمئن بها قرارها إلا إذا بلغت مجدًا شامخًا يصعد بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء»[٢].

وكبير الهمة يُعَظِّمُه صِغَرُ الدنيا في عينيه، فيكون خارجًا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد.

ويكون خارجًا من سلطان فرجه، فلا يستحق له رأيًا ولا بدنًا.

قال إبراهيم بن أدهم: «إن الحُرَّ الكريم يَخرج من الدنيا قبل أن يُخرج منها».



(١) «الذريعة» للأَصفهاني (ص١٩٠).
(٢) «الحرية في الإسلام» للعلامة محمد الخضر حسين (ص١٠).

ولما فقه سلفنا الصالحون عن الله أمره، وتدبروا حقيقة الدنيا، ومصيرهم إلى الآخرة، استوحشوا من زخرفها، وتناءت قلوبهم عن زينتها، وارتفعت هممهم فوق سفاسفها، وجعلوا الهموم همًّا واحدًا هو إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ، ومجاورته في دار كرامته:

إن لله عبادًا فُطَنا	طلَّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنَا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحَيٍّ وطنا
جعلوها لُجَّةً واتخذوا	صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا

وحرصوا على إزاحة كل ما قد يعوقهم عن المضيِّ قدمًا نحو غايتهم، بما في ذلك فضول المباحات.

قال عبد القادر الجيلاني لغلامه: «يا غلام! لا يكن همك ما تأكل، وما تشرب، وما تلبس، وما تنكح، وما تسكن، وما تجمع، كل هذا: همُّ النفس والطبع، فأين هم القلب؟! هَمُّك ما أهمك، فليكن همك ربك عَزَّوَجَلَّ وما عنده».

ولما هَمَّ الإمام الجليل الليث بن سعد بفعلٍ مفضول ينافي العزيمة، قال له إمام المدينة يحيى بن سعيد الأنصاري: «لا تفعل، فإنك إمام يُنظر إليك».

وسأل سائل ابن الجوزي: أيجوز أن أفسح لنفسي في مباح الملاهي؟ فقال له: «عند نفسك من الغفلة ما يكفيها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية -قدَّس الله روحه- في شيء من المباح: «هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة»، أو نحو هذا من الكلام[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦).

وقال الحافظ أبو الطاهر السِّلَفيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لي ستون سنة بالإسكندرية، ما رأيت منارتها إلا من هذه الطاقة»، وأشار إلى غرفة يجلس فيها.

وقال الحافظ أبو الحسن علي بن أحمد الزيدي: «اجعلوا النوافلَ كالفرائض، والمعاصيَ كالكفر، والشهواتِ كالسم، ومخالطةَ الناس كالنار، والغذاء كالدواء».

ورحل «يحيى بن يحيى الليثي» إلى الإمام مالك وهو صغير، وسمع منه وتفقه، وكان مالك يعجبه سَمْتُه وعقله، روي أنه كان يومًا عند مالك في جملة أصحابه؛ إذ قال قائل: «قد حضر الفيل»، فخرج أصحاب مالك لينظروا إليه غيره، (أي: وبقي يحيى مكانه) فقال له مالِك: «لِمَ لَمْ تخرج فترى الفيل، لأنه لا يكون بالأندلس»، فقال له يحيى: «إنما جئت من بلدي لأنظر إليك، وأتعلمَ من هديك، وعلمك، ولم أجىء لأنظر إلى الفيل»، فأعجب به مالك، وسماه «عاقل أهل الأندلس».

إنه من المباح مشاهدة حيوان غريب.. ولكن وقت الداعية القدوة أضيق من أن يشغل شيئًا منه في مباح، لا يجني من ورائه شيئًا لقضيته التي تشغله ليل نهار.

قال السيد أحمد الحموي:

وقـائـلـةٍ لمْ لا تـَغـزَّلُ في الظِّبا ... وطبعُك من ماء اللطافة قد رَوِي

فقلتُ لها قَدْرِي تَسامَى عن الذي ... تُرومي لِشُغلي بالعلومِ وما رُوِي



وأُهدِيت إلى أبي بكر الأنباري جارية، فلما دخلت عليه تفكر في استخراج مسألة فعزبت عنه، فقال: أخرجوها إلى النخاس، فقالت: هل من ذنب؟ قال: «لا، إلا أن قلبي اشتغل بك، وما قدر مثلك أن يمنعني علمي».

ولما فرَّ «عبد الرحمن الداخل» من العباسيين، وتوجه تلقاء الأندلس، أهديت إليه جارية جميلة، فنظر إليها، وقال: «إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردَّها على صاحبها»[(١)].

لقد حفل تراثنا الاسلامي بمواقف رائعة تشي بعلو همة سلفنا الصالح، وتعلن عن نظرتهم العميقة إلى حقائق الأشياء، وتساميهم على المظهرية الجوفاء، وترفعهم عن سفاسف «التطوس» الكاذب، واعتزازهم بانتمائهم إلى الدين الحنيف، دين العزة والكرامة، فمن ذلك ما صح عن ابن شهاب قال: خرج عمر ابن الخطاب إلى الشام، ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة، وعمر على ناقة، فنزل عنها، وخلع خفيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين، أأنت تفعل هذا؟! تخلع نعليك، وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك!» فقال عمر: «أوَّه لو يقل ذا غيرُك أبا عبيدة جعلتهُ نكالًا لأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنا كنا أذلَّ قوم فأعزنا الله بالاسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»، وفي رواية: «يا أمير المؤمنين، تلقاك الجنود وبطارقة

---

(١) «نفح الطيب» (٤/ ٤٣).

الشام وأنت على حالك هذه؟» فقال عمر: «إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العز بغيره».

وعن أسلم قال: قدم عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الشام على بعير، فجعلوا يحدِّثون بينهم، فقال عمر: «تطمح أبصارهم إلى مراكبِ مَن لا خلاق لهم».

وعن سعد بن الحسن التميمي قال: «كان عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يُعرف مِن بين عبيده»، يعني لتواضعه في ملبسه.

ودخل أعرابي رث الهيئة بالي العباءة على أمير المؤمنين معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فاقتحمته عينه، فعرف الأعرابي ذلك في وجه معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال: «يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، ولكن يكلمك مَن فيها»، فأدناه فإذا به مِدْرَهُ[١] فصاحة في القول وبلاغة، فجعله من خاصته.

وإن كان في لُبْسِ الفتى شرفٌ له   فما السيفُ إلا غِمْدُه والحمائلُ

قال الإمام أبو داود الظاهري رَحِمَهُٱللَّهُ:

حضر مجلسي يومًا أبو يعقوب الشريطي، وكان من أهل البصرة، وعليه خرقتان، فتصدر لنفسه من غير أن يرفعه أحد، وجلس إلى جانبي، وقال لي: «سل يا فتى عما بدا لك»، فكأني غضبت منه، فقلت له مستهزئًا: أسألك عن الحجامة، فبرك أبو يعقوب ثم روى طريق «أفطر الحاجم والمحجوم» ومن أرسله ومن أسنده ومن وقفه ومن ذهب إليه من الفقهاء، وروى اختلاف طريق احتجام رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإعطاء الحجّام أجره، ولو كان حرامًا لم يعطه، ثم روى



(١) المِدْرَه: السيد الشريف، والمُقْدِمُ عند الخصومة والقتال.

طرق أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «احتجم بقرن» وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة مثل «**ما مررت بملأ من الملائكة**» ومثل «**شفاء أمتي في ثلاث**»، وما أشبه ذلك، وذكر الأحاديث الضعيفة مثل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**لا تحتجموا يوم كذا ولا ساعة كذا**»، ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب من الحجامة في كل زمان وما ذكروه فيها، ثم ختم كلامه بأن قال: وأول ما خرجت الحجامة من أصبهان، فقلت له: «والله لا حَقَرْتُ بعدَك أحدًا أبدًا»(١).

وصدق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**رب أشعث أغبر ذي طِمرين**(٢) **لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره**»(٣).

والأمثلة على ما ذكرنا كثيرة حفلت بها تراجم العلماء العاملين، فمن أمثلة ذلك أن الإمام شيخ الإسلام النووي رَحِمَهُ اللهُ كان إذا رآه الرائي ظنه شيخًا من فقراء سكان القرى، فلا يأبه له، ولا يخيل إليه أنه شيء يُذكر، فإذا سمعه يُدَرِّس أو يقرر أو يحدِّث فَغَر فاه، وحملق بعينيه عجبًا من هذه الأسمال أن تنكشف عن جوهر نفيس، وعبقرية نادرة في العلم والزهد والتقوى، ولا عجب فالتراب مكمن الذهب.

دنوتَ تواضعًا وعلوتَ مجدًا	**فشأناك انخفاض وارتفاعُ**
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى	**ويدنو الضوء منها والشعاع**

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) **الطِّمْر**: الثوب الخلَق البالي، جمعه أطمار.

(٣) رواه الترمذي ومعناه: أن بعض المؤمنين قد أعطاهم الله منزلة عظيمة، رغم ما يظهر للناس من بساطة لباسهم وهيأتهم، فدعاؤهم مستجاب، ولكنهم شُغلوا بمراقبة الله تعالى عن ملاحظة مظهرهم، واشتد زهدهم في الدنيا فلم يرغبوا في شيء منها.



آخر:

تـراه وهـو ذو طِـمـريـن يمشي بـهـمـتـه عـلـى هـام الـسِّـمـاكِ[١]

إنَّ الناس في كل زمان ومكان يغرهم حسن الهيئة، وجمال الهندام، فإذا رَأَوْا مَن هذه صفته وَقَّروه وعظموه قبل أن يعرفوا ما وراء هذه البزة، وقد يكون فيها نخاع ضامر، وفكر بائر، وقلب حائر:

تَـرَوْنَ بـلـوغَ المجـدِ أن ثيابكم يـلـوحُ عليها حسنُها وبَصيصُها

ولـيـس الـعُـلـى درَّاعـةً ورداءهـا ولا جُـبَّـة مـوشـيـة وقميصُها

وقال المتنبي:

لا يُعجبنَّ مُضيمًا حُسْنُ بَزَّتِهِ وهـل تـروقُ دفينًا جَـوْدَةُ الكَفَنِ

آخر:

لـيـس الجـمـال بمـئـزرٍ فـاعـلـم وإن رُدِّيـتَ بُـرْدا

إن الجـمـال مـعـادن ومحـاسـنٌ أورثـن مجـدا



ورأيت إمام العصر عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ في إحدى السنوات في منى متوجهًا -بعد العصر- إلى رمي الجمرات، وقد طفق يذكر الله بلسانه، متوكئًا على عصا بيده، يتقدمه جندي وقد أمسك يده بيده الأخرى، وعلى الإمام ثوب قصير غاية في التواضع والرثاثة، وبقدميه نعلان لو عُرضا على فقير لاستنكف أن يقبلهما، هذا وهو إمام الدنيا، ولو طلب المال لتكدست تحت قدميه الكنوز.

(١) **السِّماكان:** نجمان نيِّران، أحدهما في الشمال، وهو السِّماك الرامح، والآخر في الجنوب، وهو السِّماك الأعزل.

يمشي على تلك الهيئة لا يُفطن له، ولا يكترث له أحد، ولو شاء لحُمِلَ بالطائرة إلى مرمى الجمرات.

وكم تواضعتَ عن فضلٍ وعن شرفٍ وهمةٍ هامةَ الجوزاءِ[(١)] تنتعلُ

ورأينا العجب من صبرهم على شظف العيش، ومعاناة الفقر، إذ كانوا قد أُحْصِروا في سبيل حفظ الدين، ووقفوا حياتهم على حراسة السنة، فهذا الإمام العَلَم إبراهيم بن إسحاق الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «أفنيت عمري ثلاثين سنة برغيفين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي أكلت، وإلا بقيتُ جائعًا عطشان إلى الليلة الثانية، وأفنيتُ ثلاثين سنة من عمري برغيف في اليوم والليلة، إنْ جاءتني امرأتي أو إحدى بناتي به أكلتُه، وإلا بقيتُ جائعًا عطشانَ إلى الليلة الأخرى.

والآن آكلُ نِصفَ رغيف وأربعَ عشرةَ تَمْرة إن كان بُرنيًّا، أو نيِّفًا وعشرين إن كان دَقَلًا، ومَرِضَتْ ابنتي، فمضَتْ امرأتي، فأقامت عندها شهرًا، فقام إفطاري في هذا الشهر بدرهم ودانِقَين ونصف! ودخلتُ الحَمَّامَ، واشتريتُ لهم صابونًا بدانِقَين، فقامَتْ نفقةُ شهر رمضان كله بدرهم وأربعة دوانق ونصف».

وقال أبو القاسم بن بُكَير: سمعت إبراهيم الحربي يقول: «ما كنا نَعرفُ من هذه الأطبخة شيئًا، كنت أجيءُ من عَشِّي إلى عَشِي وقد هيَّأَتْ لي أمِّي باذنجانة مشوية، أو لَعْقَةَ بِنٍّ -البِن بكسر الباء: الشَّحْم-، أو باقةَ فِجْل».

وقال أبو علي الخياط المعروف بالميت: كنتُ يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربي على باب داره، فلما أن أصبحنا قال لي: «يا أبا علي قم إلى شُغلك، فإنَّ عندي فِجلةً قد أكلتُ البارحةَ خَضِرَها، أقومُ أتغدَّى بجزَرَتِها».

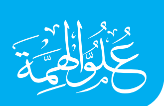
(١) **الجوزاء**: برج من أبراج السماء.

وقد دُهش المؤرخون للسرعة التي أقام بها المسلمون دولتهم، وللسرعة التي انهارت بها أمامهم الإمبراطوريتان العظيمتان في ذلك الوقت، ولم يدرك الكثير منهم سر عظمة هذه الأمة الناشئة، الذي يكمن في المدد الرباني لهؤلاء المجاهدين، ليس فقط بالإمداد بالملائكة تُثَبِّتُ الذين آمنوا، لكن أيضًا بإمداد الله إياهم بمفاهيمَ وقيمٍ ومقوماتٍ أهَّلتهم لقيادة البشرية، وانتزاع عجلة القيادة من قيم هابطة، ومفاهيم متخلفة، وعقائد فاسدة، ومُثُلٍ مهترئة، فقد كانت المواجهة صراعًا بين حضارتين مختلفتين كل الاختلاف في القيم والمفاهيم والمنطلقات، وكان الطبيعي أن تسري سنة الله في خلقه، ويمضي قانونه المحكم: أن البقاء للأصلح ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧]، فلنطالع صورًا من هذه المواجهة بين الحضارتين، والتي حسمت نتيجة الصراع قبل المواجهة المسلحة لصالح حزب الله المفلحين:

★ لما بلغ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجيشه حاكم مصر «المقوقس» وجيشه، بعث عمرو إليه عشرة رجال أحدهم عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان «عبادة» شديد السواد، وأمره أن يكون متكلم القوم، ولا يجيب الروم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث، فلما دخلت رسل المسلمين إلى المقوقس، وعلى رأسهم عبادة، هابه المقوقس لسواده وفرط طوله، وقال: «نَحُّوا عني ذلك الأسود، وقدِّموا غيره يكلمني»، فقال الوفد جميعًا:

«إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرُنا والمقدَّم علينا، وإنما نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمَّره الأمير دوننا لما أمره، وأمرنا ألا نخالفَ رأيه






وقوله»، ثم قالوا -وكان قولهم عجيبًا عند المقوقس-: «إن الأسود والأبيض سواء عندنا، لا يفضل أحدٌ أحدًا إلَّا بفضله، وعقله، وليس بلونه»(١).

ولا مراء في أن «المقوقس» كان مُستاء من وجود عبادة بن الصامت، ذلك العبد الأسود، وحَسِبَ أن اختيار عمرو له ليكون متكلم القوم إنما كان تصغيرًا لمقام المقوقس وتحقيرًا لشأنه، فلما أجمع رسل المسلمين على أنه المتحدث باسمهم جميعًا، لم ير المقوقس بُدًّا من محادثة عُبادة ومفاوضته، فأومأ إليه أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه، فقال عبادة: «إن فيمن خلَّفتُ من أصحابي ألفَ رجل أسود، كلهم أشد سوادًا مني.. وإني ما أهاب مائة رجل من عدوي، لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله، واتباع رضوانه، وليس غزوُنا عَدُوَّنا ممن حارب الله لرغبة في دنيا، ولا طلبٍ للاستكثار منها؛ لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا الله، وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه»(٢)، فوقع هذا القول في نفس المقوقس وقعًا شديدًا، وقال لأصحابه: «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل.. إنَّ هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخرابِ الأرض» ثم أقبل على عبادة، وأراد أن يسلك معه طريق الإرهاب المغلَّف في قالَبٍ من النصح، فقال له: «أيها الرجل الصالح! قد سمعت مقالتك وما ذكرتَ عنك

(١) «الخطط» للمقريزي (١/ ٢٩٢).
(٢) نفسه (١/ ٢٩٣).



وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم وما ظهرتم على مَن ظهرتم عليه، إلَّا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم مِن جمع الروم ما لا يُحصى عدده، قوم معرفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدهم مَن لقي ولا من قاتل، وإننا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضوها، وتنصرفوا إلى بلادكم، قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به»[(١)].

فنظر إليه «عبادة بن الصامت» شامخًا، وخاطبه بصوت كله ثقة وإيمان قائلًا: «يا هذا لا يغرنَّ نفسَك ولا أصحابك ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما كان هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه... إن قُتِلنا عن آخرنا كان أمكنَ لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقرّ لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإن الله عَزَّوَجَلَّ قال في كتابه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]، وما من رجل إلَّا وهو يدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة، وألا يردَّه إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث خصال، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قبل إلينا»[(٢)].



(١) نفسه (١/ ٢٩٣).
(٢) نفسه (١/ ٢٩٤).

وقد أراد المقوقس أن يستنزله عن شيء، أو أن يجعله يقبل شيئًا مما عرض عليه، فلم يقدر على شيء، بل وقع قوله على آذان صماء لما يقول، وقال عبادة يرد عليه بعد أن نفد صبره، ورفع يديه إلى السماء: «لا ورب هذه السماء، وَرب هذه الأرض، وربِّ كل شيء، ما لكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم»(١)، عند ذلك اجتمع المقوقس بأصحابه فقالوا: «أما الأمر الأول فلا نجيب إليه أبدًا، فلا نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه»، وبذلك رفضوا شرط الإسلام، فلم يبق أمامهم إلَّا شرط الجزية أو الحرب، فقالوا: «إنا إذا أذعنَّا للمسلمين، ودفعنا الجزية، لم نَعْدُ أن نكون عبيدًا، ولَلْموت خير من هذا»، فردَّ عليهم عبادة قائلًا: «إنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، مسلطين في بلادهم على ما في أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم، وحُفظت لهم كنائسهم، لا يتعرض لهم أحد في أمور دينهم»، فقال المقوقس لمن حوله: «أجيبوني وأطيعوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتُجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين»(٢).

هكذا سار هؤلاء الربانيون بمفتاح الجنة «لا إله إلا الله» يفتحون به مشارق الأرض ومغاربها، لا يستعصي عليهم منها قطر، فالحصون تفتح، والقلوب تفتح، والقيم الصحيحة تسود، والموازين تصحح، وفيما يلي صورة أخرى(٣) تجلت فيها أصالة التربية المحمدية لخير أمة أخرجت للناس، حيث تشغل الدنيا في اهتمامهم

---

(١) «فتوح مصر» لابن عبد الحكم (ص٥٩-٦٣).

(٢) نفسه، وانظر: «عمرو بن العاص بين يدي التاريخ» (ص١٥٨-١٦٠).

(٣) انظر: «تاريخ الطبري» (٣/ ٤٩٦) وما بعدها، «البداية والنهاية» (٧/ ٣٩)، و«فكرة القومية العربية» للشيخ صالح بن عبد الله العبود (ص٣٣٣-٣٤٠).



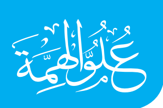
القدر الضئيل الذي تستحقه، أما الآخرة فهي الهم الأكبر، وهي الغاية العظمى، وهي الحياة الحقيقية الخالدة:

★ جاء سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى نزل «القادسية» ومعه الناس، ولا يزيد المسلمون على سبعة آلاف أو نحو من ذلك، والمشركون يبلغون ثلاثين ألفًا أو نحوًا من ذلك، ونبال المسلمين وعُدَّتهم موضع سخرية أهل فارس، وجعلوا يشبهونها بالمغازل، فيقولون: «دوك، دوك»، ويقولون للمسلمين مزدرين إياهم: «لا يَدَيْ لكم ولا قوة ولا سلاح! ما جاء بكم؟ ارجعوا!»...

ولما أُدخِل وفد المسلمين على كسرى يزدجرد جعل أهل فارس يسوؤهم ما يرون من حالهم وحال خيلهم، فلما دخلوا على يزدجرد أمرهم بالجلوس، وكان سيئ الأدب، فكان أول شيء دار بينه وبينهم أَنْ أمر الترجمان بينه وبينهم، فقال: «سلهم ما يسمون هذه الأردية؟»، فكان يلقى منهم أجوبة يتطير منها...

ولما عرض النعمان بن المقرن دعوة الإسلام على كسرى، قال الأخير: «إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى، ولا أقل عددًا، ولا أسوأ ذاتَ بَيْنٍ منكم، قد كنا نوكِّل بكم قرى الضواحي فيكفوننا كم، لا تغزوا فارس، ولا تطمعوا أن تقوموا لهم، فإن كان عددٌ لَحِقَ فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قُوتًا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم، وملَّكنا عليكم ملكًا يرفق بكم»، فأسكت القوم، فقام المغيرة بن زرارة الأسيدي، فقال: «أيها الملك! إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالًا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا.






وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا: أن يقتل بعضنا بعضًا، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية، كراهية أن تأكل من طعامنا، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرتُ لك، فبعث الله إلينا رجلًا معروفًا، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضُه خير أرضنا، وحَسَبُه خيرُ أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد أولَ مِن تِرْبٍ[1] كان له، وكان الخليفة بعده، فقال، وقلنا، وصدَّق، وكذَّبنا، وزاد، ونقصنا، فلم يقل شيئًا إلا كان، فقذف الله في قلوبنا التصديقَ له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: «إن ربكم يقول: إنني أنا الله وحدي لا شريك لي، كنت إذ لم يكن شيء، وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل، لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحلَّكم داري، دارَ السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا، فله ما لكم، وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحَكَمُ بينكم، فمن قُتِلَ منكم أدخلتُه جنتي، ومن بقي منكم أعقبته النصر على مَنْ ناوأه، فاختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن شئتَ فالسيف، أو تُسْلِم فتنجي نفسك»، فقال: «أتستقبلني بمثل هذا؟»، فقال: «ما استقبلتُ إلا مَن كلَّمني، ولو كلمني غيرك، لم أستقبلك به»، فقال: «لولا أن الرسلَ لا تُقتل لقتلتكم، لا شيء لكم»، وقال: «ائتوني بوِقْرٍ

(١) **التِّربُ**: بكسر التاء: اللدَة، والسِّنُّ، ومن وُلد معك، والاشارة هنا إلى الصديق الأكبر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من تراب»، فقال: «احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسِل إليكم رستم، حتى يدفيكم[١]، ويدفيه في خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعدُ، ثم أوردُه بلادَكم، حتى أشغلكم في أنفسكم بأشدَّ مما نالكم من سابور»، إلى آخر القصة.

وفيها: «أن عاصم بن عمرو احتمل وِقْرَ التراب، واعتبره فألًا على الظفر بأرضهم، كما تطير منه رستم على أنه علامة أن الله سلبهم أرضهم وأبناءهم للمسلمين.

ثم إن كسرى بعث أهل فارس بعددهم وعُدَدِهم وعلى رأسهم رستم، حتى إذا نزل رستم «بالعقيق» على منقطع معسكر المسلمين، راسل «زهرة» فخرج إليه حتى وافقه، فأراده أن يصالحهم، ويجعل له جُعْلًا[٢] على أن ينصرفوا عنه، وجعل يقول: «أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا...» إلخ.

فقال له زهرة: «صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طِلْبتنا، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طِلْبتنا وهمتنا: الآخرة، كنا كما ذكرت، يدين لكم مَن ورد عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلينا رسولًا، فدعانا إلى ربه، فأجبناه، فقال لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني قد سلطتُ هذه الطائفة على من لم يَدِنْ بديني، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذَلَّ، ولا يعتصم به أحد إلا عَزَّ».



(١) دفوت الجريح وأدفيته: أجهزتُ عليه.
(٢) الجُعْل، والجِعالة: ما جعله له على عمله من أجر، أو رِشْوة.

فقال له رستمَ: «وما هو؟».

قال: «أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلا به، فشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى، قال: «ما أحسن هذا! وأي شيء أيضًا؟»، قال: «وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى».

قال: «حسن، وأي شيء أيضًا؟».

قال: «والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم»، قال: «ما أحسن هذا!».

ثم قال رستم: «أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر، وأجبتكم إليه، ومعي قومي، كيف يكون أمركم؟ أترجعون؟».

قال: «إي والله، ثم لا نقرب بلادكم أبدًا إلا في تجارة أو حاجة»، قال: «صدقتني والله، أما إن أهل فارس منذ ولي «أردشير» لم يَدَعُوا أحدًا يخرج من عمله من السِّفْلَة[١] كانوا يقولون: «إذا خرجوا من أعمالهم تعدَّوْا طَوْرَهم، وعادَوْا أشرافهم».

فقال له زهرة: «نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أنْ نكون كما تقولون، نطيع الله في السِّفْلَة، ولا يضرنا من عصى الله فينا»، فانصرف عنه، وطلب «رستم» آخر، ثم إن سعدًا أرسل «رِبعي بن عامر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رستم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق، والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلي الثمينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة، وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبَها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه

(١) **سِفْلَةُ الناس:** أسافلهم، وغوغاؤهم.

ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: «ضع سلاحك»، فقال: «إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت»، فقال رستم: «ائذنوا له»، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامَّتَها، فقالوا له: «ما جاء بكم؟»، فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك، قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى ذلك، قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله».

قال: «وما موعود الله؟» قال: «الجنة لمن مات على قتالِ من أبى، والظفر لمن بقى».

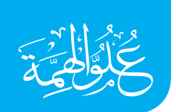
فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: «ما ترون؟ هل رأيتم كلامًا قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟»، قالوا: «معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك لهذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟»، فقال: «ويحكم! لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة»، وأقبلوا يتناولون سلاحه، ويزهدونه فيه..

ثم كان أن أبى الفرس دعوة الحق، واختاروا المناجزة، فنصر الله المسلمين، وهزموا فارس وسَبَوْهم.

وكان «يزدجرد» ملك الفرس قد أرسل يستنجد بملك الصين، ووصف له المسلمين، فأجابه ملك الصين: «إنه يمكنني أن أبعث لك جيشًا أوله في منابت الزيتون -أي: الشام- وآخره في الصين، ولكن إن كان هؤلاء القوم كما تقول؛ فإنه لا يقوم لهم أهل الأرض، فأرى لك أن تصالحهم، وتعيش في ظلهم، وظل عدلهم»[(١)].



(١) «إفادة الأخيار ببراءة الأبرار» (١/ ٣٨).





عالي الهمة عصامي، لَا عِظَامي

العصامي: من ساد بشرف نفسه.

ويقابله «العظامي»، وهو من ساد بشرف آبائه، و«العصامي» منسوب إلى «عصام بن شهير» حاجب «النعمان بن المنذر» الذي قال له «النابغة الذبياني» حين حجبه عن عيادة «النعمان» من قصيدة له:

فإني لا ألومُك في دُخُول ... ولكن ما وراءَكَ يا عصامُ

وهو الذي قال فيه النابغة:

نفسُ «عصامٍ» سَوَّدَتْ عصامًا
وعلَّمته الكَرَّ والإقداما
فصيَّرَته ملِكًا هُمَامَا

وقوله: «نفس عصام سوَّدت عصامًا» صار مثلًا يُضرب في نباهة الرجل من غير قديم.

و«العصامي» هو الذي تسميه العرب: «الخارجيَّ»، وهو من خرج بنفسه من غير أولية كانت له، قال كثير:

أبا مَرْوانَ لستَ بخارجيٍّ ... وليسَ قديمُ مَجْدِكَ بانتحالِ





فكبير الهمة عصامي يبني مجده بشرف نفسه، لا اتكالًا على حسبه ونسبه، ولا يضيره ألا يكون ذا نسب، فحسْبُه همته شرفًا ونسبًا، قال عامر بن الطفيل العامري[(١)]:

وإني وإن كنتُ ابنَ سَيِّد عامرٍ ... وفارسِها المشهورِ في كل موكبِ
فما سوَّدتني عامِرٌ عن وارثة ... أبى الله أن أسمو بجَدٍّ ولا أب
ولكنني أحمي حِماها وأتقِي ... أذاها وأرمي مَنْ رماها بمنكِبي

وقال «الأبيوردي» مبينًا أنه لم يقنع بنسب آبائه وأجداده، وإنما جمع إلى مجدهم الموروث مجدًا اكتسبه بعلو همته[(٢)]:

فشيدتُ مجدًا رَسَا أصلُه ... أمُتُّ إليه بأمٍّ وأبِ

وقال المتنبي:

ولست أبالي بعد إدراكي العُلا ... أكان تُراثًا ما تناولتُ أم كَسْبا

---

(١) «العقد الفريد» (٢/ ١٤٩)، وإذا اجتمع النسب الشريف مع العمل الصالح؛ فنِعِمَّا هو، وقد ميَّز الشافعية الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ بكونه قرشيًّا، وانظر: «الكافية» في الجدل، لإمام الحرمين.

(٢) وهذا أكمل ما يكون: أن ينضم المجد المكتسب إلى المجد الموروث، وأن تنضم «العصامية» إلى «العظامية»، وُصِف عند الحجاج رجلٌ بالجهل، وكانت له إليه حاجة، فقال في نفسه: «لأختبرنه»، ثم قال له حين دخل عليه: «أعصاميًّا أنت أم عِظاميًّا؟» -يريد: أشرُفتَ أنت بنفسك، أم تفتخر بآبائك الذين صاروا عظامًا؟- فقال الرجل: «أنا عصامي، وعظامي»، فقال الحجاج: «هذا أفضل الناس»، وقضى حاجته، وزاده، ومكث عنده، ثم فاتشه، فوجده أجهل الناس، فقال له: «تصدقني، وإلا قتلتك»، قال له: «قل ما بدا لك، وأصدقك»، قال: «كيف أجبتني بما أجبتَ لما سألتك؟»، قال له: «والله لم أعلم أعصامي خير أم عظامي، فخشيت أن أقول أحدهما، فأخطئ، فقلت: أقول كليهما؛ فإن ضرَّني أحدهما، نفعني الآخر»، وكان الحجاج ظَنَّ أنه أراد: «أفتخر بنفسي لفضلي، وبآبائي لشرفهم»، فقال الحجاج عند ذلك: «المقادير تُصَيِّرُ العَيَّ خطيبًا»، فذهبت مثلًا. اهـ. من «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٣٦٩، ٣٧٠).



وقال معن بن أوس المُزَني:

ورثنا المجد عن آباء صدق ... أسأنا في ديارهمُ الصنيعا

إذا الحَسَبُ القديمُ توارثتْه ... بناةُ السوء أوشك أن يضيعا

وقال عبد الله بن معاوية:

لسنا وإن كرُمت أوائلنا ... يومًا على الأحساب نتكلُ

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثلَ ما فعلوا

وقال الحسين بن أحمد البغدادي:

ليس الكريمُ بمن يُدَنِّسُ عِرْضَه ... ويرى مروءته تكونُ بمن مضى

حتى يشيد بناءه بِبَنانِه ... ويزين صالحَ ما أتوه بما أتى

آخر:

إن لم تكن بفعال نفسك ساميًا ... لم يُغنِ عنك سموٌّ من تسمو به

ليس القديم على الجديد براجعٍ ... إن لم تجده آخذًا بنصيبه

وكبير الهمة لا يضيره ألا يكون ذا نسب، بل لا يضيره أن يمت بآصرة اللحم والدم إلى قوم لئام غير كرام، إذا كان بعلو همته ينتسب إلى الكرام:

قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كل كرم دونه لؤم، فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم، فالكرم أولى به».

تريد: أن أولى الأمور بالإنسان خصالُ نَفسه، وإن كان كريمًا وآباؤه لئام، لم يضره ذلك، وإن كان لئيمًا وآباؤه كرام، لم ينفعه ذلك.



واهًا لحُرٍّ واسعٍ صدرُه ... وهمُّهُ: ما سرَّ أهلَ الصلاحْ
سَودَهُ إصلاحُه سِرَّه ... وردعُه أهواءَه، والطِّماحْ[(١)]

وتكلم رجلٌ عند «عبد الملك بن مروان» بكلام ذهب فيه كُلَّ مذهب، فأعجب عبدَ الملك ما سمع من كلامه، فقال له: «ابنُ مَنْ أنت؟» قال: «أنا ابنُ نفسي يا أمير المؤمنين، التي بها توصلتُ إليك»، قال: «صدقت»، فأخذ الشاعر هذا المعنى، فقال:

مالي عقلي، وهِمتي حَسَبي ... ما أنا مَوْلى ولا أنا عربي
إذا انتمى مُنتمٍ إلى أحد ... فإنني منتمٍ إلى أدبي

وكبير الهمة لا يُلْفَى «عظاميًّا» مفتخرًا بالآباء والأجداد الذين صاروا عظامًا ورفاتًا:

ما الفخر بالعظم الرميم وإنما ... فخار من يبغي الفخار بنفسه

آخر:

وَدَعُوا التفاخر بالتراث وإن علا ... فالمجد كسبٌ والزمانُ عصامُ

المتنبي:

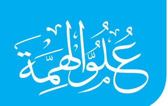
لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجُدودي

آخر:

كم سِّيدٍ بطل آباؤه نُجبٌ ... كانوا الرءوس فأمسى بعدهم ذَنَبا
ومُقْرِفٍ خامِل الآباء ذي أدبٍ ... نال المعاليَ بالآداب والرُّتَبا



(١) طَمَحَ الماءُ طُموحًا، وطِماحًا: ارتفع، ويقال: طمح ببصره: رفعه وحَدَّق، وطمح إلى الأمر: تطلَّع، واستشرف، وطمح في الطلب: أبعد.




المتنبي:

وآنــف مــن أخــي لأبــي وأمــي	إذا مــا لم أجــدْه مــن الـكـرامِ
ولـســتُ بـقـانـعٍ مـن كـل فضل	بــأن أُعـــزَى إلى جَــدٍّ هـمـام

آخر:

كن ابنَ من شئتَ واكتسِبْ أدَبًا	يغـنـيكَ محـمـودُهُ عـن النسبِ
إن الـفـتـى مـن يـقـول: هـا أنـذا	ليس الفتى من يقول: كان أبي

وقد تواردت نصوص الشريعة المطهرة على التنفير من التفاخر بالأحساب، إذا كان على وجه الاستكبار أو الاحتقار، وبذلك نطقت الأخبار، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣].

[وفي الآية إشارة إلى وجه رد التفاخر بالنسب، حيث أفادت أن شرف النسب غير مكتسب ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم:٣٩]، وأنه لا فرق بين النسيب وغيره من جهة المادة؛ لاتحادِ ما خُلِقا منه، ولا من جهة الفاعل؛ لأنه هو الله تعالى الواحد، فليس للنسب شرف يُعَوَّل عليه، ويكون مدارًا للثواب عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أحد أكرم من أحد عنده سبحانه إلا بالتقوى، وبها تكمل النفس، وتتفاضل الأشخاص.

وقد رتَّب تعالى الجزاء على الأعمال لا على الأنساب، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «..ومن بطَّأ به عمله؛ لم يُسرع به نسبه»(١)، معناه: أن العمل هو

(١) عَجُز حديث رواه مسلم وغيره.

الذي يبلُغ بالعبد درجات الآخرة، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يأمر الله بالصراط، فَيُضرب على جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم زمرًا زمرًا، أوائلهم كلمح البرق، ثم كمرِّ الريح، ثم كمر الطير، ثم كمر البهائم، حتى يمر الرجل سعيًا، وحتى يمر الرجل مشيًا، حتى يمرآخرهم يتلبَّط على بطنه، فيقول: «يا رب لم بطَّأت بي؟» فيقول: «إني لم أبطئ بك، إنما بطَّأ بك عملُك»[(١)]، وها هو ذا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرض أهل بيته وعشيرته الأقربين على لزوم التقوى، ويحذرهم من الاتكال على نسبهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو أشرف أنساب العالمين- فتقصر خطاهم عن اللحوق بالسابقين من المتقين، كي يجتمع لهم الشرفان: شرف التقوى، وشرف النسب:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباسُ بَن عبد المطلب! لا أغني عنكَ من الله شيئًا، يا صفيةُ عمةَ رسول الله! لا أغني عنكِ من الله شيئًا، يا فاطمةُ بنت محمد! سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنكِ من الله شيئًا**»[(٢)].

وفي رواية خارج (الصحيحين): (إن أوليائي منكم المتقون، لا يأتي الناس بالأعمال، وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم، فتقولون: «يا محمد»، فأقول: «قد بلَّغت»)، وفي (الصحيحين) عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع النبي



(١) وقد ورد مرفوعًا وموقوفًا، انظر: «الدر المنثور» (٤/ ٢٨١)، «شرح الطحاوية» (٢/ ٦٠٦) ط. الرسالة.
(٢) متفق عليه.




صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين**» يشير إلى أن وَلايته لا تُنال بالنسب، وإن قرُب، وإنما تُنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعملًا، فهو أعظم وَلاية له، سواء كان له منه نسبٌ قريب، أو لم يكن.

فالتقوى التقوى، فالاتكال على النسب، وترك النفس وهواها من ضعف الرأي وقلة العقل، ويكفي في هذا قوله تعالى لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في شأن ابنه: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ [هود:٤٦].

كانت مودةُ سلمان له نسبًا ... ولم يكن بين نوحٍ وابنهِ رحِمُ

- وقال بعضهم:

عليك بتقوى الله في كل حالة ... ولا تترك التقوى اتكالًا على النسب

فقد رفع الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الكفرُ النسِيبَ أبا لهب

- قيل لشريح: «ممن أنت؟».

قال: «ممن أنعم الله عليه بالإسلام، وعِدادي في كِندة».

وقال ثابت البُناني: قال أبو عبيدة:

«يا أيها الناس! إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمَرَ، ولا أسودَ يَفْضُلني بتقوى، إلا وددت أني في مِسْلاخه».

وروي أنه قيل لسلمان الفارسي: «انتسب يا سلمان»، قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أعرف لي أبًا في الإسلام، ولكني سلمان ابن الإسلام»[١].

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١/ ٥٤٤).

ولله دَرُّ القائل:

دَعِيُّ القوم ينصر مدَّعيه ... لِيُلْحِقَهُ بذي الحسبِ الصميمِ
أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وبينما يقول خسيس الهمة المفتون بعشق امرأة:

فلا تَدْعُني إلا بيا عبدَها ... فإنه أشرف أسمائي

رأينا كبير الهمة يتشرف بنسبته إلى الله عَزَّوَجَلَّ:

فلا تَدْعُني إلا بيا عبدَه ... فإنه أشرف أسمائي

بل قال، وما أحسن ما قال!

ومما زادني تيهًا وشرفًا ... وكدت بأخمصي أطأُ الثريَّا
دخولي تحت قولك: «يا عبادي» ... وأن صيَّرت «أحمدَ» لي نبيًّا

آخر:

كفى بك عِزًّا أنك له عبدٌ ... وكفى بك فخرًا أنه لك رَبٌّ

آخر:

إذا عَزَّ بغير الله ... يومًا معشرٌ هانوا



عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية[١] وفخرَها[٢] بالآباء، الناسُ بنو آدم، وآدم من تراب: مؤمن تقي،**

(١) الكِبر والفخر والنخوة، بضم العين من التعبية، أي: المتكبر ذو تكلف وتعبية، بخلاف من يسترسل على سجيته.
(٢) تفاخرها.

وفاجرٌ شقي، لينتهينَّ أقوام يفتخرون برجال[١] **إنما هم فَحْمٌ مِن فحم جهنمَ، أو لَيكُونَنَّ أهونَ على الله من الجُعْلانِ**[٢] **التي تدفع النتن**[٣] **بأنفها»**[٤].

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له، وقد التفت نحو المدينة: «**إن أهل بيتي هؤلاء يَرَوْنَ أنهم أَوْلى الناس بي، وإن أولى الناس بي المتقون، مَن كانوا، وحيث كانوا**» الحديث[٥].

فالحزم اللائق بالنسيب: أن يتقي الله تعالى، ويكتسب من الخصال الحميدة ما لو كانت في غير نسيب لكفته، ليكون قد زاد على الزُّبْدِ شَهدًا، وعلَّق على جِيْدِ الحسناء عِقْدًا، ولا يكتفي لمجرد الانتساب إلى جدودٍ سَلَفُوا، ليقال له: «نِعْمَ الجدودُ، ولكن: بئس ما خلفوا»[٦]، وقد ابتلي كثير من الناس بذلك، فترى أحدهم يفتخر بعظم بالٍ وهو عَرِيٌّ -كالإبرة- من كل كمال، ويقول: «كان أبي كذا وكذا»، وذاك وصف أبيه، فافتخاره به نحو افتخار الكوسج[٧] بلحية أخيه، ومن هنا قيل:

---

(١) أي: بآبائهم وأجدادهم الذين ماتوا على الكفر، ومعاندة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعذبهم الله بذلك، وجعلهم لهبًا وحطبًا ووقودًا لجهنم.

(٢) الجعلان جمع جُعَل: دويبة أرضية.

(٣) وفي لفظ الترمذي: (أو ليكونن أهون على الله من الجُعَل الذي يُدَهْدِهُ) - أي: يدحرج (الخُرْءَ بأنفه).

(٤) رواه أبو داود، والترمذي، وحسنه، والبيهقي، واللفظ له، وحسنه المنذري في «الترغيب» (٣/ ٦١٤).

(٥) قطعة من حديث أخرجه الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير»، وصححه ابن حبان (الإحسان: رقم ٦٤٧).

(٦) الإشارة إلى قول الشاعر:

لئن فخرتَ بآباءٍ لهم شرف ... لقد صدقتَ ولكن بئس ما ولدوا

(٧) **الكوسج**: الذي لا شعر على عارضيه.




وأعـــجــب شـــيء إلى عــاقـل ... أنــاسٌ عـن الـفـضـل مستأخِرهْ

إذا سـئـلـوا: «مَــن عَــلا؟» ... أشـــاروا إلى عـظـامٍ نـاخِـره

آخر:

لا دَرَّ درُّ امـرئٍ يُـطْـرِي أوائله ... فخرًا، ويطرق إن ساءلته ما هو

آخر:

أقــول لمـن غـدا في كـل وقـت ... يـبـاهـيـنـا بـأسـلافٍ عـظـامِ

أتـقـنـع بـالـعـظـام وأنـت تـدري ... بـأن الـكـلـب يـقـنـع بالعظام

وما ألطفَ قول الشاعر:

لم يُجْدِك الحسبُ العالي بغير تقى ... مـولاك شـيـئًـا فـحـاذِرْ واتـق اللّهَ

وابـغ الكرامة في نيل الفخار به ... فـأكْـرَمُ الـنـاس عند اللّه أتقاها

وما أكثر هذا الافتخار البارد بين خسيسي الهمة الذين ارتكبوا كل رذيلة، وتعروا عن كل فضيلة، ومع ذلك استطالوا بآبائهم على فضلاء البرية، واحتقروا أناسًا فاقوهم حسبًا ونسبًا، وشرفوهم أُمًّا وأبًا، وهذا هو الضلال البعيد، والحمق الذي ليس عليه مزيد.

ومع شرف الانتساب إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه ينبغي لمن رُزِقه ألا يجعله عاطلًا عن التقوى، ويدنسه بمتابعة الهوى، فالحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة، وهي من أهل بيت النبوة أسوأ، وقد يبلغ اتباعُ الهوى بذلك النسيب الشريف إلى حيث يستحيى أن يُنْسَبَ إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وربما ينكر نسبه، وعليه قيل لشريفٍ سيئ الأفعال:






قــــال الــــنـبي مـــقـــال صـــدق	يحلــو لــدى الأسمـــاع والأفـــواهِ
إن فـاتـكـم أصــلُ امــرئٍ فـفـعـالـه	تـنـبـيـكـمُ عــن أصـلـه المتناهي[١]
وأراك تُـسْـفِـرُ عـن فـعـال لـم تـزل	بــين الأنـــام عــديمــةَ الأشــبــاهِ
وتــقــول: إنــي مــن سـلالـة أحـمـدٍ	أفــأنــت تَــصْـــدُقُ أم رســـولُ اللّهِ

ولا يلومَنَّ الشريفُ إلا نفسَه إذا عومل حينئذٍ بما يكره، وقُدِّمَ عليه من هو دُونه في النسب بمراحل.

كما يُحكى أن بعض الشرفاء في بلاد «خراسان» كان أقربَ الناس إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير أنه كان فاسقًا ظاهر الفسق، وكان هناك مولًى أسود تقدم في العلم والعمل، فأكبَّ الناسُ على تعظيمه.

فاتفق أن خرج يومًا من بيته يقصد المسجد، فاتبعه خلق كثير يتبركون به[٢]، فلقيه الشريف سكران، فكان الناس يطردونه عن طريقه، فغلبهم، وتعلَّق بأطراف الشيخ، وقال: «يا أسودَ الحوافرِ والمشافر، يا كافر ابن كافر، أنا ابنُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُذَلُّ، وأنت تُجَلُّ، وأهانُ، وأنت تُعان؟!» فهمَّ الناس بضربه، فقال الشيخ: «لا تفعلوا، هذا محتمل منه لجدِّه، ومعفوٌّ عنه، وإن خرج عن حَدِّه، ولكن أيها الشريف:

---

(١) لم يبين الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ الحديث الذي أشار إليه الشاعر في هذا الموضع.

(٢) يُحمل هذا على التبرك المشروع بالصالحين، وهو يكون بالانتفاع بعلمهم ووعظهم، ولحظهم للاقتداء بهم، وكذا بالانتفاع بدعائهم، ومخالطتهم في مجالس الذكر حيث كانت سِيَّما في المساجد، أما التبرك بذواتهم فغير مشروع، وانظر تحقيق ذلك في «الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٨-١٠)، وكذا «التبرك أنواعه وأحكامه» للدكتور ناصر بن عبد الرحمن الجديع.



بَيَّضْتُ باطني، وسوَّدتَ باطنك، فَرُؤي بياضُ قلبي فوقَ سوادِ وجهي، فَحَسُنْتُ، وسوادُ قلبِكَ فوقَ بياضِ وجهك، فَقَبُحتَ، وأخذتُ سيرةَ أبيك، وأخذتَ سيرةَ أبي، فرآني الخلقُ في سيرةِ أبيك، ورَأَوْكَ في سيرةِ أبي، فظنوني ابنَ أبيك، وظنوكَ ابنَ أبي، فعملوا معك ما يُعمَلُ مع أبى، وعملوا معي ما يُعمل مع أبيك».

ولهذا ونحوه قيل:

ولا ينفع الأصل من هاشم ... إذا كانت النفس من باهله[(١)]

أي: لا ينفع في الامتياز على ذوي الخصال السَّنِية، إذا كانت النفس في حَدِّ ذاتها باهلية ردية، ومن الكمالات عرية][(٢)].

البحتري:

ولستُ أعتدُّ للفتى حسبًا ... حتى يُرَى في فِعالِه حَسَبُهْ

---

(١) **باهلة**: اسم امرأة من همدان نُسب ولدها إليها، فقيل: بنو باهلة، واشتهر أنهم موصوفون بالخساسة، قيل: كانوا يأكلون بقية الطعام مرة ثانية، وكانوا يأخذون عظام الميتة يطبخونها، ويأخذون دسوماتها، فاستنقصتهم العرب جدًّا، حتى قيل لعربي: «أيسرك أن تكون من أهل الجنة، وأنت باهلي؟!» قال: «بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني من باهلة» كذا في «روضة العقلاء» (ص٢٤٩)، وقال الآلوسي: (وليس كل باهلي كما يقولون، بل فيهم الأجواد، وكون فصيلة منهم أو بطن صعاليك فعلوا ما فعلوا لا يسري في حق الكل) اهـ. من «روح المعاني» (٢٦/ ١٦٦)، وانظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٢٤-٢٩)، والمعوَّل عليه في الفضل هو الشرف الكسبي الذي منه العلم والتقوى، ولا تأثير في ذلك للانتساب إلى عشيرة ذات شرف، أو مُنْتَقَصة، إنما الميزان العمل الصالح والإحسان، فهذا قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي الأمير أبو حفص، أحد الأبطال والشجعان، من ذوي الحزم والدَّهاءِ والرأي والغناء، وهو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند وافتتح فرغانة وكابل من أرض أفغانستان، وبلاد الترك في سنة خمس وتسعين، وولي خراسان عشر سنين من قبيلة باهلة المذكورة.

(٢) ما بين المعقوفين بطوله من «روح المعاني» (٢٦/ ١٦٥-١٦٧) بتصرف وزيادات.







عَالي الهمةِ شريفُ النفسِ يَعرِفُ قَدْرَ نَفسِهِ

من هدي الإسلام الحنيف إنزال الناس منازلهم، ومعرفة الإنسان قدر نفسه، فلا يضعها دون ما تستحقه، فيشعر بالدونية، ولا يرفعها فوق قدرها، فتصبح ذاته منتفخة متورمة نرجسية.

مَـثَـل المعجِب في إعجابه ... مثل الواقف في رأس الجبلْ

يُبصِر الناس صغارًا وهو في ... أعين الناس صغيرًا لم يزل

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ما رفعت أحدًا فوق قدره إلا نقص من قدري بمقدار ما رفعت من قدره».

وقال الأحنف بن قيس:

«ما نازعني أحد قط إلا أخذت أمري بإحدى ثلاث: إن كان فوقي عرفت قدره، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه».

لقد أُثِر عن العرب أخبار كثيرة فيها إعظامهم شرف النفس، وعلو الهمة، ومن ذلك:

ما قالته هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وأم معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ حين أتاها نعي يزيد ابن أبي سفيان، وقال لها بعض المُعَزِّين: «إنا لنرجو أن يكون في معاوية



خَلَفٌ من يزيد»، فقالت هند: «أو مثل معاوية يكون خَلَفًا من أحد؟ والله لو جُمعت العرب من أقطارها، ثم رُمَي به فِيها، لخرج من أي أعراضها شاء».

وقيل لها -ومعاوية وليدٌ بين يديها-: «إن عاش معاوية، ساد قومه»، فقالت: «ثكِلْتُه إن لم يَسُدْ إلا قومه».

وكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «إني لآنَفُ من أن يكون في الأرض جهلٌ لا يسعه حِلمي، وذنب لا يسعه عفوي، وحاجة لا يَسَعها جُودي».

وقال الأحوص في الفخر[١]:

ما من مُصيبةِ نكبةٍ أُرْمَى بها ... إلا تُشَرِّفُنِي وترفعُ شاني

وإذا سألتَ عن الكرام وجدتني ... كالشمس لا تخفى بكل مكان

ومن شرف النفس قول ابن السَّمَّاك: «ما أحسبني أُؤْجَرُ على ترك الكذب، لأني أتركه أَنَفةً».

ومن أشرف الناس همة عقيل بن علفة المُرِّيُّ، وكان أعرابيًّا يسكن البادية، وكان يُصهِر إليه الخلفاء، وخطب إليه «عبد الملك بن مروان» ابنته لأحد أولاده، فقال له: «جَنِّبْني هُجَنَاءَ[٢] ولدكِ».

وعالي الهمة يعرف قدر نفسه، في غير كبر، ولا عجب، ولا غرور، وإذا عرف المرء قدر نفسه، صانها عن الرذائل، وحفظها من أن تُهان، ونزَّهها عن



(١) وقد زعم صاحب «العقد الفريد» أنه أفخر بيت قالته العرب، والصحيح أن أفخره قول حسان ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وبيوم بدرٍ إذ يَرُدُّ وجوهَهم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

(٢) **الهُجَناء**: الذين أُمُّهم غير عربية.

دنايا الأمور[١]، وسفاسفِها في السر والعلن، وجنَّبها مواطن الذل بأن يحُمِّلَها ما لا تطيق، أو يضعها فيما لا يليق بقدرها، فتبقى نفسه في حصن حصين، وعز منيع لا تعطي الدنية، ولا ترضى بالنقص، ولا تقنع بالدون.

ألم تر إلى شرف نفس الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم نبي الله يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام- حين دعا ربه ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف:٣٣]، وحين قال لرسول المَلِك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٠]، ولا عجب فإن من يصبر فيما له ألا يصبر فيه، وهو الخروج من السجن، مع توفر الدواعي على الخروج منه، فأولى به أن يصبر فيما يجب عليه أن يصبر فيه من الهم بامرأة العزيز.

قيل لرجل: «لي حُوَيْجَة»، فقال: «اطلبوا لها رُجَيلًا».

وكان بعض الحكماء يقول: «لا تطلب من الكريم يسيرًا، فتكون عنده حقيرًا».

وقيل لآخر: جئناك في حاجة لا ترزؤك[٢]، فقال: «هلا طلبتم لها سفاسفَ الناس؟»[٣].

وقد قيل لبعض العلماء: لي سؤال صغير، فقال: «اطلب له رجلًا صغيرًا».

---

(١) قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله لو أعلم أن الماء البارد يَثْلِمُ مروءتي؛ ما شربت إلا حارًّا».

(٢) يقال: رَزَأَهُ ماله: إذا أصاب منه شيئًا، فنقصه.

(٣) فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا، فكيف لا يطمع أهل الدين في فضل الجواد الكريم؟!



أما العالم الرباني الوزير العادل عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة الحنبلي (ت:٥٦٠هـ)، فقد حكى تلميذه الإمام ابن الجوزي موقفًا يشي بشرف نفسه وعلو همته، فقال:

كنا نجلس إلى الوزير ابن هبيرة فيملي علينا كتابه (الإفصاح). فبينا نحن كذلك إذ قدم رجل ومعه رجل ادَّعى عليه أنه قتل أخاه، فقال له عون الدين: «أقتلته؟» قال: «نعم، جرى بيني وبينه كلام فقتلته». فقال الخصم: «سَلِّمْه إليَّ حتى نقتله، فقد أقر بالقتل». فقال عون الدين: «أطلقوه، ولا تقتلوه»، قالوا: «كيف ذلك، وقد قتل أخانا؟» قال: فتبيعونيه». فاشتراه منهم بستمائة دينار، وسلَّم الذهب إليهم وذهبوا. فقال للقاتل: «اقعد عندنا لا تبرح». قال: فجلس عندهم، وأعطاه الوزير خمسين دينارًا. قال: فقلنا للوزير: «لقد أحسنت إلى هذا، وعملت معه أمرًا عظيمًا، وبالغت في الإحسان إليه»، فقال الوزير: «أمنكم أحد يعلم أن عيني اليمنى لا أبصر بها شيئًا؟» فقلنا: «معاذ الله». فقال: «بلى والله، أتدرون ما سبب ذلك؟» قلنا: «لا»، قال: هذا الذي خَلَّصتُه من القتل جاء إليَّ وأنا في الدُّور، ومعي كتاب من الفقه أقرأ فيه، ومعه سلة فاكهة، فقال: احمل هذه السلة»، قلت له: «ما هذا شغلي، فاطلب غيري». فثاكلني[١]، ولكمني، فقلع عيني، ومضى، ولم أره بعد ذلك إلى يومي هذا، فذكرت ما صنع بي، فأردت أن أقابل إساءته إليَّ بالإحسان مع القدرة[٢].

(١) كأنه قال له: «ثكلتك أمك»، دعاء عليه بالهلاك.

(٢) مقدمة «الإفصاح» لابن هبيرة (١/ ١٢، ١٣).

وكان بعض الملوك غضب على بعض حاشيته، فأسقط الوزيرُ اسمه من ديوان العطايا، فقال الملك: «أبقه على ما كان عليه، لأن غضبي لا يُسقط همتي». =



ومن علو الهمة وشرف النفس ماروي عن «قطب السخاء» «عبد الله بن جعفر بن أبي طالب» فقد سألته امرأة، فأعطاها مالًا عظيمًا، فقيل له: «إنها لا تعرفك، وكان يرضيها اليسير»، فقال: «إن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي».

وسأله سائل بينا يهم بركوب ناقتِه، فنزل له عنها، وعما فوقها، وكان عليها أربعة آلاف درهم، وسيف من سيوف علي بن أبي طالب.

- هرب يزيد بن المهلب من الحبس، فقيل في قصته أنه مر برهط من أهل البرية رعاة، فقال لغلامه: استسقنا منهم لبنًا، فسقوه، فقال: «أعطهم ألفًا»، قال: «إن هؤلاء لا يعرفونك»، قال: «لكني أعرف نفسي».

وعن سعيد بن عبد العزيز أن الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا سمع رجلًا إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانصرف، فبعث بها إليه.

ولم أر كالمعروف أمَّا مذاقُه فحُلْوٌ، وأمَّا وجهُه فجميلُ

وأمر معن بن زائدة غلامه أن يعطي قومًا من أهل العراق دخلوا عليه في هيئة رزية، فقال له: «يا غلام أعطهم أربعة آلاف يستعينون بها على أمورهم إلى

= قيل لبعض الصوفية: لِمَ وُصِفَ الله سبحانه بخير الرازقين؟ فقال: لأنه إذا كفر عبدهُ لا يقطع رزقه. اهـ من «الكشكول» (١/ ٢٨٨).

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور:٢٢]. قال أبو بكر الصديق: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي». فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقُ عليه، وقال: «والله لا أنزعها منه أبدًا».

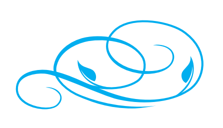


أن يتهيأ لنا فيهم ما نريد»، فقال الغلام: يا سيدي أجعلها دنانير أم دراهم؟ فقال معن: «والله لا تكون همتك أرفع من همتي، صفِّرها لهم».

وعن أبي سعيد عن شيخ له قال: رأيت ابن المبارك يَعَضُّ يد خادم له، فقلت له: «تعض يَدَ خادِمِكَ؟» قال: «كم آمره أن لا يَعُدَّ الدراهم على السُّؤال[1]، أقول له: أُحث لهم حَثْوًا».

مُتَيَّمٌ بالنَّدى لو قال سائله ... هَبْ لي جميعَ كَرى عَيْنَيْك لم يَنَمِ

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ فقالوا: يبكون لِدارِهم، فقال: «يا غلام؛ ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعًا».





(١) **السُّؤال**: طالبو الصدقة.

التفاوت بالهِمَم لا بالصُّور

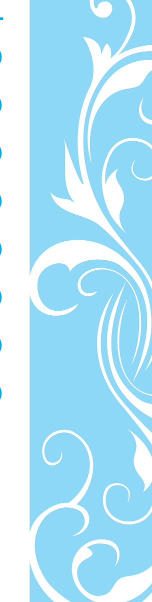
قال يحيى بن خالد البرمكي -وزير الرشيد- للعتابي وكان لا يُبالي أيَّ ثوبيه لبس، وقد رأى عليه بزَّة دنيئة: «يا أبا عمرو، ما لك لا تجيد الملبوس؟».

فقال: «إنما يرفعُ المرءَ أدبُه وعقله، لا حَلْيُه وحُلَلُه، لحى[١] الله امرءًا يرضى أن يرفعه هيئتاه: جماله وماله، لا والله حتى يُشَرِّفَه أصغراه: لسانه وقلبه، ويعلو به أكبراه: هِمَّتُه وُلبُّه».

ومن شرف النفس ومعرفة قدرها، قول «الأبيوردي»:

رأت أميمة أطماري[٢] وناظرها	يعوم في الدمع منهلًّا بوادِرُه
وما درت أن في أثنائها رجلا	ترخى على الأسد الضارى غدائره[٣]
أغر في ملتقى أوداجه صيد	حمر مناصله[٤] بيض عشائره[٥]
إن رَثَّ بردي[٦] فليس السيف محتفلا	بالغمد[٧] وهو وميض الغرب باتره[٨]

(١) **لحى الله فلانًا**: قبَّحه، ولعنه.
(٢) **أطمار**: جمع طِمْر، الثوب الخَلَق البالي.
(٣) **غدائر**: جمع غديرة، الذؤابة المضفورة من الشعر.
(٤) **مناصل**: جمع مُنْصُل، وهو السيف.
(٥) **عشائر**: جمع عشيرة، وعشيرة الرجل: بنو أبيه الأقربون، وقبيلته، ويقال: فلان أبيض أي: نقيُّ العِرض.
(٦) **رَثَّ**: بَلِي، **والبُرْدُ**: كساء مخطط يُلْتَحَفُ به.
(٧) **الغِمْد**: غِلاف السيف.
(٨) **الغربُ**: أول كل شيء وحَدُّه، يقال: غرب السيف، والسكين، والفأس، ونحو ذلك، **وسيف غرب**: قاطع، حاد، **والوميض**: اللمعان، **والباتر**: القاطع.



وهمتي في ضمير الدهر كامنة ... وسوف يَظهر ما تُخفي ضمائرُه

ومن هذا الباب قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

عَلَيَّ ثيابٌ لو يباع جميعها ... بفَلْسٍ لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تقاس بها ... نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

وما ضَرَّ نَصْلَ السيفِ إخلاقُ غِمدِه ... إذا كان عَضبًا حيث وَجَّهتَهُ فرى (٢)

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا:

إذا المشكلات تصدَّين لي ... كشفت حقائقها بالنظر

لسان كشِقْشِقة الأرحبي (٣) ... أو كالحسام اليماني الذكر

ولست بإمَّعةٍ (٤) في الرجا ... لِ أسائل هذا وذا ما الخبر

ولكنني مِدْرَه (٥) الأصغرين (٦) ... جلَّابُ خير، وفرَّاجُ شر

وقال الحريري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفضيلة الدينار يَظهر سرُّها ... من حَكِّهِ لا من مَلاحَة نقشهِ

ومن الغباوة أن تُعظم جاهلا ... لِصِقال ملبَسه وورنق رقشِهِ

أو أن تُهينَ مُهَذبًا في نفسه ... لِدُروس بَزَّتهِ وَرَثَّةِ فرشِهِ



(١) **السيف العاضب**: الحاد القاطع.

(٢) **فَرَى**: شق وقطع.

(٣) **الشِّقْشِقَةُ**: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج، وتستعمل في التعبير عن القدرة على الخطابة والبيان، **والأرحبِّي**: نسبة إلى قبيلة «أرحب»، وهي بطن من «همدان»، وإليها تُنْسَبُ الإبل الأرحبيات.

(٤) **الإمَّعة، والإمَّع**: الرجل يتابع كل أحد على رأيه، لا يثبت على شيء.

(٥) **المِدْرَهُ**: السيد الشريف، والمُقْدِمُ عند الخصومة والقتال.

(٦) **الأصغران**: القلب واللسان.



وقال المتنبي:

لا يُعجبن مُضِيمًا حسنُ بزَّته ... وهل يروقُ دفينًا جودةُ الكفنِ

وقال المعري:

وإن كان في لُبْسِ الفتى شرفٌ له ... فما السيفُ إلا غِمْدُه والحَمَائِلُ

وأعلى منه: بيان الزبير أن السيف بضاربه لا بحدِّه، فقد قيل له رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أجود سيفك!» فغضب، يريد أن العمل ليده لا للسيف.

وقال أبو هلال العسكري رَحِمَهُ اللهُ:

جلوسي في سوق أبيع وأشتري ... دليل على أن الأنام قرود

ولا خير في قوم تَذِلُّ كرامُهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ويهجوهم عني رثاثة كسوتي ... هجاءً قبيحًا ما عليه مزيد

سمع بعضهم كناسًا وهو يكنس ويترنّم قائلًا:

لَنَقْلُ الصَّخر من قُلَلِ الجبال ... أحبُّ إليَّ من مِنَن الرِّجال

يقول الناس كسبك فيه عارٌ ... وكلُّ العارِ في ذُلِّ النَّوال

★★★

وكره بعض العلماء أن يتحول عن بلده، مع إيثاره الخمول والانقباض عن الناس، خشية أن يعامله من لا يعرف قدره؛ بما لا يليق به:

كان الإمام سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ شديد التواضع(١) في غير ذل ولا استصغار، ومن كلامه رَحِمَهُ اللهُ:

(١) وقد رؤي مرة في مكة، وقد كثر عليه الناس من حوله، فقال: «ضاعت الأمة حين احتيج إليَّ»، وكان يقول: «لو لم يأتني أصحاب الحديث، لأتيتهم في بيوتهم»، ويقول: «لو أني أعلم أن أحدًا =



«أحِبُّ أن أكونَ في موضعٍ لا أُعْرَفُ، ولا أُسْتَذَلُّ»، وقال ابن مهدي: سمعت سفيان الثوري يقول: «وددتُ أني أخذتُ نعلي هذه، ثم جلست حيث شئت، لا يعرفني أحد»، ثم رفع رأسه، ثم قال: «بعد أن لا أُسْتَذَلَّ».

ولشدة حذره من الذلة، كان يسكن بين معارفه من الناس الذين يعرفون قدره، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا أن أُسْتَذَلَّ، لسكنتُ بين قوم لا يعرفونني»[(١)].



=يطلب الحديث بنية؛ لأتيته في بيته حتى أحدثه»، وكان لا يتصدر مجلسًا، ولكنه يجلس بين عامة الناس، حتى قال في ذلك علي بن ثابت: «ما رأيت سفيان في صدر مجلس قط، كان يقعد إلى جنب الحائط، ويجمع بين ركبتيه»، انظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٧-٣٨٢).

(١) ولا يرد على هذا ما حكاه الحسن قال (كنت مع ابن المبارك يومًا فأتينا على سقاية، والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب، ولم يعرفه الناس، فزحموه، ودفعوه، فلما خرج قال لي: «ما العيش إلا هكذا»، يعني حيث لم نُعرف ولم نُوقَّر)، فإن غاية ما فيه أنه لم يُعْرَف، فعُومل كسواد الناس، لا أنه ذُلَّ، وهذا عين ما حرص عليه أويس القرني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال له عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أين تريد؟»، قال: «الكوفة»، قال: «ألا أكتب لك إلى عامِلها؟»، قال: «أكون في غَبراء الناس أَحَبُّ إلَيَّ» رواه مسلم، و«غبراء الناس»: ضعافهم، وصعاليكهم وأخلاطهم الذين لا يُؤبه لهم.



من الشريعة إجلال أهل الشريعة

لما قدم المدينةَ الخليفةُ المهديُّ، أقبل الناسُ عليه مسَلِّمين، فلما أخذوا مجالسهم جاء مالك، فقالوا: «اليوم يجلس مالكٌ آخر الناس»، فلما دنا، ونظر ازدحام الناس، وقف، وقال: «يا أمير المؤمنين! أين يجلس شيخُك مالك؟»، فناداه المهدي: «عندي يا أبا عبد الله!»، فتخطَّى الناس حتى وصل إليه، فرفع المهدي ركبته اليمنى، وأجلسه بجانبه.

★★★

وبهذه العزة أجاب العالم الضرير المحدِّث أبو معاوية محمد بن خازم هارون الرشيد، لما صبَّ الماء على يديه، وأعلمه بذلك بعد أن فرغ: «إنما أكرمتَ العِلمَ يا أمير المؤمنين».

وقال ابن جابر: أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول، فهممنا أن نوسِّع له، فقال: «دعوه يتعلم التواضع».

ومن شرف نفس الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حضر مرة مجلس أستاذه في اللغة العربية شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي، فسأل التلاميذ عن شيء في النحو فسكت من في المجلس، فقال شرف الدين المرسي: «أراني أتكلم مع حمير»، فلم يعد ابن دقيق العيد إلى مجلسه بعد أن سمع منه ذلك.



وبسبب عزة نفسه ومحافظته على ماء وجهه وعدم وقوفه على أعتاب السلاطين لم يصل إلى منصب قاضي القضاة مع شهرته وتقدمه في العلم على جميع أقرانه إلا في أخريات حياته، وبعد أن بلغ السبعين من عمره، وتولى ذلك مكرهًا، ومع ذلك كان أثناء توليته القضاء إذا سمع ما يكره عَزَلَ نفسَه، ثم يُسترضَى، فيعود.

ولما عزل نفسه في بعض المرات، ثم طُلب لِيُوَلَّى، وقام السلطان الملك المنصور «لاجين» له واقفًا لما أقبل، فصار يمشي قليلًا قليلًا، وهم يقولون له: «السلطان واقف»، فيقول: «أديني بامشي!!»، وجلس معه على الجوخ حتى لا يجلس دونه، وقبَّل السلطانُ يَدَه، فقال ابن دقيق العيد: «تنتفع بهذا»!

ووشى بعض الناس إلى السلطان الملك المعظم الناصر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يطمع في المُلْكِ، فلما أُحْضِر شيخ الإسلام بين يديه، كان من جملة كلامه: «أنني أُخْبِرُت أنك قد أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذَ الملك»، فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عالٍ سمعه كثير ممن حضر: «أنا أفعل ذلك؟ والله إن مُلكك وملك المغول لا يساوي عند فَلْسين»، فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة: «إنك والله لصادق، وإن الذي وَشَى بك إليَّ كاذب».

ومن الأمثلة الرائعة في معرفة قدر النفس أن صاحب الكَرْك -قرية كبيرة قرب بعلبك- عرض على سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت٦٦٠هـ) أن يستبقي الشيخ عنده، فقال: «هذه بلدةٌ تَصْغرُ عن نشر علمي»[(١)].

(١) وقد كره العلماء للعالم أن يقيم في موضع يضيع ما عنده من العلم، وبلغ القاضي يوسف بن أحمد ابن كج الدينوري في العلم مرتبة كبيرة، وقال له بعض من لقيه: «يا أستاذ! الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك؟!» فقال القاضي: «ذلك رفعته بغداد، وأنا حطتني الدِّيْنَوَرُ».



ولما سُئل العز بن عبد السلام -عندما خاطب السلطان أيوب قائلًا له: يا أيوب، وأغلظ له القول-: «أما خِفته؟»، قال: «والله يا بني استحضرتُ هيبةَ الله تعالى، فصار السلطانُ قُدامي كالقط».

وعُزِل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن منصبه في الخطابة، واعتُقِل، ثم طلب الخروج إلى مصر، فسُمِح له، إلا أن الملك الصالح أراد أن يستميل الشيخ مرة أخرى، فأرسل إليه في الطريق رسولًا يبلغه رسالة الملك:

- قال له الرسول: «بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنتَ عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير».

فقال الشيخ: «والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلًا عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ، وأنا في واد، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن أعظم ما يُحكى من المكارم التى لم نَسمع لها أختًا:

أن أبا غالب تمام بن غالب التَّيَّاني (ت ٤٣٦) أَلَّف كتابًا في اللغة(١)، فوجَّه إليه أبو الجيش مجاهد العامريُّ(٢) صاحب الجزائر ودانية ألف دينارٍ أندلسية، ومركوبًا وأكسية، على أن يزيد في ترجمة الكتاب -أي: في اسمه-: «مما أَلَّفه

(١) واسم الكتاب «تلقيح العين».
(٢) كان مما يؤثر عن هذا الأمير أنه كان يميل إلى ذكر اسمه في مقدمات مؤلفات العلماء باعتباره المشجِّعَ على تأليفها، الحاثَّ على إخراجها، ولقد ذكره «ابن سيده» في مقدمة كتابيه «المحكم» و«المخصص»، ولا شك أن غيره ممن كانوا يظفرون بإكرام الأمير ورعايته فعل ذلك أيضًا، انظر: «بهجة المجالس وأنس المجالس» (١/ ١٧).

أبو غالب لأبي الجيش مجاهد»، فردَّ الدنانير وغيرها، وقال: «كتاب ألَّفْتُه لينتفع به الناس، وأُخلِّدَ فيه همتي، أجعل في صدره اسم غيري، وأصرف الفخر له! والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلتُ، ولا استجزتُ الكذب، لأنني لم أجمعه له خاصة، بل لكل طالب» فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها![١] اهـ.

★★★

وعن أبي سعيد بكر بن منير قال:

بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل البخاري: «أن احمل إليَّ كتاب (الجامع)، و(التاريخ)، وغيرهما لأسمع منك»، فقال محمد بن إسماعيلَ لرسوله:

«أنا لا أُذِلُّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كنت لك إلى شيء منه حاجة، فاحضرني في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا؛ فأنت سلطان، فامنعني من الجلوس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم، لقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من سُئل عن علم فكتمه، أُلجم بلجامٍ من نار**»، قال: فكان سبب الوحشة بينهما هذا. اهـ.

وقال أبو بكر بن أبي عمرو: كان سبب مفارقة أبي عبد الله البخاري البلد أن خالد بن أحمد خليفة ابن طاهر سأله أن يحضر منزله، فيقرأ (التاريخ)، و(الجامع) على أولاده، فامتنع من ذلك، وقال: «لا يسعني أن أخص بالسماع قومًا دون قوم



---

(١) انظر: «نفح الطيب» للمقري (٣/ ١٧٢، ١٩٠).

آخرين»، فاستعان خالد بحريث بن أبي الورقاء وغيره من أهل بخارى، حتى تكلموا في مذهبه، فنفاه عن البلد، وقال: فدعا عليهم.. إلخ[١].

ورفع الله المحنة عن الإمام أحمد وعن المسلمين بالمتوكِّل، وكان دفع له مالًا فلم يقبله، فألزمه به، ففرَّقه بعدما قَبِله، وأجرى المتوكلُ على أهله وولده أربعة آلاف في كل شهر حتى مات المتوكل، لكن الإمام أحمد اعترض على ولديه: صالح، وعبد الله، وعمه؛ لأنهم قبلوا مال الخليفة المتوكل، وقال لهم: «لِمَ تأخذونه، والثغور معطلة، والفيء غير مقسوم بين أهله؟».

وقال أبو سعدٍ السمعاني: سمعت أبا الفتح مسعود بن محمد بن أحمد أبي نصر الخطيب بمرو يقول: سمعت عمر النَّسَوي -يُعرف بابن أبي ليلى- يقول: كنتُ في جامع صُور عند أبي بكرٍ الخطيب، فدخل عليه بعض العلوية، وفي كُمِّه دنانير، وقال للخطيب: «فلان -وذكر بعض المحتشمين من أهل صور- يُسَلِّم عليك، ويقول: هذا تصرفه في بعض مُهماتك»، فقال الخطيب: «لا حاجة لي فيه»، وقَطَّبَ وجهَه، فقال العلوي: «فتصرفه إلى بعض أصحابك» قال: «قل له: يصرفه إلى من يريد»، فقال العلوي: «كأنك تستقله؟!»، ونفض كُمَّه على سجادة الخطيب، وطرح الدنانير عليها، وقال: «هذه ثلاثمائة دينار»، فقام الخطيب محمرَّ الوجه، وأخذ السجادة، ونفض الدنانير على الأرض، وخرج من المسجد. قال الفضل بن أبي ليلى: «ما أنسى عِزَّ خروج الخطيب، وذُلَّ ذلك العلوي، وهو قاعد على الأرض، يلتقط الدنانير من شقوق الحصر ويجمعها[٢].



(١) انظر: «هدي الساري» (ص٤٩٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٧٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٣٨)، و«طبقات السبكي» (٤/ ٣٤، ٣٥). ومع ذلك كان الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ يكرم تلامذته، فقد قال ابن ناصر: حدثنا =



مـا الــذل إلا تَحَـمُّـلُ المِـنَـنِ   فـكـن عـزيـزًا إن شِـئـتَ أو فَهُنِ

وقال أبو عبد الله المحاملي: صليت صلاة العيد يوم فطرٍ في جامع المدينة، فلما انصرفتُ قلتُ في نفسي: أدخل إلى داود بن علي فأهنيه، وكان ينزل قطيعة الربيع؛ قال: فجئته، وإذا بين يديه طبق فيه أوراق هندبا وعصارة فيها نخالة وهو يأكل، فهنأته وتعجبت من حاله، ورأيت أن جميع ما نحن فيه من الدنيا ليس بشيءٍ، فخرجت من عنده، ودخلت على رجل من محبي الصنيعة يقال له الجرجاني، فلما علم بمجيئي خرج إليَّ حاسِرَ الرأس حافي القدمين، وقال لي: ما عَنَّى القاضيَ أيده الله؟ قلت: مُهِمّ، قال: وما هو؟ قلت: «في جوارك داود بن علي، ومكانه من العلم ما تعلمه، وأنت فكثير البر والرغبة في الخير تَغْفُلُ عنه»، وحدثتُه بما رأيت منه، فقال لي: داود شَرِسُ الخُلُق، أَعَلِمَ القاضي أنني وجَّهْتُ إليه البارحةَ ألفَ درهم مع غلام ليستعين بها في بعض أموره، فردها مع الغلام، وقال للغلام: قل له: «بأي عين رأيتني؟ وما الذي بلغك من حاجتي وخَلَّتي حتى وجَّهتَ إليَّ بهذا؟» قال: فتعجبتُ من ذلك، وقلت له: «هاتِ الدراهم فإني أحملها إليه»، فدفعها إلي ثم قال: يا غلام، الكيسَ الآخر، فجاءه بكيس فوزن ألفًا أخرى، وقال: تلك لنا، وهذه لموضع القاضي وعنايته، قال: فخرجت وجئت إليه، فقرعت الباب فخرج، وكلمني من وراء الباب، وقال: ما رَدَّ القاضي؟ قلت: حاجة أكلمك فيها، فدخلت وجلست ساعة، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه، فقال:

=أبو زكريا التبريزي اللغوي قال: دخلت دمشق، فكنت أقرأ على الخطيب بحلقته بالجامع كُتُبَ الأدب المسموعة، وكنت أسكن منارة الجامع، فصعِد إليَّ، وقال: «أحببت أن أزورك في بيتك». فتحدثنا ساعةً. ثم أخرج ورقة، وقال: «الهدية مستحبة، تشتري بهذا أقلامًا»، ونهض، فإذا خمسة دنانير مصرية، ثم صَعِدَ مرة أخرى، ووضع نحوًا من ذلك.



«هذا جزاء من ائتمنك على سره؟! أنا بأمانة العلم أدخلتك إلي، ارجع فلا حاجة لي فيما معك»، قال المحاملي: فرجعت وقد صَغُرت الدنيا في عيني، ودخلت على الجرجاني فأخبرته بما كان، فقال: «أما أنا فقد أخرجتُ هذه الدراهم لله تعالى، لا أرجع في شيء منها، فليتولَّ القاضي إخراجَها في أهل الستر والعفاف على ما يراه القاضي»[١].

وفي عزة العالم وشرف نفسه، قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني:

يقولون لي: فيك انقباض، وإنما ... رأوا رجلًا عن موقف الذل أحجما

أرى الناسَ من داناهمُ هان عندهم ... ومن أكرَمته عزة النفس أُكْرِما

ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لي سُلَّمَا

وما زلتُ منحازًا بعرضي جانبًا ... من الذل أعتد الصيانةَ مَغنما

وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من في الأرض أرضاه مُنْعِما

إذا قيل: هذا منهل، قلت: قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحتمل الظما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدُمَ من لاقيتُ لكن لأُخْدَما

أأشقى به غرسًا وأجنيه ذلة ... إذًا فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظَّما

ولكن أذلوه فهان، ودنَّسوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماع حتى تجهَّما[٢]

★★★

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٥٥).

(٢) «الآدب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٥٠)، وانظر «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٤٧).



★ وقال الذهبي في ترجمته للإمام علي بن أبي الطيب: إنه حمل إلى السلطان محمود ابن سبكتكين ليسمع وعظه، فلما دخل جلس بلا إذن، وأخذ في رواية حديث بلا أمر، فتنمر له السلطان، وأمر غلامًا، فلكمه لكمة أطرشته، فعرَّفه بعضُ الحاضرين منزلته في الدين والعلم، فاعتذر إليه، وأمر له بمال، فامتنع، فقال: «يا شيخ! إن للمُلْكِ صَولةً، وهو محتاج إلى السياسة، رأيتُ أنك تعدَّيتَ الواجب، فاجعلني في حِلٍّ»، قال: «الله بيننا بالمرصاد، وإنما أحضرتني للوعظ، وسماع أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللخشوع، لا لإقامة قوانين الرئاسة»، فخجل الملك، واعتنقه.

★ وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: كان عطاء بن أبي رباح عبدًا أسود لامرأة من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلَّاة(١)، قال: وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه، وهو يصلي، فلما صلى، انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حَوَّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: «قوما»، فقاما، فقال: «يا ابنَيَّ لا تَنِيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذُلَّنا بين يدي هذا العبد الأسود».

★ ومن لطائف شرف النفس، والمبالغة في تنزيهها عن الدنية، أن الشيخ «عز الدين» كان إذا قرأ القارئ عليه من كتاب، وانتهى إلى آخر باب من أبوابه لا يقف عليه، بل يأمره أن يقرأ من الباب الذي بعده؛ ولو سطرًا، ويقول: «ما أشتهي أن أكون ممن يقف على الأبواب».



(١) **الباقِلَّاء**: نبات عشبي حولي، تؤكل قرونه مطبوخة، وكذلك بذوره.





★ وهذا آخَرُ من العلماء يشمخ على الفقر والسؤالِ حتى لو كان فيه نيلُ العلياء، فينهى عن السؤال ومَدِّ اليد، ولو للعلياء، فَمدُّ اليد من العالم ذِلَّة وانكسارُ نفس، والعالمُ داعية الحق، فكَسْرُ نفسه بالسؤال إضعافٌ للحق الذي يدعو إليه، فيقول ذلك الفقيرُ الشامخُ الأبيُّ:

لا تمُــدَّن للعـليـاء مـنـك يـدًا ... حتى تقولَ لك العلياءُ: هاتِ يَدَك

★★★

وقيل: أنفذ الخليفة بمائة دينار إلى عالم، وقال لغلامه: «إن قَبِلَ ذلك، فأنت حُرٌّ»، فحملها إليه، فلم يقبل، فقال: «اقبل، ففيه عتقي»، فقال: «إن كان فيه عتقُكَ، ففيه رِقِّي».

وقال يحيى بن يمان: قال لي سفيان: «إن اقتصرتَ على خبزك وبقلك، لم يستعبدك هؤلاء».

وفي قمع أهواء النفوس اعتزازُها ... وفي نيلِها ما تشتهي ذلُّ سَرْمَدِ

ولم يتفق الحج لإمامين جليلين: أبي إسحاق الشيرازي، وقاضي القضاة الدامغاني، أما أبو إسحاق فكان فقيرًا، ولو أراده لحملوه على الأعناق، والآخر لو أراده لأمكنه على السندُس والإستبرق.

وكان الشيخ «سعيد الحلبي» -عالم الشام في عصره- في درسه مادًّا رجليه، فدخل عليه جبَّار الشام «إبراهيم باشا» ابن «محمد علي» صاحب مصر، فلم يتحرك له، ولم يقبض رجليه، ولم يبدل قعدته، فتألم الباشا، ولكنه كتم ألمه، ولما خرج، بعث إليه بصُرَّة فيها ألف ليرة ذهبية، فردَّها الشيخ، وقال للرسول الذي جاءه بها: «قل للباشا: إن الذي يمد رجليه، لا يمد يده».





ومن مظاهر الهمة العلِيَّة والأنفة الأبِيَّة:

أن الجزائريين بعد أن استقلوا عن فرنسا (١٩٦٢م) قرروا أن يبدؤوا عهد الحرية بمحو كل أثرٍ يُذَكِّرهم بالجلاد الفرنسي الذي كان حريصًا على إذلالهم بمهنة مسح الأحذية، وكان الفرنسيون قلما يدفعون لماسح الأحذية أجره، وبعد سبعة أشهر من الاستقلال أعلنت الجزائر الحرب على هذه المهنة التي تحط من كرامة الإنسان، وتم استئصالها من الجزائر الحبيبة، كما صدر بعد ذلك مرسوم يمنع سائقي سيارات الأجرة من أن يُقِلُّوا راكبًا في المقعد الخلفي إذا كان المقعد الأمامي خاويًا.

ومن شرف النفس، ومعرفة قدرها في الصِّغار:

★ ما قال زياد بن ظبيان -وهو يجود بنفسه- لابنه عُبيد الله: «ألا أُوصي بك الأمير زيادًا؟»، قال: «يا أبت إذا لم يكن للحي إلا وصيةُ الميِّت؛ فالحيُّ هو الميت»، وقال الشاعر في نحوه:

إذا ما الحيُّ عاش بعظمِ مَيْتٍ ... فذاك العظمُ حَيٌّ وهْوَ مَيْتُ



★ وقال معاوية لعمرو بن سعيد، وهو صبي: «إلى من أوصى بك أبوك؟».

قال: «إن أبي أوصى إليَّ، ولم يوصِ بي».

قال: «وبم أوصى إليك؟».

قال: «ألَّا يفقد إخوانُه منه إلا وجهَه».

وقال عمران بن عبد الله الخزاعي: «كان سعيد بن المسيب لا يخاصم أحدًا، ولو أراد إنسان رداءه، رمى به إليه».

وقال ابن قتيبة: مرَّ بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة، فقال: ما يُجلسك ها هنا؟ قلتُ: خصومة بيني وبين ابن عم لي، فقال: «إن لأبيك عندي يدًا، وإني أريد أن أجزيك بها، والله ما رأيت شيئًا أذهبَ للدين، ولا أنقصَ للمروءة، ولا أضيع للذَّة، ولا أشغلَ للقلب من الخصومة».

قال ابن قتيبة: فقمت لأنصرف، فقال لي خَصْمي: مالك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفتَ أن الحق لي؟ قلت: «لا، ولكن أُكرِم نفسي عن هذا»، وتركتُ الخصومة[1].

وكان الشيخ «عبد الوهاب الفارسي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ يسير يومًا برفقة صديقه الشيخ «محمد الجراح»، فصدمتهما سيارة، فسقطا في حفرة وجُرِحا، ولما علما أن السائق كان سكران؛ صفحا عنه، وامتنعا من مقاضاته، أنفةً من أن يقفا في موقف واحد مع سكران.





(١) انظر: «الإحياء» للغزالي، كتاب «آفات اللسان»، الآفة الخامسة: الخصومة.

تعفف كبير الهمة عن أموال الناس

المال نعمة من فضل الله تعالى قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:١٠]، وسمَّاه الله خيرًا في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة:١٨٠]. وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨].

لكن الحصول على المال يستلزم السعي والأخذ بالأسباب، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥].

عن المقدام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما أكل أحد طعامًا قطُّ خيًرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده**»(١).

وفي رواية بالحصر: «**كان لا يأكل إلا من عمل يده**».

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه**»(٢).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا؛ فإنما يسأل جَمْرًا؛ فليستقلَّ، أو يستكثر**»(٣).



(١) رواه البخاري، ووجه خيريته ما يستلزمه العمل باليد من الغنى عن الناس.
(٢) رواه النسائي.
(٣) رواه مسلم [١٠٤١].

إن من مظاهر تدني الهمة، وقلة المروءة أن يُريق الإنسان ماء وجهه بأن يستجديَ الناس، ويسألهم أموالهم، ويشتد الأمر إذا كان قادرًا على الكسب بنفسه، أو يسأل الناس تكثرًا.

وقد أثنى الله على فقراء المهاجرين الذين ﴿أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٧٣]. أي: حبسوا أنفسهم على الجهاد، وأُرصِدوا للخروج مع السرايا، وتعليم القرآن الكريم، وهم أهل الصُّفَّة فقراء المهاجرين، كانوا يأوون إلى موضعٍ مُظَلَّلٍ في المسجد النبوي ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا﴾ سفرًا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للتجارة والمعاش، لشُغلهم عنه بالجهاد ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: لتعففهم عن السؤال، وتركه، ﴿تَعۡرِفُهُم﴾ يا مخاطبُ ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ علامتهم من التواضع وأثر الجهد ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ﴾ شيئًا فيُلْحِفون ﴿إِلۡحَافٗا﴾ أي: لا سؤال لهم أصلًا، فلا يقع منهم إلحاف؛ وهو: الإلحاح[(١)].

ومن نماذج التعفف الرائعة أن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قدم المدينة مهاجرًا، وليس معه من متاع الدنيا شيء، فقد ترك كل شيء في مكة، كأصحابه المهاجرين، الذين خلَّفوا أموالهم وبساتينهم وتجاراتهم في مكة.

وآخى النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينه وبين سعد بن الربيع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال له سعد: «أخي عبد الرحمن، أنا أكثر أهل المدينة مالًا، فانظر شَطْرَ مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيتهما أعجب لك حتى أطلقها وتتزوجها.

---

(١) انظر: «قرة العينين على تفسير الجلالين» (ص٥٨)، و«عودة الحجاب» القسم الثالث (ص٣٢٢).

فقال عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلُّوني على السوق».

وخرج إلى السوق فاشترى وباع وربح.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غِنًى، ولا يُفطَن له فيُتصدَّق عليه، ولا يَسأل الناسَ شيئًا**»(١).

وفي رواية: «**إنما المسكين الذي يتعفف؛ اقرءوا إن شئتم** ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾».

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف والمسألة: «**اليد العُليا خير من اليد السفلى**» الحديث(٢).

ورُوي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ولا أحسب اليد السفلى إلا السائلة، ولا العليا إلا المعطية»، وعنه أيضًا: «كنا نتحدث أن العليا هي المنفقة»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لأن يأخذ أحدكم حَبْلَه فيأتي بحُزمة الحطب على ظهره، فيبيعَها فيكُفَّ الله بها وجهَه، خير له من أن يسأل الناس أعطَوْه أو منعوه**»(٤).



(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري [١٤٢٧].
(٣) انظر: «فتح الباري» (٤/ ٢٥٨) ط. دار طيبة – الرياض.
(٤) رواه البخاري [١٤٧١].

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعَةُ لحم**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سأل -وله ما يغنيه- جاءت مسألته يوم القيامة خُدوشًا -أو كُدوحًا- في وجهه**»(٣).

وقال الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: «من كان أكثر عمره سائلًا، أو يكثر ذلك منه؛ فينبغي أن ترد شهادته لأن ذلك دناءة وسقوط مروءة»(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعبد لابد له من رزق، وهو محتاج إليه، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا لله، فقيرًا إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح، والسنن، والمسانيد»(٥).

---

(١) رواه البخاري [١٤٧٤]، ومسلم [١٠٤٠].
(٢) رواه أبو داود [١٦٣٤]، وقال الخطابي: «المِرَّة: القوة، وأصلها من أمررت الحبل: إذا أحكمت فَتْلَه، فهي شدة أَسْرِ الخَلْق وصحة البدن التي يكون معها احتمال الكَدِّ والتعب» اهـ. من «معالم السنن» (٢/ ٥٤)، والسَّوِي: الصحيح الأعضاء.
(٣) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٨٨، ٤٤١)، وأبو داود [٢٦٢٦]، والنسائي [٢٥٩١]، والترمذي [٦٥٠]، وابن ماجه [١٨٤٠]، والخدوش: جمع خدش، والكدوح: جمع كدح، وهي آثار مستنكرة في وجهه، أو أمارات يُشهَر بها بين أهل الموقف.
(٤) «المغني» (١٢/ ٤٩)، وانظر: «روضة الطالبين» (١١/ ٢٣٤)، و«مغني المحتاج» (٤/ ٤٣٣).
(٥) «العبودية» (ص٩٠).



- عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: عظني وأوجز، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قُمتَ في صلاتك فَصَلِّ صلاة مُودِّع، ولا تكلم بكلامٍ تعتذر منه غدًا، واجمعِ الإياسَ مما في أيدي الناس**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أتاني جبريل، فقال: يا محمدُ عِشْ ما شئتَ فإنك ميت، وأحبِبْ مَن شئتَ، فإنك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنك مَجْزِيٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعِزَّه استغناؤه عن الناس**»(٢).

وعن عبد الله بن السعدي: أنه قدم على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الشام، فقال: «ألم أُخْبَرَ أنك تعمل على عمل من أعمال المسلمين، فَتُعْطَى عليه عمالة، فلا تقبلها؟» قال: «أجل، إن لي أفراسًا وأعبدًا، وأنا بخير، وأريد أن يكون عملي صدقة على المسلمين»، فقال عمر: إني أردتُ الذي أردتَ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطيني المال، فأقول: أعطه من هو أفقر إليه مني، وإنه أعطاني مرة مالًا، فقلت له: أعطه من هو أحوج إليه مني، فقال: «ما آتاك الله عَزَّ وَجَلَّ من هذا المال من غير مسألة، ولا إشراف، فخذه فتموله، أو تصدق به، وما لا فلا تُتبِعْه نفسَك»(٣).

ومن محاسن الحث على الاستغناء عن الناس، والتعفف عن استشراف عطاياهم، ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦].

---

(١) رواه ابن ماجه، والإمام أحمد (٥/ ٤١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٤٦٢)، وقال الألباني: «له شواهد تدل على أن له أصلًا» اهـ. من «الصحيحة» رقم [٤٠١].

(٢) رُوِي من حديث سهل بن سعد، وجابر بن عبد الله، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وحسَّنه المنذري، والعراقي، والألباني بمجموع طرقه كما في «الصحيحة» رقم [٨٣١].

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١١٢)، ومسلم [١٠٤٥]، والنسائي (١/ ٣٦٥)، والدارمي (١/ ٣٨٨).



قال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ أي لا تعط عطية تلتمس بها أفضل منها، بمعنى: لا تعط شيئًا لتُعطَى أكثر منه. يقال: مننت فلانًا كذا، أي أعطيته. كما قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص:٣٩]. أي: فأعطِ أو أمسك. وأصله أن من أعطى فقد منَّ، فسُميت العطية بالمنِّ على سبيل الاستعارة، وجوّز القفال أن يكون الاستكثار عبارة عن طلب العِوَضِ كيف كان زائدًا أو مساويًا. قال: وإنما حسنت هذه الاستعارة، لأن الغالب أن الثواب يكون زائدًا على العطاء. فسمى طلب الثواب استكثارًا حملًا للشيء على أغلب أحواله. وهذا كما أن الأغلب أن المرأة إنما تتزوج، ولها ولد، للحاجة إلى من يُربي ولدها، فسمى الولد ربيبًا، ثم اتسع الأمر، فسمى ربيبًا، وإن كان، حين تتزوج أمه، كبيرًا.

وسر النهي أن يكون العطاء خاليًا عن انتظار العوض، والتفاتِ النفس إليه تعففًا وكمالًا وعلوَّ همة...» اهـ[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يستعفِفْ يُعفَّه الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يتصبرْ يُصَبِّرْه الله، وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**»[(٢)].

وعن حكيم بن حِزام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حكيم، إن هذا المال خَضِرةٌ حُلوة، فمن أخذه بسَخاوة نفسٍ بُورِك له فيه، ومن أخذه بإشرافِ نفسٍ لم يُبارَكْ**

(١) «محاسن التأويل» (١٦/ ٥٩٧٣، ٥٩٧٤).
(٢) رواه البخاري [١٤٦٩]، ومسلم [١٠٥٣].





له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع. اليد العليا خير من اليد السفلى» قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارقَ الدنيا، فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حَقَّه من هذا الفَيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعدَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تُوُفي[1].

إن (من سجايا الإسـلام التحلي بكبر الهمة، فكبر الهمة يجلب لك -بإذن الله- خيرًا غير مجذوذ، ويُجري في عروقك دم الشهامة والركض في ميدان العلم والعمل، فلا تُرى واقفًا إلا على أبواب الفضائل، ولا باسطًا يديك إلا لمهمات الأمور، «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها».

إن التحلي بكبر الهمة يسلب منك سفاسف الآمال والأعمال، ويجتث منك شجرة الذل، والهوان، والتملق، والمداهنة.

فارسم لنفسك كبر الهمة، ولا تنفلت منها، وقد أومأ الشرع إليها في فقهيات تلابس حياتك لتكون دائمًا على يقظة من اغتنامها، ومنها:

- إباحة التيمم للمكلف عند فقد الماء، وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء للوضوء، لما في ذلك من المنة التي تنال من الهمة منالًا.



---

(١) رواه البخاري [١٤٧٢].

ومنها: أن الرجل لا يلزمه الحج ببذل غيره له، ولا يصير مستطيعًا بذلك، سواء كان الباذل قريبًا أو أجنبيًّا، لما في ذلك من المنة التي تلزمه[١]. فهذه إشارات، وعليك التقصِّي)[٢].

- ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوب يستر به عورته في الصلاة، وأبيح له أن يصلي عاريًا؛ صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

- أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول المُتبرَّع له؛ فلو وهب شخص لآخر مالًا لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له؛ إذ قد يربأ به خُلُق العزة عن قبولها؛ كراهة احتمال مِنَّتها، والمنة تصدع قناة العزة؛ فلا يحتملها ذوو المروءات إلا حال ضرورة، ولاسيما منة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدرٍ رفيع.

(ومن أراد قضاء دين عن غيره، فأبى ربه، لم يلزم بقبوله) لما فيه من المنة، ولأنه إن كان المديون يقدر على الوفاء وجب عليه، وإلا لم يلزمه شيء، فإن مَلَّكه لمدين، فقبضه ودفعه لرب الدَّيْن، أُجْبِرَ على قبوله[٣].





(١) «المغني»لابن قدامة (٣/ ٢٢٠)، وانظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ١٥٩).
(٢) «حلية طالب العلم» للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد (ص١٣٥) بتصرف.
(٣) «منار السبيل» (١/ ٣٣٣).

رُبَّ مَوْهِبَةٍ للمُروءةِ مُذْهِبَة(١)

قال عمران بن عبد الله الخزاعي: كان سعيد بن المسيب لا يقبل من أحدٍ شيئًا، لا دينارًا ولا درهمًا ولا شيئًا، قال: وربما عُرِضَ عليه الأشربة، فيعرض، فليس يشرب من شراب أحد منهم.

وعن منصور بن المعتمر قال: «إن الرجل ليسقيني شربة من ماء، فكأنه دقَّ ضِلْعًا من أضلاعي» اهـ.

وقال إبراهيم بن أدهم: «يلومنا الناس أن لا نقبل منهم، ويوشك أن نقبل منهم فنهونَ عليهم، ويوشك أن نسألهم فلا يعطونا».

وإنما رجل الدنيا وواحدها … من لا يُعوِّل في الدنيا على رجلِ

وقال زهير بن أبي زهير: قلت لأحمد بن حنبل: «إن فلانًا -يعني أبا يوسف- ربما سعى في الأمور، مثل المصانع والمساجد والآبار». فقال لي أحمد: «لا، نفسُه أولى به». وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجهه.

ولأن الإحسان رِقٌّ، والمكافآتِ عتق، كان الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أهدى إليه مُهدٍ هديةً مما يمكنه المكافأةُ عليه، قَبِلَها وكافأه، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأةُ عليها ردَّها واعتذر إلى مُهديها. ووجَّه إليه أبو الهيجاء



(١) **المَوْهِبَة**: الهبة، و**المُذْهِبة**: اسم فاعل من أذهبه إذهابًا.

ابن حمدان -الأمير عمُّ سيف الدولة- ثلاثة آلاف دينار، فلما نظر إليها عَجِبَ منها، ثم قال: «لا أقبلُ ما لا أقدر على المكافأة عنه، ومن أين لي ما أكافئ به عن هذا؟» فقيل: «ما لهذا مكافأة، إنَّما أراد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ»، فأبى أن يقبله وردَّه إليه. وأهدى إليه أبو المحسن المحرَّرُ جاره فَرخَين، فأهدى إليه ثوبًا.

وكان يختلف إليه أبو الفرج الأصبهاني، الكاتب، يقرأ عليه كتبه، فأخمس أبو جعفر حصيرًا لصُفَّةٍ له صغيرة، فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأخذ مقدار الصفة، واستعمل له الحصير -أي: أوصى أن تُعمل له- متقرِّبًا بذلك له، وجاءه به وقد وقع موقعه، فلما خرج دعا ابنه -أي: ابن أبي الفرج- ودَفَعَ إليه أربعة دنانير، فأبى أن يأخذها، وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصيرَ إلا بها.

- وأتى رجل إلى الإمام ابن الحُطيئة بمئزرٍ، وحلف بالطلاق ثلاثًا لابد أن يقبله، فوبَّخه على ذلك، وقال: «عَلِّقْهُ على ذاك الوتد»، فلم يزل على الوتد حتى أكله العُثُّ، وتساقط، وكان ينسخ بالأجرة.

- وأهدى الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود شقيقُ الملك عبد العزيز إلى العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيتًا في الطائف، فردَّه، ولم يقبله، فسئل عن ذلك؟ فقال: «الذي بناه يحتاجه لنفسه، أما أنا فلم أبنِه ولا أحتاجه، وعندي بيت في المدينة يكفيني».

وبيته في باب الكومة بالمدينة، هو بناء شعبي؛ أي: سقفه من خشب، لا من حديد، يقع في دورين، في كل دور أربع غرف، وكان الأسفل منهما يغصُّ بطلبة العلم من المغتربين وغيرهم.



وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشرب ماء الزير، ولا يشرب من الثلاجة إلا قليلًا، ويجلس على الحصير، ويأخذ أوراقه في الدهليز ويطالع.

وكان الأمير المذكور آنفًا قد عمد البنك الأهلي بالمدينة أن إذا طلب الشيخ منهم أي مبلغ يعطونه، فلم يطلب، ولم يأخذ شيئًا إطلاقًا.

ولم تُبع كتبه في حياته، وكان يقول: «علم نتعب عليه ويباع وأنا حي؟ لا يمكن هذا، ولكن أنا أدفع العلم، وواحد يدفع الفلوس، ويُوَزَّعُ للناس مجانًا، وأنا أعلم أنه سيصل إلى من لا يستحقه، ولكن سيصل أيضًا إلى من لا يستطيع الحصول عليه بالفلوس».

وقال الشنفرى:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القِلَى مُتَحَوَّلُ

أُدِيمُ مِطَالَ الجوعِ حتى أُمِيتَه ... وأصرفُ عنه الذكر صَفْحًا فأذهلُ

وأستفُّ تُرْبَ الأرضِ كي لا يرى له ... عليَّ من الطوْل امرؤ متطوِّل

وقال الشاعر:

لنقل الصخر من قُلَلِ الجبالِ ... أَحَبُّ إليَّ من مِنَنِ الرجالِ

يقول الناس لي في الكسْب عارٌ ... فقلت العارُ في ذل السؤالِ

بلوت الناس قرنًا بعد قرن ... ولم أرَ مثل محتالٍ بمالِ

وذُقْتُ مرارة الأشياء طُرًّا ... فما طعمٌ أَمَرُّ من السؤالِ



وقال المتنبي:

وأصدى فلا أُبْدِي إلى الماء حاجةً ... وللشمس فوق اليَعْمَلات لُعابُ[(١)]

وقال الشاعر محمود سامي البارودي:

إذا أنا لم أُعْطِ المكارمَ حَقَّها ... فلا عَزَّني خالٌ ولا ضمني أبُ

خُلِقْتُ عَيوفًا[(٢)] **لا أرى لابن حُرَّةٍ ... عليَّ يدًا أُغضِي**[(٣)] **لها حين يغضبُ**

وقال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وما رأينا مثل هذا الزمان القبيح. فما بقي مَن يومَأ إليه بمعونة ولا باستقراض، فيحتاج الإنسان المؤمن أن يدخل في مداخلَ لا تليق به، وأن يتعرض بما لا يصلح.

فينبغي تقليل العائلة، وتقويت القوت، وترقيع الخَلَق.

---

(١) يفخر شاعر العرب الفحل بانه وطَّن نفسه على كل شدة، وأنه -وإن بلغ الجهد- لا يُظهر لصاحبه حاجته.

والصدى: العطش، **واليعملات**: النوق النجيبة المطبوعة على العمل، يُعمل عليها في الأسفار في السير، والواحدة: يعملة. يقول المتنبي: إني أعطش في الهواجر الحامية، والقفار البعيدة النائية، فلا أُبْدِي لأصحابي حاجتي إلى الماء، ولا أظهر لهم إليه ضرورة تصبرًا وحزمًا حين يشتد حميء الشمس حتى كأن الشمس سال لها لُعاب فوق الإبل، والمسافرون في الفلوات إذا اشتد الهجير يرون كأن الشمس قد دنت من رؤوسهم، وتدلت منها خيوط فوقهم، ومنه قول الراجز:

وذاب للشمس لعاب فنزل ... وقام ميزان النهار فاعتدلْ

وقول الكميت الفقعسي:

يصافحن خد الشمس كل ظهيرة ... إذا الشمس فوق البيد ذابَ لعابُها

ومعنى البيت في قول أبي تمام:

جدير أن يكر الطرف شَزْرًا ... إلى بعض الموارد وهْوَ صادي

(٢) **العيوف**: الذي ينصرف عن الشيء وهو محتاج إليه.

(٣) **أُغْضي**: أخفض جفوني وأغض من بصري، كناية عن السكوت على الغضب استخذاءً وضعفًا.



وإن أمكن معاشٌ فهو أولى من التشاغل بالتعبد والتعلمِ لفضول العلم، وإلا ضاع الدين في مداخل لا تصلح، أو التعرض لبذل نَذْلٍ» اهـ[١].





(١) «صيد الخاطر» (ص٤٥٧).

خَسيسُ الهِمَّة دَنِيءُ النَّفْسِ

يستحيي الإنسان ممن يكبر في نفسه، فيستحيي من العالم أكثر من استحيائه من الجاهل، ويستحيي من الصالح أكثر من الفاجر، في حين أنه لا يستحيي من الحيوان، ولا من الأطفال، ومن كانت نفسه عنده كبيرة، كان استحياؤه منها أشدَّ من استحيائه من غيرها، أما خسيس الهمة فإنه يستحيي من الناس، ولا يستحيي من نفسه إذا انفرد عن الناس، لأن نفسه أخسُّ عنده من غيره، وهو يراها أحقر من أن يستحيي منها، فمِن ثَمَّ قال بعض السلف: «من عمل في السر عملًا يستحيي منه في العلانية؛ فليس لنفسه عنده قدر»(١)، وقيل لبعض العُبَّاد: «من شَرُّ الناس؟»، قال: «من لا يبالي أن يراه الناسُ مسيئًا».



(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٣).

فروق تمسُّ الحاجة إلى بيانها

قد تُلَبِّسُ النفسُ الأمارة بالسوء على العبد أمورًا يحبها الله ويرضاها بأمور يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ، ولدقة الحد الفاصل بينهما لا ينجو من هذا التلبيس إلا أرباب البصائر، ذوو النفوس المطمئنة، وقد عقد الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فصولًا نافعة بَيَّن فيها هذه الدقائق النفيسة في كتابه (الروح)، نجتزئ منها بما نحتاجه في هذا المقام.

الفَرْق بَينَ شَرفِ النَّفْسِ وَالتيه

(شرف النفس هو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التي تقطع أعناق الرجال، فيربأ بنفسه عن أن يُلقيها في ذلك، بخلاف التيه، فإنه خُلُق متولِّدٌ بين أمرين: إعجابه بنفسه، وازدرائه بغيره، فيتولد من بين هذين التيه، والأول -أي شرف النفس- يتولد من بين خُلُقَيْن كريمين:

- إعزاز النفس وإكرامها.

- وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دَنِيًّا وضيعًا خسيسًا، فيتولد من بين هذين الخلقين شرفُ النفس وصيانتها، وأصل هذا كله: استعداد النفس



وتهيؤها، وإمداد وليها ومولاها لها، فإذا فقد الاستعداد والإمداد، فقد الخير كله)[(١)] اهـ.

وعن الحسن بن عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن رجلًا قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيهًا؟ قال: «ليس بتيه، ولكنه عِزَّة» وتلا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

قال الرازيّ: «قال بعض العارفين في تحقيق هذا المعنى: العزة غير الكِبْر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامها عن أن يضعها لأقسام عاجلة دنيوية، كما أن الكِبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلها؛ فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه التواضع بالضعة، والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم، والعزة محمودة. ولما كانت غير مذمومة، وفيها مشاكلة للكبر قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف:٢٠]. وفيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق، والوقوفُ على حد التواضع، من غير انحراف إلى الضعة، وقوفٌ على صراط العزة المنصوبِ على نار الكبر»[(٢)].





---

(١) «الروح» (ص٣١٣).
(٢) نقله في «محاسن التأويل» (١٦/ ٥٨١٤).





الفَرق بَين صِيانَةِ النفسِ وَالتكبُّر

(والفرق بين الصيانة والتكبر: أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا، نقي البياض، ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمَن دونَهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاءً على بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشى منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك على غرَّة، بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره، وهكذا الصائن لقلبه ودينه، تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعًا وآثارًا أعظم من الطبوع الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع، فتراه يهرب من مظان التلوث، ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين، والذباحين، والطباخين، ونحوهم.

بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه؛ فهو يقصد أن يعلو رقابهم، ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون)[(١)] اهـ.

أما الكِبْر:

(فإنه أثر من آثار العجب والبغي مِن قلبٍ قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت، فنظرُهُ إلى الناس شَزَر، ومشيه بينهم

(١) «الروح» (ص٣١٧).



تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار، لا الإيثار، ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا، لا يبدأ مَن لقيه بالسلام، وإِن رد عليه رأى أنه قَد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خُلُقُه، ولا يرى لأحد عليه حقًّا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، لا يزداد مِن الله إلا بعدًا، ومن الناس إلا صَغارًا أو بغضًا)[١] اهـ.





(١) نفسه (ص٣١٦).





الفَرْقُ بَيْنَ «التَّواضُعِ» وَالمَهَانَةِ

(الفرق بين التواضع والمهانة: أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولد من بين ذلك كله خُلُق هو التواضع، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلًا، ولا يرى له عند أحد حقًّا، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلُق إنما يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ من يحبه ويكرمه ويقربه.

وأما المهانة: فهي الدناءة والخِسَّة وبذلُ النفس وابتذالُها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السُّفَّل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه، فهذا كله ضَعَة لا تواضع، والله سبحانه يحب التواضع، ويبغض الضعة والمهانة، وفي (الصحيح) عنه صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وأوحى الله إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخَر أحد على أحد، ولا يبغيَ أحد على أحد»)[١] اهـ.





(١) نفسه (ص٣١٤).

الفَرْقُ بَينَ المنَافَسَة والحَسَدِ

(والفرق بين المنافسة والحسد: أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذي تشاهد من غيرك، فتنافسه فيه حتى تلحقه، أو تجاوزه، فهي من شرف النفس، وعلو الهمة، وكبر القدر، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وأصلها من الشيء النفيس الذي تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة، فينافس فيه كلٌّ من النفسَين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه، كما كان أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتنافسون في الخير، ويفرح بعضهم ببعض لاشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه، وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١]، وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فلم يظفر بسبقه أبدًا، فلما علم أنه قد استولى على الإمامة[١]، قال: «والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا».

وقال: «والله ما سبقته إلى خيرٍ، إلا وجدته قد سبقني إليه»، والمتنافسان كعبدين بين يدي سيدهما يتباريان، ويتنافسان في مرضاته، ويتسابقان إلى محابه، فسيدهما يعجبه ذلك منهما، ويحثهما عليه، وكل منهما يحب الآخر، ويحرضه على مرضاة سيده.

(١) أي: تمكنت منه خصال الإمامة في الدين، وتمكَّن منها.



والحسد خلقُ نفسٍ ذميمةٍ وضيعةٍ ساقطةٍ، ليس فيها حرصٌ على الخير، فلعجزها، ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد، ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم، كما قال تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩] وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩]، فالحسود عدو النعمة، متمنٍّ زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابق النعمة متمنٍّ تمامَها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه، ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه في النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة، فمن جعل نَصْبَ عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه، انتفع به كثيرًا، فإنه يتشبه به، ويطلب اللحاق به والتقدم عليه، وهذا لا نذمه[(١)]، وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة، كما في (الصحيح) عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناءَ الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالًا فسلَّطه على هلكته في الحق**»، فهذا حسدُ منافسةٍ وغِبْطَةٍ يدل على علو همة صاحبه، وكبر نفسه، وطلبها للتشبه بأهل الفضل) اهـ[(٢)].





(١) فعالي الهمة ينظر إلى من هو فوقه في الدين، ويقول: «فلان خير مني»، فينافسه، وساقط الهمة ينظر إلى من هو أسفل منه في الدين ويقول: «أنا خير من فلان».
(٢) نفسه (ص٣٣٩، ٣٤٠).





الفرقُ بَينَ حُبِّ الرِّياسَةِ، وَحُبِّ الإمَامَةِ في الدِّينِ

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤].

قال بعض المفسرين: الآية بمعزل عن إرادة السلطنة والملك، لأن الآية الكريمة تثبت أن «الإمامة في الدين» يُحرمها الظالمون من ذريته ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾، وقد نال الإمامة الدنيوية كثير من الظالمين، فظهر أن المراد من «العهد» إنما هو الإمامة في الدين خاصة(١).

وكان من دعاء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴾ [الشعراء:٨٣] أي: حكمة، أو: حكمًا بين الناس بالحق، أو نبوة، لأن النبي ذو حُكْمٍ وحِكمة ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ أي: وفقني لأنتظم في سِلكهم، لأكون من الذين جعلتهم سببًا لصلاح العالم وكمال الخلق ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٤] أي: ذكرًا جميلًا بعدي، أُذكرَ به، ويُقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:١٠٨-١١٠](٢).



---

(١) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (٢/ ٢٤٦).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الجامع لأحكام القرآن»: «روى أشهب عن مالك قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يُثنى عليه صالحًا، ويُرى في عمل =

وجُوِّز أن يكون معنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾: واجعل لي صادقًا من ذريتي، يُجَدِّدُ أصل ديني، ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد، وهو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»(١) رواه الإمام أحمد.

وصح من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين**»، وأخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أن من دعاء عباد الرحمن قولهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٢) [الفرقان:٧٤]، فهم لا يريدون أن يكونوا من المتقين فحسب، بل يريدون أن يكونوا أئمة لهم، فهم دعوا الله أن يكونوا قدوة في الدين، ولم يطلبوا الرئاسة، قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِها: «أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا مَن بعدنا».

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: قدوة يُقتدَى بنا في الخير، فإن ذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقيًا قدوة، وهذا هو قصد الداعي، وفي (الموطأ): «إنكم أيها الرهط أئمة يُقتدى بكم»، فكان ابن عمر يقول في دعائه: «اللهم اجعلنا من أئمة المتقين»(٣) اهـ.



=الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى؛ وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي: حبًّا في قلوب عباده، وثناءً حسنًا، فنبَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل» اهـ. (١٣/ ١١٣).

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (١٣/ ٤٦٢٤)، وقال محقق «المسند»: «صحيح لغيره» [١٧١٥٠].

(٢) «والآية تدل على فضيلة علو الهمة، وسمو الروح، وطلب الكمال، والقدوة في الخير» اهـ. من «أيسر التفاسير» (٣/ ٦٣٥).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٨٣).

وقال مكحول: «اجعلنا أئمة في التقوى، يقتدي بنا المتقون»، وقال القفال وغيره من المفسرين: «في الآية دليل على أن طلب الرياسة في الدين واجب» اهـ.

وقال سحنون: «من كان أهلًا لتقييد العلوم ورجاء الإمامة فعليه فرض أن يطلبها»، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وكان القشيري يقول: «الإمامة بالدعاء، لا بالدعوى» يعني: بتوفيق الله وتيسيره ومنته، لا بما يدعيه كل أحد لنفسه.

وقال إبراهيم النخعي: «لم يطلبوا الرياسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين».

وقال ابن عباس: «اجعلنا أئمة هدى»، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣].

والقدوة نور يضيء للناس طريقهم، فيكون أمامَهم وليس خلفَهم.

عن الحسن قال: «من استطاع منكم أن يكون إمامًا لأهله، إمامًا لحيِّه، إمامًا لمن وراء ذلك، فإنه ليس شيء يؤخذ عنك إلا كان لك منه نصيب».

وقد فصَّل الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى الفرق بين حب الرياسة، وبين حب الإمامة في الدين، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

(والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله: هو الفرق بين تعظيم أمر الله، والنصح له، وتعظيم النفس، والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يُطاع ربُّه فلا يُعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في



الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين، فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلًا، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مُطاعًا، لكي يأتموا به، ويقتفوا أثر الرسول على يده؛ لم يضره ذلك، بل يُحمد عليه، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع، ويُعبد، ويُوحَّد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصِّلًا إليه، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكَرهم بأحسن أعمالهم، وأوصافهم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤]، فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته، فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم، ويوفقهم، ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جَلَّجَلَالُهُ، لِيُعْلِمَ خلقَه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف، وهي المنازل العالية في الجنة لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية، بل من أعلى مرتبة يُعطاها العبد في الدين، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.



وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم، وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم، مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله[١] من البغي، والحسد، والطغيان، والحقد، والظلم، والفتنة، والحمية للنفس، دون حق الله، وتعظيم من حقَّره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تُنال إلا به وبأضعافه من المفاسد[٢]، والرؤساء في عمًى عن هذا، فإذا كُشِفَ الغطاء تبين لهم فسادُ ما كانوا عليه، ولا سيما إذا حُشروا في صور الذرِّ يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم، إهانةً لهم وتحقيرًا وتصغيرًا، كما صغَّروا أمر الله وحقروا عباده)[٣] اهـ.



---

(١) وغالبًا ما يقترن العلو في الأرض بالفساد، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ [الفجر:١١، ١٢]، وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، وفرعون الذي كان عاليًا من المفسدين، رمى موسى وهارون كذبًا وزورًا أنهما ينافسانه في هذا العلو: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٧٨].

(٢) فمن ثَمَّ قال أبو جعفر المحولي: «حرام على نفسٍ عليها رياسة الناس، أن تذوق حلاوة الآخرة» اهـ. من «صفة الصفوة» (٢/ ٣٩٠)، وقال الشاعر:

هلاكُ الناسِ مُذْ كانوا ... إلى أن تأتيَ الساعَهْ
بحبِّ الأمر والنهي ... وحبِّ السمع والطاعه

ومن أقبح صور حب العلو والرياسة على حساب الدين وأهله ما حكاه ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق ذكر ملوك الأندلس، وحرصهم على عروشهم، فقال: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشيةَ أمورهم بادروا إليهم، فنحن نراهم يستمدون النصارى، فيمكِّنوهم من حُرم المسلمين وأبنائهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا، فأخلَوْها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس» اهـ. من «رسائل ابن حزم» (٣/ ١٧٦).

(٣) «الروح» (٣٤٠، ٣٤١).



البَابُ الثَّالِث

الحَثُّ عَلَى عُلُوِّ الهِمَّةِ فِي القُرآنِ وَالسُّنَّةِ







الحَثُّ عَلَى عُلُوِّ الهِمَّةِ فِي القُرآنِ وَالسُّنَّةِ



ملأ القرآن العظيم نفوس المؤمنين بعظمة الهمة، وعلوِّها، وهذا ما قذف بهم في أقطار المعمورة ذات اليمين وذات الشمال، فأتوا على العروش الظالمة، ونسفوها من وجه البسيطة نسفًا، وانطلقوا ينشرون نور التوحيد والإيمان، ويفجرون أنهار العلوم، ويرفعون لواء العدل والحرية والمساواة.

وتواردت نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة على حث المؤمنين على ارتياد معالي الأمور، والتسابق في الخيرات، وتحذيرهم من سقوط الهمة، وتنوعت أساليب القرآن الكريم في ذلك:

فمنها: ذم ساقطي الهمة، وتصويرهم في أبشع صورة:

★ كما قص الله علينا من قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٥، ١٧٦] [١].



---

(١) انظر: «الفوائد» لابن القيم (ص٨٢).



★ وقال تعالى واصفًا حال اليهود الذين علموا فلم يعملوا: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة:٥]، وقال في وصف أشباههم: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ ﴾ [الأنعام:٩١] يعنى علمتم فلم تعملوا، فما ذلكم بعلم، في حين أنه امتدح يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ ﴾ [يوسف:٦٨] أي: يعمل بما علم.

★ وذم المنافقين المتخلفين عن الجهاد لسقوط همتهم، وقناعتهم بالدون، فقال في شأنهم: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ [التوبة:٨٧]، وبَيَّنَ أنهم لسقوط همتهم قعدوا عن الجهاد، فقال: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾ الآيات [التوبة:٤٦].

★ وشنع عَزَّوَجَلَّ على الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ويجعلونها أكبر همهم، وغاية علمهم، باعتبار هذا الإيثار من أسوأ مظاهر خسة الهمة، وبيَّن أنَّ هذا الركون إلى الدنيا تَسَفُّل ونزول يترفع عنه المؤمن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

وقال تعالى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [النساء:١٣٤] أي: فما له يطلب أخسَّهما؟! فليطلبهما، أو



الأشرفَ منهما، كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ [(١)] أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٠، ٢٠١].

★ وعاب حرص اليهود على حياةٍ، أي حياة، ولو كانت ذليلة مهينة، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة:٩٦]، وحمل القرآن الكريم على المشركين الذين يعبدون آلهة مع الله باعتبار هذا الشرك من أجلى مظاهر دناءة الهمة وخبث النفس: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، وقال في عابدي المسيح: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ

---

(١) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر؛ فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة» اهـ. من «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٤٥).
وقال ابن عجيبة في تفسيرها: «الناس ثلاثة: صاحب همة دنيئة، وذو همة متوسطة، وصاحب همة عالية، أما صاحب الهمة الدنية فهو الذي أنزل همته على الدنيا الدنية، وأكب على جمع حُطامها الفاني، فقلب هذا خالٍ من حب الحبيب، فما له في الآخرة من نصيب. وأما صاحب الهمة المتوسطة فهو الذي طلب سلامة الدارين وصلاح الحالين، قد اشتغل في هذه الدار بما ينفعه في دار القرار، ولم ينس نصيبه من الدنيا، فهذا له في الدنيا حسنة، وهي الكفاية والغنى، وفي الآخرة حسنة، وهي النعمة والسرور والهناء، وأما صاحب الهمة العالية فهو الذي رفع همته عن الكونين، وأغمض طرفه عن الالتفات إلى الدارين، بل همته لمولاه، ولم يقنع بشيء سواه» اهـ. من «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (١/ ٢٥٦).






كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة:٧٥] فكيف يُعبدان من دون الله؟

– **ومنها: أنه سبحانه حض أنبياءه ورسله على علو الهمة،** فقال عَزَّوَجَلَّ في حق كليمه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ الآية [الأعراف:١٤٥]، أي بقوة القلب وصحة العزيمة؛ لأنه إذا أخذه بضعف النية أدى به إلى الفتور.

وخاطب يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ الآية [مريم:١٢]، ليحمل عبء الدعوة، وينهض بالأمانة بهمة وعزم، ولا يتهاون في امتثال التكليف.

وخاطب خليله محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول «النبوة» فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل:١، ٢]، فعلم أنه لم يعد ثَمَّ نوم، إنما هو التكليف الثقيل، والجهاد الطويل، قال له ربه: ﴿قُمْ﴾ فقام وظل قائمًا بعد هذا التكليف ثلاثًا وعشرين سنة.

ثم خاطبه في أول «الرسالة» فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١، ٢]، فقام وأنذر، وأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

– **ومنها: أنه تعالى أثنى على أصحاب الهمم العالية، وفي طليعتهم الأنبياء والمرسلون،** وفي مقدمتهم أولو العزم من الرسل، وعلى رأسهم خاتمهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآية [الأحقاف:٣٥]،

وأولو العزم من الرسل: أولو الجد والثبات والصبر من الرسل، الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا، فاجتهدوا في تبليغ الوحي، وصبروا على ما أصابهم من أذى قومهم، فهم أحق من يُقتدى بمنارهم ويُقتفى آثارُهم.

وقد تجلت همتهم العالية في مثابرتهم وجهادهم ودعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما أوضحه الله عَزَّوَجَلَّ في قصص الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتمهم وسيدهم رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن أيقن أنه يتبع رسولًا هو سيد أولي العزم من الرسل، فقد وجب عليه أن يقتبس من عزمه، ويهتدي بهديه، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ «أي: في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة؛ إذ كان منها ثباته في الشدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضراء، وهو مكروب ومحروب، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة، لا يخور في شديدة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وقد لقي بمكة من قريش ما يُشيب النواصي، ويهدُّ الصَّياصِيَ، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي، ومن صبر على هذه الشدائد في الدعاء إلى الله تعالى، وهو الرفيع الشأن، كان غيره أجدر إن كان ممن يتبع بإحسان: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ أي: رضوانَ الله، ورحمته، وثواب اليوم الآخر، ونجاته. فإنه يؤثرهما على الحياة الدنيا، فلا يجبن، إذ لا يصح الجبن لمن صح اقتداؤه برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لغاية قبحه: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: وقرن بالرجاء ذكره تعالى بكثرة»[1].



(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (١٣/ ٤٨٣٦).

قال الإمام أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من أراد خير الآخـرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتدِ بمحمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليستعمل أخلاقه وسيرته ما أمكنه، أعاننا الله على ذلك بمنه آمين»[١].

★ كما قص مواقف الهمة العالية عن المؤمنين من أتباع الأنبياء كما في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ﴾ الآية [المائدة:٢٣]، وكما في قصة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، وكما في قصة حبيب النجار في سورة يس، وكما في قصة داود وجالوت: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] إلى قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآيات [البقرة:٢٥١].

- ومنها: أنه عبر عن أوليائه الذين كبرت همتهم بوصف «الرجال»[٢] في مواطن البأس والجلد والعزيمة، والثبات على الطاعة، والقوة في دين الله، فقال



(١) «الأخلاق والسير» (ص٢٤).

(٢) وقد صح في وصف الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أنهم: «كانوا يتبادحون -أي: يترامَوْن- بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال»، انظر: «السلسلة الصحيحة» رقم [٤٣٥]، وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: «لم يكن أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا ينشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أُريد أحدهم على شيء من دينه، دارت حماليق عينيه»، أخرجه ابن أبي شيبة، وفي رواية البخاري في «الأدب المفرد»: «من أمر الله؛ دارت حماليق عينيه كأنه مجنون»، وحسنه الحافظ.



-عز من قائل-: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة:١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ الآيات [النور:٣٦-٣٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

- **ومنها: أنه أمر المؤمنين بالهمة العالية، والتنافس في الخيرات**، كما أنه حفزهم على العمل، ودفعهم إلى المبادرة الفورية بدون تأجيل، والمسارعة إليه بدون تسويف: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٦٣]. أي: خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة، وعزم على احتمال مشاقِّ التكليف. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [الحديد:٢١]، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الآية [البقرة:١٤٨]، وقال: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠]، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]، وقال: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ (١) ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وامتدح أولياءه بأنهم ﴿يُسَٰرِعُونَ (٢) فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١].

(١) فهذا التنافس المأمور به محمود، أما التنافس الذي نهى عنه النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «**ولا تنافسوا**» فهو التنافس المذموم على الدنيا وحُطامها، وأصل التنافس: التغالب في الشيء النفيس، وأصله من النفس لعزتها، وهو الذي تحرص عليه نفوس الناس، ويريده كل واحدٍ لنفسه، والمنافسة: مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم.

(٢) قال القرطبي: «و﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ هنا جاءت على معنى: يُسابقون من سابقهم إليها» اهـ. «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ١٣٤).



وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة:١٠، ١١]، قال ابن كثير: «فمن سابق إلى هذه الدنيا، وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تَدين تُدان» اهـ(١).

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٩٥](٢).

أما السنة الشريفة: فحدِّث ما شئت عن علو همة أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسابقهم إلى المعالي، كيف لا وقد أوصاهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»(٣)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها**»(٤)، ورُوي عنه أنه كان من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأسألك العزيمة على الرشد**»(٥)، وكان يتعوذ بالله من «**العجزوالكسل**»(٦)، وقال لأصحابه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٥٢٠) ط. دار الحديث.

(٢) مع أن من المعلوم أن القاعد بغير عذر والمجاهد لا يستويان، إلا أنه سبحانه نبه بنفي الاستواء ليذكِّر المؤمنين بما بينهما من التفاوت العظيم، ليأنف القاعد، ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتز للجهاد ويرغب فيه، وفي ارتفاع طبقته، ونحوه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩] أريد به التحريك من حمية الجاهل وأنفته ليُهاب به إلى التعلم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم -أفاده الزمخشري-.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الإمام أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الألباني.

(٥) رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي من حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني.

(٦) أصل الحديث متفق عليه من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.







«**إن الله تعالى يحب معالي الأمور، ويكره سَفْسافها**»(١)، وطمأن أهل الهمة العالية بأن الله عَزَّوَجَلَّ يمدهم بالمعونة على قدر سمو هممهم، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المؤنة**»(٢) الحديث، وبَيَّنَ أن أكمل حالات المؤمن ألا يكون له هَمٌّ إلا الاستعداد للآخرة، فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شملَه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شملَه، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما قُدر له**»(٣).

وامتدح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومًا بعلوِّ همتهم فقال: «**لو كان الإيمان عند الثريا، لتناوله رجال من فارس**»(٤).

وعامة نصوص الترغيب والترهيب في الوحيين الشريفين إنما ترمي إلى توليد قوة دافعة تحرك قلب المؤمن، وتوجهه إلى إقامة الطاعات، وتجنب المعاصي والمخالفات، وإلى بعث الهمة وتحريكها واستحثاثها للتنافس في الخيرات، والأمثلة عل ذلك أكثر من أن تحصر، فمن ذلك مثلًا قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:



---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ١٣١) [٢٨٩٤١]، والبيهقي في «الشعب» (١٠/ ٣٧٢) [٧٦٤٧]، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [١٣٧٨]، وقال المناوي في شرح «معالي الأمور»: «هي الأخلاق الشرعية، والخصال الدينية لا الأمور الدنيوية، فإن العلو فيها نزول» اهـ. من «فيض القدير» (٢/ ٢٩٥).

(٢) أخرجه البزار من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وانظر «الصحيحة» رقم [١٦٦٤].

(٣) رواه الترمذي [٢٤٦٥] عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني، انظر: «الصحيحة» رقم [١٣٢٥].

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا، ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه، ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح لأتوهما ولو حَبْوًا»(١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«يقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارق، ورتل، كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها»(٢).

وحَــذَّر من تعمد التباطؤ عن المسابقة إلى الطاعات، كما في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«احضروا الذكر، وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يُؤَخَّرَ في الجنة، وإن دخلها»(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخِّرهم الله»**(٤).

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والحاكم، وعنهما البيهقي، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**احضروا الذكر**» أي: الخطبة المشتملة على ذكر الله وتذكير الأنام، «**وادنوا**» أي: اقربوا قدر ما أمكن، «**من الإمام**» يعني إذا لم يكن هناك مانع من الدنو، «**فإن الرجل لا يزال يتباعد**» أي: عن مواطن الخيرات بلا عذر، «**حتى يؤخر في الجنة**» أي: في دخولها أو في درجاتها. قال الطيبي: أي: لا يزال الرجل يتباعد عن استماع الخطبة وعن الصف الأول الذي هو مقام المقربين حتى يؤخر إلى آخر صف المتسفلين. وفيه توهين أمر المتأخرين وتسفيه رأيهم حيث وضعوا أنفسهم من أعالي الأمور إلى أسافلها. «**وإن دخلها**» فيه تعريض بأن الداخل قنع من الجنة ومن الدرجات العالية والمقامات الرفيعة بمجرد الدخول) اهـ. من «عون المعبود» (٣/ ٤٥٧).

(٤) رواه مسلم، وابن خزيمة في «صحيحه».

قال ابن هانئ:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه	**فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا**
فلم يتأخر من أراد تقدُّمًا	**ولم يتقدم من أراد تأخُّرا**

وعلَّمنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُلُوَّ الهمة في الدعاء، فأمرنا أن نسأله تعالى من فضله، ولا نستعظم شيئًا في قدرة الله وجُوده:

فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا سأل أحدُكم فليُكْثِرْ، فإنما يسألُ ربَّه**»(١)، وفي لفظ: «**إذا تمنَّى أحدكم فليستكثر، فإنما يسأل ربه** عَزَّ وَجَلَّ»(٢).

وعن العرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنه سِرُّ الجنة**»(٣).

أي: أفضل موضع فيها.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة**»(٤).



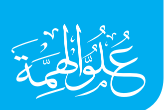
---

(١) أخرجه ابن حبان، وصححه الألباني على شرط الشيخين، وانظر: «الصحيحة» [١٣٢٥].

(٢) أخرجه عبد بن حميد، والطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني على شرط الشيخين، وانظر: «الصحيحة» [١٢٦٦].

(٣) رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري.





وأنكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من خالف هذا الهدي، وتضاءلت همته، وتواضعت طموحاته:

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد رجلًا من المسلمين قد خَفَتَ[١]، فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إياه؟**»، قال: «نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فَعَجِّلْهُ لي في الدنيا»، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبحان الله لا تطيقه، أو: لا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟**»، قال: فدعا الله له، فشفاه)[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«**ألا تسألني من هذه الغنائم التي يسألني أصحابك؟**»، فقلت: «أسألك أن تعلمني مما علمك الله»، قال: فنزعت نمرة على ظهري، فبسطتُها بيني وبينه، حتى كأني أنظر إلى القمل يدب عليها، فحدثني، حتى إذا استوعبت حديثه، قال: «**اجمعها، فَصُرْهَا إليك**»، فأصبحت لا أُسقِط حرفًا مما حدثني»[٣].

ويُروى أنه جاء رجل إلى زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسأله عن شيء، فقال له زيد: (عليك أبا هريرة، فإني بينما أنا وأبو هريرة وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله تعالى، ونذكره، إذ خرج علينا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى جلس إلينا، فسكتنا، فقال: «**عودوا للذى كنتم فيه**»، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي قبل أبي هريرة،



---

(١) خفت: سكن، وسكت من الضعف.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٨١).

وجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤَمِّنُ على دعائنا، ثم دعا أبو هريرة، فقال: «**اللهم إني أسألك ما سألك صاحباي هذان، وأسألك علمًا لا يُنسى**»، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آمين**»، فقلنا: «يا رسول الله، ونحن نسأل الله تعالى علمًا لا يُنسى»، فقال: «**سبقكم بها الغلامُ الدوسي**»)[1].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا فقال: «**عُرِضَتْ عليَّ الأمُم فجعل يمرُّ النبيُّ ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي ومعه الرَّهْط، والنبي وليس معه أحد، فرأيتُ سوادًا كثيرًا سَدَّ الأفق، فرجوتُ أن يكون أمتي، فقيل: «هذا موسى في قومه»، ثم قيل لي: «انظر»، فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادًا كثيرًا سدَّ الأفق، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفًا قُدَّامَهم يدخلون الجنة بغير حساب، هم الذين لا يتطيرون، ولا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلون**»، فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن، فقال: «ادْعُ اللهَ أن يجعلني منهم»، قال: «**اللهم اجعله منهم**»، ثم قام رجل آخر، فقال: «ادع الله أن يجعلني منهم»، فقال: «**سبقك بها عُكَّاشة**»[2].



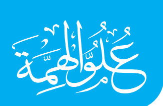
فهكذا كانوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لا تلوح منقبة أخروية، ولا فضيلة دينية إلا صعدوا إليها، واستشرفوا لها، وتنافسوا فيها.

وسأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا أصحابه: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُم الْيَوْمَ صَائِمًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**» قال أبو بكر: أنا،

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٠٨)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: «حماد ضعيف»، وهو حماد بن شعيب، وعزاه الحافظ إلى النسائي، انظر: «تهذيب التهذيب» (١٢/ ٢٦٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» [٣٢٤٢].

(٢) متفق عليه.




قال: «**فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُم الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فَمَنْ عَادَ مِنْكُم الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، وفي رواية: «**ما اجتمع هذه الخصال في رجل في يوم؛ إلا دخل الجنة**».

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نتصدق، فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت: اليومَ أسبق أبا بكر إن سبقتُه يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**» قلت: مثلَه، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: «**يا أبا بكرٍ ما أبقيتَ لأهلك؟**» قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه، قلتُ: لا أسبقه إلى شيء أبدًا»(٢).

وقال عمر أيضًا: «إن يفعلْ فإنه سَبَّاقٌ بالخيرات، ما استبقنا خيرًا قَطُّ إلا سبقنا إليها أبو بكر»(٣).

وثبت في الصحاح وغيرها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوم خيبر: «**لأعطينَّ الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسولَه، ويحبه الله ورسولُه، ليس بفَرَّارٍ، يفتح الله على يديه**»، فبات الناس يَدُوكُون(٤) أيهم يُعطاها، حتى قال عمر: «ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذ»، فلما أصبح أعطاها عليًّا، ففتح الله على يديه».

---

(١) أخرجه مسلم رقم [١٠٢٨]، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم [٨٨].
(٢) أخرجه الترمذي رقم [٣٦٧٥]، وقال: «حسن صحيح».
(٣) أخرجه الإمام أحمد رقم [٢٦٥]، وقال المحققون: «صحيح بشواهده، وهذا إسناد حسن» (١/ ٣٨).
(٤) أي: يخوضون، ويموجون فيمن يدفعها إليه، يقال: «وقع الناس في دَوكة ودُوكة»: أي: في خوض واختلاط.



وعن زِر، عن عبد الله: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بين أبي بكر وعمر، وعبدُ الله قائمٌ يصلي، فافتتح سورة النساء يَسْجُلُها[١]، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل، فليقرأ قراءةَ ابنِ أمِّ عبدٍ**». فأخذ عبد الله في الدعاء، فجعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**سل تُعطه**»، فكان فيما سأل: «اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفدُ، ومرافقةَ نبيِّك محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعلى جنان الخُلد». فأتى عمرُ يبشره، فوجد أبا بكر خارجًا قد سبقه، فقال: «**إنك لَسبَّاقٌ بالخير**»[٢].

وعن ربيعة بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

كنت أخـدِمُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهاري، فإذا كان الليلُ آويتُ إلى بابِ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبِتُّ عنده، فلا أزال أسمعه يقول:

«**سبحان الله، سبحان الله، سبحان ربي**»، حتى أمَلَّ، أو تغلبني عينى فأنامُ، فقال يومًا: «**يا ربيعة سلني فأعْطِيَك**»، فقلت: «أنظِرْني حتى أنظر»، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة، فقلت: «يا رسول الله أسألك أن تدعوَ لي أن ينجيَني من النار، ويدخلَني الجنة»، فسكت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال:

«**مَنْ أمرك بهذا؟**»، قلت: «ما أمرني به أحد، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه، فأحببتُ أن تدعوَ الله لي»، قال:



(١) **يسجلها**: أي يقرؤها قراءة مفصلة: من السَّجْل وهو الصب. يُقال سَجَلْت الماء سَجْلًا: إذا صببته صبًّا متصلًا.

(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ٤٤٥، ٤٥٤)، وأخرجه الحاكم بنحوه (٣/ ٣١٧)، وصححه، ووافقه الذهبي.

«**إني فاعل، فأعِنِّي على نفسِك بكثرة السجود**»[(١)]، ولفظ مسلم: كنت أبيت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: «**سلني**»، فقلت: أسألك[(٢)] مرافقتك في الجنة. قال: «**أوْ غيرَ ذلك؟**»، قلت: «هو ذاك»، قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**».

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابيًّا فأكرمه، فقال له: «ائتنا»، فأتاه، وفي رواية: نزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعرابي فأكرمه، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعهدنا ائتنا**»، فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَلْ حاجتَك**»، فقال: ناقة بِرَحْلِها وأعنزًا يحلبها أهلي، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟**» فقال أصحابه: يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «**إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر، ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نحدثك، إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقًا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: ما ندري أين قبر يوسف إلا عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها، فأتته، فقال: دلوني على قبر يوسف، قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حُكْمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطِها حكمَها، فانطلقت بهم إلى بحيرة، موضع**

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير»، ورواه -مختصرًا- مسلم، وأبو داود.

(٢) أسألك أن ترشدني إلى الأسباب التي تجعلني رفيقًا لك في الجنة، ولهذا قال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**»، يعني: بكثرة الصلوات التي تجعله أهلًا لأن يكون رفيقًا للرسول في الجنة، وفي رواية الإمام أحمد قال: «أسألك أن تشفع لي»، والمعنى: أعني على الشفاعة لك في دخول الجنة بأن تكثر من الصلاة.

مستنقع ماءٍ، فقالت: انضبوا هذا الماءَ، فأنضبوا، قالت: احفروا، واستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض، إذا الطريق مثل ضوء النهار»[(١)].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ألا أُرِيك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: «إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي»، قال: «**إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله** عَزَّوَجَلَّ **أن يعافيَكِ**» قالت: «أصبر»، قالت: «فإني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف»، فدعا لها[(٢)].

ومن تسابقهم في الطاعات الذي يعكس علو هممهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ:

ما رواه عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلًا قال: «يا رسولَ الله، إن المؤذنين يَفْضُلُوننا»، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل كما يقولون، فإذا انتهيتَ فَسَلْ تُعْطَ**»[(٣)].

---

(١) رواه أبو يعلى (١/ ٣٤٤)، والحاكم (٢/ ٤٠٤، ٤٠٥)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألباني على شرط مسلم، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**فائدة**): كنت استشكلت قديمًا قوله في هذا الحديث «عظام يوسف» لأنه يتعارض بظاهره مع الحديث الصحيح: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، حتى وقفت على حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

«أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بدن، قال له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبرًا يا رسول الله، يجمع أو يحمل عظامك؟ قال: بلى، فاتخذ له منبرًا مرقاتين».

أخرجه أبو داود [١٠٨١] بإسناد جيد على شرط مسلم.

فعلمت منه أنهم كانوا يطلقون «العظام»، ويريدون البدن كله، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] أي: صلاة الفجر. فزال الإشكال والحمد لله، فكتبت هذا لبيانه. انتهى من «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم [٣١٣].

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) رواه أبو داود.





ومن ذلك أيضًا:

ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن فقراء المهاجرين أَتَوْا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: «قد ذهب أهل الدُّثور[١] بالدرجات العُلى، والنعيم المقيم»، فقال: «**وما ذاك؟**»، قالوا: «يُصَلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعْتِقون ولا نُعتِق»، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا أعلمكم شيئًا تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟**»، قالوا: «بلى يا رسول الله»، قال: «**تُسبِّحون، وتكبرون، وتحمدون دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين مرة**» -قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: «سَمع إخواننا أهلُ الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله»، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»[٢].

ويُروى عن سليمان بن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج إلى بدر، أراد سعد بن خيثمة وأبوه جميعًا الخروجَ معه، فذُكِر ذلك للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهما؛ فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنه لابد لأحدنا أن يقيم، فأقم مع نسائك»، فقال سعد: «لو كان غير الجنة لآثرتك به، إني أرجو الشهادة في وجهي هذا»، فاستهما، فخرج سهم سعد، فخرج مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بدرٍ، فقتله عمرو بن عبد ودٍّ[٣].



(١) **الدثور**: جمع دَثْرٍ، وهو المال الكثير.
(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.
(٣) رواه الحاكم، وضعفه الذهبي.





الصَّحابَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أَعْلى الأُمَمِ هِمَّةً

فقد أجمع أهل السنة والجماعة على أنهم رأس الأولياء، وصفوة الأتقياء، وقدوة المؤمنين، وأسوة المسلمين، وخير عباد الله بعد الأنبياء والمرسلين، جمعوا بين العلم بما جاء به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبين الجهاد بين يديه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، شَرَّفهم الله بمشاهدة خاتَم أنبيائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وصحبته في السراء والضراء، وبذلهم أنفسهم وأموالهم في الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، حتى صاروا خيرة الخيرة، وأفضل القرون بشهادة المعصوم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهم خير الأمم سابقهم ولاحقهم، وأولهم وآخرهم.

هم الذين أقاموا أعمدة الإسلام بسيوفهم، وشادوا قصور الدين برماحهم، واستباحوا الممالك الكسروية، وأطفؤوا الملة النصرانية والمجوسية، وقطعوا حبائل الشرك من الطوائف المشركة عربية وعجمية، وأوصلوا دين الإسلام إلى أطراف المعمورة شرقها وغربها، ويمينها وشمالها، فاتسعت رقعة الإسلام، وطبقت الأرضَ شرائعُ الإيمان، وانقطعت علائق الكفر، وانقصمت حباله، وانفصمت أوصاله، ودان بدين الله سبحانه الأسود والأحمر، والوثني والملي.

سلام من الرحمن نحو جنابهم　　　فإن سلامي لا يليق ببابهم



آخر:

أولـئـك قــوم شَـيَّـدَ الله فخرهم   فما فوقه فخر وإن عَظُمَ الفخرُ

عن أبي وائل قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«إن الله تعالى اطَّلَعَ في قلوب العباد، فاختار محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعثه برسالته، وانتجبه بعلمه، ثم نظر في قلوب العباد بعدُ، فاختار له أصحابًا، فجعلهم أنصارَ دينه، ووزراءَ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما رآه المؤمنون حسنًا، فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا، فهو عند الله قبيح»[(١)].

ولفظ أحمد: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا، فهو عند الله سيئ».

وصدق شاعر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ قال في الفخر بالمهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

إن كان في الناس سَبَّاقون بعدهمُ   فكل سَـبْـقٍ لأدنـي سَبْـقِـهـم تَبَعُ





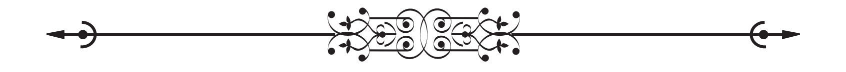
(١) رواه الإمام أحمد [٣٦٠٠]، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٧٥)، وقال ابن القيم في «الفروسية»: «ثابت عن ابن مسعود»، وحسنه ابن حجر.

البَابُ الرَّابِعُ

مَجَالاتُ عُلُوِّ الهِمَّةِ

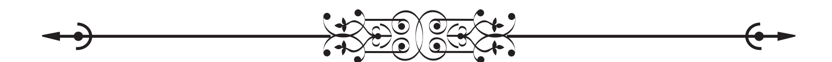






الفَصْلُ الأَوَّلُ

عُلُوُّ هِمَّةِ السَّلَفِ الصَّالِح فِي طَلَبِ العِلْمِ









عُلُوُّ هِمَّةِ السَّلَفِ الصَّالِح فِي طَلَبِ العِلْمِ

العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجَدَّ فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب، رُوي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لكُميل بن زياد: «احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة، فعالم رباني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رَعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تُنقِصُهُ النفقة، ومحبة العالم دين يُدانُ بها، العلم يُكسِب العالِمَ الطاعةَ في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وصنيعة المال تزول بزوال صاحبه، مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفى بالعلم فضيلةً أنه يدَّعيه من ليس فيه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل شرًّا أن يتبرأ منه من هو فيه، ويغضب إذا نُسب إليه».

الحديث عن فضل العلم، وما يناله طالبه من مجد وكرامة حديث لا يكشف عن غامض، ولا يطرق السمع بجديد، ومقصودنا شيء غير هذا، ألا وهو لفت الأنظار إلى «القوة العملية»، وهي الوسيلة التي صعدت بعلمائنا، فخدموا الدين، ونشروا العلم.







قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(تأملت عجبًا، وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله.

فإن العلم لما كان أشرف الأشياء، لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: «بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر، لأن وقت بيعها وقتُ سماع الدرس»...) اهـ.

ولذلك قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما سعادته فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية.

وقد أحسن القائل في ذلك:

فقل لِمُرَجِّي معالي الأمور ... بغيرِ اجتهادٍ: رجوتَ المحالا

وقال الآخر:

لولا المشقة ساد الناسُ كلُّهمُ ... الجود يُفْقِرِ والإقدامُ قَتَّالُ

ومن طمحت همته إلى الأمور العالية؛ فواجب عليه أن يشد على محبة الطرق الدينية، وهي السعادة، وإن كانت في ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذي، وأنها متى أُكرِهت النفسُ عليها، وسِيقت طائعةً وكارهة إليها، وصبرت على لأوائها وشدتها أفضت منها إلى رياض مونِقة، ومقاعدِ صدق، ومقام كريم، تجد كل لذة دونها لعب الصبي بالعصفور بالنسبة إلى لذات الملوك، فحينئذ حال صاحبها كما قيل:

وكنت أرى قد تناهى بيَ الهوى ... إلى غاية ما بعدها لي مذهبُ

فلما تلاقينا وعاينتُ حُسنَها ... تيقنتُ أني إنما كنت ألعبُ







فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يُعبر إليها إلا على جسر المشقة، فلا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد.

قال مسلم في (صحيحه): قال يحيى بن أبي كثير: «لا يُنال العلم براحة الجسم»، وقد قيل: «من طلب الراحة، ترك الراحة».

فيا وصْلَ الحبيب أما إليه ... بغير مشقةٍ أبدًا طريقُ

ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفَّتْ بحجاب من المكاره، وحُجِبوا عنها بحجاب من الجهل، ليختص الله لها من يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم) اهـ.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«حق على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله تعالى في إدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه».

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكِلُه ... لن تبلغ المجدَ حتى تلعقَ الصبرا

وقد كان أهل العلم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يلاقون المصاعب والشدائد في تحصيلهم للعلم، نصح الإمامُ ابنُ هشام النحوي، صاحبُ كتاب «القطر» و«المغني» وغيرهما، طَلَبَةَ العلم بالصبر على مَشاقِّ العلم والتحصيل، إذ هو شَرْطٌ في نيل المراد العزيز الغالي، فقال:

ومن يَصطبرْ للعلِم يَظفَرْ بنَيلِهِ ... ومن يَخْطُبِ الحسناءَ يَصبرْ على البَذْلِ

ومن لم يُذِلِّ النَّفْسَ في طَلَبِ العُلى ... يسيرًا يَعِشْ دهرًا طويلًا أخا ذُلِّ



إنما يُقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله، فمتى يصل إلى مقصده؟

الجد بالجد والحرمان في الكسلِ ... فانْصَبْ تُصِبْ عن قريبٍ غايةَ الأملِ

فعليك يا طالب العلم أن تجد في التحصيل، فإن الأمر كما قال ابن الجنيد: «ما طلب أحد شيئًا بجد وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كلَّه نال بعضه».

يا طالب العلم لا تركن إلى الكسلِ ... واعجل فقد خُلق الإنسانُ من عجلِ

واستعمل الصبر في كسب العلوم وقل ... أعوذ بالله من علم بلا عملِ

فهذا هو علو الهمة في طلب العلم:

- غيرة على الوقت أن ينفق في غير فائدة،

- وعزم يبلي الجديدان وهو صارم صقيل،

- وحرص لا يُشفى غليلُه إلا أن يفترق من موارد العلوم بأكواب طافحة،

- وغوص في البحث لا تحول بينه وبين نفائس العلوم وُعُورةُ المسلك، ولا طولُ مسافةِ الطريق،

- وألسنة مهذبة لا تقع في لغو ومهاترة، كيف لا وقد شُغِلت بالحق، فأشغلها عن الباطل.

ومن مظاهر علو الهمة في طلب العلم: تحري اتباع الدليل الصحيح، ونبذ التقليد المذموم:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أعلى الهمم في طلب العلم: علم الكتاب والسنة والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود الْمُنزَّل، وأخسُّ همم طلاب العلم: من قصر همته على



تتبع شواذ المسائل، وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقلَّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه.

وأعلى الهمة في باب الإرادة: أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله، والوقوف مع مراده الديني الأمري، وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبده لمراده منه لا لمراد الله منه، فالأول يريد الله، ويريد مراده، والثاني يريد من الله، وهو فارغ عن إرادته» اهـ[(١)].

ومن مظاهر «علو الهمة» في طلب العلم: الاعتزاز بالهوية «الناطقة»، وتعظيم لغة القرآن الكريم، والاكتساء باللسان العربي الفصيح.

قال الحافظ المغربي خلف بن هشام: «أشكل عليَّ باب من النحو، فأنفقت ثمانين ألف درهم حتى حذقته».

وقال باشقرد ناصر الدين الناصري عن نفسه: «بقيت عشرين سنة لا أتكلم بالتركي حرصًا على إتقان اللسان العربي».

لقد كان حالُ سلف الأمة في طلب العلم، ونشره، والتصنيف فيه حالًا عجيبًا، استثمروا فيه أوقاتهم، وأفنَوْا شبابهم، فحصَّلوا ما يُدهش العقولَ، ويبهر الألباب، ويستنهض الهمم، قال حمدون القصار: «من نظر في سير السلف، عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال».

فهيا إلى مطالعة أحوالهم، والاقتداء بهديهم، والسير على سننهم.



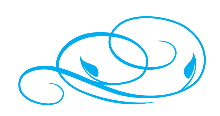
---

(١) «الفوائد» (ص٦٩).

وحدثتني عنهم يا سعدُ فزدتني بهمُ غرامًا، فزدني من حديثك يا سعدُ

آخر:

كَــرِّرْ علــيَّ حديثهم يا حــادي فحديثهم يُجلي الفؤادَ الصادي









(١) حِرْصُهم عَلى طَلَبِ العِلْمِ الشَّريفِ

العلم صناعة القلب وشغله، فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها، وله وجهة واحدة، فإذا وُجِّهَتْ إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم، ومن لم يُغَلِّبْ لذةَ إدراكِه العلمَ وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه؛ لم ينل درجة العلم أبدًا، فإذا صارت شهوته في العلم، ولذته في إدراكه؛ رُجِيَ له أن يكون من جملة أهله، ولذلك كان علماؤنا -رحمهم الله تعالى- يحرصون على العلم وجمعه حرصًا ليس له نظير، وهاك أمثلةً من ذاك:

★ عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار -هو أوسُ بن خَوَلِيٍّ الأنصاري- في بني أمية بن زيد -أي: ناحية بني أمية-، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوَبُ النزول على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك».

★ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما قُبِض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت لرجل من الأنصار: «هلم فلنسألْ أصحابَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم اليوم كثير»، فقال: «واعجبًا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحَاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَن فيهم؟»، قال: «فتركت ذاك، وأقبلتُ أسأل أصحابَ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتي



بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، يسفي الريح عليَّ من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا بن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء بك؟ هلا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟»، فأقول: «لا؛ أنا أحق أن آتيك»، فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني، فيقول: «هذا الفتى كان أعقل مني».

فلا تنتظر بالسير رُفْقَةَ قاعد ... ودعه فإن الشوق يكفيك حاملا

ولما فُتحت البلاد آثر ابن عباس من أجل العلم ظمأ الهواجر في دروب المدينة ومسالكها على الظلال الوارفة في بساتين الشام، وسواد العراق، وشطآن النيل ودجلة والفرات، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما فُتحت المدائن أقبل الناس على الدنيا، وأقبلتُ على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

لكل بني الدنيا مراد ومقصَدُ ... وإن مرادي صحةٌ وفراغُ

لأبلغ في علم الشريعة مبلغًا ... يكون به لي للجِنان بلاغ

وفي مثل هذا فلينافس أولو النهى ... وحسبي من الدنيا الغَرور بلاغُ

فما الفوز إلا في نعيم مُوبَّدٍ ... به العيش رَغْدٌ والشراب يُساغ

واسمعه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخبر عن دأبه في طلب العلم:

«كنت آتي باب أُبيِّ بن كعب، وهو نائم، فأقيل على بابه، ولو علم بمكاني، لأحب أن يوقَظ لي لمكاني من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكني أكره أن أملَّه».

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما نزل من



القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحدًا إلا سُرَّ بإتياني لقربي من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعلت أسأل أبيَّ بن كعب يومًا، وكان من الراسخين في العلم، عما نزل بالقرآن في المدينة؟ فقال: «نزل بها سبعٌ وعشرون سورة وسائرها بمكة».

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان ابن عباس من أعلم الصحابة بتفسير القرآن، وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: «لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل»، وكان يقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»، وروى هذه الزيادة ابن سعد من وجه آخر عن عبد الله ابن مسعود، وروى أبو زرعة الدمشقي في تاريخه عن ابن عمر قال: «هو أعلم الناس بما أنزل الله على محمد»، وأخرج ابن أبي خيثمة نحوه بإسناد حسن، وروى يعقوب أيضًا بإسناد صحيح عن أبي وائل قال: «قرأ ابن عباس سورة النور ثم جعل يفسرها، فقال رجل: لو سَمِعَتْ هذا الديلمُ لأسلمت»، ورواه أبو نعيم في (الحلية) من وجه آخر بلفظ «سورة البقرة»، وزاد أنه «كان على الموسم» يعني سنة خمس وثلاثين، كان عثمان أرسله لما حُصِر. اهـ[(١)].

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حفظت «القرآن»، وأنا ابن سبع سنين، وحفظت «الموطأ» وأنا ابن عشر سنين.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تُعطيني أشتري به قراطيس!



(١) «فتح الباري» (٨/ ٤٦٧).

فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح، آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحتُه في جَرَّةٍ كانت لنا قديمًا.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يكن لي مال، وكنت أطلب العلم في الحداثة -أي: في مستهل عمره، وكانت سنه أقل من ثلاثَ عشرةَ سنة- وكنت أذهب إلى الديوان أستوهِبُ الظهور -أي: ظهورَ الأوراق المكتوبِ عليها- فأكتب فيها.

قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: «كيف شهوتك للعلم؟»، قال: «أسمع بالحرف -أي: بالكلمة- مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعًا تتنعم به ما تنعمت به الأذنان»، فقيل له: «كيف حرصك عليه؟»، قال: «حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال»، فقيل له: «فكيف طلبك له؟»، قال: «طلب المرأة المُضِلَّةِ ولدَها ليس لها غيره».

وقال أحمد العجلي: قيل لعبد الرحمن بن مهدي: «أيُّما أحبُّ إليك؛ يُغفَر لك ذنبك، أو تحفظ حديثًا، قال: «أحفظ حديثًا».

وهذا «محمد بن سلام» شيخ البخاري، كان في حال الطلب جالسًا في مجلس الإملاء، والشيخ يحدِّث ويملي، فانكسر قلمُه، فأمر أن يُنادَى: «قلم بدينار»، فتطايرت إليه الأقلام.

وقال هشام بن عمار شيخ البخاري وأبي داود: دخلتُ على مالك بن أنس فقلت له: حدِّثني، فقال: اقرأ، فقلت: لا، بل حدِّثني، قال، فلما رادَدتُه، قال: «يا غلام، تعالَ اذهب بهذا فاضربه خمسة عشر»، قال: فذهب بي، فضربني خمس عشرة دِرَّة، ثم جاءني إليه، فقال: قد ضربته، فقلت: «قد ظلمتني! ضربتني خمس





عشرة درة بغير جرم، لا أجعلك في حِلٍّ»؛ فقال مالك: فما كفارته! قلت: «كفارته أن تحدثني بخمسة عشر حديثًا»، قال: «فحدثني بخمسة»، فقلت له: «زِدْ من الضرب، وزد من الحديث»، فضحك مالكٌ وقال: «اذهب».

★ وقال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف» وبقي يتلقى الحديث ببغداد من سنة (١٧٩هـ) إلى سنة (١٨٦هـ)، ولزم عالمًا كبيرًا من علماء الحديث والآثار ببغداد أربع سنوات، وهو هشيم بن بشير بن أبي حازم الواسطي (ت:١٨٣هـ)، وسمع عبد الرحمن ابن مهدي، وأبا بكر بن عياش، وكان في طلبه للعلم مثال الجد والحرص والنشاط، فقد حكى عن نفسه: «كنت ربما أردت البكور في الحديث، فتأخذ أمي بثيابي، حتى يُؤَذِّن الناس، أو حتى يصبحوا»، وقال: «لو كان عندي خمسون درهمًا لخرجت إلى جرير بن عبد الحميد».

★ وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(لما أردت أن أطلب العلم قلت: «يا رب إنه لابد لي من معيشة»، ورأيتُ العلم يَدْرُسُ، فقلت: أفرغ نفسي لطلبه، قال: وسألت ربي الكفاية).

وعزم على طلب العلم حتى كفلت له والدته الإنفاق عليه، فقالت: «يا بني، اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي»، فأخذ يتلقى العلم عن شيوخه المتعددين، وعن كل من يحمل علمًا أو خبرًا.

وكان كثير الاهتمام في طلب العلم، ذكر أبو نعيم: أنه كان إذا لقي شيخًا سأله: «هل سمعتَ من العلم شيئا؟»، فإن قال: «لا»؛ قال: «لا جزاك الله عن الإسلام خيرًا».



ومن مظاهر اهتمامه بالعلم، أنه كان يقول: «ينبغي للرجل أن يُكْرِهَ ولدَه على طلب الحديث، فإنه مسؤول عنه».

ولم يكن اهتمام سفيان بالعلم مقصورًا على طلبه، بل كان يعمل به، ويحرص على إشاعته بين الناس والدعوة إليه.

وروى أبو نعيم أنه كان يقول: «ليس عملٌ بعد الفرائض أفضلَ من طلب العلم»، وكان يقول: «لا نزال نتعلم العلم ما وجدنا من يعلمنا».

وقال ثعلبة: «ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نحو خمسين سنة».

★ وذكر الحافظ الذهبي في ترجمة أبي حاتم الرازي -محمد بن إدريس المتوفى سنة ٢٧٧هـ-، أن أبا حاتم قال:

قال لي أبو زُرْعة -يعني الرازي-: «ما رأيت أحرصَ على طلب الحديث منك»، فقلت له: «إن عبد الرحمن ابني لحريص»، فقال: «من أشبه أباه فما ظلم»، قال الرَّمَّام -وهو أحمد بن علي، أحد رجال إسناد الخبر-: فسألت عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السماع له، وسؤالاته لأبيه، فقال: «ربما كان يأكلُ وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويَدْخُل الخلاء وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه».

فكانت ثمرة تلك المحافظة النادرة على الزمن، والحرص على طلب العلم، نِتَاجا علميًّا كبيرًا، منه كتاب (الجرح والتعديل) في تسعة مجلدات، وهو من الكتب النفيسة الحافلة الرائدة في هذا العلم، وكتاب (التفسير) في عدة مجلدات، وكتاب (المسند) في ألف جزء.

★ وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال علي بن أحمد الخوارزمي: قال ابنُ أبي حاتم: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مَرَقةً، نهارَنا نَدُورُ على الشيوخ، وبالليل نَنسَخُ ونقابل، فأتينا يومًا أنا ورفيقٌ لي شيخًا فقالوا: «هو عليل»، فرأيت سمكةً أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقتُ مجلس بعض الشيوخ فمضينا، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام، وكادت أن تُنتِن، فأكلناها نَيِّئةً لم نتفرغ نشويها، ثم قال: «لا يُستطاع العلم براحة الجسَد!».

لولا ثلاث قد شُغِفْتُ بحبها	**ما عبت في حوض المنية موردي**
وهي الرواية للحديث وكَتْبُه	**والفقهُ فيه وذاك حب المهتدي**

★ وهذا هو الإمام سُلَيم بن أيوب الرازي، أحد كبار أئمة المذهب الشافعي -المتوفى سنة ٤٤٧هـ-، يحاسب نفسه على الأنفاس أن تضيع دون إفادة أو استفادة، فقد قال أبو الفرج غيث بن علي التنوخي الصوري:

«وحُدِّثت عنه أنه كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة، إما ينسخ، أو يدرِّس، أو يقرأ، وينسخ شيئًا كثيرًا، ولقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإسفراييني -وهو أحد تلامذته-، أنه نزل يومًا إلى داره ورجع، فقال: «قد قرأت جزءًا في طريقي».

قال: وحدثني المؤمَّل بن الحسن: «أنه رأى سُلَيمًا خَفِيَ[1] عليه القلم، فإلى أن قَطَّهُ[2] جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بإزاء إصلاحه القلم، لئلا يمضي عليه زمانٌ وهو فارغ»، أو كما قال.



---

(١) أي: رقَّ، ولم يعد صالحًا للكتابة.
(٢) **قطَّ الشيء**: قطعه عرضًا، ومنه: قط القلم.

- ووصف ابن ناصر الحافظ أبا الطاهر السِّلَفي، فقال: «كأنه شعلة نارٍ في التحصيل».

- وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «أثقل الساعات عليَّ: ساعة آكل فيها».

- ووصف أبو جعفر أحمدُ بنُ عبدِ الله المهديَّ القيروانيَّ بقوله: «كان في المدارسة والمطالعة آية، لا يكاد يسقط الكتاب من يده حتى عند طعامه».

- وكان عثمان الباقلاويُّ دائم الذكر لله تعالى، فقال: «إني وقت الإفطار أُحِسُّ بروحي كأنها تخرج! لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر».

- وقال عمَّار بن رجاء: سمعت عُبَيدَ بن يعيشَ يقول: «أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تُلَقِّمُني وأنا أكتب الحديث».

- وكان داود الطائي يَسْتَفُّ الفَتيتَ، ويقول: «بين سَفِّ الفتيت وأكل الخبز قراءةُ خمسين آية».

ويخرج من نفس المشكاة قول الإمام الجليل ابن عقيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنا أَقَصِّرُ بغاية جهدي أوقاتَ أكلي، حتى أختار سَفَّ الكعك وتحسِّيَه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرًا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها».

بل إن أحدهم ليحزن، ويصيبه المرض إذا فاته شيء من العلم، فقد ذكروا لشعبة حديثًا لم يسمعه، فجعل يقول: «واحزناه!»، وكان يقول: «إني لأذاكر الحديث فيفوتني، فأمرض».





وقيل للشعبي: «من أين لك هذا العلم كله»، قال: «بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب».

وكان من حرصهم على العلم ومجالسه أنك تجدهم يَعْدون في الطرقات، كأنهم مجانين، ولذلك يقول شعبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «ما رأيت أحدًا قط يعدو إلا قلتُ: مجنون، أو صاحبُ حديث»[(١)].

★ وعن عبد الرحمن بن تيمية قال عن أبيه: «كان الجَدُّ[(٢)] إذا دخل الخلاء يقول لي: «اقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع».

وقال الحافظ ابن حجر عن شيخه الإمام البُلْقيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما رأيت أحدًا ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه، بحيث إنه كان إذا طرق سَمْعَه شيء لم يكن يعرفه لا يقرُّ، ولا يهدأ، ولا ينام حتى يقف عليه، ويحفظه، وهو على هذا مُكبٌّ على الاشتغال، محب للعلم حق المحبة».

وكان العلامة الكبير أبو المعالي محمود شكري الآلوسي البغدادي الحفيد، يمتاز بالجد الشديد والحرص على الوقت، فكان لا يثنيه عن دروسه حَمَارَّةُ القيظ، ولا يؤخِّره عنها قَرْصُ برد الشتاء، وكثيرًا ما تَعرَّض تلاميذُه -بسبب تأخرهم



---

(١) قال الحافظ أبو إسماعيل الهَرَوي الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المحدث يجب أن يكون سريعَ المشي، سريعَ الكتابة، سريعَ القراءة»، ويمكن أن يزاد: «سريع الأكل»، قال سُحنون: «لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع».

وقال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثنا شيخنا الكِناني	عن أبيهِ صاحبِ الخِطابَهْ
أسرِعْ أخا العلم في ثلاث	الأكلِ، والمشيِ، والكتابهْ

(٢) هو الإمام مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

عن موعد الدرس- إلى النقد والتعنيف، قال عنه تلميذه العلامة الشيخ بهجة الأثري: أذكر أنني انقطعت عن حضور درسه في يوم مزعج، شديد الريح، غزير المطر، كثير الوحل، ظنًّا مني أنه لا يحضر إلى المدرسة، فلما شَخَصتُ في اليوم الثاني إلى الدرس، صار ينشد بلهجة غضبان:

ولا خيرَ فيمن عاقَهُ الحَرُّ والبردُ

وقال أبو الحسين أحمد بن فارس النحوي:

إذا كان يؤذيك حَرُّ المصيفِ ... ويُبْسُ الخريفِ وبردُ الشِّتا
ويُلهيك حُسْنُ زمانِ الربيعِ ... فأخذُك للعلم قل لي: متى

★ وقال العلامة القرآني «محمد الأمين الشنقيطي» رَحِمَهُ اللَّهُ:

قدمتُ على بعض المشايخ لأدرس عليه، ولم يكن يعرفُني من قبلُ، فسأل عني مَن أكون في ملإ من تلامذته؟ فقلت مرتجلًا:

هذا فَتًى مِنْ بَنِي جَاكَانَ قَدْ نَزَلا ... بِهِ الصِّبَا عَنْ لِسانِ العُرْبِ قَدْ عَدَلا
رَمَتْ بِهِ هِمَّةٌ عَلْيَاءُ نَحْوَكُمُ ... إذ شَامَ بَرْقَ عُلومٍ نُورُهُ اشتعَلا
فجَاءَ يَرْجُو رُكامًا مِن سَحَائِبِهِ ... تَكْسُو لِسانَ الفَتَى أزْهَارُهُ حُلَلا
إذ ضَاقَ ذَرْعًا بِجَهْلِ النَّحْوِ ثُمَّ أبى ... ألاَّ يُمَيِّزَ شَكْلَ العَيْنِ مِنَ «فَعَلا»
وَقَد أتَى اليَوْمَ صَبًّا مولَعًا كَلِفًا ... بِـ«الحَمْدُ للهِ لا أبْغِي لَهُ بَدَلا»

يريد دراسة «لامية الأفعال»[1].

---

(١) وقد أحكم الشيخ الشنقيطي لغة العرب إلى حد أن أحد تلامذته قال: «إذا سألتَ الشيخ عن شيء في اللغة، فقال لك: لا أدري، فلا تبحث عنها في المعاجم، لأنني جَرَّبْتُ». وهذا يذكرنا بقول يحيى بن آدم: «كنت إذا طلبتُ الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أَيِسْتُ منه» كما في «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٧٦).

وقد مضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلب العلم قُدُمًا، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقِران؛ أي: أن يَقْرِنَ بين كل فنَّيْن؛ حرصًا على سرعة تحصيله، وتفرُّسًا له في القدرة على ذلك، فانصرف بهمة عالية في درس وتحصيل.

وقد صوَّر شدَّة انشغاله بطلب العلم في شبابه بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «رحلة الحج» ما نصه: ومما قلتُ في شأن طلب العلم، وقد كنت في أخريات زمني في الاشتغال بطلب العلم دائم الاشتغال به عن التزويج، لأنه ربما عاق عنه، وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي، يرغب في زواجي ويطمع فيه، فلما طال اشتغالي بطلب العلم عن ذلك المنوال؛ أَيِسَتْ مني، فتزوجَتْ ببعض الأغنياء، فقال لي بعض الأصدقاء: «إن لم تتزوج الآن مَن تصلح لك؛ تزوجَتْ عنكَ ذواتُ الحسب والجمال، ولم تجد مَن يصلح لمثلك، يريد أن يُعْجِلَني عن طلب العلم، فقلت في ذلك هذه الأبيات:

دَعَانِي النَّاصِحُونَ إلى النِّكاحِ ... غَداةَ تَزَوَّجَت بِيضُ المِلاحِ

فَقَالوا لي تَزَوَّجْ ذاتَ دَلٍّ ... خلُوبَ اللَّحْظِ جائِلةَ الوشاحِ

ضحُوكًا عَنْ مُؤشرةٍ رِقاقٍ ... تَمجُّ الرَّاحَ بالماءِ القَراحِ

كأنَّ لِحاظَها رَشَقَاتُ نَبْلٍ ... تُذيقُ القَلْبَ آلامَ الجِراحِ

ولا عَجَبٌ إذا كَانَتْ لِحاظٌ ... لِبَيْضاءِ المَحاجِرِ كالرِّماحِ

فَكَمْ قَتَلَتْ كَمِيًّا ذا دِلاصٍ ... ضَعِيفاتُ الجُفونِ بِلا سِلاحِ

فَقُلْتُ لهُم دَعُوني إنَّ قَلْبي ... مِنَ الغيِّ الصُّراحِ اليومَ صاحِ





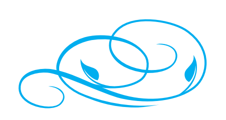


وَلِـي شُـغْـلٌ بِـأبْـكـارٍ عَـذارى ... كَـأنَّ وُجـوهَـهـا غُـرَرُ الصَّباحِ

أراهـا فِي المَـهـارِقِ لابِـسـاتٍ ... بَـراقِـعَ مِـن مَعـانيها الصِّحاحِ

أبـيْـتُ مُـفَـكِّـرا فـيـهـا فَتَضْحَى ... لِفَهْـمِ الـفِـدْمِ خافِضَةَ الجَنَاحِ

أبحْـتُ حَـريمَـهـا جَـبْـرًا عليها ... ومَـا كَـانَ الحَـريـمُ بِمستباحِ









(٢) عُلُوّ هِمَّتِهِم فِي قِرَاءَةِ كُتبِ الحَدِيثِ فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ

جاء في ترجمة المجد الفيروزآبادي صاحب «القاموس» أنه قرأ «صحيح مسلم» في ثلاثة أيام بدمشق وأنشد:

قـرأتُ بحـمـد الله جـامِـعَ مُسلم ... بجوف دمشق الشام جوف الاسلامِ

على ناصر الدين الإمام ابن جهبل ... بحـضـرةِ حُـفَّـاظٍ مـشـاهـيرَ أعـلامِ

وتَمَّ بـتـوفـيـق الإلـه وفـضـلِـهِ ... قـــراءةُ ضـبـطٍ في ثـلاثـة أيـام

وقرأ الحافظ أبو الفضل العراقي «صحيح مسلم» على محمد بن إسماعيل الخباز بدمشق في ستة مجالس متوالية، قرأ في آخر مجلس منها أكثر من ثلث الكتاب، وذلك بحضور الحافظ زين الدين ابن رجب وهو يعارض بنسخته، وفِي «تاريخ الذهبي» في ترجمة إسماعيل بن أحمد الحيري النَّيْسابوري الضرير ما نصه: «وقد سمع عليه الخطيب البغدادي بمكة (صحيح البخاري) بسماعه من الكشميهني في ثلاثة مجالس: اثنان منها في ليلتين، كان يبتدئ بالقراءة وقت المغرب، ويختم عند صلاة الفجر، والثالث من ضحوة النهار إلى طلوع الفجر» قال الذهبي: «وهذا شيء لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه» انتهى.

ونقل في (سير أعلام النبلاء) عن الخطيب البغدادي أنه قال في ترجمته أيضًا: «حَجَّ، وحَدَّث، ونِعْمَ الشيخُ كان، ولما حجَّ، كان معه حِمْل كتبٍ ليجاور؛ منه



(صحيح البخاري)؛ سمعه من الكُشْمِيهَني، فقرأتُ عليه جميعه في ثلاثة مجالس، فكان المجلس الثالث من أول النهار وإلى الليل، ففرغ طلوعَ الفجر».

قال الذهبي: «هذه والله القراءة التي لم يُسمع قط بأسرعَ منها».

وقال الحافظ السخاويُّ: «وقع لشيخنا الحافظ ابن حجر أجل مما وقع لشيخه المَجْد اللغوي، فإنه قرأ (صحيح البخاريِّ) في أربعين ساعة رملية، وقرأ (صحيح مسلم) في أربعة مجالس سوى مجلس الختم في يومين وشيء، وقرأ (سُنَن ابن ماجه) في أربعة مجالس، وقرأ (كتاب النسائي الكبير) في عشرة مجالس، كل مجلس منها نحو أربع ساعات، وقرأ (صحيح البخاري) في عشرة مجالس كل مجلس منها أربع ساعات». ثم قال السخاوي: «وأسرع شيء وقع له -أي: لابن حجر- أنه قرأ في رحلته الشامية (مُعْجَمَ الطبَراني الصغير) في مجلس واحد بين صلاتي الظهر والعصر، قال: وهذا الكتاب في مجلد يشتمل على نحو ألف حديث وخمسمائة حديث» انتهى.







(٣) عُلُوُّ هِمَّتِهِم فِي الرِّحْلَةِ لِطَلَبِ العِلْمِ

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد».

ورحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى عقبة بن نافع وهو في مصر ليروي عنه حديثًا، فقدم مصر، ونزل عن راحلته، ولم يحل رحلها، فسمع منه الحديث، وركب راحلته، وقفل إلى المدينة راجعًا.

وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيَّب قال: «كنتُ أرحَلُ الأيامَ والليالِيَ في طلبِ الحديثِ الواحد».

وقال أبو العالية رُفَيْع بن مِهْران الرّياحي البصري:

«كنا نَسمَعُ الرواية عن أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونحن بالبصرة، فما نَرضى حتى نركب إلى المدينة فنَسمَعُها من أفْواههم».

وقال الحافظ ابن كثير في ترجمة الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رحَلَ إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنَتْه الرحلةُ إليها، وكتَبَ عن أكثر من ألف شيخ، قال الفِرَبْرِي: سَمِعَ (الصحيحَ) من البخاري معي نحوٌ من سبعين ألفًا، لم يبق منهم أحد غيري».



ورُوي عن الرازيِّ ما يُدهش اللب، من علو همته في الرحلة لتحصيل العلم إذ قال:

«أول ما رحلت أقمت سبع سنين، ومشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشيًا، ثم إلى الرملة ماشيًا، ثم إلى طرسوس، ولي عشرون سنة».

سأضرب في طول البلاد وعرضها ... لأطلب علمًا أو أموتَ غريبا

فإن تلفت نفسي فلله دَرُّها ... وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ولم ينتشر العلم في بلاد المغرب والأندلس إلا برجال رحلوا إلى الشرق، ولاقوا في رحلاتهم عناءً ونَصَبًا، مثل أسد بن الفرات، وأبي الوليد الباجي، وأبي بكر بن العربي.

وقال الذهبي: قال يوسف بنُ أحمد الشيرازي في (أربعين البلدان) له:

لما رحلت إلى شيخنا رُحْلَةِ الدنيا ومُسندِ العصر أبي الوقت، قدر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان، فسلمتُ عليه، وقبلتُه، وجلستُ بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومعولي بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأدرك بركة أنفاسك، وأحظى بعلو إسنادك. فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، لو كنت عرفتني حق معرفتي، لما سلمت عليَّ، ولا جلستَ بين يديَّ، ثم بكى بكاء طويلًا، وأبكى من حضره، ثم قال: اللهم استرنا بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا، يا ولدي، تعلم أني رحلت أيضا لسماع «الصحيح» ماشيًا مع والدي من هراة إلى الداووديِّ ببوشنج ولي دون



عشر سنين، فكان والدي يضع على يديَّ حجرين، ويقول: احملهما. فكنت من خوفه أحفظهما بيدي، وأمشي وهو يتأملني، فإذا رآني قد عييت أمرني أن ألقي حجرًا واحدًا، فألقي، ويخفُّ عني، فأمشي إلى أن يتبيَّنَ له تعبي، فيقول لي: هل عييت؟ فأخافه، وأقول: لا. فيقول: لم تقصر في المشي؟ فأسرع بين يديه ساعةً، ثم أعجز، فيأخذ الآخر، فيلقيه، فأمشي حتى أعطب، فحينئذ كان يأخذني ويحملني، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفل نُركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله صَلَّى ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل نمشي، وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالًا لحديث رسول الله ورجاء ثوابه. فكان ثمرة ذلك من حُسن نيَّته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقراني أحد سواي، حتى صارت الوفود ترحل إليَّ من الأمصار(١).





(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٤) مُعانَقَتهم الفَقْرَ فِي سَبيلِ الطَّلبِ

حَفَلتْ كتبُ الأدب والتراجم والتاريخ والأخلاق بأقوال العلماء في فقرهم وغُربتهم وصبرهم على شدائدهم الخانقة، واستهانتهم بها، وعدمِ اكتراثهم لها، تمسكًا منهم بمثوبة الصبر، المحتسَب فيه الأجر، والذي كانوا فيه من الفائزين.

فهذا قائل منهم يقول مسائلًا عن مسكن الفقر ومنزلِه ليعرفَه فيجتنبَه، فيخبره الفقرُ أنه جليسُه وأنيسُه، وخَدِينُه وقَرِينُه لا يبارحه ولا يفارقه!

قلتُ للفقرِ: أين أنت مقيم ... قال لي: في عمائم الفقهاءِ
إنَّ بيني وبينهم لَإخاءً ... وعزيزٌ عليَّ تركُ الإخاءِ

وآخَرُ يجعل الفِقهَ هو الفقَر بعينه، وإنما استدارَتْ «راءُ» الفقر فصارت «هاء»، فيقول مشيرًا إلى التلازم بين الفقه والفقر:

إنَّ الفقيهَ هو الفقيرُ وإنما ... راءُ الفقيرِ تجمَّعَتْ أطرافُها

وهذا الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستهين بسطوة الفاقة، ويكسر جبروتها بصبره الذي غلبها، فيقول فيما نُسِب إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أمطري سَماءَ سَرَنْدِيبَ ... وأخرجي آبارَ تُكرُورَ تِبرًا[1]
أنا إن عِشْتُ لستُ أُعدَمُ قُوتًا ... ولئن مِتُّ لستُ أُعدَمُ قَبرًا

---

(١) **سرنديب**: جزيرة كبيرة في أقصى الهند بالمشرق، **وتكرور**: اسم بلد بأقصى المغرب.







هِمَّتي هِمةُ الملوكِ[(١)] ونفسي نفسُ حُرٍّ تَرى المذلةَ كُفْرا[(٢)]

ونقل النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) عن الإمام الشافعي أنه قال: «ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القِرطاس فيعسر عليَّ»، وقال: «لا يطلب أحد هذا العلم بالمال وعِزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذِلة النفس، وضيق العيش، وخدمة المعلم، والتواضع في النفس؛ أفلح».

وقد قيل: «من ذَلَّ للعلم طالبًا، عَزَّ مطلوبًا».

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما خرجتُ من الكُتَّاب، كنت ألتقط الخزف، وأكتاف الجمال، وكَرَبَ النخيل، والدفوف، وأكتب فيها الحديث حتى امتلأت دارنا بذلك».

وقال عمر بن حفص الأشقر: «إنهم فقدوا البخاري أيامًا من كتابة الحديث بالبصرة، قال: فطلبناه فوجدناه في بيتٍ وهو عُرْيان، وقد نَفِدَ ما عنده ولم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث».

وقال سفيان بن عيينة: «لا تدخل هذه المحابر بيتَ رجلٍ إلا أشقى أهلَه وولدَه».

وسأل رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا: «ما حرفتك؟»، قال: طلب الحديث، فقال له: «بشِّر أهلك بالإفلاس».

(١) ومثله قول الشوكاني في «البدر الطالع» (ص٥٠١):

تـراه وهـو ذو طِـمْـرين يمشي بـهـمـتـه عـلـى هـام الـسِّـماك

(٢) انظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص٣٥)، وما بعدها.



وقال «مالك» رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُنال هذا الأمر، حتى يُذاق فيه طعم الفقر»، وقد قال ابن القاسم: «أفضى بمالكٍ طلبُ الحديث إلى أن نقض سقف بيته، فباع خشبه».

وهذا «يحيى بن معين» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، خلَّف له أبوه ألف ألف درهم، فأنفقها كلَّها على تحصيل الحديث حتى لم يبق له نعل يلبسه.

وروي عن أبي حاتم أنه قال: ضاقت بنا الحال أيام طلب العلم، فعجزت عن شراء البزر(١)، فكنت أخرج الليلَ إلى الدرب الذي أنزِله، وأرتفق بسراج الحارس، وكان ربما ينام الحارس، فكنت أنوب عنه.

فائدة: لماذا لا تعظم ثروات القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخَطابة والأذان في الغالب؟

يجيب ابن خلدون ويقول: إن السبب هو: «أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية، وهي متفاوتة بحسب الحاجة إليها، فإذا كانت الأعمال ضرورية في العُمرانِ عامَّةَ البلوى به، كانت قيمتها أعظم، وكانت الحاجة إليها أشد.

وأهل هذه الصنائع الدينية لا تُضطرُّ إليهم عامة الخلق، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواصُّ ممن أقبل على دينه، وإن احتيج إلى الفُتيا والقضاء في الخصومات، فليس على وجه الاضطرار والعموم، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر، وإنما يهتم بإقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح، فيقسم لهم حظًّا من الرزق على نسبة الحاجة إليهم، على النحو الذي قررناه، لا يساويهم

---

(١) **البَزْر:** هو زيت حَبِّ الكتان، المُسمى بالزيت الحار، وسمي بذلك نسبة لحشيشة الحارة التي تنبت مع النبات، وهي شبيهة جدًّا بالكتان، ولهذا الزيت فوائد صحية مدهشة.



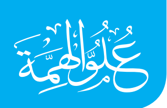
بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع، من حيث الدين والمراسم الشرعية، لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العُمران، فلا يصح في قسمهم إلا القليل.

وهم أيضًا لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظًّا يَسْتدِرُّون به الرزق، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على إعمال الفكر والبدن، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم، فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب.

ولقد باحثتُ بعضَ الفضلاء -في هذا المعنى- فأنكر ذلك عليَّ، فوقع بيدي أوراق مخزقة من حسابات الدواوين بدار المأمون، تشتمل على كثير من الدخل والخرج، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين، فوقفته عليه، وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه، وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه، والله الخالق القادر لا رب سواه» اهـ.









(٥) مُعَانَاتهم الجُوع وَالمرَض والشَّدَائِد وَالمخاطَرة بِالنفسِ في طَلَبِ العلم

قص الإمام أبو حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئًا مما لقيه أثناء رحلته في طلب العلم، فقال:

لما خرجنا من المدينة من عند داود الجعفري صرنا إلى الجار، وركبنا البحر وكنا ثلاثة أنفس: أبو زهير المروزي شيخ، وآخر نيسابوري، فركبنا البحر، وكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا من الزاد، وبقيت بقية، فخرجنا إلى البر فجعلنا نمشى أيامًا على البر، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يومًا وليلة لم يأكل أحد منا شيئًا، ولا شربنا، واليوم الثاني كمثل، واليوم الثالث، كل يوم نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا، وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا من الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث جعلنا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيًّا عليه، فجئنا نحركه، وهو لا يعقل، فتركناه، ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخ أو فرسخين، فضعفت، وسقَطت مغشيًّا عليَّ، ومضى صاحبي، وتركني، فلم يزل هو يمشي، إذ بصر من بعيد قومًا قد قربوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما عاينهم لوَّحَ بثوبه إليهم، فجاءوه معهم الماء في إداوة فسقوه، وأخذوا بيده، فقال لهم: «رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيًّا عليهم»، فما شعرت إلا برجل يصب الماء على وجهي، ففتحت عيني،



فقلت: «اسقني»، فصب من الماء في ركوة أو مشربة شيئًا يسيرًا، وأخذ بيدي، فقلت: «ورائي شيخ مُلْقًى»، قال: «قد ذهب إلى ذاك جماعة»، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجر رجلي، ويسقيني شيئًا بعد شيء، حتى إذا بلغت إلى عند سفينتهم، وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة، فبقينا أيامًا حتى رجعت إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتابًا إلى مدينة يقال لها «راية» إلى واليهم، وزودونا من الكعك والسويق والماء، فلم نزل نمشي حتى نفد ما كان معنا من الماء والسويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعًا عطاشًا على شط البحر، حتى وقعنا إلى سلحفاة قد رمى به البحر مثل الترس، فعمدنا إلى حجر كبير فضربنا على ظهر السلحفاة، فانفلق ظهره، وإذا فيها مثل صفرة البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقى على شط البحر، فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر، فنتحساه حتى سكن عنا الجوع والعطش، ثم مررنا وتحملنا حتى دخلنا مدينة «الراية»، وأوصلنا الكتاب إلى عاملهم، فأنزلنا في داره، وأحسن إلينا، وكان يقدم إلينا كل يوم القرع، ويقول لخادمه: «هاتِ لهم باليقطين المبارك»، فيقدم إلينا ذاك اليقطين مع الخبز أيامًا، فقال واحد منا بالفارسية: «ألا تدعو باللحم المشؤوم؟»، وجعل يُسمع الرجلَ صاحبَ الدار، فقال: «أنا أحسن بالفارسية: فإن جدتي كانت هَرَوية»، فأتانا بعد ذلك باللحم، ثم خرجنا من هناك، وزودنا إلى أن بلغنا مصر.

وقال عيسى بن موسى: «مكثتُ ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل هريسة السوق، فلا أقدر على ذلك، لأجل البكور إلى سماع الحديث».

وقال الخليل بن أحمد: «أثقل الساعات عليَّ ساعة آكل فيها».

تلوم عليَّ أن رُحْتُ للعلم طالبًا ... وأجمعُ من علم الرواة فنونَه

فيالائمي دعني أغالي بمهجتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه



وقال إبراهيم الحربي: «ما كنا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا، كنت أجيء من عَشِيٍّ إلى عشي، وقد هيأت لي أمي باذنجانة مشوية، أو لعقة بِنٍّ[١]، أو باقة فجل».

وقال الوخشي أبو علي الحسن: «كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره، فضاقت عليَّ النفقة، وبقيت أيامًا بلا أكل، فأخذت لأكتب فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز، وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم فتح الله تعالى عليَّ».

فمن هجر اللذاتِ نال المنى ومن … أكبَّ على اللذات عضَّ على اليدِ

وهذا ابن الجوزي يقول:

«لقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء.

فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عُرِفْتُ بكثرة سماعي لحديث رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحواله وآدابه، وأحوال أصحابه وتابعيهم...».

قال البارودي:

ومن تكن العلياءُ همةَ نفسِه … فكل الذي يلقاه فيها مُحَبَّبُ

---

(١) **البِنُّ**: الطبقة من الشحم.

(٦) مُعَانَاتهم السَّهَر فى طَلَبِ العِلم

قيل لبعض السلف:

«بم أدركت العلم؟»، قال: «بالمصباح، والجلوس إلى الصباح»، وقيل لآخر، فقال: «بالسفر، والسهر، والبكور في السحر».

واهجُرِ النومَ وحَصِّله فمنْ	**يَعرِفِ المطلوبَ يحقِرْ ما بَذَلْ**
لا تقل قد ذهبت أيامُه	**كلُّ من سار على الدرب وصلْ**
في ازديادِ العلم إرغامُ العِدا	**وجمالُ العلمِ إصلاحُ العملْ**

قال الخطيب البغدادي: «وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل، وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء فربما لم يقوموا حتى يسمعوا أذان الصبح».

وبادرِ الليلَ بما تشتهي	**فإنما الليل نَهارُ الأريب**

وكان الشيخ أبو علي يكشف عن ظهره في الليلة الباردة يطرد به النوم.

وكان الإمام محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا ينام الليل، وكان عنده الماء يزيل نومه به، وكان يقول: «إن النوم من الحرارة فلا بد من دفعه بالماء البارد».

وذكر ابن اللباد أن محمد بن عبدوس «صلى الصبح بوضوء العتمة، ثلاثين سنة، خمس عشرة من دراسة، وخمس عشرة من عبادة».

يَهْوَى الدَّياجي إذا المغرورُ أغْفَلَها	**كأنَّ شُهْبَ الدياجي أعينٌ نُجْلُ**



وحكى الربيع عن فاطمة بنت الشافعي قالت: «أسرجت لأبي في ليلةٍ سبعين مرة».

وقال الحافظ ابن كثير: «وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه، فيُوقِدُ السراجَ، ويكتب الفائدة تمُرُّ بخاطره، ثم يُطفئُ سراجَه، ثم يقوم مرةً أخرى وأخرى، حتى كان يتعدَّدُ منه ذلك قريبًا من عشرين مرة».

وقال يحيى بن معين: «إني لأُحَدِّث بالحديث، فأسهر له؛ مخافة أن أكون قد أخطأتُ فيه».

وكان أسَدُ بن الفُرات، -قاضي القيروان، وتلميذُ الإمام مالك، ومُدون مذهبه، وأحَدُ القادة الفاتحين، فتحَ صِقِلِّيَّةَ واستُشهدَ بها سنة (٢١٣هـ)- كان قَد خرج من القيروان إلى الشرق سنة ١٧٢هـ، فسمع «الموطأ» على مالك بالمدينة، ثم رحل إلى العراق، فسمِع من أصحاب أبي حنيفة وتفقَّه عليهم، وكان أكثَرُ اختلافه إلى محمد بن الحسن الشيباني، ولما حضَرَ عنده قال له: «إني غريب قليلُ النفقة، والسماعُ منك نَزْر، والطلبةُ عندك كثير فما حِيلتي؟».

فقال له محمد بن الحسن: «اسمع مع العراقِيِّين بالنهار، وقد جعلتُ لك الليلَ وحدَك، فتَبِيتُ عندي وأُسمِعك»، قال أسد: «وكنتُ أبيتُ عنده ويَنزلُ إلي، ويجعلُ بين يديه قَدَحًا فيه الماء، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال الليل ونعَستُ، ملأ يَده ونفحَ وجهي بالماء فأنتبه، فكان ذلك دأبه ودأبي، حتى أتيتُ على ما أريدُ من السماع عليه».

وكان محمد بن الحسن يتعهده بالنفقة حِين علم أن نفقته نَفِدَتْ، وأعطاه مَرةً ثمانين دينارًا حين رآه يشرب من الماء السبيل، وأمَدَّه بالنفقة حين أراد الانصراف من العراق.

وقال عبد الرحمن بن قاسم العُتَقي المصري أحد أصحاب مالك والليث وغيرهما:

كنتُ آتي مالكًا غَلَسًا فأسأله عن مسألتين، ثلاثة، أربعة، وكنتُ أجد منه في ذلك الوقت انشراحَ صدر، فكنت آتي كلَّ سَحَر.

فتوسَّدتُ مرَّةً عتبتَه، فغلبتني عيني فنِمت، وخرَجَ مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت لي: «إن مولاك قد خرج، ليس يَغفُلُ كما تَغفُلُ أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة، قلَّما صلى الصبح إلا بوضوء العتَمَة»، ظنَّت الجارية أنه مولاه من كثرةِ اختلافِه إليه.

قال ابن القاسم: «وأنختُ بباب مالك سبع عشرة سنة، ما بعتُ فيها ولا اشتريتُ شيئًا، قال: فبينما أنا عنده، إذ أقبل حاجُّ مصر، فإذا شابٌّ متلثِّم دخل علينا، فسلَّم على مالك، فقال: أفيكم ابنُ القاسم؟ فأُشيرَ إليَّ، فأقبل يُقبِّلُ عينيَّ، ووجدتُ منه ريحًا طيبة، فإذا هي رائحةُ الوَلَد، وإذا هو ابني»، وكان ابنُ القاسم ترك أمه حاملًا به، وكانت ابنةَ عمه، وقد خيَّرها عند سفره لطول إقامته، فاختارت البقاء.

وقال أبو يعلى الموصلي:

اصبر على مضض الإدلاج بالسـ	ـحر وبالرواح على الحاجات والبكر
لا تعجزن ولا يضجرك مطلبها	فالنجح يتلف بين العجز والضجر







إنـي رأيــت وفي الأيــام تجربة　　للـصبر عـاقـبـة مـحـمـودة الأثـر

وقـل مـن جـد في أمـر يطالبه　　واستصحَبَ الصبر إلا فاز بالظفر

حكى شيخ الإسلام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخه الإمام الجليل أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي قال: سمعت الشيخ عبد العظيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «كتبت بيدي تسعين مجلدة، وكتبت سبعمائة جزء، كل ذلك من علوم الحديث تصنيف غيره، وكتب ذلك من مصنفاته وغيرها أشياء كثيرة»، قال النووي: قال شيخنا: «ولم أرَ، ولم أسمع أحدًا أكثر اجتهادًا منه في الاشتغال، كان دائم الاشتغال في الليل والنهار»، قال: «وجاورته في المدرسة -يعني بالقاهرة حماها الله- بيتي فوق بيته اثنتي عشرة سنة، فلم أستيقظ في ليلة من الليالي، في ساعة من ساعات الليل إلا وجدت ضوء السراج في بيته، وهو مشتغل بالعلم، وحتى كان في حال الأكل والكتاب والكتب عنده يشتغل فيها» اهـ.

فَنُورهم من جدهم وسهرهم، كالحافظ الضياء أبي محمد المقدسي: كان «كأن النور يخرج من وجهه، ضعف بصره من كثرة الكتابة والبكاء».

وقال ابن فضل الله العمري: إن الإمام محمد بن مُكَرَّم المعروف بابن منظور[(١)] «لم يزل يكتب، ويسهر في الكتابة حتى كان يقضي الليالي الطوال كلها سهرًا، لا يُلم فيها بِكَرى، ولا يُطعم عينه بهجعة، وكان يتخذ إلى جانبه إناءً فيه ماء، فإذا غلبه السَّهَر، وكاد يصرعه الكرى، أخذ من الماء فسكب في عينه، فعمي في آخر عمره».



---

(١) اختصر كتبًا كثيرة من المطولات وغيرها؛ فاختصر «تاريخ بغداد»، و«ذيله» لابن النجار، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«مفردات ابن البيطار»، و«الأغاني»، ورتبه على الحروف، و«زهر الآداب» للحصري، وغيرها، وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، ترك منه بعد موته خمس مئة مجلَّد.

وقال الزمخشري واصفًا تلذذ العلماء بإيقاظ ليلهم، وطول سهرهم:

سَهَري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وَصْل غانيةٍ وطِيب عِناقِ
وتمايلي طربًا لحلِّ عويصة ... أشهى وأحلى من مُدامة ساقي
وصَريرُ أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدُّوكاهِ[1] والعُشَّاقِ
وألذُّ من نَقْرِ الفتاة لدُفِّها ... نقري لألقي الرَّمْلَ عن أوراقي
أأبِيتُ سهرانَ الدُّجَى وتبيتَه ... نومًا وتبغي بعد ذاك لَحاقي

وقال القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد وهو يصف حياة الإمام القاضي أبي بكر ابن العربي (ت:٥٤٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يقول لنا: إن القاضي إذا ولي القضاء عامين نسي أكثر ما كان يحفظ، فينبغي له أن يعزل، وأن يتدارك نفسه، وكنا نبيت معه في منزله بقرطبة، فكانت الكتب عن يمين وشمال، وكان لا يتجرد من ثوب، كانت له ثياب طوال يلبسها بالليل وينام فيها إذا غلبه النوم، فمهما استيقظ مَدَّ يده إلى كتاب، وكان مصباحه لا ينطفئ الليلَ كلَّه».



وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حاكيًا عن أوائل طلبه للعلم: «وبقيت سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض»، وحكى البدر بن جماعة أنه سأله رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نومه؛ فقال: «إذا غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه»، وقال البدر: «وكنت إذا أتيته أزوره يضع بعض الكتب على بعض ليوسع لي مكانًا أجلس فيه».

وهذا الإمام الشيخ مؤرخ الإسلام وحافظ الشام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أخذ كتاب الإمام أحمد مرتبًا من المحب

---

(١) **الدوكاء**: الحجر الذي يُسحق به الطيب.




الصامت، وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة، و(معجم الطبراني الكبير)، و(مسند البزار)، و(مسند أبي يعلى الموصلي)، وأجهد نفسه كثيرًا، وتعب فيه تعبًا عظيمًا، فجاء لا نظير له في العالم، وأكمله، إلا من بعض مسند أبي هريرة، فإنه مات قبل أن يكمله، فإنه عُوجِل بكف بصره، يقول للذهبي: «لا زلت أكتب فيه في الليل، والسراج يُنونِصُ، حتى ذهب بصري معه، ولعل الله يقيض من يكمله».

وهاك طرفًا من سيرة الإمام الجليل «ابن دقيق العيد» رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبين عن علو همته وسهره في طلب العلم:

بعد أن قام بجولته العلمية في الفسطاط والقاهرة والإسكندرية ودمشق والحجاز، وأخذ العلم عن كبار أساتذة عصره، تعمق في المذهبين، مذهب مالك والشافعي، كما تعمق في علوم الحديث والتفسير، وعلم الكلام والنحو والأدب، وأتقن وهو شاب المذهبين اتقانًا عظيمًا، وبلغ به إلى درجة الإفتاء بهما.

قال الإسنوي: حقق المذهبين معًا، ولذلك مدحه الشيخ ركن الدين بن القويع المالكي بقصيدة يقول من جملتها:

صبَا للعلم صَبًّا في صِباه ... فَأَعْلِ بهمةِ الصَّبِّ الصبيّ

وأتقنَ والشبابُ لَهُ لباسٌ ... أدلةَ مالكٍ والشافعي

كان الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ منقطعًا للعلم والعبادة، فكان لا ينام الليل إلا قليلًا، فكانت أوقاته معمورة بالدرس والمطالعة والتحصيل، أو الإملاء والتأليف، ورواية الحديث، فإن أراح نفسه من بعض ذلك العناء فلا يُرَى إلا



قائمًا يصلي في المحراب، أو جالسًا يتلو كلام الله، أو ماشيًا يتفكر في خلق الله، متدبرًا صنعه، مستدلًّا بذلك على قدرة الله ووحدانيته، فهو منصرف بجسمه وفكره سوادَ ليله وبياضَ نهاره إلى البحث والتدقيق، والاستنباط والتحقيق، أو الصلاة والقيام، وتقديس الله الملك العلام، وأصدق مرآة لحياته قوله:

الجسمُ يذيبُه حقوقُ الخدمهْ والقلبُ عذابُهُ علو الهمهْ

والعمرُ بذاك ينقضي في تعبٍ والراحةُ ماتت فعليها الرحمهْ

فهو قد أضنى فؤادَه علوُّ همته في درك العلا، ونيل المرام، فشغل فكره باستنباط الأحكام الشرعية، وخدمة الدين والأمة، والتزود بالتقوى.

قال السبكي: «أما دأبه في الليل علمًا وعبادة فأمر عجاب، ربما استوعب الليل فطالع فيها المجلد أو المجلدين، وربما تلا آية واحدة فكررها إلى مطلع الفجر».

وقال الآدفوي: حكى لي الشيخ زين الدين عمر الدمشقي المعروف بابن الكناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال: دخلت عليه بكرة يوم فناولني مجلدة، وقال: «هذه طالعتها في هذه الليلة التي مضت»، وقال الآدفوي أيضًا: له قدرة على المطالعة، رأيت خزانة المدرسة النجيبة بقوص فيها كتب من جملتها (عيون الأدلة) لابن القصار في نحو ثلاثين مجلدًا، وعليها علامات له، وكذلك رأيت كتب المدرسة السابقية، رأيت على (السنن الكبرى) للبيهقي له فيها في كل مجلدة علامة، وفيها (تاريخ الخطيب) كذلك، (ومعجم الطبراني) الكبير، والأوسط، وقال: وأخبرني شيخنا الفقيه سراج الدين الدنوري أنه لما ظهر (الشرح الكبير) للرافعي اشتراه بألف







درهم، وصار يصلي الفرائض فقط، واشتغل بالمطالعة إلى أن أنهاه، وذُكر عنده هو والغزالي في الفقه، فقال: «الرافعي في السماء»، ويقال إنه طالع كتب الفاضلية عن آخرها، وقال: «ما خرجتُ من باب من أبواب الفقه، واحتجتُ أن أعود إليه».

★ ومن سيرة العلماء المعاصرين ننتقي أنموذج العلامة القرآني «محمد الأمين الشنقيطي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال ابنه عبد الله: «حدثني أبي أنه كان يقرأ في البلاد زمان طلبه العلم في (مختصر خليل) في أول كتاب النكاح، حتى وصل إلى قول خليل: «في عشرة ندبه ولو ببيع سلطان لفلس»؛ قال لي: أقرأنيها شيخي بعد العصر، وكانت دراسته جرديَّة، بحيث يقرأ كل ما قيل في الباب؛ قال: فأخذت شراح خليل وحواشيه على هذه المسألة، وجلست أراجعها حتى جاء الليل، ثم أوقدتُ النار أطالع في ضوئها إلى الصبح، ولم أنم، ولم أصلِّ غير الفريضة، فوجدت أن للشراح في قول خليل قولين، ولو كنت أبحث في الكتاب والسنة لأتيت للأمة بالعجب».

ولي شغل بأبكار عذارى	كأن وجوهَها ضوءُ الصباحِ
أَبِيتُ مفكرًا فيها فتضحي	لفَهْم الفَدْمِ[1] خافضة الجناح

قال الشيخ عطية سالم في روايته هذه القصة ما نصه:

نعم؛ إنه كان يبيت في طلب العلم مفكرًا وباحثًا، حتى يذلل الصعاب، وقد طابق القول العمل؛ حدثني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «جئت للشيخ في قراءتي عليه، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت، ولم يرو لي

(١) **الفَدْم**: رجل فَدْم: ثقيل الفهم عَيِيٌّ.

ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهرًا، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتى المغرب، فلم أنته أيضًا، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي، لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار، وقد فرغت من درسي، وزال عني لبسي، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم، فتركت المطالعة ونمت، وأوصيت خادمي أن لا يوقظني لدرسي في ذلك اليوم؛ اكتفاءً بما حصلت عليه، واستراحة من عناء سهر البارحة»؛ فقد بات مفكرًا فيها، فأضحت لفهم الفدم خافضة الجناح.

★ وقال العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا حاله أثناء مدارسته تفسير القرآن العظيم قبل أن يبلغ سن العشرين: «وإني ولله تعالى المنة مذ مِيطَتْ عني التمائم، ونيطت على رأسي العمائم، لم أزل متطلبًا لاستكشاف سره المكتوم، مترقبًا لارتشاف رحيقه المختوم، طالما فرقت نومي لجمع شوارده، وفارقت قومي لوصال خرائده، فلو رأيتني وأنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، وأطالع -إن أعوز الشمع يومًا- على نور القمر، في كثير من ليالي الشهر، وأمثالي إذ ذاك يرفلون في مطارف اللهو، ويُرْقلون[1] في ميادين الزهو، ويؤثرون مسرات الأشباح، على لذات الأرواح،



(١) أرقل في سيره: أسرع.

ويهبون نفائس الأوقات، لنهب خسائس الشهوات، وأنا مع حداثة سني، وضيق عَطَني، لا تغرني حالهم، ولا تغيرني أفعالهم» اهـ.

وقال الإمام ابن عبد القوي في (منظومة الآداب):

ولا تسأمن العلم واسهر لنيله … بلا ضجر تحمد سُرى الليل في غدِ

وقال العلامة ابن مفلح في شرحها: «فمن ألف السهاد، وترك الوساد والمهاد، وجاب البلاد، وحُرِم الأهلَ والأولاد، نال منه المراد. من طلب وجَدَّ وجد، ومن قرع الباب ولجَّ ولج، ومن ألف السآمة والنوم، لم ينل ما نال القوم».





(٧) حِرصهم على مَجَالِسِ العُلَمَاءِ

إن من رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن ألقى في قلوب سلفنا الصالح الشغف بالعلم والحرص على مجالسه ليحفظ بهم دينه، ويكونوا أسوة لمن بعدهم، فمن ثم تبوؤوا مناصب الإمامة في الدين.

مجالسهم مثلُ الرياض أنيقةٌ لقد طاب منها الريح واللون والطعم

جاء في ترجمة أبي مسلم الكجي الحافظ المسند إبراهيم بن عبد الله بن مسلم البصري صاحب السنن، قال أحمد بن جعفر الختلي: لما قدم الكجي بغداد أملى في رحبة غسان (مكان هناك)، فكان في مجلسه سبعة مستملين يُبلِّغ كل واحدٍ منهم الآخر، ويكتب الناس عنه قيامًا، ثم مَسَحْتُ الرحبة (أي: قدرت مساحتها)، وحسبتُ مَن حضر بمحبرة، فبلغ ذلك نيفًا وأربعين ألف محبرة سوى النظارة[١]، قال الحافظ الذهبي: «هذه حكاية ثابتة».

وقال ابن عدي: «كنا نشهد مجلس الفريابي، وفيه عشرة آلاف أو أكثر».

وقال أبو الفضل الزهري: «لما سمعت من الفريابي كان في مجلسه من أصحاب المحابر مَن كتب نحو عشرة آلاف إنسان، ما بقي منهم غيري، هذا سوى من لا يكتب».



---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٢٦١).

وقال جعفر بن درستويه: «كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني وقت العصر اليومَ لمجلس غدٍ، فنقعد طول الليل، مخافة أن لا نلحق من الغد موضعًا نسمع فيه، ورأيت شيخًا في المجلس يبول في طَيْلَسانه[1]، ويُدْرِجُ الطيلسان، حتى فرغ مخافة أن يؤخذ مكانه إن قام للبول».

وقال أبو الزناد: «كنا نطوف مع الزهري على العلماء، ومعه الألواح والصحف، يكتب كل ما سمع».

وقال ثعلب: «ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغة ولا نحو من خمسين سنة».

وقال يحيى بن حسان: كنا عند سفيان بن عيينة، وهو يحدث، فازدحمت فرقة من الناس على محل شيخٍ ضعيفٍ، فانتهبوه، ودَقُّوا يد الشيخ، فجعل الشيخ يصيح: «سفيانُ لا جعلتك مما عمِلوا بي في حِل»، وسفيانُ لا يسمع، حتى نظر إلى رجل من أولئك الذين صنعوا بالشيخ ما صنعوا، فقال له: «ما يقول الشيخ؟»، قال: يقول[2]: «زدنا في السماع».

وقال سلمة بن شبيب: كنا عند يزيد بن هارون، فازدحم الناس عليه، فوقع صبي تحت أقدام الرجال، فقال يزيد: «اتقوا الله، وانظروا ما حال الصبي»، فنظروا فإذا هو قد خرجت حَدَقتاه[3]، وهو يقول: «يا أبا خالد! زِدْنا»، فقال يزيد: «إنا لله، وإنا إليه راجعون، قد نزل بهذا الغلام ما نزل، وهو يطلب الزيادة».



(١) **الطيلسان**: أو الطالسان، فارسي معرب، وهو ضرب من الأوشحة يُلبس على الكتف، أو يُحيط بالبدن، خالٍ عن التفصيل والحياكة، يُعرف في العامية المصرية بالشال.

(٢) اللائق بحال طلبة العلم الشريف أن يكون ذلك الرجل قد أجابه بقوله: «زدنا في السماع»، دون أن يكون قال: «يقول زدنا» فعسى أن تكون لفظة «يقول» مزيدة في الرواية.

(٣) **الحَدَقة**: السواد المستدير وسط العين.

وهشيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كان سبب موته ازدحام طلبة العلم عليه، فقد قال الخطابي: ازدحم أصحاب الحديث على هشيم، فطرحوه عن حماره، فكان سبب موته.

وكان أبو بكر بن الخياط النحوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدرس جميع أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جُرْفٍ، أو خبطته دابة! وحكي عن الإمام ثعلب أحمد بن يحيى النحوي: أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة، شرط عليه أن يُوسِع له مقدار مِسْوَرة -وهي المتكأ من الجلد- يضع فيها كتابًا، ويقرأ.

وكان سببُ وفاته أنه خرج من الجامع يوم الجمعة، بعد العصر، وكان قد لحقه صَمَمٌ، لا يَسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق، فصدمته فرسٌ فألقته في هُوَّة، فأُخرِجَ منها وهو كالمختلِط، فحُمل إلى منزله على تلك الحال، وهو يتأوه من رأسه، فمات ثاني يوم، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وكان أقدم شيخ لقيه الإمام عبد الله بن المبارك الربيع بن أنس الخراساني، تحيَّل، ودخل إليه إلى السجن، وسمع منه.



وهذا الإمام «بَقيُّ بن مَخْلَد الأندلسي» الذي رحل إلى بغداد ماشيًا على قدميه، وكان جُلُّ بغيته أن يلقى إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ليأخذ عنه العلم، حُكي عنه أنه قال: لما قَرُبتُ من بغداد اتصل بي خبرُ المحنة التي دارت على أحمد بن حنبل، وأنه ممنوع من الاجتماع إليه والسماع منه، فاغتممتُ بذلك غمًّا شديدًا، فاحتَللتُ الموضع، فلم أعرج على شيء بعد إنزالي متاعي في بيتٍ اكتريتُه

في بعض الفنادق أن أتيتُ المسجد الجامع الكبير، وأنا أريد أن أجلس إلى الحَلْق وأسمع ما يتذاكرونه.

فدُفِعتُ إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يكشف عن الرجال، فيُضعِّفُ ويُقوِّي، فقلت: «من هذا»؟ لمن كان قُربي، فقال: «هذا يحيى بن معين»، فرأيتُ فرجة قد انفرجت قُرْبَه، فقمت إليه، فقلت له: «أبا زكريا رحمك الله، رجل غريب نائي الدار، أردتُ السؤال فلا تَستخفَّني»، فقال لي: «قُلْ»، فسألته عن بعض من لقيتُ من أهل الحديث، فبعضًا زكَّى، وبعضًا جرَّح.

فسألته في آخر السؤال عن هشام بن عمار، وكنتُ قد أكثرت من الأخذ منه، فقَال: «أبو الوليد هشام بن عمار صاحبُ صلاة، دمشقي ثقة وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر وتقلد كبرًا ما ضرَّه شيئًا لخيرِه وفضلِه»، فصاح أهلُ الحلقة: «يكفيك رحمةُ الله عليك، غيرُك له سؤال».

فقلتُ -وأنا واقف على قدمي-: «أكشِفُك عن رجل واحد: أحمد بن حنبل؟»، فنظر إليَّ يحيى بن معين كالمتعجِّب، وقال لي: «ومثلنا نحن يكشف عن أحمد بن حنبل؟! إنَّ ذاك إمامُ المسلمين، وخيرُهم، وفاضلهم».

ثم خرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل، فدُللتُ عليه، فقرعتُ بابه، فخرج إليَّ وفتَح الباب، فنظر إلى رجل لم يعرفه، فقلت: «يا أبا عبد الله رجل غريب الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالبُ حديث ومُقَيِّدُ سُنَّة -أي: جامعُ سُنَّة-، ولم تكن رحلتي إلا إليك»، فقال لي: «ادخل الأسطوان، ولا تقع عليك عين».





فقال لي: «وأين موضعك؟»، قلت: «المغرب الأقصى»، فقال لي: «إفريقية؟» فقلت: «أبعَدُ من ذلك، أجوزُ من بلدي البحرَ إلى إفريقية، الأندلس»، فقال لي: «إن موضعك لبعيد، وما كان شيء أحبَّ إليَّ من أن أحسن عَونَ مثلِك على مطلبه، غير أني في حيني هذا ممتحَن بما لعله قد بلغك»، فقلت له: «بلى قد بلغني، وأنا قريب من بلدك مقبلٌ نحوك».

فقلت له: «أبا عبد الله هذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فإن أذنتَ لي أن آتي في كل يوم في زِيِّ السُّؤَّال، فأقولَ عند باب الدار ما يقولون، فتَخرُجَ إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان فيه كفاية»، فقال لي: «نعم، على شرط أن لا تظهر في الخَلْق، ولا عند أصحاب الحديث»، فقلت: «شَرْطك».

فكنتُ آخذ عُودًا بيدي، وأُلُفُّ رأسي بخرقة، وأجعل كاغدي -أي: ورقي- ودَواتي في كُمِّي، ثم آتي بابه فأصيح: «الأَجْرَ رحمكم الله»، والسُّؤَّالُ هنالك كذلك، فيَخرج إليَّ، ويغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر.

فالتزمتُ ذلك، حتى مات المتحِنُ له، وَوَلِيَ بعده من كان على مذهب السُّنَّة، فظهر أحمد بن حنبل، وسَمَا ذكره، وعظُمَ في عيون الناس، وعلَتْ إمامتُه، وكانت تُضرَب إليه آباط الإبل، فكان يَعرفُ لي حقَّ صبري.

فكنت إذا أتيتُ حَلْقَتَهُ فسَحَ لي وأدناني من نفسه، ويقول لأصحاب الحديث: «هذا يقع عليه اسمُ طالب العلم»، ثم يقص عليهم قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه عليَّ، وأقرؤه عليه.







فاعتللتُ عِلَّةً أشفيتُ منها، ففقَدَني من مجلسه فسأل عني، فأُعلم بعِلَّتي، فقام من فوره مقبلًا إليَّ عائدًا لي بمن معه، وأنا مضطجع في البيت الذي كنت اكتريت، ولِبْدي تحتي، وكسائي عليَّ، وكتبي عند رأسي.

فسمعتُ الفندقَ قد ارتَجَّ بأهله وأنا أسمعهم -يقولون-: «هو ذاك، أبصروه، هذا إمام المسلمين مقبلًا»، فبَدَر إليَّ صاحبُ الفندق مسرعًا فقال لي: «أبا عبد الرحمن! هذا أبو عبد الله أحمد بن حنبل إمام المسلمين مقبلًا إليك عائدًا لك».

فدخل، فجلس عند رأسي، وقد احتَشَى البيتُ من أصحابه، فلم يسعهم، حتى صارَتْ فرقة منهم في الدار وقوفًا وأقلامُهم بأيديهم، فما زادني على هذه الكلمات؛ فقال لي: «يا أبا عبد الرحمن أبشِرْ بثواب الله، أيامُ الصحة لا سقَمَ فيها، وأيامُ السقم لا صحة فيها، أعلاك الله إلى العافية، ومَسَحَ عنك بيمينه الشافية»، فرأيت الأقلام تكتب لفظه.

ثم خرج عني، فأتاني أهلُ الفندق يَلطُفون بي، ويخدمونني ديانةً وحِسبةً، فواحدٌ يأتي بفراش، وآخر بلحافٍ، وبأطايب من الأغذية، وكانوا في تمريضي أكثرَ من تمريض أهلي لو كنت بين أظهرهم، لعيادة الرجل الصالح.

وتوفي بقي بن مخلد سنة ٢٧٦هـ بالأندلس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

★ واجتهد كثير من الحفاظ في لقيا المشايخ والتلقي عنهم، حتى بلغ عدد شيوخ الإمام الحافظِ محدِّثِ خراسان أبي سعد عبد الكريم السمعاني المروزي



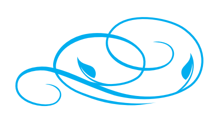
سبعة آلاف شيخ وأستاذ[١]، ولكثرة البلدان التي رحل إليها، ألف (معجم البلدان) التي سمع فيها، وصنف (معجم شيوخه) في عشر مجلدات.

وقال القاسم بن داود البغدادي: «كتبت عن ستة آلاف شيخ».

وبلغ عِدَّةُ شيوخ الإمام الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألفًا وثلاثَ مائة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة.

ولما مات «زيد بن ثابت» رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يا هؤلاء من سره أن يعلم كيف ذَهاب العلم فهكذا ذهاب العلم، وايْمُ الله لقد ذهب اليوم علمٌ كثيرٌ، يموت الرجل الذي يعلم الشيء لا يعلمه غيره، فيذهب ما كان معه -ويشير إلى قبر زيد ويقول:- لقد دفن اليوم علمٌ كثيرٌ».

قال يحيى بن القاسم: كان «ابن سُكَيْنَة» عالمًا عاملًا، لا يُضيِّعُ شيئًا من وقته، وكنا إذا دخلنا عليه يقول: «لا تزيدوا على: (سلامٌ عليكم) مسألة»، لكثرة حرصه على المباحثة، وتقرير الأحكام.





(١) قال ابن النجار: «وهذا شيء لم يبلغه أحد».

(٨) مُبَادَرتهم الأَزمَان حِرصًا عَلى العِلم

ومن ذلك: أن «شعبة بن الحجاج» جاء إلى «خالدٍ الحذاء»، فقال: «يا أبا منازل: عندك حديث حَدِّثني به؟»، وكان خالد عليلًا، فقال له: «أنا وَجِع»، فقال: «إنما هو واحد؟»، فحدثه به، فلما فرغ، قال: «مت إذا شئت».

وكان «يحيى بن معين» شديد الحرص على لقاء الشيوخ والسماع منهم خشية أن يفوتوه، قال عبد بن حميد: سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث أول ما جلس إلي، فقلت: حدثنا حماد بن سلمة فقال: «لو كان من كتابك؟» فقمت لأخرج كتابي، فقبض على ثوبي ثم قال: «أَمْلِهِ عَلَيَّ، فإني أخاف أن لا ألقاك»، فأمليتُه عليه، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه.

وعن ابن إسحاق قال: سمعت مكحولًا يقول: «طُفتُ الأرض في طلب العلم»، وروى أبو وهب عن مكحول قال: «أُعتِقْتُ بمصر، فلم أدَعْ بها عِلمًا إلا حويتُه فيما أُرَى، ثم أتيتُ العراق ثم أتيتُ المدينة، فلم أدع بهما علمًا إلا حويتُ عليه فيما أُرى، ثم أتيتُ الشام فغربلتُها»، وهذا من فطنته ومبادرته الزمان، خشية فوت الرواة، وموت المحدثين[١].

وكان الحافظ شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني يمتنع كثيرًا عن الأكل؛ لئلا يحتاج إلى الشرب، فيحتاج إلى دخول الخلاء، فيضيع فيه الزمان.



---

(١) وقد كان هذا مظهرًا من مظاهر القاعدة التي أرساها بعده الإمام الجليل يحيى بن مَعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «إذا كتبتَ فقمِّش -أي: اكتب كل ما تسمع واجمعه- وإذا حدثتَ ففتِّش».





(٩) عُلُوّ هِمَّتهم فِي مُذَاكَرَةِ العِلْمِ وَمُدَارَسَتهِ

قال إبراهيم النخعي: «من سَرَّه أن يحفظ الحديث، فليحدِّثْ به، ولو أن يُحَدِّث به من لا يشتهيه، فإنه إذا فعل ذلك كان كالكتاب في صدره».

وعن ابن شهاب أنه: كان يسمع العلم من عروة وغيره، فيأتي إلى جارية له -وهي نائمة- فيوقظها، فيقول: «اسمعي حدثني فلان كذا وفلان كذا»، فتقول: «ما لي وما لهذا الحديث؟»، فيقول: «قد علمت أنك لا تنتفعين به، ولكن سمعته الآن فأردت أن أستذكره».

فأدم للعلم مدارسةً ... فحياةُ العلمِ مدارستُه

قال زياد بن سعد: ذهبنا مع الزهري إلى أرضه بالشعب، قال: وكان الزهري يجمع الأعاريب فيحدثهم، يريد الحفظ.

وقال يحيى بن معين: «أكتب بيدي ألف ألف حديث، ولو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه».

وكان بعضهم يذاكر العلم مع نفسه فتراه يجلس وحده، ويرفع بالعلم صوته، حتى يحفظه، يقول جعفر بن المراغي: دخلت مقبرة بتُسْتَر، فسمعت صائحًا يصيح: «والأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، والأعمش عن



أبي صالح عن أبي هريرة»، ساعة طويلة، فكنت أطلب الصوت، إلى أن رأيت ابن زهير، وهو يدرس مع نفسه من حفظه حديث الأعمش.

وقال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري عندنا ليلة، قال: وسمعت قرأ القرآن من الليل وهو نائم، ثم قام يصلي، فقضى جزءه من الصلاة، ثم قعد فجعل يقول: «الأعمش، والأعمش، والأعمش، ومنصور، ومنصور، ومنصور، والمغيرة، والمغيرة، والمغيرة»، قال: فقلت له: «يا أبا عبد الله ما هذا؟»، قال: «هذا جزئي من الصلاة، وهذا جزئي من الحديث».

ومكث حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر مع كتاب (التمهيد) ثلاثين سنة ليلًا ونهارًا، يكتبه وينسخه، ويشرحه، ثم يقول:

سمير فؤادي مُذ ثلاثين حِجَّة وصَيْقَلُ ذِهني، والمفرِّج عن همِّي

وحكى القطب اليونيني عن الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه يشتغل في تكرار محفوظة، أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل -على هذا الوجه- ست سنين.

ولقد كان النووي -أول طلبه أيضًا- يقرأ كل يوم اثني عشر درسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا: درسين في (الوسيط)، وثالثًا في (المهذب)، ودرسًا في (الجمع بين الصحيحين)، وخامسًا في (صحيح مسلم)، ودرسًا في (اللمع) لابن جني في النحو، ودرسًا في (إصلاح المنطق) لابن السكيت في اللغة، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه، تارة في (اللمع) لأبي إسحاق، وتارة في



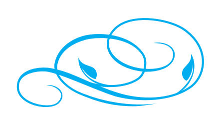




(المنتخب) للفخر الرازي، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين -أي: التوحيد- قال النووي: «وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه».

وطالع الشيخ عبد الله بن محمد بن أبي بكر الحنبلي: «المغني» للموفق ابن قدامة ثلاثًا وعشرين مرة، حتى كاد يستحضره.

وقال العلامة صالح آل الشيخ حفظه الله: «أذكر وصية أوصاني بها أستاذنا الشيخ محمود محمد شاكر أديب مصر وشيخ العربية، وقد قرأت عليه بعض الكتب في الأدب، سألته مرة، قلت له: أوصني بكتاب أقرؤه في اللغة. قال لي: اقرأ لسان العرب. قلت: لسان العرب عشرون مجلدًا، أريد كتابًا آخر. قال: «إذا كان عشرون مجلدًا كثيرًا عليك، فابحث عن شغل آخر غير العلم». وهذه كانت كلمة مؤثرة للغاية، ثم قال: قرأناه على شيخنا محمد سيد المرصفي مرتين، وفي الثالثة توفي، ولم نكمله»[١].





(١) «لقاءات وجلسات» (١/ ٤٧٦).

(١٠) عُلوّ هِمّتِهم
في حِفْظِ القرآن الكريم والعلْمِ الشَّريفِ

قال هشام الكلبي: «حفظت ما لم يحفظه أحد، ونسيت ما لم ينسه أحد، كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتًا، وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن، فحفظته في ثلاثة أيام، ونظرت يومًا في المرآة لآخذ ما دون القبضة، فأخذت ما فوق القُبْضَة».

وذكروا عن عامر الشعبي التابعي المشهور، عالم الكوفة، أنه حفظ القرآن الكريم في أربعين يومًا.

وفي ترجمة ابن شهاب الزهري أنه حفظ القرآن في ثمانين يومًا.

وفي ترجمة أبي وائل شقيق بن سلمة أنه حفظه في شهرين.

وذكر الخطيب البغدادي عن شيخه عبد الله بن اللبان أنه حفظه وله خمس سنين[١].

وممن حفظ القرآن على كِبَرٍ العالم المجاهد السلطان عالمكير بن شاه جان سلطان الهند الذي حكمها خمسين سنة ما بين (١٠٦٨هـ) إلى وفاته سنة (١١١٨هـ)،



(١) وقد ذكر ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمته في علوم الحديث: أنه بلغه عن إبراهيم بن سعيد الجوهري، قال: رأيت صبيًّا ابن أربع سنين قد حُمل إلى المأمون، قد قرأ القرآن العظيم، ونظر في الرأي –الفقه– غير أنه إذا جاع بكى.



فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على سرير الملك، رغم انشغاله بالمُلْكِ، وبجلائل الأعمال وفضائلها.

وقال الشيخ عبد الرحمن الدوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حفظت القرآن الكريم في شهرين، انقطعت عن الناس، وأغلقت عليَّ مكتبي، ولم أخرج منها إلا للصلاة فقط».

وقال أبو زُرعة: «كان أحمدُ بن حنبل يحفظُ ألفَ ألفِ حديثٍ (أي: مليونًا)، فقيل له: ما يُدْريك؟ قال: ذاكرتُه وأخذتُ عليه الأبوابَ».

وقال سليمانُ بن شُعبةَ: «كَتَبوا عن أبي داودَ أربعين ألف حديث، وليس معه كتابٌ».

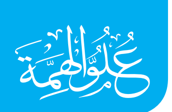
وقال أبو زُرْعَة الرازي: «أحفظُ مائتي ألفِ حديثٍ، كما يحفظُ الإنسانُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وفي المذاكرةِ ثلاثمائةِ ألفِ حديثٍ».

وفي ترجمة الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنه قال: «ما قرأت سوادًا في بياض إلا حفظته». وذكروا أنه حفظ (الموطأ) للإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أربعين يومًا.

وفي ترجمة الأئمة أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وابن جرير الطبري، أنهم كانوا يحفظون ألف ألف حديث. أي بالمكررات وطرق الأحاديث المختلفة، مع آثار الصحابة.

وعن مُطَرِّف قال: كان قتادة إذا سمع الحديث يختطفه اختطافًا، وكان إذا سمع الحديث لم يحفظه أخذه العويل والزَّويل حتى يحفظه، وإن كان الحديث







طويلًا بحيث لا يمكن حفظه في مجلس واحد، حفظ نصفه، ثم عاد في مجلس آخر فحفظ بقيته.

وكان ابن إسحاق من أحفظ الناس. فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر فاستودعها عند ابن إسحاق قال: «احفظها عليَّ فإن نسيتُها كنت قد حفظتها عليَّ».

وقال علي بن خشرم: رأيت وكيعًا، وما رأيت بيده كتابًا قط، إنما هو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ؟ فقال: «ترك المعاصي، ما جربتُ مثلَه للحفظ».

وقال محمد بن أبي حاتم -ورَّاق البخاري-: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان البخاري يختلف معنا إلى السماع وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: «إنك تختلف معنا ولا تكتب، فَلُمناك فيما تصنع، فقال لنا -بعد ستة عشر يومًا-: «إنكما أكثرتما عليَّ، فاعرِضا عليَّ ما كتبتما»، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نُحكِم كتبنا من حفظه، ثم قال: «أترون أني أختلف هدرًا، وأضيع أيامي»، فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد، قالا: فكان أهل المعرفة يغدون خلفه في طلب الحديث -وهو شاب- ويغلبونه على نفسه، ويجلسونه في بعض الطريق، فيجتمع عليه ألوف، أكثرهم ممن يكتب عنه، وكان شابًّا.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعَمَدوا إلى مِئة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد هذا،

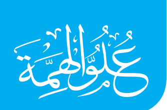


وإسنادَ هذا المتن هذا، ودفعوا إلى كل واحدٍ عشرة أحاديث ليُلقوها على البخاري في المجلس، فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم، فسأل البخاريَّ عن حديث من عَشَرَته، فقال: «لا أعرفه»، وسأله عن آخر، فقال: «لا أعرفه»، وكذلك حتى فرغ من عَشَرَتِهِ.

فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: «الرجلُ فَهِمَ»، ومَنْ كان لا يدرى قضَى على البخاري بالعَجْزِ، ثم انتدب آخر، ففعل كما فعل الأول، والبخاري يقول: «لا أعرفه»، ثم الثالث وإلى تمام العشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على: «لا أعرفه»، فلما علم أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول منهم، فقال: «أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، والثالث كذا إلى العشرة» فَردَّ كل متن إلى إسناده، وفعل بالآخرين مثلَ ذلك، فأقر له الناس بالحفظ، فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: «الكبش النَّطَّاح».

وقال أحمد بن منصور الرمادي: خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادمًا لهما، قال: فلما عدنا إلى الكوفة، قال يحيى بن معين: أريد أن أختبر أبا نُعيم، فقال أحمد: لا تُرِدْ، فالرجل ثقة، قال يحيى: لابدَّ لي. فأخذ ورقةً، فكتب فيها ثلاثين حديثًا، وجعل على رأس كُلِّ عشرة منها حديثًا ليس من حديثه، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم، فخرج، وجلس على دكان طين، وأخذ أحمد بن حنبل، فأجلسه عن يمينه، ويحيى عن يساره، وجلست أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق، فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر، قال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي، اضرب عليه، ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي فاضرب عليه، ثم قرأ العشر الثالث،






ثم قرأ الحديث الثالث، فتغيَّر أبو نعيم، وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى، فقال: «أما هذا -وذراع أحمد بيده- فأورع من أن يعمل مثل هذا، وأما هذا -يُريدُني- فأقل من أن يفعل ذاك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل». وأخرج رجله، فرفس يحيى، فرمى به من الدكان، وقام، فدخل داره، فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمْنَعْكَ وأَقُلْ لك: إنه ثَبْتٌ، قال: «والله، لَرفْسَتُه لي أحبُّ إليَّ من سَفرتي».

قال ابن النجار: سمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأمين، يقول: كنت يومًا مع الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأبي سعد بن السمعاني، نمشي في طلب الحديث ولقاء الشيوخ، فلقينا شيخًا، فاستوقفه ابنُ السمعاني، ليقرأ عليه شيئًا، وطاف على الجزء الذي هو سماعُه في خريطته، فلم يجده، وضاق صدره، فقال له ابن عساكر: «ما الجزء الذي هو سماعه؟»، فقال: كتاب (البعث والنشور) لابن أبي داود، سمعه من أبي نصر الزينبي، فقال له: «لا تحزن»، وقرأه عليه من حفظه أو بعضه، قال ابن النجار: «الشك من شيخنا».

وفي ترجمة الحافظ أبي محمد علي بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه حفظ (الموطأ) و (مدوّنة سحنون) و(الأم) للإمام الشافعي، في مدة وجيزة.

وذكر مؤرّخو طنجة أنه تقدم بها في بعض العصور ثمانون محنَّكًا، كلهم يحفظ «المدوَّنة».

- قال ابن العميد: ما كنت أظن في الدنيا حلاوة كحلاوة الوزارة أو الرياسة التي أنا فيها، حتى شاهدت مذاكرة الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، وكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه، وكان أبو بكر يغلبه بفطنته حتى ارتفعت أصواتهما،



إلى أن قال الجعابي: «عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي»، فقال: «هات»، قال: «حدثنا أبو خليفة أنا سليمان بن أيوب» (وحَدَّثَ بحديث)، فقال الطبراني: «أنا سليمان بن أيوب ومني سمعه أبو خليفة، فاسمعه مني عاليًا»، فخجل الجعابي، فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت أنا الطبراني، وفرحت كفرحه.

وعن محمد بن أحمد الواعظ قال: قام أبو بكر بن الباغندي يصلي، فكبر، ثم قال: «حدثنا محمد بن سليمان لوين»، فسبحنا به، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ورُوِيَ عنه أيضًا قال: قد حُبِّبَ إليَّ الحديث، رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم أقل: «ادع الله لي»، وقلت له: «يا رسول الله! أيهما أثبت في الحديث: منصور أو الأعمش؟»، فقال لي: «منصور، منصور»، وقال ابن كثير: «إنه ربما يسرد بعض الأحاديث بأسانيدها في الصلاة والنوم، وهو لا يشعر».

- وكان يحيى بن هلال بن مطر يجلس كل يوم لإسماع «المدونة» من الظهر إلى الليل، يستوعب قراءتها كل شهر.

وقال الإمام أبو إسحاق الشيرازي صاحب (المهذب): «كنت أعيد كل درس مائة مرة، وإذا كان في المسألة بيت شعر يُستشهد به حفظت القصيدة كلها من أجله».

وكان «إلكيا» يعيد الدرس سبعين مرة.

وقال الحسن بن أبي بكر النيسابوري الفقيه: «لا يحصل الحفظ إلا حتى يُعاد خمسين مرة».





- قال الذهبي: سمعت الشيخ تقي الدين أبا العباس يقول: كان الشيخ ابن مالك يقول: «أُلِين للشيخ المجد الفقه، كما ألين لداودَ الحديدُ»، قال الشيخ: وكانت في جَدنا حِدَّة، اجتمع ببعض الشيوخ، وأورد عليه مسألة، فقال: «الجواب عنها من ستين وجهًا، الأول كذا، والثاني كذا، وسردها إلى آخرها، وقد رضينا عنك بإعادة أجوبة الجميع»، فخضع له، وابتهر.

وقال الشيخ تقي الدين: وجدناه عجيبًا في سرد المتون وحفظ المذاهب بلا كلفة، سافر مع ابن عمه إلى العراق ليخدمه، وله ثلاث عشرة سنة، فكان يبيت عنده، ويسمعه يكرر مسائل الخلاف، فيحفظ المسألة.

أما الحافظ ابن حجر الإمام الكبير وخاتمة الحفاظ، فحكى عن نفسه أنه كان يمر على الصحيفة المكتوبة مرتين فيحفظها.

وكان الشيخ أحمد بن الحسن بن أنو شروان الرومي الحنفي (٦٥٢هـ-٧٤٥هـ) «يحفظ في كل يوم من أيام الدرس ثلاث مئة سطر، أقام فوق السبعين سنة يُدَرِّس بدمشق».

وعكف أبو صالح أيوب بن سليمان على كتاب (العَروض) حتى حفظه، فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكِبَر، فقال: «حضرت قومًا يتكلمون فيه، فأخذني ذلٌّ في نفسي أن يكون باب من العلم لا أتكلم فيه».

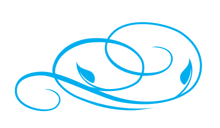
وقال أبو الحسن العروضي: كنت أنا وابن الأنباري عند الراضي بالله، ففي يوم من الأيام سألته جارية عن تفسير شيء من الرؤيا، فقال: أنا حاقن، ومضى. فلما كان من الغد، عاد، وقد صار معبرًا للرؤيا. مضى من يومه، فدرس كتاب الكرماني في «التعبير» فجاء.






وشرع الشيخ محمد بن علي بن عبد الواحد الدَّكَّالي ثم المصري أبو أمامة النقاش في إلقاء التفسير في الجامع الأزهر في شهر رمضان فأكمله، ثم بلغه أن بعض الناس استقصر علمه، فشرع في إملاء تفسير على الفاتحة، فأقام فيه مدة طويلة، ثم شرع في كتاب التفسير، والتزم ألَّا ينقل فيه حرفًا عن كتاب تفسير أحدٍ ممن تقدمه.

ونشأ الشيخ محمد كامل بن أحمد القصَّاب (ت١٣٧٣هـ) منصرفًا إلى الفتوة، وعجب أهل «العُقيبة» وهو من سكانها بدمشق، إذ رأوه يدخل مسجدها فجأة، ويحتل غرفة فيه، وينقطع إلى العلم، وأمضى في اعتكافه أعوامًا تفقه فيها، وبرع في علوم العربية والقراءات، وخرج إنسانًا آخر.




(١١) شِدَّة محبتهِم لِلكتبِ

كان العلماء يحرصون على الكتب، ويوثقون علاقتهم بها، فيدمنون مطالعتها باعتبارها خزائن العلم وكنوزه، وإن كان مجد التاجر في كيسه، فإن مجد العالم في كراريسه، والعالم يبيع ثوبه، ولا يبيع كتبه.

قال الطبراني في معجمه الأوسط: «هذا الكتاب روحي».

وقال أحمد بن سلمة النيسابوري: تزوج إسحاق بن راهويه بامرأةِ رجلٍ كان عنده كتب الشافعي مات، لم يتزوج بها إلا للكتب، فلما قرأ كتبه قال: «ما كنت أعلم أن الشافعي في المحل، ولو علمت لم أفارقه».

قال المبرد: «ما رأيت أحرصَ على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي.

- أما الجاحظ: فإنه كان إذا وقع في يده كتاب، قرأه من أوله إلى آخره، أيَّ كتاب كان.

- وأما الفتح: فكان يحمل الكتاب في خُفِّه، فإذا قام من بين يدي المتوكل ليبول أو ليصلي، أخرج الكتاب فنظر فيه، وهو يمشي، حتى يبلغ الموضع الذي يريد، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه.



- وأما إسماعيل بن إسحاق: فإني ما دخلت عليه قط إلا وفي يده كتاب ينظر فيه، أو يقلب الكتب لطلب كتاب ينظر فيه، أو ينفض الكتب».

وكان أبو بكر الخياط النحوي يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جُرف، أو خبطته دابة.

وقال بعض الوزراء: «يا غلام! ائتني بأنس الخلوة ومجمع السلوة»، فظن جلساؤه أنه يستدعي شرابًا، فأتاه بسَفَط[(١)] فيه كتب.

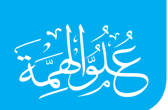
وقد رُوِيَ أن عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: كان لا يجالس الناس، وينزل المقبرة، وكان لا يكاد يُرى إلا في يده دفتر، فسئل عن ذلك، فقال: «لم أر قط أوعظَ من قبر، ولا أمتع من دفتر، ولا أسلم من وِحدة».

وسئل الإمام محمد بن إسماعيل البخاري عن دواء للحفظ، فقال: «إدمان النظر في الكتب».



وقال أحمد بن عمران: كنت عند أبي أيوب أحمد بن محمد بن شجاع، وقد تخلف في منزله، فبعث غلامًا من غلمانه إلى أبي عبد الله الأعرابي صاحب الغريب يسأله المجيء إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: «عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أَرَبي معهم أتيت»، قال الغلام: «وما رأيت عنده أحدًا، إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرة، وفي هذا مرة»، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبو أيوب:

(١) **السَّفَط**: وعاء من قضبان الشجر ونحوها، توضع فيه الأشياء، كالفاكهة ونحوها.





«يا أبا عبد الله سبحان الله العظيم! تخلفتَ عنا، وحرمتنا الأنس بك، ولقد قال لي الغلام: إنه ما رأى عندك أحدًا، وقلت أنت: معي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربي معهم أتيت»، فقال ابن الأعرابي:

لنا جلساءُ ما نَمَلُّ حديثَهم	ألبَّاءُ مأمونون غَيْبًا ومَشْهدا
يُفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى	وعقلًا وتأديبًا ورأيًا مُسَدَّدا
بلا فتنةٍ تُخشى ولا سوءِ عشرةٍ	ولا نتقي منهم لسانًا ولا يدا
فإن قلتَ أمواتٌ فما أنت كاذبٌ	وإن قلتَ أحياءٌ فلستَ مُفْنِدا

ومن الطرائف: أن الجاحظ كان يكتري الدكاكين من الورَّاقين، ويبيت فيها للنظر في الكتب، وكان موته بسبب سقوط مجلدات العلم عليه.

وقال الحافظ ابن حجر: «كان الزركشي منقطعًا في منزله، لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وكان يطالع في حانوت الكتبي طول نهاره، ومعه أوراق يعلق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه».

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسبيل طالب الكمال في طلب العلم: الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة.. فاللهَ اللهَ وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم، كما قيل:

فاتني أن أرى الديارَ بطَرفي	فلعلي أرى الديارَ بسمعي

وإني أخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأني وقعت على كنز.





ولقد نظرت في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدى، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشاب، وكانت أحمالًا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب.

فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعبادتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع.

فصرت استزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب، ولله الحمد».

ومع ما في الكتب من المنافع العميمة والمفاخر العظيمة، فهي أكرم مال، وأنفس جمال، والكتاب آمَنُ جليس، وأَسَرُّ أنيس، وأسلم نديم، وأفصح عليم.

ولذلك حرص العلماء على جمع الكتب والنظر فيها:

فهذا ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن ابن القيم في كتابه (الدرر الكامنة): «وكان مُغْرًى بجمع الكتب فحَصَّل منها ما لا يحصى، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلًا سوى ما اصطفَوْه منها لأنفسهم».

وخلَّف «يحيى بن معين» من الكتب مائة قِمَطْر وأربعة عشر قمطرًا وأربعة حباب شرابية مملوءة كتبًا.

وقال ابن حجر عن ابن الملقن: «وكان يقتني الكتب، بلغني أنه حضر في الطاعون العام بيعَ كتبِ شخصٍ من المحدثين، فكان وصيه لا يبيع إلا بالنقد الحاضر، قال: فتوجهت إلى منزلي، فأخذت كيسًا من الدراهم، ودخلت الحلقة



فصببته فصرت لا أزيد في الكتاب شيئًا إلا قال: بع له، فكان فيما اشتريت (مسند الإمام أحمد) بثلاثين درهمًا...».

والقاضي عبد الرحيم بن علي اللخمي قال عنه الذهبي في (سير أعلام النبلاء): «وبلغنا أن كتبه التي ملكها بلغت مئة ألف مجلد، وكان يُحَصِّلها من سائر البلاد».

ومحمد بن عبد الله السلمي المرسي الأندلسي «كتب وقرأ وجمع من الكتب النفيسة كثيرًا، ومهما فُتِحَ به عليه صرفه في ثمن الكتب...».

وقال الأُدْفُوي: حكى لي شيخنا قَاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن جماعة أنه كان عنده أمين الحكم بالقاهرة، وكان في اجتهادٍ في تحصيل مال اليتيم، قال شيخنا فأُحْضِرَ عندي مرة الشيخ «تقي الدين ابن دقيق العيد» وادَّعى بدينٍ عليه للأيتام، فتوسطتُ بينهما، وقررت معه أن تكون جامكية[1] المدرسة الكاملية -أي: ما يأخذه من أجر مقابل تدريسه فيها- للدَّيْن، وتُترك للشيخ جامكية الفاضلية لنفقاته، ثم قال له قاضي القضاة: «أنا أشح عليك بسبب الاستدانة»، فقال ابن دقيق العيد: «ما يوقعني في ذلك إلا محبةُ الكتب».

وقالت زوجة الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله إن هذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر».

وقال سليمان العامري:

وقائلةٍ أنفقتَ في الكتب ما حَوَتْ	يمينُك من مال فقلتُ: دَعيني
لعلي أرى فيها كتابًا يدلني	لأخذ كتابي آمنًا بيميني

(١) **الجامكية**: مُرتب موظفي الدولة.





قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأعرف من أصابه مرض من صُداع وحمى، وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غُلِبَ، وضعه، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك، فقال: «إن هذا لا يحل لك، فإنك تعين على نفسك، وتكون سببًا لفوات مطلوبك».

وقال -أيضًا-: وحدثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يَزيد المرض، فقلت له: «لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك: أليست النفس إذا فَرِحَتْ وسُرَّتْ قويت الطبيعة، فدفعت المرض؟» فقال: بلى، فقلت له: «فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة فأجد راحة». فقال: «هذا خارج عن علاجنا»، أو كما قال.

ودخل الطبيب على أبي بكر الأنباري في مرض موته، فنظر إلى مائه -أي: بوله- فقال:

«قد كنت تفعل شيئًا لا يفعله أحدٌ»، ثم خرج، فقال: «ما يجيء منه شيء»، قال له: «ما الذي كنت تفعل؟»، قال الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنت أُعيد كل أسبوع عشرة آلاف ورقة».

وقال الدكتور محمد الصباغ حَفِظَهُ ٱللَّهُ يصف حال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان يُقبل بكُلِّيته على الكتاب كأنه طالب سيُمتحن فيه غدًا، فإذا قاطعه سائل، فعينٌ في الكتاب، وعين على السائل».

وقال أحد تلاميذه: «كان يقرأ في المكتبة الظاهرية خمس عشرة ساعة على الأقل كل يوم».





وقال الشيخ «راغب الطباخ» رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان علامة حلب الشيخ «أحمد الحجار» رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحب اقتناء الكتب، حتى سمعنا أنه رأى كتابًا يُباع، ولم يكن معه دراهم، وكان عليه ثياب، فنزع بعضَها وباعه، واشترى الكتاب في الحال.

وقال بعضهم:

إنِّي وحَقِّ مُنَزِّلِ الكُتْبِ ... مِن شَغَفي بالكُتْبِ لا التِّرْبِ

أودُّ بعدَ الموتِ دَفْني بما ... يَعْلو على كُتْبي من التُّرْبِ

ودخل الشيخ علاء الدين ابن النفيس مرة إلى الحَمَّام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مَسْلَخ الحمام[1]، واستدعى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النَّبْض إلى أن أنهاها، ثم عادَ ودخل الحَمَّام وكمَّل تغسيله».

وقال الأستاذ محمد خير رمضان حَفِظَهُ ٱللَّهُ:

«ربما لا يُعرف في تاريخ الكتب كتاب شغل مؤلِّفَه كما شغل كتابُ (العصا) أسامةَ ابن منقذ[2]! فقد ظل متعلقًا بموضوع كتابه هذا نحوًا من ستين عامًا! وقد أشار في مقدمة كتابه إلى السبب الذي حدا به إلى تأليفه، فيذكر أنه سمع

(١) وهو موضع نزع الثياب.

(٢) هو أسامة بن مرشد، ابن منقذ الكناني الكلبي، مؤيد الدولة، أمير، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر بقرب حماة، وهو من العلماء الشجعان، له تصانيف في الأدب والتاريخ، وُلِد في شيزر، وسكن دمشق، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠هـ، وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين، وعاد إلى دمشق، ثم برحها إلى حصن كيفا، فأقام إلى أن ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فدعاه السلطان إليه، فأجابه وقد تجاوز الثمانين، فمات في دمشق سنة (٥٨٤هـ).

من والده وهو صغير أنه توجه إلى خدمة السلطان ملك شاه بأصبهان، فزار الشيخَ العالم أبا يوسف القزويني عندما اجتاز ببغداد، وكان معه الشاعر النحوي الكاتب علي بن البوين، ويتناول الأخير كتابًا كان ضمن مجموعة من الكتب حول ذلك العالم، فنهره وقال له: «يدخل الجاهل على الإنسان فينبسط، ويقرأ ما عنده من الكتب، أي أني من أهل العلم...» فيُلقي ابن البوين الكتاب من يده، وكان الكتاب «كتاب العصا» فاشتدت عند أسامة الرغبة في اقتناء هذا الكتاب، فظل ستين عامًا من عمره يبحث عنه في كل مكان، ويسأل عنه الناس، فلم يُوفَّق إلى الاهتداء إليه، ولم يقف على من وقع بصره عليه، فدفعه اليأسُ إلى تأليفه، قال: «فكلما تعذَّر وجودُه ازددتُ حرصًا على طلبه، إلى أن حداني اليأس منه على أن جمعت هذا الكتاب».

وقال في آخر المقدمة: «وكتابي هذا وإن كان خاليًا من العلوم التي تتجمل التصانيف بها، ويرغب أولو الفضل في طلبها، فما يخلو من أخبار وأشعار تميل النفوس إليها، ويحسن موقعها ممن وقف عليها. وقد افتتحته بذكر عصا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم ذِكْرِ عصا سليمان ابن داود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، ثم أفضت في ذكر الأخبار والأشعار التي يأتي فيها ذكر العصا. ولا أدَّعي أنني أتيت على ذكر العصا فيما جمعته، وإنما أوردت منه ما حفظته وسمعته. وبالله عَزَّوَجَلَّ أعوذ واعتصم من أن تكتب يدي ما يُؤثم ويَصِم، ومن رحمته تعالى أطلب الصفح والغفران عن اشتغالي بالتُّرَّهات عن تلاوة القرآن...»[١].



(١) «دكانة الكتاب» (ص١٩٣، ١٩٤)، والترهات: توافه الأمور.

ومن نصائح العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -نفع الله به-: «أنه من يقرأ، لابد أن يجعل معه ما يسميه الأولون كُنَّاشَة، كشكولًا، ويسميه المتأخرون دفترًا، أو مذكرة، وهي مذكرة تُقتنص فيها الفوائد؛ لأن ما تقرأ سيبقى معك في ذهنك بعضُه، فإذا لم تقيده، ذهب؛ فالتقييد من أهم المهمات لمن يقرأ في أي فن وفي أي علم، دائمًا تصحب معك ما تنقل فيه ما أعجبك من قراءة الكتاب، ويحتاج منك إلى عشق كعشق الجاحظ له، أو كعشق ابن الملقن، أو كعشق السيوطي، أو كعشق ياقوت الحموي، أو أشبه. أما الجاحظ، فإنه مات بين الكتب، والسيوطي ولدته أمه في مكتبة، ومات في المكتبة، وأما ابن الملقن، فإنه وابن لَهيعة لما احترقت مكتبتها أصابهما الاختلاط والجنون، وأما ياقوت الحموي، فإنه من غَيرته على كتبه وعدم استحقاق البعض لها دفنها، أو أحرقها، أما المتساهلون بالكتب، فهؤلاء لا شأن لهم بالعلم أو لا محبة عندهم لوعاء العلم، وهو الكتاب»(١).



(١) «لقاءات وجلسات» (١/ ٤٧٩).

(١٢) عُلُوّ همَّتِهِم فَي نَشْرِ العِلْمِ وَتَعلِيمه

عن عمرو بن سواد قال: قال لي الشافعي: «وُلِدتُ بعسقلان، فلما أتت عليَّ سنتان حملتني أمي إلى مكة، وكانت نَهْمَتي في شيئين: الرمي، وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى إني لأصيب من عشرةٍ عشرةً»، وسَكَتَ عن العلم، فقلت: «أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي».

وبرع «الشافعي» في الشعر واللغة وأيام العرب، فنقل القاضي ابن خَلِّكان أن الأصمعي (١٢٢-٢١٦هـ) على جلالة قدره في هذه العلوم قرأ على الشافعي أشعار الهذليين، وذكر أن أحد علماء الأنساب في العراق تحدث مع الشافعي في هذا العلم، فوجده من كبار العلماء فيه، فلما طال بينهما الحديث، قال له الشافعي: «مِثلي ومثلك لا يليق بهما أن يتحدثا عن أنساب الرجال من قِبَل آبائهم، فتعال نتحدث عن أنسابهم من قبل أمهاتهم»، ولقيه طلبة الطب في الفسطاط، فوجدوا عنده من المعرفة في علومهم ما أطمعهم في أن يخصص لهم درسًا يأخذون فيه عنه علوم الطب، فأشار إلى الفقهاء واقفين ينتظرونه في ظل جدار جامع عمرو بن العاص فقال: «وهل ترك لي هؤلاء من الوقتَ ما أتفرغ به لكم؟».

وقال الربيع بن سليمان المرادي (١٧٤-٢٧٠هـ)، وهو راوي كتب الشافعي، ومن أخص أصحابه، وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون: لما قدم الشافعي الفسطاط كان يجالسه أرباب الخلق -عبد الله بن الحكم ونظراؤه-



وكان حسن الوجه والخُلُق، فحُبِّبَ إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان، وكان يجلس في حلقته إذا صلى الصبح بجامع عمرو، فيجيئه أهل القرآن ويسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث، فيسألونه عن معانيه وتفسيره؛ فإذا ارتفعت الشمس قاموا، واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة؛ فإذا ارتفع النهار تفرقوا، وجاء أهل العربية والعَروض والشعر والنحو حتى يقترب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله في الفسطاط.

وقال الربيع: أقام الشافعي ها هنا في الفسطاط أربع سنين فأملى ألفًا وخمسين ورقة، وخرج كتاب (الأم) ألفي ورقة، وكتاب (السنن) وأشياء كثيرة، كلها في أربع سنين، وكان مع ذلك عليلًا شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب، حتى يملأ سراويله وخفه (يعني من البواسير).

وكان «سفيان الثوري» يقول: «لو لم يأتني أصحاب الحديث، لأتيتهم في بيوتهم»، وقال: «لو أني أعلم أن أحدًا يطلب الحديث بنية، لأتيتُه في بيته حتى أحدثه».

- وأوصى ابن القاسم عيسى بن دينار، فقال: «عليك بأعظم مدائن الأندلس فانزلها، ولا تنزل منزلًا يضيع ما حملتَ من علم».

وهذه همة الإمام الهُمام ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تتمدد، وتتمطى، وتتسامى، فانظر الآفاق التي بلغتها، إذ يقول:

مُناايَ من الدنيا علومٌ أبثُّها ... وأنشرها في كل بادٍ وحاضرِ

دعاءٌ إلى القرآنِ والسننِ التي ... تناسى رجالٌ ذِكْرَها في المحاضرِ

وألزمُ أطرافَ الثغور مجاهدًا ... إذا هَيْعَةٌ ثارت فأولُ نافرِ

لألقَى حِمامي مُقْبِلًا غَيرَ مدبرٍ ... بسُمْرِ العوالي والدقاق البواتر

كفاحًا مع الكفارِ في حَوْمَةِ الوغَى ... وأكرمُ موتٍ للفتى قتلُ كافرِ

فيا ربِّ لا تجعل حِمامي بغيرها ... ولا تجعلَنِّي من قَطينِ المقابرِ

وكان العلامة ابن العطار تلميذ الإمام النووي قد أصيب بالفالِج سنة (٧٠١هـ)، وكان يحمل في مِحَفَّة، ويطاف به مجالس العلم ليُلقيَ على الطلاب دروسَهم.

- وكان العلامة الصالح محمد بن محمود التنبكتيُّ المالكي المعروف بـ«يَغْبُع»[(١)] (ت:١٠٠٢هـ) عظيم الصبر على تعليم الطلاب وإيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا ضجر حتى يمل حاضروه وهو لا يبالي، حتى سمعت بعض أصحابنا يقول: «أظن هذا الفقيه شرب ماء زمزم لئلا يمل من الإقراء»، تعجبًا من صبره.

(١) قال فضل الله المجيُّ في «خلاصة الأثر»: وعُرف هذا العالم الرباني بمحبة العلم وملازمة تعليمه وصرف أوقاته فيه ومحبة أهله والتواضع التام وبذل نفائس الكتب العزيزة الغريبة لهم، ولا يفتش بعد ذلك عنها كائنًا ما كان من جميع الفنون، فضاع له بذلك جملة من كتبه -نفعه الله تعالى بذلك- وربما يأتي لبابه طالب يطلب كتابًا فيعطيه له من غير معرفة، فكان العجب العجاب في ذلك إيثارًا لوجهه تعالى مع محبته للكتب وتحصيلها شراءًا ونسخًا، وقد جئته يومًا أطلب منه شيئًا من كتب النحو، ففتش في خزانته فأعطاني كل ما ظفر به منها.
كما اشتهر بملازمة العبادة والتجافي عن رديء الأخلاق وإضمار الخير لكل البرية حتى الظلمة مقبلًا على ما يعنيه متجنبًا الخوض في الفضول. ارتدى من العفة والمسكنة أزين رداء، وأخذ بيده من النزاهة أقوى لواء، مع سكينة ووقار وحسن أخلاق وحياء، فأحبته القلوب كافة وأثنوا عليه بلسان واحد فلا ترى إلا محبًّا مادحًا ومثنيًا بالخير صادقًا، انظر: «المختار المصون من أعلام القرون» (٢/ ١١٣٨، ١١٣٩).



- وكان الإمام الشوكاني في أثناء دراسته يُلقي ما يأخذه عن مشايخه إلى تلاميذه الذين اجتمعوا عليه، وهو لا يزال في دور الطلب الأول، ولذلك كانت دروسه تبلغ في اليوم والليلة ثلاثة عشر درسًا، منها ما يأخذه عن أساتذته، ومنها ما يلقيه على تلاميذه.

- وكان العلامة طاهر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينشر كتب ابن تيمية وابن القيم وأبي شامة المقدسي وأمثالِهم ممن لهم اليد الطولى في مكافحة البدع، وينسخها، ويبيعها بواسطة السماسرة في سوق الوراقين بثمن زهيد بَخْس، ثم يذيع أن الكتاب الفلاني الذي هو من النفائس والمضنون به على غير أهله قد بيع بثمن بخس منذ يومين حتى يشتهر، مؤملًا أن يقع في أيدي مناوئيه بالرأي، فيطلعوا عليه، ويهتدوا بنبراسه، ولو سلك غير هذا المسلك لأخفق مسعاه، لأن أغلب معاصريه كانوا ينفرون من كتب ابن تيمية، ومن كان على شاكلته، ويصفون بالابتداع من يُصَرِّح بإطرائها أو الدعوة إليها.

- وكان العلامة عبد الحميد بن باديس يلقي في اليوم الواحد خمسة عشر درسًا.





(١٣) عُلوّ هِمَّتِهِم في التَّصنِيفِ[١]

قال الخطيب البغدادي: «سمعت علي بن عبيد الله بن عبد الغفار اللغوى، يحكي: أن محمد بن جرير الطبري -المتوفى سنة ٣١٠هـ عن ثلاث وثمانين سنة-، مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة».

أي: أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب ما يقارب (٥٨٤٠٠٠) أربعة وثمانين وخمسمائة ألف ورقة!!

وابتداءً يقف المرء حائرًا مشدوهًا أمام هذا الرقم، الذي لا يُعْرَفُ لِعَالِمٍ في تاريخ البشرية، بيد أنه إذا علم ما كان عليه هذا الإمام الجليل من هِمةٍ عالية، وعزيمةٍ ماضية، وحرصٍ على لحظات العمر حتى في ساعة الاحتضار، وإدراكٍ لشرف الرسالة التي يحمل، مع فسحة في العمر، والبركة فيه، لما كان عليه من الإخلاص، وصدق النية، خفَّت حيرته، وأصبح أقرب إلى فهم حقيقة هذه الغزارة في الإنتاج العلمي.



يقول الأستاذ محمد كرد علي في ترجمة ابن جرير الطبري: «وما أُثِرَ عنه أنه أضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة».

---

(١) هذا الفصل مختصر من كتاب «سوانح وتأملات في قيمة الزمن» (ص٢٦-٣٤).





ومصنفات إمامنا الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الذروة: جِدَّةً ومنهجًا واتساعًا وعمقًا ونضجًا، مع اختلاف الفنون التي تناولها على كثرتها، حتى آلت إليه إمامة المؤرخين والمفسرين، إلى جانب كونه صاحب مذهب فقهي يختص به.

ولإدراك المنزلة التي نزلتها مصنفاته، أذكر ما قاله: أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفرائيني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب (تفسير محمد ابن جرير) لم يكن ذلك كثيرًا».

وتفسيره المشار إليه آنفًا، والمطبوع في ثلاثين جزءًا، على ضخامته ونفاسته وريادته، أتى على غير ما كان يؤمِّل سَعَة.

يروي الخطيب البغدادي: أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: «أتنشطون لتفسير القرآن؟» قالوا: «كم يكون قَدْره؟»، فقال: «ثلاثون ألفَ ورقة»، فقالوا: «هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه!» فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة.

ثم قال: «هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟»، قالوا: «كم قَدْره؟»، فذكر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: «إنَّا لله! ماتت الهمم!»، ثم أملاه على نحو قدر التفسير.

لـه هِـمَـمٌ لا مُـنـتـهـى لكبارِها وهمتُه الصغرى أجلُّ مِنَ الدهرِ

وألفَّ الإمام البيهقي ألفَ جزء، كلُّها تآليف محرَّرة نادرةُ المثال، كثيرة الفوائد، وأقام يصوم ثلاثين سنة.

أما الإمام الحافظ المؤرخ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد ألف (تاريخ دمشق الكبير) وهو من أجلِّ كتبه، وهو في نحو ثمانين مجلدًا، ذكر فيه





تراجم الصحابة والتابعين وتابع التابعين والأعيان والرواة والحكام والأمراء على نسق (تاريخ بغداد) للخطيب. قال ابن خلكان في (الوفيات): قال لي شيخنا الحافظ زكي الدين عبد العظيم، وقد جرى ذكر هذا التاريخ، وطال الحديث في أمره: «ما أظن هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع الإنسان مثل هذا الكتاب».

وبلغ الإمام أبو الوفاء علي بن عَقيل الحنبلي البغدادي -المتوفى سنة ٥١٣هـ، الذي يقول فيه الإمام ابن تيمية: «إنه من أذكياء العالم»-، في محافظته على الزمن مَبْلَغًا أثمر أكبرَ كتاب عُرِفَ في الدنيا لِعَالِمٍ، هو كتاب (الفنون) في ثمانمائة مجلدة.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمته: «وأكبر تصانيفه كتاب (الفنون)، وهو كتاب كبير جدًّا، فيه فوائد كثيرة جليلة في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأصلين، والنحو، واللغة، والشعر، والتاريخ، والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره، ونتائج فكره قَيَّدها فيه».

ويقول ابن الجوزي: «وكان له الخاطر العاطر والبحث عن الغوامض والدقائق، وجعل كتابه المسمى بـ (الفنون) مناطًا لخواطره وواقعاته، ومَن تأمل واقعاته فيه، عرف غَوْرَ الرجل».

وقال سِبط ابن الجوزي: «واختصر منه جَدِّي عشر مجلدات فَرَّقَها في تصانيفه، وقد طالعت منه في بغداد في وقف المأمونية نحوًا من سبعين، وفيه حكايات ومناظرات، وغرائب وعجائب وأشعار».







وقال عبد الرزاق الرسعني في (تفسيره) قال لي أبو البقاء اللغوي: سمعت الشيخ أبا حكيم النهرواني يقول: وقفت على السِّفْر الرابع بعد الثلاثمائة من كتاب (الفنون).

وقال الحافظ الذهبي: «وعَلَّقَ كتاب (الفنون) وهو أزيد من أربعمائة مجلد، حشد فيه كُلَّ ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة، وما يَسْنَحُ له من الدقائق والغوامض وما يسمعُهُ من العجائب والحوادث».

وقال أيضًا في (تاريخه): «لم يصنَّف في الدنيا أكبرُ من هذا الكتاب، حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربعمائة، قلت -القائل ابن رجب-: وأخبرني أبو حفص عمر ابن علي القزويني ببغداد قال: سمعت بعض مشايخنا يقول: هو ثمانمائة مجلدة».

وصنف الإمام أبو حاتم الرازي كتابه (المسند) في ألف جزء.

وهذا هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي تلميذ ابن عقيل -المتوفى سنة (٥٩٧)هـ-، أحد أعلام الأئمة الذين يُقتدَى بهم في حرصهم على الزمن وتَحَيُّشِهِم عن كل ما يضيعه، مما أثمر هذا الذي يقوله سِبْطه أبو المظفر عنه:

«وسمعته يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعيَّ هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يديَّ مائة ألف، وأسلم على يديَّ عشرون ألف يهودي ونصراني».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو قلت إني قد طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعدُ في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سِيَرِ القوم، وقدر هممهم،





وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناسُ فيه، وأحتقر همم الطلاب، ولله الحمد».

فإذا كان قدر ما قرأ وهو في الطلب (عشرين ألف) مجلدة، واحتسبنا أن صفحات المجلد الواحد في المتوسط (٣٠٠) صفحة، كان مقدار ما قرأ (٦٠٠٠٠٠٠) ستة ملايين صفحة!!

وإذا كان ما كتب بأصبعيه (ألفي) مجلدة، كان مقدار ما كتب (٦٠٠٠٠٠) ستمائة ألف صفحة!!

هذا ما قرأ ونسخ، فما هو مقدار ما كتب وصنَّف؟

يقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أجوبته المصرية): «كان الشيخ أبو الفرج مفتيًا كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك له ما لم أره».

ويقول الحافظ الذهبي:

«وما علمت أحدًا من العلماء صنَّف ما صنَّف هذا الرجل».

ولم يَدَعْ ابنُ الجوزي فنًّا من الفنون إلا وصنف فيه، منها ما هو عشرون مجلدًا، ومنها ما هو في رسالة صغيرة.

فكيف اجتمع له هذا كلُّه!

يقول الموفق عبد اللطيف -فيما نقله عنه الذهبي- إنه كان «لا يُضيِّعُ من زمانه شيئًا».



ويقول ابن الجوزي نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويُجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني، ويتخلله غِيبة.

وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المَزُورُ وتشوَّق إليه، واستوحش من الوِحدة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلبت قصَّرت في الكلام لأتعجل الفراق.

ثم أعددت أعمالًا لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من المستعَدِّ للقائهم قطعَ الكاغِد[1]، وبريَ الأقلام، وحزم الدفاتر، فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم لئلا يضيع شيء من وقتي».

وصنف شيخ الإسلام ابن تيميه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يربو على أربعمائة مصنف من كنوز العلم، ودقائقه.



---

(١) **الكاغِد** بفتح الغين وكسرها: القِرطاس، أي: الورق الصالح للكتابة أو اللَّف.

وقال ابن القيم: وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية، في سَننه، وكلامه، وإقدامه، وكتابته أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمُعةٍ وأكثر. اهـ.

وعلى سَنن من سبق، مشى شيخ الطِّب في زمانه: ابن النفيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي يقول عنه الإمام التاج السُّبكي: «وأما الطِّب فلم يكن على وجه الأرض مثله، قيل: ولا جاءَ بعد ابن سينا مثله، قالوا: وكان في العلاج أعظمَ من ابن سينا».

هذا الطبيب الرائد صنَّف كتابًا في الطِّب سماه (الشامل) يقول فيه التاج السُّبْكي: «قيل: لو تَمَّ لكان ثلاثمائة مجلَّدة، تَمَّ منه ثمانون مجلَّدة، وكان فيما يُذْكَرُ، يُمْلي تصانيفه من ذهنه».

فكيف تم له ذلك؟

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ «إذا أراد التصنيف، تُوضَع له الأقلام مبريةً، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السَّيل إذا انحدر، فإذا كَلَّ القلم وحَفِي، رمى به وتناول غيره، لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم...

- أما العالم الزاهد القانت أبو الحسن علي بن حسين بن عروة الحنبلي المعروف بابن زكنون (ت:٨٣٧هـ) فقد نشأ في ابتدائه جمالًا، ثم أعرض عن ذلك، وحفظ القرآن، وتفقه، وبرع، وانقطع إلى الله تعالى في مسجد القدم بآخر أرض القبيبات ظاهر دمشق يؤدب الأطفال احتسابًا مع اعتنائه بتحصيل نفائس الكتب وبالجمع.





وأعظم ما أنجز أنه رتب المسند على أبواب البخاري وسماه «الكواكب الدراري في ترتيب مسند الإمام أحمد على أبواب البخاريّ» وشرحه في مائة وعشرين مجلدًا طريقته فيه أنه إذا جاء لحديث الإفك مثلًا يأخذ نسخة من شرحه للقاضي عياض فيضعها بتمامها، وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم أو شيخه ابن تيمية أو غيرهما وضعه بتمامه ويستوفي ذاك الباب من المغني لابن قدامة ونحوه.

وكان السيوطي يلقب «ابن الكتب»، طلب أبوه إلى أمه أن تأتيه بكتاب من المكتبة فأجاءها المخاض فيها، فولدته بين الكتب، فلذلك لقب، ولقد صدق عليه ذلك اللقب حتى صار أبا الكتب، فقد وصلت مصنفاته نحو ستمائة غير ما رجع عنه ومحاه.





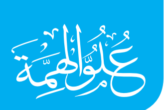


بم يُقاس الشباب؟

كتب الأستاذ أحمد أمين (ت ١٣٧٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقالًا نفيسًا حول بيان أن السن ليست مقياسًا للشباب، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليست السن مقياس الشباب، وإنما أحسن أحوالها أن تكون علامة الشباب، وقد تتخلف العلامة؛ كحكمنا على الرجل بالعلم لأن لديه شهادة الليسانس في الآداب أو الليسانس في الحقوق، وقد يكون معه الليسانس أو الدكتوراة وليس بعالم، كما يكون في سن العشرين وليس بشاب، إن الشباب أو الشيخوخة معنى لا مادة، وقد علمتنا قوانين الحياة أن المادة تقاس بمادة، والمعنى يقاس بمعنى، فنحن نقيس الحجرة المادية بالمتر المادي، ونكيل القمح المادي بكيلة مادية، ونزن التفاح المادي بِرِطْل مادي؛ ولكن من السخف بمكان أن نقيس الفضيلة أو الجمال أو القبح بمتر أو رِطل أو قَدَح، فلِمَ نقيس الشباب وهو معنًى بالسن وهي مادة؟!

بل لو تعمقنا أكثر من ذلك لوجدنا أن حسن الرُّواء وجمال المنظر ومرح النشاط ليست هي المقياس الصحيح للشباب، إنما الشباب مزاج، هو محصِّل لمجموع قوى نفسية، هو حاصلُ جمعٍ لصفات خُلُقية، إن شئت فقل: هو الإرادة القوية تعزم العزم لا رجوع فيه، وتُزْمِعُ الأمر لا محيد عنه، وترمي إلى الغرض لا سبيل إلا إليه، تعترض الصعاب فلا تأبه لها، وتخِر السماء على الأرض فلا تتحوَّل عنه، قد تعترف بأن هناك عقبة، ولكن لا تعترف بعقبة كَؤود، وقد تُقِرُّ بصعوبة







الأمر، ولكن لا تقر باستحالته، والشباب هو الخيال الخصب، الواسع الأفق، المترامي الأطراف، الذي يرسم الأمل، ويبعث على الطموح، ويحمل المرء على أن يتطلب لنفسه ولأمته حياةً خيرًا من حياتها الواقعية، هذا المزاج الذي يتجمع من إرادة قوية، وعاطفة حية، وخيال خِصْب هو الشباب، وبمقدار قوتها وتلاؤمها تكون قوة الشباب، وبمقدار نقصها تكون الشيخوخة؛ فالشباب موجب، والشيخوخة سالبة، والشباب إقدام، والشيخوخة إحجام، والشباب نصر، والشيخوخة هزيمة! وإذا كان الناس قد اعتادوا أن يصطلحوا على علامات للشيب والشباب حسب تفسيرهم الباطل فإن لنا علاماتٍ أخرى على تفسيرنا الصحيح.

لقد جعلوا الرأس موضع أهم الأمارات؛ فسواد الشباب وبياض المشيب أكثر ما دار عليه القول في الشيخوخة والشباب، وهو مركز القول في ذلك عند الأدباء والشعراء، حتى ألفوا في ذلك الكتب الخاصة.

أما علامات الشباب والشيخوخة في نظريتنا فليس موضعها الرأس؛ لأن موضعها القلب؛ فاليأس شيخ لأن اليأس ضعف في الإرادة، وضيق في الخيال، وبرودة في العاطفة، والشيب شيب القلب لا شيب الرأس؛ فمن لم ينفعل لمواضع الانفعال، ولم يعجب من مواضع الإعجاب، ولم يستكرِه في مواضع الاستكراه، ولم ينازل في مواضع الكفاح، ولم يهتج للأحداث، ولم يأمل ولم يطمح فهو شيخ أي شيخ! شابَ قلبُه وإن كان أسودَ الرأس حالِكَه!



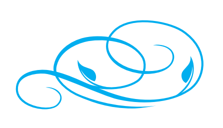


إن أردت أن تعرف أشيخ أنت أم شاب، فسائل قلبك لا رأسك: هل ينبض بالحب؟ حب الجمال، وحب الطبيعة، وحب الفضيلة، وحب الإنسانية؟

وهل ينفعل لذلك انفعالًا قويًّا فيهيم ويغار ويدافع ويضحي؟ هل يتصل بالعالم فيتلقى أمواجه الأثيرية من الناس، ومن الأرض، ومن البحر، ومن الجبل، ومن السماء؟ ثم يلقي بأشعته -كما تلقَّى- على كل من حوله، فينفعل ويفعل، ويتأثر ويؤثر؛ فهو كالقمر يتلقى من الشمس ضياءً وهَّاجًا، ويعكسه على الأرض نورًا وضياءً؟

هل يبادل من حوله حبًّا بحب، وعاطفة بعاطفة، وخيرًا بخير، وأحيانًا شرًّا بشر؟! وهل يترك العالم خيرًا مما تسلَّمه؟ أو أنه قلب بارد كالثلج، جامد كالصخر، لا طعم له كالماء، ميت كالجماد، مغلف كالخرشوف؟! إن كان الثاني فشيخٌ، وإن كان الأول فشابٌّ.

قالت كَبِرتَ وشِبْتَ قلتُ لها ... هذا غُبارُ وقائعِ الدَّهرِ» [(١)]





(١) «فيض الخاطر» (١/ ٢٧٢-٢٧٥).

يا ليتني قَدَرْتُ على عُمُرِ نوح!

«كل شيء -متى عاش- يشيخ، حتى الجبال في صلابتها، والأشجار في ضخامتها، والفيلة في جسامتها، والأسود في قوتها.

ولكن يختلف الأفراد في لبس ثياب الشيخوخة، فمن الشباب من يسرع به ضعفه فيرتديها، ومن الشيوخ من يحتفظ بنضارته وفتوته فيصارع الشيخوخة زمانًا يطول أو يقصر، ثم يُضْطَرُّ إلى لُبْسِها رغمَ أنفِه! وفي ذلك يقول الشاعر:

يا عَزُّ هل لكِ في شيخٍ فتى أبدًا وقد يكون شبابٌ غيرَ فتيانِ»[١]

وتأمل هذا الحوار الذي أداره الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«خُلِقت لي همة عالية تطلب الغايات.

فقلت: بَلَغْتُ السِّنَّ وما بلغتُ ما أمَّلتُ، فأخذت أسأل تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغ الآمال.

فأنكرَتْ عليَّ العاداتُ، وقالت: ما جَرَتْ عادةٌ بما تطلب.

فقلت: إنما أطلب من قادرٍ يخرِق العادات.

وقد قيل لرجل: لنا حُوَيْجَة، فقال: اطلبوا لها رُجَيْلًا.



---

(١) «فيض الخاطر» (٨/ ٣٥).

وقيل لآخر: جئناك في حاجة لا ترزؤك، فقال: هلا طلبتم لها سفاسف الناس؟

فإذا كان أهل الأنفة من أرباب الدنيا يقولون هذا، فلِمَ لا نطمع في فضل كريم قادر؟»(١).

وقولَه أيضًا: «دعوتُ يومًا فقلت: اللهم بلغني آمالي من العلم والعمل، وأطل عمري لأبلغ ما أُحِبُّ من ذلك.

فعارضني وَسواس من إبليس، فقال: ثم ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذي ينفع طول الحياة؟

فقلت له: يا أبله! لو فهمتَ ما تحت سؤالي علمتَ أنه ليس بعبث.

أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي فتكثر ثمارُ غرسي، فأشكر يومَ حصادي؟

أفيسرني أنني مِتُّ منذ عشرين سنة؟ لا والله؛ لأني ما كنت أعرف الله تعالى عُشْرَ معرفتي به اليوم.

وكل ذلك ثمرة الحياة التي فيها اجتنيت أدلة الوحدانية، وارتقيت عن حضيض التقليد إلى يفاع البصيرة، واطَّلَعْتُ على علومٍ زادَ بها قَدْري، وتجوهرت بها نفسي.

ثم زاد غرسي لآخرتي، وقويت تجارتي في إنقاذ المباضعين من المتعلمين، وقد قال الله لسيد المرسلين: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].



---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٩٧).



وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا يزيد المؤمنَ عُمُرُه إلا خيرًا**»(١).

وفي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من السعادة أن يطولَ عمرُ العبد ويرزقَه الله عَزَّ وَجَلَّ الإنابة**»(٢).

فياليتني قَدَرْتُ على عُمُرِ نوح، فإن العلم كثير، وكلما حَصَل منه حاصلٌ رفع ونفع»(٣).





---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الإمام أحمد [١٤٥٦٤]، وقال محققوه: «حسن لغيره».
(٣) «صيد الخاطر» (ص١٢٢).





(١٤) هِمَمٌ لَمْ تَعْرِفِ الشيبَ

قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحه):

«وقد تعلَّم أصحابُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كِبَرِ سِنِّهم».

وعن نعيم بن حماد قال: قيل لابن المبارك: «إلى متى تطلب العلم»، قال: «حتى المات إن شاء الله».

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسن أن يطلب العلم؟ قال: «إن كان يحسن به أن يعيش».

ودخل إبراهيم بن المهدي على المأمون، وعنده جماعة يتكلمون في الفقه، فقال له المأمون:

يا عم: ما عندك فيما يقول هؤلاء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شغلونا في الصغر، واشتغلنا في الكبر! فقال المأمون: لِمَ لا تتعلم اليوم؟!

قال: أو يحسن لمثلي طلب العلم؟!

قال: نعم والله، لَأن تموت طالبًا للعلم خير من أن تعيش قانعًا بالجهل!

قال: ومتى يحسن طلب العلم؟

قال: ما حَسُنَتْ بك الحياة!



وقال الخطيب البغدادي: «فإن قال قائل: دَرْس الفقه إنما يكون في الحداثة وزمن الشبيبة؛ لأنه يحتاج إلى الملاءمة وشدة الصبر عليه والمداومة، ولا يقدر على ذلك من علت سنه، ولا يطمع فيه من مضى أكثر عمره.

قيل: ليس مما ذكرت مانع من طلبه، ولَأن تلقى الله طالبًا للعلم خير من أن تلقاه تاركًا له، زاهدًا فيه، راغبًا عنه»[١].

★ وعن ابن معاذ، قال: سألت أبا عمرو بن العلاء: «حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم» فقال: «ما دام تحسن به الحياة».

وطلب شهر بن حوشب العلم بعد أن بلغ الخمسين في أيام معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الضحاك: «كنت ابن ثمانين سنة جَلْدًا غَزَّاءً».

وعن سليمان الربعي قال: كان أبو الجوزاء يُواصل أسبوعًا، ويقبض على ذراع الشاب فيكاد يحطمها.

★ ويحدث الإمام «ابن عقيل» عن همته وهو في عَشر الثمانين من عمره، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إني لا يحل لي أن أُضيِّعَ ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشدَّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين».

---

(١) «النبذ في آداب طلب العلم» (ص٢٢٩).

ما شاب عزمي ولا حَزْمي ولا خُلُقي ... ولا ولائـي ولا ديـني ولا كـرمي

وإنـما اعـتـاضَ رأسـي غـيرَ صِبغتِه ... والشيبُ في الرأس غيرُ الشيبِ في الهِمَمِ

وقال الشاعر الفحل أبو الطيب المتنبي:

مُنًى كُنَّ لي أن البياض خِضابُ ... فيَخْفى بتبييضِ القرونِ شبابُ[١]

ليالِيَ عند البيضِ فَوْدايَ فتنةٌ ... وفخرٌ، وذاك الفخر عنديَ عابُ[٢]

فكيف أذمُّ اليومَ ما كنتُ أشتهي ... وأدعـو بما أشكوه حين أُجـابُ[٣]

جلا اللونُ عن لونٍ هدى كلَّ مَسْلَكٍ ... كما انجاب عن ضوء النهارِ ضبابُ[٤]

وفي الجسم نفسٌ لا تشيب بشيبه ... ولو أن ما في الوجه منه حِرابُ[٥]

(١) يقول: شيبي هذا مُنًى كانت لي قديمًا، وإنما تمنيتُ المشيب ليُخفي شبابي بابيضاض شعري، فآثر المشيب على الشباب لما فيه من الوقار والتحلية.

(٢) **الفودان**: جانبا الرأس يمينًا وشمالًا.

يقول: تمنيت ذلك لليالي كان شعري عند حسان النساء فتنة يُستمال بها وُدُّهن، ووسيلةً يُرتهن بها حُبُّهن، وفخرًا يُتنافس فيه ويحرص الجميع عليه، وذلك الوصل عندي عيب أتحرج منه، ونقصان أرغب بنفسي عنه، لأني أعِفُّ عنهن، وأزهد في وصالهن، وإنما تمنى الشيب لأن للشباب بادرة وللمشيب أناة كما قال، والشيب أوقر، والشبيبة أنزق، وأشار إلى أنه تخلق بأخلاق الكهول في صغره، ولم يؤثر التصابي في شيء من مدة عمره.

(٣) يقول: كنت أشتهي المشيب أيام الشباب، فكيف أذمه لما بلغت إليه؟! وكنت أدعو الله تعالى أن يهب لي المشيب، فلا يحسن بي الآن أن أشكوه حين أجابني إليه. تقول: دعوت بفلان إذا دعوته إليك.

(٤) يقول: ارتحل الشباب بمجيء المشيب، وزال السَّواد عن لونٍ هدى كل مسلك: يعني البياض لأنه حليف الهداية، والمانع من الغواية.

(٥) لما ذكر أنه كان يتمنى الشيب، وهو سبب العجز والضعف؛ ذكر أن همته وعزيمته، وما فيه من معاني الكرم لا تشيب، ولا يدركها العجز والشَّعَف بشيب جسمه، ولو أن الشعرات البيض في وجهه كانت حرابًا.



لها ظُفْرٌ إن كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ	ونابٌ إذا لم يَبْقَ في الفم نابُ[(١)]
يُغَيِّرُ مني الدهرُ ما شاء غيرَها	وأبلغ أقصى العُمْرِ وهْيَ كَعَابُ[(٢)]

وقال الزرنوجي: «دخل حسن بن زياد في التفقه وهو ابن ثمانين سنة، ولم يبت على الفراش أربعين سنة».

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة «أبي الفرج ابن الجوزي» ما نصه:

«وقد قرأ بواسط وهو ابن ثمانين سنة بالعشر -أي: بالقراءات القرآنية العشرة- على ابن الباقلاني، وتلا معه ولده يوسف، نقل ذلك ابن نقطة عن القاضي محمد بن أحمد ابن الحسن».

والإمام ابن الجوزي هو القائل:

اللّهَ أسألُ أن يُطَوِّلَ مُدَّتي	وأنالَ بالإنعامِ ما في نيتي
لي همةٌ في العلمِ ما مِن مثلِها	وهي التي جَنَتِ النُّحولَ هي التي
كم كان لي من مجلسٍ لو شُبِّهَتْ	حالاتُه لَتَشَبَّهَتْ بالجَنَّةِ

وذهب الإمام «القفال»[(٣)] شيخ الشافعية يطلب العلم وعمره أربعون سنة، فقال: «كيف أطلب العلم؟ ومتى أحفظ؟ ومَتى أفهم؟ ومتى أعَلِّم الناس؟»، فرجع، فمرَّ بصاحب ساقية، يسوق على البقر، وكان رِشاء[(٤)] هذا الحبل يقطع الصخر من كثرة ما مَرَّ، فقال: «أطلبه، ولا أتضجر من طلبه»، وأنشأ يقول:



---

(١) يقول: إن كلَّ ظفري، ولم يبق في فمي نابُ من الكِبر؛ لم يكن ظفر همتي كليلًا؛ فنفسي لها أظافر وأنياب معنوية ستقوم بدورها لحمايتي بعد أن تضعف الأظافر والأنياب الجسدية.

(٢) أي نفسي شابة أبدًا فتية تشبه الفتاة التي بدأ ثديها في النضوج والنهود، لا يغيرها الدهر، وإن تغير جسمي، بتقدم عمري.

(٣) قيل له القفال؛ لأنه كان ماهرًا في عملها، وانظر: «شذرات الذهب» (٣/ ٢٠٧).

(٤) **الرِّشاءُ**: الحبل، أو حبل الدَّلْوِ ونحوها.

اُطْـلُـبْ ولا تَـضْـجَـرْ مـن مطلبٍ فـآفـةُ الـطـالـبِ أن يَـضْـجَـرا

أمـا تـرى الـحَـبْـلَ بِـطُـولِ الـمَـدَى على صَلِيبِ[(١)] الصَّخْرِ قد أَثَّرا

واستمر يطلب العلم، وصار إمامًا من كبار الأئمة، ومن جهابذة الدنيا، وقدوة الزهاد حتى قيل: إنه مَلَكٌ في صورة إنسان، توفي (٤١٧هـ) عن تسعين سنة.

ويُروى أن الإمام أبا محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفارسي الأصل ثم الأندلسي القرطبي، الحافظ المتكلم الأديب (ت:٤٥٦هـ)، طلب العلم وهو في السادسة والعشرين من عمره، قال أبو محمد ابن العربي: وأقام أبو محمد في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه سِتًّا وعشرين سنة، وقال: «إنني بلغت إلى هذا السن، وأنا لا أدري كيف أجبر صلاة من الصلوات».

وقال في رواية أخرى: «أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه، فدخل المسجد قبل صلاة العصر، والخلق فيه، فجلس، ولم يركع، فقال له أستاذه -يعني الذي رباه- بإشارة: «أن قم، فصَلِّ تحية المسجد»، فلم يفهم، فقال له بعض المجاورين له: «أبلغتَ هذا السن، ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة؟»[(٢)]، وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عامًا، قال: «فقمت، وركعت، وفهمت إذًا إشارةَ الأستاذ لي بذلك»، قال: فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد، مشاركةً للأَحِباء من أقرباء الميت، دخلت المسجد، فبادرت بالركوع، فقيل لي:



(١) **الصليب**: الشديد القوي.

(٢) وهي سنة عند جمهور الفقهاء، وواجبة عند أهل الظاهر.

«اجلس، اجلس، ليس ذا وقت صلاة»، فانصرفت عن الميت، وقد خزيت، ولحقني ما هانت عليَّ به نفسي، وقلت للأستاذ: دُلَّني على دار الشيخ الفقيه المشاور أبي عبد الله بن دحون، فدلني، فقصدته من ذلك المشهد، وأعلمته بما جرى فيه، وسألت الابتداء بقراءة العلم، واسترشدته، فدلني على كتاب (الموطأ) لمالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره نحو ثلاثة أعوام، وبَدأت بالمناظرة».

وعن عمر بن واجب قال: «بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب إذ بأبي محمد ابن حزم يسمعنا ويتعجب، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه جُووِب فيها فاعترض في ذلك، فقال له بعضُ الحُضَّارِ: «هذا العلم ليس من مُنْتَحَلاتِك» فقام، وقعد، ودخل منزله، فعكف، ووكف[١] منه وابل، فما كَفَّ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع؛ فناظر أحسن مناظرة، وقال فيها: «أنا أتبع الحق، وأجتهد، ولا أتقيد بمذهب».

وجاء في ترجمة يحيى النحوي: أنه كان ملَّاحًا يعبر الناس في سفينته، وكان يحبُّ العلم كثيرًا، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الإسكندرية يتحاورون فيما مضى لهم من النظر ويتفاوضونه، يسمعه فتهشُّ نفسه للعلم، فلما قوي رأيه في طلب العلم فكَّر في نفسه، وقال: «قد بلغت نيفًا وأربعين سنة، وما ارتضت بشيء، ولا عرفت غير صناعة الملاحة فكيف يمكنني أن أتعرض لشيء من العلوم؟»، وفيما هو يفكر إذ رأى نملة قد حملت نواة تمرة وهي دائبة تصعد بها، فوقعت منها فعادت وأخذتها، ولم تزل تجاهد مرارًا حتى

---

(١) وكف: الماءُ وغيره: سال وقطر قليلًا قليلًا.

بلغت بالمجاهدة غرضها، فقال: «إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمناصبة؛ فبالحريِّ أن أبلغ غرضي بالمجاهدة»، فخرج من وقته، وباع سفينته، ولزم دار العلم، وبدأ يتعلم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه الأمور لأنه أول ما ابتدأ بها، فنُسِبَ إليها واشتهر بها، ووضع كتبًا كثيرة، ويحيى هذا لقي عمرو بن العاص وأعجب عمرو به(١).

وألف الأمير البطل الصالح المجاهد الأديب أسامة بن مُنقذ (ت: ٥٨٤هـ) كتابه (لُباب الآداب) وعمره إحدى وتسعون سنة، فوضع فيه عصارة عمره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

والإمام عبد العزيز بن عبد السلام السُلميُّ، أبو محمد، عز الدين، سلطان العلماء، شيخ الإسلام، وأحد الأئمة الأعلام، قاضٍ فقيه، شافعي أصولي، مفسر لغوي، زاهد، حمل لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففاق فيه غيره، وحرض الناس على ملاقاة التتار، وشارك في الجهاد، ورُزق عمرًا طويلًا، توفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ عن ثلاث وثمانين سنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد طلب العلم على كبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهذا الشيخ الإمام تقي الدين السُّبكيُّ يقول عنه: «كان الشيخ عز الدين في أول أمره فقيرًا جدًّا، ولم يشتغل -أي في العلم- إلا على كبر، وسبب ذلك أنه كان يبيت في الكلَّاسة -وهي زاوية عند الباب الشمالي للجامع الأموي- من جامع دمشق، فبات بها ليلة ذات برد شديد، فاحتلم، فقام مسرعًا ونزل في بركة الكلَّاسة؛ فحصل له ألم شديد من البرد، وعاد فنام فاحتلم ثانيًا! فعاد إلى البركة؛ لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغمي عليه من شدة



(١) «أخبار العلماء» (ص٢٣٤).

البرد»؛ وذلك لأنه لم يكن يعرف أنه يسوغ له أن يعدل عن الغسل إلى التيمم عند شدة البرد وعدم توفر الماء الساخن، وتأثر لَمَّا عرف، وقرر أن يبتدئ طلب العلم، فكان ذلك؛ وصار رأس العلماء في مصر والشام، بل إمام العلماء في زمانه! وله مواقف رائعة في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقفها غيرُه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

واشتغل الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الحسن القِنائي في العلم وهو ابن ثلاثين سنة، وتفقه، وقرأ النحو وغيره، حتى مهر، وشغل الناسَ ببلده، وكان يحفظ أربع مائة سطر في يوم واحد، ثم أقبل على الطاعة ولازم الطاعة حتى توفي سنة (٧٢٨هـ).

وعُمِّر الشيخ يوسف بن رزق الله طويلًا حتى قارب التسعين، وثقل سمعه، لكن بقيت حواسه كلها سليمة، وهمته همة ابن ثلاثين، مات وهو يباشر التوقيع بصفد سنة ٧٤٥هـ.

وطلب الشيخ أحمد بن عبد القادر القِيسي الحنفي النحوي العلوم الكثيرة، وبرع فيها، وأقبل على طلب الحديث في آخر عمره، فتكلم بعض الناس عليه، فأنكر عليهم بأبيات جميلة، قال فيها:

وعاب سماعي للأحاديثِ -بعدما	كبرتُ- أناسٌ هم إلى العيبِ أقربُ
وقالوا: إمامٌ في علومٍ كثيرةٍ	يَروحُ ويغدو سامعًا يتطلَّبُ
فقلتُ مجيبًا عن مقالتهم وقد	غدوتُ لجهلٍ منهمُ أتعجَّبُ
إذا استدرك الإنسانُ ما فات من عُلا	للحزمِ يُعْزَى لا إلى الجهل يُنسَبُ




وكان العلامة اللغوي النحوي زين العابدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر المصري الأزهـري (ت:٩٠٥هــ)، اشتغل بالعلم على كِبر، قيل: كان عمره ستًّا وثلاثين سنة، وقصة ذلك أنه كان يعمل وَقَّادًا للسُّرُج في الأزهر، وبينما كان يُشْعِل إحدى الفتائل سقطت على كُرَّاس أحدِ الطلاب فشتمه ذلك الطالبُ وعيَّره بالجهل، فترك خالد الأزهري مهنة الإيقاد، وأكَبَّ على الطلب، وبرع، وأشغل الناس، وصار يُشار إليه وإلى مؤلفاته القيمة، وصنَّف شرحًا حافلًا على (التوضيح) ما صُنِّفَ مثله، و(إعراب ألفية ابن مالك)، وشرحًا على (الأجرومية) نافعًا، وآخر على (قواعد الإعراب) لابن هشام، وآخر على (الجزرية) في التجويد، وآخر على (البردة)، و(المقدمة الأزهرية) وشرحها، وكثر النفع بتصانيفه لإخلاصه ووضوحها.

توفي ببركة خارج القاهرة راجعًا من الحج.









(١٥) عُلُوّ هِمَّتِهِمْ
في طَلَبِ العِلْمِ وَتَعْلِيمِهِ حتَّى آخرِ رَمَقٍ

- روى البخاري في صحيحه في كتاب (المناقب) -باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان-:

- عن عمرو بن ميمون: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، وعرفوا أنَّه ميت قال: فدخلنا عليه، وجاء الناس يثنون عليه، وجاء شاب فقال: «أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى اللهِ لك»... فلما أدبر الشاب إذا إزاره يَمَسُّ الأرض، قال عمر: «رُدُّوا عليَّ الغلام»، قال: «يا بنَ أخي، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك».

- وعن محمد بن ثابت البناني قال: ذهبت ألقن أبي عند الموت، فقال: يا بني، خلِّ عني فإني في وردي السابع، كأنه يقرأ ونفسُه تخرج.

- وسمع شعيب بن إسحاق من سعيد بن أبي عروبة بآخر رمق.

- وروى المُعَافَى بن زكريا عن بعض الثقات، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ قبل موته، وتُوفي بعد ساعة أو أقل منها، فَذُكِرَ له هذا الدعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى مَحْبَرَةً وصحيفة فكتبه، فقيل له: «أفي هذه الحال؟!» فقال: «ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات».



- وعن فرقد -إمام مسجد البصرة- أنهم دخلوا على سفيان في مرض موته، فحدثه رجل بحديث فأعجبه، وضرب سفيان يده إلى تحت فراشه، فأخرج ألواحًا فكتبه، فقالوا له: «على هذه الحال منك؟!» فقال: «إنه حسن، إن بَقِيتُ فقد سمعتُ حَسَنًا، وإن مِتُّ فقد كتبت حسنًا».

- وعن الفقيه أبي الحسن علي بن عيسى الوَلْوَالجيُّ، قال: دخلت على أبي الريحان -البَيْروني- وهو يجود بنفسِه، قد حَشْرَجَ نَفَسُهُ، وضاق به صدره، فقال لي في تلك الحال: «كيف قلتَ لي يومًا: حسابَ الجدَّات الفاسدة[(١)]؟» فقلت له -إشفاقًا عليه-: «أفي هذه الحالة؟»، قال لي: «يا هذا أودِّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرًا من أن أُخلِّيها وأنا جاهل بها؟!»، فأعدتُ ذلك عليه، وحفظ، وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق، فسمعت الصُّرَاخ».

- وقال القاضي إبراهيم بن الجرَّاح الكوفي تلميذ الإمام أبي يوسف القاضي -يعقوب بن إبراهيم الأنصاري المتوفى سنة ١٨٢ هـ، والذي كان يقال له: قاضي قضاة الدنيا-:

مرض أبو يوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مغمًى عليه، فلما أفاق قال لي: «يا إبراهيم، ما تقول في مسألة؟»، قلتُ: «في مثل هذه الحالة؟!»، قال: «ولا بأس بذلك، ندرس لعلَّه ينجو به ناجٍ؟».



---

(١) اصطلاح عند علماء الفرائض يراد به الجدة التي تكون مِن قِبل الأم.

ثم قال: «يا إبراهيمُ، أيما أفضل في رَمْي الجمار -أي: في مناسك الحج- أن يرميها ماشيًا أو راكبًا؟» قلت: «راكبًا»، قال: «أخطأتَ»، قلتُ: «ماشيًا»، قال: «أخطأتَ»، قلت: «قل فيها، يرضى الله عنك».

قال: «أمَّا ما كان يُوقَفُ عنده للدعاء؛ فالأفضل أن يرميه ماشيًا، وأما ما كان لا يُوقَف عنده؛ فالأفضل أن يرميه راكبًا».

ثم قمت من عنده، فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- ورأى الإمامَ أحمدَ بعضُ عارفيه في إحدى رحلاته في طلب الحديث، فقال له معترضًا مستكثرًا ما حفظ، وما كتب، وما روى: «مرةً إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة!! إلى متى؟» فقال الإمام أحمد: «مع المحبرة إلى المقبرة».

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجل مع أبي محبرة، فقال له: يا أبا عبد الله، أنت قد بلغتَ هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين، فقال: «من المحبرة إلى المقبرة».

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: مَرَّ بنا الإمام أحمد بن حنبل وهو يعدو، ونعلاه في يديه، فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله ألا تستحي؟ إلى متى تعدو مع هؤلاء؟ قال: «إلى الموت».

وسئل سهل بن عبد الله: «إلى متى يكتب الرجل الحديث؟»، قال: «حتى يموت ويُصبُّ باقي حِبرِه في قبره».

وكان يقول إذا رأى أصحاب الحديث: «اجتهدوا أن لا تلقوا الله إلا ومعكم المحابر».



وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم في (تقدمة الجرح والتعديل): حضرتُ أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عقبة بن عبد الغافر، يَروي عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه.

فقلت: فهِمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: «هو تابعي».

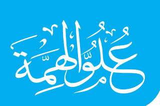
وقال الذهبي في ترجمة زينب بنت يحيى بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام السلمي: «كان فيها خير وعبادة، وحب للرواية بحيث قُرِئَ عليها يومَ موتها عدةُ أجزاء».

وذكر الذهبي في ترجمة الصفي الهندي (ت٧١٥هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه رَوى له حديثين قال: «ليسا هما عندي، قرأتهما عليه ونفسه يُحشرج في الصدر، فتوفي يومئذٍ، عفا الله عنا وعنه آمين».

وقال أحد أولاد العلامة أبي عبد الله محمد الفرطاخ (ت١٣٦٩هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه لما ثقل عليه الأمر، وشعر بقرب أجله، وقف على باب مكتبته، وألقى عليها نظرة وكأنه يودعها الوداع الأخير، وقال له: تناول أحد أجزاء (فتح الباري) -وهو الكتاب المفضل عنده- واقرأ عليَّ ما تجده فيه، قال: فوقع في يدي كتاب (الرقاق)، ففتحته فإذا فيه: باب ذهاب الصالحين، عن مرداس الأسلمي، قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يذهب الصالحون الأول فالأول**» الحديث.

فقال: «قضي الأمرُ، ارموا بهذه الأدوية»، فاتجه إلى القبلة -وكان على وضوء- فكبَّر وقرأ فاتحة الكتاب، فلم يكملها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة رحمة الله عليه، وكان ذلك على الساعة الثامنة صباحًا، ٢١ من ذي الحجة عام تسعة وستين وثلاثمائة وألف، موافق ٤ من أكتوبر سنة (١٩٥٠م).



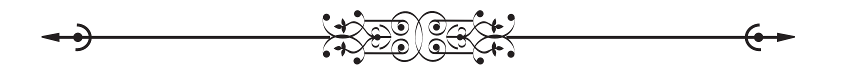



أما العلامة محمد أبو زهرة (ت:١٣٧٤هـ) فقد توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ كما ذكرت ابنته حياةُ النفوس وهو يحمل القلم والمصحف لتفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]. فبينما كان ينزل من الدور الأعلى، ويحمل المصحف مفتوحًا على سورة النمل، وكذلك الأوراق التي يكتب فيها التفسير، وقلم الحبر، كل ذلك في يده، وفنجان القهوة الذي صنعه بنفسه في اليد الأخرى، ففي هذه الأثناء سقط رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساجدًا على الدرج، وأصيب في رأسه جراء هذه السقطة، واستمرَّ في غيبوبة منذ أذان صلاة الجمعة إلى ما بعد غروب ذلك اليوم، حيث فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها...».

أما العلامة المغربي محمد بن عبد الهادي المنوني (ت١٤٢٠هـ) فقد كان يُدَوِّن رحلته الحجازية خلال أسبوعه الأخير والموت ينازعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، علمًا بأنه عندما عجزت يده اليمنى عن الكتابة بسبب مرض ألمَّ به في أواخر الثمانينيات، لم يتوقف عن الكتابة، بل استطاع أن يدرب يده اليسرى على الكتابة حتى لا ينقطع عن التدوين والكتابة.

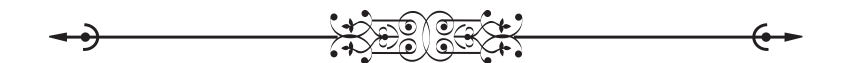
ولا عجب فقد كان يقول من شدة نهمه في الاستزادة من العلم: «تُرى هل توجد ضمن نِعَم الله في الجنةِ نعمةُ ممارسةِ البحث العلمي؟».





الفَصْلُ الثَّانِي

عُلُوُّ هِمَّةِ السَّلَفِ فِي العِبَادَةِ والاستقَامَة





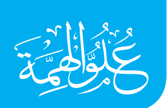



عُلُوّ هِمَّةِ السَّلَفِ فِي العِبَادَةِ والاستقَامَة

لقد فقه سلفنا الصالحون عن الله أمره، وتدبروا في حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم عن مطامعها، وارتفعت همتهم على السفاسف، فلا تراهم إلا صوَّامين قوامين، باكين والهين، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلو همتهم في التوبة، والاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات، كما تكشف كيف أنهم جمعوا بين أمرين هما: الاستكثار من الطاعات، مع مطالعة عيب النفس والعمل، فنتج عنهما: استصغارُ هذه الطاعات، وعدمُ الإعجاب بها.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن العابدين أناس توفَّرت هممُهُم على استكثارهم من الحسنات، دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما، ويحملهم على استكثارها رؤيتها والإعجابُ بها؛ ولو تفرغوا لتفتيشها، ومحاسبة النفس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق، لشغلهم ذلك عن استكثارها، ولأجل هذا كان عملُ العابد القليل المراقبة لعمله خفيفًا عليه، فيستكثرُ منه، ويصيرُ بمنزلةِ العادة، فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، وما في ذلك من شوكِ الرياء وجد لعمله ثِقَلًا







كالجبال، وقلَّ في عينه، ولكن إذا وجد حلاوته سَهُل عليه حملُ أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي فانظر وقت أخذِك في قراءة القرآن إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقُّلها، وفهم ما أريد بكلِّ آيةٍ، وحظك من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة -أو أكثرها، أو ما قرأت منها- بسهولةٍ وخِفَّةٍ، مستكثرًا من القراءة، فإذا ألزمت نفسك التدبُّر ومعرفة المراد، والنظر إلى ما يَخُصُّك منه، والتعبُّد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به، لم تكد تجوزُ السُّورة أو الآية إلى غيرها، وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة، لم تكد أن تصلي غيرهما إلا بجهدٍ، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب، فالاستكثار من الطاعات دون مراعاةِ آفاتِها وعيوبِها دليلٌ على قلة الفقه.

وقد يرى فاعلُها أن له حقًّا على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، ولهذا كَثُرت في عينه مع غفلته عن أعماله، لا يدري أنه لن ينجو أحدٌ ألبتَّة من النار بعمله، إلا بعفو الله ورحمته(١).

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح، من غير حضورٍ ولا مراقبةٍ، ولا إقبالٍ على الله قليلُ المنفعة، دنيا وأخرى، كثيرُ المؤنة، فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود، فإنه -وإن كَثُر- متعبٌ غير مفيد، فهكذا العمل



(١) وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يُنجِيَ أحدَكم عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمةٍ، فسَدِّدُوا، وقاربوا، واغدُوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا**». رواه البخاري (١١/ ٢٥٢)، ومسلم [٢٨١٦].

الخارجي القشوري بمنزلة النخالة، كثيرة المنظر قليلة الفائدة، فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها.

وهكذا ينبغي أن يكون سائر الأعمال التي يؤمر بالحضور فيها والخشوع، كالطواف، وأعمال المناسك ونحوها.

ولكنَّ أحبَّ العباد إلى الله الذين يستكثرون من الصالحات، مع مراقبة لها، فقد ندب الله تعالى إلى ذلك فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨]، قال الحسنُ: مَدُّوا الصلاة إلى السَّحر، ثم جلسوا يستغفرون، وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تابِعُوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة**»(١)، وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبَّثُ به: «**لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»(٢).

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحبُّ خلقِ الله إليه أعظمهم استكثارًا منها(٣).



(١) رواه الإمام أحمد رقم [٣٦٦٩]، وقال المحققون: «صحيح لغيره» (٦/ ١٨٥).

(٢) رواه الترمذي [٣٣٧٢]، وابن ماجه [٣٧٩٣]، وصححه ابن حبان [٢٣١٧]، والحاكم (١/ ٤٩٥)، ووافقه الذهبي.

(٣) وفي الحديث: «الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر» رواه الطبراني في «الأوسط»، وحسنه الألباني.

أي أن الصلاة أفضل ما وضعه الله أي شرعه من العبادات، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»، قالوا: «إذن نُكثر» قال: «الله أكثر» (صحيح الترغيب) رقم [١٦٣٣]. وقال الطيبي: «قوله: الله أكثر: أي الله أكثر إجابة من دعائكم، وقيل: الله أكثر ثوابًا وعطاء مما في نفوسكم، فأكثروا ما شئتم فإنه تعالى يقابل أدعيتكم بما هو أكثر منها وأجل» اهـ. من «تحفة الأحوذي».

وفي الحديث الصحيح الإلهي: «**ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»[(١)].

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته.

وأيضًا فإن استقلال المعصية ذنب، كما أن استكثار الطاعة ذنب، والعارف من صغرت حسناته في عينه، وعظُمَت ذنوبه عنده، وكلما صغرت الحسنات في عينك كَبُرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلَّت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس، ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية تلاشت حسناته عنده، وصغُرت جدًّا في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه، وأن الذي يليق بعزته، ويصلح له من العبودية أمرٌ آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها، لأنه كلما استكثر منها فُتحت له أبواب المعرفة بالله، والقرب منه، فشاهَدَ قلبه من عظمتِهِ سبحانه وجلاله ما يستصغِرُ معه جميع أعماله، ولو كانت أعمال الثقلين، وإذا كثُرَت في عينه وعظُمَت دلَّ على أنه محجوبٌ عن الله، غير عارفٍ به وبما ينبغي له، وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه، وتعظم في عينه، لمشاهدته الحق ومستحِقَّهُ. وتقصيره في القيام به، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجهٍ» اهـ.

---

(١) رواه البخاري [٦٥٠٢].

وقال أيضًا: «وفوقَ هذا مقامٌ آخر من التوبة، أرفعُ منه وأخصُّ، لا يعرفه إلا الخواصُّ المحبونَ، الذين يستقلون في حق محبوبهم جميعَ أعمالِهم وأحوالهم وأقوالهم، فلا يرونها قطُّ إلا بعين النقصِ والإزراء عليها، ويرون شأن محبوبهم أعظم، وقَدْرَهُ أعلى من أن يرضَوْا نفوسَهم وأعمالَهم له، فهم أشدُّ شيءٍ احتقارًا لها وإزراءً عليها، وإذا غفلوا عن مراد محبوبهم منهم، ولم يوفُّوه حقَّهُ، تابوا إليه من ذلك توبةَ أرباب الكبائر منها، فالتوبة لا تفارقُهُم أبدًا، وتوبتهم لونٌ وتوبةُ غيرهِم لونٌ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، وكلما ازدادوا حُبًّا له، ازدادوا معرفةً بحقهِ، وشهودًا لتقصيرهم، فعَظُمتْ لذلك توبتهم، ولذلك كان خوفهم أشدَّ، وإزراؤهم على أنفسهم أعظمَ، وما يتوبُ منه هؤلاء قد يكونُ من كبارِ حسناتِ غيرهم»[(١)].

وعن عتبة بن عبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أن رجلًا يُجَرُّ على وجهه من يوم وُلِد إلى يوم يموت هرمًا في مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ لحقَره يوم القيامة»[(٢)].

وعن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يوضع الميزان يوم القيامة فلو وُزِن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يارب لمن يَزِن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك**

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ٢٤٠-٢٤٣).

(٢) تقدم (ص١٣٤) هامش (٤)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لحقَّره يوم القيامة**» أي: لما يرى وينكشف له عيانًا من عظيم نواله، وباهر عطائه، قال الشاعر:

وكنتُ أرى أن قد تناهى بي الهوى ... إلى غايةٍ ما بعدها لي مذهبُ
فلما تلاقينا وعاينت حُسْنَها ... تيقَّنْتُ أني إنما كنتُ ألعبُ

حق عبادتك، ويُوضَع الصراط مثل حَدِّ المُوسَى فتقول الملائكة: من تُجِيزُ على هذا؟ فيقول: من شئتُ من خلقي، فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»(١).

تنبيـــه:

اعلم -وفقك الله لمراضيه- أن الإكثار من العبادات والرياضات والمجاهدات ينبغي أن يتقيد بهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحابته الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولذا ضبطه العلماء بشروط(٢) منها: أن لا يحصل منها مللٌ يُفَوِّتُ حضور القلوب، ولا يتحمل منها إلا ما يطيقه، ولا يفوت ما هو أهم منها أو أكثر ثوابًا، ولا يضيع حقوق الغير من أهل وولد وضيف وغيرِه، وأن يوفي العبادة حقها بتدبر وإحسان، وأن يلتزم منها القدر الذي يداوم عليه دون أن ينقطع.

- كان السلف شديدي الحرص على استطلاع أحوال المجتهدين الناسكين ليقتدوا بهم:

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلع رجل من الأنصار

---

(١) رواه الحاكم (٤/٥٨٦)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [٩٤١].

ورُوي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن لله ملائكةً ترعُدُ فرائصُهم من خيفته، ما منهم مَلَكٌ تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على مَلَك يُصلي، وإن منهم ملائكةً سجودًا، منذ خلق الله السماوات والأرض، لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وإن منهم ملائكة ركوعًا لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السماوات والأرض، ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم، ونظروا إلى وجه الله عَزَّ وَجَلَّ قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك» أخرجه ابن نصر في «الصلاة» بنحوه، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم [١٩٨٨].

(٢) انظر: «إقامة الحجة» للعلامة أبي الحسنات اللكنوي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص١٤٧-١٥٣).



تنطف لحيته من وضوئه، قد تعلق نعليه في يده الشمال، فلما كان الغد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم، قال أنس: وكان عبد الله يُحدِّث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعارَّ وتقلب على فراشه ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر، ولكن سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لك ثلاث مرار: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ما هو إلا ما رأيت، قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًّا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[(١)].

وعن معمر: عن ثابت، عن ابن أبي ليلى، قال: تزوج رجل امرأة ابن رواحة، فقال لها: تدرين لم تزوجتُك؟ لتخبريني عن صنيع عبد الله في بيته. فذكرت له



(١) رواه الإمام أحمد (٣/ ١٦٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ١١٢).

شيئًا لا أحفظه، غير أنها قالت: كان إذا أراد أن يخرُج من بيته، صلى ركعتين، وإذا دخل، صلى ركعتين. لا يدعُ ذلك أبدًا(١).

وقيل لنافع: «ما كان ابن عمر يصنع في منزله؟»، قال: «الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما».

وقال مجاهد: «ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس، إلا تكلفه ابن الزبير، ولقد جاء سيلٌ طَبَّقَ البيتَ فطاف سباحة»(٢).

وعن جعفر قال: سمعت المغيرة بن حبيب أبا صالح خَتَن(٣) مالك بن دينار يقول: يموت مالك بن دينار وأنا معه في الدار لا أدري ما عمله. قال: فصليت معه العشاء الآخرة، ثم جئت فلبست قطيفة في أطول ما يكون الليل، قال: وجاء مالك فقرب رغيفه فأكل، ثم قام إلى آخر الصلاة، فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: «إذا جمعتَ الأولين والآخرين فحرِّم شيبةَ مالك بن دينار على النار»، فوالله مازال كذلك حتى غلبتني عيني ثم انتبهت فإذا هو على تلك الحال يقدم رِجلًا ويؤخر رِجلًا، ويقول: «يارب إذا جمعتَ الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار»، فما زال كذلك حتى طلع الفجر(٤).

وكانوا يتنافسون في أعمال الآخرة امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففون:٢٦].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٣٣)، وصححه الحافظ في «الإصابة» (٦/ ٧٨، ٧٩).
(٢) نفسه (٣/ ٣٧٠).
(٣) **الخَتَن**: كل من كان من قِبل المرأة كأبيها وأخيها، وزوج البنت أو زوج الأخت.
(٤) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٦١).





قال الحسن: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره».

وقال وهيب بن الورد: «إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل»، وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني: «ما بلغني عن أحدٍ من الناس أنه تعبَّد عبادة إلا تعبَّدتُ نظيرها وزدت عليه».

وقال أحد العباد: «لو أن رجلًا سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غمًّا، ما كان ذلك بكثير».

وكان إسلام أحدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ خطًّا فاصلًا بين ماضيه في الجاهلية، وما بعده في الإسلام، وكان أحدهم إذا عمل عملًا أثبته وداوم عليه حتى الموت اقتداءً برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كان عمله دِيمة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في حق عكرمة بن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يقال: إنه لا يُعرف عنه ذنب بعدما أسلم»[١].

وقال أبو إسحاق السبيعي: لما احتُضِر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، قال: «لا تبكوا عليَّ، فإني لم أتنطَّف[٢] بخطيئة منذ أسلمت».

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما دخل وقت صلاةٍ حتى أشتاق إليها».

وعنه: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء».

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٧/ ١١، ٣٥).
(٢) **أتنطَّف**: أتلطخ.







وقال ربيعة بن زيد: «ما أذَّن المؤذن لصلاة الظهر منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد، إلا أن أكون مريضًا أو مسافرًا».

«وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة الجماعة صام يومًا، وأحيا ليلة، وأعتق رقبة».

وكان أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يصوم حتى يعود كالخِلال، فقيل له: لو أجممتَ نفسك؟ فقال: «هيهات! إنما يسبق من الخيل المُضمَّرة»، وهي المُعَدَّة للسباق.

واجتهد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قبل موته اجتهادًا شديدًا، فقيل له: «لو أمسكتَ أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟»، فقال: «إن الخيل إذا أُرسِلت فقاربت رأسَ مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجل أقل من ذلك»، قال: فلم يزل على ذلك حتى مات.

وقال الإمام أحمد: «اختلفت إلى يحيى بن سعيد القطان عشرين سنة، فما أظن أنه عصى الله قط».

وقال القاضي أبو بكر الشامي: قلت للقاضي أبي الطيب الطبري شيخنا -وقد عُمِّر-: لقد مُتِّعْتَ بجوارحك، فقال: «لم لا؟ والله ما عصيتُ الله بواحدة منها قط».

وقال الحاكم: «كان أبو الحسن الحجَّاجي من الصالحين المجتهدين بالعبادة، صحِبتُه نيفًا وعشرين سنة بالليل والنهار، فما أعلم أن الملَك كتب عليه خطيئة».





وقال الإمام تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح: «ما فعلتُ صغيرة في عمري قط».

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سيما الصالحين صُفرة الألوان من السهر، وعَمَش العيون من البكاء، وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غَبَرَةُ الخاشعين».

وعن قتادة قال: قال مُوَرِّق العِجْلي: «ما وجدت للمؤمن في الدنيا مثلًا إلا مثل رجل على خشبة في البحر، وهو يقول: (يارب، يارب)، لعل الله أن ينجيه».

وعن أسامة قال: كان من يرى سفيان الثوري يراه كأنه في سفينة يخاف الغرق، أكثر ما تسمعه يقول: «يارب سلِّم سلِّم».

وقال الأعمش: «كان يحيى بن وثَّاب إذا قضى الصلاة مكث ما شاء الله، تُعرف فيه كآبة الصلاة».

قال الأعمش: «كنت إذا رأيته قلت: هذا وُقِفَ للحساب».

قال ابن وهب: «رأيت سفيان في الحرم بعد المغرب صلى، ثم سجد سجدة، فلم يرجع حتى نُودِي بالعشاء».

وقال أحمد بن يونس: حدثنا علي بن الفضيل: «رأيت الثوري ساجدًا حول البيت، فطفتُ سبعة أشواط قبل أن يرفع رأسه».

وعن جعفر قال: دخلنا على أبي التياح نعوده، فقال: (والله إنه لينبغي للرجل المسلم أن يزيده ما يرى في الناس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جدًّا واجتهادًا»، ثم بكى.



وعن فاطمة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قالت: «ما رأيت أحدًا أكثر صلاة ولا صيامًا منه، ولا أحدًا أشدَّ فَرَقًا من ربه منه، كان يصلي العشاء، ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال يبكي حتى تغلبه عيناه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة، فينتفض كما ينتفض العصفور من الماء، ويجلس يبكي، فأطرح عليه اللحاف».

وعن المغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة بنت عبد الملك: «يا مغيرة! قد يكون من الرجال من هو أكثر صلاة وصيامًا من عمر بن عبد العزيز، ولكني لم أر من الناس أحدًا قط كان أشد خوفًا من ربه من عمر، كان إذا دخل البيت ألقى نفسه في مسجده، فلا يزال يبكي، ويدعو، حتى تغلبه عيناه، ثم يستيقظ، فيفعل مثلَ ذلك ليلته أجمع».

وعن أبي عُبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال: «ألا تخبريني عن عمر؟» قالت: «ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استُخلِف».



وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة، ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: «لم تعذب نفسك؟» فيقول: «كرامتَها أريد» -وكان يصوم حتى يخضر جسده، ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس ابن مالك والحسن فقالا له: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يأمرك بكل هذا»، فقال: «إنما أنا عبد مملوك، لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به».

وقيل لعامر بن عبد الله: «كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟»، فقال: «هل هو إلا أني صرفتُ طعام النهار إلى الليل، ونومَ الليل إلى النهار؟ وليس في ذلك خطيرُ أمرٍ». وكان إذا جاء الليل قال: «أذهب حَرُّ النارِ النومَ»، فما ينام حتى يصبح.

وعن الحسن قال: قال عامر بن قيس لقوم ذكروا الدنيا: «وإنكم لتهتمون؟ أما والله لئن استطعت لأجعلنهما همًّا واحدًا»، قال: ففعل والله ذلك، حتى لحق بالله.

وعن أحمد بن حرب قال: «يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزَيَّنُ فوقه، والنار تُسعَّرُ تحته، كيف ينام بينهما؟».

وقال مالك بن دينار: «لو استطعتُ أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعوانًا لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: أيها الناس، النارَ النارَ».



وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطًا في مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: «قومي فوالله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكللُ منكِ لا مني»، فإذا دَخَلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه، وقال: «أنت أولى بالضرب من دابتي»، وكان يقول: «أيظن أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستأثروا به دوننا؟ كلا والله لنزاحِمَنَّهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خَلَّفوا وراءهم رجالًا».

وكان منصور بن المعتمر إذا رأيتَه قلتَ: «رجل أصيب بمصيبة»، منكسر الطرف، منخفض الصوت، رطب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع - ولقد





قالت له أمه: «ما هذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامته لا تسكت لعلك يا بني أصبتَ نفسًا، لعلك قتلت قتيلًا»، فيقول: «يا أمه أنا أعلم بما صَنَعتْ نفسي».

وعن أبي الأحوص قال: قالت بنتٌ لجار منصور بن المعتمر: «يا أبة أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمة؟» قال: «يا بنية ذاك منصور، كان يقوم الليل».

وقال هشيم تلميذ منصور بن زاذان: «كان لو قيل له: إن ملك الموت على الباب، ما كان عنده زيادة في العمل، وكان يصلي من طلوع الشمس إلى أن يصلي العصر، ثم يسبح إلى المغرب».

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: «القيامة غدًا» ما وجد متزيدًا... وكان يقول: «اللهم إني أحب لقاءك فأحِبَّ لقائي»، وقال أنس بن عياض: «رأيت صفوان بن سليم، ولو قيل له: (غدًا القيامة) ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة».

وقال عبد الرحمن بن مهدي: لو قيل لحماد بن سلمة: «إنك تموت غدًا»، ما قدر أن يزيد في العمل شيئًا.

وعن موسى بن إسماعيل قال: «لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا قد صَدَقْتُكم، كان مشغولًا بنفسه: إما أن يُحدِّث، وإما أن يقرأ، وإما أن يُسبح، وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال».



وقال حماد بن سلمة: «ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عَزَّوَجَلَّ فيها، إلا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة، وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة، وجدناه: إما متوضئًا، أو عائدًا، أو مشيعًا لجنازة، أو قاعدًا في المسجد، قال: فكنا نرى أنه لا يُحسن يعصي الله عَزَّوَجَلَّ».

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: «يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟» فيقول: «يا ابنتاه، إن أباك يخاف البيات»(١)، وعن إبراهيم قال: «قال فلان: ما أرى الربيع بن خثيم تكلم بكلام منذ عشرين سنة إلا بكلمة تصعَدُ»، وعن بعضهم قال: «صحِبت الربيع عشرين عامًا ما سمعتُ منه كلمة تُعاب».

وقال مالك: «رأيت أيوب السختياني بمكة حَجَّتين، فما كتبتُ عنه، ورأيته في الثالثة قاعدًا في فناء زمزم، فكان إذا ذُكِر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده يبكي حتى أرحمه، فلما رأيتُ ذلك كتبتُ عنه».

وقال سلمة بن علقمة: «جالست يونس بن عبيد فما استطعت أن آخذ عليه كلمة».



وعن أبي هارون موسى قال: «كان عون يحدثنا، ولحيته ترتش بالدموع».

وقال أبو علي بن شهاب: سمعت أبا عبد الله بن بطة يقول: «أستعمل عند منامي أربعين حديثًا رويت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وعن القاسم بن راشد الشيباني: كان زمعة نازلًا عندنا بالمُحَصَّب، وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلي ليلًا طويلًا، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته:

(١) **البَيات**: مفاجأة القوم في جوف الليل، قال تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ الآية [الأعراف:٤].



«أيها الركب المُعَرِّسُون! أكُلَّ هذا الليل ترقدون، أفلا تقومون فترحلون؟» فيتواثبون، فيُسمَع من ههنا باكٍ، ومن ههنا داعٍ، ومن ههنا قارئ، ومن ههنا متوضئ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: «عند الصباح يحمد القوم السُّرى».

وعن وكيع قال: «كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفتُ إليه أكثر من ستين سنة، فما رأيته يقضي ركعة».

وقال غسَّان بن الفضل: «كان بشر بن منصور من الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله، وإذا رأيتَ وجهه ذكرتَ الآخرة».

قال أسيد بن جعفر ابن أخي بشر بن منصور: «ما فاتته التكبيرة الأولى قط».

وعن أبي حيان، عن أبيه، قال: كان الربيع بن خثيم يُقاد إلى الصلاة وبه الفالِج -الشلل-، فقيل له: «قد رُخِّصَ لك»، قال: إني أسمع «حَيَّ على الصلاة»، فإن استطعتم أن تأتوها ولو حَبْوًا.

وسَمِع ثابت بن عامر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أذان المغرب وهو مريض فقال لأبنائه: «احملوني إلى المسجد»، فقالوا: أنت مريض، وقد عذرك الله، قال: «لا إله إلا الله، أسمع حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح، ثم لا أجيب، والله لتحملونِّي إلى المسجد»، فحملوه إلى المسجد، ولما كان في السجدة الأخيرة من صلاة المغرب قبض الله روحه.



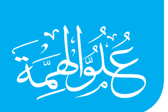
وبقي محمد بن علي الأنصاري الحفَّار الغرناطي نحوًا من عامين أو يزيد، يخرج للصلوات الخمس يُهادى بين رجلين لشيءٍ كان برجله، حتى كان بعض أصحابه يقول: «الحفَّار حجة الله على من لم يحضر الجماعة».

وقال ابن الخطيب: «كان محمد بن علي بن أبي بكر بن الأصفر فقيهًا ورعًا زاهدًا، كثير العبادة على سَنن الصالحين، مات عن مرض أصابه أنهك جسمه، ولم يُنقِصْ من وظائف العبادة شيئًا، حتى أنه انصرف من بعض الصلوات، فسقط، واحتمل خطًى يسيرة، وقضى نحبه».

وعن عيسى بن عمر قال: كان عمرو بن عتبة بن فرقد يخرج على فرسه ليلًا، فيقف على القبور فيقول: «يا أهل القبور! قد طُوِيَتْ الصحف، وقد رفعت الأعمال»، ثم يبكي، ويَصُفُّ بين قدميه حتى يصبح، فيرجع، فيشهد صلاة الصبح.

وقال أبو المواهب بن صَصْرَى في شأن الإمام أبي القاسم بن عساكر: «لم أر مثله، ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عُرضت عليه، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم».







وقال ابنُه القاسم: «كان -أي: ابن عساكر- يحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة».

وكان المحدث الثقة بشر بن الحسن يقال له: «الصَّفِّي»[١] لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة.

وكان إبراهيم بن ميمون المروزي أحد الدعاة المحدثين الثقات من أصحاب عطاء ابن أبي رباح، وكانت مهنته الصياغة، وطَرْق الذهب والفضة، قالوا: «كان

---

(١) هكذا كان بعض الصالحين يُنسب لعملٍ صالح يلازمه حتى يُلقَّب به، كعلي بن أحمد المَقَابريِّ البغدادي، نسبة إلى المقابر، وعُرِفَ بهذه النسبة عدد من العلماء، لكثرة زيارتهم المقابر، وكالقاضي الخيَّاط، عُرف بهذا لأنه كان يخيط على الأيتام والمساكين حِسْبة.

وكان علي بن عبد الله بن عباس يُدعَى «السجاد» لكثرة صلاته.

وكان الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُسمَّى «الوتد» لكثرة صلاته، تشبيهًا بوتد الخيمة لطول قيامه في الصلاة.

ومن ذلك لقب «الحُصَري» أطلق على الشيخ (خليل السيد) الذي كان يتقن صناعة الحصير، وكان كلما وجد مصلًّى بلي حصيرُه أو بدون حصير أو مفروشًا بقش الأرز، هُرِع إليه، وفرشه بالحصير الجديد، فاشتهر بلقب الحصري، ثم رأى في المنام أن عموده الفِقْري يتشكل ويتدلى عنقودًا من العنب، والناس تأتي جماعاتٍ جماعات، يأكلون من عنقود العنب، وعنقود العنب لا ينفد، وتكررت هذه الرؤيا فسأل عنها شيخًا معبِّرًا، فسأله إن كان له ذرية، فقال: «ولدي محمود، عمره عامان»، فقال الشيخ: «ألحقه بالأزهر، يتعلم العلوم الشرعية، فسوف يكون له شأن كبير»، وقد كان، فالمقرئ العظيم محمود خليل الحصري رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ صار له شأن كبير في خدمة كتاب الله تعالى، وكان أول من سجَّل القرآن الكريم في مشروع «الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم» الذي بدأه الدكتور لبيب السعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ برواية حفص عن عاصم (١٩٦١)، ورواية ورش عن نافع (١٩٦٤)، ورواية قالون والدوري عن أبي عمرو البصري (١٩٦٨)، وأول من سجَّل «المصحف المعلم» (١٩٦٩) و«المصحف المفسر» المسمى «مصحف الوعظ» (١٩٧٣)، وسيرته العطرة، وسنته الحسنة ملأ الأرضَ عبيرُها، فلا نطيل بذكرها، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.





فقيهًا فاضلًا، من الأمَّارين بالمعروف»، وقال ابن معين: «كان إذا رفع المطرقة فسمع النداء لم يَرُدَّها».

وقيل للأحنف بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن فيك أناة شديدة»، فقال: «قد عرفت من نفسي عجلة في صلاتي إذا حَضَرَتْ حتى أصليها».

وقال الحاكم: رحلت إلى محمد بن محمد الطوسي مرتين، وسألته متى يفرغ للتصنيف في هذه الفتاوى؟ فقال: «جزَّأت الليل: فثلثه أصنف، وثلثه أقرأ القرآن، وثلثه للنوم».

وقيل لكثير بن عبيد الحمصي عن سبب عدم سهوه في الصلاة قط، وقد أمَّ أهل حمص ستين سنة كاملة، فقال: «ما دخلتُ من باب المسجد قط وفي نفسي غير الله».

وقال كبير قضاة الشام سليمان بن حمزة المقدسي وهو من ذرية ابن قدامة صاحب (المغني): «لم أصل الفريضة قط منفردًا إلا مرتين، وكأني لم أصلهما قط»، مع أنه قارب التسعين رَحِمَهُ اللَّهُ.



وقال شرف الدين بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: كان ابن دقيق العيد يقيم في منزلنا بمصر في غالب الأوقات، فكنا نراه في الليل إما مصليًا وإما ماشيًا في جوانب البيت وهو مفكر إلى طلوع الفجر، فإذا طلع الفجر صلى الصبح ثم اضطجع إلى ضَحْوةٍ.

وقال الصاحب شرف الدين: وسمعت الشيخ شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي المالكي يقول: «قام الشيخ تقي الدين أربعين سنة لا ينام الليل إلا أنه كان إذا صلى الصبح اضطجع على جنبه إلى حيث يضحى النهار».

وروى ابن عماد الحنبلي في (شذرات الذهب) أنه كان يقول: «ما تكلمت بكلمة، ولا فعلت فعلًا إلا أعددت له جوابًا بين يدي الله»، كما نقل ذلك السبكي.

وقال الحافظ قطب الدين الحلبي عن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد: «... وكان لا ينام من الليل إلا قليلًا، ويقطعه فيما بين مطالعة وتلاوة وذكر وتهجد حتى صار السهر له عادة، وأوقاته كلها معمورة لم يُرَ في عصره مثله».

ووصف سِبْطُ ابنِ الجوزي الإمام الزاهد شيخ الإسلام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة صاحب (المغني) فقال: «كان كثير الحياء، عَزوفًا عن الدنيا وأهلها، هينًا ليِّنًا متواضعًا محبًّا للمساكين، حسن الأخلاق، جوادًا سخيًّا، من رآه كأنما رأى بعض الصحابة، وكأن النور يخرج من وجهه، كثير العبادة، يقرأ كل يوم وليلة سُبُعًا من القرآن، ولا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتِّباعًا للسنة».

وقال أيضًا: «شاهدت من الشيخ أبي عمر وأخيه الموفق ونسيبه العماد ما نرويه عن الصحابة والأولياء والأفراد، فأنساني حالهم أهلي وأوطاني، ثم عدت إليهم على نية الإقامة، عسى أن أكون معهم في دار المقامة».

وقال ابن النجار: «كان الشيخ موفق الدين شيخ الحنابلة بالجامع، وكان ثقة حجة نبيلًا غزير الفضل، كامل العقل شديد التثبت، دائم السكوت، حسن السمت، نزيهًا ورعًا عابدًا على قانون السلف، على وجهه النور، وعليه الوقار والهيبة، ينتفع الرجل برؤيته قبل أن يسمع كلامه».



ومما قاله الحافظ عمر بن الحاجب في حقه: «ما أظن الزمان يسمح بمثله، متواضع عند الخاصة والعامة، حسن الاعتقاد، ذو أمانة وحلم ووقار، وكان مجلسه عامرًا بالفقهاء والمحدثين وأهل الخير، وصار في آخر عمره يقصده كل أحد، وكان كثير العبادة دائم التهجد، لم نر مثله، ولم ير هو مثل نفسه»[١].

قال الشيخ صلاح الدين أبو عيسى موسى بن محمد بن خلف بن راجح المقدسي يرثي الموفَّق:

لم يبق لي بعد الموفق رغبة	في العيش إن العيش سم منقعُ
صدر الزمان وعينه وطرازه	والزاهد العلامة المتورعُ
كان ابن أحمد في مقام محمد	إن هالهم أمر إليه يفزعوا
فيبين مُشْكِلَه ويُوضِحُ سِرَّه	ويذبّ عن دين الإله ويدفع
ببصيرة يجلو الظلامَ ضياؤها	تبدي العجائب نورها يتشعشع
فاليوم قد أضحى الزمان وأهله	غرضًا لكل بلية تتنوع
والعلم قد أمسى كأن بواكيًا	تبكي عليه وجله متقطع
وتعطلت تلك المجالس وانقضت	تلك المحافل ليتها لو ترجع
هيهات بعدك يا موفق نرتجي	للناس خيرًا أو مقالًا يُسمع
لله درك كم لشخصك من يد	بيضاءَ في كل الفضائل ترتع
قد كنت عبدًا طائعًا لا تنثني	عن باب ربك في العبادة توسع
كم ليلة أحييتها وعمرتها	والله ينظر والخلائق هُجَّع

(١) مقدمة العلامة ابن بدران لكتاب «المغني» (ص٤، ٥).





تتلو كتاب الله في جنح الدُّجى	كزبور داود النبي تُرَجِّع
لو كان يمكن من فدائك رخصة	لَفَدَتْكَ أفئدة عليك تقطع[(١)]

وقال البزار في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان في ليله منفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه عَزَّوَجَلَّ، ضارعًا مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم، وكان قد عُرفت عادته: لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر يُسمِع نفسه، وربما يسمع ذكره من إلى جانبه.. هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس»[(٢)].

وقال فيه الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم أر مثله في ابتهاله واستغاثته وكثرة توجهه، وقال: وكان في ليله منفردًا عن الناس كلهم، خاليًا بربه عَزَّوَجَلَّ، ضارعًا إليه، مواظبًا على تلاوة القرآن، مكررًا لأنواع التعبد الليلية والنهارية، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يَمنةً ويَسْرة»[(٣)].

عن ابن حلبس: قيل لأبي الدرداء -وكان لا يفتر عن الذكر-: كم تسبح في كل يوم؟ قال: «مائة ألف، إلا أن تخطيء الأصابع».

عن عكرمة، أن أبا هريرة كان يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يقول: «أسبح بقدر دِيتي».

وكان يحيى بن معاذ الرازي يقول: «يا غفول، يا جهول، لو سمعت صرير الأقلام في اللوح المحفوظ، وهي تكتب اسمك عن ذكرك لمولاك، لمُتَّ شوقًا إلى مولاك».



---

(١) نفسه (ص١٣، ١٤).
(٢) «الأعلام العلية» (ص٣٦).
(٣) «الكواكب الدرية» (ص١٥٦).

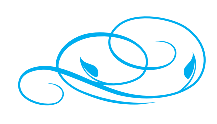
وقص إنسانٌ شاربَ معروفٍ الكرخي، فلم يفتر من الذكر، فقال: كيف أقص؟ فقال: «أنت تعمل وأنا أعمل».

خطرات ذكري تستثير مودَّتي ... وأُحِسُّ منها في الفؤاد دبيبا

لا عُضو لي إلا وفيه محبة ... فكأن أعضائي خُلِقْنَ قلوبا

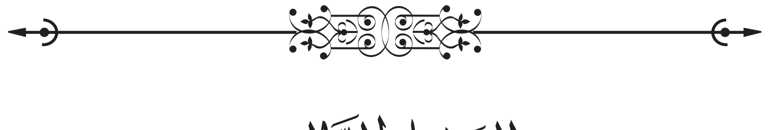
ومن علو همتهم في النفقة والإيثار، ما وقع من عبد الله بن طالب حين جاءه رجل يشكو إليه أنه لا يجد لابنته جَهازًا لزواجها، وكان لابن طالب ابنة تخرج إليه، من عيد إلى عيد، فقال لأمها: «أحب أن تزيني ابنتي، وتُلبيسها ثيابها وحليها»، ففعلت، وأخرجت إليه فرحب بها، واستبشر، ثم قال لها ولأمها: «إن فلانًا شكا إليَّ كذا، وأنا أحب أن أدفع له جميع ما على ابنتي من حلي وثياب، يجهز به ابنته، وعليَّ أنا عِوضُ ابنتي منه بما هو أكثر».

هم الرجال وعيبٌ أن يُقال لمن ... لم يتَّصِفْ بمعاني وصفِهِمْ رجلُ



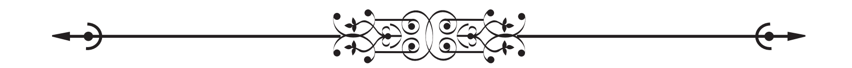






الفَصْلُ الثَّالِث

عُلُوُّ الهِمَّةَ فِي البَحثِ عَنِ الحَقِّ







عُلُوّ الهِمَّة فِي البَحثِ عَنِ الحَقِّ



لقد حفل التاريخ الإسلامي قديمُه وحديثُه بنماذج رائعة من المهتدين الذين ارتفعت همتهم في البحث عن الدين الحق، وبذلوا في سبيل ذلك النفس والنفيس، فصاروا مضرب الأمثال، وحجة لله على خلقه أن من انطلق باحثًا عن الحق مخلصًا لله تعالى، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يهديه إليه، ويَمُن عليه بأعظم نعمة في الوجود نعمة الإسلام، وسنقتصر في هذا الفصل على ذِكر بعض هذه النماذج المشرقة في القديم والحديث.

(١) سلمَانُ الفَارِسيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أنموذج مِثَالي لِلبَاحث عَن الحَقيقَة

المكان: شجرة ملتفة وارفة الظلال، تجثم أمام دارٍ متواضعة بـ«المدائن»، يجلس تحت ظلها صاحب الدار -شيخ كبير تعلوه الهيبة، ويزينه الوقار- قد أحاط به جلساؤه الأخيار، ينصتون لحديثه الشيق، وقصته الرائعة ورحلته المباركة في البحث عن الحقيقة.

ها هو ذا يروي لهم كيف غادر دين قومه الفرس إلى النصرانية، ثم إلى الإسلام، وكيف ضحَّى في سبيل «الحقيقة الكبرى» بثراء أبيه الباذخ، ورمى نفسه في أحضان الفاقة، بحثًا عن خلاص عقله وروحه.



إنه يروي لهم: كيف بيع في سوق الرقيق، وهو في طريق بحثه عن الحقيقة؟ كيف التقى برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف آمن به؟

إنه: سلمان الفارسي، أو سلمان الخير صاحب رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مثل أعلى لكل باحث عن الحقيقة بصدق وإخلاص وتجرد .. هيا بنا نقترب من مجلسه المهيب، وتعالوا معي نصغ إلى النبأ الباهر الذي يرويه.

يقول سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كنتُ رجلًا من أهل أصبهان، من قرية يقال لها: «جي» .. وكان أبي دِهقان[1] أرضه، وكنت من أحَبِّ عباد اللهِ إليه، وقد اجتهدتُ في المجوسية، حتى كنت قاطن[2] النار التي نوقدها، ولا نتركها تخبو، وكان لأبي ضَيْعة، أرسلني إليها يومًا، فخرجت، فمررت بكنيسة للنصارى، فسمعتهم يصلون، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبني ما رأيت من صلاتهم، وقلت لنفسي: «هذا خير من ديننا الذي نحن عليه»، فما برحتهم حتى غابت الشمس، ولا ذهبت إلى ضيعة أبي، ولا رجعت إليه حتى بعث في أثري، وسألت النصارى حين أعجبني أمرهم وصلاتهم عن أصل دينهم، فقالوا: في الشام، وقلت لأبي حين عدت إليه: «إني مررت على قوم يصلون في كنيسة لهم فأعجبتني صلاتهم، ورأيت أن دينهم خير من ديننا»، فحاوَرَني، وحاورته، ثم جعل في رجلي حديدًا، وحبسني.

وأرسلت إلى النصارى أخبرهم أني دخلت دينهم، وسألتهم إذا قدم عليهم ركْبٌ من الشام، أن يخبروني قبل عودتهم إليها لأرحل إلى الشام معهم، وقد

---

(١) **الدِّهقان**: رئيس القرية، ورئيس الإقليم.
(٢) **قاطن النار**: القيم على نارِ المجوس ومُوقِدُها.

فعلوا، فحطمتُ الحديدَ، وخرجت، وانطلقتُ، معهم إلى الشام، وهناك سألت عن عالِمِهم، فقيل لي: «هو الأسقف، صاحب الكنيسة»، فأتيته، وأخبرته خبري، فأقمت معه أخدم، وأصلي، وأتعلم، وكان هذا الأسقف رجل سوء في دينه، إذ كان يجمع الصدقات من الناس ليوزعها، ثم يكتنزها لنفسه، ثم مات، وجاءوا بآخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلًا على دينهم خيرًا منه، ولا أعظم رغبة في الآخرة، وزهدًا في الدنيا، ودأبًا على العبادة، وأحببته حبًّا ما علمت أنني أحببت أحدًا مثله قبله، فلما حضره قَدَرُه، قلت له: «إنه قد حضرك من أمر اللهِ ما ترى، فَبِمَ تأمرني، وإلى من توصي بي؟»‌.

قال: «أي بُنَي، ما أعرف أحدًا من الناس على مثلِ ما أنا عليه إلا رجلًا بالموصل»، فلما توفي، أتيت صاحب الموصل، فأخبرته الخبر، وأقمت معه ما شاء الله أن أقيم، ثم حَضَرته الوفاة، فسألته، فدلني على عابد في «نصيبين»، فأتيته، وأخبرته خبري، ثم أقمت معه ما شاء الله أن أقيم، فلما حضرته الوفاة سألته، فأمرني أن ألحق برجل في عمورية من بلاد الروم، فرحلت إليه، وأقمت معه، واصطنعت لمعاشي بقرات وغنيمات، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إلى من توصي بي؟، فقال لي: «يا بني ما أعرف أحدًا على مثل ما كنا عليه، آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظَلَّكَ زمانُ نبيٍّ يُبْعَث بدين إبراهيم حنيفًا، يُهاجرُ إلى أرضٍ ذاتِ نخل بين حَرَّتين؛ فإن استطعت أن تخلص إليه فافعل، وإن له آياتٍ لا تخفى: فهو لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وإن بين كتفيه خاتَمَ النبوة، إذا رأيته عرفته».



ومر بي ركب -ذات يوم- فسألتهم عن بلادهم، فعلمت أنهم من جزيرة العرب، فقلت لهم: «أعطيكم بقراتي هذه وغنمي على أن تحملوني معكم إلى أرضكم؟» .. قالوا: «نعم».

واصطحبوني معهم حتى قدموا بي -وادي القرى- وهناك ظلموني، وباعوني إلى رجل من يهود، وبصرت بنخل كثير، فطمعت أن تكون هي البلدة التي وُصِفت لي، والتي ستكون مُهاجَرَ النبي المنتظر، ولكنها لم تكُنْها، وأقمت عند الرجل الذي اشتراني، حتى قَدمَ عليه يومًا رجلٌ من يهودِ بني قريظة، فابتاعني منه، ثم خرج بي حتى قدمت المدينة! فوالله ما هو إلا أن رأيتها حتى أيقنت أنها البلد التي وُصِفت لي، وأقمت معه أعمل له في نخله في بنى قريظة، حتى بعث الله رسوله، وحتى قدم (المدينة) ونزل بِقُبَاء في بني عمرو بن عوف.

وإني لفي رأس نخلة يومًا، وصاحبي جالس تحتها إذ أقبل رجل من يهود، من بني عمه، فقال يخاطبه: «قاتل الله بني قيلة إنهم ليتقاصفون[١] على رجل بقباء، قادمٍ من مكة يزعمون أنه نبي».

فواللهِ ما هو إلا أن قالها حتى أخذتني العُرَوَاء[٢]، فرجفت النخلة حتى كدت أسقط فوق صاحبي! ثم نزلت سريعًا، أقول: «ماذا تقول؟ ما الخبر؟».

فرفع سيدى يده، ولكزني لكزةً شديدة، ثم قال: «مالك ولهذا؟ أقبل على عملك».

---

(١) **يتقاصفون**: يتتابعون، ويجتمعون، ويتزاحمون.
(٢) **العُرَواء**: بَرْدُ الحُمَّى أولَ مَسِّها.

فأقبلت على عملي، ولما أمسيت جمعت ما كان عندي، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقباء، فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه، فقلت له: «إنكم أهل حاجة وغربة، وقد كان عندي طعام نذرته للصدقة، فلما ذُكِرَ لي مكانكم، رأيتُكم أحق الناس به، فجئتكم به»، ثم وضعته، فقال الرسولُ لأصحابه: «كلوا باسم اللهِ»، وأمسك هو فلم يبسط إليه يدًا، فقلت في نفسي: «هذه واللهِ، واحدة، إنه لا يأكل الصدقة»، ثم رجعت، وعدت إلى الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ في الغداة، أحمل طعامًا، وقلت له عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وقد كان عندي شيء أُحِبُّ أن أكرمك به هديةً»؛ ووضعته بين يديه، فقال لأصحابه: «كلوا باسم اللهِ»، وأكل معهم، قلتُ لنفسي: «هذه واللهِ، الثانية، إنه يأكل الهدية»، ثم رجعت فمكثت ما شاء الله، ثم أتيته، فوجدته في البقيع قد تبع جنازة، وحوله أصحابه، وعليه شملتان مؤتزرًا بواحدة، مرتديًا الأخرى، فسلمت عليه، ثم عدلت لأنظرَ أعْلَى ظهرِهِ، فعرف أني أريد ذلك، فألقى بُرْدَته عن كاهله، فإذا العلامةُ بين كتفيه، خاتَم النبوة، كما وصفه لي صاحبي، فأكببت عليه أقبله وأبكي، ثم دعاني عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فجلست بين يديه، وحدثته حديثي كما أحدثكم الآن.

ثم أسلمت، وحال الرِّقُّ بيني وبين شهود بدر وأُحُد، وفي ذات يوم قال الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كاتِبْ**[1] **سيِّدك حتى يُعْتِقك**»، فكاتبته، وأمر الرسول



(١) **كاتَبَ السيدُ العبد**: كتب بينه وبينه اتفاقًا على مال يُقسطه له، فإذا ما دفعه صار حُرًّا، **فالسيد**: مُكاتِب، **والعبدُ**: مكاتَب.



الصحابة كي يعاونوني، وحرر الله رقبتي، وعشت حُرًّا مسلمًا، وشهدت مع رسول اللهِ غزوة الخندق، والمشاهد كلها»[(١)].

بهذه الكلمات الوِضاء العِذاب، تحدث «سلمان الفارسي» عن رِحْلتِهِ الزكية النبيلة العظيمة في سبيل بحثه عن الحقيقة العظمى التي تصله باللهِ، وترسم له دوره في الحياة، فأيُّ إنسان شامخ كان هذا الإنسان؟ أي تفوق عظيم أحرزته روحه الطُّلَعَة، وفرضته إرادته الغَلَّابة على المصاعب فقهرتها، وعلى المستحيل فجعلته ذلولًا؟ أي تَبَتُّل للحقيقة، وأي ولاء لها هذا الذي أخرج صاحبه طائعًا مختارًا من ضِيَاع أبيه وثرائه ونعمائه إلى المجهول بكل أعبائه، ومَشَاقِّه، ينتقل من أرض إلى أرض، ومن بلد إلى بلد، ناصبًا، كادحًا عابدًا، تفحص بصيرتُه الناقدة الناسَ، والمذاهبَ، والحياة، ويظل في إصراره العظيم وراء الحق، وتضحياته النبيلة من أجل الهدى حتى يباع رقيقًا، ثم يثيبه الله ثوابه الأوفى، فيجمعه بالحقِّ، ويلاقيه برسوله، ثم يُعطيه من طولِ العمر ما يشهد معه بكلتا عينيه رايات الله تخفق في كل مكان من الأرض، وعباده المسلمين يملؤون أركانها وأنحاءها هدىً ورحمةً، وعدلا[(٢)].



(١) رواه بنحوه الطبراني، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن إسحاق. وقد صرح بالسماع، ومن ثمَّ حسنه في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٩٢).
(٢) «رجال حول الرسول» (ص٥١).

(٢) عُلُوّ هِمَّة أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في البَحْثِ عَن الحَقِّ

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

لما بلغَ أبا ذر مبعثُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، قال لأخيه -أنيس-: اركب إلى هذا الوادي، فَاعْلَم لي عِلمَ هذا الرجل، الذي يَزعُمُ أنه يأتيه الخبرُ من السماء، فاسْمَعْ مِن قولِه ثم ائتني.

فانطلق -أُنيس- حتى قدم مكة، وسَمِعَ من قولِه، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال: «رأيتُه يأمر بمكارم الأخلاق، وسمعتُه يقول كلامًا ما هو بالشعر»، فقال أبو ذر: «ما شَفيتَني فيما أردتُ!».

فتزوَّدَ -أبو ذر- وحمَل شَنَّةً[١] له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يعرفه، وكره أن يَسأل عنه، حتى أدركه الليلُ فاضطجع، فرآه عليٌّ ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعرف أنه غريب، ودعاه إلى منزله -فتبِعَه، فلم يَسأل واحد منهما صاحبَه عن شيء حتى أصبح.

ثم احتَمَل قِرْبَتَه وزاده إلى المسجد، وظَلَّ ذلك اليوم ولا يَرَى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمَرَّ به علي فقال: «ما آنَ للرجل أن يَعلمَ منزلَه؟»، فأقامه فذهب به معه، ولا يَسأل واحد منهما صاحبه عن شيء،



(١) **الشنة**: القربة الخَلَق الصغيرة يكون الماء فيها أبردَ من غيرها.

حتى إذا كان يومُ الثالث فعَلَ مثل ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثم قال له: «ألا تُحدثني ما الذي أقدمك؟»، قال: «إنْ أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشِدَنِّي فعلتُ»، ففعل، فأخبره، فقال: «فإنه حق، وهو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أصبحت فاتّبِعني، فإن رأيتُ شيئًا أخاف عليكَ قمتُ كأني أريق الماء، فإن مضيتُ فاتبَّعِني حتى تَدخُلَ مَدْخَلي»، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل معه، فسمع من قولِهِ وأسلم مكانه[١].

وهناك رواية أخرى في حادثةِ إسلام أبي ذر، رواها مسلم أيضًا من طريق عبد الله ابن الصامت الغفاري ابن أخي أبي ذر، وملخَّصُها: قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غِفار، وكانوا يُحِلون الشهر الحرام، فخرجتُ أنا وأخي أَنَيْس وأمُّنا، فانطلقنا حتى نزلنا بحضرةِ مكة.

فقال أَنَيس: إنَّ لي حاجة بمكة فاكفِني، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراثَ عليَّ -أي أبطأ-، ثم جاء، فقلتُ: «ما صنعتَ؟»، قال: «لقيتُ رجلًا بمكة يزعم أنَّ الله أرسله»، قلت: «فما يقولُ الناسُ؟»، قال: «يقولون: شاعر كاهن ساحر»، -وكان أنيس أحَدَ الشعراء- قال أَنيس: «لقد سمعتُ قولَ الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وَضَعْتُ قوله على أقراءِ الشعر -أي طرقِه- فما يلتئم على لسانِ أحدٍ أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون».

قال أبو ذر: قلت: «فأكفِني حتى أذهب فأنظر»، قال: فأتيت مكة، فتضَعّفْتُ رجلًا منهم» -يعني نظرتُ إلى أضعفهم فسألته، لأن الضعيف يكون مأمون

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

الغائلة غالبًا -فقلتُ له: «أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟ » فأشار إليَّ، فقال: «الصابئ! »، فمالَ عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرة وعَظْم، حتى خررتُ مغشيًّا علي، فارتفعتُ حين ارتفعتُ كأني نُصُبٌ أحمر -يعني من كثرة الدماء التي سالت منه، صار كالنُّصُب وهو الحَجَرُ الذي كان أهلُ الجاهلية ينصبونه، ويذبحون عنده فيَحمَرُّ بالدم.

قال: فأتيتُ زمزم فغَسلتُ عني الدماء، وشَربتُ من مائها، ولقد لبَثتُ يا بن أخي ثلاثين بين ليلة ويوم، ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم، فسَمِنتُ حتى تكسَّرَت عُكَنُ بطني، وما وجدتُ على كبدي سُخْفَةَ جُوع -يعني أثَرَ الجوع وضَعْفَه-.

قال: فبينا أهلُ مكة في ليلةٍ قمراء إذ ضُرِب على أسمختهم -أي آذانهم بالنوم- فما يطوف بالبيت أحد، وجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر، حتى استلَم الحَجَر، وطاف بالبيت هو وصاحبُه، ثم صلّى، فلما قضى صلاته قلتُ: «السلامُ عليك يارسول الله»، فقال: «وعليك ورحمة الله».

ثم قال: «مَنْ أنت؟» قلت: «من غِفار»، قال: فأهوى بيده، فوضَعَ أصابعه على جبهته، فقلت في نفسي: «كرِهَ أن انتميتُ إلى غِفار»، فذهبتُ آخُذُ بيده، فَقَدَعَني -أي كَفّني- صاحبُه، وكان أعلمَ به مني، -يعني فعَلَ هذا لدفع السوء عني وعن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ثم رفع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسَه ثم قال: «**متى كنتَ ها هنا؟**» قال: قلتُ: «قد كنتُ ها هنا منذ ثلاثين بين ليلة ويوم»، قال: «**فمن كان يُطعمك؟**»، قال: قلت: «ما كان لي طعام إلا ماءُ زمزم، فَسَمِنْتُ حتى تكسَّرَتْ عُكَنُ بطني،





وما أجدُ على كبِدي سُخفَةَ جوع»، قال: «**إنها مباركة إنها طَعامُ طُعْم**» -أي هي تُشبع شاربَها كما يُشبعه الطعام-.

فقال أبو بكر: «يا رسول الله ائذن لي في طعامه الليلة»، فانطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وانطلقتُ معهما، ففتح أبو بكر بابًا فجعل يَقبض لنا من زَبيب الطائف، وكان ذلك أوَّلَ طعام أكلتُه بمكة، الحديث(١).



(١) رواه مسلم.



(٣) عُلُوّ هِمَّة الشَّيْخ أَبِي مُحَمَّد التَّرجُمَان المُيُورْقِي

(٧٥٦ - ٨٣٢ هـ) «القسيس إنسلم تورميدا» سابقًا

أكبر علماء النصارى في القرن الثامن الهجري

في الوقت الذي كان الصليبيون يُكَرِّسون جهودهم في نشر النصرانية المحرفة في ربوع الأندلس بعد نفي المسلمين منها، شرح الله صدر رجل من أكبر علمائها للإسلام، فأسلم وجهه لله، واستقام على طاعة الله، وجاهد بيده ولسانه وقلمه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ذلكم هو الشيخ «أبو محمد عبد الله بن عبد الله الترجمان الميورقي»، الذي كان قسيسًا يدعى «انسلم تورميدا»، والذي اشتهر بالترجمان لأنه لما مضى خمسة أشهر على إسلامه، قدَّمه السلطان في الديوان لقيادة البحر، وكان يقصد من ذلك أن يتعلم اللغة العربية، لتكرر عمل الترجمة هناك بين النصارى والمسلمين، فأتقن اللغة العربية في سنة واحدة، وعيَّنه الأمير رئيسًا لشئون الترجمة.

ومن ألقابه عند العوام: «سيدى تحفة» وذلك نسبة إلى كتابه الشهير: «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» ذلك الكتاب الذي كان بمثابة ضربة قوية على بنيان النصرانية، كتبه عالم من أكبر علماء النصرانية في عصره باعتراف أهلها وشهادتهم، والذي افتتحه بذكر قصة إسلامه التي نختصرها فيما يلي، فَلْنُصْغِ إليه



الآن وهو يحكي لنا بداية هدايته، وكيف حَرَّرَ الله قلبه من رق الشرك والكفران، وشرح صدره للإسلام، فكان على نورٍ من ربه:

اعلموا -رحمكم الله- أن أصلي من مدينة «مَيُورْقَة»[١] -أعادها الله للإسلام- وهي مدينة كبيرة على البحر بين جبلين، يشقها وادٍ صغير، وهي مدينة متجر، ولها مرساتان -اثنتان- عجيبتان، ترسو بهما السفن الكبيرة للمتاجر الجليلة، والمدينة في جزيرة تسمى باسم المدينة «ميورقة» وأكثر غاباتها زيتون وتين.

وكان والدي محسوبًا من أهل حاضرة «مَيورقة»، ولم يكن له ولد غيري، ولما بلغت ست سنين من عمري أسلمني إلى معلم من القسيسين، قرأت عليه الإنجيل، حتى حفظت أكثر من شطره في مدة سنتين، ثم أخذت في تعلم لغة الإنجيل، وعلم المنطق، في ست سنين.

ثم ارتحلت من بلدي «مَيورقة» إلى مدينة «لاردة» من أرض «القسطلان»[٢]، وهي مدينة العلم عند النصارى في ذلك القطر.

وبهذه المدينة تجتمع طلبة العلم من النصارى، وينتهون إلى ألف رجل أو ألف وخمسمائة، ولا يحكم فيهم إلا القسيس الذي يقرؤون عليه، فقرأت فيها علم الطبيعيات، والنجامة مدة ست سنين، ثم تصدرت فيها أقرأ الإنجيل ولغته ملازمًا لذلك مدة أربع سنين، ثم ارتحلت إلى مدينة «بلونية» من أرض «الأنبردية»، وهي مدينة كبيرة جدًّا، وهي مدينة علم عند جميع أهل ذلك القطر،



---

(١) مَيُورقة: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، جنوب شرقي أسبانيا اليوم، فتحها المسلمون سنة (٢٩٠هـ)، إلى أن تغلب عليها العدو البرشلوني، وخربها سنة (٥٠٨هـ).

(٢) وهي تدعى اليوم: «كاستيلون» و«قسطلة» مدينة بالأندلس.

ويجتمع بها كل عام من الآفاق أزيدُ من ألفي رجل يطلبون العلوم، ولا يلبسون إلَّا الملف[(١)] (الذي هو صباغ الله)[(٢)]، ولو يكون طالب العلم منهم سلطانًا أو ابن سلطان فلا يلبس إلَّا ذلك ليمتاز الطلبة عن غيرهم، ولا يحكم فيهم إلَّا القسيس الذي يقرؤون عليه.

فسكنت في كنيسة لقسيس كبير السن عندهم، كبير القدر اسمه: «نقلاو مرتيل» وكانت منزلته فيهم بالعلم والدين والزهد رفيعة جدًّا، انفرد بها في زمنه عن جميع أهل دين النصرانية، فكانت الأسئلة في دينهم تَرِدُ عليه من الآفاق من جهة الملوك وغيرهم، ويصحب الأسئلةَ من الهدايا الضخمة ما هو الغاية في بابه، ويرغبون في التبرك به، وفي قبوله لهداياهم، ويتشرفون بذلك.

فقرأت على هذا القسيس علم أصول النصرانية وأحكامه، ولم أزل أتقرب إليه بخدمته والقيام بكثير من وظائفه؛ حتى صَيَّرَني من أخص خواصه، وانتهيت في خدمتي له وتقربي إليه إلى أن دفع إليَّ مفاتيح مسكنه، وخزائن مأكله ومشربه، وصَيَّرَ جميعَ ذلك كله عَلَى يدي، ولم يستثنِ من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، الظاهر أنه بيت خزانة أمواله التي كانت تُهْدَى إليه، والله أعلم.

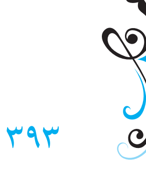
فلازمتُه على ما ذكرتُ من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين، ثم أصابه مرض يومًا من الدهر، فتخلَّف عن حضور مجلس أقرانه، وانتظره أهل المجلس، وهم يتذاكرون مسائل من العلوم، إلى أن أفضى بهم الكلامُ إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ على



(١) **الملف**: كمِقَصٍّ، لحاف يُلتحَف به.
(٢) لعله زي مصبوغ بصباغ له قداسة عندهم، والله أعلم.

لسان نبيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الإنجيل: (إنه يأتي من بعده نبي اسمه «البارقليط»[١])، فبحثوا في تعيين هذا النبي مَن هو مِن الأنبياء؟، وقال كل واحد منهم بحسب علمه وفهمه، فعظم بينهم في ذلك مقالُهم، وكثر جدالهم، ثم انصرفوا من غير تحصيل فائدة في تلك المسألة، فأتيتُ مسكنَ الشيخِ صاحبِ الدرسِ المذكور، فقال لي: «ما الذي كان عندكم اليوم من البحث في غيبتي عنكم؟ »، فأخبرته باختلاف القوم في اسم «البارقليط» وأن فلانًا قد أجاب بكذا، وأجاب فلان بكذا، وسردت له أجوبتهم، فقال لي: «وبماذا أجبتَ أنت؟ »، فقلت: «بجواب القاضي فلان في تفسيره الإنجيل»، فقال لي: «ما قَصَّرْتَ، وقَرُبْتَ، وفلان أخطأ، وكاد فلان أن يقارب، ولكن الحق خلافُ هذا كله، لأن تفسير هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا العلماء الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل»، فبادرتُ إلى قدميه أقبلهما، وقلت له: «يا سيدي قد علمتَ أني ارتحلت إليك من بلدٍ بعيد، ولي في خدمتك عشرُ سنين، حَصَّلْتُ عنك فيها من العلوم جملةً لا أحصيها فلعلَّ من جميل إحسانكم أن تمنوا عَلَيَّ بمعرفة هذا الاسم»،

(١) وردت هذه الكلمة في الأناجيل مرة بلفظ (المعزي) ومرة بلفظ آخر هو (بارقليط)، و«بارقليط» تعريب لكلمة (بيريكلتوس) وقد حصل نقاش بين الأستاذ «عبد الوهاب النجار» ود. «كارلو نلينو» حول هذه الكلمة، فقال: (... ثم قلت له -وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة- «ما معنى (بيريكلتوس)؟» فأجابني بقوله: «إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها: (المعزي)»، فقلت: «إني أسأل الدكتور (كارلو نلينو) الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولست أسأل قسيسًا»، فقال: إن معناها: (الذي له حمد كثير)، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حَمِدَ؟ فقال: نعم، فقلت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسمائه «أحمد»، فقال: يا أخي أنت تحفظ كثيرًا...) انظر: «قصص الأنبياء» عبد الوهاب النجار، (ص٣٩٧، ٣٩٨).



فبكى الشيخ، وقال لي: «يا ولدي! والله أنت لَتَعُزُّ عليَّ كثيرًا من أجل خدمتك لي، وانقطاعك إليَّ، في معرفة هذا الاسم الشريف فائدة عظيمة، لكنني أخاف عليك أن يظهر ذلك عليك، فتقتلك عامة النصارى في الحين»، فقلت له: «يا سيدي والله العظيم وحق الإنجيل ومن جاء به لا أتكلم بشيء مما تُسِرُّهُ إليَّ إلَّا عن أمرك»، فقال لي: «يا ولدى إني سألتك في أول قدومك عَلَيَّ عن بلدك، وهل هو قريب من المسلمين؟ وهل يغزونكم أو تغزونهم لأختبر ما عندك من المنافرة للإسلام، فاعلم يا ولدى أن «البارقليط» هو اسم من أسماء نبيهم محمد[1] صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه نزل الكتاب الرابع المذكور على لسان دانيال[2] عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخبر أنه سينزل هذا الكتاب عليه، وأن دينه هو دين الحق، وملته هي الملة البيضاء المذكورة في الإنجيل» قلت له: «يا سيدي وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟»، فقال لي:

(١) من الواضح أن هذا القسيس يؤمن برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ إنه يعرف أوصافه الموجودة في التوراة والإنجيل، وقد تحدث العلماء المسلمون عن معرفة علماء أهل الكتاب للنبي محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد نقل الإمام الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ ما تناولته الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [يونس:٩٤] وما يتعلق بها من معانٍ، وأشار إلى قول صاحب الكشاف الذي قال: (والمعنى أن الله تعالى قَدَّم ذكر بني إسرائيل وهم قراء الكتاب، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم، لأن أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وخلص إلى القول: (فالغرض: وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله) انظر: «شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل»، للإمام عبد الملك بن عبد الله الجويني، و«الدر المنثور» للسيوطي (١/ ١٤٧).

(٢) نقل الشيخ رحمة الله الهندي (في البشارة الحادية عشر) في الباب الثاني من كتاب دانيال حال الرؤيا التي رآها بختنصر ملك بابل ونسي، وهي رؤيا طويلة. انظر: دانيال (٢: ١ – ٤٦)، وخلص إلى أن تلك الأوصاف تنطبق على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انظر: «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي، ترجمة عمر الدسوقي (٢/ ٢٦٧)، و«محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتاب المقدس» للبروفيسور عبد الأحد داود (ص٨٦-٩٤)، (ص١٣٣-١٤٤).



«يا ولدي لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله، لأن عيسى وجميع الأنبياء دينُهم دين الله، ولكن بَدَّلوا وكفروا».

فقلت له: «يا سيدي وكيف الخلاص من هذا الأمر؟»، فقال: «يا ولدي بالدخول في دين الإسلام»، قلت له: «وهل ينجو الداخل فيه؟»، قال لي: «نعم ينجو في الدنيا والآخرة»، فقلت: «يا سيدي إن العاقل لا يختار لنفسه إلَّا أفضل ما يعلم، فإذا علمتَ فضلَ دين الإسلام فما يمنعك منه؟»، فقال لي:«يا ولدي إن الله تعالى لم يُطْلِعْني على حقيقة ما أخبرتُك به من فضل الإسلام، وشَرَفِ نبي أهل الإسلام إلَّا بعد كِبَرِ سِني، ووَهَنِ جسمي، ولا عذر لنا فيه بل هو حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنك لتركتُ كلَّ شيء، ودخلت في دين الحق، وحبُّ الدنيا رأسُ كُلِّ خطيئة، وأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى من رفعة الجاه والعز والترف، وكثرة عَرَض الدنيا، ولو أني ظهر عَلَيَّ شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلتني العامة في أسرع وقت، وَهَبْ أني نجوتُ منهم، وخَلُصْتُ إلى المسلمين، فأقول لهم: إني جئتكم مسلمًا، فيقولون لي: قد نفعتَ نفسك بنفسك بالدخول في دين الحق، فلا تَمُنَّ علينا بدخولك في دين خلَّصْتَ به نفسَك من عذاب الله، فأبقى بينهم شيخًا كبيرًا فقيرًا ابن تسعين سنة، لا أفقه لسانهم، ولا يعرفون حقي، فأموت بينهم جوعًا[1]، وأنا والحمد لله على دين عيسى وعلى

(١) هذا خيال فاسد، وسوء ظن بخير أمة أخرجت للناس، وجهل بسماحة الإسلام، ونظامه الاجتماعي الرائع المبني على التكافل والرحمة والإحسان إلى الخلق، وحفظ حقوقهم، ورعاية قدرهم، هذا إذا كانوا باقين على دينهم، فكيف بمن انضم إليهم مسلمًا لله عَزَّوَجَلَّ، شاهدًا شهادة الحق؟، وتأمل ما حكاه أبو عبيد عن عمر ابن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يكتب إلى عدي بن أرطاة بالبصرة قائلًا له: (.. وانظر مَن قِبَلَكَ مِن أهل الذمة قد كبر سنه، وضعفتْ قوته، وولت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلًا من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، =

ما جاء به، يعلم الله ذلك مني»، فقلت له: «يا سيدي أفتدلني أن أمشي إلى بلاد المسلمين وأدخل في دينهم؟»، فقال لي: «إن كنت عاقلًا طالبًا للنجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدنيا والآخرة، ولكن يا ولدي هذا أمر لم يحضره أحد معنا الآن، فاكتمه بغاية جهدك، وإن ظهر عليك شيء منه قتلتك العامة لِحِينك، ولا أقدر على نفعك، ولا ينفعك أن تنقل ذلك عني، فإني أجحده، وقولي مُصَدَّق عليك، وقولُك غير مُصَدَّق عَلَيَّ، وأنا بريء من ذلك إن فُهْتَ بشيء من هذا»، فقلت: «يا سيدي أعوذ بالله من سريان الوهم لهذا»، وعاهدتُه بما يرضيه.

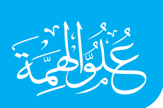
ثم أخذت في أسباب الرحلة وودَّعتُه، فدعا لي عند الوداع بخير، وزودني بخمسين دينار ذهبًا، وركبتُ البحر منصرفًا إلى بلدي مدينة «ميورقة»، فأقمت بها مع والدي ستة أشهر، ثم سافرت منها إلى جزيرة صقلية، وأقمت بها خمسة أشهر، وأنا أنتظر مركبًا يتوجه لأرض المسلمين.

فحضر مركب يسافر إلى مدينة «تونس»، فسافرت فيه من «صقلية»، وأقلعنا عنها قرب مغيب الشفق، فوردنا مرسى «تونس» قرب الزوال.



فلما نزلت بديوان «تونس»، وسمع بي الذين بها من أحبار النصارى، أتوا بمركب، وحملوني معهم إلى ديارهم، وصَحِبَتْهُم بعضُ التجار الساكنين أيضًا

=وضعفت قوته، وولَّت عنه المكاسب، كان من الحق عليه أن يقوته، حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مَرَّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال: «ما أنصفناك إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك في كبرك»، قال: ثم أجري عليه من بيت المال ما يصلحه) اهـ من «كتاب الأموال» للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، وأقوى رَدٍّ على هذا الخيال الفاسد هو ما حظي به تلميذه الترجمان لما آوى إلى المسلمين من الاحترام والتقدير والتكريم.





بتونس، فأقمت عندهم في ضيافتهم على أرغد عيش أربعة أشهر، وبعد ذلك سألتهم هل بدار السلطان أحد يحفظ لسان النصارى، وكان السلطان آنذاك مولانا أبا العباس أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فذكر لي النصارى أن بدار السلطان المذكور رجلًا فاضلًا من أكبر خُدَّامه اسمه «يوسف الطبيب» وكان طبيبه، ومن خواصه، ففرحت بذلك فرحًا شديدًا، وسألت عن مسكن هذا الرجل الطبيب، فدُلِلْتُ عليه، واجتمعت به، وذكرت له شرح حالي، وسبب قدومي للدخول في الإسلام، فَسُر الرجلُ بذلك سرورًا عظيمًا بأن يكون تمام هذا الخير على يديه، ثم ركب فرسه وحملني معه لدار السلطان، ودخل عليه فأخبره بحديثي، واستأذنه لي، فأذن لي.

فمثلت بين يديه، فأول ما سألني السلطان عن عمرى، فقلت له: «خمسة وثلاثون عامًا»، ثم سألني عما قرأت من العلوم، فأخبرته، فقال لي: «قدمتَ قدوم خير، فَأَسْلِمْ على بركة الله»، فقلت للترجمان -وهو الطبيب المذكور-: «قل لمولانا السلطان إنه لا يخرج أحد من دين إلا ويُكْثِرُ أهلُه القولَ فيه، والطعنَ فيه، فأرغب من إحسانكم أن تبعثوا إلى الذين بحضرتكم من تجار النصارى وأحبارهم، وتسألوهم عني وتسمعوا ما يقولون في جنابي، وحينئذ أسْلِمُ إن شاء الله تعالى»، فقال لي بواسطة الترجمان: «أنت طلبت ما طلب (عبد الله بن سلام) من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أسلم»[١].

(١) تشابهت قصة إسلام «الترجمان» بقصة إسلام الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو من بني إسرائيل من ولد يوسف بن يعقوب نبي الله عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وقد روى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أقبل نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، قالوا: جاء نبي الله، فاستشرفوا ينظرون، إذ سمع به عبد الله بن سلام، وهو في نخل لأهله يخترف لهم منه، فعجل أن يضع التي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه، فسمع من نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم رجع إلى أهله، قال: فلما خلى نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء عبد الله بن سلام، فقال: «أشهد أنك رسول الله حقًّا، وأنك جئت بحق، ولقد عَلِمت اليهودُ أني سيدهم، =





ثم أرسل إلى أحبار النصارى وبعضِ تجارهم، وأدخلني في بيت قريب من مجلسه، فلما دخل النصارى عليه، قال لهم: «ما تقولون في هذا القسيس الجديد الذي قدم في هذا المركب؟»، قالوا له: «يا مولانا هذا عالم كبير في ديننا، وقالت شيوخنا: إنهم ما رأوا أعلى من درجته في العلم والدين في ديننا»، فقال لهم: «وما تقولون فيه إذا أسلم؟»، قالوا: «نعوذ بالله من ذلك، هو ما يفعل هذا أبدًا»، فلما سمع ما عند النصارى بعث إليَّ، فحضرتُ بين يديه، وشَهِدْتُ شهادَتَيْ الحق بمحضر النصارى، فَصَلَّبوا[(١)] على وجوههم، وقالوا: «ما حمله على هذا إلاَّ حُبُّ التزويج، فإن القسيس عندنا لا يتزوج»[(٢)]، وخرجوا مكروبين محزونين.

=وأعلمهم، وابن أعلمهم، فادعهم، فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ».

فأرسل نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًّا، وأني جئتكم بحق: أسلموا**»، قالوا: «ما نعلمه»، فأعادها عليهم ثلاثًا، وهم يجيبونه كذلك. قال: «**فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» قالوا: «ذاك سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا، وابن أعلمنا»، قال: «**أفرأيتم إن أسلم؟**»، قالوا: «حاشا لله! ما كان ليسلم»، فقال: «**يابن سلام، اخرج عليهم**»، فخرج إليهم، فقال: «يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقًّا، وأنه جاء بالحق»، فقالوا: «كذبتَ»، فأخرجهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ من «عيون الأثر» لابن سيد الناس (١/ ٢٥٠)، وانظر: «فتح الباري» (٧/ ٢٧٢).

(١) (صَلَّبوا)، وهذا أمر ثابت عند النصارى لأنهم إذا أرادوا التعوُّذ من شيء رفعوا أصابعهم مضمومة على جبهتهم، ثم أشاروا بعلامة الصليب مرورًا بالكتف الأيمن فالأيسر فالوسط، وقد تتعدى هذه الإشارة من التعوذ إلى البركة، حيث إن البابا يرسم هذه الإشارة حينما يظهر لعامة الناس.

(٢) (حَرَّمت الكنيسة الكاثوليكية على القسس والرهبان والراهبات الزواج، فأدى ذلك التحريم إلى انتشار الفسق والفجور بين رجالها ونسائها، حتى لقد كان القسس والرهبان يتصلون بالراهبات أنفسهن، ويبررون ذلك بأنه ضرب من المساكنة الروحية) اهـ. من «الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» د. علي عبد الواحد وافي، (ص١٢٢). =





فرتَّب لي السلطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربع دينار كل يوم في دار المختص، وزوَّجني ابنةَ الحاج محمد الصفَّار.

فلما عزمت على البناء بها أعطاني مائة دينار ذهبًا، وكسوة جيدة كاملة، فبنيت بها، ووُلِد لي منها ولدٌ سميته «محمدًا» على وجه التبرك باسم نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. اهـ.

ثم شرع الشيخ عبد الله الترجمان في ذكر طرف من أخبار الدولة الحفصية التي خدم في ديوانها، ثم أردفه بأبواب تسعة كشف فيها هوية كُتَّاب الأناجيل الأربعة «متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا»، وأكَّد أنهم ليسوا من حواريي المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأدلة علمية دقيقة، ثم ناقش قضايا التعميد «التغطيس»، والتثليث، والأقانيم، والخطيئة الأولى، والعشاء الرباني، وصك الغفران، وقانون الإيمان، وفَنَّدَها كلَّها بنصوص الأناجيل، وبأدلة العقل الصريح.

ثم أثبت بشرية المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونفى ألوهيته المزعومة، ثم عرض التناقضات في نصوص الأناجيل المحرفة، ثم تعرض لما يعيبه النصارى على المسلمين؛ كزواج العلماء والصالحين، والختان، والنعيم الحسي في الجنة، ثم ختم كتابه بإثبات نبوة رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان فضله ومنزلته بنصوص من التوراة والإنجيل[(١)].



= ولهذا السبب قام مارتن لوثر البروتستانتي في القرن السادس عشر بثورة على الكنيسة، وكان من ضمن آرائه في الإصلاح: (أن جزءًا من فساد الدين يرجع إلى عدم الزواج، ورأى أن المنع منه لم يكن في المسيحية في عصورها الأولى، فقرر حقهم في الزواج، وتزوج هو فعلًا مع أنه من رجال الدين، وكان زواجه من راهبة) اهـ. من «محاضرات في النصرانية» لأبي زهرة، (ص١٦).

(١) وقد طبع الكتاب «دار البشائر الإسلامية» – بيروت – لبنان – بتحقيق وتعليق الأستاذ عمر وفيق الداعوق – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ومن مقدمته نقلنا هذه القصة بتصرف.

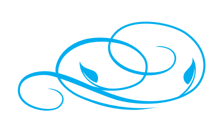
وبعد: فهذا طرف من سيرة الشيخ الميورقي وجهاده بقلمه ولسانه في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، أما جهاده بيده فقد اشترك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جهاد بني جلدته من الكافرين، وفي حملة الأسطول الحفصي على جزيرة صقلية (سنة ٧٩٦هـ تقريبًا)، وكان يتولى منصب القائد البحري.

فإن صحت رواية استشهاد الترجمان أثناء الغارة الصليبية على تونس، فهذا شرف عظيم يضاف إلى سجله الناصع في خدمة دين الحق والجهاد في سبيله.

إن سيرة الشيخ الترجمان منار ينير الدرب للتائهين في لجج الظلام، ودياجير الجهل، ويحرر عقولهم من أسر التقليد الأعمى لمن لا يملكون لهم رزقًا ولا أجلًا، ويهدي الحائرين الباحثين عن الحقيقة التي هي أقرب لأحدهم من حبل الوريد، إنها حجة على الجاحدين المعاندين الذين غلَّقوا أعينهم، وجعلوا أصابعهم عليها ليقنعوا أنفسهم أن الشمس غائبة، وأن الدنيا ظلام .. ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

رحم الله الشيخ الترجُمان، وأعلى درجته في المهديين، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا، والحمد لله رب العالمين.





(٤) عُلُوّ هِمَّة الأَخِ «رحمة بورنومو» في بَحْثِه عَنِ الدّينِ الحَقِّ(١)

إنه رجل ينتسب إلى أب هولندي وأم إندونيسية من مدينة «أمبون» الواقعة في جزيرة صغيرة في أقصى الشرق من جزر إندونيسيا، والنصرانية هي الدين الموروث لأسرته أبًا عن جَد.

كان جده قسيسًا ينتمي إلى مذهب البروتستانت، وكان أبوه أيضًا قسيسًا على مذهب بانتي كوستا، وكانت والدته معلمة الإنجيل للنساء، أما هو نفسه فقد كان قسًّا، ورئيسًا للتبشير في كنيسة «*Little Angel Spinoza*»، وقد قال وهو يحكي سبب إسلامه:

لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين، إذ إنني منذ نعومة أظفاري تلقيت التعليم من والدي الذي كان يقول لي دائمًا: «إن محمدًا رجل بدوي صحراوي ليس له علم ولا دراية، ولا يقرأ وأنه أمي»، هكذا علمني أبي، بل أكثر من ذلك فقد قرأت للبروفسور الدكتور ريكولدي النصراني الفرنسي قوله في كتاب له: «بأن محمدًا رجل دجال يسكن في الدرك التاسع من النار»، هكذا كانت تساق المفتريات الكثيرة لتشويه شخصية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنذ

(١) من «رجال ونساء أسلموا» للأستاذ عرفات كامل العشي (٨/ ٦٣-٨٦) بتصرف.

ذلك الحين تكونَتْ لديَّ فكرة مغلوطة راسخة تدفعني إلى رفض الإسلام، وعدم اتخاذه دينًا لي.

ثم يقول: الواقع أنه لم يكن من أهدافي بحال من الأحوال أن أبحث عن دين الإسلام، ولكني كان يحدوني دائمًا دافع لأن أهتدي إلى الحق، ولكن لماذا كنت أبحث عن الحق المجهول؟ ولماذا تركت ديني رغم أنني كنت أتمتع فيه بمكانة مرموقة بين قومي؛ حيث كنت رئيس التبشير المسيحي في الكنيسة، وكنت أحيا بناء على ذلك حياةً كلها رفاهية ويسر، إذن لماذا اخترت الإسلام؟

لقد بدأت القصة على النحو التالي:

في يوم من الأيام أرسلتني قيادة الكنيسة للقيام بأعمال تبشيرية لمدة ثلاثة أيام ولياليها في منطقة «دايري» التي تبعد عن عاصمة «ميدان» الواقعة في شمال جزيرة سومطرة بضع مئات من الكيلومترات، ولما انتهيت من أعمال التبشير والدعوة أويتُ إلى دار مسؤول الكنيسة في تلك المنطقة، وكنت في انتظار وصول سيارة تُقلُّني إلى موقع عملي، وإذا برجل يطلع علينا فجأة، لقد كان معلمًا للقرآن، وهو من يقال له في إندونيسيا «مطوع» في الكُتَّاب، وهو المدرسة البسيطة التي تُعلم القرآن، لقد كان الرجل ملفتًا للأنظار، كان نحيف الجسم، دقيق العود يرتدي كوفية بيضاء بالية خَلَقة، ولباسًا قد تبدل لونه من كثرة الاستعمال، حتى أن نعله كان مربوطًا بأسلاك لشد قدمه، اقترب الرجل مني، وبعد أن بادلني التحية بادرني بالسؤال التالي، وكان سؤالًا غريبًا من نوعه، قال: «لقد ذكرتَ في حديثك أن عيسى المسيح إله، فأين دليلك على ألوهيته؟»، فقلت له: «سواء أكان هناك دليل أم لا فالأمر لا يهمك: إن شئت فلتؤمن، وإن شئت فلتكفر»،



وهنا أدار الرجل ظهره لي، وانصرف، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد أخذتُ أفكر في قرارة نفسي، وأقول: «هيهات هيهات أن يدخل هذا الرجل الجنة، لأنها مخصصة فقط لمن يؤمن بألوهية المسيح فحسب»، هكذا كنت أعتقد جازمًا آنذاك.

ولكن عندما عدت إلى بيتي وجدت أن صوت الرجل يجلجل في رُوعي، ويدق بقوة في أسماعي، مما دفعني إلى الرجوع إلى كتب الإنجيل بحثًا عن الجواب الصحيح على سؤاله، ومعلوم أن هناك أربعة أناجيل مختلفة أحدها بقلم متى، والآخَر مارك، والثالث لوقا، والرابع يوحنا، هذه التسميات أُخِذَتْ لمؤلف كل منها، أي أن الأناجيل الأربعة المشهورة هي من صنع البشر، وهذا غريب جدًّا، ثم سألت نفسي: «هل هناك قرآن بنسخ مختلفة من صنع البشر؟» وجاءني الجواب الذي لا مفر منه، وهو: «بالطبع لا يوجد»، فهذه الكتب وبعض الرسائل الأخرى هي فقط مصدر تعاليم الديانة المسيحية المعتمدة!.

وأخذت أدرس الأناجيل الأربعة فماذا وجدت؟ هذا إنجيل مَتَّى ماذا يقول عن المسيح عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ إننا نقرأ فيه ما يلي: «إن عيسى المسيح ينتسب إلى إبراهيم وإلى داود ... إلخ (١-١) إذن من هو عيسى؟ أليس من بني البشر؟ نعم إذن فهو إنسان، وهذا إنجيل لوقا يقول: «ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية» (١-٣٣)، وهذا إنجيل مارك يقول: «هذه سلسلة من نسب عيسى المسيح ابن الله»، وأخيرًا ماذا يقول إنجيل يوحنا عن عيسى المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ إنه يقول: «في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان





الكلمة الله» (١ : ١)، ومعنى هذا النص هو في البدء كان المسيح، والمسيح عند الله، والمسيح هو الله.

قلت لنفسي: إذن هناك خلاف بارز بين هذه الكتب الأربعة حول ذات المسيح عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أهو إنسان أم ابن الله أم مَلَك أم هو الله؟ لقد أشكل عليَّ ذلك، ولم أعثر له على جواب، وهنا أحب أن أسأل إخواني النصارى: «هل يوجد في القرآن الكريم تناقض بين آية وأخرى؟» بالطبع لا، لماذا؟ لأن القرآن من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما هذه الأناجيل فهي من تأليف البشر، إنكم تعرفون ولا شك أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان طيلة حياته يقوم بأعمال الدعوة إلى الله هنا وهناك، ولنا أن نتساءل: تُرى ما هو المبدأ الأساسي الذي كان يدعو إليه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

هذا إنجيل مارك، يقول: فجاء واحد من الكتبة، وسمعهم يتحاورون، فلما رأى أنه (أي المسيح) أجابهم حسنًا، سأله: أية وصية هي الأولى؟ فأجابه يسوع قائلًا: «إن أولى الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد» (١٢ : ٢٨-٢٩)، هذا اعتراف صريح من عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إذن لو كان عيسى قد اعترف أن الله هو الإلهُ الواحد الأحد فمن هو عيسى إذن؟ لو كان عيسى هو الله أيضًا، فلن تكون هناك وحدانية لله، أليس كذلك؟

ثم واصلت البحث، فوجدت في إنجيل يوحنا نصوصًا تشير إلى دعاء المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتضرعه إلى الله سبحانه. فقلت لنفسي: لو كان عيسى هو الله القادر على كل شيء فهل يحتاج إلى هذا التضرع والدعاء؟ طبعًا لا، إذن عيسى ليس إلهًا بل هو مخلوق مثلنا، استمع معي إلى الدعاء الذي ورد في إنجيل يوحنا، هذا هو نص



الدعاء: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مَجَّدتُك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملتُه» (١٧: ٣-٤) وهو دعاء طويل يقول في نهايته: «أيها الرب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به» (١٧: ٢٥-٢٦).

هذا الدعاء يمثل اعترافًا من عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، فأي قوم هم هؤلاء يا تُرى؟ نقرأ جواب ذلك في إنجيل متى (١٥: ٢٤) حيث يقول: «لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»، إذن لو ضممنا هذه الاعترافات إلى بعضها لأمكننا أن نقول: «إن الله هو الواحد الأحد، وإن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو رسول الله إلى بني إسرائيل». ثم واصلتُ البحث، فتذكرت أنني حين أكون في صلاتي أقرأ دائمًا العبارات التالية: «الله الأب، الله الابن، الله الروح القدس، ثلاثة في أقنوم واحد»، قلت لنفسي: أمر غريب حقًّا، فلو سألنا طالبًا في الصف الأول الابتدائي «١ + ١ + ١ = ٣؟ »، لقال: «نعم»، ثم إذا قلنا له: «ولكن أيضًا ٣ = ١ »، لما وافق على ذلك، إذ إن هناك تناقضًا صريحًا فيما نقول، لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول في الإنجيل كما رأينا بأن الله واحد، لا شريك له.

لقد حدث تناقض صريح بين العقيدة التي كانت راسخة في نفسي منذ أن كنت طفلًا صغيرًا، وهي: ثلاثة في واحد، وبين ما يعترف به المسيح عيسى نفسه في كتب الإنجيل الموجودة الآن بين أيدينا، وهي أن الله واحد أحد لا شريك له، فأيهما هو الحق؟ لم يكن بوسعي أن أقرر آنذاك، والحق يقال، بأن الله واحد أحد،



فأخذت أبحث في الإنجيل من جديد لعلي أقع على ما أريد، لقد وجدت في سفر أشعياء النص التالي: «اذكروا الأوليات منذ القديم، لأني أنا الله وليس آخَر الإله، وليس مثلي» (٤٦ : ٩)، ولشد ما كانت دهشتي عظيمة حين اعتنقت الإسلام فوجدت في سورة الإخلاص قول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤]. نعم، ما دام الكلامُ كلامَ الله فهو لا يختلف حيثما وجد، هذا هو التعليم الأول أو البديهية الأولى في ديانتي المسيحية السابقة، إذن «ثلاثة في واحد» لم يعد لها وجود في نفسي.

ثم ينتقل الأخ رحمة بورنومو الإندونيسي إلى نقطة جوهرية أخرى جعلته يختار الإسلام دينًا فهو يقول:

أما البديهية الثانية في الديانة المسيحية فتقول بأن هناك ما يسمى بالذنب الوراثي أو الخطيئة الأولى، ويُقصد بهذا أن الذنب الذي اقترفه آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما أكل الثمرة المحرمة عليه من الشجرة في الجنة، هذا الذنب سوف يرثه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه يتحمل هذا الإثم ويُولَد آثمًا، فهل هذا صحيح أم لا؟ لقد أخذت أبحث عن حقيقة ذلك، فلجأت إلى العهد القديم فوجدت في سفر حزقيال ما يلي: «الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بِرُّ البارِّ عليه يكون، وشَرُّ الشريرِ عليه يكون، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًّا وعدلًا، فحياة يحيا لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه» (حزقيال ١٨ : ٢٠-٢١).





لعل من المناسب هنا أن نذكر ما يقولهُ القرآن الكريم في هذا المقام: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [فاطر:١٨]، ويقول الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**يُولد ابن آدم على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، هذه هي القاعدة في الإسلام، ويوافقها ما جاء في الإنجيل، فكيف يقال: «إن خطيئة آدم تنتقل من جيل إلى جيل، وأن الإنسان يولد آثمًا؟».

يقول الأخ «رحمة بورنومو» الإندونيسي: إذن هذه التعاليم المسيحية قد اتضح بطلانها وافتراؤها بنص صريح من الكتاب الموصوف بـ«المقدس» نفسه.

وهناك البديهية الثالثة في التعاليم النصرانية التي تقول: إن ذنوب بني البشر لا تُغفَر حتى يُصلب عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لقد أخذت أفكر في هذه البديهية، وأتساءل: «هل هذا صحيح؟» وكان الجواب الذي لا مفر منه: بالطبع لا، لأن النص الآنف الذكر من العهد القديم ينفي مثل هذا الاعتقاد بقوله: «فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياه التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقًّا وعدلًا، فحياة يحيا لا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تُذْكَر عليه»، أي أن الله يغفر ذنوبه دون حاجة إلى أية وساطة من أحد.

ويمضي الأخ الإندونيسي الذي كان قسًّا في يوم من الأيام يحدثنا عما فعل بعد ذلك ضمن رحلته الطويلة من الكفر إلى الإسلام، فيقول: لقد واصلت البحث في عدد من القضايا الاعتقادية الأخرى، لقد وضعت يومًا من الأيام كُلًّا من الإنجيل والقرآن أمامي على المنضدة، ووجهتُ السؤال التالي إلى الإنجيل



قلت له: «ماذا تعرف عن محمد؟» فقال: «لا شيء، لأن اسم محمد غير مذكور في الإنجيل»، ثم وجهت السؤال التالي إلى عيسى كما تحدث عنه القرآن فقلت: «يا عيسى ابن مريم ماذا تعرف عن محمد؟» فقال: «لقد ذكر القرآن بما لا يدع مجالًا للشك أن رسولًا لا بد أن يأتي بعدي اسمه أحمد»، يقول تعالى على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦] فأي ذلك حق يا ترى؟

ثم يقول: هناك إنجيل واحد هو إنجيل برنابا وهو غير الأناجيل الأربعة التي ذكرناها من قبل، وهذا الإنجيل للأسف حَرَّم رجالُ الدين النصارى على أتباعهم الاطلاعَ عليه، أتدرون لماذا؟ الأرجح أنه لأن هذا الإنجيل هو الوحيد الذي يتضمن البشرى بسيدنا محمد، وتقل فيه الإضافات والتحريفات إلى حد أدنى، كما أن فيه حقائق تطابق ما جاء في القرآن الكريم، جاء في إنجيل برنابا (إصحاح ١٦٣): «وحينئذٍ يسأل التلاميذ المسيح: يا معلم من يأتي بعدك؟ فقال المسيح بكل سرور وفرح: محمد رسول الله سوف يأتي من بعدي كالسحاب الأبيض يُظل المؤمنين جميعًا».

ويمضي الأخ رحمة بورنومو فيقول: ثم قرأت آية أخرى في إنجيل برنابا وهي قوله في (الإصحاح ٧٢): وحينئذ إندرياس (التلميذ) يسأل المسيح: «يا معلم! حين يأتي محمد، ما هي علاماته حتى نعرفه؟ » فقال المسيح: «محمد لا يأتي في عصرنا هذا، وإنما يأتي بعد مئات السنين حين يُحرف الإنجيل، والمؤمنون حينئذ لا يبلغ عددهم ثلاثين نفرًا، فحينئذ يرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خاتم الأنبياء



والمرسلين محمدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، لقد تردد ذكر ذلك في إنجيل برنابا عدة مرات، أحصيتُها فوجدت أن فيه خمسة وأربعين آية تذكر محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اكتفيت بالآيتين السابقتين على سبيل الاستشهاد.

بعد ذلك يتحدث الأخ المهتدي الجديد من إندونيسيا عن جانب آخر من دراسته المقارنة فيقول: ومن التعاليم البديهية في الديانة المسيحية أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو المنقذ المخلِّصُ للعالم، أي أنك إذا آمنت بألوهية عيسى فسوف تنجو، وهذا يعني أنك يمكنك أن تفعل ما تشاء غيرَ آبهٍ بالذنوب والمعاصي ما دمتَ تؤمن بعيسى كمنقذ لك، شريطة أن تكون على يقين بأنك من التابعين، قلت لنفسي: لابد أن أبحث في الإنجيل وأعرف الحق من الباطل في ذلك، في سفر أعمال الرسل رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينتوس يقول: «الله قد أقام الرب وسُيقيمنا نحن أيضًا بقوته» (٦: ١٤)، والقصة كما وردت في التعاليم المسيحية هي كالآتي: أنه لما قبضوا على السيد المسيح عرضوه أمام العدالة فحُكم عليه بالصلب، ثم دُفن فهنا تأتي الآية مناسبة لتلك القصة.

وهنا يعلق الأخ رحمة بورنومو فيقول: لقد تأملت هذه الآية طويلًا ثم قلت: إذا لم يتدخل الله في إقامة المسيح من القبر لبقي مدفونًا تحت التراب إلى يوم القيامة، إذن مادام المسيح لم يستطع إنقاذ نفسه فكيف يكون بوسعه إنقاذ الآخرين؟ هل يليق بإله -كما يزعمون- أن يكون عاجزًا عن ذلك؟ لا أشك لحظة أن كل ذي عقل سيوافقني فيما ذهبت إليه، أليس كذلك؟!



ثم يقول: عند ذلك عزمت على الخروج من الكنيسة وعدم الذهاب إليها، كان ذلك في عام ١٩٦٩ حيث خرجت فعلًا ولم أعد أتردد على الكنيسة، وليس معنى ذلك أنني خرجت ذلك الحين من الديانة النصرانية نفسها، لأنه كما هو معلوم هناك كنائس ومذاهب شتى في الديانة النصرانية، فهناك الكاثوليك، والبروتستانت، والميثوديست، والبلاي كسلامتن، واليونيتاريان، وغيرها كثير، حتى أنني أستطيع أن أقول بأن هناك أكثر من ٣٦٠ مذهبًا في الديانة النصرانية، وصدق الله العظيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قد يقول قائل: وفي الإسلام أيضًا توجد مذاهب وطوائف عدة، فهناك المذاهب الأربعة المعروفة، وهي الحنفي والشافعي والحنبلي والمالكي وغيرها.

والجواب: هو أن أتباع المذاهب لا يختلفون في أصول الدين، بل يتفقون جميعًا أن الله واحد، لا شريك له، وأن محمدًا رسول الله، كما يتفقون في أركان الإسلام الخمسة، وجوانب الخلاف بينهم في الفروع فقط لا في الأصول، وخلافهم رحمة كما ورد في الأثر، أما في الديانة المسيحية فالأمر مختلف تمامًا إذ الخلاف في صلب العقيدة، وهذا هو الفارق بين الإسلام والمسيحية.

ومهما اختلفت المذاهب في الإسلام فإنك لا تجد مسجدًا يخص مذهبًا معينًا دون سائر المساجد، بل على العكس من ذلك، فإذا نادى المنادي للصلاة تجد كل مسلم يدخل أقرب مسجد ليصلي فيه. ولكن الأمر مُختلف تمامًا في الديانة النصرانية: فكل كنيسة تتبع مذهبًا معينًا، ولا يدخلها إلا أتباع ذلك المذهب



فحسب، فالكاثوليكي لا يصلي في كنيسة بروتستانتية، والبروتستانتي لا يصلي هو الآخر في كنيسة كاثوليكية، وهكذا.

ثم يمضي الأخ رحمة بورنومو في قصته الشائقة، فيقول: وذات يوم لقيت صديقًا لي فدعاني إلى الكاثوليكية، وأخذ يعدد مميزات لهذا المذهب لم أجد مثلها في مذهبي البروتستانتي، قال صديقي: «في هذا المذهب توجد حجرة الغفران، وهي عبارة عن غرفة في الكنيسة يجلس فيها قس ذو لحية كثيفة يرتدي لباسًا أسود، ويقعد على كرسي عال، ومن طلب العفو والغفران ذهب إليه، وردد بعض الألفاظ غير المفهومة، وما أن يكاد يفرغُ من قراءتها حتى يقال له بأنه بريء من ذنوبه، ويرجع كيوم ولدته أمه، وهكذا قال لي صديقي، وأضاف قائلًا: «كل ما تقترف يداك من الذنوب خلال أيام الأسبوع كفيل بأن يُغفر لك عند ذهابك إلى الكنيسة يوم الأحد، وحصولك على الغفران. فأنت لا تحتاج إلى الصلاة، ولا إلى العبادة، ولكن إذا تركتَ ذلك كلَّه وذهبتَ إلى القس، واعترفت أمامه، غُفِرت ذنوبك».

يقول الأخ رحمة بورنومو: لقد تذكرت ما يقرره الإسلام في ذلك؛ وهو أن البشر مهما علت رتبة أحدهم لا يمكن أن يُوكَلَ إليه غفران ذنوب العباد، كما أن التوبة والمغفرة لا تُسْقِط التكاليف والفرائض، بل لا بد للتائب من أن يؤدي الصلواتِ الخمسَ اليومية في أوقاتها، فإذا تركها فلا قيمة لتوبته وعليه إثم كبير لا يمكن أن يتحمله عنه غيره من الناس ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ صدق الله العظيم.



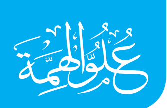
ثم يقول: لقد رأيت الداخلين إلى حجرة الغفران في الكنيسة عليهم أمارات الحزن والكآبة لثقل الذنوب، بينما رأيت من يخرج منها وقد علت وجهه ابتسامة الفرح لاعتقاده بأن ذنوبه قد غفرت له، أما أنا فحين جربت تلك الغرفة دخلتها حزينًا وخَرجت منها حزينًا، لماذا يا ترى؟

لأنني كنت أفكر وأتساءل: «هذه ذنوبنا يتحملها القس، ولكن من يتحمل ذنوبه هو؟ » وهكذا لم أقتنع بالكاثوليكية فتركتها، وبحثت عن دين آخر.

ثم يحدثنا الأخ رحمة بورنومو عن المرحلة التالية من رحلته من الشك إلى اليقين فيقول: بعد ذلك تعرفت على طائفة نصرانية أخرى تسمى (شهود يهوه) وهي مذهب آخر من مذاهب النصرانية، لقيت رئيسهم، وسألته عن تعاليم مذهبه، وقلت له: «من تعبدون؟»، قال: «الله»، قلت: «ومن هو المسيح» فقال: «عيسى هو رسول الله»، فصادف ذلك موافقة لما كنت أومن به، وأميل إليه، ودخلت كنيستهم فلم أجد فيها صليبًا واحدًا، فسألته عن سر ذلك، فقال: «الصليب علامة الكفر، لذلك لا نعلقه في كنائسنا».

وهكذا رضي الأخ رحمة بورنومو أن يعرف المزيد عن شهود يهوه، وهو يصف هذه الفترة من حياته فيقول: لقد أمضيت ثلاثة أشهر كاملة أتلقى تعاليم ذلك المذهب، وفي نهايتها كان لي الحوار التالي مع رئيس الكنيسة، وكان هولنديًّا. قلت له: «يا سيدي، إذا تُوُفِّيتُ على هذا المذهب؛ فإلى أين مصيري؟» قال: «كالدخان الذي يزول في الهواء»، فقلت متعجبًا: «ولكني لست سيجارة، بل أنا إنسان ذو عقل وضمير».






ثم سألته: «وأين أتجه بعد الممات»، فقال: «تُوضَع في ميدان واسع»، قلت: «وأين ذلك الميدان؟» قال: «لا أعلم»، قلت: «سيدي إذا كنتُ عبدًا مطيعًا ملتزمًا بهذا المذهب، فهل أدخل الجنة؟» قال: «لا»، قلت: «فإلى أين إذن؟» قال: «الذين يدخلون الجنة عددهم ١٤٤ ألف شخص فقط، أما أنت فسوف تسكن الأرض مرة أخرى»، وهنا قاطعته قائلًا: «ولكن يا سيدي قد وقعت الواقعة، فالدنيا خربت»، قال: «أنت لا تفهم حقيقة القيامة، لو كان لديك كرسي وفوقه حشرات مؤذية، هل تحرق الكرسي لتتخلص من الحشرات؟» قلت: «لا»، قال: «بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسي سليمًا، وهكذا فتبقى الأرض سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الناس من ذلك الميدان، فليس هناك ما يسمى بالنار».

وهنا أعملت فكري جيدًا، ودرست الأمر وقلبته، حتى اتخذت القرار الأخير بترك النصرانية بجميع مذاهبها رسميًّا، كان ذلك في عام ١٩٧٠، وفي أحد الأيام بينما كنت أسير في طريقي بحثًا عن الحق، رأيت معبدًا بوذيًّا جميلًا ضخمًا فاقتربت منه فوجدت فيه عدة تماثيل وصور في السقف تمثل التنين، وعلى الجدران مثل ذلك، كما شاهدت أمام البوابة تمثالين على شكل أسد صامت، وما أن دخلت من البوابة حتى جاءني رجل فأوقفني، وسأل: «إلى أين؟ » قلت: «أريد أن أدخل»، قال: «اخلع نعليك قبل أن تدخل، هذا معبد لنا فاحترم مكان عبادتنا»، قلت في نفسي: «حتى البوذية تعرف النظافة، أما ديانتي السابقه فلا نظافة فيها، أذكر أنني عندما كنت أدخل الكنيسة لم أكن أخلع نعلَّي عند الدخول»[١].

(١) النظافة هنا ينبغي أن يقصد بها طهارة النعل من النجاسة، وإلا فلا حرج في الصلاة في النعلين الطاهرين، لورود السنة الصحيحة بذلك.





ثم يقول: «لقد جربت الديانة البوذية فترة من الزمن، ولكن سَرعانَ ما تركتها لإحساسي بأنني لم أجد الحق الذي أنشده، ثم اتصلت بالديانة الهندوسية التي بدأت ونشأت في الهند، والتي انتشرت تعاليمها حتى وصلت إلى بعض الجزر الإندونيسية، فأخذت أتنقل بين تلك الجزر التي يوجد فيها نشاط لأتباع هذا الدين، ومكثت معهم فترة من الزمن تعلمت فيها الكثير، وقد نجحت في المرحلة الأولى إلى درجة أنني أخذت أُجْرِي الخوارق كالعبور في النار؛ والمشي على المسامير الحادة، وإدخال المسامير إلى أعضاء الجسم إلى غير ذلك، ولكن أيضًا ليس هذا هو ما كنت أبحث عنه».

ثم يضيف الأخ رحمة بورنومو: وذات يوم سألت رئيس المعبد الهندوسي: «ماذا تعبدون؟»، قال: نعبد «برهما، ويشنو، وشيوا»، برهما: إله الخلق، ويشنو: إله الخير، وشيوا: إله الشر، ثلاثة آلهة تجلت في جسد إنسان واحد اسمه كريشنا الذي يعتبر المنقذ للعالم عند الهندوس، قلت لنفسي: «إذن فلا فرق في أمر الألوهية بين الهندوسية والنصرانية، ولو اختلفت الأسماء فهما يناديان ثلاثة في واحد».



قلت للكاهن الهندوسي: «اشرح لي نشأة كريشنا»، فقال: كان في الهند سنة ألفين قبل الميلاد ملك جبار ظالم لا يرحم حتى أبناءه، فيقتل مولوده الذكر خوفًا من أن يحتل عرشه غَضْبًا، وفي إحدى الليالي الظلماء كان الملك جالسًا أمام قصره، وإذا بكوكب مضيء يطلع في السماء فوق رأسه، وكان يسير بسرعة مذهلة، ثم توقف في الفضاء وأرسل نوره الباهر على حظيرة الأبقار، فلما سأل الملك رجال العلم والدين، راجعوا كتبهم المقدسة، فقالوا: إن ذلك دليل على تجلي الآلهة في جسم إنسان اسمه سري كريشنا، فقلت في نفسي: هذه القصة بحذافيرها مع

تغيير الأشخاص موجودة في الديانة المسيحية، وكنت أحدث بها الناس وأنا قس، والفرق أن القرية المشار إليها هي بيت لحم، والإنسان عندنا هو المسيح، فلا فرق إذن بين القصتين ولا بين العقيدتين في قضية أساسية هي قضية الألوهية، وقضية هوية المنقذ للعالم.

لقد واصلت حواري مع الكاهن الهندوسي فقلت له: «يا سيدي إذا توفيت وأنا على دينكم، فإلى أين مصيري؟» قال: «لا أعلم، ولكن عليك أن تمتنع عن قتل الحشرات من أمثال النمل والبعوض وغيرهما»، وقال: «قد تكون هذه الحشرات آباءك وأجدادك الموتى».

ثم يقول: «وفي النهاية قررت أن أترك كل تلك الديانات، ولم يكن أمامي إلا الإسلام الذي لم أكن أريد اعتناقه لما غُرس في نفسي منذ طفولتي من نفور وكراهية لهذا الدين الذي لم أكن أعرف عنه إلا الشبهات، كنت أريد البحث عن الحق المجهول وهذا البحث يلزم له الجهد والصبر، وذات يوم قلت لزوجتي: اعتبارًا من هذه الليلة لا أريد أن يزعجني أحد، أريد أن أصلي وأتضرع إلى الله، وهكذا أقفلت باب حجرتي، ورفعت يدي إلى الله خاشعًا متضرعًا قائلًا: «يا رب: إذا كنتَ موجودًا حقًّا فخذ بناصيتي إلى الهدى والنور، واهدني إلى دينك الحق الذي ارتضيتَه للناس».

ويمضي الأخ رحمة بورنومو في حديثه فيقول: والدعاء إلى الله ليس كأي طلب من الطلبات كما أن دعائي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يكن خلال فترة وجيزة فحسب، بل استمر ذلك زمنًا طويلًا، حوالي ثمانية أشهر، وفي ليلة الحادي

والثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٩٧١م الموافقة للعاشر من رمضان من نفس العام، وبعد أن فرغت من دعائي المعتاد رحت في نوم عميق، وعندها جاءني نور الهدى من الله عَزَّوَجَلَّ، إذ رأيت العالم حولي في ظلام دامس، ولم يكن بوسعي أن أرى شيئًا، وإذا بجسم شخص يظهر أمامي، فأمعنت النظر فيه فإذا بنور حبيب يشع منه يبدد الظلمة من حولي، لقد تقدم الرجل المبارك نحوي، فرأيته يلبس ثوبًا أبيض وعمامة بيضاء، له لحية جعدة الشعر، ووجه باسم لم أر قط مثله من قبل جمالًا وإشراقًا، لقد خاطبني الرجل بصوت حبيب قائلًا: «رَدِّدِ الشهادتين»، وما كنت حينئذ أعلم شيئًا اسمه الشهادتان، فقلت مستفسرًا: «وما الشهادتان؟»، فقال: «قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، فكررتهما وراءه ثلاث مرات، ثم ذهب الرجل عني.

يقول الأخ الإندونيسي بعد ذلك: ولما استيقظت من نومي وجدت جسمي مبللًا بالعرق، وسألت أول مسلم قابلته: «ما هي الشهادتان، وما قيمتهما في الإسلام؟»، فقال: «الشهادتان هما الركن الأول في الإسلام، ما أن ينطقهما الرجل حتى يصبح مسلمًا»، فاستفسرت منه عن معناهما فشرح لي المعنى، وفكَّرتُ مليًّا، وتساءلت: «من يكون الرجل الذي رأيته في منامي، وكانت ملامحه واضحة المعالم لي؟» فلما وصفتها لصديقي المسلم هتف على الفور قائلًا: «لقد رأيت الرسول محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

ثم يختم الأخ رحمة بورنومو قصته بقوله: وبعد عشرين يومًا من ذلك الحادث وكانت ليلة عيد الفطر سمعت صيحات التكبير يرددها المسلمون من المساجد القريبة من دارنا، فاقشعر بدني واهتز قلبي، ودمعت عيناي لا حزنًا



على شيء، بل شكرًا لله على هذه النعمة فالحمد لله الذي هداني أخيرًا إلى ما كنت أبحث عنه منذ سنين، لقد تم ذلك في عام ١٩٧١م، وقد خَيَّرتُ زوجتي بين الإسلام والمسيحية، فاختارت الإسلام، والجدير بالذكر أنها كانت في طفولتها مسلمة ومن عائلة مسلمة تنصرت بسبب إغراءات المبشرين، وتبعًا لجهلها بأمور دينها الحنيف، كما تبعنا أبناؤنا فاعتنقوا الإسلام، ومنذ الثاني من شهر فبراير عام ١٩٧٢ ونحن مسلمون، والحمد الله.






الفَصْلُ الرَّابِعُ
عُلُوُّ الهِمَّةَ
فِي الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى



عُلُوّ الهِمَّة فِي الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

كبيرُ الهِمَّة يَحْمِل هَمَّ الأُمَّةِ

من أعظم ما يهتم به الداعية هداية قومه، وبلوغ الجهد في النصح لهم، كما يتضح ذلك جليًّا لمن تدبر سورة نوح[(١)] على سبيل المثال، وكذا قصص سائر المرسلين، حتى خاتمهم وسيدهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا أتباعهم كمؤمن آل فرعون الذي قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:٢٩][(٢)]، وكحبيب النجار الذي حمل هَم دعوة قومه في الحياة، وأبلغَ في النصح لهم بعد الاستشهاد: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٥-٢٧][(٣)].

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾[(٤)].



---

(١) انظر: «الظلال» (٦/ ٣٧٠٥-٣٧١٨).
(٢) انظر: المرجع نفسه (٥/ ٣٠٧٨-٣٠٨٣).
(٣) نفسه (٥/ ٢٩٦٢-٢٩٦٤).
(٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٦/ ٥٩٤).

ويقول الحافظ ابن كثير: «ومقصوده: أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي الله عنه فلقد كان حريصًا على هداية قومه»[(١)].

إذا تأملتَ قوائم عظماء رجالات الإسلام من الرعيل الأول فمَن بعدهم لرأيت أن «علو الهمة» هو القاسم المشترك بين كل هؤلاء الذين اعتزوا بالإسلام، واعتز بهم الإسلام، ووقفوا حياتهم لحراسة الملة وخدمة الأمة، سواء كانوا علماء أو دعاة أو مجددين أو مجاهدين أو مربين أو عُبادًا صالحين، ولو لم يتحلوا بعلو الهمة لما كان لهم موضع في قوائم العظماء، ولما تربعوا في قلوب أبناء ملتهم، ولا تزينت بذكرهم صحائفُ التاريخ، ولا جعل الله لهم لسان صدق في الآخرين.

وأسوتهم في حمل هَمِّ الأمة -بل في كل باب من أبواب الخير- هو الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي شارك المسلمين آلامهم، وكان في حاجتهم حتى حَطَمَه الناسُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «أكان نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي جالسًا؟» قالت: «بعد ما حطمه[(٢)] الناس»[(٣)].

وعن سهل بن حنيف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»[(٤)].

---

(١) المرجع نفسه (٦/ ٥٩٤).
(٢) يقال: حَطَمَ فلانًا أهلُه، إذا كبِر فيهم، كأنهم بما حمَّلوه من أثقالهم صيَّروه شيخًا محطومًا.
(٣) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، ومسلم، وغيرهما.
(٤) انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني رقم [٢١١٢].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُردِف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويُجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار»[١].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كانت الأَمَةُ تأخذ بيده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتنطلق به حيث شاءت»[٢].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن امرأة جاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت له: إن لي إليك حاجة، فقال: «**يا أم فلان، اجلسي في أي طرق المدينة شئتِ، أجلس إليكِ**»[٣].

وفي رواية لمسلم: «فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها».

وكان أمير المؤمنين عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطعم ذوي الحاجة، ويكسوهم[٤]، ويتعاهد مرضاهم، فعن مالك بن أوس بن الحدثان من بني نصر قال: لما كان عام الرمادة قدم على عمر قومي، مائة بيت، فنزلوا بالجبانة، فكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطعم الناس من جاءه، ومن لم يأت أرسل إليه بالدقيق والتمر والأرم[٥] إلى منزله، فكان يرسل إلى قومي بما يصلحهم شهرًا بشهر، وكان يتعاهد مرضاهم وأكفان من مات منهم»[٦].



---

(١) المصدر نفسه رقم [٢١٢٥].
(٢) رواه البخاري.
(٣) متفق عليه.
(٤) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٣١٤).
(٥) **الأرم**: الأكل، انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٤٠)، مادة (أرم).
(٦) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٣١٧).

وإذا كان الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو القائل: «لو تركت عنزًا جرباء إلى جانب ساقية لم تُدْهَن[١] لخشِيتُ أن أسأل عنها يوم القيامة»[٢]، فلا عجب أن نراه يعالج المرضى من رعيته، ويُلزم ولاته بذلك، بل يعزل من قَصَّر منهم فيه، عن الأسود بن يزيد قال: «كان الوفد إذا قدموا على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سألهم عن أميرهم، فيقولون: خيرًا، فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها: لا، عزله»[٣].

لقد أوجب عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على نفسه أن لا ينام، حذرًا من أن تشتبه الظنون بعزماته فيحسبها الجاهل بحاله شحطاتِ راقد، وحين وصل معاوية بن خديج المدينة ظهرًا مبشرًا أمير المؤمنين بفتح الإسكندرية مال إلى المسجد ظانًّا أن عمر في قيلولة، فأرسل إليه عمر، فقال له:

«وماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

قال: قلت إن أمير المؤمنين قائلٌ.

قال: بئس ما قلت، أو: بئس ما ظننت، لئن نمتُ النهار لأضيعن الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية؟»[٤].

وهي كذلك والله، فأنَّى للداعية كثرة النوم والراحة؟

---

(١) أي: بالقطران لعلاجها من الجَرَب.
(٢) «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» للغزالي (ص١٧)، ط. مكتبة الكليات الأزهرية.
(٣) «تاريخ الأمم والملوك» (٤/ ٢٢٦).
(٤) «الزهد» للإمام أحمد [١٢٣].

إن نام أو استراح بالنهار، ضيَّع أنصار دعوته ومحبيه والناشئة التي تكفَّلَ بتربيتها.

وإن نام آخر الليل: ضيع نفسه.

كلا، إن الداعية بمجرد قبوله هداية الله وانخراطه في الصف فقد اختار التعب، وطلَّق الراحة والدعة واللهو المباح[١].

قيل للإمام القاضي محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم لا تنام؟ فقال: «كيف أنام، وقد نامت عيون المسلمين تعويلًا علينا، وهم يقولون: إذا وقع لنا أمر رفعناه إليه، فيكشفه لنا، فإذا نمنا ففيه تضييع الدين».

وعن أسلم قال: كنا نقول: لو لم يرفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المَحْلَ عام الرَّمادة، لظننا أن عُمَر يموت همًّا بأمر المسلمين.

وعن المسور بن مخرمة قال: لما طُعِن عمر جعل يألم، فقال له ابن عباس -وكأنه يُجزِّعه[٢]-: يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راضٍ، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم[٣] لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: أما ما ذكرت من صحبة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضاه فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله تعالى مَنَّ به عليَّ،



(١) انظر: «المسار» للراشد (ص١٥٢).

(٢) **وكأنه يُجَزِّعه**: أي: ينسبه إلى الجزع ويلومه عليه، أو معنى يجزعه: يزيل عنه الجزع، وهو كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ:٢٣] أي: أزيل عنهم الفزع، ومثله مرَّضه إذا عانى إزالة مرضه.

(٣) يعني: المسلمين.

وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله جل ذكره مَنَّ به عليَّ، وأما ما ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك(١)، والله لو أن لي طِلاع الأرض(٢) ذهبًا لافتديت به من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن أراه(٣).

ومن أمثلة حمل هم الأمة قول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن يدركني» الحديث(٤)، فإن سياق الحديث يشي بحرص حذيفة على تعميم الانتفاع بالإرشاد النبوي في زمن الفتنة إلى جميع المسلمين من بعده.

وتأمل استنكاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء الأعـرابي: «اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا»، وقوله له: «**لقد حجَّرتَ واسعًا**»(٥)، وكذا قولَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»(٦).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصف أهل الجنة: «**ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُربى ومسلم**»(٧).

---

(١) أي من جهة فكرته فيمن يستخلف عليهم، أو من فكرته في سيرته التي سارها فيهم، وكأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غلب عليه الخوف في تلك الحالة مع هضم نفسه، وتواضعه لربه.

(٢) **طِلاع الأرض**: أي مِلؤها، وأصل الطلاع: ما طلعت عليه الشمس، والمراد هنا ما يطلع عليها ويشرف فوقها من المال.

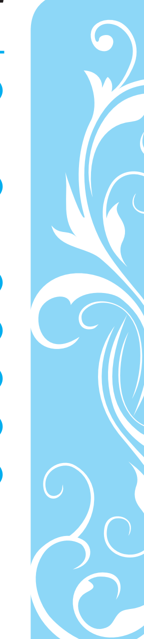
(٣) رواه البخاري رقم [٣٦٩٢].

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» عن عبادة، وحسنه الألباني.

(٧) رواه مسلم.







وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ليس المؤمن الذي يشبع، وجاره جائع إلى جنبه**»(١).

وقيل: أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى:

تبيتون في المشتى مِلاءً بطونكم ... وجاراتكم غَرْثَى يَبِتْنَ خمائصا(٢)

وقال بشر بن المغيرة:

وكلهم قد نال شِبْعًا لبطنه ... وشِبَعُ الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وشتم رجل ابنَ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال له: «إنك لتشتمني وفِيَّ ثلاثُ خصال: إني لآتي على الآية في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع أن الغيث قد أصاب بلدًا من بلدان المسلمين فأفرح به، وما لي به من سائمة»(٣).

وتأمل قول أبي العلاء المعري (ت:٤٤٩):

ولو أني حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْدًا ... لما أحببتُ بالخلدِ انفرادا

فلا هَطَلَتْ عليَّ ولا بأرضي ... سحائبُ ليس تنتظمُ البلادا(٤)



---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وغيرُه، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» [١٤٩].

(٢) أي: منطويات على الجوع، قد أضمر بطونهن.
ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى، وقال: أنحن نفعل هذا بجيراننا؟! ودعا عليه، فما ظنك بشيء يُبكي علاثة، وقد كان عندهم لو ضُرِب بالسيف ما قال حَسِّ.
و(حَسِّ) كلمة تقال عند الألم المفاجئ، يقال: ضُرِب فما قال حَسِّ، وقد تُنَوَّن، وانظر: (ص١١٠) هامش (١).

(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٧٥٣).

(٤) رغم عزلة أبي علاء الاختيارية والتي امتدت لمدة خمسين سنة، ورغم تألمه من أخلاق الناس، =

وأين هو من قول أبي فراس الحمداني:

مُعَلِّلَتي بالوصلِ والموتُ دُونَه إذا مِتُّ ظمآنًا فلا نزل القَطْرُ

والداعية إلى الله الكبير الهمة يقدر تبعات هذا المقام الرفيع، فهو يسعى في قضاء حوائج الناس، ويضر نفسه لينفعهم، إنه يظمأ حيث يروي الناس، ويسهر حيث ينامون، ويجوع حيث يشبعون، ويتعب حيث يستريحون، ويقدم حيث يحجمون.

عن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا إذا احمرَّ البأسُ، ولقي القومُ القومَ، اتَّقَيْنا برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما يكون منا أحدٌ أدنى من القوم منه»[(١)]، وعن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا لَلذي يحاذي به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٢)].

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة[(٣)] ذات ليلة، فانطلق الناسُ قِبَلَ الصوت،

=وتبرمه من كيدهم وطمعهم وخيانتهم، إلا أنه صاغ مشاعر المودة العامة، وحب الخير لكل قومه، حيث لا يرضى بالانفراد بالخلد، ولا يفرح بمطرٍ يصيب أرضه، وسائر الناس عطاش.

وقوله: (حُبيت) أي: أُعطيت، و(الخلد) هنا: الجنة، و(هطلت): هطل السحاب، وهذا تقوية للبيت السابق، لأنه قال: لا أحب الانفراد بالجنة، ثم قال: إذا لم يعم المطر البلاد، فلا سُقيته، ولا سقى أرضي، فهو لكرم طبيعته، وعلو همته، لا يحب الاستئثار بشيء من الخير دون إخوانه وأحبته.

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أي سمعوا صوتًا في الليل، فخافوا أن يهجم عليهم عدو.





فاستقبلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سبق الناسَ إلى الصوت[١]، وهو يقول: «**لم تُراعوا؛ لم تراعوا**»[٢]، وهو على فَرَسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ، في عنقه سيف؛ فقال: «لقد وجدتُه بحرًا، أو: إنه لبَحَر»[٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «.. **ولأن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته** -وأشار بأصبعيه- **أفضل من أن يعتكف في مسجدي** -أي مسجد المدينة- **هذا شهرين**»[٤].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من نفَّس عن مؤمن كربة من كُرَبِ الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة**»[٥].

- وقال حكيم بن حزام: «ما أصبحت صباحًا قطُّ، فرأيت بفنائي طالب حاجة قد ضاق بها ذرعًا فقضيتها، إلا كانت من النعم التي أحمد الله عليها، ولا أصبحْتُ صباحًا لم أر بفنائي طالب حاجة، إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عَزَّوَجَلَّ الأجر عليها».

- وهذا الإمام بَقِيُّ بن مخلد «قد مشى مع ضعيف في مَظْلَمة إلى إشبيلية، ومشى مع آخر إلى إلبيرة، ومع امرأة ضعيفة إلى جَيَّان».

- وعن عبد الكريم أبي أمية قال: «لأن أردَّ رجلًا عن رأي سيئ أحب إليَّ من اعتكاف شهر».



---

(١) أي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبق، فاستكشف الخبر، فلم يجد ما يُخاف منه، فرجع يُسَكِّنُهم.
(٢) هي كلمة تقال عند تسكين الروع تأنيسًا، وإظهارًا للرفق بالمخاطَب.
(٣) رواه البخاري، والفرس البحر: الواسع الجري.
(٤) رواه الطبراني في «الأوسط»، والحاكم، وصححه.
(٥) رواه مسلم.

- وتصف فاطمة بنت عبد الملك زوجها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فتقول: «كان قد فرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغ فيه من حوائج يومه؛ وصل يومه بليلته».

- وقال النضر بن عدي: «دخلت على عمر بن عبد العزيز، فرأيته هكذا: قد نصب ركبتيه ووضع يديه عليهما، وذقنه على ركبتيه، وكأن عليه بثَّ هذه الأمة».

- وقال أبو عثمان شيخ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ما سألني أحد حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تَمَّ؛ وإلا قمت له بمالي، فإن تم؛ وإلا استعنا له بالإخوان، فإن تم؛ وإلا استعنت بالسلطان».

- وكان الليث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يجلس للمسائل، يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس؛ لا يسأله أحد من الناس فيرده، كبرت حاجته أو صغرت».

- وعن حسين أخي زيدان قال: كنتُ مع وكيعٍ، فأقبلنا جميعًا من المِصِّيصة أو طَرَسُوس، فأتينا الشام، فما أتينا بلدًا إلا استقبلَنا واليها، وشهدنا الجمعة بدمشق، فلما سلَّم الإمام، أطافوا بوكيع، فما انصرف إلى أهله يعني إلى الليل، قال: فحدَّث به مليحًا ابنه، فقال: «رأيتُ في جسدِ أبي آثار خُضرةٍ مما زُحِمَ ذلك اليوم»[١].

(١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٤٥).

- ولما استولى الروم الأسبان على إشبيلية سنة ست وأربعين وستمائة هال صوتُ الناقوس وخَرَسُ الأذان أبا حسن علي بن جابر الدباج اللخمي الإشبيلي، فما زال يتأسف ويضطرب إلى أن قضى نحبه بعد أيام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد عاش ثمانين سنة[(١)].

حبل الفجيعة ملتفٌّ على عنقي	من ذا يعاتب مشنوقًا إذا اضطربا

- واعتادت أم الشيخ «محمد رشيد رضا» رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تراه مهتمًّا لأحوال المسلمين إذا ألَمَّت بهم أو بأحدهم نائبة، ورأته ذات يوم على هذه الحال، فقالت له: «مالك؟ هل مات مسلم بالصين؟».

- وهذا شاعر الدعوة الإسلامية المعاصرة عمر بهاء الدين الأميري، وهو في جناح طب القلب، موصول الصدر إلى جهاز المراقبة الإلكتروني بأسلاك تغل من حركته، يُحقن في البطن كل يوم مراتٍ بإبر لإماعة الدم، وقد جاء الطبيب، يسأل القائم على التمريض عن استراحة شاعرنا، فيرد عليه باستغراب، وبفهم يختلف عن فهمه، فيقول:

كلا رويدك يا طبيب	وقد سألتَ: أما استراحْ
هل يستريح الحُرُّ يُوقِدُ	صدرَه العبءُ الرُّزاح[(٢)]

إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا، ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير.. فما له والنوم؟! وما له والراحة؟! ما له والفراش الدافئ والعيش الهادئ، والمتاع المريح؟!

(١) «غاية النهاية» لابن الجزري (١/ ٥٢٨).
(٢) **رزح الشخص**: ضعف وسقط على الأرض من الإعياء والهُزال.



أأرضـــى أن أنـــامَ عـلـى فِـراشـي	ونـــومُ المـسـلـمـين عـلـى قـتـادْ
وأهـنـا في الـنـعـيـم بـرغـد عيشٍ	وقَـــوْمـــي شُـتِّـتـوا في كـل واد
فـلا نَـعِـمـت نـفـوسٌ في صفاء	إذا نَـسِـيَـتْ نفوسًا في الصِّفاد[1]



(١) الصِّفاد: الوَثَاق.





حَرَكة الدَّاعِية

إن الحركة ولود، والسكون عقيم، والحركة في قاموس الدعاة هي الحياة، والسكون هو الموت.

قال الجيلاني: «الحركة بداية، والسكون نهاية»، والحركة هي الحد الفاصل بين عهد الرخاوة، وبين عهدِ حملِ الأمانةِ بعزم وحزم ووفاء.

وبالحركة انتشر المسلمون الأوائل مثل شعاع الشمس في أقطار الأرض، يفتحون البلاد، ويفتحون قلوب العباد، ويدعون إلى التوحيد، ويحطمون الطواغيت، ويقودون الناس إلى الجنة.

وبالحركة صاروا في ظلمات الحياة سِراجًا وهَّاجًا، فإذا الباطل رماد بعد التهاب، وخمود بعد حركة.

إنما التوحيدُ إيجابٌ وسَلْبٌ ... فَهُما في النفسِ عزمٌ ومَضاءْ
«لا» و«إلا» قوةٌ قاهرة ... لها في النفس فِعْلُ الكهرُباءْ

وهذا الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصور عشقه الحركةَ، وبغضه الجمود والكسل، ويمثل السكون بالماء الذي يتوقف عن الجريان فيفسد، ويجزم بأن الأُسْدَ قد تتعرض للهلاك لو لم تتحرك باحثة عن فريستها، وكذلك السهام لولا تحركها من الكنانة إلى القسي، ومن القسي إلى الهدف ما أصابت:






إني رأيتُ وقوفَ الماء يُفْسِدُه | إن ساح طاب، وإن لم يجرِ لم يَطِبِ
والأُسْدُ لولا فراق الأرض ما افترسَتْ | والسهم لولا فراقُ القوسِ لم يُصِبِ
والشمسُ لو وقفت في الفلك دائمةً | لملَّها الناسُ مِن عجم ومن عربِ

وهذا الشاعر الإسلامي «وليد الأعظمي» يهيب بالداعية أن يتحرك، ويحرك الآخرين، مبتدئًا بعشيرته الأقربين:

كن مِشْعَلًا في جُنْح لِيلٍ حالكٍ | يهدي الأنامَ إلى الهدى ويُبيِّنُ
وانشط لدينك لا تكن متكاسلًا | واعمل على تحريكِ ما هو ساكنُ
وابدأ بأهلك إن دعوتَ فإنهم | أولى الورى بالنصحِ منك وأقْمَنُ
والله يأمر بالعشيرة أوَّلًا | والأمر مِنْ بعدِ العشيرةِ هَيِّنُ

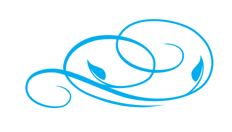
وهذا شاعر يجادل الخاملين، ويحاج الخامدين، ويوبخ الهامدين:

قالوا: السعادة في السكون | وفي الخمول وفي الخمودْ
في العيش بين الأهل لا | عيش المهاجر والطريد
في المشي خلف الركب في | دعة وفي خطو وئيد
في أن تقول كما يقال | فلا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القَطيع | وأن تقاد ولا تقود
في أن تصيح لكل وال: | عاش عهدكم المجيد
قلت: الحياة هي التحرك | لا السكون ولا الهمود
وهي الجهاد، وهل يجا | هد من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتاعب | لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحياض | وأي حر لا يذود

هــي أن تُحِـــسَّ بــأن كــأسَ　　　الــــذل مـــن مـــاء صـديـد

هـــي أن تـــعــيــشَ خــلــيــفــةً　　　في الأرض شـأنُـك أن تـسود

وتــقـــول: لا، ونـــعـــم، إذا ما　　　شـــئــــتَ في بَـــصَـــرٍ حـديـد







الحَرَكة قِيَامَة وَبَعثٌ لِلرُّوح

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ:٤٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ في شأن أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف:١٤]، فهذه القيامة الروحية، واليقظة القلبية من أوائل منازل الطريق، التي تستدعي الحركة في سبيل الدعوة:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾. [يوسف:١٠٨]

قال الكلبي: «حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه»، وتلا الحسن البصري قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، ثم قال: «هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله».

وقال علامة الشام القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرها: «أي لا أحد أحسن مقالًا ممن دعا الناس إلى عبادته تعالى، وكان من الصالحين المؤتمرين، والمسلمينَ وجوهَهم إليه تعالى في التوحيد»[(١)].

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ٢٧٣).

وقال الوزير ابن هُبيرة في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ [يس:٢٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ ﴾ [القصص:٢٠]:

«تأملت ذكر أقصى المدينة، فإذا الرجلان جاءا من بُعدٍ في الأمر بالمعروف، ولم يتقاعدا لبعد الطريق».

لا يكون المؤمن العامر القلب إلا متحركًا محرِّكًا، أما المتباطئ الذي يَعِدُ بالالتحاق بعد ما تظهر بوادر النجاح، فإنما يعد وعد الضعاف.

صاحِ ما الحر من يثور على الظلم ... وقد ثارت لحقِّها الأقوامُ

إنما الحر من يسير إلى الظلـ ... ـم فيصميه والأنام نيام

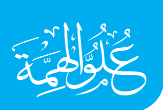
فلا تؤجل الانضواء تحت لواء الحق، وإلا عضضت أسنة الندم:

دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذا الجوشن الضبابي إلى الإسلام بعد بدر فقال له: «**هل لك إلى أن تكون من أوائل هذا الأمر؟**» قال: لا، قال: «**فما يمنعك منه؟**» قال: «رأيت قومك كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، فأنظر: فإن ظهرتَ عليهم آمنتُ بك واتبعتك، وإن ظهروا عليك لم أتبعك»، فكان ذو الجوشن يتوجع على تركه الإسلام حين دعاه إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١].

فكن رائدًا، وأجب داعي الله، بلا تلكؤ، ولا تلعثم، ولا تردد، فهذا هو شأن المؤمنين:



(١) انظر: «المنطلق» (ص١٩١).




قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -لابنه لما رأى في المنام أنه يذبحه-: «يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر»، قال: «فاصنع ما أمرك ربك»، قال: «وتعينني؟»، قال: «وأعينك»[١].

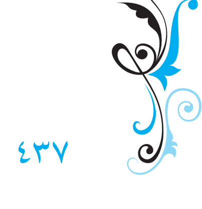
وقد كان الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينادي في موسم الحج: «**من يحملني حتى أبلغ رسالة ربي؟**»، وها هو ذا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناشدك: «**بلِّغوا عني، ولو آية**»، ويدعو لمن يبلغ عنه: «**نَضَّر الله امرءًا سمع منا شيئًا، فبلَّغه كما سمعه، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع**»، ورُوي أنه كان يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه: «**اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»، وقد أثنى الله عَزَّ وَجَلَّ على عباد الرحمن الذين كان من دعائهم إياه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]، أي: نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا مَن بعدنا، سئل وهب ابن منبه عن صفة المسلم فقال رَحِمَهُ اللهُ: «يقتدي بمن قبله، وهو إمام لمن بعده».

نحن في ذي الحياة رَكْبٌ سُفار	**يصل اللاحقين بالماضينا**
قد هدانا السبيلَ من سبقونا	**وعلينا هدايةُ الآتينا**

وهذا الغزالي رَحِمَهُ اللهُ يقول: «اعلم أن كل قاعدٍ في بيته أينما كان فليس خاليًا في هذا الزمان عن منكر، من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القرى والبوادي ومنهم الأعراب والأكراد والتركمانية، وسائر أصناف الخلق.

---

(١) رواه البخاري.



وواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه -فرغ من فرض عينه، وتفرغ لفرض الكفاية- أن يخرج إلى ما يجاور بلده من أهل السواد ومن العرب والأكراد وغيرهم، ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم»[(١)] اهـ.

إن «وجود المفتي الكفء المستجمع لشروط الإفتاء من فروض الكفاية، فيجب أن يوجد في كل قرية أو بلدة مفتٍ يقوم بإفتاء الناس فيما يسألون عنه من أمور الدين، أو يعلمهم بها ابتداء دون أن يسألوه. وقد قال بعض العلماء: يجب تعدد المفتين بحيث يكون في كل مسافةِ قصرٍ -أي: المسافة التي تُقْصَر فيها الصلاة- مفتٍ واحد، ولأهمية وجود المفتي في البلد قال العلماء: إذا لم يوجد مفتٍ في مكان ما حَرُمَ السَّكَنُ فيه، ووجب الرحيلُ منه إلى حيث يوجد من يفتيه في أحكام الدين، وما ينزل به من نوازل.

وإذا كان وجود المفتي من فروض الكفاية فيجب العمل على إيجاده باتخاذ الوسائل الضرورية لذلك، ولهذا قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فرض على كل جماعة مجتمعة في قرية أو مدينة أو حصن أن ينتدب منهم من يطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها، ويتعلم القرآن كله، وما صح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث الأحكام... إلخ، ثم يقوم بتعليمهم، فإن لم يجدوا في محلتهم من يفقههم في ذلك كله؛ ففرضٌ عليهم الرحيل إلى حيث يجدون العلماء المجتهدين في صنوف العلم، وإن بعُدت ديارُهم، وإن كانوا بالصين»[(٢)].



(١) «الإحياء» (٢/ ٣٤٢).
(٢) انظر: «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص١٤٧).





الحرص على هداية الناس

تعودنا -معشرَ المسلمين- أن نتداعى للاهتمام بأمور المسلمين في أقطار الأرض، باعتبارهم أمةَ محمدٍ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقلَّ من يلفت النظر إلى أن أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعَبَّرُ بها فقط عن الذين استجابوا لله، ورسوله، وأسلموا دينهم لله، الذين هم «أمة الإجابة»، ولكن أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشمل -أيضًا-: «أمة الدعوة»، وهي تشمل: كل المخاطَبين برسالة الإسلام، ممن دَبَّ على ظهر هذه الأرض منذ بُعِثَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قيام الساعة مهما اختلفت أزمانهم وأماكنهم وأديانهم.

إن من الخصائص التي اختص الله عَزَّوَجَلَّ بها نبينا محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه أرسله إلى الناس كافة، فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فهذه الرسالة المحمدية تخاطب جميع الناس بلا تخصيص، وهي موجهة إلى كل من كان في عهده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وإلى كل من سيأتي بعده إلى يوم القيامة؛ لأنها خاتمة الرسالات السماوية.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].



وبيَّن جَلَّ وَعَلَا أنه أوحى إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القرآن؛ لينذر به قومه، وينذرَ به كُلَّ من بلغه هذا القرآن من العرب والعجم[1]، وغيرهم من الأمم سواء كان موجودًا في زمانه أم سيأتي بعده إلى يوم القيامة، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. [الفرقان:١]

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي**»، فذكر منهن: «**... وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّةً، وبُعثتُ إلى الناس عامَّة**»[2].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيما أهل بيتٍ من العرب والعجم، أراد الله** عَزَّ وَجَلَّ **بهم خيرًا؛ أدخل عليهم الإسلام**» الحديث[3].

وإذا كنا نعي ونتدبر جيدًا قولَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]،

وقولَه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]،



(١) العُجْم والعَجَم -بالضم والتحريك-: خلاف العرب.

(٢) رواه البخاري، وغيره.

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٧٧)، والحاكم (١/ ٦١، ٦٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [٥١].

وإذا كنا نعتز بسنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونتخذ شعارًا لنا: قوله -بأبي هو وأمي-: «**خيرُ الهدي هدي محمدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فكيف كان هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوة الأمة التي بُعث إليها، ونخص بالذكر هنا: «أمة الدعوة»؟

لقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا أشد الحرص على تبليغ الناس هذه الدعوة، ومن مظاهر ذلك: أمره بالتبليغ عنه ما تيسر -ولو آية واحدة من القرآن-، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -مخاطبًا المؤمنين به-: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية**»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نضَّر اللهُ امرءًا سمع مقالتي فبلَّغها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ غيرُ فقيه، ورُبَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ مِنه**»[(٢)].

وكان يُرغِّب أصحابه في الاجتهاد في الدعوة إلى الله، ويُنَوِّع الخِطابَ في ذلك، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**لأن يهديَ اللهُ بكَ رجلًا واحدًا؛ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ**»[(٣)].

وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**من دعا إلى هُدًى؛ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**» الحديث[(٤)]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من دَلَّ على خير فله مثلُ أجرِ فاعله**»[(٥)].

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله وملائكته وأهلَ السمواتِ والأرض حتى النملة في جُحْرِها وحتى الحوت لَيُصَلُّون على مُعلِّمِ الناسِ الخيرَ**»[(٦)].

---

(١) رواه البخاري، و«بَلِّغُوا» تكليف، «عَنِّي» تشريف، «وَلَوْ آيَةً» تخفيف.
(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٥).
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم رقم [٢٦٧٤].
(٥) رواه مسلم رقم [١٨٩٣].
(٦) رواه الترمذي، «صحيح سنن الترمذي» رقم [٢١٥٩].

وكان يُسَرُّ جدًّا باستجابة المدعُوِّ إلى التوحيد، ومن ذلك: ما ثبت من أنه لما دعا يهوديًّا فأسلم؛ فرح، واستبشر، وقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»[(١)].

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شديدَ الشفقةِ على الخلق، عظيمَ الرحمةِ بأمته -حتى الذين لم يستجيبوا لدعوته- قويَّ الرغبة في هدايتهم، وكان يبلُغُ في نصحهم الحد الذي لا مزيد عليه، أليس هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كمثل رجلٍ أَوْقَد نارًا، فجعل الفراش وَالجَنَادِبُ**[(٢)] **يقعنَ فيها، وهو يذُبُّهُنَّ عنها، وأنا آخِذٌ**[(٣)] **بحُجَزِكُمْ**[(٤)] **عن النار، وأنتم تُفْلِتُونَ**[(٥)] **من يَدِي**»[(٦)].

وفي لفظ متفق عليه: «**وجعل يحجزهُنَّ، ويغلبنه، فيقتحِمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم: أنا آخذ بحُجَزِكُمْ عن النار: هلُمَّ عنِ النار، هلُمَّ عن النارِ، فتغلبوني فتقتحِمُونَ فيها**».

---

(١) وقصة ذلك ما رواه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمرض، فأتاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلِمْ»، فنظر إلى أبيه، وهو عنده، فقال له: «أطع أبا القاسم» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأسلم، فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» رواه البخاري رقم [١٣٥٦].

(٢) **الجنادب**: جمع جندب، وهو الصَّرَّار الذي يشبه الجراد. انظر: «شرح النووي لصحيح مسلم» (١٥/ ٥٠).

(٣) **آخذ**: روي بوجهين: أحدهما: اسم فاعل بكسر الخاء وتنوين الذال. والثاني: فعل مضارع بضم الذال بلا تنوين وهما صحيحان. «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ٥٠).

(٤) **الحُجَز**: جمع حُجْزَة: معقد الإزار، ومن السراويل: موضع التكة.

(٥) **تفلتون**: رُوي بوجهين: أحدهما بفتح التاء وتشديد اللام. والثاني: ضم التاء وإسكان الفاء وكسر اللام المخففة، وكلاهما صحيح. يقال: «أفلت مني» و«تفلَّت»: إذا نازعك الغلبة والهرب، ثم غلب وهرب، وانظر المرجعَ نفسَه (١٥/ ٥٠).

(٦) رواه البخاري (١٣/ ٢١٩، ٢٢٠ - فتح)، ومسلم [٢٢٨٤].





إن شدة الحرص على هداية الناس صفة كريمة من صفات رسول الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بها فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال عز مِن قائل: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل:٣٧].

وكان مما يضيق به صدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدم استجابة المدعوين إلى الحق، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل:١٢٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨].

بل كان يبلغ حزنه وحسرته على عدم هدايتهم حدًّا يوشك أن يُذْهِبَ معه نفسه الشريفة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أكثر ما نزل الوحي يخفف عنه، ويعزيه، وينهاه عن هذا الأسى، ويأمره بالرفق بنفسه، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ(١) نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

قال الزمخشري: «شَبَّهه وإياهم -حين تولَّوْا عنه، ولم يؤمنوا به، وما داخلَه من الوجد والأسف على تولِّيهم- برجلٍ فارقته أحِبَّتُهُ وأعزته، فهو يتساقط حسراتٍ على آثارهم، ويبخع -أي: يهلك- نفسه؛ وَجْدًا عليهم، وتلهفًا على فراقهم» اهـ(٢).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

---

(١) **البخع**: قتل النفس غمًّا، قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ حث على ترك التأسف، انظر: «المفردات» للأصبهاني (ص٣٨).
(٢) «الكشاف» (٢/ ٣٨٠).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣].

لقد دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَيْهِ أمةَ الدعوة، وأمةَ الإجابة، ولم يدخر في ذلك وُسْعًا.

ودعا إلى الله في جميع الأماكن: فوق الجبل، وفي المسجد، والطريق، والسوق، وفي منازل الناس في المواسم، وحتى في المقبرة، ودعا في الحضر والسفر، وفي الأمن والقتال، وفي صحته ومرضه، وحينما كان يزور أو يُزار.

ولم يكن عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يجلس في البيت أو في المسجد فحسب ينتظر مجيء الناس إليه، بل كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يذهب إليهم بنفسه، ويُوَصِّل رسالة الإسلام إليهم في أماكنهم.

وكان يوجِّه دعوته إلى من أحبوه، ومن أبغضوه، وآذَوْهُ، ومن استمعوا إلى دعوته، ومن أعرضوا عنها.

- ودعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميع أصناف البشر: الوثنيين وأهل الكتاب، والعرب والعجم، القادة والشعوب، والأثرياء والفقراء، والعلماء والأُميين، من أحبوه ومن أبغضوه وآذَوه، بل من أراد قتله.

- أما من لم يتمكن من الذهاب إليهم بنفسه الشريفة فقد أرسل رسله ورسائله إلى ملوك الأطراف والآفاق.

- وثابر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدعوة والبلاغ عن الله تعالى حتى آخر لحظات حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على فراش الموت.





فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كانت عامة وصية رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حضرته الوفاة، وهو يغرغر بنفسه: «**الصلاةَ وما ملكت أيمانُكم**»(١).

وعن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «**الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه(٢).

وإن هذه الأمة نائبة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تبليغ شرعه، وإقامة الحجة على أهل الأرض قاطبة، فهم «شهداء الله في الأرض» كما وصفهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه المجيد مبينًا وظيفتهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

فوظيفتها هي وظيفة الأنبياء: الشهادة على الناس، ويؤكد ذلك قولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

وعلى رأس المعروف الذي تأمر به: الإيمان بالله، والدعوة إلى دينه، والجهاد في سبيله؛ لِتُبَلِّغَ كلمة الله إلى سائر البشر، وإلا فبماذا تشهد يوم القيامة إذا دُعِيَتْ للشهادة التي حُمِّلَتْها في هذه الدنيا؟(٣).

(١) «صحيح ابن ماجه» رقم [٢١٨٣].
(٢) نفسه رقم [١٣١٧]، ومعنى «يفيض»: يُبِين.
(٣) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (٢/ ٢٨٢، ٢٨٣).

وقد شهد التاريخ فصولًا مشرقة قامت فيها هذه الأمة بنشر نور الإسلام في آفاق الأرض، وتجلى فيها عُمْقُ فقههم لهذه الوظيفة الشريفة.

وتأمل موقف رِبْعِيِّ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما أرسله سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولًا إلى رُسْتُم قائد الفرس -قبل موقعة القادسية-، فسأله الأخير: «ما جاء بكم؟»؛ فأجابه ربعي: «الله ابتعثنا، والله جاء بنا؛ لنُخرِجَ مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعَتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلَنا بدينه إلى خلقه؛ لندعوَهم إليه».

وتجلى إدراكهم لهذه الوظيفة فيما قام به الصحابة الأخيار، والتابعون الأبرار، والمجاهدون الشجعان، حتى التجارُ الرُّحَّل الذين جابوا أقطار الأرض يحملون هذا النور العظيم، ويُخرجونَ به الناس من الظلمات إلى النور.

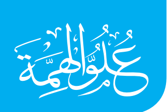
★★★

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾: «فواجب على الأمة أن يُبَلِّغوا ما أُنزِلَ إليه، ويُنذِروا كما أنذر، قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢]، والجن لما سمعوا القرآن: ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩]» اهـ(١).

وهذا تلميذه الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «وتبليغ سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن تبليغ السهام

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٣٢٧).







يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم بمَنِّه وكرمه»[١] اهـ.

إن سناء الهمة في نِشدان الكمال الممكن، ومن أراد المنزلة العليا القصوى من الجنة، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا، واحدة بواحدة، ولكل سلعة ثمن[٢].

إذا ما علا المرءُ رام العلا ... ويقنعُ بالدُّونِ مَن كان دُونا

وليست هذه المنزلة العليا في الدنيا إلا منزلة الدعوة إلى الله، ووراثة وظائف النبوة، التي ليس أشرف منها إلا منزلة النبوة نفسها، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«المؤمن الذي يُخالِط الناسَ، ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»**[٣].

وهذا الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى يناديك:

«ألستَ تبغي القرب منه؟ فاشتغِل بدلالة عباده عليه، فهي حالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أما علمت أنهم آثروا تعليم الخلق على خلوات التعبد، لعلمهم أن ذلك آثر عند حبيبهم، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر» اهـ.

وها هو ذا رَحِمَهُ اللهُ يقارن بين الشجعان الذين يخالطون الناس لدعوتهم، ويصبرون على أذيتهم، وبين المتخاذلين المعتزلين القاعدين عن الدعوة إلى الله تعالى، فيقول:



(١) «التفسير القيم» (ص٤٣١).
(٢) انظر: «المنطلق» (ص١٢١).
(٣) أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [٩٣٩].

«الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، من جماعةٍ، واتباعِ جنازة، وعيادةِ مريض.

إلا أنها حالة الجبناء. فأما الشجعان فهم يتعلمون ويُعَلِّمون. وهذه مقامات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ».

وهذا الشيخ الداعية القدوة عبد القادر الكيلاني الذي تكلم كثيرًا، وصاح بأهل العراق صيحات بليغة رفيعة المعنى والمبنى، وينتشل لنا أحد تلامذته من تلك الصيحات كلمات يدونها سريعًا والإمام يخطب خطبه الأسبوعية سنة (٥٤٥هـ)، ويودعها كتابًا سماه (الفتح الرباني والفيض الرحماني) قد تجد فيه ما يجب رَدُّه، لكنه مملوء بصيحات الحق، والالتفاتات القيمة، والتشديد على وجوب الدعوة والأمر والنهي.

فاسمع من صيحات الحق هذه قول عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن:

«المتزهد المبتدي في زهده يهرب من الخلق، والزاهد الكامل في زهده لا يبالي منهم، لا يهرب منهم، بل يطلبهم، لأنه يصير عارفًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومن عرف الله لا يهرب من شيء، ولا يخاف من شيء سواه.

المبتدي يهرب من الفساق والعصاة، والمنتهي يطلبهم، كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده؟

ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف.

من كملت معرفته لله عَزَّوَجَلَّ صار دالًّا عليه، يصير شبكة يُصطاد بها الخلق من بحر الدنيا، يُعطَى القوة حتى يهزم إبليس وجنده، يأخذ الخلق من أيديهم.



يا من اعتزل بزهده مع جهله: تقدم واسمع ما أقول، يا زهاد الأرض تقدموا.

خَرِّبوا صوامعكم واقربوا مني، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل، ما وقعتم بشيء، تقدموا» ...

قال هذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في الشيخوخة.

وكذلك فهم العالم العامل، وإن كلماته ليهتز لها القلب اهتزازًا.

تأمل قوله: «يا زهاد الأرض تقدموا، خربوا صوامعكم»، خَرِّب صومعتَك أيها الهارب الذي ترزح تحت نير الأفكار الأرضية، وآراء طواغيت القرن العشرين.

خذ مكانك في صفوف دعوة الإسلام. اهـ[1].

ويستطرد الداعية المبدع الراشد محمد أحمد الراشد حَفِظَهُ ٱللَّهُ قائلًا:

ولا ينبغي للداعية أن ييتئس إن لم يجد فضلَ وقتٍ لقيام الليل يوميًّا، والإكثار من ختمات القرآن، فإن ما هو فيه من الدعوة وتعليم الناس وتربية الشباب خير وأجزل أجرًا، وقدوته في ذلك ورائده أئمة الدعاة من السلف الصالح الذين كانوا يسيحون لنشر الدعوة وتبليغها، ويبادئون الناس بالكلام، ويحتكون بهم احتكاكًا هادفًا، ولا ينتظرون مجيء الناس لهم ليسألوهم.

هكذا كان شأن الدعاة دومًا، وعلى داعية اليوم أن يكون رحالة سائحًا في محلات مدينته، ومدن قطره، يبلغ دعوة الإسلام.

---

(١) «المنطلق» (ص١١٤، ١١٥).



انظر مثلًا كيف كانت رسل رسول الله ﷺ تسيح في البوادي تبلغ الأعراب كلمة الإسلام، وتبشر به، ولم يكن ثمة انتظار ورودهم إلى المدينة، ألا ترى أن الأعرابي الذي سأل رسول الله ﷺ عن أركان الإسلام، فلما أخبره بها وقال: «لا أزيد عليهن ولا أنقص» كيف كان قد بدأ سؤاله بأن قال للنبي ﷺ:

«يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟»[(١)].

أتاهم رسوله داعيًا، وكذلك الناس تُؤتَى، ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعية، ولو فصَّلتَ كلمةَ هذا الأعرابي لتبين لك كيف فارق هذا الصحابي الداعية المدينة لما أرسله النبي ﷺ لقوم هذا، وكيف فارق أهله وبيته وأولاده، وكيف اجتاز المفاوز وصحراء من بعد صحراء، وكيف تعرض للمخاطر والحر أو البرد، ليبلغ دعوة الإسلام.

وهذا شأن الدعوة التي تريد أن تصل إلى أهدافها، لا بد من تحرك ومبادأة وغدو ورواح وتكلم وزعم، ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة، فافقه سيرة سلفك وقلدهم، تصل، وإلَّا، فراوح في مكانك، فإنك لن تبرحه[(٢)].

ويروي لنا التابعي الكوفي، الفقيه النبيل عامر الشعبي، أن رجالًا خرجوا من الكوفة، ونزلوا قريبًا يتعبدون، فبلغ ذلك عبدَ الله بن مسعود، فأتاهم، ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم: «ما حملكم على ما صنعتم؟»، قالوا: «أحببنا أن نخرج

(١) رواه مسلم.
(٢) «المنطلق» (ص١١٩، ١٢٠).



من عُمار الناس نتعبد»، فقال عبد الله: «لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارحٍ حتى ترجعوا»[١].

وكان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد، أو قيام بحق، أو اتباع للأمر: سأل عنه، وأحب أن يجريَ بينه وبينه معرفة، وأحبَّ أن يعرف أحواله[٢].

لم يكن بالمنعزل المتواري الهارب من الناس، فالداعية يفتش عن الناس، ويبحث عنهم، ويسأل عن أخبارهم، ويرحل للقائهم، ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجيء الناس إليه في مسجده أو بيته، فإن الأيام تبقيه وحيدًا، ويتعلم فن التثاؤب[٣].

قالوا في التعريف بموسى بن حزام شيخ البخاري والترمذي:

«إنه كان ثقة صالحًا، لكنه كان في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله تعالى بأحمد بن حنبل، فانتحل السنة، وذبَّ عنها، وقمع من خالفها، مع لزوم الدين، حتى مات»[٤].





(١) «كتاب الزهد» لابن المبارك (ص٣٩٠).
(٢) «مناقب الإمام أحمد» (ص٢١٨).
(٣) «المنطلق» (ص١٢٧).
(٤) «تهذيب التهذيب» (١٠/ ٣٤١).

على فـراش المـوت

عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خميصة سوداء حين اشتد به وجعه، قالت: فهو يضعها مرة على وجهه، ومرة يكشفها عنه، ويقول: «**قاتل الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، يحرِّم ذلك على أمته(١).

وتقدم حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانت عامة وصيَّةِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حضرته الوفاة، وهو يغرغر بنفسه: «**الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم**»(٢).

وحديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «**الصلاة، وما ملكت أيمانكم**» فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه(٣).

وهكذا سنة أنبياء الله ورسله عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، دعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ حتى آخر أنفاسهم في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾



---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، ورواه البخاري في «صحيحه» مختصرًا رقم [١٣٣٠].
(٢) تقدم (ص٤٤٤).
(٣) تقدم (ص٤٤٤).

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢، ١٣٣].

يقول الفخر الرازي في تفسير الآية الثانية من الآيتين: «الآية دالة على أن شفقة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أولادهم كانت في باب الدين، وهمتهم مصروفة إليه دون غيره»(١) اهـ.

وعن المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما أصيب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخلت عليه حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فقالت: «يا صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! ويا صهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! ويا أمير المؤمنين!»، فقال عمر لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا عبد الله! أجلسني. فلا صبر لي على ما أسمع»، فأسنده إلى صدره، فقال لها: «إني أُحَرِّجُ عليكِ(٢) بما لي عليك من الحق أن تندبيني(٣) بعد مجلسِك هذا، فأما عينُكِ فلن أملِكَها»(٤).

وعن عمرو بن ميمون قال: جاء رجل شاب إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدما طُعِن، وعرف الناسُ أنه ميت، فقال له: «أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صُحبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَدَمٍ في الإسلام ما قد علمتَ، ثم وَلِيتَ فعدلت، ثم شهادة».



(١) «التفسير الكبير» (٤/ ٧٥).
(٢) أي: أُحَرِّم عليكِ.
(٣) **الندب**: أن تذكر النائحة الميت بأحسن أوصافه وأفعاله.
(٤) «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لابن الجوزي (ص٢٣٠).




قال: «وددت أن ذلك كَفافٌ لا عليَّ ولا ليَّ».

فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض، قال: «ردُّوا عليَّ الغلامَ».

قال: «يا بن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك»(١).

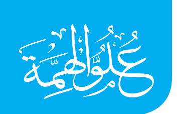
ونقفز إلى العصر المتأخر، حيث كان الداعية الهندي الشيخ حسن علي رَحِمَهُ اللَّهُ قد اجتهد في الدعوة إلى الإسلام طوال حياته، وعندما أظله الموت، وقارب أجله على النهاية سمعه بعض الناس خِلسةً وهو يقول: «اترك دينك، وصِرْ مسلمًا»، فلما سُئِل عن ذلك قال: «إنه يخاطب النصارى»، فغلب عليه عند موته ما غلب عليه في حياته، وطالما ردده وهو يدعو إلى الإسلام(٢).

وفي أفريقية «حكم البلچيكيون على زعيم عربي بالإعدام، فقضى ساعاتِه الأخيرةَ وهو يحاول أن يُدخِل في الإسلام ذلك المبشِّر المسيحي الذي كان قد أُرسِلَ إليه لِيُزْجِيَ إليه التعزيات الدينية»(٣).

أما إمام العصر العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ (ت:١٤٢٠هـ) فقد قال ابنه، وهو يذكر اللحظات الأخيرة في حياة والده: «عندما نقلناه إلى المستشفى في الطائف كان هناك ممرِّض نصراني بجوار والدي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكنا أنا وإخواني نحيط به، فكان أكثر ما يحثُّ وينصح ذلك الممرضَ النصراني باعتناق الإسلام، وحثَّه



(١) رواه البخاري رقم [٣٧٠٠].
(٢) «الدعوة إلى الإسلام» لتوماس أرنولد (ت:١٩٣٠م)، هامش (ص٣١٩).
(٣) المرجع نفسه (ص٤٥٣، ٤٥٤).





بشدة على أن لا يموت على النصرانية.. هذا الحديث من والدي للمُمَرِّض كان قبل ساعتين من وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

وحول الكلمات الأخيرة التي كان يرددها قبل وفاته قال ابنه أحمد: سمعته يردد ما نصه: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله» ثم تبسَّم لنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم أغمضت عيناه قبل ساعة من وفاته.









نَماذِج مِن حَرَكةِ السَّلَفِ فِي الدَّعوةِ إلَى اللهِ تَعَالى وَحِرْصِهم عَلَى هِدَايَةِ الخَلْق

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب فقال: «**أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار**»، فما زال يقولها حتى لو كان في مكاني هذا لسمعه أهل السوق حتى سقطت خميصة كانت عليه عند رجليه[١].

واقتداءً بهذا الهدي قال جعفر بن سليمان: سمعت مالك بن دينار يقول: لو استطعت أن لا أنام؛ لم أنم مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدتُ أعوانًا؛ لفرَّقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها: «يا أيها الناس: النارَ النارَ».

وعن إبراهيم بن الأشعث قال: «كنا إِذا خرجنا مع الفضيل في جنازة لا يزال يعظ، ويُذَكِّر ويبكي، حتى لكأنه يودِّع أصحابه ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فيجلس فكأنه بين الموتى، جلس من الحزن والبكاء حتى يقوم، ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها».

وعن شجاع بن الوليد قال: «كنت أخرج مع سفيان الثوري، فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا».

(١) رواه الدارمي في «سننه» رقم [٢٨١٥]، وصححه الألباني في «تحقيق المشكاة» (٣/ ١٥٨٢).







وعن علي بن أبي صالح السَّوَّاق قال: كنا في وليمة فجاء أحمد بن حنبل فلمَّا دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج، فلحقه صاحب المنزل، فنفض يده في وجهه وقال: «زيُّ المجوس، زيُّ المجوس، زيُّ المجوس»، وخرج.

وعن ابن فضيل عن أبيه أو عن نفسه قال: «كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف، فيضربونه حتى يُغشى عليه».

وأما الإمام الجليل الخِرقي صاحب (المختصر) فقد قال الإمام ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت من يذكر أن سبب موته، أنه أنكر منكرًا بدمشق، فضُرِب، فكان موته بذلك».

وقال الضياء المقدسي: «وكان العماد المقدسي قويًّا في أمر الله، ضعيفًا في بدنه، لا تأخذه في الله لومة لائم، أمَّارًا بالمعروف، لا يرى أحدًا يسيئ صلاته إلا قال له وعلَّمه».

قال: وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا، فكسَّر ما معهم، فضربوه حتى غشي عليه، فأراد الولي ضربَهم، فقال: «إن تابوا ولازموا الصلاة فلا تؤذِهم، وهم في حِلٍّ»، فتابوا.

وأقام الإمام العلامة أبو بكرٍ الطُّرْطوشي (ت:٥٢٠هـ) بثغر الإسكندرية حِسْبَةً في أثناء حكم العبيديين لمصر، وكان سبب إقامته بها ما شاهده من إقفار المساجد والمدارس من طلاب العلم والعلماء بسبب ملاحقة العبيدية لعلماء السنة، وتشريدهم، وقتلهم، وإيذائهم، فأقام بها رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن وافته المنية ينشر العلم، ويُفقِّه الناس بأمور دينهم، ويوثق صلتهم بكتاب الله وسنة رسوله، وما كان



عليه السلف الصالح المشهود لهم بالخيرية على لسان خير البرية، وكان يقول: إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية -لما كانت عليه في أيام العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم- أقول له: وجدتُ قومًا ضُلَّالًا فكنتُ سببَ هدايتهم. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أوذي من الأفضل الوزير العبيدي، فأُخرِجَ من الإسكندرية، وألزِم الإقامة بمصر، ومُنع الناس من الأخذ عنه، وبقي على ذلك إلى أن قُتِلَ الأفضل، وولي مكانه المأمون بن البطائحي، فأكرم الشيخ إكرامًا كثيرًا[١].

والإمام الزهري «لم يكتف بتربية أجيال وتخريج أئمة في الحديث، بل كان ينزل إلى الأعراب، يعلمهم».

وكان الفقيه الواعظ أحمد الغزالي، شقيق أبي حامد الغزالي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ «يدخل القرى والضِّياع، ويعظ لأهل البوادي، تقربًا إلى الله».

أما الشيخ أبو إسحاق الفزاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقد «كان رجل عامة، وهو الذي أدَّب أهل الثغور الإسلامية التي في أعالي بلاد الشام والجزيرة تجاه الروم، وعلَّمهم سنن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه».



وأما الشيخ الزاهد الفقيه محمد بن أحمد الدباهي:

فقد لازم العبادة، والعمل الدائب والجد، واستغرق أوقاته في الخير، صَلْبٌ في الدين، وينصح الإخوان، وإذا رآه إنسان؛ عرف الجد في وجهه.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٩١) هامش (١).




وعلى الفتى لطباعه سِمةٌ تلوحُ على جبينه

وأصيب الحافظ علاء الدين ابن العطار (ت:٧٢٤هـ) -أشهر تلاميذ الإمام النووي- بالفالِج[١] سنة (٧٠١هـ)، فكان يُحمل في مِحَفَّة، ويُطاف به مجالس العلم، ليلقي على الطلاب دروسهم[٢].

وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز، وقال في كتابه: «ومُرْ أهل الفقه من جندك، فلينشروا ما علَّمهم الله في مساجدهم ومجالسهم، والسلام».

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: «إن أوثق عملي في نفسي نشري العلم»، وعطاء ابن أبي رباح مفتي مكة هو القائل: «لأن أرى في بيتي شيطانًا؛ خير من أن أرى فيه وسادة، لأنها تدعو إلى النوم».

وقال الإمام ربيعة الرأي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يُضَيِّع نفسه».

قال الحافظ في (الفتح): «ومراده أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم، لا ينبغي له أن يهمل نفسه، فيترك الاشتغال، لئلا يؤدي ذلك إلى رفع العلم، أو مراده: الحث على نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك، فيؤدي إلى رفع العلم، أو مراده: أن يُشهر العالم نفسه، ويتصدى للأخذ عنه لئلا يضيع علمه»[٣] اهـ.

ووصَّى ابن القاسم عيسى بن دينار، فقال له: «عليك بأعظم مدائن الأندلس، فانزلها، ولا تنزل منزلًا يُضيع ما حملتَ من علم».

(١) **الفالِج**: شلل يصيب أحد شِقَّي الجسم طولًا.
(٢) «الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه» للحداد (ص١٣١).
(٣) «فتح الباري» (١/ ١٧٨).







مُخاطرتهمْ بأَنفُسِهِمْ في نُصْرَةِ الدِّينِ

عن خباب بن الأرت[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفَر له في الأرض فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعَل نصفين، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليَتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمِهِ ولكنكم تستعجِلون**»[٢].

وعن مالك بن مرثد عن أبيه قال: أتيتُ أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع عليه الناس يستفتونه، فأتاه رجلٌ، فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه إليه، ثم قال: «أرقيبٌ أنت عليَّ؟ لو وضعتم الصَّمْصَامة[٣] على هذه -وأشار بيده إلى قفاه- ثم ظننت أني أُنفذ كلمةً سمعتها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن تُجيزوا عليَّ لأنفذتها»[٤].

(١) قال مجاهد: «أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر، وبلالٌ، وخبَّابُ ابن الأرتِّ، وصُهيبٌ، وعمارٌ، وسُميَّة» «الإصابة» (٨/ ١٩٠).
وقال يومًا خبابٌ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لقد سلقوني يومًا في نارٍ أجَّجُوها، ووضع رجلٌ رِجلَه على صدري، فما اتقيتُ الأرضَ إلا بظهري» اهـ. من «البداية والنهاية» (٧/ ٢٩٤).
(٢) رواه البخاري رقم [٦٩٤٣].
(٣) **الصَّمْصامة**: هي السيف القاطع الصارم الذي لا ينثني.
(٤) علق البخاري طرفًا منه في كتاب العلم مجزومًا به (١/ ١٦٠-فتح)، وأخرجه الدارمي [٥٤٥]، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٠).



وكان عروة بن مسعود الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُحَبَّبًا إلى قومه مطاعًا فيهم، حتى أنه كان أحد العظيمَيْن اللذَيْن قصدهما المشركون فيما قصه الله عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وخرج إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فلما أشرف لهم على غرفة له، يؤذن لصلاة الفجر، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رَمَوْه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله[(١)].

إن الداعية الكبير الهمة يفاصل الباطل مفاصلة حاسمة، ويرفض الالتقاء به في منتصف الطريق، لسان حاله يقول: كان العيش المتصالح ممكنًا لي:

ولكنهم ركبوا مَسْلَكًا ... يَحيد عن الجَدَدِ المشرقِ
وقد ملك الأمرَ منهم رجالٌ ... يخالف منطقهُم منطقي
نَأَوْا عن هدى الله في نهجهم ... وساروا، وسرتُ، فلم نلتقِ[(٢)]

إنه على بصيرة من دينه، واثق من منهجه، موقن برسالته، ولو خالفه أهل الأرض قاطبة:

قال سليمان الداراني: «لو شك الناس كلهم في الحق، ما شككت فيه وحدي»، إنه يفترض حينئذ أنه خُلِقَ وحدَه، وكُلِّف بالحق وحده، وأنه سيحاسب عليه وحده.

وعن حزم بن أبي حزم قال: قال عمر بن عبد العزيز في كلام له: «فلو كان كل بدعة يُميتها الله على يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي، كان في الله يسيرًا».



---

(١) انظر: «أسد الغابة» رقم [١٠٤٢].
(٢) «المنطلق» (ص١٧٧).

إنه يعلم أن طريق الدعوة طويل وشاق، مملوء بالأشواك والصعاب، لا تتحمله إلا نفوس الرجال، ولا تقوم به إلا همم الصادقين الأبطال، ولا تقدر على مواصلة السير فيه النفوس المريضة المترهلة ممن أصابها وهن العزيمة، ونضب وقود الإيمان فيها .. هذا الطريق هو طريق الأنبياء، فيه تعب آدم، وناح لأجله نوح، ورُمِيَ في النار الخليل، وأُضْجِعَ للذبح إسماعيلُ، وبيع يوسف بثمن بخس، وقاسى المرضَ أيوب، وكذا سيرة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين[١].

إن من خصائص الداعية الكبير الهمة أنه لا يترخص في السكوت عند قوة أهل الفجور وأذاهم، لأنه يرى أن الترخص هنا من شأن العامة من المستضعفين، وأما الدعاة، والقادة، والعلماء، فيتمسكون بالعزيمة، ويصدعون بالحق، وإن لحقهم الأذى والعذاب والموت.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهل العزائم بناء أمرهم على الجَدِّ والصدق، فالسكون منهم إلى الرُّخَصِ رجوعٌ وبطالة»[٢].

لقد تجسَّد هذا المعنى جليًّا في موقف إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من محنة القول بخلق القرآن، وهاك طرفًا منها كما يحكيه ابنه صالح:

قال صالح: قال أبي: (لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم، وقال: ائتوني بغيرِها، ثم قال للجلادين: «تقدموا»، فجعل يتقدم إليَّ الرجل منهم فيضربني سوطين، فيقول له: «شُدَّ، قطع الله يدك!»، ثم يتنحى، ويقوم الآخر، فيضربني



(١) «بصائر تربوية» (ص١٣٥).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٥٧).

سوطين، وهو يقول في كل ذلك: «شد، قطع الله يدك!»، فلما ضُربت تسعة عشر سوطًا قام إليَّ، يعني المعتصم، وقال: «يا أحمد علام تقتل نفسك؟ إني والله عليك لشفيق»، قال: فجعل عُجيْف ينخسني بقائمة سيفه، وقال: «أتريد أن تغلبَ هؤلاء كلَّهم؟»، وجعل بعضهم يقول: «ويلكَ، الخليفة على رأسك قائم!»، وقال بعضهم: «يا أمير المؤمنين، دمُه في عنقي، اقتله!»، وجعلوا يقولون: «يا أمير المؤمنين، أنت صائم، وأنت في الشمس قائم!»، فقال لي: «ويحك يا أحمد، ما تقول؟»، فأقول: «أعطوني شيئًا من كتاب الله أو سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقول به»، فرجع وجلس، وقال للجلَّاد: «تقدم وأوْجِع، قطع الله يدكَ!»، ثم قام الثانية، فجعل يقول: «ويحك يا أحمد، أجبني»، فجعلوا يُقبِلون عليَّ ويقولون: «يا أحمد، إمامك على رأسك قائم!» وجعل عبد الرحمن يقول: «مَن صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟» وجعل المعتصم يقول: «ويحك، أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أُطْلِقَ عنك بيدي»، فقلت: «يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتاب الله»، فيرجع، ويقول للجلادين: «تقدموا»، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى، وهو في خلال ذلك يقول: «شد، قطع الله يدك!» قال أبي: فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك فإذا الأقياد قد أُطلِقَتْ عني، فقال لي رجل ممن حضر: «إنا كَببْناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك بارية -يعني: حصيرًا- ودُسْناك!»، قال أبي: فما شعرت بذلك، وأتوني بسَوِيق فقالوا لي: «اشرب وتقيأ»، فقلت: «لا أفْطِر»، ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سَمَاعة فصلَّى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: «صليتَ والدم يسيل في ثوبك؟»، فقلت: «قد صلى عمر وجرحه يَثْعَبُ دمًا».

قال صالح: ثم خُلي عنه فصار إلى منزله، وكان مكثه في السجن، منذ أُخِذَ وحُمِلَ إلى أن ضرب وخُلي عنه، ثمانيةً وعشرين شهرًا. ولقد أخبرني أحد الرجلين اللذين كانا معه، قال: يا بن أخي، رحمة الله على أبي عبد الله، والله ما رأيت أحدًا يشبهه، ولقد جعلت أقول له في وقت ما يُوَجه إلينا بالطعام: «يا أبا عبد الله، أنت صائم، وأنت في موضع تَقِيَّةٍ»(١)، ولقد عطش فقال لصاحب الشراب: «ناولني»، فناوله قدحًا فيه ماء وثلج، فأخذه ونظر إليه هنيَّةً، ثم ردَّه ولم يشرب! فجعلت أعجب من صبره على الجوع والعطش، وهو فيما هو فيه من الهول!(٢)، وعلَّق الإمام أبو الفرج ابن الجوزي على موقف الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلًا: «هذا رجل هانت عليه نفسه في الله تعالى فبذلها، كما هانت على بلال نفسه، وقد روينا عن سعيد بن المسيب: (أنه كانت نفسه عليه في الله تعالى أهونَ من

(١) علَّق العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا قائلًا: (التقية إنما تجوز للمستضعفين الذين يخشون أن لا يثبتوا على الحق، والذين ليسوا بموضع القدوة للناس، هؤلاء يجوز لهم أن يأخذوا بالرخصة. أما أولو العزم من الأئمة الهداة، فإنهم يأخذون بالعزيمة، ويحتملون الأذى ويثبتون، وفي سبيل الله ما يلقون. ولو أنهم أخذوا بالتقية، واستساغوا الرخصة لضل الناس من ورائهم، يقتدون بهم، ولا يعلمون أن هذا تقية. وقد أُتي المسلمون من ضعف علمائهم في مواقف الحق، لا يصدعون بما يؤمرون، يجاملون في دينهم وفي الحق، لا يجاملون الملوك والحكام فقط، بل يجاملون كل من طلبوا منه نفعًا، أو خافوا منه ضرًّا، في الحقير والجليل من أمر الدنيا. وكل أمر الدنيا حقير. فكان من ضعف المسلمين بضعف علمائهم ما نرى. ولقد قال رجل من أئمة هذا العصر المهتدين، فيما كتب إلى أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من خطاب سياسي عظيم، في جمادى الأولى سنة ١٣٣٧، قال: «كأن المسلمين لم يبلغهم من هداية كتابهم فيما يغشاهم من ظلمات الحوادث غير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران:٢٨] ثم أصيبوا بجنون التأويل فيما سوى ذلك، ولست أدري وقد فهموا منها ما فهموا، كيف يقولون بوجوب الجهاد، وهو إتلاف للنفس والمال؟! وكيف يفهمون تعرضه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصنوف البلاء والإيذاء؟! ولماذا يؤمنون بكرامة الشهداء والصابرين -في البأساء والضراء- على الله»؟!) اهـ. من «ترجمة الإمام أحمد» للذهبي هامش (ص٤٩، ٥٠).

(٢) «ترجمة الإمام أحمد» للحافظ الذهبي (ص٤٨-٥٠).



نفس ذباب)، وإنما تهون أنفسهم عليهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل، لا إلى الحال، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه، لأنه قد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يُبتلى المرء على حسب دينه**»، فسبحان من أيده وبصَّره وقواه ونصره» اهـ.

وقال ابن طاهر المقدسي الحافظ:

سمعت الإمام أبا إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري بهراة يقول:

«عُرِضْتُ على السيف خمس مرات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، لكن يقال لي: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت»(١).

وقال أبو العباس السَّرَّاج عن الكُديمي قال: لما دخل أبو نُعيم على الوالي ليمتحنه، وثَمَّ يونُس وأبو غسان وغيرهما، فأولُ من امتُحِن فلانٌ، فأجاب، ثم عَطفَ على أبي نُعيم، فقال: قد أجاب هذا، فما تقولُ؟ فقال: «واللهِ ما زلتُ أتَّهِمُ جَدَّه بالزندقة، ولقد أخبرني يونس بن بكير أنه سمع جده يقولُ: لا بأسَ أن يرمي الجمرة بالقوارير. أدركتُ الكوفةَ وبها أكثر من سبع مئة شيخٍ، الأعمش فمَن دونه يقولون: القرآن كلام الله، وعُنُقي أهونُ من زِرِّي هذا»، فقام إليه أحمد بن يونس، فقبَّل رأسه -وكان بينهما شحناء- وقال: «جزاك الله من شيخٍ خيرًا»(٢).

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن البرذون من شيوخ السنة المعروفين بالذبِّ عن مذهب الإمام مالك، ولم يكن في نشأة القيروان أقوى على الحجة والمناظرة منه.

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٢٠٧).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٤٩).



وكان أبو بكر بن هذيل على مثل طريقته، فرفع أمرهما إلى أبي عبد الله الشيعي أو لأخيه أبي العباس، وذكر من أمرهما أنهما يطعنان في دولة الشيعة، فصدر الأمر بحبس ابن البرذون وابن هذيل.

ثم أمر عامل القيروان حسن بن أبي خنزير بضرب ابن هذيل خمسمائة سوط، وبضرب رقبة ابن البرذون، فغلط ابن أبي خنزير، فضرب ابن البرذون، وقتل ابن هذيل.

ثم تنبه من الغد فقتل ابن البرذون.

ولما جُرِّد إبراهيم بن البرذون ليُقتل، قال له حسن بن أبي خنزير: ترجع عن مذهبك؟

فقال له: أعَنِ الإسلام تَستتِيبُني؟

فقُتل، رُبطت أجسامُهما بالحبال، وجرتهما البغال، مكشوفَيْنِ بالقيروان، وصُلبا نحو ثلاثة أيام، ثم أُنزِلا ودُفنا.

وكانت الحادثة سنة تسع وتسعين ومائتين[١].

وذكر الدباغ في (معالم الإيمان) أن جر الشيخين كان على وجوههما من باب تونس إلى باب أبي الربيع فصُلبا هناك.

كما نقل الدباغ عن المالكي بسنده أن عبيد الله لما وصل إلى رقادة أرسل إلى القيروان مَن أتاه بابن البرذون وابن هذيل، فلما وصلا إليه وجداه على سرير ملكه جالسًا، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي، وعن يساره أبو العباس أخوه،



(١) انظر: «ترتيب المدارك» (٥/ ١١٨).

فلما وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس: «اشهدا أن هذا رسول الله»، وأشارا إلى عبيد الله.

فقالا جميعًا بلفظ واحد: «والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان إنه رسول الله ما قلنا إنه رسول الله».

فأمر عبيد الله بعقابهما على نحو ما تقدم[(١)].

وقال الشيخ أبو الحسن القابسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذكر لي من أثق به أنه كان جالسًا عند ابن أبي خنزير -لعنه الله- في سقيفته، فدخل عليه شيخ ذو هيئةٍ جميلةٍ، وقد علاه صفار وسمت وخشوع، وعلى رأسه منديل مهلبي، فلما رآه ابن خنزير بكى، فقال له: ما الذي أبكاك؟

قال: السلطان -يعني عبيد الله- وجَّه إليَّ يأمرني أن آمر بدوسِ هذا الشيخ حتى يموت، وهو ابن خيرون.

ثم أمر به فأُدخل إلى المجلس، ثم بُطح على ظهره، وطلع السودان فوق السرير، فقفزوا عليه بأرجلهم حتى مات.

ولما مات أخذوه وحملوه على بغل، وألقوه في حَفير[(٢)].

كان ذلك لجهاده في الدين، وبُغضه لعبيد الله وجنده، وكان الذي عمل عليه وسعى به هو المروذي -الشيعي- لعنة الله عليه»[(٣)].



---

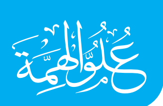
(١) «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» (٢/ ١٧٨).
(٢) حفير: حُفرة، أو قبر.
(٣) «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم» (٢/ ٥٥).

وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي: قال أبو ذر الحافظ: سَجَنه بنو عُبيد، وصلبوه على السنَّة، سمعتُ الدَّارقطنيَّ يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول، وهو يُسْلَخ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:٥٨]، قال أبو الفرج ابن الجوزي: أقام جوهر القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرةُ أسهم، وجب أن يرميَ في الروم سهمًا، وفينا تسعة، قال: ما قلت هذا، بل قلت: «إذا كان معه عشرةُ أسهم، وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرميَ العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية»، فشهَرهُ ثم ضربه ثم أمر يهوديًّا فَسَلخَه، وقال ابن الأكفاني: «سُلِخ، وحُشِي تِبْنًا، وصُلِب»، وقيل: سُلِخ من مَفرِقِ رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله، ويصبر حتى بلغ الصدر، فرحمه السَّلَّاخ، فوكزه بالسكين موضعَ قلبه، فقضى عليه، وقيل: «لما سُلِخ كان يُسمع من جسده قراءة القرآن»[(١)].

قال السِّلَفيُّ: كان ابن الحُطيئة[(٢)] رأسًا في القراءات، وقرأتُ بخط أبي الطاهر بن الأنماطي قال: سمعت شيخنا شُجاعًا المُدلجي وكان من خيار عباد الله يقول: كان شيخنا ابن الحطيئة شديدًا في دين الله، فظًّا غليظًا على أعداء الله، لقد كان يحضُرُ مجلسه داعي الدعاة[(٣)] مع عِظم سُلطانه ونُفوذِ أمرِه، فما يحتشِمُهُ، ولا يُكرمه، ويقول: «أحمقُ الناس في مسألة كذا وكذا الروافضُ، خالفوا



(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٤٨).
(٢) هو الإمام العلامة القدوة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد اله اللخمي المغربي المُقرئ (ت:٥٦٠هـ).
(٣) هو أبو القاسم هبة الله بن كامل المصري التنوخي، قاضي الخليفة العاضد (ت:٥٦٩هـ).





الكتاب والسنة، وكفروا بالله»، وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرفِ مصر وقد حضرهُ بعضُ وزراء المصريين أظنُّه ابن عباس، فاستسقى في مجلسه، فأتاهُ بعض غلمانه بإناء فضة، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يدهُ على فؤاده، وصرخ صرخةً ملأت المسجد، وقال: «واحَرَّها على كبدي، أتشرب في مجلسٍ يُقرأ فيه حديثُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آنية الفضة؟! لا والله لا تفعل»، وطرد الغلام، فخرج، وطلب الشيخ كوزًا، فجيء بكوزٍ قد تثلَّم، فشرب، واستحيي من الشيخ، فرأيته والله كما قال الله ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [إبراهيم:١٧][(١)].

الداعية الكبير الهمة «ينظر إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمنًا، ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كرةً لا مفر منها، وَهَبْها كانت القاضية فإنه لا يَحني لها رأسًا، إن الناس كلهم يموتون، أما هو فيستشهد ..»[(٢)].

- وكان سبب استشهاد الإمام محمد بن إسحاق الحُبُلي قاضي برقة أنه أتاه عامل برقة المعروف بابن كافي[(٣)] فقال له: «إن غدًا العيد»، فقال القاضي: «إن رُئي الهلالُ الليلة كان كما قلتَ، وإن لم يُر لا أخرج؛ لأنه لا يمكنني أن أُفَطِّر الناسَ يومًا من رمضان، وأتقلد ذنوب الخلق»، فقال له: «بهذا وصل كتاب مولاي»، فالتمس الناسُ الهلال في تلك الليلة فلم يروه، فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول، والبنود، وهيئة العيد.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٣٤٦).
(٢) «معالم في الطريق» (ص١٦٨).
(٣) من ولاة العُبيديين المُسَمَّين بالفاطميين أثناء احتلالهم ليبيا.



فقال له: «لا والله لا أخرج ولا أخطب، ولا أصلي العيد، ولا أتقلد أن أُفطِّر الناسَ يومًا من رمضان[١] ولو عُلِّقْتُ بيدي».

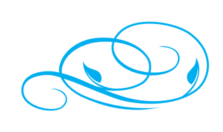
فمضى العامل، فجعل من خَطَبَ وصلى، وكتب بما جرى إلى مولاه -في القيروان- فلما وصل إليه الخبر أمر برفعه إليه، فلما وصل قال له: «إما أن تتنصل وأعفو عنك، وإلا فعلتُ بك ما قلتَ».

فامتنع من الدخول في دعوته، وقال له: «اعمل ما شئتَ».

فنَصَبَ له صاريًا عند الباب الأخير من أبواب الجامع الذي يلي درب المهدي، وعُلِّقَ بيده إليه في الشمس، فأقام كذلك ضاحيًا للشمس في شدة الحر يومه ذلك، فلما كان بالعشي مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان يطلب مَن يَسقيه الماء في ذلك الحال، فلا يجسر أحد من الناس أن يسقيه لشدة خوفهم.

فلما مات أخذوه ومَضَوْا به، فصلبوه على خشبة بباب أبي الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].





(١) «وكان هذا من رأي العُبيدية يُفَطِّرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية» اهـ. من «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٧٤).

(٢) «رياض النفوس» (٢/ ٤٠٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٧٤).

شهداء في سبيل عقيدة الحق

نسوق -فيما يلي- شذرات من سيرة بعض أعلام الشيعة الذين هداهم الله إلى الحق، فجهروا به في شجاعة، فدفعوا حياتهم ثمنًا لعقيدتهم، تقبلهم الله في الشهداء، وجزاهم عن السنة وأهلها خيرًا.

١- أحمد مير قاسم الكسروي (ت:١٩٤٦م)

تولى منصب المدعي العام في طهران، وتبنى الدعوة للتصحيح داخل المذهب الشيعي، ودعا إلى توحيد العبادة ونبذ الشرك ومظاهره، واستنكر الغلو في الأئمة والإمامة، ونفى ولادة محمد بن الحسن العسكري، ودافع عن الشيخين والصحابة رضي الله عنهم، وقد سحر الشباب بقلمه وأسلوبه، حتى ذاعت أفكاره، وكتب إليه بعض الكويتيين الشيعة يطلبون منه كتابة أفكاره باللغة العربية، فألَّف كتاب (التشيع والشيعة) في أسبوعين.

وما أن انتهى الكسروي من تأليف كتابه (التشيع والشيعة) حتى تعرض لمحاولة الاغتيال، حيث ضُرِب بالرصاص من قِبَل مجموعة في طهران، فدخل المستشفى، وأجريت له عملية جراحية، وتم شفاؤه.

ثم أخذ خصومه يكيدون له، ويحيكون له المؤامرات من أجل الإيقاع به، فقد رموه بمخالفة الإسلام، ورفعوا ضده شكوى إلى وزارة العدل، ودُعي للتحقيق معه، وفي آخر جلسة من جلسات التحقيق ضُرِب بالرصاص مرة أخرى، وطُعِن



بخنجر، فمات على إثر ذلك، وكان في جسمه تسعة وعشرون جرحًا، وقد عاش سبعًا وخمسين سنة.

ويُذكر أن الذي قام بإطلاق النار عليه هو «نواب صفوي» سنة ١٩٤٦م[١].

٢- آية الله العظمى[٢] أبو الفضل البرقعي (ت:١٩٩٢م)

حاز مرتبة علمية كبرى عند الشيعة، وهي مرتبة المرجعية، وألَّف عشرات الكتب في مرحلة تشيُّعه نصرة للتشيع، ثم في مرحلة التسنن دفاعًا عن عقيدة أهل السنة، ومن أبرزها:

١- كسر الصنم[٣].

٢- نقد كتاب (المراجعات).

وترجم بنفسه بعض الكتب من العربية إلى الفارسية من أهمها: (أحكام القرآن) للإمام الشافعي، و(المنتقى مختصر منهاج السنة) لابن تيمية، و(العواصم والقواصم)، و(التوحيد)، و(كشف الشبهات) لمحمد بن عبد الوهاب[٤].



(١) انظر: «أعلام التصحيح والاعتدال» (ص١٥٦-١٨٤).

(٢) هذا اللقب يناله المجتهدون أصحاب أعلى الدرجات العلمية عند الشيعة، ويكاد لا يصل إليه في عالم التشيع إلا خمسة أشخاص.

(٣) والصنم هنا هو أهم مرجع لعلوم الشيعة على الإطلاق «الكافي» للكليني، وقد منعت إيران طبعه، فيسَّر الله لأهل السنة طباعته.

(٤) وكان مما قاله في مذكراته «سوانح الأيام»:

«وليعلم القارئ أن هذه الدولة جعلت الناس أعداءً لنا، أقاربنا وأصحابنا لا يتجرءون على زيارتنا والاتصال بنا، وهكذا فإن كل من جرى على لسانه كلمة لبيان العقائد الموافقة للقرآن فإن نظام الخميني يتهمه بأنه (وهَّابي) مع أنه لا يوجد في الدنيا مذهب اسمه (الوهابية)، وإنما هم لغرض استعداء الناس وتنفيرهم يدعون أهل الجزيرة والحجاز بالوهابيين، مع أن مملكة الحجاز كما أعلم وأعتقد هم حنابلة. =

وعقب قيام الثورة الخمينية (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، وكان البرقعي قد بلغ السبعين سنة، تفرغ للقراءة والبحث والنظر، والتدبر في كتاب الله تعالى، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتبين لي أنني وجميع علماء مذهبنا غارقون في الخرافات، وغافلون عن كتاب الله، وتخالف آراؤهم صحيح[١] القرآن وتعارضه» اهـ[٢].

وكتب رسائل عدة ينصح فيها الخميني، لكنه لم يجب على رسالة واحدة منها، وكان كلما كتب مقالًا يُحال بينه وبين نشره.

واتهمه المتعصبون بالكفر وإنكار الله عَزَّوَجَلَّ والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهُدِّد بالقتل عدة مرات من بعض المراجع، واضطُهِدَ في أيام الشاة، وتعرض للسجن وحاول حرس الثورة اغتياله، لكنه نقل إلى المستشفى، ومُنِع الأطباء من علاجه، فغادر المستشفى إلى منزله، ثم سُجن في «إيوبن» لمدة سنة، ثم نفي إلى «يزد» ثم سُجن مرة أخرى، ثم نُفي، ثم مات عام ١٩٩٢م رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

وسيرة الإمام البرقعي سيرة خِصْبة مشرقة قد أُفرِدت لها مصنفات جديرة بالدراسة، ويعد بحق من أعظم أعلام التصحيح، فجزاه الله عن الإسلام والسنة خير الجزاء.



= نعم من حيث العقيدة هم يسيرون على عقائد العالم محمد بن عبد الوهاب، ولكنه لم يأت بمذهب جديد، وإنما هي آراء ابن تيمية وابن قيم الجوزية، وهذان أيضًا لم يفعلا شيئًا سوى محاربة الخرافات والبدع ودعوة الناس إلى الإسلام الأصيل، ودعوة الناس إلى الرجوع إلى القرآن، نعم هما لم يكونا معصومين، وقد أخطآ بعض الأخطاء خاصة في توحيد الصفات فآراؤهما فيها لا تخلو من إشكال (!!)، لكن مشايخ إيران لا يترددون في اتهام كل من هدد متاجرهم ودكاكينهم، وبيَّن بطلان ما عندهم بالبراهين بالوهابية حتى يهربوا من الاستدلال على أخطائه والرد على براهينه، مما يدل على أنهم لا منطق لهم ولا برهان سوى القوة والسجن والقتل» اهـ. (ص٣٠٨).

(١) كان الواجب أن يقول: «وتخالف آراؤهم الفهم الصحيح للقرآن».

(٢) «كسر الصنم» (ص٣٩٠).

٣- أحمد مفتي زادة (١٣٥٢-١٤١٣هـ=١٩٣٣-١٩٩٣م)

الزعيم الإسلامي السُّنِّي في إيران، الشيخ، الفقيه، العالم، الداعية، العَلَم.

وُلِد في عائلة عريقة في الدين، وكان والده وعمه من أكابر علماء كردستان إيران.

أنشأ محضنًا للجيل المسلم باسم «مكتب القرآن»، فالتفَّ حوله شباب منطقة كردستان، وعموم شباب إيران من أهل السنة والجماعة.

أسس مجلس شورى أهل السنة والجماعة «شمس»، اشتهر بمنحاه السلفي، ونجح في توضيح أن أهل السنة في إيران ليسوا فقط من الأكراد «٤ ملايين» وإنما هناك مليونان في خراسان ومثلهم في البلوشي، إضافة إلى التركمان الذين يقيمون على حدود الجمهوريات الإسلامية شرق بحر قزوين، وكذلك قوم طوالش الذين يقطنون الحدود الشمالية الغربية من الجمهوريات الإسلامية، كما يوجد في الجنوب على امتداد ساحل الخليج قوم مخلّطون من الفرس والعرب، وهؤلاء من أهل السنة والجماعة «في حدود المليون» ويمثل هؤلاء جميعًا ما يقرب من ثلث سكان إيران.



وهو من المتبحرين في العلوم الشرعية، يتميز بسلوك إسلامي مترفع عن الترف والاستكبار والعلو في الأرض، ساهم وإخوانه في الثورة على الحكم الإمبراطوري، وكرس جهوده لدعم الثورة بتوعية أهل السنة والنهوض بهم لمسايرة .. الشيعة في وجه الطغاة، وساهموا في الثورة مساهمة فعَّالة، وقدموا في

سبيل ذلك قافلة من الشهداء من خيرة أبنائهم، وكانت الوعود المقدمة إليهم بأن عهد الفرقة والظلم قد ولَّى واقترب عهد الفوز والسعادة، ولكن نُبِذَت العهودُ وراءَ الظهور، وزُجَّ بمفتي زاده وأتباعه في السجون أواخر عام ١٩٨٢.

بعد أن أُدخل السجنَ حُكم عليه بالسجن خمس سنين، وقد تعرض خلال سجنه لأقصى أنواع التعذيب النفسي والبدني، فمرت عليه الشهور والشهور في زنازين مظلمة لا يدخلها شعاع الشمس، وحُجِز لأربعة أشهر متوالية في دورة المياه، ثم تُرِكَ يقاسي آلام مرضه دون تخفيف أو معالجة، حتى أصبح لا يستطيع أن يحرك يديه ليتيمَّم للصلاة، وحتى قال فيه الأطباء: إنه على مقربة من الموت...

ومضت السنون الخمس، وتوقع الذين يحسنون الظن أن يفرج عنه، لكن ذلك لم يحدث، لقد طلبوا منه أن يُوَقِّعَ مكتوبًا يُلزِمه بأن لا يعود لمثل ما كان عليه، وأبى الداعية العزيز ذلك، وهو الذي اتصف بالاستقامة والتمسك بالحق، ورفض التخلي عن الحق طالبًا للنجاة بنفسه.

وأخيرًا.. فقد أُفرج عنه بعد قضاء عشر سنوات في السجن، وكان قد اشتدَّ عليه المرض، وأصيب بالعمى، حتى توفاه الله.

وكانت آخر وصاياه: أوصيكم ألا تخافوا إلا الله(١).

٤- محمد بن إسكندر الياسري (ت:١٩٩٧م)

مهندس ومثقف ديني عراقي، تلقى شيئًا من علوم الجعفرية، ثم بحث بنفسه عن الحق، بعد أن تحول مجرى حياته حين التقى في بغداد بالشيخ السني محمد بن حجي كريم الذي أحسن مقابلته ومناظرته، وحرَّضه على البحث المخلص بدون

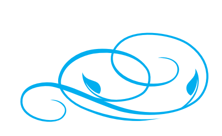
(١) انظر: «تتمة الإعلام» (١/ ٦٤).





تعصب، ثم أخبره بانحراف مذهب الإمامية في أصول الدين مما صدمه، ودفعه إلى أن يبحث في مراجع مذهبه ليتأكد من هذا بنفسه، وفي ليلة اليوم الذي قرر فيه مباشرة البحث رأى في المنام جَدَّه أمير المؤمنين عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضع يده اليمنى على رأسه، والطريق أمامه يشع نورًا عظيمًا، فاستيقظ مستبشرًا، وبدأ العمل بنشاط، وانتهى الأمر بأن فُوجئ بصحة كلام الشيخ ابن حجي، وصدمه وجود طائفة من أبرز أعلام المذهب يقررون عقيدة تحريف القرآن الكريم ونقصانه، فانتهى به الأمر إلى نبذ عقيدة النص والعصمة (الإمامة)، واستنكر مخالفات الإمامية لمذهب أهل السنة والجماعة.

ولم يستطع الياسري أن يكتم الحقيقة التي تبينت له، فذهب يؤلف ويتكلم بالحق، فتعرض لكثير من المضايقات والأذى، وقد كان حذرًا جدًّا حتى إنه لم يكن ينام في غرفة لها نافذة -أخذًا بأسباب التوقي من الاغتيال-، كما كان لا يسير إلا مُسَلَّحًا، إلا أنه قُتل أخيرًا على أيدي بعض المتعصبين أثناء رجوعه من صلاة الفجر بسيارة صهره، إذ أَطلق عليه النار ثلاثةُ أشخاص، فمات رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مباشرة سنة ١٩٩٧م[١].





(١) انظر: «أعلام التصحيح والاعتدال» (ص١٨٥-٢٢١).

لو صَحَّحْتَ لم تَخَفْ

شكى رجل إلى الإمام أحمد خوفه من بعض الولاة، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو صححتَ[١]؛ لم تخف أحدًا»، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ [الأنعام:٨٠]، وتحدى هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قومه فقال: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٥، ٥٦].

وقال الشيخ العمري الزاهد: «إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله، أن ترى ما يُسخِطُ الله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه، ولا تنهى عنه، خوفًا ممن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا»[٢].

يقول إقبال:

ليس يدنو الخوفُ منه أبدا	ليس غيرَ الله يخشى أحدا
لَحْنُه في القلبِ نارًا أشعلا	من قيود الزوجِ والولد خلا
مُعْرِضٌ عما سوى الله الأحدْ	يضعُ السكينَ في حَلْقِ الولدْ

وهذا الشاعر «وليد الأعظمي» ينشد في «أغاني المعركة»:

(١) أي: لو صححت توحيدك واعتقادك، لم تخف غير الله.
(٢) «الجواب الكافي» (ص٤٤).

مهما تمطى ليلنا الأسودُ
مهما استبد الظالم «السيد»
مهما عتا الأقزام والأعبدُ
ولوَّحوا بالقيد أو هددوا
عن نصرة الإسلام هل نقعدُ
كلا، سنبقى دائمًا ننشدُ
بفجره لابد أن يأتي الغدُ

آخر:

نحن عصبة الإله ... دينُه لنا وطن
نحن جند مصطفاه ... نستخف بالمحن

الداعية المسلم: لا أرض تحده، ولا العذاب يرهبه.

إنه يعمل أنى هاجر وطرد، لا يعشق ترابًا، ولا يضيق ضمن حدود أوهم الاستعمارُ غيرهم أنها حدودهم، ويتآخى مع كل بني الإسلام، فإن لم تكن الهجرة وكان السجن، كان سجنه سياحة لروحه وفكره، وإذا شُنِقَ كان هبوطُ الحبل به علوًّا ينقله إلى منزل جميل كريم[(١)].

خذوا كل دنياكم واتركوا ... فؤاديَ حرًّا وحيدًا غريبا
فإني أعظمكم دولةً ... وإن خِلتموني طريدًا سليبا





(١) انظر: «المنطلق» (ص٢٢١، ٢٢٢).

البَرَكة .. في السَّعْي وَالحَركةِ

بالرغم من التحفظات على فكر ومنهج جماعة التبليغ، إلا أننا نقر بأنها أوفر الجماعات الإسلامية حظًّا من علو الهمة في الحركة الواسعة الدءوب، ولهم في ذلك إنجازات رائعة أثمرت إسلامَ كثيرٍ من المشركين، وهداية الكثير من الفاسقين، وتبليغ دين الله في آفاق المعمورة[١].





(١) ومع ذلك فإن منهج جماعة التبليغ كان مثار جدل كبير، وصنَّف كثير من علماء السنة في نقده، وبيان ما فيه من قصور بل بدع تتفاوت في غلظها بتفاوت البلاد، وحظ أهلها من العروبة أو العجمة، وغلبة البيئة العلمية أو الجاهلة.

«لا تحقرن من المعروف شيئًا»(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ما معناه: «إن بعض أهل البدع يذهبون إلى بلاد الكفار فيدعونهم إلى الإسلام، فيدخلون فيه، ويتابعونهم على بدعتهم، وهذا أفضل من أن يبقوا على الكفر، فإن نورًا فيه ظلمة خير من ظلمة لا نور فيها».

قال الأستاذ سعد الحصين: «.. ومع نقصها -أي: جماعة التبليغ- وأخطائها فإنها في رأيي نعمة من الله أنقذ بها كثيرًا من خلقه، أيقظهم بها من الغفلة، وردَّهم بها عن المعصية والتهالك على الدنيا، وأخرجهم من حظيرة الكفر إلى الإسلام، ولقد اشتركتُ في استفتاء لمائة من خِيرة المهتدين حديثًا إلى الإسلام في أمريكا لاختيار عدد منهم دعاة وأئمة فلم أجد واحدًا بينهم عرف الإسلام بواسطة كتاب إسلامي أو محاضرة أو جماعة إسلامية أخرى أو هيئة رسمية للدعوة إلى الله، أو أي جهد آخر من خارج المجتمع الأمريكي، ولكن نصفهم تقريبًا دخل الإسلام عن طريق جماعة التبليغ، والنصف الآخر عن طريق جماعات أمريكية سُمِّيَتْ «المسلمين السود» و«البلاليين» و«أمة الإسلام في الغرب».



(١) صدر حديث شريف، تمامه: «ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طليق، وإذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، واغرف لجيرانك منها» رواه مسلم [٢٦٢٦] عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.




والسبب في رأيي أنها تعيش للدعوة، وتضحي من أجلها.

ويمكن للجماعة أن تسد نقصها بسهولة إذا تخلصت من التعصب لذاتها وأمرائها وأصولها، إن مشكلتها الأولى في الجهل بالشريعة، والعلم بشرع الله لن تجده بين أمرائها فأكثرهم عوام وأفرادها ليسوا بأفضل من الأمراء(١)؛ لأن بعضهم يتعلم من البعض الآخر وتؤثر فيهم الجماعة بقوة طريقتها التربوية أكثر مما تؤثر فيهم المدرسة أو الكلية بانفصال العلم فيهما عن العمل وبأهدافهما الدنيوية الضائعة.

ويمكنها أن تعرض منهجها النظري والعلمي على علماء الشرع من أهل السنة والجماعة(٢) فما وافق شرع الله عضَّت عليه بالنواجذ، وإن خالف أساليب العصر وبدعه، وما باين شرع الله تخلت عنه وإن استحسنه المشايخ في الهند

(١) ومن ثَمَّ حاول البعض تسويغ منهج الجماعة بأنهم دعاة «الخطوة الأولى» فهي دعوة العوام إلى العوام، تنقل المسلم من بيئة الغفلة إلى بيئة الذكر، ومن المعصية إلى الطاعة.

(٢) لقد أصاب الأستاذ الحصين هنا كبد الحقيقة، فإن موقف الجماعة المجافي للعلم الشرعي هو سبب وجود هذه المؤاخذات، والعلم عندهم -واقعيًّا- ليس هو علم الوحيين الشريفين، لكنه العلم بطريقة جماعة التبليغ الذي يتضمن شيئًا من السنة، ومفاهيم خاصة بالجماعة، قد تصادم الوحيين صراحة، فميراث مؤسس الجماعة الفكري هو بديل العلم الشرعي عندهم.

إن مفتاح «الإصلاح» في جماعة التبليغ أن تقبل الجماعة مبدأ التناصح مع علماء أهل السنة، والتحاكم إلى أهل العلم الشريف في مواطن النزاع، وأن تدرك ضرورة الارتباط الوثيق بين العلم والدعوة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ الآية [يوسف:١٠٨]، وأن تجند من أفرادها طائفة يتسلحون بالعلم الشرعي، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: **«من يُرِدِ الله به خيرًا يفقهه في الدين»** متفق عليه.





والباكستان. هذه هي حقيقة الموالاة في الله والمعاداة فيه، أما الأخرى فهي حمية الجاهلية...

ولا يعيب الجماعة في رأيي أن يكون أكثر أفرادها عوامَّ أو أميين ولكن يعيبها كلَّ العيب أن تدعو إلى الله بمنهج لا يحرر الفرد من الشرك والبدع والخرافات والجهل بمعنى «لا إله إلا الله»[(١)] التي قام عليها دين الله من قبل وبعد»[(٢)].

وفي رسالة من «إمام العصر» سماحة العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ إلى الأستاذ عوض بن إبراهيم القحطاني قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد السلام: «أما بعد: فقد وصلني كتابك الكريم وفهمت ما شرحتم فيه وما تضمنه السؤال عن جماعة التبليغ وهل طريقتهم صحيحة وهل هناك مانع من مشاركتهم فيما يقومون به من الدعوة والخروج معهم إلى آخره؟

والجواب: قد اختلف الناس فيما ينقلون عنهم فمِن مادحٍ وقادح، ولكننا تحققنا عنهم من كثير من إخواننا الثقات من أهل نجد وغيرهم الذين صحبوهم في رحلات كثيرة، وسافروا إليهم في الهند والباكستان، فلم يذكروا شيئًا يُخِلُّ بالشرع المطهَّر أو يمنع من الخروج معهم، ومشاركتهم في الدعوة، وقد رأينا كثيرًا ممن صحبهم وخرج معهم قد تأثر بهم وحسنت حاله كثيرًا في دينه وأخلاقه



---

(١) فليس الإعراض عن منهج الرسل في بيان حق الله على العبيد (التوحيد)، وبيان ما يناقضه من الشركيات –من «الحكمة» كما يزعم- بعضهم، فإن الدعوة إلى حقيقة «لا إله إلا الله» هو أصل الأصول، وليس «تأليف القلوب» ولو كان على حساب العقيدة، فكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة.

(٢) «رأي آخر في جماعة التبليغ» للأستاذ سعد الحصين، ضمن «ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر» بالبحرين (١٤٠٥هـ) (ص٥٨٥).

ورغبته في الآخرة، فعلى هذا لا أرى مانعًا من الخروج معهم ومشاركتهم في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل ينبغي لأهل العلم والبصيرة والعقيدة الطيبة أن يشاركوهم في ذلك، وأن يكملوا ما قد يقع من بعضهم من نقص، لما في سيرتهم وأعمالهم من التأثير العجيب على من صحبهم من المعروفين بالانحراف أو الفسق...»[١].

إن من أهم محاسن جماعة التبليغ: معالجةَ صفات الأفراد ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال:٥٣]. عن طريق المعايشة العملية، وبعد انتزاع الفرد من بيئته وغمسه في بيئة الجماعة، وتكرار سماعه المواعظ ليل نهار على أساس مبدأ «ما تكرر تقرر»، واندماجه في «ماكينة» الجماعة، التي تغسله مرة بعد مرة، وإذا به يتغير في وقت قصير، وإذا بدولاب حياته يُرَتَّبُ من جديد، وأهداف حياته وأولوياتها تتبدل، وإذا بأسلوب تعامله مع الخالق والمخلوقين يتحسن، وإذا به يُحسن استثمار وقته في الخير والطاعة بعد أن كان مدمنَ مخدِّرات، أو عاقًّا لوالديه، أو شخصية مضادة للمجتمع «مُسَجَّلَ خطر»، وهذا «التحويل» العميق العجيب المدهش يتم في «مستشفى الجماعة» بعفوية وبساطة و«مجانًا» وبدون ضجة، وينجح فيما تفشل فيه أقوى أساليب العلاج النفسي اللاديني.

ومن أهم محاسن الجماعة: تعظيم شأن الصلاة ذات الخشوع والخضوع، والحرص على إقامتها جماعة في أول وقتها تحت كل الظروف وفي أي مكان، مع الالتزام بالنوافل والأذكار.

---

(١) وتاريخ الرسالة: الاثنين ٥/ ٩/ ١٣٩٩هـ، الموافق ٢٨/ ٧/ ١٩٧٩م.

ومن محاسنهم: الالتزام العملي بالأدب الجمِّ وحسن الخلق حتى صار ذلك سمة مميزة لأفرادها.

ومنها: اجتهادهم في مبدأ تصحيح النية.

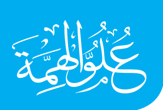
ومنها: رفقهم الشديد بالعصاة، ويضربون لذلك مثلًا: بالأم التي تَقذَّر مولودُها بالخارج من السبيل، فإنها لا ترميه في برميل النفايات، بل تغسله، وتطهره، ثم تضمه إلى صدرها، وهذا حق العصاة على الدعاة.

ومن محاسنهم: أن الجماعة (عازمة أشد العزم ومُصِرَّةٌ أقوى الإصرار على ضرورة بذل كل غال ونفيس، وتحمل كل الصعاب التي يمكن أن تواجههم بنَفَسٍ طويل، وصدر وسيع، وهمة عالية، كما كان ينصح الشيخ محمد يوسف الكاندِهْلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن يكون الداعي همته عالية كالسماء، وعزيمته راسخة كالجبال، متواضعًا مثل الأرض، صبورًا كالجمال، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ الآيات [الغاشية:١٧-٢٠]، ومن أجل ذلك جنَّدت أبناء المسلمين في كل مكان في العالم ليخدموا هذا الهدف العظيم، فصنعت من العوام خطباء، واستخرجت الكنوز المخفية في الأمة من القدرات الكثيرة والكبيرة، ونظمتها في سلك جماعتها، وليس عندها عَجَلة في أمرها، فهي تملك خبرة طويلة في هذا المجال مجال التعامل مع النفس البشرية»[(١)].



ومن عظيم محاسنها: المثابرة على الدعوة مهما كانت المشقة، حيث يُدرَّب الأفراد على تحمل مختلف الصعاب عمليًّا: من قلة الطعام واللباس، ووسائل

(١) «الصفات الست عند جماعة التبليغ» للشرقاوي (ص٧٧).





المواصلات، والحر والبرد، والجفاف والأمطار، لا تعتبر عائقًا يمنعها من الدعوة، فإذا كانت الأموال قليلة عند الأفراد ركبوا أرخص وسائل المواصلات على الإطلاق، وهذه عادتها لا تنفق أموالها في غير مكانها، وتُمَرِّن الأفراد على الاقتصاد في مصاريف الحياة، فمثلًا إذا كان القطار أسهل في الاحتكاك بعامة الناس والاختلاط بهم لدعوتهم، فإنهم يؤثرون ركوبه، ولا يحبون الترفع عن الناس في أفخم مكان وينعزلون عنهم، بل يذهبون إليهم، ويجلسون معهم، ويبدؤون في تطبيق الأعمال التي تعلموها على هؤلاء الناس من: دعوة إلى الله، وتذكير بالآخرة، والجنة والنار، وقراءة العشر السور، وحثهم على طاعة الله، والقراءة من الكتاب، وهكذا إذا تطلب الأمر تسلق الجبال، أو الركوب في الزوارق، أو على الحمير والدواب المختلفة، أو السير في طرق غير ممهدة، أو الجلوس في الشاحنات فوق المتاع لبضعة ساعات للوصول إلى المناطق المراد تغطيتها، أو اتساخ الملابس بسبب الطين والتراب والغبار والرياح، أو قلة المياه، أو قصد مناطق مظلمة ليس فيها كهرباء، بل تعيش بالأساليب القديمة جدًّا، أو الذهاب إلى مناطق لا يعرف أحد لغة أهلها، أو جزر نائية في المحيطات، أو قبيلة تسكن في الغابة، أو أي نوع من الصعاب التي تخطر على بال الإنسان موجودة على هذه الأرض، فالجماعة مستعدة لتحملها من أجل القيام بجهد الدعوة، واستطاعت بذكر تضحيات الصحابة والتذكير بها أن تحرك ملايين من الناس في العالم للحركة للدعوة، ينفقون على أنفسهم، ويتحملون كل المشاق بنفوسٍ راضية، مع الشعور بأنهم مقصِّرون لم يتحملوا مثل ما تحمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين، مما نتج عنه استعداد التبليغي للذهاب إلى أي مكان، وبأية وسيلة مواصلات، مع أي نوع من الناس،





ويأكل أي طعام كان، هذا نتيجة التعبئة المستمرة والترغيب في الأجور العظيمة التي تنتظر التبليغي بسبب ذهابه وتحمله، كما تهتم الجماعة بإثارة العاطفة حتى تثور حميةُ الإنسان وغيرتُه من أجل الدين، ولهم خطباء كثيرون، وإنتاج الخطباء مستمر لا يتوقف؛ إذن نستطيع أن نقول: إن كل تبليغي هو داعٍ إلى الجماعة، وتختلف قدراتهم تبعًا لاستعداد كل منهم، ولكن الجماعة لا تتخلى عن أي إنسان شاركها، (فالكل يعمل) وهذه صفة بارزة، وللجماعة أساليب جعلتها تنجز أعمالًا قريبة من الخيال بحيث تصير واقعية»[1].



(١) نفسه (ص٧٨، ٧٩) بتصرف يسير.





من مواقف بعض منتسبي الجماعة

- حكى من شهد مجلسًا لهم قال: جلسنا يومًا في المسجد للتعارف، فقال شيخ وقور يُعرف نفسه، وقد جاوز السبعين من عمره: «اسمي الحاج وحيد الدين، أعمل في التجارة، وعمري الآن تسع سنوات!»، فاستغربنا، وقلنا له في دهشة: «تسع سنوات؟!»، قال: «نعم، لأنني أحسب عمري من تاريخ دخولي في هذه الدعوة، أما قبل ذلك فإني أعتبر عمري ضائعًا .. !»، وكان هذا الرجل إذا وقف ليلقي موعظته يقول: «لا تضيعوا أعماركم مثلي، واشتغلوا بالدعوة إلى الله تعالى».

وقد حدث أن سألنا أميرهم: «لماذا تذهبون إلى المقاهي لدعوة الناس؟»، قال: «أرأيتم إن كان عندكم مريض ماذا تفعلون له؟»، قلنا: «إن كان مرضه ثقيلًا نحضر له الطبيب في المنزل، وأما إذا كان مرضه خفيفًا، فإنه يذهب بنفسه إلى الطبيب»، قال: «فكذلك الذين لم يعرفوا طريق المسجد مرضهم الإيماني ثقيل، فنحن نذهب إليهم»[1].

- وسمعت بعض مشائخهم يحكي موقفًا تعرض له، إذ خرج للدعوة في حانة خمر في مدينة أوروبية، واستهدف رجلًا مسلمًا كان يجالس امرأة وهو يشرب الخمر، فوعظه، ونصحه، وذكره بالله، حتى لان قلبه، ودمعت عيناه،



---
(١) «لطائف من سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسلف الصالح» (ص١٨٨).

فأخذ بذراعه ليقوده إلى المسجد، وأخذت المرأة بذراعه الآخر، تنازعه فيه، وكانت الغلبة له بعد تجاذب شديد من الطرفين، وأتى به إلى المسجد، وعلَّمه كيف يتطهر، ويصلي، ثم تاب، وحسنت توبته.

وهم يجتهدون في «ابتكار» الحيل الخيرية لجذب الناس إلى الدين، كذلك التبليغي الذي أراد دعوة طبيب مشهور، فدفع قيمة الفحص، ولما جاءت نوبته دخل عليه، فتهيَّأ الطبيب لفحصه، فإذا به يخبره أنه ليس بمريض، وإنما رغب أن يذكِّره بالله، وينصحه في الدين، وراح يفعل ذلك، حتى رق قلب الطبيب، وتأثر بموعظته، وأراد أن يرد عليه قيمة الكشف، فأبى قائلًا: «هذه قيمة ما استغرقته من وقتك».

- ومن ذلك: أنه لما صعد الإنسان إلى القمر، قال أحدهم: «ولو صعد الناس إلى القمر، وتحول بعض منهم عن الأرض، لنرسلنَّ وراءهم قافلة تخرج في سبيل الله، وتصعد إلى القمر لتدعوهم».

ويقول الأستاذ الراشد حَفِظَهُ اللهُ:

«حركة التبليغ أجادت غرس الثقة في دعاتها، وبخطبة واحدة يتعلمونها يجوبون الآفاق، ويواجهون المجتمع، وآخرون يأمرون إخوانهم بضم الرأس، ويقولون لفتى الصحوة: أنت في خندق، احترس، وأتقن الاختباء!!»[(١)] اهـ.

قال الحطيئة:

أقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا

وتعذلني أبناءُ سعدٍ عليهم ... وما قلتُ إلا بالذي عَلِمَتْ سعدُ



(١) «صناعة الحياة» (ص ٦٠).

عَوْدٌ إلى نماذجَ من علو همة الدعاة

- هذا أخ مؤذن يأسف ويحزن حزنًا شديدًا، إذ بلغه أن برج ساعة «بيج بن» الشهيرة في لندن قد مال، وأنه مهدد بالانهيار، فلما سئل عن سر أسفه وحزنه قال: «ما زلتُ أؤمل أن يُعِزَّ الله المسلمين، ويفتحوا بريطانيا، وأصعد على هذا البرج كي أؤذن فوقه».

- وأعرف أخًا أمريكيًّا من أصل أسباني ممن أسلم لله، وحَسُن إسلامه يعيش مع زوجته الأمريكية التي أسلمت أيضًا في مدينة «نيويورك»، وقد انتدب نفسه للدعوة إلى الله، فيخرج هو وزوجته، ويقفان أمام الكنيسة، ليلتقط روادها من الرجال، ويدعوهم إلى الإسلام، وكذلك تفعل زوجته مع النساء، وذلك كلَّ أحَدٍ.

- وأعرف أخًا يعيش في «ألمانيا» أحسبه -والله حسيبه- مجتهدًا في الدعوة إلى الله غاية الاجتهاد، حتى لا يكاد يذوق طعمًا للراحة، وقد استحوذت الدعوة على كل كيانه، حتى أرهق نفسه، وشُغل عن بيته وأهله وولده، فرأى إخوانه أن يُمنح عطلة إجبارية، وذهبوا به صحبةَ أسرته إلى منتجع ناءٍ لا يعرفه فيه أحد، ولا يعرف فيه أحدًا، كي يهنأ ببعض الراحة، وواعدوه أن يعودوا لإرجاعه بعد أيام، ولما رجعوا إليه وجدوه قد أسس جمعية إسلامية في هذا المكان قوامها بعض العمال المغاربة وغيرهم ممن انقطعت صلتهم بالدين، ففتش عنهم في مظانِّ





وجودهم، ودعاهم إلى طاعة الله سبحانه، وألَّف بينهم، وأقاموا مسجدًا كان فيما بعد منطلقًا للدعوة إلى الله في تلك البلدة.

إنها «الحركة» سر شيوع دعوة الإسلام المباركة في أرجاء الدنيا، ينطلق بها جنود لا يعلمهم إلا الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

ويلفتنا الأستاذ محمد أحمد الراشد حفظه الله إلى ميزان غريب نقيس به تلك «الحركة الحياتية المتفجرة»، فيقول:

«وقد كنتُ في الأيام الخوالي ألاطِفُ إخواني فأفتش عن أحذيتهم، ليس على نظافتها، وصبغها، ورونقها، كالتفتيش العسكري، بل على استهلاكها، وتقطعها، والغبار الذي عليها، وأقْلِبها فأرى النعل، فمن كان أسفل حذائه متهرئًا تالفًا فهو الناجح، وأقول له: «شاهدك معك: حذاؤك يشهد لك أنك تعمل، وتغدو في مصالح الدعوة وتروح، وتطبق قاعدة: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠]، وبكثرة حركتك تلف حذاؤك، فأنت المجتاز المرضيُّ عندي».

قال «صباح»: «قد والله بعد عشرين سنة يأخذني تأنيب الضمير كلما رأيت حذائي لا غبار عليه، وأتذكر ذاك التفتيش»[1].





(١) نفسه (ص١١٢).

الفَاسِقُ ضَالَّة الداعيَةِ

وفيما يلي قصة واقعية تبرز قيمة عنصر «المبادرة» و«المبادأة»، و«الحركة» إلى مواقع يندر مَن يتأهل لاقتحامها، بحثًا عن هذه الضالة المنشودة، حكاها الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي قصة توبة حدثت في «مرقص» فقال:

دخلت أحد مساجد مدينة «حلب» فوجدت شابًّا يصلي فقلت: سبحان الله إن هذا الشاب من أكثر الناس فسادًا: يشرب الخمر، ويفعل الزنا، ويأكل الربا، وهو عاق لوالديه، وقد طرداه من البيت، فما الذي جاء به إلى المسجد؟!، فاقتربت منه وسألته: «أنت فلان؟!، قال: «نعم»، قلت: «الحمد لله على هدايتك .. أخبرني كيف هداك الله؟»، قال: «هدايتي كانت على يد شيخ وَعَظَنا في مرقص» .. قلت مستغربًا: «في مرقص؟!»، قال: «نعم، في مرقص»، قلت: «كيف ذلك؟!»، قال: «هذه هي القصة» .. فأخذ يرويها، فقال:

«كان في حارتنا مسجد صغير، يؤم الناسَ فيه شيخ كبير السن، وذات يوم التفت الشيخ إلى المصلين وقال لهم: «أين الناس؟! ما بال أكثر الناس وخاصة الشباب لا يقربون المسجد، ولا يعرفونه؟!!»، فأجابه المصلون: «إنهم في المراقص والملاهي»، قال الشيخ: «وما هي المراقص والملاهي؟!» رد عليه أحد المصلين: «المرقص صالة كبيرة فيها خشبة مرتفعة تصعد عليها الفتيات عاريات أو شبه عاريات يرقصن والناس حولهن ينظرون إليهن»، فقال الشيخ: «والذين ينظرون



إليهن من المسلمين؟»، قالوا: «نعم»، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله .. هيا بنا إلى تلك المراقص ننصح الناس»، قالوا له: «يا شيخ.. أين أنت.. تعظ الناس وتنصحهم في المرقص؟!» قال: «نعم ...»، حاوَلوا أن يثنوه عن عزمه، وأخبروه أنهم سيواجَهون بالسخرية والاستهزاء، وسينالهم الأذى فقال: «وهل نحن خير من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!»، وأمسك الشيخ بيد أحد المصلين ليدله على المرقص..، وعندما وصلوا إليه سألهم صاحب المرقص: «ماذا تريدون؟!!» قال الشيخ: «نريد أن ننصح من في المرقص»، تعجب صاحب المرقص ... وأخذ يمعن النظر فيهم، ورفض السماح لهم ... فأخذوا يساومونه ليأذن لهم، حتى دفعوا له مبلغًا من المال يعادل دخله اليومي ...

وافق صاحب المرقص .. وطلب منهم أن يحضروا في الغد عند بدء العرض اليومي.

قال الشاب: فلما كان الغد كنت موجودًا في المرقص .. بدأ الرقص من إحدى الفتيات .. ولما انتهت أُسدِل الستار ثم فُتح .. فإذا بشيخ وقور يجلس على كرسي، فبدأ بالبسملة، وحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم بدأ في وعظ الناس الذين أخذتهم الدهشة، وتملكهم العجب، وظنوا أن ما يرونه هو فقرة فكاهية.. فلما عرفوا أنهم أمام شيخ يعظهم أخذوا يسخرون منه، ويرفعون أصواتهم بالضحك والاستهزاء، وهو لا يبالي بهم.. واستمر في نصحه ووعظه حتى قام أحد الحضور، وأمرهم بالسكوت والإنصات حتى يسمعوا ما يقوله الشيخ ....






قال: فبدأ السكون والهدوء يخيم على أنحاء المرقص حتى أصبحنا لا نسمع إلا صوت الشيخ، فقال كلامًا ما سمعناه من قبل... تلا علينا آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية، وقصصًا لتوبة بعض الصالحين، وكان مما قاله: «أيها الناس .. إنكم عشتم طويلًا وعصيتم الله كثيرًا .. فأين ذهبت لذة المعصية؟ لقد ذهبت اللذة، وبقيت الصحائف سوداء ستُسألون عنها يوم القيامة، وسيأتي يوم يهلك فيه كل شيء إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.. أيها الناس... هل نظرتم إلى أعمالكم إلى أين ستؤدي بكم؟ إنكم لا تتحملون نار الدنيا، وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم فكيف بنار جهنم .. بادروا بالتوبة قبل فوات الأوان...».

قال: فبكى الناس جميعًا .. وخرج الشيخ من المرقص، وخرج الجميع وراءه، وكانت توبتهم على يده، حتى صاحب المرقص تاب، وندم على ما كان منه. اهـ[1].




(١) نقلًا عن «العائدون إلى الله» (ص٧٣-٧٦).

وللآخرين حركة في نُصرة الباطل!

لئن كان سعى الدعاة وحركتهم في نصرة الدين من آثار علو همتهم، ولئن كان نشر مناقبهم وإذاعة أخبارهم من أسباب إيقاظ الغافلين، فإنه قد ينضم إلى هذه الأسباب تقريعُ النائمين والسادرين في الغفلة بأن نذكر لهم حركة أهل الباطل في الانتصار لباطلهم، وبذلهم في سبيل إطفاء نور الإسلام، وهيهات هيهات ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

قال سبحانه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص:٦]، وقص عن قوم إبراهيم أنهم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]، وقال في شأن الكافرين: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ [المائدة:٦٢]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران:١٧٦].

فهي حركة مذمومة مشئومة تعود عليهم بالوبال والنكال، وحبوط الأعمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].



وقال سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية:٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

إن حبوط أعمال الكافرين، راجع إلى فُقدانهم الإيمان، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الأحزاب:١٩]، كما أن حركتهم كانت وبالًا عليهم، لأنها كانت إما في طلب الدنيا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥، ١٦]، وإما أنها كانت لصد الناس عن دين الله: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد:١]، وقال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل:٢٥].

ومع هذا كله، فإن الله سبحانه واسى أهل الإيمان وعَزَّاهم فيما يلقَوْنَ من الألم والضَّنى والكلال، بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٠٤]، فليس المؤمنون وحدهم الذين يحتملون الألم والقرح، إن أعداءهم كذلك يتألمون، وينالهم القرح واللأواء، ولكن شتان بين المؤمنين الذين يتوجهون إلى الله بجهادهم، ويرتقبون عنده جزاءهم، وبين الكافرين الذين هم

حيارى تائهون، ضائعون مضيَّعون، لا يتجهون لله، ولا يرتقبون عنده شيئًا في الحياة، ولا بعد الحياة.

فإذا كانوا مع ذلك يصرون ويدأبون في محاربة الحق، فما أجدرَ المؤمنين أن يكونوا أشد إصرارًا وصبرًا، وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم، وتطلبهم، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله! إن هذا المعنى هو عين ما نقصده مما سنذكره -فيما يلي إن شاء الله- من سعي الكافرين ودأبهم في تحصيل الدنيا، أو في الصد عن سبيل الله تعالى، بجانب معنى ثانٍ أشار إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رُوي عنه من قوله: «**ما رأيت مِثلَ النار نام هاربُها، ولا مثلَ الجنة نام طالِبُها**»(١)، وأشار إليه أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين شكا إلى الله تعالى: «جَلَدَ الفاجر، وعجزَ الثقة»، وأشار إليه أحمد بن حرب في قوله: «يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزَيَّن فوقه، والنار تُسَعَّرُ تحته، كيف ينام بينهما؟».

ومعنى ثالث هو: استثارة الشعور بالاستحياء من الله جَلَّ جَلَالُهُ في قلوب جند الله المسلمين حين يرون مَن لا خلاق لهم عند الله يكدحون ويضحون لنصرة باطلهم، ويوفون مع إمامهم إبليس بالعهد الذي قطعه على نفسه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]، في حين يتباطأ كثير من المسلمين عن نصرة دين الحق مع أنهم عاهدوا الله على الانقياد لشرعه: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].



(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم [٩٥٣].

هَلُمَّ فلنَستَحي مِنَ الله!

نعرض -فيما يلي- نماذج من حركة بعض الكافرين في سبيل الدنيا، أو خدمة أوطانهم، أو الدعوة إلى ملتهم، عسى أن يستحييَ المقصرون منا فى حق دينهم وأمتهم المسلمة، ويروا أنفسهم أحرى وأجدر بمعالي الأمور.

١- هيوستن وتكساس

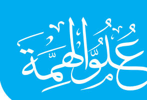
هذا «هيوستن» يقف في حدود سنة ١٨٣٠ أمام الكونجرس الأمريكي، ويخطب خطبة بليغة لم يستعمل فيها كلمة مرتين، فسحر ألباب الرجال الذين أمامه، وكان قد نجح لتوِّه في تسكين ثائرة الهنود الحمر وجَلْبِهم إلى توقيع اتفاقات مع الحكومة، فاستدعاه الرئيس الأمريكي آنذاك وقال له: «إن تكساس تتبع المكسيك، ومستقبل أمريكا متعلق بها، ولا بد من ضمِّها، وأريدها منك».

فقال هيوستن: «نعم أنا لها، زودني بمال ورجال».

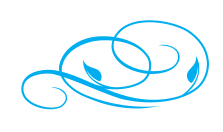
قال الرئيس: «لو كان عندي مال ورجال ما دعوتك، بل تذهب منفردًا وبلا دولار واحد، وأبعثُ معك حارسًا حتى تعبر نهر المسيسبي، ويعود».

ومع ذلك قَبِلَ المهمة، وودَّعه الحارس على ضفة النهر، واندفع نحو تكساس، فلما دخل أول مدينة بها فتح له مكتب محاماة، فكان المدعي في المحكمة





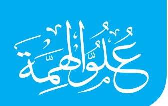
يخرج متهمًا والمتهم بريئًا، لبلاغة وقوة لسانه، حتى انبهر به الناس، فلاثوا[١] به، فتلاعب بمفاهيمهم وأخيلتهم، وغرس فيهم معنى ضرورة الاستقلال عن المكسيك، وأنشأ حركة قوية أتمت الاستقلال، ثم غرس معنى وجوب الانضمام إلى الولايات المتحدة، فانضمت طواعية بالقناعات التي غرسها هيوستن، وجاء بعد سنوات قليلة إلى الرئيس الأمريكي، وسلمه مفتاح تكساس، إذ لم تُطلَق طلقة أمريكية، ولم يُنْفق دولارٌ واحد، فشكره الرئيس، وخلَّدوا عمله بإطلاق اسمه على مدينة «هيوستن» التي هي الآن من أهم مدن أمريكا، وعاصمة النفط فيها. اهـ[٢].





(١) **لاث به الناس**: اجتمعوا حوله، وأطافوا به.

(٢) «صناعة الحياة» (ص٨٨، ٨٩) بتصرف.





٢- إليعارز بن يهودا (١٨٥٨م-١٩٢٢م)

رائد حركة إحياء اللغة العبرية الحديثة[١]

مَثَل اللغة مثل الكائن الحي: تُولَد، وتمر بمراحل الطفولة والشباب والشيخوخة[٢]، وقد تموت وتندثر وتذهب أدراجَ الرياح دون أن تخلِّف وراءها أثرًا يُذكَر من كتب أو كلمات.

ومن اللغات التي ماتت لغات غابت لكنها خلَّفت وراءها آثارًا وكتبًا تُدَرس إلى اليوم، وإنما ينسحب عليها حكم (الموت) لأنها لم تبق مُتداوَلةً شفهيًّا، ولا يستعملها الناس.

---

(١) انظر: «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» للدكتور عبد الوهاب المسيري.

(٢) لم يُستثن من هذه المراحل سوى اللغة العربية، وإليك شهادة «شاهدٍ من أهلها» هو الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينو) صاحب كتاب «التاريخ العام للغات السامية» يتحدث متعجبًا عن مزايا اللغة العربية وأثرها في نقل الإسلام، فيقول:

«من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية (العربية)، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري وعند أمة من الرُّحَّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، ولقد كانت هذه اللغة مجهولة من الأمم، ولكنها من يوم عُرِفت ظهرت لنا في حُلل الكمال، وإلى درجةِ أنها لم تتغير أيَّ تغيُّر يُذكَر، حتى إنها لم تَعرف لها في أطوار حياتها، لا طفولة ولا شيخوخة، ولا نكاد نعلم مِن شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى، ولا نعلم شَبهًا لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة.

لقد استفاض انتشار اللغة العربية فاستولت على أوسع المسافات وأبعد البلدان» اهـ. نقلًا من كتاب «الفصحى لغة القرآن» للأستاذ أنور الجندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٢٧)، ط. دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٨٢م.





ومن هذه اللغات: اللاتينية، والعبرية[١]، لكنَّ حَدَثًا خطيرًا حدث لم تعُد بعده العبرية تُصنَّف كلغة ميتة، بل عادت من جديد لغة يتكلم بها مجموعة من البشر، بها يتواصلون، ويعبرون عن أنفسهم.

وقد وقف ذلك الشاب اليهودي حياته على تحقيق هذا الهدف، وهاكَ قصته:

وُلد (إليعازر بن يهودا) سنة ١٨٥٨م في إحدى قرى «ليتوانيا» في روسيا البيضاء، وتلقى تعليمًا دينيًّا تقليديًّا، وقضى بعض سِني شبابه في مدرسة تلمودية، ثم تأثر بحركة «التنوير» اليهودية ذات الطابع الفاشي، واستهوته فكرة «الشعب العضوي»[٢]، وتبنى الفكرة السلافية القومية الروسية، ونادى بترويس اليهود.

ومع تزايد النزعات القومية والعنصرية في أنحاء أوروبة؛ اتجه (بن يهودا) إلى تبني الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية، أي: الحل الصهيوني، بمعنى: تصدير مشاكل الغرب -ومن بينها المسألة اليهودية- إلى الشرق.

تعلَّم (بن يهودا) اللغة العبرية، وتوجه في عام ١٨٧٨م إلى باريس ليدرس الطب، لكنه أصيب بالسُّلِّ، فقطع دراسته، وانتقل إلى الجزائر للاستشفاء (١٨٨٠-١٨٨١).

وخلال إقامته بباريس أقام علاقات وثيقة مع يهود باريس، حيث طوَّر لغته، وعمل على نشر أفكاره الخاصة بإحياء اللغة العبرية، فعُورض من بني



(١) اللغة العبرية لغة سامية، وهي أخت العربية في هذه النسبة، وبها كُتبت التوراة، وكانت تستعمل فقط في التعبد، وفي نطاق المختصين بها.

(٢) أي: الشعب الذي لا يمكن أن يحقق ذاته إلا في أرضه، ومن خلال خصوصيته الثقافية، والذي يُحوِّل (الآخَر) إلى شعب عضوي منبوذ.

جلدته، واتهموه بالجنون، لكنه لم يبال بهم، وأصر على أن يجعل لليهود لغتهم الخاصة[١] الموحَّدة التي هي لغة الأجداد.

في عام (١٨٨١م) تزوج (بن يهودا) من ابنة مُعَلِّمه، وأبحرا معًا إلى فِلَسْطِين، وبينما هما في السفينة أخذ يُلقِّن زوجته دروسًا في اللغة العبرية، وما وصلا إلى فلسطين حتى كانت تعلمت منه بعضَ المفردات العبرية.

وبمجرد أن وطئا أرض فلسطين قال لزوجته: «من الآن فصاعدًا، سوف نتكلم فقط باللغة العبرية»، ولكن زوجته لم تكن قد أتقنت اللغة العبرية بعد، فحاولت مرارًا وتكرارًا في سبيل إقناع زوجها بالتخلي عن فكرته، ولكن الزوج أصرَّ على قراره.

ولما أنجب منها أولادًا لم يكونوا يتكلمون إلا بالعبرية، حيث لم يتعلموا لغةً غيرها، وكانوا لا يستطيعون التواصل مع الآخرين، فلقَّبهم الناس بـ(الخُرْس).

قام (بن يهودا) بالتدريس في مدارس (الأليانس) بعد أن حصل على تصريح بتدريس الموضوعات اليهودية باللغة العبرية، ثم اشترك في تأسيس جمعية صِهْيَوْنِيَّة تدعو إلى إحياء اللغة العبرية، وبناء أدب عبري حديث، وفي سنة (١٨٨٤م) نشر مجلة (هاتسفي) الأسبوعية، والتي تحولت فيما بعد إلى جريدة يومية.



(١) تكلم اليهود في الشتات كلٌّ بلغة البلد التي يعيشون فيها، ولم تكن لديهم لغتهم الخاصة، وكان (بن يهودا) يربط إحياء اللغة العبرية بالتجربة الاستيطانية الصهيونية، فكان يرى أنه لا يمكن إنجاز إحداهما دون الأخرى، فبقاء أعضاء الجماعات اليهودية داخل التشكيل الحضاري الغربي كان يعني في واقع الأمر اندماجهم الثقافي ومن ثَمَّ اللغوي، أما استيطانهم في فلسطين فيعني عزلتهم ومن ثَم وجود إمكانية حقيقية لظهور لغة مستقلة واستمرارها.



انصبَّت معظم جهود (بن يهودا) على إحياء اللغة العبرية، فبحث في أدب العبرية الكلاسيكي عن الألفاظ التي تصلح للاستعمال في الحياة اليومية في العصر الحديث، وقام باشتقاق كلمات عبرية جديدة، واستعار بعض الألفاظ والعبارات من اللغة العربية، وقام بتطوير أسلوب عبري جديد وبسيط؛ وحارب (بن يهودا) اللغة اليديشية[١]، وعارض محاولات بعض الجماعات اليهودية الألمانية التي كانت تهدف إلى جعل الألمانية اللغة الرسمية للمستوطنين الصهاينة (فيما يسمى «معركة اللغة») وأصرَّ على اعتبار العبرية لغة اليهود الوحيدة. ولكن أهم أعمال (بن يهودا) إخراجه المعجم العبري القديم والمعجم الحديث بعد أن ظل يعمل فيه زهاء أربعين عامًا، وإن لم يستطع أن يصدر أكثر من تسعة مجلدات، وهذا المعجم لا يتضمن أيًّا من الكلمات الآرامية التي ورد ذكرها في العهد القديم أو التلمود أو المدراش، كما لا يتضمن أية كلمة عبرية من أصل أجنبي.

وقد أسس (بن يهودا) جمعية اللغة العبرية عام ١٨٨٩م وعمل رئيسًا لها حتى وفاته، وتحولت هذه الجمعية عام ١٩٥٣ إلى أكاديمية اللغة العبرية التي قامت بإكمال مشروع (بن يهودا)، وأصدرت المعجم كاملًا (سبعة عشر جزءًا) عام ١٩٥٩.

وبعد سقوط فِلَسْطين تحت الاحتلال البريطاني في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حث (بن يهودا) المندوب السامي البريطاني على إعلان اللغة العبرية



(١) اللغة اليديشية Yiddish هي لغة يهود أوروبة، نمت من خليط من لغات عدة منها الآرامية، والألمانية، والإيطالية، والفرنسية، والعبرية، وذلك خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين.

كواحدة من اللغات الثلاث الرسمية في البلاد، كما قام بتأسيس جمعية (سيفاتينو) لنشر اللغة العبرية، واحتل منصب أمين لجنة التخطيط في الجامعة العبرية.

وعندما مات (بن يهودا) في عام (١٩٢٢م) كانت اللغة التي ماتت منذ ألفي سنة قد تحولت إلى لغة رسمية في فلسطين إلى جانب العربية والإنكليزية[١].





(١) انظر مقدمة المؤلف لكتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارُها في مصر» للأستاذة الدكتورة نفوسة زكريا سعيد رَحِمَهَاٱللَّهُ - طبعة دار الخلفاء - الإسكندرية.





٣- «ديفاليرا» يُحْيِي اللغة الأيرلندية

رزحت (أيرلندا) تحت الاحتلال الإنكليزي منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، وذاقت منه الويلات خصوصًا على يد «كروميل» الذي أعمل السيف في رقاب الإيرلنديين، وشحن عشرين ألفًا من شبابهم وباعهم عبيدًا في «أمريكا» ونفى أربعين ألفًا خارج البلاد، وتمكن من طمس هويتهم بمحو لغتهم الإيرلندية، وتذويبهم في المجتمع البريطاني، ولما حاول بعض الإيرلنديين الوطنيين بعث أمتهم من جديد أدركوا أن هذا لا يتم ما دامت لغتهم هي «الإنكليزية»، وما دام شعبهم يجهل لغته التي تميز هويته، وتحقق وَحدته.

وأسعفهم القدر بمُعَلِّم يتقن لغة الآباء والأجداد؛ دفعه شعوره بواجبه إلى وضع الكتب التي تقرب اللغة الإيرلندية إلى مواطنيه، فهبوا يساعدونه في مهمته حتى انبعثت من رقادها، وشاعت، وصارت «النواة» التي تجمَّع حولها الشعب، فنال استقلاله، واستعاد هويته، وكافأ الشعبُ ذلك المعلم بانتخابه أولَ رئيسٍ لجمهورية «إيرلندا» المستقلة هو الرئيس «ديفاليرا»[١].





(١) انظر: «العدوان على العربية عدوان على الإسلام» للدكتور عبد الرحمن الباشا (ص١١-١٣).




٤- «هَرْدِر» واللغة الألمانية

كانت «ألمانيا» مقاطعات متفرقة متنابذة، إلى أن هَبَّ «هَرْدِر» الأديب الألماني الشهير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ينادي بأن «اللغة» هي الأساس الذي يوحِّد الشعوب، والنواة التي تؤلف بينها، فانطلق الأدباء يعكفون على تراثهم القديم أيام كانوا أمة واحدة، وقاموا بإنعاش تراثهم الأدبي، ونسجوا حوله قصصًا وبطولات خَلَبَتْ ألبابَ الشباب، وتغنوا بجمال بلادهم، وأمجاد أسلافهم، فتجمعت عواطفهم على حب الوطن الكبير، وتطلعت نفوسهم إلى الانضواء تحت لواء «هُوِيَّةٍ ألمانية» واحدة، الأمر الذي مهَّد الطريق أمام «بسمارك» لتعبئة الشعور القومي، وتوحيد ألمانيا، وإقامة الإمبراطورية الألمانية التي كان «بسمارك» أول رئيس وزارة (مستشار) لها[١].



(١) نفسه (ص٩-١١).





٥- «أوساهير» وشعار: صُنع في اليابان

وهاك مثالًا آخر حكاه الدكتور توفيق الواعي حَفِظَهُ الله، قال:

أرسلت الدولة اليابانية في بدء حضارتها بعوثًا دراسية إلى ألمانيا. كما بعثت الأمة العربية بعوثًا، ورجعت بعوث اليابان لتحضِّر أمتها، ورجعت بعوثُنا خاويةَ الوفاض!! فما هو السر؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة.

يقول الطالب الياباني «أوساهير» الذي بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا: لو أنني اتبعت نصائح أستاذي الألماني الذى ذهبت لأدرس عليه في جامعة هامبورج لما وصلت إلى شيء، كانت حكومتي قد أرسلتني لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم، كيف أصنع محركًا صغيرًا؟ كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى «موديل» هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفتَ كيف تُصنع، وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها، وبدلًا من أن يأخذني الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب عملي، أخذوا يعطونني كتبًا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكنني ظللت أمام المحرك، أيًّا كانت قوته وكأنني أقف أمام لغز لا يُحل، وفي ذات يوم، قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معي راتبي، وجدت في المعرض محركًا قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبي كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك، وكان ثقيلًا جدًّا، وذهبت إلى حجرتي، ووضعته على المنضدة، وجعلت أنظر إليه، كأنني أنظر إلى تاج من الجوهر، وقلت لنفسي: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركًا كهذا لغيرت تاريخ اليابان، وطاف



بذهني خاطر يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتَّى، مغناطيس كحَدْوة الحصان، وأسلاك، وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس وما إلى ذلك، لو أنني استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك، وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التي ركبوها بها، ثم شغَّلتُه فاشتغل، أكون قد خطوت خطوة نحو سر «موديل» الصناعة الأوروبية، وبحثت في رفوف الكتب التي عندي، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقًا كثيرًا، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل، رسمت المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذي يحمل أجزاءه، ثم جعلت أفككه، قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة، وأعطيتها رقمًا، وشيئًا فشيئًا فككته كله، ثم أعدت تركيبه، وشَغَّلتُه فاشتغل، كاد قلبي يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل في اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: «حسنًا ما فعلت، الآن لابد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، وعليك أن تفككه، وتكشف موضع الخطأ وتصححه، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل»، وكلفتني هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاثٌ من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدي، صنعتها بالمطرقة والمبرد.

بعد ذلك قال رئيس البعثة الذي كان يتولى قيادتي روحيًّا: «عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها محرِّكًا، ولكي أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألومنيوم، بدلًا من أن أعد رسالة

الدكتوراة كما أراد مني أساتذتي الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بِذْلة زرقاء، وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي[(١)]، ولكنني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهون كل شيء، قضيت في هذه الدراسات والتدريبات ثماني سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشر وخمس عشرة ساعة في اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

وعلم «الميكادو»[(٢)] «الحاكم الياباني» بأمري فأرسل لي من ماله الخاص، خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب، اشتريت بها أدواتِ مصنعِ محركاتٍ كاملة، وأدواتٍ وآلاتٍ، وعندما أردتُ شحنها إلى اليابان كانت النقود قد فرغت، فوضعت راتبي وكل ما ادخرته، وعندما وصلت إلى «نجازاكي» قيل لي: إن «الميكادو» يريد أن يراني، قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنعَ محركاتٍ كاملًا، استغرق ذلك تسع سنوات، وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرة محركات (صنع في اليابان)، قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ودخل «الميكادو» وانحنينا نحييه وابتسم، وقال: «هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محركات يابانية



---

(١) تعني (ساموراي) في اللغة اليابانية: الذي يضع نفسه في الخدمة.
ويطلق على المحارب الياباني من العهد الإقطاعي من القرن العاشر إلى آخر القرن التاسع عشر تقريبًا، أي أنه لقب يطلق على المحاربين القدماء.

(٢) **الميكادو**: اللقب القديم لإمبراطور اليابان، واليابانيون لا يشيرون إلى إمبراطورهم باسمه الشخصي مطلقًا، والمذكور هنا هو «الميكاد» الذي أثنى عليه شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته الشهيرة «غادة اليابان».

خالصة، هكذا ملكنا «الموديل» وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان، ونقلنا اليابان إلى الغرب»[(١)] اهـ.

وحَدَّثَ من عايش الطلاب اليابانيين الذين يُبتعثون إلى أمريكا عن أحوالهم، فقال: «ربما يلبثون في مكتبة الجامعة إلى نصف الليل، وربما نام أحدهم وهو جالس على كرسيه، ويواصل الدراسة في اليوم الثاني من غير ذهاب للبيت».

قال الأستاذ محمد أحمد الراشد حفظه الله:

(شفعت مرة لداعية أن يقبله الأستاذ فؤاد سزكين[(٢)] طالبًا بمعهده في فرانكفورت معهد تاريخ العلوم الإسلامية، فاشترط الأستاذ سزكين أن يشتغل الطالب ست عشرة ساعة يوميًّا، فرفض، ثم أراني الأستاذ سزكين من بُعْد عددًا من الطلاب اليابانيين في معهده، وقد انكبُّوا على المخطوطات العربية يدرسونها، ويبعثونها إلى الحياة، وقد رَضُوا بهذا الشرط، فتأمل)[(٣)] اهـ.

وقال د. عبد الودود شلبي رحمه الله في كتابه (في محكمة التاريخ):

أذكر أنني ترددت كثيرًا جدًّا على مركز من مراكز إعداد المبشرين في مدريد، وفي فناء المبنى الواسع وضعوا لوحة كبيرة كتبوا عليها:

---

(١) مجلة «المجتمع» العدد (٩٩٨).

(٢) **فؤاد سزكين**: باحث تركي ألماني وُلِد في تركيا سنة ١٩٢٤م، وانتقل إلى ألمانيا، تخصص في التراث العلمي العربي، وأهم آثاره: «تاريخ التراث العربي الإسلامي» باللغة الألمانية، ويعد أول مستدرك على كتاب أستاذه (كارل بروكلمان) «تاريخ الأدب العربي»، ويعتبر (سزكين) رائد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ومؤسس ومدير «معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية» في جامعة يوهان في (فرانكفورت).

(٣) «صناعة الحياة» (ص١١١).

«أيها المبشر الشاب: نحن لا نَعِدُكَ بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير، إننا ننذرك بأنك لن تجد في عملك التبشيري إلا التعب والمرض، كل ما نقدمه إليك هو العلم والخبز وفراشٌ خَشِنٌ في كوخ فقير، أجرك كله ستجده عند الله إذا أدركك الموت، وأنت في طريق المسيح كنت من السعداء».

وهذه الكلمات حرَّكت كثيرًا من جند الشيطان المبشرين بالنيران، من حملة الشهادات في الطب والجراحة والصيدلة وغيرها من التخصصات للذهاب إلى الصحاري القاحلة التي لا توجد فيها إلا الخيام، والمستنقعات المليئة بالنتن والميكروبات، والمكوث هناك السنين الطوال دون راتب، ودون منصب، ولو أراد أحدهم العمل بمؤهله لربح مئات الآلاف من الدولارات، ولكنه ضحى بكل هذا من أجل الباطل الذي يعتقد صحته[١] اهـ.

يقول الشيخ رضا صمدي: «في تايلند حدثني بعض الدعاة المسلمين أن هناك مجموعة من المُنصِّرين الشباب ذوي السَّحْنَة الأوروبية، طرقوا عليه الباب، وأخذوا يكلمونه عن النصرانية بلغة تايلندية[٢] طليقة تنبئ عن أن القوم إذا أعدوا لشيء أعدوه على الوجه الذي يُظَنُّ به بلوغ الأَرَب»[٣].



---

(١) انظر: «المصفى من صفات الدعاة» (٢/ ١٧٤).

(٢) **اللغة التايلندية**: من اللغات الآسيوية الحية المتفرعة عن السَّنْسكرِيتيَّة (الهندية القديمة) وهي لغة صعبة جدًّا، ويتحدث بها قرابة ستين مليون شخص أو يزيد، وهي ليست لغة عالمية، كما أن حروفها تبلغ أربعة وأربعين حرفًا، وتعتمد على حركات المدود ولهجات الحروف، والمُتَعَجَّبُ منه: كيف أنه استطاع أولئك المنصِّرون تعلُّم هذه اللغة الصعبة ودعوة الناس بها، وفي المقابل كان هناك بعض الدعاة العرب الذين احتاجوا لأكثر من عشر سنين ليتعلموا هذه اللغة، ويدعوا الناس بها.

(٣) «ثلاثون طريقة لخدمة الدين» (ص٦٣، ٦٨).



وحكى لي بعض الشباب المسلمين في «ألمانيا» أنه منذ الصباح الباكر ينتشر دعاة فرقة «شهود يَهْوَهْ» في الشوارع وينطلقون إلى البيوت، ويطرقون الأبواب للدعوة إلى عقيدتهم، وحدثني أحدهم أن فتاة ألمانية منهم طرقت بابه في السادسة صباحًا، فلما علم أن غرضها دعوته إلى عقيدتها، بيَّن لها أنه مسلم، وأنه ليس في حاجة إلى أن يستمع منها، فظلت تجادله وتلح عليه أن يمنحها ولو دقائق «من أجل المسيح»! فلما رأى إصرارها أوصد الباب في وجهها، ولكنها أصرت على تبليغ عقيدتها، ووقفت تخطب أمام الباب المغلق قرابة نصف ساعة تشرح له عقيدتها، وتغريه باعتناق دينها!! فما بالنا معشر المسلمين يجلس الواحد منا شبعان متكئًا على أريكته، إذا طُلِب منه نصرة دين الحق، أو كُلِّفَ بأبسط المهام، أو عُوتِبَ لاستغراقه في اللهو والترفيه، انطلق كالصاروخ مرددًا قوله ﷺ: «**يا حنظلة ساعة وساعة**»، كأنه لا يحفظ من القرآن والسنة غيره، يقول الأستاذ الراشد حفظه الله:

يقف الداعية يؤذن في الناس، ولكن أكثر الناس نيام، ويرى جَلَدَ أصحابِ الباطل وأهل الريبة وتفانيهم لإمرار خطتهم، فإذا التفت رأى الأمين المسلم سادرًا غافلًا، إلا الذين رحمهم ربهم، وقليل ما هم، ويعود ليفرغ حزنه، في خطاب مع نفسه:

تبلَّدَ في الناس حِسُّ الكفاح ... ومالوا لكسبٍ وعيشٍ رتيبْ

يكاد يزُعزع مِن همتي ... سُدورُ الأمين، وعزمُ المريب

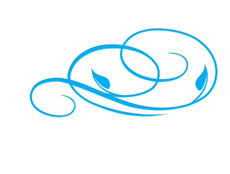
ويتهم نفسه أنه لم يكن بليغًا في ندائه، ولكن سرعان ما يُحسُّ أنه قد حاز البلاغة من أقطارها، فيعود يسلي نفسه، ويجمل عزاءه:



ومن حرٍّ شَدْوي يُرى في الخريف	طَـروبًـا بـصحـبـتيَ العندليبْ
ولـكـنْ خُـلِـقـتُ بـأرضٍ بها	نـفـوسُ الـعـبـيـدِ بـرِقٍّ تطيبْ

لقد تبدلت موازين البلاغة، وافتقد الجيل الأعمال الكبيرة التي يتمجد بها، فصار -كما يقول الرافعي-: «تخترع له الألفاظ الكبيرة ليتلهى بها».

ورغم الفساد فإن الداعية المسلم لن يتخلى عن محاولة انتشال العباد، وإن كل وساوس اليأس من الإصلاح لن تلبث أن تتبدد أمام لحظة انتباه إيماني تُريه مكانته المتوسطة لموكب الإيمان السائر، أخذَ عن السلف، ولا بد أن يسوق له قَدَرُ اللهِ خَلَفًا يستلم الأمانة منه، ذلك وعد الله، وإنه لموكب لن ينقطع أبدًا، مضى به القول على لسان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»(١) (٢).





(١) رواه مسلم.
(٢) «المنطلق» (ص٦١-٦٣).





الفصل الخامس

عُلُوُّ الهِمَّةَ في الجِهَاد فِي سَبِيلِ اللّٰه



علو الهمة في الجهاد في سبيل الله

علم الرعيل الأول من صفوة المسلمين أن في الجهاد فضلًا لا يُضاهَى، وخيرًا لا يتناهى؛ إذ أخبرهم الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ذُروة سنام الإسلام، وأنَّ أفضل العمل: «**رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء**»(١)، وأيقنوا أن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الرِّيَّ الأعظم في شُرْبِ كؤوسِ الحتوف، فشمروا للجهاد عن ساق الاجتهاد، ونفروا إلى ذوي الكفر والعناد، من شتى أصناف العباد، وجهزوا الجيوش والسرايا، وبذلوا في سبيل الله العطايا، وأقرضوا الأموال لمن يضاعفها ويزكيها، ودفعوا سِلَعَ النفوس من غير مماطلةٍ لمشتريها، وضربوا الكافرين فوق الأعناق، واستعذبوا من المنية مُرَّ المذاق، وباعوا الحياة الفانية بالعيش الباق، ونشروا أعلام الإسلام في الآفاق.

أولئك الناس إن عُدُّوا وإن ذُكِروا ... ومَنْ سواهم فلغوٌ غير معدودِ

فمِن ثَمَّ كان في الإشارة إلى بعض مناقبهم، وحسن بلائهم ما عساه يوقظ الهمم الرُّقَّد، ويُنهِضُ العزمَ المُقْعَد، ومن لم تَرْوِهِ الإشارةُ، وطمحت نفسه إلى الاستزادة، فليطلب ذلك من مظانه المبسوطة، وبالله المستعان.

لقد كان إمامهم الأوحد، ورائدهم الأول في ذلك -بل في كل باب من أبواب الخير- خير من وطئ الحصى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى:

(١) انظر: «صحيح البخاري» رقم [٩٢٦].



﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]، ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أي في أخلاقه وأفعاله قدوة حسنة، إذ كان منها ثباته في الشدائد وهو مطلوب، وصبره على البأساء والضراء وهو مكروب ومحروب، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة، لا يخور في شديدة، ولا يستكين لعظيمة أو كبيرة، وقد لقي بمكة من قريش ما يُشيب النواصي، ويهدُّ الصياصي، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي، ويثبت ثبات المستولي، ومن صبر على هذه الشدائد في الدعاء إلى الله تعالى، وهو الرفيع الشأن، كان غيره أجدر إن كان ممن يَتبع بإحسان(١).

لقد كان رسول الله ﷺ أعلى البشر همة على الإطلاق، وكان أشجع الناس، وأقواهم قلبًا، وأثبتهم جَنانًا، وقد حضر المواقف الصعبة المشهورة، وفرَّ الكُماة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة أو فترة، سواه، فإنه لم يفر قط، وحاشاه من ذلك، ثم حاشاه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [ن:٤].

ولـه كـمـالُ الـديـن أعـلـى هـمَّـةً	يـعـلُـو ويـسـمُـو أن يُـقـاسَ بثاني
لـمـا أضـاء عـلـى الـبـريَّـة زانَـهـا	وعـلا بـهـا فـإذا هـو الـثـقـلانِ
فوجدتُ كلَّ الصيدِ في جَوْفِ الفَرا(٢)	ولـقـيـتُ كـلَّ الـنـاسِ في إنسان

(١) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (١٣/ ٤٨٣٦).

(٢) أصل المثل: أن قومًا خرجوا للصيد، فصاد أحدهم ظبيًا، وآخر أرنبًا، وآخر فَرا -والفَرَأ هو الحمار الوحشي- فقال لأصحابه: «كل الصيد في جوف الفَرا»، أي: جميع ما صدتموه يسير في جنب ما صدتُه، فصار مثلًا فيمن يفوق أقرانه، ولما يغني عن غيره.

أليس هو -بأبي وأمي- القائل: «**...ولولا أن أشق على أُمتي، ما قعدتُ خلف سريَّة، ولوددت أن أُقتلَ في سبيل الله، ثم أحيا ثم أُقتل، ثم أحيا ثم أُقتل**»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعًا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عَرِي وفي عنقه السيف، وهو يقول: «**لم تراعوا**(٢) ... **لم تراعوا**»(٣).

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا إذا اشتد البأس، واحمرت الحَدَقُ، اتقينا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا»(٤).

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتَّقي به، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به، يعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقال عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما لقي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتيبة إلا كان أولَ مَن يضرب».

وكذلك الشجعان في أمته والأبطال لا يُحصَوْنَ عِدَّةً، ولا يحاط بهم كثرة، سيما أصحابه المؤيدين الممدوحين في التنزيل بقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [الفتح:٢٩].



---

(١) رواه الإمام أحمد، والشيخان، والنسائي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) **لم تراعوا**: أي رَوْعًا مستقرًّا، أو رَوْعًا يضركم.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم.

إن سُـولِمـوا كـانـوا المـلائـكَ سُجَّدًا   أو حُـوربـوا كـانـوا الليوثَ غِضابا

وقال البوصيري:

هُم الجِبالُ فَسَلْ عنهمْ مُصادِمَهُمْ   مَـاذا رأى مِنْهُمُ في كلِّ مُصْطَدَمِ

وَسَلْ حُنينًا وسل بَدْرًا وسلْ أُحُدًا   فُصُولَ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الوَخَمِ(١)

- فأشجع الصحابة -وكلهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شجعان- وأفضلهم، بل أفضل البشر جميعًا بعد الأنبياء، خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هكذا شهد له علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أشجع الناس، وصدق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد كان أثبتهم قلبًا، وأقواهم جَنانًا، وحسبك من ذلك ثبات قلبه يومَ بدر، ويوم أحد، ويوم الخندق، ويوم الحديبية، ويوم حنين، بل ثبات قلبه وتثبيته المسلمين عند الخطب الأعظم، والأمر الأفخم بموت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذا عزمه في قتال من ارتد حينئذ، فتلك الشجاعة التي تضاءلت لها فرسان الأمم، والهمة التي تنازلت لها أعالي الهمم.

- ومنهم الفاروق ناصر الدين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي بلغ من الشجاعة والهمة الكبرى أقصى الغايات وأعلى النهايات، والأخبار في قوته في الدين وشدته على المشركين كثيرة مشهورة.

- وهذا الليث الحصَّار، والغيث المدرار، ومُفَرِّق كتائب المشركين، والآتي من أنواع الشجاعة بما أوجب تَحَيُّرَ المتعجبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان درعه صدرًا لا ظهر له، فقيل له: «ألا تخاف أن تؤتى مِن قبل ظهرك؟»،

---

(١) **الحتفُ**: الموت، **والوَخَم**: الوباء الشديد الذي لا يبقى معه أحد.

فقال: «إن أمكنت عدوي من ظهري، فلا أبقى الله عليه، إن أبقى عليَّ» رواه ابن عساكر، وذكر ابن عبد البر في صفته أنه: «كان إذا أمسك بذراع رجل، لم يستطع أن يتنفس»، وأخبار شجاعته وعلو همته كثيرة مشهورة.

- ولما استشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في القتال في غزوة بدر الكبرى، قال له المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله امضِ لما أراك الله فنحن معك، واللهِ لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون».

وقال سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «.. فامض لما أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا البحر فخضته لَخُضْناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غدًا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله يُريك ما تقر به عينُك، فَسِرْ على بركة الله».



وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (انطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**»، فدنا المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**»، قال عمير بن الحمام: «يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض!» قال: «**نعم**»، قال: «بخ بخ»[١]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**»، قال: «لا والله،

---

(١) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء.

إلا رجاء أن أكون من أهلها»، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: «إن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل»[(١)].

- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: غاب عمي أنس بن النضر، عن قتال بدر، فقال: «يا رسول الله! غبتُ عن أول قتال قاتلتَ المشركين، لئنِ اللهُ أشهدني قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع»، فلما كان يوم أُحُد، وانكشف المسلمون، قال: «اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-» ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: «يا سعد بن معاذ! الجنة وربِّ النضر، إني أجد ريحها دونَ أُحُد»، قال سعد: «فما استطعت يا رسول الله ما صنع»، قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، ومَثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، فقال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه، وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية[(٢)].

- ورُوي أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه -في سرية مؤتة- فقُطِعت، فأخذه بشماله، فقطعت، فاحتضنه بعَضُدَيْه حتى قُتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء، ويقال: إن رجلًا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين .. فلما قُتل جعفر أخذ عبد الله

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.





ابن رواحة الراية، ثم تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلِنَّهْ   لَتنزِلِنَّ أو لتُكْرَهِنَّهْ

إن أجلب الناس وشدُّوا الرنَّه   ما لي أراكِ تكرهين الجنه

وقال:

يا نفسُ إن لا تُقتَلي تموتي   هذا حِمام الموت قد صَليتِ

وما تمنيتِ فقد أُعطِيتِ   إن تفعلِي فعلَهما هُدِيتِ

وإن تأخَّرتِ فقد شَقِيتِ

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عمٍّ له بِعَرْق لحمٍ، فقال: «شُدَّ بهذا صُلبك، فإنك قد لقيتَ يومك هذا»، فأخذه من يده، فانتهش منه نهشة، ثم سمع الحَطْمَة في ناحية الناس، فقال: «وأنتَ في الدنيا؟!»، فألقاه من يده، ثم تقدم فقاتل حتى قُتِل(١).





(١) «سيرة ابن هشام» (٤/ ١٣، ١٤).

علو همة حَمِيِّ الدَّبْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

روى البخاري في (صحيحه) بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريَّةً عَينًا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت، وهو جدُّ عاصم بن عمر ابن الخطَّاب -لأمه-، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة، ذُكِروا لحيٍّ من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريبٍ من مئة رامٍ، فاقتصّوا آثارهم، حتى أتوا منزلًا نزلوه فوجدوا فيه نوى تمرٍ تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصمٌ وأصحابه لجؤوا إلى فَدْفَدٍ[(١)]، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا؛ ألا نقتل منكم رجلًا. فقال عاصمٌ: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافرٍ، اللهم أخبر عنا رسولك. فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفرٍ بالنَّبل» الحديث[(٢)].

وقال ابن إسحاق: فخرجوا مع القوم، حتى إذا كانوا على الرَّجيع -ماءٍ لهذيلٍ بناحية الحجاز، من صدور الهدأة- غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلًا، فلم يرع القوم -وهم في رحالهم- إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: «إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد

---

(١) **الفَدْفَد**: الأرض المستوية، وقيل: هي الأرض الغليظة ذات الحصى، وقيل: المكان الصُّلب، وقيل: الفلاة التي لا شيء بها.
(٢) رواه البخاري رقم [٤٠٨٦].

أن نصيب بكم شيئًا من أهل مكة، ولكن عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم». فأما مرثدٌ وخالد بن البكير وعاصم بن ثابتٍ فقالوا: «والله لا نقبل من مشركٍ عهدًا ولا عقدًا أبدًا». وقال عاصم بن ثابتٍ:

ما عِلَّتي وأنا جَلْدٌ نابلُ والقوسُ فيها وَتَرٌ عنابل

تَزِلُّ عن صفحتها المعابل الموتُ حقٌّ والحياةُ باطل

وكلّ ما حمَّ الإله نازل بالمرء والمرء إليه آيل

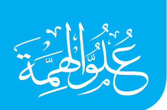
إن لم أقاتلكم فأمِّي هابل

قال: ثم قاتل حتى قتل، وقتل صاحباه، فلما قتل عاصمٌ، أرادت هذيلٌ أخذ رأسه؛ ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شُهَيدٍ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أُحُد؛ لئن قَدَرَتْ على رأس عاصمٍ، لتشربنّ في قِحفه الخمر[(١)]، فمنعته الدَّبْر[(٢)].. قال: فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه

(١) كان عاصم من الرماة المشهود لهم بإجادة الرمي، وكان يرمي المشركين يوم أُحُد فلا تخيب له رمية، وكان ممن رماه يومئذ شاب من المشركين يقال له مسافع بن طلحة، فهُرع مسافع إلى أمه والدم يتدفق منه، فوضعته أمه سلافة بنت سعد على فخذها وهو يجود بأنفاسه، وسألته: يا بني! من أصابك؟ فقال: أصابني رجل، وقال: خذها وأنا ابن أبي الأقلح، فقالت: «عليَّ إن أمكنني الله من عاصم بن أبي الأقلح أن أشرب في قِحف رأسه الخمر»، وجعلت لمن يأتيها برأسه مائة ناقة، والقِحف: العظم الذي يكون فوق الدماغ من الجُمجمة (cranial vault)، ومنه اشتقت القِحفية: غطاء الرأس.

(٢) ولهذا لُقِّب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بـ«حَمِيِّ الدَّبْرِ»، والدَّبْر: جماعة النحل والزنابير ونحوها مما سلاحُها في أدبارها.
ورُوي أنه قال لما انكسر رُمحُه: «اللهم إني حميتُ دينك أول النهار؛ فاحم لحمي آخره».
قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين، ولم يمنعهم من قتله، لِما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته: حمايته مِن هتك حرمته بقطع لحمه» اهـ.







فنأخذه. فبعث الله الوادي[(١)]، فاحتمل عاصماً فذهب به، وقد كان عاصمٌ قد أعطى اللهَ عهدًا أن لا يمسَّه مشركٌ، ولا يمسَّ مشركًا أبدًا؛ تنجُّسًا، فكان عمر ابن الخطاب يقول حين بلغه أن الدَّبْر منعته: «يحفظ الله العبدَ المؤمن، كان عاصمٌ نذر أن لا يمسه مشركٌ، ولا يَمَسَّ مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه في حياته»[(٢)].

- وهذا مجاهد ينتدب نفسه للمُهِمَّة الجسيمة، ويمضي نحو همته، ويلح سائلًا مولاه:

فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن	**على شَرْجَعٍ[(٣)] يُعْلَى بخُضْرِ المطارِفِ[(٤)]**
ولكنَّ قبري بطنُ نَسْرٍ مَقِيلُهُ	**بجو السماء في نسورٍ عواكفِ[(٥)]**
وأمسي شهيدًا ثاويًا في عصابة	**يُصابون في فجٍّ من الأرض خائفِ[(٦)]**
فوارسَ من بغدادَ ألَّف بينهم	**تُقى الله نزَّالون عند التزاحف**
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى	**وصاروا إلى ميعادِ ما في المصاحفِ**

وقد رُوي أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال حين لاكت هند كَبِدَ حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **«لولا جزع النساء؛ لتركتُه حتى يُحشر من حواصل الطير وبطون السباع»**.

---

(١) أي: أرسل الله مطرًا غزيرًا أسال الواديَ بالماء.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) **الشرجع**: النعش.

(٤) **المطارف**: هنا هي أطراف الكساء الذي يغطي النعش.

(٥) فهو لا يحلق بروحه سامية في فلك الشموخ فحسب، بل ببدنه أيضًا، حتى إنهم لا يصلون إليه؛ لأنه استقر في بطون النسور، فيراغمهم ميتًا، كما راغمهم حيًّا.

علوٌّ في الحياة وفي الممات ... لَحَقٌّ تلك إحدى المَكْرُمات

(٦) **الخائف**: المنخفض.





وكان السلطان نور الدين يتعرض للشهادة، وسمعه كاتبُه أبو اليسر يسأل الله أن يحشره مِن بطون السباع، وحواصل الطير.

– وعن شداد بن الهادِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا من الأعـراب جاء إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فآمن به واتبعه، ثم قال: «أهاجر معك»، فأوصى به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعض أصحابه، فلما كانت غزاة، غَنِم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شيئًا، فقسم، وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: «ما هذا؟!»، قالوا: «قِسْمٌ قسمه لك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»، فأخذه، فجاء به إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «ما هذا؟»، قال: «**قسمتُه لك**»، قال: «ما على هذا اتَّبَعْتُك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَى إلى ها هنا –وأشار إلى حَلْقِه– بسهم فأموتَ، فأدخلَ الجنة»، فقال: «**إن تَصْدُقِ اللهَ يصدقك**»، فلبثوا قليلًا، ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتِيَ به النبُّي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُحْمَل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أهو هو؟**» قالوا: «نعم»، قال: «**صدق اللهَ فصدقه**»، ثم كفَّنه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في جُبَّتِهِ، ثم قَدَّمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته: «**اللهم هذا عبدك، خرج مهاجرًا في سبيلك، فقُتِل شهيدًا، أنا شهيد على ذلك**»[(١)].

– وعن جعفر بن عبد الله بن أسلم، قال: لما كان يوم اليمامة، واصطف الناس كان أولَ من جُرح أبو عقيل، رُمي بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن له شقه الأيسر في أول النهار، وُجرَّ إلى الرَّحْل، فلما حمي القتال، وانهزم المسلمون، وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه، سمع معنَ بنَ عدي يصيح: «يا لَلأنصار! اللهَ اللهَ والكرَّةَ على عدوكم!» قال

(١) «صحيح سنن النسائي» (ص٤٢٠).

عبد الله بن عمر: فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت: «ما تريد؟ ما فيك قتال!»، قال: «قد نَوَّه المنادى باسمي»، قال ابن عمر: فقلت له: «إنما يقول: يا للأنصار، ولا يعني الجرحى»، فقال أبو عقيل: «أنا من الأنصار، وأنا أجيبه ولو حَبْوًا»، قال ابن عمر: فتحزَّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى، ثم جعل ينادي: «يا للأنصار! كرةً كيوم حُنين! فاجتمِعوا رحمكم الله جميعًا، تقدَّموا فالمسلمون دَريئة[١] دون عدوهم»، حتى أقحموا عدوهم الحديقة، فاختلطوا، واختلفت السيوف بيننا وبينهم.

قال ابن عمر: فنظرت إلى أبي عقيل وقد قُطِعت يده المجروحة من المنكب، فوقعتْ إلى الأرض، وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا كلها قد خلصت إلى مقتل، وقُتل عدوُّ الله مسيلمة.

قال ابن عمر: فوقفت على أبي عقيل وهو صريع بآخر رمق، فقلت: يا أبا عقيل! قال: «لبيك -بلسان مُلتاث[٢]- لمن الدَّبْرَة؟»[٣] قلت: «أبشر قد قُتل عدو الله»، فرفع أصبعه إلى السماء يحمد الله، ومات يرحمه الله[٤].

- ومنهم البراء بن مالك أخو أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان من أشجع الناس، شهد أُحُدًا وما بعدها مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكتب عمر إلى عماله:



---

(١) **الدَّريئة**: ما يستتر به الصائد لِيَخْتِلَ الصيد -أي: ليخدعه-، وحَلْقَة أو دائرة يُتَعَلَّمُ عليها الطعنُ والرمي.
(٢) ثقيل بطيء في الكلام.
(٣) **الدَّبْرة**: الهزيمة في القتال، يُقال: «جعل الله عليهم الدَّبْرة»: الهزيمة، «وجعل الله لهم الدَّبْرة»: الظفَر والنُّصرة بهزيمة غيرهم.
(٤) «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق» (١/ ٥٠٩).

«لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين فإنه مَهْلكة، يُقدم بهم»[(١)]، وذلك لإقدامه وفرط شجاعته.

وكان في مظهره «ضعيفًا متضعفًا»، قتل مئة شخص مبارزة، عدا من قَتَل في المعارك.

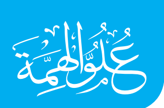
- وعن ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المسلمين انتهوا إلى حائط فيه رجال من المشركين، فقعد البراء على تُرْسٍ، وقال: «ارفعوني برماحكم، فألقوني إليهم»، فألقوه وراء الحائط، قال: فأدركوه وقد قتل منهم عشرة، وجُرح البراء يومئذ بضعًا وثمانين جراحة، ما بين رمية وضربة، فأقام عليه خالد بن الوليد شهرًا حتى برأ من جراحته[(٢)].

- وعن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري قال: لما انكشف المسلمون يوم اليمامة، قال سالم مولى أبي حذيفة: «ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فحفر لنفسه حفرة، وقام فيها، ومعه راية المهاجرين يومئذ، فقاتل حتى قُتل يوم اليمامة شهيدًا سنة اثنتي عشرة[(٣)].

- وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: مررت يوم اليمامة بثابت بن قيس ابن شماس وهو يتحنط[(٤)]، فقلت: «يا عم، ألا ترى ما يلقى المسلمون وأنت



(١) انظر: «الأعلام» للزركلي (٢/ ٤٧).
(٢) «أسد الغابة» (١/ ٢٠٦).
(٣) «مشارع الأشواق» (١/ ٥٥٥).
(٤) **الحَنوط** -بفتح الحاء- هو ما يحنط من الطيب للموتى خاصة، وتحنَّط: إذا تطيَّب به، وإنما كانوا يفعلون ذلك -والله أعلم- لتوطين النفوس على الموت، وتصميم العزم على نيل الشهادة.




هاهنا؟» قال: فتبسم، ثم قال: «الآن يا بن أخي، فلبس سلاحه، وركب فرسه حتى أتى الصف، فقال: «أفٍّ لهؤلاء وما يصنعون»، وقال للعدو: «أُفٍّ لهؤلاء وما يعبدون، خَلُّوا عن سبيله -يعني فرسه- حتى أَصْلَى بِحَرِّها»، فَحَمَل، فقاتل حتى قُتِل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

- وعن عبد الله بن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف**»، فقام رجل رَثُّ الهيئة، فقال: «يا أبا موسى آنت سمعتَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول هذا؟» قال: «نعم»، قال: فرجع إلى أصحابه فقال: «أقرأ عليكم السلام»، ثم كسر جِفْنَ سيفه -وهو غِمده- فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به حتى قُتِلَ[٢].

- وهذا سيف الله تعالى، وفارسُ الإسلام، وليثُ المشاهد، قائد المجاهدين أبو سليمان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وأرضاه، لما حضرته الوفاة قال: «لقد شهدت مائة زحف أو زُهاءها، وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعينُ الجبناء»[٣].

وعن أبي الزناد أن خالد بن الوليد لما احتُضِر بكى، وقال: «لقيتُ كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وهاأنذا أموت على فراشي حَتْفَ أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»[٤].

(١) رواه ابن المبارك في «الجهاد» رقم [١٢١]، والبيهقي في «السنن» (٩/ ٤٤)، وقال الهيثمي: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح» اهـ. من «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٢٢).
(٢) رواه مسلم، والترمذي، والحاكم، وغيرهم.
(٣) «أسد الغابة» (٢/ ١١١).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٨٢).



وروى عاصم بن بهدلة عن أبي وائل قال: لما حضرت خالدًا الوفاةُ قال: «لقد طلبتُ القتلَ مظانَّه، فلم يُقَدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما مِن عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد -من ليلة بِتُّها وأنا متترس، والسماء تُهِلُّني ننتظر الصبح حتى نغير على الكفار»، ثم قال: «إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدة في سبيل الله»، فلما توفي، خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: «ما على آل الوليد أن يَسْفَحْن على خالد من دموعهن ما لم يكن نقعًا أو لَقْلَقة»[(١)].

وقد بلغ من شجاعته في معركة «عين التمر» أنه بينما كان قائد نصارى الأعراب عَقَّة ابن أبي عَقَّة ينظم صفوفهم، إذا بخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينقض عليه كالصاعقة، ويحتضنه بشدة، ويخطفه كالبرق الخاطف، ويأتي به أسيرًا بين ذراعيه إلى جيش المسلمين أمام ذهول الكفار من هذه الشجاعة النادرة، وانهزم جيش عَقَّة من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر[(٢)].

ولما تحصَّن منه نصارى العرب في «قنسرين» قال لهم خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم لو كنتم في السحاب؛ لحملنا الله إليكم، أو لأنزلكم إلينا»[(٣)].

- وفي حديث عبد الله بن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أسره الروم، فحبسه طاغيتهم في بيت، فيه ماء ممزوج بخمر، ولحم خنزير مشوي، ليأكله ويشرب الخمر، وتركه ثلاثة، فلم يفعل، ثم أخرجوه حين خشوا موته، فقال: «والله لقد كان أَحَلَّه لي لأني مضطر، ولكن لم أكن لأشمتكم بدين الإسلام».



(١) «الإصابة» (٣/ ٧٤)، **والنَّقع**: أصوات الخدود إذا ضُرِبت، **واللقلقة**: صوت النواح المضطرب.
(٢) انظر: «البداية والنهاية» (٦/ ٣٤٩).
(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٣).

وهذا قريب من قول الشاعر هدبة بن الخشرم (ت:٥٠هـ)، لما ذُهِب به ليُقتل، وانقطع قِبالُ نعله[١]، فجلس يُصلحه، فقيل له: أوَ تُصلحه وأنت على ما أنت؟ فقال:

أَشُـــدُّ قِـبـالَ نـعـلِـيَ أن يـرانـي عــدوِّي لـلـحـوادثِ مُستكينا[٢]

ومثله قول الشاعر أبي ذؤيب الهُذَلي -وقد مات له خمسة أبناء في عام واحدٍ بالطاعون-:

وَتَجَـلُّـدِي لـلـشـامـتـين أُرِيـهُـمُ أنـي لِـرَيْـبِ الـدهـرِ لا أتضعْضَعُ

وهو -أي عبد الله بن حذافة السهمي- صحابي توفي بمصر، ودفن بمقبرتها، وذلك في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقصته مع ملك الروم حكاها أبو رافع قال: وجه عُمرُ جيشًا إلى الروم، فأسروا عبد الله بن حذافة فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: «إنَّ هذا من أصحاب محمد»، فقال: «هل لك أن تتنصَّر وأعْطِيَكَ نصفَ ملكي؟»، قال: «لو أعطيتني جميع ما تملكُ، وجميع ما تملك العرب، ما رجعتُ عن دين محمد طرفة عين»، قال: «إذًا أقتلك»، قال: «أنت وذاك»، فأمر به، فصُلِبَ، وقال للرماة: «ارمُوهُ قريبًا من بدنِهِ»، وهو يَعْرِضُ عليه، ويأبى، فأنزله، ودعا بِقِدْر، فصبَّ فيها ماء حتى احترقت، ودعا بأسيرين من المسلمين، فأُمِر بأحدهما، فأُلقي فيها وهو يعرض عليه النصرانية، وهو يأبى، ثم بكى، فقيل للملك: «إنَّه بكى»، فظن أنه قد جزع، فقال: «رُدُّوه، ما أبكاك؟»، قال: «قلت: هي نفسٌ واحدة تُلقى الساعةَ فتذهب، فكنتُ أشتهي أن يكون بعدد شعري أنفسٌ تُلْقَى في النار

---

(١) **قِبال النعل**: زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها.

(٢) «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار للزمخشري» لمحمد بن قاسم الأماسي (ص٤٤٧).

في الله»، فقال له الطاغية: «هل لك أن تُقَبِّلَ رأسي، وأُخَلِّيَ عنك؟»، فقال له عبد الله: «وعن جميع الأسارى؟»، قال: «نعم»، فقبل رأسه، وقدم بالأسارى على عمر، فأخبره خبره، فقَال عمر: «حق على كل مسلم أن يقبل رأس ابنِ حذافة، وأنا أبدأ»، فقبل رأسه(١).

- وعن العلاء بن سفيان الحضرمي قال: غزا بُسْر بن أرطاة الروم، فجعلت ساقته لا تزال تُصاب، فيكمُن لهم الكمين، فَيُصاب الكمين، فلما رأى ذلك، تخلَّف في مائة من جيشه، فانفرد يومًا في بعض أودية الروم، فإذا بَراذِينُ(٢) مربوطة نحو ثلاثين، والكنيسة إلى جانبهم فيها فرسان تلك البراذين الذين كانوا يعقبونه في ساقته، فنزل عن فرسه فربطه، ثم دخل الكنيسة فأغلق عليه وعليهم بابها، فجعلت الروم تعجب من إغلاقه، فما استقلوا إلى رماحهم حتى صَرَعَ منهم ثلاثة، وفقده أصحابه فطلبوه، فأتوا، فعرفوا فرسه، وسمعوا الجلبة في الكنيسة، فأتوها فإذا بابها مُغلق، فقلعوا بعض السقف، ونزلوا عليهم، وبُسْر ممسك طائفة من أمعائه بيده، والسيف بيده اليمني، فلما تمكن أصحابه في الكنيسة سقط بُسْر مغشيًّا عليه، فأقبلوا على أولئك، فأسروا وقتلوا، فأقبلت عليهم الأُسارى، فقالوا: «ننشدكم الله مَن هذا؟»، قالوا: «بسر بن أرطاة»، فقالوا: «والله ما ولدت النساءُ مثلَه»، فعمدوا إلى أمعائه، فردوه في جوفه، ولم ينخرق منه شيء، ثم عصبوه بعمائمهم، وحملوه، ثم خاطوه، فَسَلِمَ، وعُوفي(٣).



(١) انظر: «أسد الغابة» (٣/ ٢١٢، ٢١٣) ط. الشعب.
(٢) **براذين**: جمع بِرْذَوْن، يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الحوافر.
(٣) «مشارع الأشواق» (١/ ٥٤١).

وكبيرو الهمة من المجاهدين يهوون رفع الثقيل من الأمور، وخوض المخاطر، واقتحام العقبات، كأولئك النخعيين الذين تسابقوا على الاستشهاد في معركة القادسية، قال واحد منهم:

أتينا القادسية، فقُتِل منا كثير، ومن سائر الناس قليل، فسئل عمر عن ذلك، فقال: «إن النخعَ وَلُوا عِظَم الأمرِ وحدَهم»[(١)].

- ورفع الله الحرج عن المعذورين فقال عز مِن قائل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية [التوبة:٩١]، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح:١٧]، فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار، وما صبرت القلوب: فخرج ابنُ أمِّ مكتوم إلى أُحُد، وطلب أن يُعْطَى اللواء، فأخذه مصعب بن عمير، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها، فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى، فأمسكه بصدره، وقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤]. هذه عزائم القوم، والحق يقول: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ وهو في الأول[(٢)]، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ ﴾، وعمرو بن الجَمُوح[(٣)] من نُقَباء الأنصار أعرج وهو في أول الجيش، قال له الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إن الله قد عذرك**»، فقال: «والله لأَقْحَزَنَّ بعرجتي هذه في

(١) «الإصابة» (١/ ٢٨).

(٢) أي: ابن أم مكتوم.

(٣) **عمرو بن الجموح**: لم يشهد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بدرًا؛ كان أعرج، ولما خرج يوم أُحُد منعه بنوه، وقالوا: عَذَرَكَ اللهُ، فأتى رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكوهم، فقال: «لا عليكم أنْ لا تمنعوه؛ لعل الله يرزقه الشهادة»، قالت امرأته هند: كأني أنظر إليه قد أخذ دَرَقته، وهو يقول: «اللهمَّ لا تردَّني». =

الجنة»، وقال عبد الله بن مسعود: «ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادَى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[(١)].

- كَرَّ الفرسُ كرةً على غِرَّةٍ، فرجع المسلمين متحرفين لقتال، أو متحيزين إلى فئة، فلحقوا بأضعفهم، فاختطفوه أسيرًا، وعادوا به.

فماذا قال هذا «الأضعف» الذي لم يستطع الجري؟

رستم: ما جاء بكم، وما تطلبون؟

المسلم: جئنا نطلب موعود الله؟

رستم: وما موعود الله؟

المسلم: أرضكم ودياركم وأبناؤكم إن أبيتم أن تُسلموا.

رستم: فإن قُتِلتم قبل ذلك؟

المسلم: في موعود الله أن من قُتل منا أدخله الله الجنة، وأنجز لمن بقي منا وعدَه، فنحن على يقين.

رستم: قد وَضَعَنا إذن في أيديكم.

المسلم: «ويحك يا رستم، إن أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى من حولك، فإنك لست تحارب الإنس، وإنما تحارب قضاء الله وقدره، ونحن قضاء الله وقدره»[(٢)].



= فلما كان يوم أُحُد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أُعِدَّت للمتقين**»، فقام وهو أعرج، فقال: والله لأقْحزَنَّ عليها في الجنة، فقاتل حتى قُتِل. والقَحْزُ: الوثب.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٨/ ٢٢٦).

(٢) «من أطايب الكلام» (١/ ٢٦، ٢٧).

- وقد أوجز خالد بن الوليد وأبلغ حين وصف جنود الإسلام مخاطبًا الفرس: «قد أتيتكم بأقوامٍ هم أحرصُ على الموتِ منكم على الحياة».

- كان التابعي الجليل أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نتاجَ تربية الأربعة الراشدين، وابن مسعود، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، عاف التجارات والبيوت، وبنى له في الكوفة حصنًا صغيرًا يسعه هو وفرسه وسلاحه فقط، وبقي طول عمره متحفزًا للجهاد، حتى لم يعد يعرف موازين السوق التي يتعامل بها الناس[(١)].

وكان إذا خلا ينشج -يبكي بصوت وتوجُّع- ولو جُعل له الدنيا على أن يفعل ذلك وأحدٌ يراه لم يفعل، وكان له خُصٌّ يكون فيه هو وفرسُه، فإذا غزا نقضه، وإذا رجع بناه.

هكذا المجاهد يمضي إلى الأمام صوب غايته الكبرى، لا يلتفت إلى الوراء، ولا يعبأ بالدنيا، ويقول غير وَجِل ولا آسِفٍ:

وأراني أسمو بسعيي ووعيي ... عن جزاءٍ من معدِن الأرض بَخْسِ

حَسْبُ نفسي من الجزاء شعوري ... أنني في الإله أَبْذُلُ نفسي

وقال ابن المبارك:

بُغْضُ الحياةِ وخوفُ اللهِ أخرجَني ... وبيعُ نفسي بما ليست له ثمنا

إني وَزَنْتُ الذي يبقى ليعدلَه ... ما ليس يبقى فلا واللهِ ما اتَّزنا

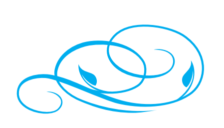
---

(١) «الثقات» لابن حبان (١٠٨).



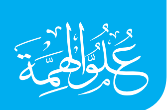

- لما فتح الله على عقبة بن نافع رَحِمَهُ ٱللَّهُ الشمال الأفريقي بعد قتال عنيف مع الروم والبربر، انطلق إلى الساحل حيث مدينة «طنجة» في الشمال، فتمكَّن بعد قتال عنيف من فتحها، ثم سار إلى مدينة «سبتة» الساحلية، فصالحه أميرها «جوليان» على الجزية فرجع عقبة عنه، ثم وقف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نهاية شاطئ بحر الظلمات «المحيط الأطلنطي» من ناحية الغرب، وقال: «يارب! لولا هذا البحرُ لمضَيْتُ في البلاد مجاهدًا في سبيلك»[(١)]. ثم قال: «اللهمَّ اشهَدْ؛ أني قد بلَغْتُ المجهود، ولولا هذا البحرُ لمضيتُ في البلاد أقاتلُ مَن كفر بك، حتى لا يُعبَد أحدٌ دونك»[(٢)].

وفي رواية: أنه أدخل قوائم فرسه في البحر المحيط، ووقف ساعةً، ثم قال لأصحابه: «ارفعوا أيديكم»، ففعلوا، فقال: «اللهمَّ إني لم أخرج بَطَرًا ولا أشَرًا، وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدُك ذو القرنَيْن، وهو أن تُعْبَدَ، ولا يُشرَك بك شيءٌ، اللهمَّ إنا معانِدون لدينِ الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكُنْ لنا ولا تكن علينا، يا ذَا الجلال والإكرام»، ثم انصرف راجعًا[(٣)].





(١) «الكامل» لابن الأثير (٣/ ٤٢، ٤٣).
(٢) «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية» لأبي بكر المالكي (١/ ٢٥).
(٣) «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» لأبي العباس الناصري (١/ ٧٤).




علو همة التابعي الجليل «موسى بن نصير»

يُعدُّ «موسى بن نصير» في الطليعة من الرجال الذين حجزوا لأنفسهم مكانًا فوق سوامق القمم، ولقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ نجمًا يتلألأ في سماء الإسلام، في عصر كثُرت في سمائه النجوم، وعاد بذاكرة الناس إلى عصر الخلافة الراشدة وما صاحبها ورافقها من فتوحات عظيمة، وإنجازات خالدة.

نعم، كان «موسى» من ذلك الطراز النادر والضرب الفريد من الرجال حقًّا.. فهو قائد عسكري فذ، لم يُفَلَّ له سيف، ولم يُهزم له جيش، وكانوا يشبهونه في ذلك بخالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ سياسيًّا محنَّكًا، ثاقب النظر بعيد الرؤية، يتمتع بذكاء خارق.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إداريًّا متمكِّنًا حاذقًا، وقبل كل ذلك كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقيًّا وَرِعًا مستجابَ الدعوة»[(١)].

وكان له دور عظيم في توطيد دعائم الإسلام في الشمال الأفريقي، وهو الذي عَيَّن مولاه «طارق بن زياد الليثي» واليًا لإقليم السوس كله، ثم أنفذه بجيشٍ قوامه سبعة آلاف مقاتل، بعد استئذان أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك لفتح الأندلس، وهنا أرسل «تُدمير» قائد جيش ملك القوط «لُذريق» يستغيثه

(١) «قصة الأندلس» (ص٦٣).



قائلًا: «إن قومًا لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطؤوا إلى بلادنا، وقد لقيتُهم فلتنهض إليَّ بنفسك».

وخَفَّ «لُذْريق» بغرور الكافر ليُنْجِدَ قائدَ جيشه[1] ومعه أعداد دوابَّ لا تحمل غير الحبال لكِتاف الأسرى، إذ لم يَشُكَّ في أخذهم، واقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالًا شديدًا، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا، ثم أنزل الله عَزَّوَجَلَّ نصره على المسلمين.

هكذا نصر الله عبده طارق بن زياد وجنده سنة (٩٢هـ) في رمضان، شهر النصر، وتُسمى هذه المعركة «معركة وادي برباط».

واستمر طارق يفتح البلاد الإيبرية وينشر فيها نور الإسلام، ووصل حتى طليطلة مارًّا بإشبيلية وجيان، وأرسل سرايا لفتح قرطبة ومالقة وغرناطة وغيرها.

ولما سمع موسى بن نصير بما فعل طارق خَفَّ إليه في حملة قوامها ثمانية عشر ألفًا من جند الله الموحدين ليعين طارقًا، ويكمل فتح باقي الأندلس[2].

ولو أن قائدًا معه ثلاث مئة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأثخن فيها ما أحاط موسى وأثخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم مُعادية تموج حواليه كالأبحر الزاخرة. وما رأى الأندلسَ وحدها كفوًا لهمته بل حدثته نفسه، والتي قل مثلها في نفوس البشر في بُعد الهمة، أن يوغل في أرض الإفرنج، ويعطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية[3].



(١) قيل: كان عدد جيشه مائة ألف جندي.
(٢) انظر: «قصة الأندلس» (ص٦٣)، و«استجابات إسلامية لصرخات أندلسية» (ص١٨، ١٩).
(٣) وقصة ذلك أن أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك خشي أن يجرَّه موسى إلى مواجهة لم يأت أوانها، فأرسل إليه مبعوثه «أبا نصر» الذي سلَّمه رسالة أمير المؤمنين يأمره فيها بالتوقف عند حدود =

- وعن موسى بن أبي إسحاق الأنصاري: أن علي بن أسد كان قد قَتَلَ، وصَنَعَ أمورًا عظامًا، فمر ليلة بالكوفة، فإذا برجل يقرأ من جوف الليل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فقال علي: «أَعِد»، فأعاد، ثم قال: «أعد»، فأعاد، ثم قال: «أعد»، فأعاد، فعمد فاغتسل، ثم غسل ثيابه، فتعبد حتى عمشت عيناه من البكاء، وصارت ركبتاه كركبتي البعير، فغزا البحر، فلقي الروم، فقرنوا مراكبهم بمراكب العدو، قال علي: «لا أطلب الجنة بعد اليوم أبدًا»، فاقتحم بنفسه في سفائنهم، فما زال يضربهم، وينحازوا، ويضربهم، وينحازوا حتى مالوا في شقٍّ واحد، فانكفأت عليهم السفينة، فغرق، وعليه درع الحديد[1].



=ما تم فتحه، ولكن موسى أراد إكمال فتح كل مدن محافظة جليقية، التي أصبحت بعد ذلك مركزًا لانطلاق الهجمات الصليبية ضد مسلمي الأندلس.

وقد حاول موسى إقناع «أبي نصر» بانتظاره حتى يكمل مهمته... فرفض ذلك بالطبع.. وقال له «حُبيش الشيباني» -وقد أمسك بعنان فرسه-: «إني قد سمعتك أيها الأمير تذكر عقبة بن نافع وتقول: «لقد غرر عقبة بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟! وإني رشيدُك اليوم، أين تذهب؟! أتريد أن تخرج من الدنيا أو تلتمس أكثر وأعظم وأعرض مما أتاك الله عَزَّوَجَلَّ من فتح وخير؟ إني قد سمعت من الناس ما لم تسمع، وإنهم قد ملؤوا أيديهم وأحبُّوا الدعة والراحة»، فنظر إليه موسى، وقال وهو يبتسم: «أما والله لو انقادوا إليَّ لقدمت بهم إلى رومية حتى أنفذ إلى دمشق». أي أنه أراد فتح الأندلس ثم روما ويخترق أوروبا إلى القسطنطينية التي كان يحاصرها مَسلمة بن عبد الملك من جهة البر، فأراد «موسى» أن يطبق عليها من جهة البحر، فتقع بين فَكَّيْ «الكماشة»، ولكنه امتثل أمر أمير المؤمنين، ورحل إلى «طليطلة». انظر: «نفح الطيب» (١/ ٢١٨).

(١) «مشارع الأشواق» (١/ ٥٥٤، ٥٥٥).



علو همة فارس الإسلام السُّرمَاري

هو أبو إسحاق أحمد بن إسحاق من أهل سُرْمارى، من قرى بخارى، (ت:٢٤٢)، قال في وصفه الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإمام، الزاهد، العابد، المجاهد، فارس الإسلام، أبو إسحاق».

وكان أحد الثقات(١)، وبشجاعته يضرب المثل، وقال: أخبار هذا الغازي تَسُرُّ قلب المسلم، قال إبراهيم بن عفان البَزَّاز: كنت عند أبي عبد الله البخاري، فجرى ذكر أبي إسحاق السُّرْماري، فقال: «ما نعلم في الإسلام مثله»، فخرجتُ، فإذا أحيد رئيسُ المُطَّوِّعة، فأخبرتُه، فغضبَ ودخل على البخاري، وسأله، فقال: «ما كذا قلتُ: بل: ما بلغنا أنه كان في الإسلام ولا في الجاهلية مثلُه».

وعن أحمد بن إسحاق قال: «ينبغي لقائد الغزاة أن يكون فيه عشرُ خصال: أن يكون في قلب الأسد: لا يَجْبُنُ، وفي كِبَرِ النَّمِرِ: لا يتواضع، وفي شجاعة الدب: يقتل بجوارحه كلِّها، وفي حَمْلة الخنزير: لا يُوَلِّي دُبُرَه، وفي غارة الذئب: إذا أَيِس من وجهٍ أغار من وجه، وفي حمل السلاح كالنَّمْلة: تحمل أكثر من وزنها، وفي الثبات كالصخر، وفي الصبر كالحمار، وفي الوَقاحة كالكلب: لو دخل صيدُه النارَ لدخل خلفه، وفي التماس الفرصة كالدِّيك».



(١) حدَّث عنه الإمام البخاري في «صحيحه»، وقال الحافظ أبو القاسم الدمشقي: «كان مع فَرْط شجاعته من العلماء العاملين العُبَّاد».

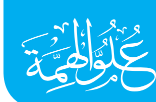


قال إبراهيم بن شماس: كنت أكاتب أحمد بن إسحق السُّرْماري، فكتب إليَّ: إذا أردت الخروج إلى بلاد الغُزَيَّة في شراء الأسرى، فاكتب إليَّ، فكتبتُ إليه، فقدم سمرقند، فخرجنا، فلما علم جَيْغَوَيْهِ، استقبلنا في عِدَّة من جيوشه، فأقمنا عنده، فعرض يومًا جيشه، فَمَرَّ رجل، فعظَّمه، وخلع عليه، فسألني عن السُّرماري، فقلت: «هذا رجل مبارز، يُعَدُّ بألف فارس»، قال: «أنا أبارزه»، فسكت، فقال جيغويه: «ما يقول هذا؟» قلت: «يقول كذا وكذا»، قال: «لعله سكران لا يشعر، ولكن غدًا نركب»، فلما كان الغد ركبوا، فركب السُّرماري معه عمود في كُمِّه، فقام بإزاء المُبارِز، فقصده، فهرب أحمدُ حتى باعده من الجيش، ثم كَرَّ، وضربه بالعمود فقتله، وتبع إبراهيم بن شِماس، لأنه كان سبقه، فَلَحِقه، وعلم جيغويه، فجهَّز في طلبه خمسين فارسًا نقاوةً، فأدركوه، فثبت تحت تَلٍّ مختفيًا، حتى مَرُّوا كلُّهم، واحدًا بعد واحد، وجعل يضرب بعموده من ورائهم، إلى أن قتل تسعةً وأربعين، وأمسك واحدًا، قطع أنفه وأذنيه، وأطلقه لِيُخْبِر، ثم بعد عامين تُوفي أحمد، وذهب ابنُ شِماس في الفداء، فقال له جَيغويه: «من ذاك الذي قتل فرساننا؟» قال: «ذاك أحمد السرماري»، قال: «فلم لم تحمله معك؟» قلت: «توفي»، فصَكَّ في وجهي، وقال: «لو أعلمتني أنه هو لكنت أعطيته خمس مائة بِرْذَوْن -ضرب من الدواب-، وعشرة آلاف شاة».

وعن عبيد الله بن واصل قال: سمعت أحمد السرماري وقد أخرج سيفَه، فقال: «أعلم يقينًا أني قتلت به ألفَ تركي، وإن عشت قتلتُ به ألفًا أخرى، ولولا خوفي أن يكون بدعةً لأمرت أن يُدْفَنَ معي».

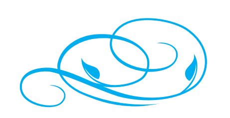






وعن محمود بن سهل الكاتب قال: «كانوا في بعض الحروب يحاصرون مكانًا، ورئيس العدو قاعد على صُفَّة -ظلة، والبهو الواسع العالي السقف- فرمى السرماري سهمًا، فغرزه في الصفة، فأومأ الرئيس لينزِعَه، فرماه بسهم آخرَ، خاطَ يَده، فتطاول الكافر لينزِعه من يده، فرماه بسهم ثالث في نحره، فانهزم العدو، وكان الفتح»[(١)].

وعن عمران بن محمد المطوعي، قال: سمعت أبي يقول: «كان عمود السرماري ثمانية عشر مَنًّا[(٢)]، فلما شاخ جعله اثني عشر مَنًّا، وكان يقاتل بالعمود»[(٣)].





(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٧-٤٠).
(٢) **المن**: رطلان.
(٣) «مشارع الأشواق» (٢/ ١٠٠٨).

عُلُوّ هِمَّة «اللؤلؤ العَادِلي»

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (السير): «الحاجبُ: من أبطال الإسلام، وهو كان المندوبَ لحرب فرنج الكَرَك الذين ساروا لأخذ طَيبة، أو فرنج سواهم ساروا في البحر المالح، فلم يَسِرْ لؤلؤ إلا ومعه قُيودٌ بعددهم، فأدركهم عند الفحلتين فأحاط بهم، فسلَّموا نفوسهم، فقيَّدهم، وكانوا أكثر من ثلاث مئة مقاتل، وأقبل بهم إلى القاهرة، فكان يومًا مشهودًا»[١].

- وفي عام ٤٦٣ هـ سار ملك الروم «أرمانوس» إلى بلاد المسلمين بمائتي ألف مقاتل على أقل تقدير للمؤرخين، وضَمَّ هذا الجيش الكثيف أخلاطًا من الروم، والفرنجة، والروس، والصرب، والأرمن، والبوشناق، واتَّخذ طريقه إلى العراق، وقد أقطع بطارقتَه الأرضَ حتى بغداد، وعيَّن له نائبًا على بغداد قبل أن يسير، واستوصى نائبه بالخليفة خيرًا، فقال له: «ارفق بهذا الشيخ فإنَّه صاحبنا»، وقد عزم «أرمانوس» أن يُبيد الإسلام وأهله، وإذا انتهى من العراق وخراسان مال على الشام وأهله ميلةً واحدةً، فأباد المسلمين فيها أيضًا.

خرج «أرمانوس» من «القسطنطينية» مُتَّجهًا نحو الشرق فوصل إلى «ملازكرد» في شرقي تركيا اليوم، على مقربةٍ من بُحيرة «وان»، وأتى الخبر إلى

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٨٤).



«ألب أرسلان» السلطان السلجوقي، وهو في «أذربيجان» وقد عاد من «حلب»، فلم يتمكَّن من جمع الجند لُبعده عن مقر حكمه، ولقرب العدو منه، فسار بمن معه، وهم خمسة عشر ألفًا، للقاء العدو مُتوكِّلًا على الله، وقال: «إنني أقاتل مُحتسبًا صابرًا، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنَّ ابني ملكشاه ولي عهدي»، وجَدَّ في السير، وأرسل مقدمته أمامه، فالتقت عند مدينة «خلاط» بمقدمة الروس، وكان عددهم عشرة آلاف فهُزِم الروس، بإذن الله، وأُسِر قائدهم.

واقترب الجمعان بعضهما من بعض، وأرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه الهدنة فقد خافه لكثرة من معه، إذ يُعادل جند ملك الروم خمسة عشر مِثلًا من المسلمين، غير أنَّ ملك الروم قد أخذته العزَّةُ بالإثم، فقال: «لا هدنة إلَّا في الريِّ» -طهران اليوم- ولم يدر أنه يَقْدُمُ قومه إلى الهاوية، فتأثر السلطان من هذا الردِّ المتغطرس، فاستشار إمام جنده «أبا نصر محمدَ بنَ عبدِ الملك البخاريَّ»، فأجابه: «إنَّك تُقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنَّهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة»، وكان يومها يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من ذي القَعدة.

جاء يوم الجمعة، وحان وقت الزوال فصلَّى «أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاريُّ» بالناس، فبكى السلطان، وبكى الناس لبُكائه، ودعا ودَعَوْا معه بعد الصلاة، وقال لهم: «من أراد الانصراف فلينصرف فما ها هنا سلطان يأمر



وينهى، وإنما جهاد ورغبة في لقاء الله»، ثم ألقى القوس والنشَّاب[١]، وأخذ السيف، ولبس البياض، وتحنَّط، وقال: «إن قُتِلتُ فهذا كَفَني»، وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما اقترب منهم ترجَّل، ومرغ وجهه في التراب، وبكى، وأكثر من الدعاء، وطلب النصر من الله، ثمَّ ركب، وحمل على الروم، وحمل المسلمون حتى وصلوا إلى وسط الروم وحجز الغبار بينهم، وما هي إلا جولة حتى أنزل الله نصره، وهزم الروم، ومنحوا المسلمين أكتافهم، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا حتى امتلأت الأرض بالجُثث، وقُدِّرَ عدد القتلى بمائةٍ وخمسين ألفًا، أي أنَّ كلَّ مسلم قد قتل عشرةً من الروم، ووقع ملك الروم «أرمانوس» وبطارقته جميعًا أسرى بأيدي المسلمين، وحُمل أرمانوس إلى السلطان «ألب أرسلان»، فلمَّا وقف بين يديه ضربه بيده ثلاث مقارِع، وقال: «لو كنتُ أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟» قال: «كلَّ قبيح»، قال: «فما ظنُّك بي؟» قال: «إمَّا أن تقتل بعد أن تُشَهِّر بي في بلادك، وإمَّا أن تعفوَ، وتأخذَ الفداء، وتُعيدَني»، قال: «ما عزمتُ على غير العفو والفداء»، فافتدى نفسه بميلون ونصف من الدنانير، فقام بين يدي السلطان وسقاه شربةً من ماء، وقبَّل الأرض بين يديه، وقد ترك له السلطان عشرة آلاف دينارٍ ليتجهَّزَ بها، وأطلق معه جماعةً من البطارقة الأسرى[٢].

- ومن علو همة السلطان المنصور أبي يوسف يعقوب ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي المغربي، المراكشي، الظاهري: أنه كتب إليه

---

(١) **النَّشَّاب**: النَّبْل، واحدته: نُشَّابة.

(٢) «رسائل إلى الشباب» للأستاذ محمود شاكر (ص١٤٤-١٤٦)، وانظر: «مشارع الأشواق» (١/ ٥٥١-٥٥٣).

«الأذفُنش» يهدده، ويُعنفه، ويطلب منه بعض البلاد، ويقول: «وأنت تماطل نفسك، وتُقَدِّم رِجْلًا، وتؤخر أخرى، فما أدري الجبنُ بطَّأ بك، أو التكذيب بما وعدك نبيك؟»، فلما قرأ الكتاب، تنمَّر، وغضب، ومزَّقه، وكتب على رقعة منه: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل:٣٧]. الجواب ما ترى، لا ما تسمع:

ولا كُتْبَ إلا المشرفيةُ والقَنا ... ولا رُسْلَ إلا بالخَميسِ العَرَمْرَمِ

ثم استنفر سائر الناس، وحشد، وجمع، حتى احتوى ديوان جيشه على مئة ألف، ومن الْمُطَّوِّعة مثلهم، وعَدَّى إلى الأندلس، فتمَّت الملحمة الكبرى، ونزل النصر والظفر، فقيل: غنموا ستين ألف زَرَدِيَّة.

قال ابن الأثير: قُتِل من العدو مئة ألف وستة وأربعون ألفًا، ومن المسلمين عشرون ألفًا(١).

- وعن علو همة صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال القاضي ابن شداد:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنده من أمر القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال ... وهو كالوالدة الثكلى، يجول بنفسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، ويطوف بين الأطلاب بنفسه، وينادي: «يا لَلإِسلام» وعيناه تذرفان بالدموع(٢).

ونظر صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أمواج البحر الهادرة، ثم التفت إلى القاضي ابن شداد، وقال:

«أما أحكي لك شيئًا في نفسي؟



---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣١٨، ٣١٩)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٣٢٢).

(٢) «صلاح الدين الأيوبي» د. عبد الله علوان (ص٧٢).

إنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسَّمتُ البلاد، ووصيتُ، وودَّعتُ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره، وأتبعتُهم -أي الصليبيين- فيها، حتى لا أُبْقِيَ على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»[(١)].

وبعد وقعة حطين باع بعض الفقراء أسيرًا بنعل، فقيل له في ذلك، فقال: «أردت هوانَهم»، وحكى بعضهم أنه لقي بحوران شخصًا واحدًا ومعه طُنُب[(٢)] خيمة، وفيه نَيِّفٌ وثلاثون أسيرًا، يجرهم وحده للخِذلان الذي وقع عليهم.

وقال العماد الكاتب: فمن شاهد القتلى يومئذ قال: «ما هناك أسير»، ومن عاين الأسرى قال: «ما هناك قتيل»[(٣)].

- وعن أحمد بن إبراهيم قال: نظر يونس إلى قدميه عند موته، فبكى، فقيل له: «ما يُبكيك يا أبا عبد الله؟»، قال: «قدماي لم تَغْبَرَّا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ».

- وهذا الإمام المبارك عبد الله بن المبارك يعقد مقارنة بين من تخلى للعبادة وبين من آثر الجهاد في سبيل الله تعالى في قصيدته إلى عابد الحرمين الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا	**لعلِمْتَ أنك في العبادة تلعبُ**
من كان يخضب جِيدَه بدموعه	**فنحورُنا بدمائنا تتخضب**
أو كان يُتْعِب خيلَه في باطل	**فخيولُنا يومَ الكريهةِ تتعب**

(١) نفسه (ص١٤٥).
(٢) **الطُّنُب**: حبل يُشَدُّ به الخِباء والسُّرادق ونحوُهما.
(٣) «مشارع الأشواق» (٢/ ٩٣٥).

ريحُ العبيرِ لكم، ونحن عبيرُنا ... رَهْجُ[١] السنابك[٢] والغبارُ الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا ... قولٌ صحيح صادق لا يكذب

لا يستوي غبارُ خيلِ اللهِ في ... أنفِ امرئ ودخانُ نارٍ تلهب

هذا كتابُ اللهِ ينطقُ بيننا ... ليس الشهيدُ بميت لا يكذب

- وتقدم قول الإمام أبي محمد علي بن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مُناي من الدنيا علومٌ أبثها ... وأنشرها في كل بادٍ وحاضرِ

دعاءٌ إلى القرآن والسنن التي ... تناسى رجالٌ ذكرَهَا في المحاضرِ

وألزم أطرافَ الثغور مجاهدًا ... إذا هَيْعَةٌ ثارت فأولُ نافِرِ

لألقى حِمامي مُقْبِلًا غير مُدْبرٍ ... بسُمْرِ العوالي والدِّقاقِ البواترِ

كفاحًا مع الكفارِ في حومَةِ الوَغى ... وأكرمُ موتٍ للفتى قتلُ كافرِ

فيارَبِّ لا تجعل حِمامي بغيرها ... ولا تجعلَنِّي من قَطين المقابرِ

- وهذا الإمام الجليل أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت:٧٤١هـ) يقول قبل وفاته:

قصدي المؤَمَّلُ في جهري وإسراري ... ومطلبي من إلهي الواحدِ الباري

شهادة في سبيل الله خالصة ... تمحو ذنوبي وتُنْجيني من النارِ

إن المعاصيَ رجسٌ لا يُطَهِّرُها ... إلا الصوارمُ في أيمانِ كفارِ

وبعد أن أنشد الأبيات قال: «أرجو الله أن يُعطيني ما سألتُه في هذه الأبيات»، فأعطاه الله ما تمنى، وقُتل في نفس اليوم في موقعة «طريف» مع النصارى بعد أن أبلى في قتالهم بلاءً حسنًا، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأعلى درجته في الشهداء.

(١) الرَّهْج: الغبار.

(٢) السنابك: جمع السُّنْبُك، وهو من كل شيء طَرَفُه، والسنبك من السيف: طرف حِليته.



- ونقل القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن خُوَيْزِ مَنْداد رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «وقد بلغني أن عسكر المسلمين لما لقي الفرس نَفرت خيل المسلمين من الفِيَلة، فعمد رجل منهم فصنع فيلًا من طين، وأنَّسَ به فرسه حتى أَلِفَه، فلما أصبح لم ينفِر فرسُه من الفيل، فحمل على الفيل الذي كان يَقْدُمها، فقيل له: إنه قاتِلُك، فقال: لا ضَيْرَ أن أُقتلَ، ويُفتح للمسلمين»[١].

قال الشاعر:

أجـدرُ الـناسِ بـالـكرامـةِ عبدٌ ... تـلـفـت نـفـسُـه لِـيَـسْـلَـمَ ديـنُـه

وقال آخر:

ويُـدعـى كـريمًـا مـن يجـود بمـاله ... ومن يبذل النفسَ الكريمةَ أكرمُ

- واستوصى «رُوَيمًا» صاحبٌ له، فقال: «هو بذل الروح، وإلا فلا تشتغل بالترهات».

الجُـودُ بـالمـالِ جـودٌ فـيه مَكْرُمَةٌ ... والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ[٢]

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]:

(والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال وإن عاد إلى النفس، ومن الأمثال السائرة:

والجُودُ بالنَّفْسِ أقصى غاية الجُودِ

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حَدِّ المحبة: أنها الإيثار، ألا ترى أن امرأة العزيز لما تناهت في حُبِّها ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، آثرته على نفسها فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، وأفضل الجود بالنفس: الجودُ على حماية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي الصحيح: أن أبا طلحة تَرَّسَ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أُحُد، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتطلَّع ليرى القوم. فيقول له أبو طلحة: لا تُشرِف يا رسول الله! لا يصيبونك! نَحْري دون نحرك! ووقى بيده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشُلَّت. وقال حُذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي -ومعي شيء من الماء- وأنا أقول: إن كان به رَمَقٌ سقيته، =



ويُروَى:

يجودُ بالنفسِ إن ضنَّ البخيلُ بها والجودُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ

وقال الآخر:

هل الجـودُ إلا أن تجـودَ بأنفسٍ على كل ماضي الشفرتين صقيلِ

وقال الشاعر:

بـرئ الإسـلام مـن شـاك مُضيم لا يـــراه غـــيرَ صـــومٍ وصـــلاهْ

ذُروة الـديـن جـهـاد في الصميم فـلـنـجـاهـد أو لـتـلـفـظـنـا الحياه

آخر:

إن نـفـسًـا تـرتـضـي الإسـلامَ دينا

ثـم تـرضـى بـعـده أن تستكينا

=فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إليَّ ابنُ عمي أن انطلِقْ إليه، فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انطلق إليه، فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات. وقال أبو يزيد البِسْطامي: ما غلبني أحد ما غلبني شابٌّ من أهل بَلْخ! قدِم علينا حاجًّا فقال لي: «يا أبا يزيد، ما حَدُّ الزهد عندكم؟» فقلت: «إن وَجَدْنا أكلنا، وإن فقدنا صبرنا»، فقال: «هكذا كلابُ بَلْخٍ عندنا»، فقلت: «وما حَدُّ الزهد عندكم؟»، قال: «إن فقدنا شكرنا، وإن وجدنا آثرنا». وسُئل ذو النُّون المصري: ما حَدُّ الزاهد المنشرح صدره؟ قال: ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت. وحُكي عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيّف وثلاثون رجلًا بقرية من قُرَى الرَّي، ومعهم أرغفة معدودة لا تُشبع جميعَهم، فكسروا الرغفان، وأطفؤوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رُفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئًا؛ إيثارًا لصاحبه على نفسه). اهـ. من «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٢٨، ٢٩).



أو تـرى الإسـلام في أرضٍ مَهينا[١]

ثـم تـهـوى الـعـيـشَ نـفـسٌ لـن تكونا

في عِـــداد المسـلـمـين الـعـظـمـاء

★★★

وشجعان الأمة وأبطالها لا يحاط بهم كثرة، وفرسانها ورجالها لا يحصون عدة، وفيما ذكرنا كفاية ومقنع، إذ ليس في استيفاء بطولاتهم مطمع، ومن أراد الوقوف على المزيد، فليتتبع الغزوات المؤلفة، والتواريخ المصنفة، يَرَ من علو همتهم في الجهاد ما يبهر العقول، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

عُـبَّـادُ لـيـلٍ إذا جَـنَّ الـظـلامُ بهم	كـم عـابدٍ دمـعَـه في الخَـدِّ أجراهُ
وأُسْـدُ غـابٍ إذا نـادى الجـهـادُ بهم	هَـبُّـوا إلى المـوتِ يَـسْـتَـجْـدُون رُؤياه
يـاربِّ فـابعثْ لنا مِـن مثلِهم نَفَرًا	يُـشِـيـدون لـنـا مَـجْــدًا أَضَـعْـنَـاه



(١) لا يجوز أن يوصف الإسلام بالمهانة، ولكن وصف الضعف وما يتبعه من ذل ومهانة قد يطرأ على بعض من ينتسبون إليه.

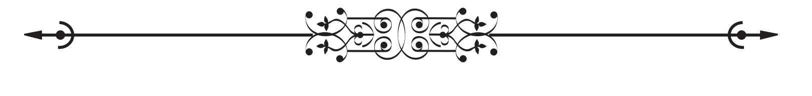
البَابُ الخَامِسُ

واقع الأمة

وكيف تُصْلِحه الهمة؟

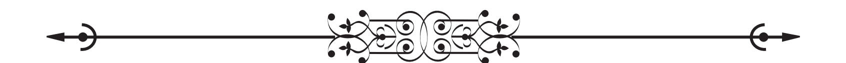






الفَصْلُ الأوَّلُ

حَال الأمّةِ
عندَ سقوطِ الهمّةِ









حَال الأمَّةِ عندَ سقوطِ الهِمَّةِ

إن سقوط الهمم وخساستها حليف الهوان، وقرين الذل والصغار، وهو أصل الأمراض التي تفشت في أمتنا، فأورثتها قحطًا في الرجال، وجفافًا في القرائح، وتقليدًا أعمى، وتواكلًا وكسلًا، واستسلامًا لما يُسمى «الأمر الواقع».

★ فقد رأينا في التاريخ الماضي كيف كان الجندي التَرَي يأمر المسلم الذي سقطت همته بالقعود مكانه ريثما يذهب فيحضر حجرًا يقتله به، فيستسلم ذاك، ولا يحرك ساكنًا إلى أن ينجز التتري ما أوعده! ورأينا في عصرنا هذا كيف ركع الجندي العراقي أمام نعلي الجندي الأمريكي يتمسح فيهما ويقبلهما سائلًا إياه العفو والصفح، بينما يُرَبِّتُ الأخير على كتفه، قائلًا له في مشهد تمثيلي مُخْزٍ: «لا تجزع .. لا بأس عليك!».

★ ورأينا كيف شكا ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ تشبه مسلمي عصره ممن سفلت همتهم بأعدائهم الكفار، واعتبر ذلك من أمارات ضياع الأندلس من أيدي المسلمين، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدًا بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله، وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمًا، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمالَ فيهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء



حظ كبير، كما هو في «الأندلس» لهذا العهد مع أمم الجلالقة أي «الأسبان»، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يَستشْعِرُ من ذلك الناظرُ بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، فالأمر لله)[١] اهـ، وقد حدث ما توقعه «ابن خلدون» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستولى الفرنج على الأندلس الإسلامية، وخرج المسلمون منها بعد مائتي سنة من كتابته هذه السطور.

وكنا عظامًا فصرنا عظامًا وكنا نقوت فها نحن قوت

لقد ترأس القسيس «صمويل زويمر» رئيس المنصِّرين في الشرق مؤتمر القدس الذي انعقد في نيسان سنة (١٩٣٥م) إبان الاحتلال البريطاني لفلسطين، وبعد أن استمع إلى الخطب اليائسة التي ألقاها المنصرون يعبرون فيها عن حسرتهم لعجزهم عن إدخال المسلمين إلى النصرانية، قام فخطب فيهم مهنئًا إياهم بجهودهم، وقال لهم: «يخيل إليَّ أنه مع إتمامكم العمل على أكمل الوجوه لم يفطن بعضكم إلى الغاية الأساسية منه.

إن مهمة التبشير التي نَدَبتكم دولُ المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإنَّ في هذا هدايةً لهم وتكريمًا، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالي فلا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، إنكم أعددتم شبابًا في ديار المسلمين لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من

(١) «مقدمة ابن خلدون» الفصل الثالث والعشرون (ص١٤٧).



الإسلام، ولم تُدخِلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقًا لما أراده له الاستعمار، لا يهتمُّ للعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء»[١].

وفي عصرنا رأينا شبابًا ينتسبون إلى الإسلام تصاغرت هممهم فلم تنشغل إلا بسفاسف الأمور ومحقراتها[٢]، ورأيناهم يمعنون في التشبه بالكفار، بل

(١) انظر: كتاب «جذور البلاء» لعبد الله التل (ص٢٧٥).

(٢) وقد نشرت مجلة «الرائد» – العدد (١٥٧) – (ص٣٣، ٣٤) مقالًا يجسد هذا المعنى، كتبه «ع. حسان» قال فيه:

لقيت اليوم صديقنا «...» الزعيم السياسي القديم، فإذا هو –على غير عادته– منشرحُ الصدر، مُفْتَرُّ الثغر، ضاحك الأسارير، قلت له: «أراك اليوم، على غير عادتك، طَلْقًا نشيطًا، بادي السرور»، قال: «وما لي لا أكون كذلك، وقد أحرزت في هذا اليوم ثلاثة انتصارات؟»، قلت: «لك الحق إذَن في تهللك وفرحك، فنحن في زمن لا نكاد نظفر فيه بانتصار واحد بين مئات الهزائم؛ ولكن قل لي: «ما هي هذه الانتصارات –إن لم تكن سِرًّا من الأسرار–؟».

قال: «أما الانتصار الأول: فقد دَخَلَتْ غرفةَ نومي من ثلاثة أيام ذُبابة أزعجت نهاري، وأرقت ليلي، وقد حاولت جهدي طردها أو قتلها فلم أُفلح، إلى أن ظفرتُ بها هذا اليوم فقتلتُها شر قِتلة، وألقيتها حيث لا يمكن أن تعود، حتى لو عادت إليها الحياة ..».

قلت: «والانتصار الثاني؟».

قال: «الانتصار الثاني شعرت به وأنا أزن نفسي في الحمام، إذ هبط وزني من تسعة وتسعين كيلو، إلى ثمانية وتسعين، وسبعمائة وخمسين جرامًا».

قلت: «والانتصار الثالث؟».

قال: «لعبت اليوم بالنرد مع صديقنا فلان، فغلبته مرتين متواليتين، وهو الذي كان يغلبني باستمرار. أفتراني بعد ذلك كله حقيقًا بما أنا عليه من السعادة والطلاقة والمرح؟».

قلت: «بلى! بلى!». =



يُعَلِّقون على صدورهم وسياراتهم أعلام الدول التي أذلت كبرياءهم، وطأطأت أعناقهم، وأهدرت كرامتهم، واستعبدت أمتهم[١].

وعلى صعيد آخر رأينا من يذهب إلى أن ما نحن فيه من الانحدار «تسبب فيه مَن قبلنا، وسيصلحه مَن بعدنا»!.

ويُبين الأستاذ محمد أحمد الراشد -أعزه الله- ملمحًا خطيرًا من ملامح محنة المسلمين في عصر انحطاط الهمم، فيقول: «إن محنة المسلمين اليوم لا تقتصر على تسلط أئمة الضلالة فحسب، بل تعدت ذلك إلى تربيةٍ سخَّرتْ المناهج الدراسية، وكراسي الجامعات والصحف والإذاعات لمسخ الأفكار والقيم، حتى غدا صيدُ[٢] المخططات في سرور، يحسب نفسه في انعتاقٍ من أسر القديم، أي قديم كان.

إن عصاة المسلمين اليوم ضحية تربية أخلدتهم إلى الأرض، أرادت لهم الفسوق ابتداءً، لتستخف بهم الطواغيت انتهاءً، وإنها خطة قديمة، يأخذها الطاغوت اللاحق عن الطاغوت السابق، حتى تصل أصولها إلى فرعون، «وذلك



= وتابعت طريقي بأسى بالغ، وألم عميق، وحزن غامر عليه، وعلى أنفسنا معه .... لقد سَحَقَنا وعَزَلَنا عن ميادين الحياة الجادة الطغيانُ الداخلي والخارجي، المحلي والدولي، وفاتتنا الانتصارات الحقيقية الكبرى، فشغلنا أنفسنا، وعوَّضنا مطامحنا، والتمسنا الراحة والمتعة والرضا بمثل انتصارات هذا السياسي الكبير القديم! أو بما لا يختلف عنها بالجوهر، وإن اختلف بالشكل والعنوان.
أليس هذا ضربًا من ضروب الجنون أو الموت المعنوي الذى يصنعه الطغيان؟ أليس الموت الماديُّ الحقيقي أفضل من مثل هذه الحياة؟.

(١) انظر: «تبصير أولي الألباب ببدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب» للمؤلف (ص٦١) - الطبعة العاشرة.

(٢) المقصود بالصيد هنا الفريسة المَصِيدَةُ.

كما يقول الله سبحانه: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤]، فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ، وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله، فالمؤمن بالله لا يستخفه الطاغوت، ولا يمكن أن يطيع له أمرًا»(١).

وهكذا أدركوا المقتل الذي عرفه فرعون، فتواصَوْا بالإفساد، وأخذوا «يحولون المجتمعات إلى فتات غارق في وحل الشهوة والفاحشة والفجور، مشغول بلقمة العيش، لا يجدها إلا بالكد والعسر والجهد، كي لا يفيق، بعد اللقمة والشهوة، ليستمع إلى هدى، أو يفيء إلى دين»(٢).

وهكذا تحول –بهذه التربية– ذلك الصقر الإسلامي إلى مثل طائر الحَجَل(٣) في وداعته كما يقول «إقبال»، إنه الأدب «والترويض» الذي استعمله أئمة الضلال، أدبٌ:

يَسْلُبُ السَّرْوَ(٤) جميلَ الميلِ ... ويَردُّ الصقرَ مثلَ الحَجَلِ
يسخر الركبانَ باللحنِ المبين ... ولقاعِ البحرِ يهوي بالسفين(٥)
نَوَّمَتْ ألحانُهُ يقظتَنا ... أطفأت أنفاسُه وَقْدَتَنا(٦)

وأُشْرِب الناس الذلَّ...



(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٩/ ٤٥).
(٢) نفسه (٩/ ١٢٢) بتصرف.
(٣) **الحَجَلُ**: الذكَر من القَبَج، الواحدةُ حَجَلة، طائر في حجم الحمام يُصاد.
(٤) **السرو**: شجر معروف، واحدته سَرْوَة.
(٥) **السفين**: جمع سفينة.
(٦) **الوَقْدَةُ**: أشدُّ الحَرِّ، يُقال: طَبَخَتْهُمْ وَقْدَةُ الصيف.

«إن الإنسان بفطرته نَفور من الذل، آبٍ على الحيف، ولكن تحيط بالناس أحوال، وتتوالى عليهم حادثات، فيُراضون على الخضوع حينًا بعد حين، ويسكنون إلى الخنوع حالًا بعد حال، حتى يدربوا عليه، كما يُستأنس السبعُ، ويؤلف الوحش، ولكن يبقى في الناس ذرات من الكرامة، وفي الدماء شذرات من الجمر، فإذا دعا الداعي إلى العزة، وأذن بالحرية، وأيقظ الوجدان النائم، وحرَّك الشعور الهاجد: نبضت الكرامة في النفس، وبَصَّت[1] الجمرة في الرماد، وأفاقت في الإنسان إنسانيته، فأبى وجاهد، ورأى كل ما يلقى أهون من العبودية، وأحسن من هذه البهيمية.

كل ذل يصيب الإنسانَ من غيره، ويناله من ظاهره: قريب شفاؤه، ويسير إزالته، فإذا نبع الذل من النفس، وانبثق من القلب، فهو الداء الدوي، والموت الخفي.

ولذلك عمد الطغاة المستعبِدون إلى أن يُشْربوا الناسَ الذل، بالتعليم الذليل، والتأديب المهين، وتنشئة الناشئة عليه بوسائل شتى، ليُميتوا الهمة، ويُخمدوا الحمية، وإذا بيدهم العصا والزمام»[2].

وكان من تمام ما يلزمه هذا الترويض أن يضيقوا على دعاة الإسلام، ليستبد بالتوجيه التربوي والإذاعي والصحافي أدعياء العلم والشعر والحكمة الذين موهوا أمرهم بأسماء منظمات تبدو في ظاهرها مختلفة، وطفقوا يزينون للجيل



---

(١) بَصَّ: برَقَ، ولَمَعَ.
(٢) «الشوارد» لعبد الوهاب عزام (ص٣١٨).

الجديد، سليل المجاهدين، وشبل الأسود، أن يكون رقيقًا للشهوات والعيش الرغيد، وبدؤوا يمحون تراث الأمة الذي نهضت به، ويطمسون قصص العلماء، حذرًا من أن تكون نبراسًا للجيل يستدل بها على طريق العمل...

وحينما أراد الشاعر «محمد إقبال» أن يبين أثر تخلي المرء عن هويته وذاتيته ضرب مثلًا فقال: «كانت مجموعة من الكباش تعيش في مرعى وفير الكلأ عيشًا رغيدًا، ولكنها أصيبت بمجموعة من الأسود نزلت بأرض قريبة منها، فكانت تعتدي عليها وتفترس الكثير منها، فخطر ببال كبش كبير منها أن يتخذ وسيلة تريحها من هذا الخطر الداهم الذي يهددها، فرأى أن استخدام السياسة والدهاء والحيلة هو الوسيلة الوحيدة، فظل يتودد إلى هذه الأسود في حذر حتى ألفته وألفها، فاستغل هذه الألفة، وبدأ يعظ الأسود، ويدعوها إلى الكف عن إراقة الدماء، وإلى أن تترك أكل اللحم، وأخذ يغريها بأن تارك أكل اللحم مقبول عند الله، وأخذ يزين لها الحياة في دَعَةٍ وسكون، ويقبح لها الوثب والاعتداء، حتى بدأت الأسود تميل إلى هذا الكلام، فأخذت الأسود تتباطأ في افتراس الكباش، وتتكاسل عن السعي وراء الرزق، ومالت إلى حياة الدعة والهدوء، واكتفت بأكل الأعشاب كما تفعل الكباش، فكانت النتيجة أن استرخت عضلاتها، وتثلمت أسنانها، وتقصفت أظفارها، وأصبحت لا تقوى على الجري، ولم تعد قادرة على الافتراس.

جوهرُ الآسادِ أضحى خَرَفَى حين صار القوتُ هذا العَلَفا

وبذلك تحولت الأسود إلى أغنام... لماذا؟



لأنها تخلت عن خصائصها وفقدت ذاتيتها...»، وصدق رسول الله ﷺ: «**ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا**».

يقول شاعر الإسلام «إقبال» رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ليس يخلو زمانُ شعبٍ ذليل ... من عليمٍ وشاعرٍ وحكيم

فَرَّقَتْهم مذاهبُ القول لكن ... جميع الرأي مقصد في الصميم

عَلموا الليثَ[1] جَفْلَةَ[2] الظَّبي[3] وامْحوا ... قَصَصَ الأسْدِ في الحديث القديم

هَمُّهم غِبطة الرقيق برِق ... كلُّ تأويلهم خداعُ عليم

وقَد كان[4]...

هذا هو عنوان خطة الكيد اليهودي والصليبي، إنه تعليم الليث الإسلامي جفلة الظبي، ومحو قصص أسد الإسلام من العلماء والزهاد والمجاهدين من تاريخ القرون الفاضلة الأولى لهذه الأمة المجاهدة.

وأنتجت خطط التربية ذاك الظبي الجفول الذي لم يعد يقتحم، واستبدل العزم بالتفلت، والمسارعة إلى الهرب، إنهم هذا الجيل من أبناء المسلمين، شبلُ أسدٍ تحول إلى ظبي وديع، وحُرٌّ استرقُّوه ففرح![5] اهـ.



---

(١) **الليث**: الأسد.

(٢) **جَفَل**: شرد ونفر، ومضى وأسرع، وانزعج وفزع.

(٣) **الظبي**: جنس حيوانات من ذوات الأظلاف والمجوَّفات القرون، أشهرها: الظبي العربي، ويقال له: الغزال الأعفر. ويقال: «لأتركنك تركَ الظبي ظله»: لا أعود إليك، لأن الظبي إذا جَفَل ونفر من مكانٍ لا يعود إليه.

(٤) انظر: «تطوير التعليم بين الحقيقة والتضليل».

(٥) «المنطلق» (ص٥٣-٥٧).

وإن من العِبَرَ حال الجنود في (١٩٦٧م) وقد شُجِّعوا على الصمود بأن أهل الفن معهم في المعركة، حتى وقعت واقعة «النكسة».

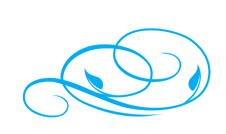
الزِّقُّ[(١)] والرِّقُّ[(٢)] والمِزمار عدتُنا — والخَصْمُ عُدَّتُه عِلْمٌ وآلاتُ

وشِرعةُ الله في القرآن نهجرها — وشرعةُ الخصمِ تلمودٌ وتوراةُ[(٣)]

وعُدَّة الخصمِ صاروخٌ وطائرةٌ — ونحن عدتُنا الكبرى قراراتُ

قال الأستاذ يوسف العظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقد سمعت وزير إعلام عربيًّا إبَّان حرب حزيران يقول: «دعونا من خالد بن الوليد وصلاح الدين، ولا تثيروها حربًا دينية»، قال ذلك وهو يعلق على ما يذيعه بعض الدعاة من حَثٍّ للجند على الثبات وتشجيع للمقاتلين على الجهاد والاستشهاد، فقلت لمن كان حولي: «منهزمون ورب الكعبة».

وفي العاشر من رمضان، شهر الانتصارات، تسلح المجاهدون بنداء «الله أكبر»؛ فدُكَّت حصون «بارليف» وكان العبور العظيم، والنصر المبين.





(١) **الزِّقُّ**: وعاء من جلد يُجَزُّ شعره ولا يُنتف، للشراب وغيره.
(٢) **الرِّقُّ**: الدُّفُّ.
(٣) حين دخلت بعض كتائب الجيش الصهيوني أرض سيناء عام ١٩٤٨م وقفت السيارة الأولى وعليها نسخة كبيرة من التوراة.





الفَصْلُ الثَّانِي

أَسْبَابُ انحطَاطِ الهِمَمِ





أَسْبَابُ انحطَاطِ الهِمَمِ

السبب الأول: الوهــــن:

وهو كما فسره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُبُّ الدنيا، وكَراهيةُ الموت**»(١).

- **أما حب الدنيا:** فرأس كل خطيئة كما في الحكمة المشهورة، وهو أصل التثاقل إلى الأرض، وسبب الاستئسار للشهوات، والانغماس في الترف، والتنافس على دار الغرور التي:

تـفـانـى الــرجــالُ عـلـى حبها	**ومــا يحـصـلـون عـلـى طـائـلِ**

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعلم أن زمان الابتلاء ضيفٌ قِراهُ الصبر، كما قال أحمد ابن حنبل: «إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل، فلا تنظر إلى لذة المترفين، وتلمح عواقبهم، ولا تَضِق صدرًا بضيق المعاش، وعَلِّل الناقةَ بالحَدْو تَسِرْ:

طاوِلْ بها الليلَ مالَ النجمُ أم جَنحَا	**وماطِلِ النومَ ضَنَّ الجَفْنُ أمْ سَمَحا**
فـإن تَـشَـكَّـتْ فَعَلِّلْهـا المَجَــرَّةَ مِن	**ضوءِ الصباحِ وعِدْها بالرواحِ ضحَى**

وقد كان أُهْدِيَ إلى أحمد بن حنبل هدية -أي من المنصور- فردَّها، ثم قال بعد سنة لأولاده: «لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت».



(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد، وأبو داود، قال الألباني: «صحيح بمجموع طريقيه» كما في «الصحيحة» رقم [٩٥٨].

ومَرَّ بشر على بئر، فقال له صاحبه: «أنا عطشان»، فقال: «البئر الأخرى»، فمرَّ عليها، فقال له: «الأخرى»، ثم قال: «كذا تُقطع الدنيا»، ودخلوا إلى بشر الحافي وليس في داره حصير، فقيل له: «ألا بذا تؤذى؟» فقال: «هذا أمر ينقضي») اهـ[1].

- **وأما كراهية الموت:** فثمرة حب الدنيا والحرص على متاعها، مع تخريب الآخرة، فيكره أن ينتقل من العمران إلى الخراب، قال الطغرائي مبينًا أثر حب السلامة في الانحطاط بالهمة:

حبُّ السلامةِ يَثْني عزمَ صاحبِه ... عن المعالي ويُغْرِي المرءَ بالكَسَلِ

إن حب الدنيا، وكراهية الموت صِنوانِ لا يفترقان، وإن الهمة العالية لا تسكن القلب الجبان، وتأمل حال خسيس الهمة، الذي أورثته التربية الفاسدة حرصًا على حياةٍ؛ أيِّ حياة ولو ذليلة، وغرست فيه حب السلامة في موطن الجرأة والإقدام والمخاطرة:

أضحَتْ تُشَجِّعُني هندٌ فقلتُ لها ... إن الشجاعةَ مقرونٌ بها العَطَبُ

لا والذي حَجَّتِ الأنصارُ كعبتَه ... ما يشتهي الموتَ عندي مَن له أَرَبُ

للحرب قومٌ أضلَّ اللهُ سعيَهمُ ... إذا دَعَتْهم إلى حَوْماتِها وَثَبوا

ولستُ منهم ولا أهوى فِعالَهمُ ... لا القتلُ يعجبني منهم ولا السلبُ[2]

آخر:

يقول لي الأمير بغير جُرْمٍ ... تقدَّمْ حين حلَّ بنا المِراسُ

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٤٠، ٥٤١).

(٢) «المحاسن والأضداد» للجاحظ (ص٥٩).

فـمـا لـي إن أطـعـتُـك في حياةٍ ... ولا لـي غـيرُ هـذا الـراسِ راسُ[(١)]

والمِراس هنا: التضارب في الحرب، والجَلَد والقوة في ممارسة القتال، فأين هذا من ذلك العبد الصالح الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**طوبى لعبدٍ آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة، كان في الساقَة، إن استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع لم يُشَفَّعْ**»[(٢)]، والذي قال ﷺ في وصفه: «**رجل آخذ بعِنان فرسه في سبيل الله كلما سمع بهيعة**[(٣)] **استوى على متنه، ثم طلب الموت مظانه**» الحديث[(٤)].

(١) نفسه، للجاحظ (ص٥٩)، وأين هذان من قول الحطيئة يمدح سعيد بن العاص بأنه إذا أراد الغزو فنهته امرأته عن ذلك مضى إلى سبيله، ولم يلتفت إلى نهيها:

إذا هـمَّ بـالأعـداء لم تَـثْـنِ عزمَه ... كَـعـابٌ عـلـيـها لـؤلـؤ وشُـنـوفُ

حَصَانٌ لها في البيت زِيٌ ومُهجة ... ومشيٌ كما تمشي القَطاة كَتِيفُ

والكَعاب: الفتاة الناهد، **والشُّنوف**: جمع الشَّنْفِ، وهو القُرْط، **والحَصان**: العفيفة، **والقَطاة**: واحدة القَطا، نوع من اليمام يطير جماعات ويقطع مسافات شاسعة. **والكتيف**: يقال: كتف الرجل كتيفًا أي مشى رويدًا محرِّكًا كتفيه، **وكتف الطائر**: طار رادًّا جناحيه ضامًّا لهما إلى ما وراءه.

وأين هو من قول الشاعر:

إذا أراد الـغـزوَ لم تـثْـنِ عزمَه ... حَصَانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يزينُها

نَهَتْهُ فلما لم تر النهي عاقه ... بكتْ فبكى مما شجاها قَطِينُها

ومقصوده من قطينها: وصيفاتها والخدم والأتباع من حولها، بل أين هو من «زهير بن أبي سُلمى» القائل:

وليس لمن لم يركب الهَوْلَ بُغْيَةٌ ... وليس لِرَحْلٍ حَطَّه اللهُ حاملُ

(٢) رواه البخاري.

(٣) **الهيعة**: الصوت تفزع منه، وتخافه من عدوٍّ.

(٤) رواه الإمام أحمد، ومسلم، وابن ماجه.







الثاني: الفتور:

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن لكل عمل شِرَّةً، ولكل شِرَّة فَتْرة**[١] **، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك**»[٢].

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا أيها الناس! خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل**»[٣].

لكلٍّ إلى شَأْوِ العُلا حركاتُ ... ولكنْ عزيزٌ في الرجالِ ثَباتُ

فمِن ثَم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**لا تكن مثلَ فلانٍ كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»[٤].

---

(١) شِرَّة: نشاط وقوة، فترة: ضعف وفتور، والمقصود: أن تخلُّل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه؛ فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تُخرجه من فرض، ولم تُدخله في محرم؛ رُجِيَ له أن يعود خيرًا مما كان، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن لهذه القلوب إقبالًا وإدبارًا، فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض»، فالمطلوب حسن سياسة النفس، في حالة إقبالها ونشاطها: بأن نكثر من الأعمال الصالحة، ونلزمها بالنوافل، وفي حالة إدبارها وفتورها: بأن نُلزمها الفرائض، ونرفق بها إلى أن يعود نشاطها وإقبالها من جديد، وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٦).

(٢) رواه الإمام أحمد، وابن أبي عاصم في «السنة»، وابن حبان، والبيهقي في «الشعب»، وصححه الألباني، وانظر: «مرقاة المفاتيح» (٥/ ١٠١).

(٣) متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) متفق عليه.



وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا مرض العبدُ أو سافر كتَب الله له من الأجرِ مثلَ ما كان يَعمل صحيحًا مُقيمًا»**[(١)].

ورُوِيَ عن شقيق بن عبد الله قال: مرض عبد الله بن مسعود، فعدناه، فجعل يبكي، فعُوتِبَ، فقال: «إني لا أبكي لأجل المرض لأني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«المرض كفارة»**، وإنما أبكي أنه أصابني على حال فَترةٍ، ولم يُصِبني في حال اجتهاد، إنه يُكتَب للعبد من الأجر إذا مرض، ما كان يُكتَب له قبلَ أن يمرض، فمنعه منه المرض».

لقد قال الله تعالى في وصف الملائكة: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩، ٢٠].

فهذا شأن الملائكة، أما البشر فإنهم يضعفون ويفترون في سيرهم إلى الله تعالى.



وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تكفُّ شَرَّكَ عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»**[(٢)].

وهذا الحديث من الأدلة على أن الترك فعل[(٣)]، كما قال الناظم:

❊ والتركُ فِعلٌ في صحيحِ المذهبِ ❊

---

(١) رواه الإمام أحمد [١٩٦٧٩، ١٩٧٥٣]، والبخاري [٢٩٩٦]، وابن حبان [٢٩٢٩].
(٢) متفق عليه.
(٣) انظر: «أضواء البيان» (٦/ ٣١٧).

فإذا بلغ الإنسان ما بلغ من الفتور فإنه لا يزال قادرًا على هذا النوع من الترك، الذي هو عمل صالح.

وإذا كان الشيء يذكر بالشيء، فإننا نسوق الفائدة التالية التي إذا فقهها الشباب قاوموا الفتور، واجتهدوا في استثمار فترة قوتهم وفتوتهم، وادِّخار أعمالهم كي تنفعهم ويجري عليهم أجرُها في فترة الضعف والوهن، بل الردِّ إلى أرذل العمر.







خُذْ من شبابِكَ لِهَرَمِك

لقد قال الله في سورة (والتين): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

عن إبراهيم قال: «﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، قال: في أحسن صورة، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، قال: إلى أرذلِ العمرِ، فإذا بلغوا ذلك كُتِبَ لهم من العمل مثلُ ما كانوا يَعمَلون في الصحة»[(١)].

وعن الضحاكِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ قال: «إلى أرذلِ العمرِ»[(٢)].

وأرذل العمر هو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، حتى يصير كالصبي في الحال الأول.

قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس:٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج:٥].

وأخرَج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عباسٍ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾. يقولُ: «إلى الكِبَرِ وضَعْفِه، فإذا كَبِر وضعُف عن العملِ كُتِبَ له مثلُ أجرِ ما كان يعملُ في شَبيبَتِه»[(٣)].



---

(١) «الدر المنثور» (١٥/ ٥١٤).
(٢) نفسه (١٥/ ٥١٤).
(٣) نفسه (١٥/ ٥١٥).

والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦]. منقطع[(١)]، وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال الضحاك: أجر بغير عمل، وقيل: غير مقطوع. وقيل: غير ممنونٍ به عليهم[(٢)].

روى الضحاك عن ابن عباس قال: «إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة، ثم ضَعُف عما كان يعمل في شبابه، أجرى الله عَزَّوَجَلَّ له ما كان يعمل في شبابه».

وأخرَج ابنُ مَرْدُويَهِ عن أبي موسى قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا كان العبدُ على طريقةٍ من الخيرِ فمرِض أو سافَر، كتَب الله له مثلَ ما كان يعملُ**» ثم قرَأ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

وأخرَج الطبرانيُّ عن شدادِ بن أوسٍ: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى، **يقول: إذا ابتليتُ عبدًا من عبادِي مؤمنًا فحمِدني على ما ابتليتُه، فإنه يقومُ من مضجعِه كيومِ ولَدته أمُّه من الخطايا. ويقول الربُّ** عَزَّوَجَلَّ: **إني أنا قيَّدْتُ عبدي هذا وابتليتُه، فأجرُوا له ما كنتم تُجرُون له قبلَ ذلك وهو صحيح**»[(٣)].

---

(١) على القول بأن (أسفل سافلين) هو الهَرَم، وأرذل العمر، وقد رجَّح الإمام المحقق ابن القيم أن (أسفل سافلين): النار، ونصره من عشرة أوجه، انظرها في «التبيان في أيمان القرآن» (ص٧٣-٧٧).

(٢) وزعم من قال هذا أن «المنة تكدِّر النعمة»، وقد شَنَّع الإمام المحقق ابن القيم على هذا القول، وأبدع في إبطاله، فانظر: «التبيان في أيمان القرآن» (ص٧٧-٨٠).

(٣) رواه الإمام أحمد [١٧١١٨]، والطبراني [٧١٣٦]، وفي «الأوسط» [٤٧٠٩]، وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».



وقال ابن قتيبة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في وقت القدرة والقوة، فإنهم حال الكبر غير منقوصين، وإن عجزوا عن الطاعات، لأن الله تعالى علم أنهم لو لم يسلبهم القوة لم ينقطعوا عن أفعال الخير، فهو يُجرِي لهم أجر ذلك».

وقال الإمام ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة، وأشبهها بتأويل الآية: قول من قال: معناه: ثم رددناه أي إلى أرذل العمر، إلى عمر الخرفى الذين ذهبت عقولهم من الهَرَم والكِبَر، فهو في أسفل من سفل في إدبار العمر، وذهاب العقل ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في حال صحتهم وشبابهم ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ بعد هَرَمِهم، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم، في حال ما كانوا يعملون، وهم أقوياء على العمل» اهـ.

الثالث من أسباب انحطاط الهمم، بل من مظاهره: إهدار الوقت الثمين في الزيارات والسمر وفضول المباحات:

قال ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه ... وأراه أسهلَ ما عليكَ يضيعُ

(١) رواه البخاري، والترمذي، وابن ماجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ووجه كونهما نعمتين أن الإنسان قد يكون صحيحًا، ولا يكون متفرغًا لشُغْلِهِ بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا، فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل، والصحة يعقبها السقم، ولو لم يكن إلا الهرم، كما قيل:

يَسُرُّ الفتى طولُ السلامة والبقا ... فكيف ترى طول السلامة يفعلُ
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء إذا رام القيام ويحملُ



وقال الفضيل بن عياض: «أعرِف من يَعُدُّ كلامه من الجمعة إلى الجمعة».

ودخلوا على رجل من السلف، فقالوا: «لعلنا شغلناك؟»، قال: «أصْدُقكم، كنتُ أقرأ فتركتُ القراءةَ لأجلكم».

وجاء عابدٌ إلى السَّريِّ السَّقَطي، فرأى عنده جماعة، فقال: «صِرتَ مُناخَ[١] البطالين[٢]!»، ثم مضى ولم يجلس.

وقعد جماعة عند معروف الكرخي، فأطالوا، فقال: «إن مَلَكَ الشمسِ لا يفتر عن سَوْقِها، فمتى تريدون القيام؟».

وقال شيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وغلامٍ قرَّب الساعةَ من ... أُذْنه يسمع منها النَّقراتِ

قال: ما في جوفها؟ قلت له: ... سُوسةٌ تَقْرِضُ أيامَ حياتي[٣]

وقال بعض السلف: «إذا طال المجلس، صار للشيطان فيه نصيب».

وكان عثمان الباقلاويُّ دائم الذكر لله تعالى، فقال: «إني وقتَ الإفطار أُحِسُّ بروحي كأنها تخرج، لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر»، وأوصى بعضُ السلف أصحابه، فقال: «إذا خرجتم من عندي فتفرقوا، لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم».

---

(١) **المُنَاخ**: محل الإقامة، ومبرك الإبل، يقال: **أناخ بالمكان**: أقام، وأناخ به البلاء والذل: حَلَّ به ولَزِمَه.

(٢) **البَطَّال**: يقال بَطَلَ العامل بِطالة: تعطَّل.

(٣) ديوانه «خواطر الحياة».



الرابع: العجز والكسل:

وهما العائقان اللذان أكثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التعوذ بالله سبحانه منهما، وقد يُعذَر العاجز لعدم قدرته، بخلاف الكسول الذي يتثاقل ويتراخى مما ينبغي مع القدرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

قال أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كثر نومه لم يجد في عمره بركة».

ورُوِي أن رجلًا قال لخالد بن صفوان: «ما لي إذا رأيتكم تذاكرون الأخبار، وتدارسون الآثار، وتناشدون الأشعار، وقع عليَّ النوم؟»، فقال: «لأنك حمار في مِسْلاخ إنسان».

انْفُضوا النومَ وهبُّوا للعلا   فالعُلا وَقْفٌ على من لم يَنَمْ

وقد ترى الرجل موهوبًا ونابغة، فيأتي الكسل فيُخذِّلُ همته، ويمحق موهبته، ويطفئ نور بصيرته، ويشل طاقته، فمن دام كسلُه خاب أملُه:

أراك تَرومُ المجدَ ثم تساهلُ   وزاملُةُ[(١)] العمرِ اليسيرِ تناقلُ

قال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا أرحم أحدًا كرحمتي لرجلين: رجلٍ يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهم ولا يطلبه، وإني لأعجب ممن في وُسْعِه أن يطلب العلم، ولا يتعلم».



(١) **الزاملة**: مؤنث الزامل، وهو: ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها، والزامل من الدواب: الذي كأنه يَظْلع في سيره من نشاطه، أي: يعرج ويغمز في مشيه.

قال المتنبي:

عجبتُ لمن له قَدٌّ وحَدٌّ ... وينبو نبوةَ القَضِمِ الكَهامِ[(١)]

ومن يجد الطريقَ إلى المعالي ... فلا يذر المطي بلا سنام[(٢)]

ولم أر في عيوب الناس شيئًا ... كنقص القادرين على التمام[(٣)]

فغَيرُ القادر يُعذَر، لكن لا عذر للقادرين على الكمال.

الخامس: الغفلة:

فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت، ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور.

وشجرة الغفلة تُسْقَى بماء الجهل الذي هو عدو الفضائل كلها.

هل علمتُم أمةً في جهلها ... ظهرتْ فِي المجد حَسناءَ الرداءِ

قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الراحة للرجال غفلة».

وقال شعبة بن الحجاج: «لا تقعدوا فراغًا فإن الموت يطلبكم».

وعن الفضيل بن غزوان قال: مَرَّ مسروق بقوم يلعبون بالنَّرْدِ، فقالوا: «يا أبا عائشة إنا ربما فرغنا فلعبنا بها»، قال: «ما بهذا أُمِرَ الفارغ».

---

(١) **نبأ السيف عن الضريبة:** لم يُصِبها، يقال: لكل سيف نَبْوَة.
القَضِم: السيف إذا تكسر حده، وصار فيه فلول. **والكَهام:** الذي لا يقطع، كَهَمَ السيفُ: كَلَّ.
يقول: عجبت لمن له قَدُّ الرجال، وحَدُّ النِّصال، ثم لا ينفذ في الأمور، ولا يكون ماضيًا.

(٢) وعجبت لمن وجد الطريق إلى معالي الأمور، فلا يقطع إليها الطريق، ولا يُتعب مطاياه في ذلك الطريق حتى تذهب أسنمتها.

(٣) ولا عيب أبلغ من عيب مَن قَدَرَ أن يكون كاملًا في الفضل، فلم يكمل، أي: لا عذر له في ترك الكمال إذا قدر على ذلك ثم تركه، والعيب ألزمُ له من الناقص الذي لا يقدر على الكمال.





وسئل ابن الجوزي: «أيجوز أن أفسح لنفسي في مُباح الملاهي؟»، فقال: «عند نفسك من الغفلة ما يكفيها».

قال الأستاذ محمد أحمد الراشد حَفِظَهُ اللهُ بعد ما أورد الآثار السابقة:

فإن اعترض معترض، أتيناه بمثل كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول: «لابد من سِنة الغفلة، ورُقاد الغفلة، ولكن كن خفيف النوم».

والمراد تقليل الراحة إلى أدنى ما يكفي الجسم، كل حسب صحته وظروفه، خاصة وأن المؤمن في هذا الزمان أشد حاجة للانتباه ومعالجة قلبه، وتفتيشه، مما كان عليه المسلمون في العصور الماضية، ذلك أنهم كانوا يعيشون في محيط إسلامي تسوده الفضائل، ويسوده التواصي بالحق، والرذائل تجهد نفسها في التستر والتواري عن أعين العلماء وسيوف الأمراء، أما الآن فإن المدنية الحديثة جعلت كفر جميع مذاهب الكفار مسموعًا مُبصَرًا بواسطة الإذاعات والتلفزة والصحف. وجعلت إلقاءات جميع أجناس الشياطين قريبة من القلوب، وبذلك زاد احتمال تأثر المؤمن من حيث لا يريد ولا يشعر بهذا المسموع والمنظور، فضلًا عن ارتفاع حكم الإسلام[(١)] عن الأرض الإسلامية التي يعيش فيها، فوجب عليه شيء من المجاهدة والمراقبة لوقته أكثر مما كان يجب على السلف.

وما أصدق تصويرَ إمامِ تركيا «بديع الزمان سعيد النورسي» رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الحقيقة حين يقول: «إن هذه المدنية السفيهة، المصيِّرة للأرض كبلدة واحدة، يتعارف أهلها، ويتناجون بالإثم وما لا يعني بالجرائد صباحًا ومساءً، غلظ

(١) انظر: «الغلو في الدين» للشيخ عبد الرحمن اللويحق (ص٣٣٠-٣٣٥) ط. الرسالة - ١٤١٢هـ.



بسببها وتكاثف بملاهيها حجابُ الغفلة، بحيث لا يُخرق إلا بصرفِ همةٍ عظيمة» اهـ(١).

السادس: التسويف والتمني:

وهما صفة بليد الحس، عديم المبالاة، الذي كلما همت نفسه بخير، إما يعيقها بـ«سوف» حتى يفجأه الموت، فيقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون:١٠]، وإما يركب بها بحر التمني، وهو بحر لا ساحل له، يُدمن ركوبَه مفاليسُ العالم، كما قيل:

إذا تمنيتُ بِتُّ الليلَ مغتبِطًا ... إن المنى رأسُ أموالِ المفاليسِ

وبضاعة رُكَّابه: مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأمانيِّ الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه، كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مَهِينة خسيسة سفلية، ليس لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الدنية.... فيتمثل المتمني صورةَ مطلوبه في نفسه، وقد فاز بوصلها، والتذ بالظفر بها، فبينما هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير(٢).

---

(١) «الرقاق» (ص٥٧-٥٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٥٦، ٤٥٧)، وقد جاء في بعض الكتب: (أن ناسكًا كان له عسل وسمنٌ في جَرَّة، ففكَّر يومًا، فقال: «أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري خمسة أعنزٍ فأُولِدُهُنَّ في كل سنة مرتين؛ ويبلغ النِّتاجُ في سنين مائتين، وأبتاع بكل أربعٍ بقرة، وأصيب بَذْرًا فأزرع، ويَنْمِي المالُ في يدي، فأتخذ المساكنَ والعبيدَ والإماءَ والأهلَ، ويُولَدُ لي ابنٌ فأُسَمِّيه كذا، وآخذه بالأدب، فإن هو عصاني ضربتُ بعصاي رأسه»، وكانت في يده عصا، فرفعها حاكيًا للضرب، فأصابت الجرةَ فانكسرت، وانصبَّ العسلُ والسمن على رأسه) اهـ. من «عيون الأخبار» (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤).

ما القاطعاتُ فلاةِ الجوِّ في سَحَرٍ   قبلَ الصباحِ ولا يمشين قِرطاسا
هي الأماني وقد تدعو الفتى مَلِكًا   فوقَ العبادِ ولم تَرفعْ له راسا

قيل لبعض السلف: «ما الذي ينقض العزم؟» قال: «طول الآمال، وحب الراحات».

فانهض إذا لمحت الخير في عمل   وخلِّ (سوفَ) لعزمٍ خاملٍ واهِي

وقال ابن المقفع: «إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الرَّوْحَ في مدافعتها بالروغان منها؛ فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك، والضجر هو الذي يراكمها عليك»[1].

وقال محمود الورَّاق:

والمرءُ مُرتَهَنٌ بسوفَ وليتني   وهلاكُه في السَّوفِ واللَّيتِ
لله درُّ فتىً تدبَّر أمرَهُ   فغدا وراحَ مُبادِرَ الفَوْتِ

آخر:

وانتبه من رقدة الغفـ   ـلة، فالعمر قليل
واطَّرِحْ «سوف» و«حتى»   فهُما داءٌ دخيل

إن «التأجيل» و«التسويف» صورة من صور الضعف البشري الذي قد يطرأ على الكُمَّل من الناس فيفوته بذلك خير كثير، وفي قصة «كعب بن مالك» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عرض له ذلك، ففاته الغزو مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحرق الندمُ قلبه، وعاش فترة عصيبة امتدت خمسين يومًا، يكفي في وصفها قول الحق

(١) «الأدب الصغير» (ص١٥٢).



جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

قال رجل لابن سيرين: «إني رأيت في منامي أني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح! فما تفسير هذه الرؤيا؟»، فقال له: «أنت رجل كثير الأماني والأحلام».

وما أحسن ما قال «أبو تمام»:

من كان مَرْعى عزمِهِ وهمومِه ... روضَ الأماني لم يزل مهزولا

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، فإن يكن غدٌ لك فكن في غدٍ كما كنتَ في اليوم، وإن لم يكن لك غدٌ لم تندم على ما فرطت في اليوم».

وعن الحسن قال: (المؤمن من يعلم أن ما قال الله عَزَّوَجَلَّ كما قال، والمؤمن أحسن الناس عملًا، وأشد الناس خوفًا، لو أنفق جبلًا من مال ما أمن دون أن يُعاين، لا يزداد صلاحًا وبرًّا وعبادة إلا ازداد فَرَقًا، يقول: «لا أنجو، لا أنجو»، والمنافق يقول: «سواد الناس كثير، وسيُغفر لي، ولا بأس عليَّ»، يُسيء العمل، ويتمنى على الله تعالى)(١).

وقال محمد بن إسحاق الثقفي: كان يقال: «من استعمل التسويف والمنى، لم ينبعث في العمل»، وقال رجاء بن أبي سلمة: «الأمانيُّ تنقص العقل».

(١) «الزهد» لابن المبارك (ص١٨٨).

وقال بلال بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقال لأحدنا تريد أن تموت؟ فيقول: لا، فيقال: لِمَ؟ فيقول: حتى أتوب وأعمل صالحًا، فيُقال له: اعمل، فيقول: سوف أعمل، فلا يحب أن يموت، ولا يحب أن يعمل، فيؤخر عمل الله تعالى، ولا يؤخر عمل الدنيا».

وقال «المتنبي» منزهًا نفسه عن الاستغراق في أحلام اليقظة، ومبينًا كيف ألف الحقائق، واعتاد ركوب المخاطر:

وما كنتَ ممن أدركَ المُلكَ بالمُنى ... ولكنْ بأيامٍ أشَبْنَ النواصيا

لبستَ لها كُدْرَ العَجاج[1] كأنما ... ترى غيرَ صافٍ أن ترى الجوَّ صافيا





(١) كُدْرَ العَجاج: غبار الحرب.





«التسويف» من تلبيس إبليس

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حبُّ الإسلام، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول: لا تعجل وتمهل في النظر، فيسوفه حتى يموت على كفره، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة، فيجعل له غرضه من الشهوات، ويمنيه الإنابة، كما قال الشاعر:

لا تعجل الذنبَ لما تشتهي ... وتأمُل التوبةَ من قابلِ

وكم من عازم على الجد سوَّفه، وكم ساعٍ إلى مقام فضيلة ثبَّطه، فلربما عزم الفقيه على إعاده درسه، فقال: استرح ساعة. أو انتبه العابد في الليل يصلي، فقال له: عليك وقت. ولا يزال يُحبِّب الكسل، ويسوف العمل، ويُسنِد الأمرَ إلى طول الأمل. فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم، والحزم: تدارك الوقت، وترك التسويف، والإعراض عن الأمل، فإن المخوف لا يُؤمَن، والفوات لا يبعث، وسبب كل تقصير في خير، أو ميل إلى شر: طول الأمل، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير، إلا أنه يَعِدُ نفسه بذلك، ولا ريب أنه من أمَّل أن يمشي بالنهار سار سيرًا فاترًا، ومن أمل أن يصبح عَمِلَ في الليل عملًا ضعيفًا، ومَن صَوَّرَ الموتَ عاجلًا جَدَّ، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صلِّ صلاةَ مودِّع**».





وقال بعض السلف: أُنذِركم سوف، فإنها أكبر جنود إبليس، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل، كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره، وجلس متأهبًا للرحيل، وقال المفرِّط: سأتأهب فربما أقمنا شهرًا، فضُرِبَ بوقُ الرحيل في الحال، فاغتبط المحترِز، واعتبط الآسف المفرِّط، فهذا مثل الناس في الدنيا: منهم المستعد المستيقظ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم.

ومنهم المغرور المسوِّف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة. فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع، صعبت المجاهدة، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب، وأن عدوه لا يفتر عنه، فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة، وأقام له كمينًا.

ونحن نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة من كيد العدو وفتن الشيطان، وشر النفوس والدنيا، إنه قريب مجيب، جعلنا الله من أولئك المؤمنين» اهـ(١).

السابع: صحبةُ السوء، سافلو الهمة:

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا(٢) خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

(١) «تلبيس إبليس» (ص٥٦٦، ٥٦٧).

(٢) كنى عنه ولم يصرح باسمه لئلا يكون هذا الوعد مخصوصًا به ولا مقصورًا، بل يتناول جميع من فعل مثل فعلهما، وقال الحافظ ابن كثير: «وسواء كان سبب نزولها عقبة بن أبي مُعيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني مَن صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة» اهـ. من «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ١١٩).





قال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء، قد يُدخِلُ قرينَه النارَ، والتحذيرُ من قرين السوء مشهور معروف، وقد بين جَلَّ وَعَلَا في سورة الصافات: أن رجلًا من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يُرْدِيه، أي: يهلكه بعذاب النار، ولكن لَطَفَ اللهُ به، فتداركه برحمته وإنعامه، فهداه، وأنقذه من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات:٥١-٥٧]».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[(١)].

وكم جلبت صحبة السوء من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحَلَّتْ من رَزِيَّة، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس؟

وهل كان عَلَى (أبي طالب) -عند الوفاة- أضر من قرناء السوء؛ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

روى سعيد بن المسيب عن أبيه، أنه لما حضرت أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود [٤٨٣٣]، والترمذي [٢٣٧٩]، والحاكم (٤/ ١٧١)، وحسنه الترمذي، وصححه النووي.

المغيرة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طالب: «**يَا عَمِّ! قُلْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ كَلمةً أَشهدُ لَكَ بِهَا عندَ اللهِ**»[(١)]، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخِرَ ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا واللهِ لأَستَغفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**» فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣][(٢)].

وفي رواية: وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما مَثَل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكِير**[(٣)]**، فحاملُ المسك: إما أن يُحْذِيك**[(٤)]**، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكِير: إما أن يُحْرِق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة**»[(٥)].

فحذار من مجالسة المثبطين من أهل التبطل والتعطل واللهو والعبث، فإن «طبعك يسرق منهم وأنت لا تدري، وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفِعَاله



---

(١) وفي رواية: «أَيْ عَمِّ! قُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) كَلِمَةً أُحاجُّ لَك بِهَا عِندَ اللهِ».
(٢) رواه البخاري [١٣٦٠]، ومسلم [٢٥].
(٣) **الكير**: جلد غليظ يُنفخ فيه النار.
(٤) **يُحذيك**: يعطيك.
(٥) رواه البخاري [٢١٠١]، ومسلم [٢٦٢٨].

فقط، بل بالنظر إليه! والنظر في الصور يورث في النفوس أخلاقًا مناسبة لخلق المنظور إليه... ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية؟!»[(١)].

ولا تجلسْ إلى أهل الدنايا   فإن خلائقَ السفهاءِ تُعْدِي

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن خطر مجالسة الفجَّار: «إنها تؤدي إلى مسارقة الطبع من أخلاقهم الردية، وهذا داء دفين قلَّما يتنبَّه له العقلاء فضلًا عن الغافلين؛ وذلك أنه قلَّ أن يجالس الإنسان فاسقًا مدَّة، مع كونه منكِرًا عليه في باطنه، إلَّا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقًا في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هينًا على الطبع.

وإذا طالت مشاهدة الإنسان للكبائر من غيره احتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد احتقر نفسه، واستصغر عبادته، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد.

فمجالسة الفجَّار تهوِّن عليك المعصية، وتُضعف رغبتك في الطاعات.

فإن وجدتَ مجلسًا يُذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن»[(٢)].

وقال الإمام أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر والصدق وكرم العشيرة والصبر والوفاء والأمانة والحِلم وصفاء الضمائر وصحة المودة،



(١) «فيض القدير» (٥/ ٥٠٧).
(٢) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٠٥).

ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير إلا أمثال الكلاب الكَلِبة، والثعالب الخَلَبة، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة»(١) اهـ.

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرء مع من أحب**»(٢).

«(المرء مع من أحب) طبعًا وعقلًا وجزاءً ومحلًّا فكل مهتم بشيء فهو مُنجذب إليه وإلى أهله بطبعه شاء أم أبى، وكل امرئ يصبو إلى مُناسِبه، رضي أم سخط، فالنفوس العلوية تنجذب بذواتها وهممها وعملها إلى أعلى، والنفوس الدنية تنجذب بذواتها إلى أسفل، ومن أراد أن يعلم: هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل فلينظر أين هو؟ ومع مَن هو في هذا العالم؟ فإن الروح إذا فارقت البدن تكون مع الرفيق الذي كانت تنجذب إليه في الدنيا، فهو أولى بها، فمن أحب الله فهو معه في الدنيا والآخرة، إن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، واتفقوا على أن المحبة لا تصح إلا بتوحيد المحبوب، وأن من ادعى محبته ثم لم يحفظ حدوده فليس بصادق، وقيل المراد هنا: من أحب قومًا بإخلاص فهو في زمرتهم وإن لم يعمل عملهم لثبوت التقارب مع قلوبهم، قال أنس: ما فرح المسلمون بشيء فرحَهم بهذا الحديث. وفي ضمنه حث على حب الأخيار رجاء اللِّحاق بهم في دار القرار، والخلاص من النار، والقرب من الجبار، والترغيب في الحب في الله،



---

(١) «الأخلاق والسير» (ص١٣٣)، **والكَلِبة**: المسعورة، المصابة بداء الكَلَب، **والخَلَبَة**: الخادعة.
(٢) رواه البخاري (١٠/ ٤٥٨-فتح)، ومسلم [٢٦٣٩].

والترهيب من التباغض بين المسلمين؛ لأن مِن لازمها فواتَ هذه المعية، وفيه رمز إلى أن التحابب بين الكفار يُنتج لهم المعيةَ في النار وبئس القرار ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]»(١).

إن الطبع «لِصٌّ» يسرق مِن طباع مَن يخالطه، وسافل الهمة كلما هممتَ بالنهوض جذبك إلى الدنيا، وغرَّك قائلًا: «أمامك ليل طويل فارقد»، وإذا حثثته على مكرمة خَذَلك، وخَذَّلك:

إن قلتُ (قُمْ) قال رجلي ما تطاوعني ... أو قلتُ (خُذْ) قال كَفِّي ما تُواتيني

فَفِرَّ منه فرارك من الأسد، واصرخ في وجهه:

إليكَ عنِّي إليك عني ... فلستُ منك ولستَ مِني

قال الشاعر:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالحٍ بفسادِ آخَرَ يفسْدُ

عدوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ ... كالجمرِ يُوضَع في الرَّمادِ فَيَخْمَدُ

آخر:

ما لي أرى الشمع يبكي في مواقده ... من حُرْقَةِ النار أم من فُرقة العسلِ

من لا تجانسه احذر تجالسُه ... ما ضَرَّ بالشمع إلا صحبةُ الفَتْلِ

وقال الشوكاني:

كن ناسكًا تبتلا ... أو رائسًا تَبَجُّلا

وعدِّ عن مُحَمَّقٍ ... قَصَّر عن أن يَنْبُلا

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).





يَـــــصُــــــدُّه قُـــــعُــــــودُهُ وعَـــجْـــزُهُ عــن الــعُــلا[١]

الثامن: العشق:

لأن صاحبه يحصر همته في حصول معشوقه، فيُلهيه عن حب الله ورسوله ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠]، إن عالي الهمة لا يستأسر للعشق الذي «يمنع القرار، ويسلُب المنام، ويولِّه العقل، ويحدث الجنون، وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه، وأتلف دينه ودنياه.

والعشق يترك المِلِكَ مملوكًا، والسلطان عبدًا، ترى الداخلَ فيه يتمنى منه الخلاص، ولاتَ حينَ مناص، وكم أكبت فتنة العشق رؤوسًا على مناخرها في الجحيم، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرَّعتهم بين أطباق النار كؤوسَ الحميم»[٢].

وإذا كانت الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة، فكيف تدخل محبة الله عَزَّوَجَلَّ قلبًا مُلئ بالصور والأغيار؟

أردنـاكـم صِـرْفًـا فـلـمـا مزجتم بَـعُـدتُم بمـقـدارِ الـتـفـاتِـكـم عنَّا

وقلنا لكم: لا تُسْكِنوا القلبَ غيرَنا فـأسـكـنـتـمُ الأغـيـارَ مـا أنـتـمُ منا

قال ابن المقفع: «اعلم أن مِن أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار – الغرام بالنساء» اهـ[٣].

(١) ديوانه «أسلاك الجوهر» (ص٣٠٢).
(٢) انظر: «روضة المحبين» (ص١٨٢-١٩٠).
(٣) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١١٧).



وقال ابن عَقيل الحنبلي: «وما كان العشق إلا لأرعنَ بَطَّالٍ، وقَلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكمية؟ فإنها صارفة عن ذلك»[١].

وقال الأعشى:

أرى سَفَهًا للمرءِ تعليقَ قلبه ... بغانيةٍ خُودٍ متى تَدْنُ تبعُدِ[٢]

والعاشق في عذاب، وإنما يتخايل الفارغ من العشق التذاذ العاشق، وليس كذلك، فإنه كما قيل:

وما في الأرض أشقى من مُحِبٍّ ... وإن وجد الهوَى عذبَ المذاقِ

تراه باكيًا في كل وقتٍ ... مخافةَ فرقةٍ أو لاشتياقِ

فيبكي إن نأَوْا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دَنَوْا خوفَ الفِراقِ

فتسخن عينُه عند التدانِي ... وتسخن عينه عند الفراقِ[٣]

وقال شيبان العذري:

لو حُزَّ بالسيف رأسي في محبتها ... لطار يهوِي سريعًا نحوَها رأسي

وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية، فزارته يومًا، فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق، فحان وقت الظهر، فناداه إنسان الصلاةَ يا أبا الحسن، فقال: رويدك حتى تزول الشمس، أي حتى تقوم الجارية[٤].

---

(١) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ١٢٦).
(٢) «ديوان الأعشى» (ص٤٧).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٢٧٩).
(٤) «المستظرف» (ص٤٣٥).

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإنِّي ليرضيني المَمَرُّ ببابها ... وأقنعُ منها بالشَّتيمةِ والزجْرِ

وقال الإمام ابن الجوزي:

«فمن لم تكن له همة أبية؛ لم يكد يتخلص من هذه البلية؛ فإن ذا الهمة يأنف أن يملك رِقَّه شيء، وما زال الهوى يُذل أهلَ العِز»[(١)].

نونُ الهوانِ من الهوى مسروقةٌ ... فإذا هويتَ فقد لقِيتَ هوانا

وقال عبد الواحد بن نصر:

وقد رام هذا الحبُّ أن يسترِقَّني ... فأنجدني صبرٌ عليَّ جميلُ

وقال ابن المعتز:

وإني وإن حنَّت إليك ضمائري ... فما قدرُ حبي أن يَذِل له قَدْري

وقال أبو فراسٍ الحمدانيُّ - مُفْتخرًا بعُلُوِّ همَّته، عائبًا على مَنْ سفلَتْ همَّتُه، واسترقَّه هواه:

لَقد ضَلَّ مَنْ تَحْوي هَوَاهُ خَرِيدةٌ[(٢)] ... وقَدْ ذَلَّ مَنْ تقضي عليه كِعَابُ[(٣)]

ولكنَّني والحمدُ للهِ حَازمٌ ... أَعِزُّ إذا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقابُ

ولا تَمْلِكُ الحَسْنَاءُ قَلْبيَ كُلَّهُ ... وإنْ شَمَلَتْها رِقَّةٌ وشبابُ

وأَجري فلا أعطي الهَوَى فَضْلَ مِقْوَدي ... وأَهْفُو، ولا يَخْفَى عليَّ صَوَابُ[(٤)]



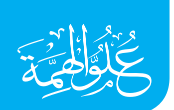
---

(١) «ذم الهوى» (ص٤٧٧).

(٢) **الخريدة**: الحسناء، والجمع خُرَّد وخَرَائِد.

(٣) **الكعاب**: واحدها كاعب.

(٤) «ديوان أبي فراسٍ الحمدانيِّ» (ص١٣).





قال علي بن المقرب العيوني:

عَـدِمْـتُ فـؤادًا لا يبيت وهَـمُّـهُ	**كرامُ المساعي وارتقاءٌ إلى المجدِ**
لعمري مـا دَعْـدٌ بِهَمِّي وإن دنت	**ولالـيَ مـن هند غـرام ولا وَجْـدِ**
ولـكـن وجـدي بـالعلا وصبابتي	**لعارفةٍ أُسْـدي ومكرمة أُجْدي**(١)

وهذا أبو الطيب المتنبي يفخر بعلو همته، واشتغاله بالجد والتشمير فيقول:

لولا العلا لم تَجُبْ بي ما أجوب بها	**وجنـاءُ حَـرْفٌ ولا جَـرْدَاءُ قَيْدُودُ**
وكان أطيبَ مِن سيفي معانقةً	**أشـبـاهُ رونـقِـهِ الـغِـيـدُ الأماليدُ**
لم يترُكِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي	**شيئًا تُتَيِّمه عَيـنٌ ولا جِيدُ**(٢)

فهو رجل فارق الغزلَ وحُبَّ النساء، لأن همته فيما هو أرفع من ذلك.

يقول: «لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها»: لولا حبي للسيادة وتطلعي إلى العلا؛ لما ركبت فرسًا، ولا قطعت أرضًا، ولكنت هانئًا قانعًا في نعيم العيش.

تجوب: تقطع، **وأجوب**: أقطع، **الوجناء**: الناقة عظيمة الوجنات.

والحرف: الناقة الضامرة، **والجرداء**: الفرس أجرد الشعر قصيره. **والقَيدود**: الطويلة.

ويقول: إن **أطيب** أي: خير وأنعم من مضاجعة سيفه مضاجعة النساء الحسان اللائي يشبهن سيفه في بياضهن ونقائهن **(أشباه رونقه)**.

الغيد: جمع غيداء، وهي المرأة الناعمة، وكذلك **الأملود**.

(١) «علي بن المقرب العيوني، حياته وشعره» للدكتور علي الخضيري (ص٢٣٨).
(٢) «ديوان المتنبي» (ص٣٩، ٤٠).







ثم يؤكد لنا بؤسه بقوله: إن الزمان لم يترك في قلبه شيئًا يُتيِّمهُ -وهو تذلُّل الحب- عين حَوْراء ولا عنق حسناء.

التاسع: الانحراف في فهم العقيدة، لاسيما مسألة القضاء والقدر، وعدم تحقيق التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبدعة الإرجاء:

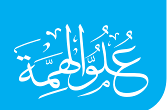
إن الإيمان بالقدر يبعث على الجد والتضحية، ويحض على الأخذ بالأسباب امتثالًا للشرع، مع تعلق القلب بالله وحده تحقيقًا للتوحيد، ويكون الاحتجاج بالقدر في المصائب، والاستغفار عند الذنوب والمعائب، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر:٥٥].

ولقد انحرف بعض الناس في فهم القدر، وحسبوا أن التوكل يكون بقطع الأسباب وتركها بالكلية، وما علموا أن العبد مطالب بأن يحارب القدر بالقدر، فقدر المرض يواجَه بقدر التداوي، وقدر العطش يعالج بقدر الشرب، ولذلك لما قيل لأمير المؤمنين عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أتفر من قدر الله؟ قال: «أفر من قدر الله إلى قدر الله».

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني: «إن كثيرًا من الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا، فإني انفَتَحتْ لي فيه رَوْزَنة -أي: نافذة صغيرة- فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحق للحق، والرجل من يكون منازعًا للقدر، لا من يكون موافقًا للقدر».

لقد كتب مستشرق ألماني شهادة حق قارن فيها بين تأثير عقيدة القضاء والقدر في الرعيل الأول من المسلمين، وبين تأثيرها السلبي فيمن لم يدركوا






حقيقتها من المتأخرين، فقال: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار، وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دورًا كبيرًا في الحروب، إذ حققت نصرًا متواصلًا، لأنها دفعت في الجندي رُوحَ الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سببًا في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي، فقذف به إلى الانحدار، وعَزَلَه وطواه عن تياراتِ الأحداث العالمية»(١).

ففهم هذا المستشرق أن المشكلة ليست في الاعتقاد في القدر، ولكن في سوء فهم المتأخرين له.

وقد بيَّن الشاعر محمد إقبال أن المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي، ومن هذا القرآن نفسِه ملك المسلمون الآفاق، وقد ركنوا اليوم إلى القدر، وكان عزمهم من قبل قَدَرًا، وبدَّلت العبوديةُ النفوسَ، فأصبحت هذه النفوس ترى كل الحسَن الذي كان لديها قبيحًا، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثريّا
إلى التقدير ردوا كل سعي ... وكان زَماعُهم(٣) قدرًا خفيا
تبدلت الضمائر في إسار(٤) ... فما كرهوه صار لهم رَضِيًّا

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين

(١) انظر: «الإسلام قوة الغد العالمية» لباول شمتز (ص٧٨).
(٢) في ديوانه: «ضرب الكليم» (ص٩).
(٣) **الزَّماع**: السرعة والمضاء في الأمر، والعزم عليه.
(٤) **الإسار**: ما يُقَيَّد به الأسير.





بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر(١).

سئل سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوم يلبسون الشعر ويحجون، ولا يتزودون، وأن من حمل الزاد فليس بمؤمن، فقال: «كذبوا، هؤلاء أعداء السنة، لا تجالسوهم، ولا تحدثوهم»(٢).

وقال ابن الجوزي: «لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي؟، لقالوا: قد أشركتَ، ولو سُئِلوا عمن يخرج إلى التجارة، لقالوا: ليس بمتوكل ولا مُوقِن...».

قال الشاعر:

ألا لا يذم الدهرَ من كان عاجزًا ... ولا يعذل الأقدارَ من كان وانيا
فمن لم تبلِّغه المعاليَ نفسُه ... فغيرُ جديرٍ أن ينالَ المعاليا

وقال ابن نُباتة:

حاوِل جسيماتِ الأمور ولا تقل ... إن المحامدَ والعلى أرزاقُ
وارغب بنفسك أن تكون مقصرًا ... عن غايةٍ فيها الطِّلابُ سباق(٣)

العاشر: الفناء في ملاحظة حقوق الأهل والأولاد:

واستغراق الجهد في التوسع في تحقيق مطالبهم نظرًا إلى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وإن لأهلك عليك حقًّا»**، مع الغفلة عن قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وإن لربك عليك حقًّا»**،

(١) انظر: «الانحرافات العقدية والعلمية» (١/ ٤٦٧).
(٢) «الثقات» لابن حبان (٨/ ٢٦٩).
(٣) **الطِّلابُ**: المطلوب، و**السِّباق**: الإسراع إلى الشيء.





وقوله: «**فأعط كل ذي حق حقه**»(١)، وقد عَدَّ القرآن الكريم الأهل والأولاد أعداءً للمؤمن إذا حالوا بينه وبين طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، روى ابن جرير عن عطاء بن يسار في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ [التغابن:١٤]. قال: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكَوْا إليه، ورقَّقُوه، فقالوا: «إلى مَن تدعُنا؟»، فيرق، ويقيم، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾.

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي:

لا يدرك الحكمةَ مَنْ عُمُرَه	يكدحُ في مصلحةِ الأهلِ
ولا ينال العلمَ إلا فتًى	خالٍ من الأفكار والشغل
لو أن لقمانَ الحكيم الذي	سارت به الركبانُ بالفضلِ
بُلِي بفقرٍ وعِيالٍ لما	فَرَّق بين التِّبنِ والبَقْلِ(٢)

الحادي عشر: المناهج التربوية والتعليمية الهدَّامة

التي تثبط الهمم، وتخنق المواهب، وتكبت الطاقات، وتخرب العقول، وتنشئ الخنوع، وتزرع في الأجيال ازدراء النفس، وتعمق فيها احتقار الذات، والشعور بالدونية، كقول بعض الصوفية: «الفقير هو الذي يأكله القمل، ولا يكون له ظفر يحك به نفسه»، وقولِ ثانٍ: «الصوفي: من يرى دمه هدرًا، ومُلكَه مباحًا»، وقولِ ثالث: إنه ما سُرَّ في إسلامه إلا ثلاث مرات: «كنت في سفينة، فلم

(١) أصل الحديث رواه البخاري، والترمذي، والبيهقي.
(٢) «الكشكول» (ص٣٠٣).



أجد أحقر مني فيها، وكنت مريضًا في المسجد، فجرَّني المؤذن إلى خارجه، وكان عليَّ فرو فنظرت فيه، فلم أميز بين شعره، وبين القمل من كثرته»!

وجاء رجلًا من هذا الصنف مُسترشِدٌ يطلب منه أن يدله على طريق تطمئن فيه نفسه، ويهدأ قلبه، فإذا به يقول له: «اذهب الساعة إلى الحجام، واحلق رأسك ولحيتك، وانزع عنك هذا اللباس، وابرز بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة، واملأها جَوْزًا، واجمع حولك صبيانًا، وقل بأعلى صوتك: يا صبيان، من يصفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل إلى سوقك الذي تُعَظَّم فيه...»[1].

ومن ذلك: منهج بعض الصوفية في الإعراض عن علوم القرآن والسنة، وترهيب مريديهم من طلب العلم الشرعي.

قال أبو سعيد الكندي: كنت أنزل رباط الصوفية، وأطلب الحديث في خُفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يومًا من كُمِّي، فقال لي بعض الصوفية: «استر عورتك».



وروى ابن الجوزي عن جعفر الخالدي قال: لو تركني الصوفية لجئتكم بأسانيد الدنيا، لقد مضيت إلى عباس وأنا أحدث، فكتبت عنه مجلسًا واحدًا، وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية، فقال: «أيشِ هذا معك»؟ فأريته إياه، فقال: «ويحك تدع علم الخِرَق، وتأخذ علم الورق، ثم مزَّق الأوراق، فدخل كلامه في قلبي، فلم أعد إلى عباس».

(١) «تلبيس إبليس» (ص٣٩٩).




وقال أبو يزيد البسطامي: «أشد المحجوبين عن الله ثلاثة: الزاهد بزهده، والعابد بعبادته، والعالم بعلمه».

وقال أبو بكر الـوراق: «آفة المريد ثلاث: التزويج، وكتابة الحديث، والأسفار».

وقال بعضهم: «إذا طلب الرجل الحديث، أو سافر في طلب المعاش، أو تزوج، فقد ركن إلى الدنيا».

وقال الحسين بن أحمد الصفار: كان بيدي محبرة، فقال لي الشبلي: «غَيِّبْ سوادَك عني، يكفيني سوادُ قلبي»[١].

وعن الجنيد قال: دخلت على بعض أكابر الطريق فوجدته يكتب، فقلت له: «إلى متى هذه الكتابة، فمتى العمل؟» فقال: «يا أبا القاسم: أوليس هذا عمل؟ فسكتُّ، ولم أدرِ بماذا أجيبه»[٢].

وقال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال أبو حامد الطوسي: اعلم أن ميل أهل التصوف: إلى العلوم الإلهية دون التعليمية، ولذلك لم يتعلموا ولم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون. بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدات بمحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة، وذلك بأن يقطع الإنسان همه عن الأهل والمال والولد والعلم، ويخلو بنفسه في زاوية ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة قرآن ولا بالتأمل



(١) «تلبيس إبليس» (ص٤٦٣).
(٢) «الكشكول» (ص١٧٤).

في نفسه، ولا يكتب حديثًا ولا غيره، ولا يزال يقول: الله الله الله، إلى أن ينتهي إلى حال، يترك تحريك اللسان، ثم يُمحى عن القلب صورةُ اللفظ.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قلت: عزيزٌ عليَّ أن يصدر هذا الكلام من فقيه، فإنه لا يخفى قبحه، فإنه على الحقيقة طَيٌّ لبساط الشريعة التي حثت على تلاوة القرآن وطلب العلم. وعلى هذا المذهب فقد رأيت الفضلاء من علماء الأمصار، فإنهم ما سلكوا هذه الطريق، وإنما تشاغلوا بالعلم أولًا، وعلى ما قد رتب أبو حامد تخلو النفس بوساوسها وخيالاتها، ولا يكون عندها من العلم ما يطرد ذلك فيلعب بها إبليسُ أيَّ ملعب، فيريها الوسوسة محادثة، ومناجاة. ولا ننكر أنه إذا طهر القلب انصبت عليه أنوار الهدى، فينظر بنور الله بيد أنه ينبغي أن يكون تطهيره بمقتضى العلم لا بما ينافيه، فإن الجوع الشديد والسهر وتضييع الزمان في التخيلات أمور ينهى الشرع عنها، فلا يستفاد من صاحب الشرع شيء ينسب إلى ما نَهى عنه، كما لا تستباح الرخص في سفر قد نهى عنه، ثم لا تنافي بين العلم والرياضة، بل العلم يُعَلِّم كيفية الرياضة، ويعين على تصحيحها»[(١)].



وعقد الإمام ابن الجوزي أيضًا فصلًا في كتابه «تلبيس إبليس» عنونه: «ذكر تلبيس إبليس على جماعة من القوم في دفنهم كتبَ العلم، وإلقائها في الماء، فكان مما قال: «قد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم، ثم لَبَّس عليهم إبليس وقال: ما المقصود إلا العمل، ودفنوا كتبهم.

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص٤٥٥)، وانظر: «أصول بلا أصول» للمؤلف - ط، دار التوحيد للتراث (ص٢٩٤، ٢٩٥).




فقد روي أن أحمد بن أبي الحواري رمى كتبه في البحر. وقال: نعم الدليل كنتِ، والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال. ولقد طلب أحمد بن أبي الحواري الحديث ثلاثين سنة، فلما بلغ منه الغاية حمل كتبه إلى البحر فغرَّقها. وقال: يا علم لم أفعل بك هذا تهاونًا ولا استخفافًا بحقك، ولكني كنت أطلبك لأهتدي بك إلى ربي، فلما اهتديت بك استغنيت عنك»(١).

... وقد روى المروزي عن أحمد بن حنبل أنه سئل عن رجل أوصى أن تُدفَن كتبه، فقال: «ما يعجبني أن يُدفن العلم».

وقال المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: «لا أعرف لدفن الكتب معنى»(٢).

«... وعن أبي العباس بن الحسين البغدادي قال: سمعت الشبلي يقول: أعرف من لم يدخل في هذا الشأن حتى أنفق جميع ملكه، وغَرَّقَ في هذه الدجلة سبعين قِمَطْرًا(٣) مكتوبًا بخطه، وحفظ وقرأ بكذا وكذا رواية، يعني بذلك نفسه.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد سبق القول بأن العلم نور، وأن إبليس يحسِّن للإنسان إطفاء النور، ليتمكن منه في الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل. ولما خاف إبليس أن يعاود هؤلاء مطالعة الكتب، فربما استدلوا بذلك على مكايده، حسَّن لهم دَفْنَ الكتب وإتلافها، وهذا فعل قبيح محظور وجهل بالمقصود بالكتب،



(١) نفسه (ص٤٥٨).
(٢) نفسه (ص٤٦٢).
(٣) القِمَطْر: ما تُصان فيه الكتب.

وبيان هذا أن أصل العلوم: القرآن والسنة، فلما علم الشرع أن حفظهما يصعب؛ أمر بكتابة المصحف وكتابة الحديث، فأما القرآن: فإن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذا نزلت عليه آية دعى بالكاتب فأثبتها، وكانوا يكتبونها في العُسُب[١] والحجارة وعظام الكتف، ثم جَمَع القرآن بعده في المصحف أبو بكر صونًا عليه، ثم نسخ من ذلك عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وبقية الصحابة. وكل ذلك لحفظ القرآن لئلا يشذ منه شيء.

وأما السنة: فإن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَصَرَ الناسَ في بداية الإسلام على القرآن، وقال: «**لا تكتبوا عني سوى القرآن**»، فلما كثرت الأحاديث، ورأى قلة ضبطهم، أذن لهم في الكتابة.

فروي عَنْ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أنه شكى إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قلة الحفظ فقال: «**ابسط رداءك**» فبسط رداءه وحدثه النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وقال: «**ضُمَّه إليك**» فقال أبو هريرة: فلم أنس بعد ذلك شيئًا مما حدثنيه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي رواية أنه قال: «**استعن على حفظك بيمينك**» يعني بالكتابة.

وروى عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عبدُ الله بن عمرو أنه قال: قَيِّدُوا العلمَ، فقلت: يا رسول الله وما تقييده؟ قال: «**الكتابة**».

وروى عنه أيضًا رافعُ بن خديج قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نسمع منك أشياء أفنكتبها؟ قال: «**اكتبوا ولا حرج**».

(١) **العُسُب**: جمع العَسيب: وهو جريدة النخل المستقيمة يُكْشَط خوصُها.



قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أن الصحابة ضبطت ألفاظ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحركاته وأفعاله، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا. وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَلِّغوا عني**» وقال: «**نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**»، وتأدية الحديث كما يسمع لا يكاد يحصل إلا من الكتابة؛ لأن الحفظ خَوَّان.

وقد كان أحمد بن حنبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يحدث بالحديث، فيقال له: أَمْلِهِ علينا. فيقول: لا، بل من الكتاب.

وقد قال علي بن المديني: أمرني سيدي أحمد بن حنبل أن لا أحدث إلا من الكتاب، فإذا كانت الصحابة قد روت السنة، وتلقتها التابعون، وسافر المحدثون، وقطعوا شرق الأرض وغربها لتحصيل كلمة من ههنا وكلمة من هنا، وصححوا ما صح، وزيفوا ما لم يصح، وجرحوا الرواة، وعدلوا، وهذبوا السنن، وصنفوا، ثم من يغسل ذلك فيضيع التعب، ولا يعرف حكم الله في حادثة، فما عوندت الشريعة بمثل هذا. فهل لشريعة من الشرائع قبلنا إسناد إلى نبيهم، وإنما هذه خَصيصة لهذه الأمة»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أكبر المعاندة لله عَزَّوَجَلَّ الصد عن سبيل الله، وأوضح سبيل الله العلم؛ لأنه دليل على الله، وبيان لأحكام الله وشرعه وإيضاح لما يحبه ويكرهه، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه، ولكن الناهين عن ذلك ما تفطنوا لما فعلوا.

(١) نفسه (ص٤٥٨-٤٦١) بتصرف.



أخبرنا ابن حبيب قال، نا ابن أبي صادق، نا ابن باكويه قال: سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول: «اشتغلوا بتعلم العلم ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي والكاغد في حزة سراويلي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تفلح، ثم احتاجوا إليَّ بعد ذلك».

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: «هذه سُرُج الإسلام». وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه، فقال له رجل: إلى متى يا أبا عبد الله؟ فقال: «المحبرة إلى المقبرة»[(١)].

وأخطر من المناهج الصوفية وأضرُّ في واقعنا المعاصر:

المناهج التربوية والتعليمية التي ارتضت العالمانية دينًا، فراحت تسمم آبار المعرفة التي يستقي منها شباب المسلمين، لتخرج أجيالًا مقطوعة الصلة بالله، تبتغي العزة في التمسح على أعتاب الغرب، وتأنف من الانتساب إلى الإسلام.

الثاني عشر: توالي الضربات، وازدياد اضطهاد العاملين للإسلام:

مما ينتج الشعور بالإحباط في نفوس الذين لا يفقهون حقيقة البلاء، وسنن الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه، كما ينتج عنه استطالة الطريق فيضعف السير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعزي أصحابه المضطهدين في مكة بتبشيرهم بأن المستقبل للإسلام، وبأن العاقبة للمتقين.



---

(١) نفسه (ص ٤٦١، ٤٦٢).

وصح عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو متَوسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان مَن قبلكم، يُؤخذ الرجل، فيُحفَر له في الأرض، فيُجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضَع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[(١)].

أخي ستبيد جيوشُ الظلام ... ويُشرق في الكون فجرٌ جديدْ
فأطْلِقْ لِرُوحك إشراقَها ... تَرَ الفجرَ يرمقُنا مِن بعيد



(١) انظر: «فتح الباري» (٧/ ١٦٤-١٦٧).



الفصل الثالث

مِن أسبَابِ الارتقاءِ بالهِمَّةِ




مِن أسبَابِ الارتقاءِ بالهِمَّةِ



الأول: العلم والبصيرة:

فالعلم يصعد بالهمة، ويرفع طالبه عن حضيض التقليد، ويُصَفِّي النية، ذكر القُصَّاص أن رجلًا خطب امرأة ذات منصب وجمال، فأبت؛ لفقره، وقلةِ حَسَبه، ففكر بأيِّ الأمرين ينالها: أبالمال أم الحسب؟ فاختار الحسب، وطلب له العلم، حتى أصبح ذا مكانة، فَبَعَثَتْ إليه المرأة تعرِضُ نفسها، فقال: «لا أوثر على العلم شيئًا».

وكان والد الإمام أبي حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ يغزل الصوف، ويبيعه في دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: إنَّ لي لتأسفًا عظيمًا على تعلم الخطِّ، وأشتهي استدارك ما فاتني في ولديَّ هذين، فعلمهما، ولا عليك أن تُنفِدَ في ذلك جميع ما أخلفه لهما.

فلما مات أبوهما أقبل صديقه على تعليمهما إلى أن أفنى ذلك النزر اليسير الذي كان خلَّفه لهما أبوهما، فتعذر عليه القيام بقُوتِهما فقال لهما: «اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فآويكما به، وأصلَح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسةٍ، فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما.



ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتها وعلو درجتها، وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»[(١)].

والعلم هو مفتاح السيارة الذي يتسبب في اشتعال الوقود في «غرفة الاحتراق»، فينتهي إلى أن يولِّد حركة وانبعاثًا، وما من عمل يعمله الإنسان إلا وتسبقه إرادة تؤزه عليه أزًّا، والعلم يبصِّر الإنسانَ بفضائل الأعمال والترغيب في ثوابها، والترهيب من تضييعها، فتسمو همته إلى التسابق في الخيرات، والمنافسة في الطاعات.

روى مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: ذهب أهل الدُّثُور بالدرجات العلا والنعيم المقيم. فقال: «**وما ذاك؟**» قالوا: يُصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا أعلمكم شيئًا تُدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تسبِّحون، وتكبِّرون، وتحمَدون دُبُرَ كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة**»، قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال

---

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ١٠٢)، وتؤثَر هذه العبارة عن أمير المؤمنين في الحديث أبي الحسن الدارقطني رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»، فطالب العلم قد يداخل نيته طلبُ دنيا أو تصدُّر، فإذا أوغل في العلم، وتمعَّن في النصوص والسِّيَر، عالجت ما في نفسه، وأخذت بيده إلى الإخلاص والتجرد.

بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**»[١].

ولما سمع عمير بن الحُمام الأنصاري رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول يوم بدر: «**قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض**»، قال عمير: يا رسول الله، جنةٌ عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**». قال: بَخٍ بَخٍ. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يحملك على قول: بخٍ بخٍ؟**» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءَة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**». فأخرج تمراتٍ من قَرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياةٌ طويلةٌ. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل[٢].

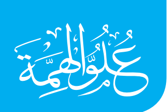
وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما طُعِن حَرَامُ بنُ مِلْحان -وكان خاله- يومَ بئر مَعُونَةَ قال بالدم هكذا[٣]، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: «فُزْتُ وربِّ الكعبة»[٤][٥].



لقد سرت عدوى هذا اليقين الجازم إلى قلب قاتِلِه، وظلت هذه الجملة في مثل هذا الموقف تلح على تفكيره: مقتول وفائز؟ حتى قال بعد ما أسلم: مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلًا منهم، فسمعته يقول: «فزت والله»، فقلت في

---

(١) تقدم (ص٢٤٤).
(٢) رواه الإمام أحمد، ومسلم.
(٣) قال بالدم هكذا: هو من إطلاق القول على الفعل، وقد فسره بأنه نضح الدم.
(٤) فزت ورب الكعبة: أي بالشهادة.
(٥) رواه البخاري رقم [٤٠٩٢].




نفسي: ما فاز؟ أليس قد قتلتُه؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة، فقلت: «فاز لعمر الله»[(١)].

★ والعلم يورث صاحبه الفقه بمراتب الأعمال، وأولياتها، فلا ينشغل بنفل عن فرض، ولا بمفضولٍ أقلَّ ثوابًا عن فاضل أكثر ثوابًا، ويتقي فضول المباحات التي تشغله عن التعبد بالطاعات، كفضول الأكل والنوم والكلام، ويراعي التوازن والوسطية بين الحقوق والواجبات امتثالًا لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطِ كل ذي حق حقه**»، ويبصره بحيل إبليس - وتلبيسه عليه كي يحول بينه وبين ما هو أعظم ثوابًا، قال أبو سليمان: «يجيئك -أي إبليس- وأنت في شيء من الخير، فيشير لك إلى شيء من الخير دونه ليربح عليك شَعيرة»[(٢)].

قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ: «لم يقضِ حقَّ العلم، بل لم يدر ما شرف العلم ذلك الذي يطلبه؛ لينال به رزقًا، أو ينافس فيه قرينًا، حتى إذا أدرك وظيفة، أو أنس من نفسه الفوز على القرين؛ أمسك عنانه ثانية، وتنحى عن الطلب جانبًا.

وإنما ترفع الأوطان رأسها، وتبرز في مظاهر عزتها بهمم أولئك الذين يُقبلون على العلم بجد وثبات، ولا ينقطعون عنه إلا أن ينقطعوا عن الحياة»[(٣)].

---

(١) «أسد الغابة» (١/ ٣١٥) ترجمة جبار بن سلمى.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) جزء من آخر مقال كتبه الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ نشره في مجلة «لواء الإسلام» عدد فبراير ١٩٥٨م، قبل وفاته بقليل.

الثاني: إرادة الآخرة، وجعل الهموم همًّا واحدًا:

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت همَّه الآخرةُ؛ جمع الله له شملَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومن كانت همَّه الدنيا، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له**»(١).

الثالث: الاجتهاد في «حصر»(٢) الذهن، وتركيز الفكر في معالي الأمور:

والفناء فيها، والاستغراق فيما هو بصدده استغراقًا يُلهيه عما عداه. ولنا في أئمة السلف والخلف أحسن الأسوة في ذلك، قال الحسن: «نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل».

---

(١) رواه ابن ماجه عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [٩٤٨].

(٢) قال: «وليم مولتون مارستن» -المتخصص في علم النفس-:

«والعقل الإنساني يصبح أداة مدهشة الكفاءة إذا ركزَ تركيزًا قويًّا حادًّا»، ونقل عن وليم جيمس وهو أبو علم النفس الحديث أنه قال: «إن الفرق بين العباقرة وغيرهم من الناس العاديين ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطرية للعقل، بل إلى الموضوعات والغايات التى يوجهون إليها هممهم وإلى درجة التركيز التي يسعهم أن يبلغوها».

ثم يقول: «وليم مولتون»: «وهذه القدرة تكتسب بالمرانة، والمرانة تتطلب الصبر فإن الانتقال من الشرود إلى حصر الذهن حصرًا بيِّنًا محكمًا هو ثمرة الجهد المُلِحِّ، فإن استطعت أن ترد عقلك مرة بعد أخرى وخمسين مرة، ومئة مرة إلى الموضوع الذي اعتزمت معالجته فإن الخواطر التي تتنازعك لا تلبث أن تخلي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار ثم تَلقى نفسك آخر الأمر قادرًا على حصر ذهنك بإرادتك فيما تختار» اهـ. نقلًا من «روح الصلاة في الإسلام» للشيخ عفيف طبارة (ص٣٢).







باع ابن عمر حمارًا، فقيل له: لو أمسكته؟ فقال: «لقد كان لنا موافقًا، ولكنْ ذهب بشُعبة من قلبي، فكرهت أن أشغل قلبي بشيء».

وقال قتادة بن دعامة يومًا لغلامه: «يا غلام ناولني نعلي، فقال: نعلك في رجلك».

وعن محمد بن أحمد الواعظ قال: قام أبو بكر الباغندي يصلي، فكبر، ثم قال: «حدثنا محمد بن سليمان لوين»، فسبحنا به، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال عليُّ بن الحسين بن شقيق: «قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، أو ذاكرته، فمازلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح».

وقال الحافظ عبد القادر الرهاوي تلميذ الإمام الحافظ أبي طاهرٍ السِّلَفي (ت:٥٧٦هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حاله لما شَرُفَ به الثغر السكندري:

«وبلغني أن مدة مقامه بالإسكندرية ما خرج منها إلى بستان ولا فُرجة سوى مرة واحدة، بل كان ملازمًا مدرسته، وما كنا ندخل عليه إلا نراه مطالعًا في شيء.. وإنه ما رأى الإسكندرية إلا من طاقةٍ كانت في داره».

أما عالم الحنفية في زمانه محمد بن أحمد أبو جعفر النسفي، وكان فقيرًا متزهدًا، فما أعجبَ خبره!

فقد بات رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليلةً قَلِقًا لما عنده من الفقر والحاجة، فعرض له فكر في فرع من الفروع كان أشكل عليه، فانفتح له؛ فقام يرقص ويقول: «أين الملوك؟» فسألته امرأته عن خبره، فأعلمها بما حصل له، فتعجبت من شأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.





قال يوسف المغامي: طرقت «عبد الملك بن حبيب» يومًا بغَلَس، حرصًا على الاقتباس منه، واستأذنت عليه، فأذن لي، فدخلت. فإذا به جالس في مجلسه، عاكفًا على الكتب، قد أحاطت به، فينظر فيها والشمعة بين يديه تتقد، وطويلة عليه، فسلمت، فرد عليّ، وقال لي: يا يوسف، أَوَقَدْ انسلخ الصبح، قلت: نعم، وقد صلينا. فقام إلى صلاة الصبح، فصلاها، ثم رجع إلى مقعده، وقال: «يا يوسف. ما صليتُ هذه الصلاةَ إلا بوضوء العشاء الآخرة!» توفي في سنة ٢٣٨هـ.

قال إبراهيم الحربي (ت:٢٨٥): (كان يكون قميصي أنظف قميص، وإزاري أوسخَ إزار، ما حدثت نفسي أنهما يستويان قط، وفرد عَقِبي مقطوع، وفرد عقبي الآخر صحيح، أمشي بهما، وأدور بغداد كلها، هذا الجانب وذاك الجانب لا أحدث نفسي أني أُصْلِحها...).

وكان الخليل بن أحمد يخرج من منزله، فلا يشعر إلا وهو في الصحراء، ولم يُرِدْها من شغله بالفكر.

وكان يدخل الداخل إلى أبي تمام الشاعر، وهو يعمل الشعر، فلا يشعر به.

وكانت لمحمد بن سحنون سُرِّيَّة يقال لها «أم مدام»، فكان عندها يومًا، وقد شُغِل في تأليف كتابٍ إلى الليل، فحضر الطعام، فاستأذنته، فقال لها: «أنا مشغول الساعة»، فلما طال عليها، جعلت تُلقمه الطعامَ حتى أتت عليه، وتمادى هو على ما هو فيه إلى أن أُذِّن لصلاة الصبح، فقال: «شُغِلْنا عنكِ الليلةَ يا أم مدام، هاتِ ما عندكِ»، فقالت: قد والله يا سيدي ألقمتُه لك، فقال لها: «ما شعرت بذلك».



وكان شيخ الإسلام الإمام القدوة المجتهد أبو إسحاق الشيرازي (ت:٤٧٦هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ شديد الفقر، خشن العيش، رافضًا للدنيا، رُوِي أنه نزع عمامته، -وكانت بعشرين دينارًا- وتوضأ في دجلة، فجاء لِصٌّ، فأخذها، وترك عمامةً رديئة بدلها، فطلع الشيخ، فلبسها، وما شعر حتى سألوه وهو يدرس، فقال: «لعلَّ الذي أخذها محتاج».

وذكر السبكي في «طبقات الشافعية» عن أبيه الإمام تقي الدين أنه: كان من الاشتغال على جانب عظيم بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره، كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر، فيجد أهل البيت قد عملوا له فرُّوجًا فيأكله، ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب، فيأكل شيئًا حُلْوًا لطيفًا، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذُكِرَ لي أن والده قال لأمِّه: «هذا الشاب ما يطلب قطُّ درهمًا ولا شيئًا، فلعله يرى شيئًا يريد أن يأكله، فضعي في منديله درهمًا أو درهمين»، فوضعت نصف درهم، قالت الجدة: فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه، والنصف فيه، إلى أن رمى به إليَّ، وقال: «أيشِ أعمل بهذا؟ خذوه عني»[1].

وكان الإمام ابن مالك النحوي -صاحب «الألفية» وغيرها- كثير المطالعة، سريع المراجعة، لا يكتب شيئًا من محفوظه حتى يراجعه في محله، ولا يُرى إلا وهو يصلي أو يتلو أو يصنف أو يقرأ.

(١) «طبقات الشافعية» (١٠/ ١٤٤).

حُكِيَ أنه توجه يومًا مع أصحابه للفُرجة بدمشق، فلما بلغوا الموضع الذي أرادوه، غفلوا عنه بسُويعة، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبًّا على أوراقه.

قلبٌ يُطل على أفكاره، ويَدٌ ... تُمضي الأمورَ، ونفسٌ لهوُها التعبُ

والشيخ أحمد بن علي نجم الدين ابن الرفعة: «كان كثير الصدقة، مُكِبًّا على الاشتغال، حتى عرض له وجع المفاصل، بحيث كان الثوب إذا لمس جسمه آلمه، مع ذلك معه كتاب ينظر إليه، وربما انكبَّ على وجهه وهو يُطالع»، وهو الذي قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية بعد مناظرة بينهما: «رأيت شيخًا تتقاطر فروع الشافعية من لحيته»، وقال الإسنوي عنه: «ما أخرجَتْ مصر بعد ابن الحدَّاد أفقه منه» اهـ[(١)].

وقال العلامة بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شيخه العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان متقللًا من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية».

الرابع: كثرة ذكر الموت:

لأنه يدفع إلى العمل للآخرة، والتجافي عن دار الغرور، ومحاسبة النفس، وتجديد التوبة، وإيقاظ العزم على الاستقامة، والمسارعة إلى الخيرات.

عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ بصر بجماعة فقال: «**علام اجتمع عليه هؤلاء؟**» قيل: «على قبر يحفرونه»، قال: ففزع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر،



(١) «الدرر الكامنة» (١/ ٣٠٦).

فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال: «**أي إخواني! لمثل هذا اليوم فأعِدُّوا**»(١).

إن من يستحضر الموت يجتهد في الطاعة، ويبادر إلى العمل الصالح بغير تسويف:

ولا تُرْجِ فعلَ يومٍ إلى غدٍ ... لعل غدًا يأتي وأنت فقيدُ

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مُؤَمِّل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه، وهو لا يدري أأرضى الله أم أسخطه، وأبكاني فراق الأحبة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزبه، وهول المُطَّلَع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله، يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا يدري إلى الجنة أو إلى النار».

وقيل لبعض الزهاد: «ما أبلغ العظات؟» قال: «النظر إلى الأموات»، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأوزاعي: «أما بعد، فإنه مَن أكثر ذكر الموت، رضي من الدنيا باليسير».

وعن عطاء قال: كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ويبكون.

وكان يقول صالح المري: «إنَّ ذكر الموت إذا فارقني ساعة فَسَد عليَّ قلبي»، وقال الدقاق: «من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة: تعجيل التوبة، وقناعة القلب،

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ»، وابن ماجه، وأحمد، وحسنه في «الصحيحة» رقم [١٧٥١].

ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوجل بثلاثة: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة».

وعن مطرف قال: «إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه».

وقال عمر بن عبد العزيز: «من عرف الله، كيف عصاه؟! ومن عرف الشيطان كيف أطاعه؟! ومن أيقن بالموت، كيف يَهْنِيه العيش؟!».

الموتُ أفنى من مضى	والموتُ يُفني من بَقِي
والموت يجمع في الثرى	بين المنعَّم والشقي
يا من أسا فيما مضى	كن محسنًا فيما بقي

إن مشاهدة المحتَضَرين، وملاحظة سكرات الموت ونزعاته، وتأمل صورة الميت بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

تزود قرينًا من فِعالك إنما	قرين الفتى في القبر ما كان يعملُ
ألا إنما الإنسان ضيفٌ لأهله	يقيم قليلًا عندهم ثم يرحلُ

وذكر عن الحسن البصري أنه دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: «الطعام يرحمكم الله»، فقال: «يا أهلاه! عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله رأيتُ مصرعًا لا أزال أعمل له حتى ألقاه».







دخل الدنيا أناسٌ قبلنا رحلوا عنا وخَلَّوْها لنا
فنزلناها كما قد نزلوا ونُخليها لقومٍ بعدنا

وقال اللبيدي: وجدت بعد موت أبي إسحاق الجبنياني رَحِمَهُ ٱللَّهُ رقعة تحت حصيره مكتوبة بخطه: رجل وقف له هاتف، فقال له: «أحسِن، أحسن عملك، فقد دنا أجلك»، فقال لي ولده عبد الرحمن: «إنه كان إذا قصَّر في العمل، أخرج الرقعة، فنظر فيها، ورجع إلى جِدِّه»(١).

ما زال يلهج بالرحيل وذِكره حتى أناخ ببابه الجمَّالُ
فأصابه مستيقظًا متشمرا ذا أُهْبةٍ لم تُلْهِهِ الآمال

الخامس: الدعاء:

لأنه سنة الأنبياء، وجالب كل خير، وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعجَزُ الناسِ من عجز عن الدعاء**» الحديث(٢)، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا تمنَّى أحدُكم، فليُكثر، فإنما يسأل ربه**»(٣)، ولما رأى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ابن عباس ما دل على ذكائه دعا له: «**اللهم فقهه في الدين، وعلِّمه التأويل**»(٤)، وكان من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقب الصلاة: «**اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»(٥).

إذا لم يكن من الله عَوْنٌ للفتى فأولُ ما يجني عليه: اجتهادُه

(١) «ترتيب المدارك» (٢/ ٥١٦).
(٢) رواه الطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «الشعب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم [١٠٥٥].
(٣) رواه ابن حبان وصححه، والطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح» اهـ. من «المجمع» (١٠/ ١٥٠).
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه أبو داود، والنسائي، وصححه النووي.







السادس: التحول عن البيئة المثبطة:

إن للبيئة المحيطة بالإنسان أثرًا جسيمًا لا يخفى، فإذا كانت بيئة مثبطة داعية إلى الكسل والخمول وإيثار الدون فإن على المرء أن يهجرها إلى حيث تعلو همته، كي يتحرر من سلطان تأثيرها، وينعم بفرصة الترقي إلى المطالب العالية[١].

تقول ابنة السعدي وهْيَ تلومني	أما لك عن دار الهوان رحيلُ
فإن عناء المستنيم إلى الأذى	بحيث يذل الأكرمون طويل
وعندك محبوك السراة مُطَهَّمٌ	وفي الكف مطرور الشباة صقيل[٢]

وأشد الناس حاجة إلى تجديد البيئة المحيطة، وتنشيط الهمة، الحديث العهد بالتوبة، فإن من شأن التحول من بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة أن ينسيه ما يجذبه إلى صحبة السوء وأماكن السوء، فيجتمع قلبه، ويلتئم شمله، وتتوحد همته، وتتوجه بصدق وعزم إلى أسلوب من الحياة جديد، وهذا عين ما أشار به «العالم» الواعي على قاتل المائة[٣]، حين شفَّع قوله: «نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة» بقوله: «انطلق إلى أرضِ كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء»، ولما جاءه الموت، واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، كان قُربه إلى القرية الصالحة بالنسبة إلى بلد السوء سببًا في قبض ملائكة الرحمة إياه، ففي بعض الروايات: «فكان إلى القرية الصالحة أقربَ بشبر فجُعل من أهلها»، وفي رواية: «فأوحى الله تعالى إلى هذه



---

(١) والهجرة تكون فرضًا واجبًا إذا كانت من دار الكفر إلى دار الإسلام.

(٢) **فرس محبوك**: قوي شديد، **سَراة الفرس**: أعلى متنه، **والمطهَّم**: التام المتناهي في الحسن، **والمطرور**: ذو المنظر والرُّواء والهيئة الحسنة، **والشباة**: حَدُّ طَرَفِ السيف، **والصقيل**: المجلوُّ.

(٣) في الحديث المتفق عليه.




أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرَّبي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له» وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها».

ولعل هذا المعنى كامن أيضًا في تشريع نفي الزاني غير المحصن وتغريبه سنة بعيدًا عن وطنه، كي تجتمع عليه عقوبة بدنية بالجلد، وعقوبة قلبية بالنفي، وفي الوقت نفسه يُبْعَد عن مسرح الجريمة كي ينسى ذكراها، ولا يبقى حيث يعامل باحتقار وإهانة، ويتعرض للمضايقات، ويُعْطَى فرصة كافية لاستئناف التوبة الصادقة والحياة الكريمة.

وتأمَّل أثر التحول عن البيئة المشركة الوثنية الفاسدة ثم الانغماس (القسري) في بيئة التوحيد والطاعة وحسن الخلق، كيف أثرت أعمق الأثر في «ثُمامة بن أُثال» فكان منه العجب:

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بَعَثَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خيلًا قِبل نَجْدٍ فجاءت برجلٍ من بني حَنِيفَةَ يُقال له ثُمامة بنُ أُثالٍ سيدُ أَهْلِ اليَمَامَةِ فَرَبَطُوهُ بِسَاريةٍ مِنْ سَوَارِي المسجد. فَخَرَجَ إليهِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «**ماذا عندك؟ يا ثمامة**»[(١)] فقال: عندي، يا محمد! خيرٌ. إن تَقْتُل تقْتُل ذَا دَمٍ[(٢)].

(١) أي: ماذا عندك من الظن بي أن أفعل بك؟

(٢) (إن تقتل تقتل ذا دم) اختلفوا في معناه. فقال القاضي عياض في المشارق، وأشار إليه في شرح مسلم: معناه إن تقتل تقتل صاحبَ دم، لدمه موقع يَشتفي بقتله قاتُله، ويدرك قاتله به ثأرَه، أي لرياسته وفضيلته. وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم. وقال آخرون: معناه تقتل مَن عليه دم مطلوب به، وهو مستحق عليه. فلا عَتْبَ عليك في قتله.
ونلاحظ أن ثمامة أجاب في اليوم الأول فقدَّم القتل على العفو، وفي اليومين التاليين بدأ بالإنعام قبل القتل، وما ذاك إلا لأنه لما غُمِس في مجتمع الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأُجبر على مشاهدة حُسْنِ خلق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طمع في كرمه وإحسانه، وبدأ يلين قلبه، وينجذب إلى دين الحق، وهو يعاين =



وإنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكرٍ. وإن كنت تُريد المالَ فسلْ تُعْطَ منه ما شِئْتَ، فتركه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى كان بَعْدَ الْغَدِ فقال: «**ما عندك؟ يا ثمامة!**» قال: ما قلت لك. إنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شاكرٍ. وإن تقتل تَقْتُلْ ذَا دمٍ. وإن كُنْت تُريد المال فَسَلْ تُعْطَ مِنه ما شِئْتَ. فتركه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى كان من الغد. فَقَال: «**ماذا عِنْدَكَ؟ يا ثمامة!**» فقال: عندي ما قلت لك. إن تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شَاكرٍ وإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ. وإن كُنت تُريد المال فسلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أطلِقوا ثمامة**» فانطلق إلى نخلٍ قريب من المسجد فاغتسل. ثم دَخَلَ المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجه أَبْغَضَ إليَّ مِنْ وجهِك، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحبَّ الوُجُوهِ كُلِّها إليَّ والله! ما كان من دينٍ أبغض إليَّ من دينكَ فأصبحَ دينُك أحبَّ الدِّين كُلِّه إليَّ. والله! ما كان من بَلَدٍ أَبْغَضَ إليَّ من بلدكَ. فأصبحَ بلدك أحبَّ البلاد كُلِّها إليَّ وإنَّ خَيْلَكَ أَخذتْنِي وأنا أريد العُمْرَةَ. فماذا ترى؟ فَبَشَّرَهُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وأمرهُ أنْ يَعْتَمِرَ فلما قَدِمَ مكة قال له قائل: أَصَبَوْتَ؟[١] فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا والله! لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حِنطة حتى يأذن فيها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ[٢].

=أخلاق الصحابة وعبادتهم وتوحيدهم، وينصت -رغمًا عنه- إلى دعوة الحق ودين الفطرة وآيات الكتاب العزيز تتلى في الصلوات، تحقق فيه قولُ رسولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أنتم خير الناس للناس تقودونهم إلى الجنة في السلاسل**».

(١) **أصبوت**: أي أخرجت من دينك؟

(٢) رواه البخاري [٤٣٧٢]، ومسلم [١٧٦٤]، وغيرهما.



ولعل هذه الحكمة التربوية المستقاة من تلك الأدلة الشرعية هي مستند جماعة التبليغ والدعوة؛ في أحد ركائز أسلوبهم التربوي ألا وهو ضرورة نزع المدعوِّ من بيئته، وغمسه -لفترة كافية- في بيئة أخرى، فيسهل تطبيع هذا التائب بغرس قيم ومفاهيم جديدة، مع تطهيره من القيم المراد نزعها من قلبه، وبصورة سلسة وتلقائية وفعالة، وتفسر الجماعة ذلك بمثال، فتقول: «إذا سقطت الجوهرة في مكان نجس فيحتاج ذلك إلى كثير من الماء حتى تُنَظَّف إذا صببناه عليها وهي في مكانها، ولكن إذا أخرجناها من مكانها سهل تنظيفها بالقليل من الماء»(١).

السابع: صحبة أولي الهمم العالية، ومطالعة أخبارهم:

فالطيور على أشكالها تقع، وكل قرين بالمقارن يقتدي، وإن العبد ليستمد من لحظ الصالحين قبل لفظهم، لأن رؤيتهم تذكره بالله عَزَّوَجَلَّ، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر**»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] قال: «**هم الذين يُذكر الله لرؤيتهم**»(٣).

ورُوي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، قال: كان الربيع بن خُثَيم إذا دخل على ابن مسعود لم يكن له إذن لأحد حتى يفرغ كُلٌّ واحدٍ من صاحبه، فقال

(١) «الصفات الست عند جماعة التبليغ» لمؤلفه محمد الشرقاوي (ص٤٢).
(٢) أخرجه ابن ماجه، وابن أبي عاصم في «السنة»، وحسَّنه الألباني بطرقه كما في «الصحيحة» رقم [١٣٣٢].
(٣) رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان»، والواحدي، والديلمي، كما في «السلسلة الصحيحة» رقم [١٦٤٦].

له ابن مسعود: «يا أبا يزيد، لو رآك رسولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرتُ المخبتين».

وقالت العرب: «لولا الوئام لهلك الأنام»(١).

وقال زين العابدين علي بن الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه».

أنت في الناس تقاسُ ... بالذي اخترتَ خليلا

فاصحب الأخيار تعلو ... وتَنَلْ ذِكْرًا جميلا

عن جعفر قال: كنت إذا وجدت من قلبي قسوة، نظرت إلى وجه «محمد ابن واسع» نظرة، وكنت إذا رأيت وجه «محمد بن واسع» حسبتُ أن وجهه وجه ثكلى(٢).

وقال ابن المبارك: إذا نظرتُ إلى «فضيل» جُدِّد لي الحزن، ومَقَتُّ نفسي.

---

(١) **الوئام هنا**: التشبه بالكرام، قال الماوردي في معناه: «لولا الناس يرى بعضهم بعضًا فيُقتدى بهم من الخير، وينتهى بهم عن الشر لهلكوا».

(٢) فإن للنفوس تأثيرًا على أخواتها، ألا ترى جليس الكسول المتثائب يتثائب، وجليس المسرور ينشرح صدره، وجليس المكتئب تصيبه عدوى الاكتئاب؟!

ولقد حفل تاريخنا الإسلامي بشخصيات قوية «كارزمية» عميقة التأثير فيمن يقترب منها، وما ذاك إلا ثمرة «الصدق مع الله تعالى» الذي يضع لهم القبول في الأرض، فتهوي القلوب إليهم كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس، وفي هذا قيل:

محاسنه هيولى كل حُسْنٍ ... ومغناطيس أفئدة الرجال

ومن أمثلة ذلك في المتأخرين إمام تركيا الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي رَحِمَهُ اللَّهُ، إذ أتاه اليهودي «عمانوئيل قرة صو»، وهو عضو بارز في المحفل الماسوني، واجتمع به ليحاول ضَمَّه إلى حركته الماسونية، ولكنه سرعان ما قطع الاجتماع، وتركه هاربًا من تأثير شخصية «بديع الزمان» وقال وهو لا يكاد يصدق نفسه: «لقد كاد هذا الرجل العجيب يجعلني مسلمًا بحديثه»، انظر: «رجل القدر» (ص٤٥).



وكان الإمام أحمد إذا بلغه عن شخص صلاحٌ أو زهد أو قيام بحق، أو اتباع للأمر؛ سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله.

وجاء في صفة ابن المنكدر: «وكان عزيزًا عليه أن يخفى عليه أحد من أهل الخير».

ولأن التجريب قبل التقريب، كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدقق في اختيار من يقربه منه ويدنيه[1]، وعُرف عنه ذلك، حتى قال فيه الشاعر:

ويُحْسِنُ في ذات الإله إذا رأى ... مُضِيمًا لأهل الحق لا يسأم البلا

وإخوانه الأدنَوْنَ: كل موفَّقٍ ... بصيرٍ بأمر الله يسمو إلى العلا

وقال مالك بن دينار:

«يا مغيرة، انظر كلَّ أخ لك، وصاحب لك، وصديق لك لا تستفيد في دينك منه خيرًا فانبذ عنك صحبته، فإنما ذلك لك عدو، يا مغيرة، الناس أشكال: الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والصَّعو[2] مع الصعو، وكلٌّ مع شكله».

وقال بعضهم:

«الإخوان من أنفس الذخائر، فينبغي للعاقل أن يتأنى لاكتسابهم، ويصيد بعضهم ببعض، كما تُصاد الطير بعضها ببعض».

(١) قدم على عمر بن عبد العزيز بلال بن أبي بردة، فهمَّ بتوليته العراق لما رآه ملازمًا للمسجد يصلي، ويقرأ ليله ونهاره، وقال: «هذا رجل له فضل»، فدسَّ إليه ثقةً له، فقال له: إن عملتُ لك في ولاية العراق، ما تعطيني؟»، فضمن له مالًا جليلًا، فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه، وقال: «يا أهل العراق، إن صاحبكم أُعْطِي مَقولًا ولم يعط معقولًا، وزادت بلاغتُه، ونقصت زهادته».
وقال أبو المليح: جاء رجل إلى ميمون بن مِهران يخطب ابنته، فقال: «لا أرضاها لك»، قال: ولِمَ؟ قال: «لأنها تحب الحُلِيَّ والحُلَل»، قال: «فعندي من هذا ما تريد»، قال: «الآن لا أرضاك لها».

(٢) **الصعو**: عصفور صغير.



وحكى ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض ما استفاده من ملاحظة شيخ الإِسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ فقال: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض؛ أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة[(١)]. اهـ.

وإذا أردت أن تلمس أثر الصحبة العالية الهمة في التسابق إلى الخيرات، فتأمل ما قاله محمد بن علي السلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قمت ليلة سحرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئًا، ولم تدركني النوبة إلى العصر».

وقال الإمام عبد الله بن المبارك: «لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان؛ كنت كسائر الناس».



وهذا الشاعر «محمد إقبال» يدعو الله أن يمنَّ عليه بصاحب عالي الهمة:

هَبْ نَجِيًّا يا وليَّ النعمةِ ... محرمًا يدرك ما في فطرتي

هب نجيًّا لَقِنًا ذا جنة ... ليس بالدنيا له من صلةِ

وقال أمير المؤمنين عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما أُعطي عبد بعد الإسلام خيرًا من أخ صالح، فإذا رأى أحدكم وُدًّا من أخيه فليتمسك به».

---

(١) «الوابل الصيب» (ص٧٦).

وقال الإمام أبو إسحاق الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سألت الناس عن خل وفي ... فقالوا: ما إلى هذا سبيل

تمسك إن ظفرت بذيل حُرٍّ ... فإن الحُرَّ في الدنيا قليل

إذا كان الفتى ضخم المعالي ... فليس يضره الجسم النحيل

وقال الحسن البصري: «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة».

يقول الأستاذ الدكتور «خلدون الأحدب» حفظه الله:

وإذا نظرنا إلى أولئك الذين استفادوا من لحظات أعمارهم، وكان من نتاجهم وأثرهم ما يعجب أو يدهش، نجدهم لا يصاحبون إلا المجدِّين العاملين، والنابهين الأذكياء، الذين يحرصون على أوقاتهم حرصهم على حياتهم، لأن الزمن هو الحياة.

وصحبة هؤلاء الأمجاد المجدِّين المتيقظين للدقائق والثواني، كان له عظيم الأثر في هِمَّةِ مثلِ الإمام ابن جرير الطبري وابن عقيل الحنبلي وابن عساكر الدمشقي وابن تيمية وابن القيم وابن النفيس والمِزِّيِّ والذهبي وابن حجر وأضرابهم في غزارة إنتاجهم وجدته.

يقول الإمام ابن عقيل الحنبلي صاحب كتاب «الفنون»: «وعصمني الله من عنفوان الشبيبة بأنواع من العصمة، وقصر محبتي على العلم وأهله، فما خالطتُ لعَّابًا قط، ولا عاشرت إلَّا أمثالي من طلبة العلم».







فالحريص الموفق الذي يروم المعالي، لا تراه إلا مع أهل العلم العاملين، وأولي الفضل والمجاهدة والحِكْمة والبصيرة، ليرشح عليه ما هم فيه أو بعضه، فيكون مثلهم أو قريبًا منهم.

إن صحبة هؤلاء تعلِّم منافسة الزمان.

وصحبة البطَّالين تعلم تضييع الزمان.

قال سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«اعتبروا الرجل بمن يصاحب، فإنما يصاحب الرجل من هو مثله».

فنعوذ بالله من صحبة البطَّالين. اهـ[(١)].

وذكر الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ أن من آداب المتأدب أن: «يحترز عن مجالسة صاحب السوء، ليُقصي ولاية شياطين الجن والإنس من صحن قلبه، فيصفى عن لوثة الشيطنة»[(٢)].

رُوي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انظروا إلى من هو أسفلَ منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدرُ أن لا تزدروا نعمةَ اللهِ عليكم**»[(٣)].

ورُوِيَ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا: «خصلتان من كانت فيه كتبه الله صابرًا شاكرًا: من نظر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد الله على ما فضله به عليه، ومن نظر في دينه إلى من هو فوقه، فاقتدى به»[(٤)].



---

(١) «سوانح وتأملات في قيمة الزمن» (ص٤٨).

(٢) «أيها الولد» (ص١٣٠).

(٣) انظر تخريجه (ص١٠).

(٤) تقدم تضعيفه (ص١٠) هامش رقم (٥).



أما من نظر في دينه إلى من هو تحته من المقصرين، كلاعب نَرْدٍ يُسَوِّغ فعلَه بأن هذا أفضل ممن يجلسون يغتابون الناس، فهذا مناقض لروح الشريعة التي نهتنا عن التنافس في الدنيا، لكنها أمرتنا وشجعتنا على التنافس في معالي الأمور: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] ولن يعجز دنيء الهمة القاعد عن المعالي أن يجد من هو أضعف منه دينًا، وأعجز إرادة، وأقل حيلة ليشعر بأنه متفوق عليه، لكن كبير الهمة يتفوق على نفسه أولًا، ثم ينافس غيره من عشاق المعالي، وما قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]. إلا ليحثنا على دوام الاستزادة من العلم، وليُرِيَنا أن الأفق ما زال أمامنا ممتدًّا فسيحًا.

إن من أقوى البواعث على ارتفاع الهمة أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة والعلم، فتلاحظ أقواله وتقتدي به، وكان بعضهم يقول: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده، فعملت على ذلك أسبوعًا».

إلا أن هذا العلاج قد تعذر، إذ قد فُقِد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم[1] وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع.



(١) ومظان ذلك كتب التراجم، لاسيما «تاريخ بغداد»، و«حلية الأولياء»، و«سير أعلام النبلاء»، وغيرها.

ماتوا وغُيِّبَ في التراب شُخوصُهم والـنَّـشْـرُ مِـسْـكٌ والِـعـظـامُ رميمُ

وينصح الإمام ابن الجوزي طالب العلم قائلًا: فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعلوِّ هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة.

وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية، فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحبَ ورع فيستفيد منه الزاهد.

فاللهَ اللهَ وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم، كما قال:

فـاتـني أن أرى الـديـارَ بـطَـرْفي فـلـعـلـي أرى الـديـار بـسَمْعي

ثم بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ ثمرة مطالعة كتب الأقدمين قائلًا: فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع[1]. اهـ.

الثامن: نصيحة المخلصين:

فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الدينَ النصيحةُ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعظم ما عُبِد الله به: نصيحة خلقه».



(١) «صيد الخاطر» (ص٣٦٦، ٣٦٧).
(٢) رواه مسلم وغيره.

وقال أيضًا: «ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها، ونِعمت الهدية كلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له».

- وقد يكون هذا الناصح الأمين أبًا شفيقًا:

قال سفيان بن عيينة: قال لي أبي -وقد بلغت خمس عشرة سنة-: «إنه قد انقضت عنك شرائع الصبا، فاتبع الخير تكن من أهله»، فجعلت وصية أبي قِبْلَة أميل إليها، ولا أميل عنها.

- وقد يكون أمًّا رحيمة:

فهذه أسماء ذات النطاقين توصي ابنها عبد الله بن الزبير لما استنصحها: الله الله يا بني! إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه فامض عليه، ولا تُمَكِّنْ من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبوا بك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت: «إني كنت على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي»، فليس هذا فعل الأحرار ولا مَن فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا بن الزبير، والله لضربة بالسيف في عِزٍّ أحبُّ إليَّ من ضربة بالسوط في ذل، فقال: «يا أماه! أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني»، قالت: «يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك، واستعن بالله».





- وقد يكون الناصح ولدًا مُحِبًّا:

ولعل أشهر مثال على هذا نصائح الشاب الصالح الزاهد عبد الملك ابن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، الذي قال لأبيه: «يا أبت أقم الحق، ولو ساعة من نهار».

ورُوي عن ميمون بن مهران أن عبد الملك بن عمر قال له: «يا أبت ما منعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ والله ما كنت أبالي لو غَلَتْ بي وبك القدورُ في ذلك»، قال: «يا بني إنما أنا أروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخر ذلك حتى أُخرِجَ معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه».

وقال له أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

«يا عبد الملك ما ترى في هذه الأموال التي قد أُخِذَت من الناس ظلمًا، قد حضروا يطلبونها، وقد عرفنا مواضعها»، قال: «أرى أن تردها، فإن لم تفعل كنتَ شريكًا لمن أخذها».

وقال إسماعيل بن أبي حكيم: غضب عمر بن عبد العزيز يومًا فاشتد غضبه، وكان فيه حدة، وعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حاضر، فلما سكن غضبه، قال: «يا أمير المؤمنين أنت في قدر نعمة الله عليك، وموضعك الذي وضعك الله به، وما ولاك من أمر عباده، يبلغ بك الغضبُ ما أرى؟»، قال: كيف قلت؟ قال:



(١) وكان يُفضل على أبيه، بل قال بعض مشيخة أهل الشام: «كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله في العبادة ما رأى من ابنه عبد الملك».

فأعاد عليه كلامه، فقال: أما تغضب يا عبد الملك؟ فقال: «ما تُغني سَعَةُ جوفي إن لم أردد فيها الغضبَ، حتى لا يظهر منه شيء أكرهه»، قال: وكان له بُطَين.

وعن ابن أبي عبلة قال: جلس عمر يومًا للناس فلما انتصف النهار ضجر وكَلَّ ومَلَّ، فقال للناس: مكانَكم حتى أنصرف إليكم، فدخل ليستريح ساعة، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه فقالوا: دخل، فاستأذن عليه، فأذن له، فلما دخل قال: «يا أمير المؤمنين ما أدخلك؟» قال: «أردت أن أستريح ساعة»، قال: «أو أمنت الموتَ أن يأتيك، ورعيتك على بابك ينتظرونك، وأنت محتجب عنهم؟» فقام عمر من ساعته، وخرج إلى الناس.

- وقال محمد بن سويد الطحان: كنا عند عاصم بن علي -وذكر جماعة- وأحمدُ ابن حنبل يُضْرَبُ ذلك اليوم، فجعل عاصم يقول: «ألا رجل يقوم معي فنأتي هذا الرجل فنكلمه»، قال: فما يجيبه أحد، قال: فقال إبراهيم بن أبي الليث: «يا أبا الحسين أنا أقوم معك»، فصاح: «يا غلام خُفِّي»، فقال له إبراهيم: «يا أبا الحسين أبلغُ إلى بناتي، فأوصيهم، وأجدد بهم عهدًا»، ثم جاء كتاب ابنتي عاصم من واسط -وكان عاصم قد بعث لهما- جاء فيه: «يا أبانا إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل، فضربه بالسوط على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتقِ الله، ولا تجبه إن سألك، فوالله لأن يأتينا نعيُك، أحبُّ إلينا من أن يأتينا أنك قلتَ».

- **وقد يكون الناصح الأمين زوجة تحضه على الخير، وترقِّي همته،** كامرأة حبيب أبي محمد التي انتبهت ليلة، وهو نائم، فأنبهته في السحر، وقالت:



«قم يا رجل فقد ذهب الليل، وجاء النهار، وبين يديك طريق بعيد، وزاد قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قُدَّامنا، ونحن قد بقينا».

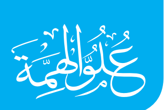
أو كالزوجة الصالحة العاقلة الذكية الدَّيِّنة «مَوْضِي بنت أبي وهطان» زوجة الأمير محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والتي كان لنصيحتها أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري حتى يومنا هذا، فإنها هي التي حثت زوجها على مناصرة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وشَدِّ أزره نُصْرةً لدعوة التوحيد.

- **وقد يكون الناصح الأمين رجلًا من عوام المسلمين:**

قال الإمام أحمد في وصف محنته: صِرنا إلى الرحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، فعرض لنا رجل، فقال: «أيكم أحمد بن حنبل؟»، فقيل له: «هذا»، فقال للجمَّال: «على رِسْلِك»، ثم قال: «يا هذا، ما عليك أنْ تُقتل ها هنا، وتدخل الجنة؟»، ثم قال: «أستودعك الله»، ومضى، فسألت عنه، فقيل لي: هذا رجل من العرب، من ربيعة، يعمل الصوف في البادية، يُقال له: «جابر بن عامر» يُذكَر بخير.



ولما أُخِذَ الإمام أحمد من بغداد، وسافروا به إلى الرَّقَّة، فحُبِسَ بها، دخل عليه بعض العلماء يذاكرونه فيما يُروى من الأحاديث في العمل بالتقية، فأبى أحمد أن يسلك التقية قائلًا لهم: كيف تصنعون بحديث خَبّاب «إن من كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار، ثم لا يَصُدُّه ذلك عن دينه». فيئسوا منه أن يعمل بالتقية.





فقال لهم: لستُ أُبالي بالحَبس، ما هو ومَنْزِلي إلا واحد، ولا قتلًا بالسيف، إنما أخاف فتنةً بالسوط، وأخاف أن لا أصبر! فسمعه بعض أهل الحبس فقال له: «لا عليك يا أبا عبد الله، فما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي»، فكأنه سُرِّي عنه.

قال ابنه عبد الله: كنت كثيرًا أسمع والدي -أحمد بن حنبل- يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت له: يا أبي من أبو الهيثم؟ قال: ألا تعرفه؟ قلت: لا، قال: أبو الهيثم الحدَّاد، اليوم الذي أُخرجتُ فيه للسِّياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين -هما خشبتان يُشبَحُ الرجل بينهما ليُجلَد- إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي من ورائي ويقول: تعرفني؟ قلت: لا، قال: أنا أبو الهيثم العيّار -أي: النشيط في المعاصي- اللِّصُّ الطَّرَّار -أي النَّشَّالُ من الجيوب- مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُرِبت ثمانيةَ عشرَ ألفَ سوط بالتفاريق، وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا، فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين.

قال أحمد: فضُرِبتُ ثمانية عشر سوطًا، بدل ما ضرب ثمانية عشر ألفًا، وخرج الخادم فقال: عفا عنه أميرُ المؤمنين.

قال بعضُ الجلَّادين: لقد أبطل أحمد بن حنبل الشُّطَّارَ، والله لقد ضربتُه ضربًا لو أُبرِك لي بعير فضربته ذلك الضرب، لنقبت عن جوفه! وفي رواية ثانية قال جلَّادُه: لو ضربت تلك السياط فيلًا لهدَّته!»[1].

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٣١٦، ٣٣٢، ٣٣٥).



وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلَّمني بها في «رحبة طوق»(١)، قال: «يا أحمد! إن يقتلك الحق مُتَّ شهيدًا، وإن عِشْتَ عِشْتَ حميدًا»، فقوي قلبي(٢).

وحكى الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن أعرابيًّا نصح الإمام أحمد في المحنة، فقال: «يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، وإنك رأسُ الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه، فيجيبوا؛ فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله، فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقْتَلَ»، قال الإمام أحمد: «وكان كلامه مما قوَّى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع عن ذلك الذي يدعونني إليه».

- وما أحسن ما كتب رجل أسره الصليبيون في بيت المقدس من أبيات على لسان المسجد الأقصى يخاطب صلاح الدين الأيوبيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصُّلبانِ نكَّسْ

جاءت إليك ظُلامةٌ(٣) ... تسعى من البيت المقدَّسْ

كُلُّ المساجدِ طُهِّرَتْ ... وأنا على شرفي مُنَجَّسْ

- أما نصائح العلماء فلا تسل عن حسنها وعميق أثرها في انبعاث الهمة:

فإنهم خلفاء الرسل في حث الناس على المعالي، والأخذ بيدهم إلى عزائم الأمور وعظائمها.



---

(١) بلدة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٤١).

(٣) **الظُّلامة**: ما يطلبه المظلوم، وهو اسم ما أُخِذَ منه ظلمًا.

- سيق الإمام أحمد إلى المأمون مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه، حتى قال الخادم للإمام أحمد: «يَعُزُّ عَلَيَّ يا أبا عبد الله، أن المأمون قد سَلَّ سيفًا لم يسلَّه قبل ذلك، وأنه يُقسم بقرابته من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف»[(١)]، فانبرى أبو جعفر الأنباري يشد أزر الإمام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما حُمِل أحمد إلى المأمون أخبرتُ، فعبرتُ الفرات، فإذا هو جالسٌ في الخان، فسلمت عليه، فقال: «يا أبا جعفر! تعنَّيْت»، فقلت: «يا هذا، أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبتَ إلى خلق القرآن ليُجيبنَّ خَلْقٌ، وإن لم تُجِب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك، فإنك تموت، لابد من الموت، فاتق الله ولا تُجِبْ»، فجعل أحمد يبكي، ويقول: «ما شاء الله!»، ثم قال: «يا أبا جعفر، أَعِدْ»، فأعدتُ عليه، وهو يقول: «ما شاء الله!»[(٢)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ واصفًا حال رفيقه في المحنة: ما رأيت أحدًا -على حداثة سنه، وقَدر علمه- أقومَ بأمر الله من محمد بن نوح، إني لأرجو أن يكون قد خُتِم له بخير، قال لي ذات يوم: «يا أبا عبد الله! اللهَ اللهَ، إنك لست مثلي؛ أنت رجل يُقتدى بك، قد مَدَّ الخلق أعناقهم إليك؛ لما يكون منك، فاتق الله، واثبت لأمر الله»، فمات، وصليت عليه، ودفنته[(٣)].

بل إن من لم يتصل مباشرة بالإمام كان معه بوجدانه، يتحسر لعدم مشاركته إياه العذابَ والآلام: قيل لبشر بن الحارث الحافي يوم عُذِّب الإمام أحمد:

---

(١) «البداية والنهاية» (١/ ٣٣٢).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٣٨).
(٣) نفسه (١١/ ٢٤٢).



«قد ضُرِب أحمد بن حنبل إلى الساعة سبعة عشر سوطًا»، فمدَّ بشر رجله، وجعل ينظر إلى ساقيه، ويقول: «ما أقبح هذا الساق أن لا يكون القيد فيه نصرة لهذا الرجل!»[(١)].

- نال كتاب «الجامع الصحيح» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ شرفًا لم ينله كتاب -بعد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ- إذ عُرف بأنه أصح كتاب في الإسلام بعد القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي إذا خَرَّجَ لأحد من الرواة روايةً فيه فقد جاوز القنطرة، وإذا قيل: رواه البخاري؛ يقع في النفس هيبة له، ما سبب تأليفه؟ إنها كلمة واحدة في مجلس واحد، وقعت في آذان البخاري، فيسر الله له تأليف هذا الكتاب الذي رفع منزلة البخاري في أعلى طبقة، فلقد ذُكر لتأليفه «الصحيح» ثلاثة أسباب، أشهرها: أنه كان في حلقة إسحاق بن راهويه فقال: «لو أنَّ أحدكم يجمع كتابًا فيما صح من سنة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» جملة واحدة قالها إسحاق، فوقع ذلك في نفس البخاري، فصنف هذا الكتاب العظيم الذي أصبح أصح كتب السنة على الإطلاق[(٢)].



(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص١١٩).
فائدة: فشا الاعتزال في دولة بني الأغلب في بلاد المغرب، فهب العلماء هبة رجل واحد، وتصدَّوْا للمبتدعة، حتى قيل: إن من كانت تحضره الوفاة من المالكية كان يوصي بأن يُكتب على قبره: «هذا قبر فلان بن فلان، كان يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق»، متحديًا للاعتزال جهارًا في حياته وبعد موته، وانظر: مقدمة كتاب «ترتيب المدارك».
(٢) «هدي الساري» (ص٩)، وانظر: «معالم في طريق طلب العلم» للشيخ عبد العزيز السدحان (ص٨١).

وقال محمد بن خلف التيمي: أخبرنا وكيع قال: أتيت الأعمش، فقلت: حدثني قال: ما اسمك؟ قلت: وكيع. قال: «اسمُ نبيلٍ[1]، ما أحسب إلا سيكون لك نبأ»[2].

- والإمام الذهبي، وما أدراك ما الذهبي؟! قال فيه السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما أستاذنا أبو عبد الله فبصرٌ لا نظير له، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة، إمام الوجود حفظًا، وذهب العصر معنىً ولفظًا، وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جُمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها»[3].

يحكي الذهبي عن كلمة عابرة قالها عالم، فحوَّلت مسار حياته، قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الحافظ القاسم بن محمد البِرْزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الذي حبَّب إليَّ طلب الحديث، فإنه رأى خَطِّي، فقال: «خطك يُشبه خَطَّ المحدثين»، فأثر قوله فيَّ، وسمعت منه، وتخرَّجْت به في أشياء.

- أما الإمام الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد أشار عليه الإمام العز بن جماعة بنصيحة غيرت مجرى حياته، إذ رآه متوغلًا في علم القراءات فقال له: «إنه علم كثير التعب قليل الجدوى[4]، وأنت متوقد الذهن، فاصرف



---

(١) يُقال: وَكُعَ الشيء: صَلُبَ واشتدَّ، فهو وكيع ووكوع.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٤٥).

(٣) مقدمة «سير أعلام النبلاء» (١/ ١٦٩).

(٤) في هذا نظر، وقد سئل الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حكم تعلم القراءات، فقال: «أما الاشتغال بروايات القراء المشهورين السبعة، وقراءة الحديث، وطلب علم النحو، واللغة، فإن طلب هذه العلوم فرض واجب على المسلمين على الكفاية، بمعنى أن من قام بطلبها حتى يَعُمَّ بعلمه تعليمُ من طلبها، أو فتيا من استفتاه فيها من أهل بلده أو قريته، فإذا قام بذلك من يُعْنى بهذا القدر، =





همتك إلى الحديث»[(١)].

وقال الشيخ محمد بن محمد بن عيسى (ت:٧٠٧هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما جئت إلى -قوص- وجدت بها الشيخ تقي الدين[(٢)] والشيخ جلال الدين الدشنائي. فترددت إليهما، فقال لي كل منهما كلامًا انتفعت به، فأما الشيخ تقي الدين فقد قال لي: «أنت رجل فاضل، والسعيد من تموت سيئاته بموته، لا تهجُ أحدًا»، فما هجوتُ أحدًا. وأما الشيخ جلال الدين فقال لي: «أنت رجل فاضل ومن أهل الحديث، ومع ذلك فشهدت عليك ما هو ببعيد أن يكون في عقيدتك شيء»، وكنتُ متشيعًا، فتبت من ذلك[(٣)].

=سقط فرضُ طلبها حينئذ عن الباقين، إلا ما يَخُصُّ كلَّ إنسانٍ في نفسه فقط، فالذي يلزم كلَّ إنسان -في ذات نفسه- من حفظ القرآن؛ فهو أم القرآن، وشيءٌ من القرآن معها؛ ولو سورة أيَّ سورةٍ كانت، أو أي آية، فهذا لابد لكل إنسان منه.

ثم طلب علم القرآن، واختلافِ القراء السبعة فيه، وضبط قراءتهم كلِّهم، فرضٌ على الكفاية، وفضل عظيم لمن طلبه إن كان في بلده كثير ممن يُحْكِمُه وأجرٌ جزيل، قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»، فكفى بهذا فضلًا، وقد أمر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: بتعليم القرآن، فمن تعلَّمه فهو خير، ولو ضاع هذا الباب لذهب القرآن وضاع، وحرام على المسلمين تضييعُه، وذهابه من أشراط الساعة، وكذلك ذهاب العلم» اهـ. من «التلخيص لوجوه التخليص» (ص١٢٦، ١٢٧) ط. دار ابن حزم (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م).

فيُحمل كلام العز بن جماعة على أنه تفرس في العراقي أنَّ صرف همته إلى تعلم الحديث أعظم فائدة للأمة، وقد صدقت فراسته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١) «المختار المصون» (١/ ٤٢٣).

(٢) هو الإمام ابن دقيق العيد (ت:٧٠٢هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) «الوافي بالوفيات» (١/ ٢٥٩).



ومن أروع ما قيل في أثر نصيحة العالم وتوجيهه لتلميذه ما سطره يراع الإمام المحقق ابن قيم الجوزية يصف به أثر شيخ الإسلام ابن تيمية في تحويل مجرى حياته:

يا قومِ واللّه العظيمِ نصيحة ... من مُشْفِقٍ وأخٍ لكم مِعْوانِ
جَرَّبتُ هذا كلَّه ووقعتُ في ... تلكَ الشِّباكِ وكنتُ ذا طيرانِ
حتى أتاحَ ليَ الإلهُ بفضلِهِ ... مَنْ ليس تجزيه يدي ولساني
حَبْرٌ أتى من أرضِ حَرَّانٍ فيا ... أهلًا بمن قد جاء مِن حَرَّانِ
فاللّهُ يجزيه الذي هو أهلُه ... مِن جَنَّةِ المأوى مع الرِّضوانِ
أَخَذَتْ يداه يدي وسار فلم يرم ... حتى أراني مَطْلِعَ الإيمان
ورأيتُ أعلامَ المدينةِ حولَها ... نُزُلُ الهدى وعساكرُ القرآن
ورأيتُ آثارًا عظيمًا شأنُها ... محجوبةً عن زُمْرة العميان
ووردتُ رأسَ الماءِ أبيضَ صافيا ... حَصْباؤه كلآلئِ التِّيجانِ
ورأيتُ أكوازا هناك كثيرةً ... مثلَ النجوم لواردٍ ظمآنِ
ورأيتُ حوضَ الكوثرِ الصافي الذي ... لا زال يَشْخبُ فيه ميزابانِ[(١)]

وجاء في ترجمة الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عمر الواسطي الحزامي المتوفى في (٧١١هـ) أنه تاب على يد الإمام تقي الدين ابن تيمية: «فقد كان أبوه شيخ الطائفة المحمدية، ونشأ الشيخ عماد الدين بينهم، وخالط بالإسكندرية الطائفة الشاذلية، ثم قدم دمشق فرأى الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وصاحَبه، فدله على مطالعة السيرة النبوية، فأقبل على سيرة ابن إسحاق تهذيب ابن هشام، وأقبل على

(١) «القصيدة النونية» (ص١٤٣).

مطالعة كتب الحديث والسنة والآثار، وتخلى من جميع طرائقه وأحواله، وأذواقه وسلوكه، واقتفى آثار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهديه، وطرائقه المأثورة عنه في كتب السنن والآثار، واعتنى بأمر السنة أصولًا وفروعًا، وشرع في الرد على طوائف المبتدعة الذين خالطهم وعرفهم من الاتحادية وغيرهم، وبيَّنَ عوراتهم، وكشف أستارهم، وانتقل إلى مذهب الإمام أحمد»[(١)].

التاسع: وربما قدح زناد الهمة في قلب شخص خصومةُ خَصم، أو عداوة حاسد، أو تحقير مُعَلِّمٍ، فانطلق ينافس في المعالي، لا يلوي على شيء ولا يبالي:

قال أبو حيان:

عِداتي لهم فضل عليَّ ومنةٌ ... فلا أبعد الرحمنُ عني الأعاديا

همُ بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

قال الشيخ أبو إسحاق في «طبقات الفقهاء»:

وأبو جعفر الطحاوي (ت:٣٢١هـ) انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر، أخذ العلم عن أبي جعفر بن أبي عمران، وأبي خازم وغيرهما، وكان شافعيًّا يقرأ على أبي إبراهيم المُزَني، فقال له يومًا: «والله لاجاء منك شيء»[(٢)]، فغضب أبو جعفر من ذلك، وانتقل إلى ابن أبي عمران، فلمَّا صنَّف مختصره، قال: «رَحِمَ الله أبا إبراهيم: لو كان حيًّا لكفَّرَ عن يمينه»، صَنَّف «اختلاف العلماء» و«الشروط»، و«أحكام القرآن»، و«معاني الآثار».



(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٥٩).
(٢) وقد يكون الإمام المزني خَبَرَ شخصية الطحاوي، وأدرك أنه إن استفزه، فسوف يتفاعل بطريقة إيجابية، وهي إحدى طرق العلاج النفسي الحديثة تسمى: العلاج الاستفزازي (Provocative Psychotherapy)، ولكن تستعمل بشروط دقيقة ومع فئة مخصوصة من الناس.

العاشر: المبادرة والمداومة والمثابرة مهما كانت الظروف:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج:٧٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

فكبير الهمة لا يستنيم للأمر الواقع، بل يبادر ويبادئ في أقسى الظروف حماية لهمته من أن تهمد، ووقاية لها من أن تضمر، واستثمارًا لأول فرصة متاحة، فنحن لا نخلق الفرص، ولكن لا نضيعها.

ليس في كل حالٍ وأوانِ ... تتهيا صنائعُ الإحسانِ
فإذا أمكَنَتْ فبادِرْ إليها ... حَذَرًا من تعذر الإمكانِ

وقال البارودي:

بادر الفرصة واحذر فواتها ... فبلوغ العز في نيل الفرصْ
فابتدر مسعاك واعلم أن من ... بادر الصيد مع الفجر قنص

ومن أخَّرَ الفرصة عن وقتها، فليكن على ثقة من فوتها:

إذا هبَّت رياحك فاغتنمها ... فعُقبى كُلِّ خافقةٍ سكونُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... فما تدري السكونُ متى يكون

ولنا في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أحسن الأسوة، فإنه لما خرج مهاجرًا إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ لقيا في طريق الهجرة بريدة بن الحصيب الأسلمي في ركب من قومه فيما بين مكة والمدينة، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فلم يشغله مطاردة قريش إياه عن واجب الدعوة إلى الله.



تلك الإيجابية

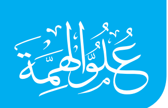
المسلم السَّوي إنسانٌ إيجابي، وإيجابيته مبنية على أساس أن الإنسان في حكم الإسلام مخلوق مكلَّف ومسؤول، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر:٩٢،٩٣]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]. وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**» الحديث، فعليه أن يُعِدَّ للسؤال جوابًا.

★ تلك الإيجابية التي تجلت واضحة في ثورة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على عبادة الأصنام، ومواجهته النمروذ الذي كفر، وفي صمود موسى أمام فرعون الطاغية، والقرآن الكريم حافل بنماذج رائعة تشي بتلك الصفة الراسخة في الأنبياء وأتباعهم، وتجلت بأروع مواقفها في دعوة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجهاده وصبره.

★ تلك الإيجابية التي نفخت في قلوب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ روح المبادرة والمبادأة:

- فجعلت سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقترح حفر الخندق، وحباب بن المنذر يقترح الوقوف على الماء في بدر، وأبا بصير يشرع في حرب العصابات بمنأى عن بنود صلح الحديبية، وخالد بن الوليد يستلم الراية يوم مؤتة بدون تأمير،







وعمرو بن العاص يُلحُّ على الفاروق ليأذن له في فتح مصر لتشرق أرضها بنور الإسلام.

وأخيرًا -وليس آخرًا- تلك الإيجابية التي اتسم بها «طائر» ضعيف هو الهدهد حيث سار بمفرده ودون تكليف مسبق، إلى أن جلب بإيجابيته خيرًا عميمًا بإسلام أمة كاملة حين أعلنتها بِلْقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

★ تلك الإيجابية التي تسد على المسلم طريق الهروب من واقعٍ يواجهه، لتُحتِّم عليه مصارعته ومجابهته، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال:١٥].

وعَدَّ النبي ﷺ من السبع الموبقات: «**الفرار من الزحف**»، وقال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره**» الحديث.





كُـن رائـدًا

«علمتنا التجربة أن معظم الناس يحبون الخير، ويُقَدِّرون فاعليه، وهم على استعداد للمشاركة في مشاريعه، لكن المشكلة الكبرى هي أن المستعدين فيهم لخطو الخطوة الأولى، ووضع أول لبنة قلة قليلة، وهذه القلة هي مِلح المجتمع وبركته، إنهم أناس يحبون الخير، ويثقون في أنفسهم، ويحبون خدمة جماعتهم، وهم إلى جانب ذلك مستعدون لتحمل نتائج مبادراتهم، وما قد تجره عليهم من مشكلات ومتاعب، إن علينا أن نعترف أن حرصنا على أن يكون كل شيء وفق نظام محدد، واحتياطاتِنا الشديدة لكل شيء، والتعليم التلقيني، والحرص على أن يكون لكل شيء نموذج سالف -إنَّ كل ذلك أدى إلى خشية المسلم من أن يكون في الطليعة، وصار كل واحد منا يقول في داخله: (ليبدأ غيري) و(علينا أن ننتظر لنرى النتيجة)، وهذا أدى إلى المؤاخذة الشديدة لكل من يبادر إلى خير، ثم يخفق فيه، أو تكون عواقبه على غير ما يريد، مع أن هذا المبادر لو لم يكن له سوى فضل الانتصاب بين الأموات لكفى»[(١)].

★ تلك الإيجابية التي من أجل إبقائها حية في النفس المؤمنة حرَّم الشرع الشريف الخمر والمسكرات والمخدرات التي يفر إليها «السلبيون» بعيدًا عن

(١) «الإنسان والتفكير الإيجابي» (ص١٦١).



واقعهم، فإن الإسلام الحنيف لا يسمح لك أن تنسى أو تتناسى واقعك، لأن هذا النسيان -بجانب أنه يُعَمِّق المشكلة ولا يحلها- يكون أُولى دركات الضعف والانهيار.

★ تلك الإيجابية التي أزَّت علماء المسلمين أزًّا للتصدي لضلالة الفرقة «الجبرية»، وسلبية بعض الصوفية الذين عطلوا الأسباب احتجاجًا بالقدر، وأنشدوا:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون

فلماذا إذن قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ الآية [الملك:١٥]، ولماذا قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ الآية [التوبة:١٠٥]، ولماذا قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الآية [الأنفال:٦٠]. ولماذا قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات:٥٠]؟

فمن ثمَّ انطلق المؤمنون حقًّا ينبهون الغافلين، ويوقظون النائمين، ويبينون للسلبيين أن: (المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار، بل خُلق ليوجِّه العالم أجمع، ويفرضَ على البشرية التائهة منهجه الرباني، ويملي عليها إرادته، لأنه صاحب الرسالة، وصاحب العلم اليقين، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره بحكم مبدأ «الاستخلاف في الأرض»، وبحكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولذلك فإنه يرفض الإمعية، والتقليد، والانقياد الأعمى، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة، مقام الإرشاد والتوجيه، مقام الأمر والنهي، فإذا تنكرت له الدنيا، وانحرف الناس عن الجادة، لم يكن له أن يستسلم ويخضع، ويضع أوزاره، ويسالم الفتن، بل عليه أن يثور عليها، وينازلها، ويظل في صراع معها وعراك حتى يقضي الله في أمره. إن الخضوع والاستكانة للأحوال الخاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر في غير موضعه من شأن الضعفاء والأقزام، أما المؤمن القوي فهو نفسه قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يُرد)[١]، لأنه يحارب قدر المرض بقدر التداوي، وقدر الهزيمة بقدر الجهاد والصبر والرباط، وقدر الضعف بقدر القوة، موقنًا أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.





(١) من كلام الشاعر «محمد إقبال»، انظر: «روائع إقبال» للسيد أبي الحسن الندوي (ص٨٥، ٨٦)، ط. دار القلم (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).





المثابرة بعد المبادرة

قال محمد بن علي السلمي: «قمت ليلة سحرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم، فوجدت قد سبقني ثلاثون قارئًا، ولم تدركني النوبة إلى العصر».

وكان إمام العصر عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قد وهب نفسه للعلم والتعليم، ووقف حياته على خدمة الناس وقضاء حوائجهم، وثابر على طريقة واحدة إلى آخر رمق في حياته، ولم يطلب عطلة من عمله يومًا واحدًا خلال ثلاثين عامًا متصلة.

متيقظ العزمات مُذ نهضت به   عزماتُه نحو العُلا لم يقعُدِ









امض، ولا تتردد

قال الشاعر:

ومن يتهيب صعودَ الجبال ... يعش أبدَ الدهرِ بين الحُفَرْ

آخر:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ... ولا ينالُ العُلا من قدَّم الحذرا

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا

آخر:

وإذا هممتَ بأمرِ سوءٍ فاتئد ... وإذا هممتَ بأمرِ خيرٍ فاعجلِ

في سرية مؤتة(١) بعد استشهاد القائد الأول زيد ثم الثاني جعفر، سارع القائد الثالث الأمير السعيد الشهيد عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى تسلم مسؤولية قيادة الجيش، فحمل اللواء، كقائد عام للجيش، فخاض بالمسلمين المعركة.

والعجيب أن عبد الله بن رواحة الذي كان في (معان) صاحب الدعوة إلى مصادمة الرومان عندما بدا بعض التردد على بعض القادة لكثرة الحشود الرومانية الهائلة. عبد الله هذا، قد أدركه شيء من الضعف البشري، عندما جاء دوره في تسلم قيادة الجيش، عقب مصرع القائد الثاني جعفر بن أبي طالب. فقد تردد بعد

(١) انظر: «موسوعة الغزوات الكبرى» للشيخ محمد أحمد باشميل (٧/ ١٩٥، ٢٠٢).



أن حمل الراية، وتقدم بفرسه، إلا أنه تغلب على هذا التردد، فتقدم وقاد الجيش، وقاتل به حتى استشهد.

وقد عاتب عبد الله بن رواحة نفسه على هذا التردد قائلًا شعرًا:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنزِلِنَّهْ ... طائعةً أو لا لَتُكْرَهِنَّهْ

إن أجلب الناس وشدوا الرنهْ ... ما لي أراكِ تكرهين الجنهْ

فطالما قد كنتِ مطمئنهْ ... هل أنت إلا نطفة في شَنَّهْ

ثم نزل القائد ابن رواحة من على فرسه ولواء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده. فقاتل قتال الأبطال حتى تخطفته سيوف ورماح الرومان فالتحق بزميليه شهيدًا، وكان قتله حسب سياق المؤرخين في اليوم السادس من المعركة.

ويصف ابن إسحاق مضاء عزيمة ابن رواحة بعد التردد الذي حدث له، فيقول: إن عبد الله استمر في معاتبة نفسه، وحَضِّها على الاستشهاد، فقال:

يا نفس إن لا تُقتلي تموتي ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ

وما تمنيتِ فقد أُعطيتِ ... إن تفعلي فعلَهما هُديتِ

وإن تأخرتِ فقد شقيتِ

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعَرْقٍ[١] من لحم فقال: اشدد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه[٢] ما لقيت، فأخذه

---

(١) **العَرْق**: العظم الذي عليه لحم.

(٢) هذا القول من ابن عم عبد الله بن رواحة، يدل على أن معركة (مؤتة) استمرت بين المسلمين وبين الرومان أيامًا عديدة.

من يده، ثم انتهس[(١)] منه نهسة، ثم سمع الحَطْمَةَ[(٢)] في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل[(٣)].

وروى الواقدي بسنده: لما التقى الناس بمؤتة، جلس رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على المنبر، وكُشِفَ له ما بينه وبين الشام، فهو ينظر إلى معركتهم، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أخذ الراية زيد بن حارثة، فجاءه الشيطان فحبب إليه الحياة، وكره إليه الموت، وحبب إليه الدنيا**» فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تحبب إليَّ الدنيا، فمضى قدما، فصلى عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقال: «**استغفروا له، فقد دخل الجنة وهو يسعى**»، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، فجاءه الشيطان فمناه الحياة، وكره إليه الموت، ومناه الدنيا. فقال: الآن حين استحكم الإيمان في قلوب المؤمنين تمنيني الدنيا، ثم مضى قدمًا حتى استشهد، فصلى عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ودعا له، ثم قال: «**استغفروا لأخيكم فإنه شهيد دخل الجنة، فهو يطير في الجنة بجناحين من ياقوت حيث يشاء من الجنة**». ثم أخذ الراية بعده عبد الله بن رواحة، فاستشهد ودخل الجنة معترضًا. فشق ذلك على الأنصار، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أصابه الجراح**». قيل: يا رسول الله، ما اعتراضه؟ قال: «**لما أصابته الجراح نكل، فعاتب نفسه فشجع، فاستشهد فدخل الجنة**». قال الراوي: فسرَّى عن قومه[(٤)].



---

(١) **انتهس**: أخذ منه بفمه شيئًا يسيرًا. هكذا قال أبو ذر.
(٢) **الحطمة**: (بفتح أوله وسكون ثانيه) شدة ازدحام الناس، وحطم بعضهم بعضًا.
(٣) سيرة ابن هشام (ج٤) (ص٢١).
(٤) «مغازي الواقدي» (٢/ ٧٦٢).

وجاء في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق: ولما أصيب القوم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فيما بلغني-: «**أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيدًا، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدًا**»، قال: ثم صمت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تغيرت وجوه الأنصار، وظنوا أنه قد كان في عبد الله ابن رواحة بعضُ ما يكرهون، ثم قال: «**ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدًا**»، ثم قال: لقد رُفعوا إليَّ في الجنة، فيما يرى النائم، على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة إزورارًا عن سريرَيْ صاحبيه، فقلت: عَمَّ هذا؟ فقيل لي: مضيا وتردد، ثم مضى[1].

★★★

وعالي الهمة يستهتر بالعقبات، ويستسهل الصعاب في أحلك الظروف:

سأعيش رغم الداء والأعداءِ كالنَّسْر فوق القمة الشماءِ

أرنو إلى الشمس المضيئة هازئًا بالسحب والأمطار والأنواءِ

وقال المتنبي يمدح سيف الدولة:

تمر بك الأبطالُ كلمى هزيمة ووجهُك وضَّاحٌ وثغرُك باسمُ

إن عظيم الهمة لا يشغل باله أمر صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلائل الأعمال التي تتعصى على أولي القوة من الرجال، ومع ذلك فلا يتبرم، ولا يقلق، ولا يشكو كثرة الأعباء.

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إلا من راغبٍ في ازديادِ

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٤/ ٢٢).



«له قلب لا يتعب فيبلغ منزلة إلا ابتدأ التعب؛ لِيَبْلُغَ منزلة أعلى منها، وله فكرٌ كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها»(١).

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وتكبر في عين الصغير صِغارُها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

إن كبير الهمة إذا وقع في محنة أو ظروف قاسية، فإنه لا يهرب إلى دور الضحية، ولا يستمتع برفاهية الاستسلام، لأنه ما دام فيه قلب يدق، ورئة تتنفس، وعرق ينبض، وإرادة لا تنكسر، فإنه -بعون الله وتسديده وتوفيقه- يستطيع أن يحوِّل الظروف لصالحه، إلى أن تنقلب المحنة منحة.

وأي محنة كالسجن، مَنْازِلِ البلاء، وتجربة الأصدقاء، وشماتةِ الأعداء، وقبورِ الأحياء؟

قال عبد الملك بن عبد العزيز، لما كان في حبس الرشيد:

ومحلةٍ شمل المكارهُ أهلَها ... وتقلَّدوا مشنوءَةَ الأسماءِ

دارٌ يُهابُ بها اللئامُ وتُتَّقَى ... وتَقِلُّ فيها هيبةُ الكرماءِ

ويقول عِلْجٌ ما أَرَادَ، ولا ترى ... حرًّا يقول برقة وحياءِ

ويَرِقُّ عن مسِّ الملاحة وجهُهُ ... فيصونه بالصمت والإغضاءِ

وقال شاعر من المسجونين:

خَرَجْنَا من الدنيا ونَحْنُ من اهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتَى

إِذَا جَاءَنا السجّان يومًا لحاجةٍ ... عَجِبْنَا وقلنا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا



(١) انظر: «وحي القلم» للرافعي (٢/ ٨٣).

وقد حاول بعض الأدباء أن ينظر إلى السجن من منظور إيجابي، فقال:

قالوا: حُبِستَ فقلتُ ليس بضائري ... حَبْسِي وأيُّ مُهَنَّدٍ لا يُغمَدُ

أَوَ ما رأيتَ الليثَ يألف غابه ... كِبْرًا وأوباشُ السباعِ تردد

والبدر يدركه المحاق فتنجلي ... أيامُه وكأنه متجدِّدُ

ولكل حالٍ مُعْقِبٌ ولربما ... أجلَى لك المكروهُ عمَّا تحمَدُ

والسجنُ، ما لم تغشَهُ لدنيَّةٍ ... شنعاء، نعم المنزل المتوَرَّدُ

بيت يُجَدِّدُ للكريم كرامةً ... فيُزار فيه ولا يَزورُ ويُحْفَدُ

ومن أحسن ما قيل في تسلية المسجونين قول البحتري:

أما في رسول الله يوسفَ أسوةٌ ... لمثلك محبوسًا على الجَوْرِ والإفكِ

أقام جميلَ الصبرِ في السجن برهةً ... فآل به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

إن السجن للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة قلبه ببراءته تعزية وسلوى.

لم يُضيع يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ الفرصة، بل انتهزها ليبث بين أصحابه السجناء عقيدته الصحيحة، فكونه سجينًا لن يعفيه من مسؤولية التبليغ لدين الله، فاستثمر فرصة سؤال السجينين عن رؤياهما، ليبث إليهما دعوة التوحيد من وراء الأسوار: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف:٣٩].

ومن صور تحويل محنة السجن إلى فرصة للإنجاز:

أن الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسِي أملى كتابه «المبسوط» نحو خمسة عشر مجلدًا، وهو في السجن بـ«أوزجند»، كان محبوسًا في الجُبِّ بسبب كلمة نصح بها

الخاقان، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة كتاب وهو في الجبِّ، وأصحابه في أعلى الجب، وقال عند فراغه من شرح العبادات: «هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، إملاء المحبوس عن الجمع والجماعات».

وقال في آخر شرح الإقرار: «انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار، إملاء المحبوس في محبس الأشرار».

وله كتاب في «أصول الفقه»، وشرح «السير الكبير» أملاه وهو في الجبِّ، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج فأُطلق، فخرج في آخر عمره إلى «فَرْغانة» فأنزله الأمير «حسن» بمنزله، ووصل إليه الطلبة، فأكمل الإملاء[(١)].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يكتب فتاواه وهو سجين ويرسلها إلى تلاميذه، ولما أصدر السلطان أمرًا بإخراج ما عنده من الكتب والأقلام والأوراق، ظل يكتب فتاواه ورسائله بالفحم، وعلى جدار السجن.

ويذكر توماس أرنولد: «أن الأسير المسلم كان يغتنم فرصة أسره ليدعو آسريه أو أصحابه في الأسر إلى الإسلام، ويذكر أن الإسلام تسرَّب إلى أوروبة الشرقية عن طريق عالم مسلم سِيقَ أسيرًا، وجيء به إلى بلاد «بتشنج» Pechenegs في مستهل القرن الحادي عشر (الميلادي)، وهناك بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام، فاعتقدوه بإخلاص، حتى إنه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب، ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الإسلام، وكان من بينهم مسلمون تعلَّموا الفقه والتوحيد»[(٢)].



---

(١) «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» (ص١٥٨) نقلًا من «من أخلاق العلماء» (ص٢٠٢، ٢٠٣).
(٢) «الدعوة إلى الإسلام» (ص٤٥٣).




وذكر أيضًا أنه «في عهد الإمبراطور جهانجير (١٦٠٥-١٦٢٨م) كان هناك عالم سني من علماء التوحيد يدعى الشيخ أحمد مجدد، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص. ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط في ذلك الحين نجحوا في إيداعه السجن بتهمة تافهة، وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه[١].

ومنها -كما نقل- أن الحكومة البريطانية قضت بنفي أحد مولوية[٢] الهند إلى جزائر أندمان نفيًا مؤبدًا، لأنه كان قد قام بنصيب فعال في مؤامرة دبّرها الوهابيون[٣] سنة ١٨٦٤م. وهناك أدخل هذا المولوي في الإسلام قبل وفاته كثيرًا من المحكوم عليهم»[٤].

ومن نماذج الإنجاز والإبداع في الظروف الاستثنائية:

- السِّفر المبارك: «زاد المعاد في هدى خير العباد» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أوفى كتاب في سيرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الكتاب الذي قيل في حقه: «بيت ليس فيه (زاد المعاد) بيت ليس فيه زاد»، كتبه الإمام المحقق ابن قيم الجوزية وهو مسافر، وما أدراك ما مشقة السفر في عصر ذلك الإمام (توفي سنة ٧٥١هـ)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ مُعَرِّفًا بهذا الكتاب:

(١) نفسه (ص٤٥٣).

(٢) **مولوية الهند**: «مولوي» لقب يلقَّب به «العلماء» في شبه القارة الهندية الباكستانية.

(٣) **الوهابيون**: لقب كان يطلقه الاستعمار البريطاني ومن شايعهم والخرافيون على «أهل الحديث» ومن كان معهم من الحنفية الذين خاضوا في معارك مسلحة لتحرير شبه القارة الهندية الباكستانية.

(٤) «الدعوة إلى الإسلام» (ص٤٥٣).



«وإذا كانت سعادةُ العبد في الدارين معلقةً بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجب على كلِّ من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين به، ويدخل به في عِداد أتباعه وشِيعته وحِزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثِر، ومحروم، والفضلُ بيد الله يُؤْتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وهذه كلمات يسيرة لا يَستغني عن معرفتها مَنْ له أدنى همة إلى معرفة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرتِه وهديه، اقتضاها الخاطِرُ المَكْدُودُ على عُجَرِهِ وبُجَرِهِ[(١)] مع البِضاعة المزجاة التي لا تنفتح لها أبوابُ السُّدَدِ، ولا يتنافس فيها المتنافسون مع تعليقها في حال السفر لا الإقامة، والقلبُ بكل وادٍ منه شُعبة، والهمة قد تفرقت شَذَرَ مَذَرَ[(٢)]، والكتاب مفقود، ومَنْ يفتح باب العلم لمذاكرته معدوم غيرُ موجود، فَعُودُ العلم النافع الكفيل بالسعادة قد أصبح ذاويًا، ورَبْعه قد أوحش من أهله وعاد منهم خاليًا، فلسان العالم قد مُلِئَ بالغلول مضاربةً لغلبة الجاهلين، وعادت موارِدُ شفائه وهي معاطبه لكثرة المنحرفين والمحرِّفين، فليس له مُعَوَّل إلا على الصبر الجميل، وما له ناصر ولا معين إلا الله وحده وهو حسبُنا ونعم الوكيل»[(٣)].

وقد علق المحققان على هذا فقالا في تقديم الكتاب:



---

(١) أي: على معايبه ومساويه، وأصل العُجَر: العروق المتعقدة في الجسد، والبُجَر: العروق المتعقدة في البطن خاصة، وفي حديث أم زرع -وهو في الصحيح- «إن أذكره أذكر عجره وبجره» والمعنى: إن أذكره، أذكر معايبه التي لا يعرفها إلا من خبره.

(٢) يقال: ذهبوا شَذَرَ مَذَرَ، بفتح الشين والميم وكسرهما: إذا ذهبوا متفرقين في كل وجه.

(٣) «زاد المعاد» (ص٦٩، ٧٠).



«ومما يُثير الدهشة أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ألَّف كتابه هذا في حال السفر، ولم تكن في حَوْزَتِهِ المصادرُ التي ينقلُ منها ما يحتاجُ إليها من أخبار وآثارٍ تتعلَّقُ بموضوع الكتاب؛ مع أنه ضَمَّنه معظم الأحاديث النبوية القولية منها والفعلية المتعلقة به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما هو منثورٌ في الصحاح، والسنن، والمسانيد، والمعاجم، والسِّيَر، وأثبت كُلَّ حديثٍ في الموضوع الذي يخصُّه مما يشهد بسَعة اطلاعه، وجودة حفظه، وسرعة بديهته، وربما تزول الدهشة إذا صحَّ ما ترامى إلينا من أن هذا الإمام كان يستظهر «مسند الإمام أحمد بن حنبل» الذي يضمُّ أكثر من ثلاثين ألف حديثٍ من حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

- وشرح الإمام القرطبي «صحيح مسلم» وهو على ظهر السفينة.

- وقال شجاع بن الوليد: كنت أحج مع سفيان، فما يكاد لسانه يفتر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا[(٢)].

- وكان الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرأ في طريقه إلى الحج في كل يوم ختمة قراءة ترتيل، وكذلك فعل في رحلته من دمشق إلى بغداد[(٣)].





(١) مقدمة تحقيق «زاد المعاد» (ص٦، ٧).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٩).
(٣) «مقدمة الجامع» للخطيب (١/ ٣٣).





أعلام رغم الإعاقة

ومن ثمرات «علو الهمة» تحدي كبير الهمة للعوائق التي تبدو لأول وهلة حائلا يحول دون النجاح بل التفوق والإنجاز، ومن ذلك كل أنواع الإعاقة الجسدية، فيُثبِتُ بحسن مواجهة إعاقته، وتأهيل نفسه أنه لا شيء يمكن أن يقمع الروح الوثابة والنفس الطموحة إذا حَلَّقت عاليًا نحو القمة، لأنه على قدر النية والهمة تأتي معونة الله تعالى الذي لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

لقد أثبت هؤلاء أن مقولة: «العقل السليم في الجسم السليم» ليست مسلَّمة على إطلاقها، فها هو ذا التاريخ القديم والتاريخ الحديث يزخران بنماذج ممن ألَّمت بأجسامهم إعاقة جسدية لكنها لم تنل من همتهم وإرادتهم، فتركوا بصمات تفوقوا بها على كثير من أصحاب الأجسام السليمة ممن حُرموا نعمة الهمة العالية.

إن اليُتم، والعَمى، والغربة، والفقر، والمرض، والإعاقة قد تكون أسبابًا للنبوغ والإبداع:

قد يُنْعِمُ اللّهُ بالبلوى وإن عَظُمت ... ويبتلي اللّهُ بعضَ القومِ بالنعمِ

إن طاقة الجسم محدودة، وطاقاتِ الروح ممدودة، ولذلك فإن الإعاقة الحقيقة هي إعاقة الروح، وشلل الإرادة، فالاكتئاب إعاقة، والخجل إعاقة، والتردد إعاقة، والخوف إعاقة لا يغني معها شيئًا سلامةُ الجسد، ولأن النماذج



كثيرة فإننا نقتصر على ذكر أمثلة من الشخصيات التي ازدانت بها صفحات تاريخنا ممن ألمَّ بهم نوع من الإعاقة لكنهم تفوقوا، وأنجزوا، وأبدعوا.

فمن هـؤلاء:

١- عمرو بن الجموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

من كبار الصحابة، كان أعرج، ومع ذلك أصر على المشاركة في غزوة أحد، وسأل الله الشهادة، فظفر بها، ولما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الشهداء قال: «**كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة**»[(١)].

٢- عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ت:٣٢هـ):

من كبار صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأحد السابقين البدريين، وأحد الثمانية الذين بادروا إلى الإسلام، جاهد في غزوة أحد، وأصيب فيها بعشرين جرحًا، ترك أحدها في ساقه عَرَجًا دائمًا، وسقطت بعض أسنانه، فتركت أثرًا واضحًا في نطقه وحديثه، فكان أهتم، أعسر، أعرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- الأحنف بن قيس (ت:٦٧هـ):

اسمه الضحاك، ولُقب بالأحنف، لحنَفٍ (اعوجاج) في رجليه، منذ ولادته، وكان ملتصق الفخذين فشُق ما بينهما، وكان أعرج أعور دميمًا قصيرًا كوسجًا، متراكم الأسنان، صغير الرأس، مائل الذقن، بارز الوجه، منخسف العينين، ولكنه جمع خصال السيادة والشرف: من حنكة وحِلم وحزم ومروءة

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٩٩)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٣/ ١٧٣).



وثقة بالنفس ومصارحة بالرأي مع حُسن بيان وطلاقة لسان، يُضرب بحلمه وسؤدده المثل.

وقيل: «إن الأحنف من عِزِّه كان إذا غضب، غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب».

وقال عنه الجاحظ: «إنه أبين العرب والعجم قاطبة».

وقال فيه الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابنَ قيسٍ ... ظَلَلْنَ مهابةً منه خشوعا

قال مغيرة: ذهبت عينُ الأحنف، فقال: «ذهبت من أربعين سنة ما شكوتُها إلى أحد».

٤- أبو الأسود الدؤلي (ت:٦٩هـ):

القاضي الفقيه المحدث الشاعر الأمير النحوي.

عرف بصفات عديدة: فهو أعرج أصلع أبخر، شجاع ذكي، وهو الذي وضع أصول النحو العربي، ونقط المصحف الشريف، وكان من القراء الحفظة لكتاب الله تعالى، أصيب آخر عمره بالفالِج.

٥- عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ت:٣٧هـ):

شارك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع المشاهد والغزوات، وبعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاهد في حروب الردة، وفقد فيها أذنه وذراعه. قال له رجل بصري في «نهاوند»: أيها الأجدع، فقال عمَّار: «خيرَ أُذُنَيَّ سببتَ، فإنها أصيبت في سبيل الله».



٦- أبان بن عثمان بن عفان (ت:٨٥هـ):

ابن الخليفة الراشد، كان به صمم وحَوَل وبرص، وأصابه الفالج (شلل يصيب أحدَ شِقَّيْ الجسم طولًا) قبل وفاته بعام، كان من فقهاء التابعين وعلمائهم، قال فيه عمرو ابن شعيب: «ما رأيت أحدًا أعلم بحديثٍ ولا فقه من أبانَ بن عثمان»، ويعد من فقهاء المدينة العشرة المشهورين.

٧- سعيد بن المسيب سيد فقهاء التابعين (ت:٩٤هـ):

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أعور، وكان مثالًا يحتذى في دينه وخلقه وسيرته، وهو سيد فقهاء المدينة السبعة وأفضلهم، وقال عنه عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لو رأى هذا رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسرَّه»، وقال الخزرجي: «هو رأس علماء التابعين، وفردهم، وفاضلهم، وفقيههم».

٨- موسى بن نصير الفاتح الإسلامي الذي لم يُهزَم في معركة (ت:٩٧هـ):

فتح الشمال الأفريقي، وهو الذي أرسل طارق بن زياد لفتح الأندلس، ثم لحق به وأتما فتحها، وكان موسى أعرج.

٩- محمد بن سيرين التابعي الجليل شيخ الإسلام (ت:١١٠هـ):

كان أصم، قصيرًا، عظيم البطن، قال الطبري: «كان ابن سيرين فقيهًا عالمًا ورعًا أديبًا، كثير الحديث، صدوقًا، وهو حجة»، وقال الشعبي: «عليكم بذلك الأصم»، وقال الأصمعي: «إذا حَدَّث الأصم بشيء فاشدد يديك».

وقال أبو عوانة: «رأيت محمد بن سيرين في السوق، فما رآه أحدٌ إلا ذكر الله».

وقال ابن سيرين: أدركت القوم وهم يقدمون خمسة، من بدأ بالحارث الأعور ثنَّى بعَبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ثم علقمة الثالث، لاشك فيه، ثم مسروق، ثم شريح، وإن قومًا أخسهم شريح لَقوم لهم شأن.

عن محمد قال: كان أصحاب عبد الله خمسة كلهم فيه عيب: عبيدة أعور، ومسروق أحدب، وعلقمة أعرج، وشريح كوسج، والحارث أعور.

١٠- عطاء بن أبي رباح العالم الفقيه التابعي (ت:١١٥هـ):

كان مصابًا بالعرج الشديد، وكان قد فقد إحدى عينيه في صغره، وكان أسود، أفطس، وقُطِعتْ يده أثناء قتاله مع عبد الله بن الزبير، ثم عمي بعد ذلك رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

أصبح مفتي مكة، وكان ثقة فقيهًا عالمًا محدثًا زاهدًا، أدرك مائتي صحابي، وأخذ عنهم العلم، وأمضى نصف قرن يفتي الناس.

١١- قَالُون «أبو موسى عيسى بن مينا» (ت:٢٢٠هـ):

الإمام المجوِّد النَّحوي مقرئ المدينة، وتلميذ نافع، قال علي بن الحسن الهسنجاني: كان شديد الصَّمَم، فكان ينظر إلى شَفَتَيْ القارئ ويرد، أي يرد عليه اللحن والخطأ.

١٢- نُعيم بن حماد بن معاوية (ت:٢٢٨هـ):

الإمام العلامة الحافظ صاحبُ التصانيف، الفَرَضي الأعور.

قال المَرُّوذِيُّ: سمعت أبا عبد الله يقول: جاءنا نعيم بن حماد ونحن على باب هُشيم نتذاكر المُقَطَّعات (وهي أقوال الصحابة والتابعين)، قال: جمعتم حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «فعُنينا بها من يومئذ».



وعن الإمام أحمد قال: «أول من عرفناه يكتب المسند نعيم بن حماد».

وقال أبو بكر الخطيب: يقال: «إن أول من جمع المسند، وصنَّفه نعيم».

سُجن رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقُيِّد لامتناعه من القول بخلق القرآن، فجُرَّ بأقياده، فألقي في حفرة، ولم يُكَفَّن، ولم يُصَلَّ عليه، فعل به ذلك صاحب ابن أبي دؤاد.

١٣- الإمام محمد بن عيسى الترمذي (ت:٢٧٩هـ) صاحب السنن:

من أئمة الحديث الأفذاذ، قال فيه السمعاني: «إمام عصره بلا مدافعة، صاحب التصانيف»، كان ضريرًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

١٤- علي بن إسماعيل بن سِيدَه (ت:٤٥٨هـ):

رافقه العمى منذ ولادته، من أشهر علماء اللغة العربية في الأندلس، قال عنه صاعد الأندلسي: «أعلم أهل الأندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وأحفظهم لذلك».

وهو موثوق في روايته، حجة في نقل اللغة، ألف «المخصص»، و«العويص في شرح إصلاح المنطق»، و«الوافي في علم القوافي»، وكتابه الكبير الذي أملاه من صدره: «المحكم والمحيط الأعظم».

١٥- أبو الحسن الحصري القيرواني (ت:٤٨٨هـ):

من أكبر القراء، والأدباء، والشعراء في بلاد المغرب العربي والأندلس عاش ضريرًا منذ صغره، وافتخر بعماه على المبصرين بسبب علمه وموهبته الشعرية، وألمح إلى أن ذَهاب بصره كان نعمة عليه، لأن نور عينيه انعكس إلى قلبه، فتضاعف نوره، يقول:

وقالوا قد عَمِيتَ فقلتُ كلا ... فإني اليوم أبصرُ مِن بصيرِ





١٦- المفسر الشهير أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المعتزلي (ت:٥٣٨هـ):

صاحب «الكشاف عن حقائق التنزيل»، كان رأسًا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، قيل: سقطت رجله من الثلج، فكان يمشي على عكاز خشبي، ولهذا قيل: «لولا الأعرج والكوسج لرُفِع القرآن بكرًا»[١].

١٧- الإمام المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت:٦٠٦هـ):

أُقْعِدَ في آخر زمنه، فصعبت عليه الحركة، حتى كان السلطان نور الدين شاه يقصده في منزله في مهام نفسه.

١٨- الحافظ العلامة ابن العطار (ت:٧٢٤هـ) أخص تلامذة الإمام النووي:

أصيب بالفالِج (الشلل النصفي) سنة (٧٠١هـ)، وكان يُحمل في محفة، ويطاف به مجالس العلم ليُلقي على الطلاب دروسهم.

١٩- مصطفى صادق الرافعي (ت:١٩٣٧م):

أصيب بمرض وهو في المرحلة الابتدائية أَثَّر على أعصاب سمعه، فأخذ سمعه يضعف ويثقل حتى أصبح أصم وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره. لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية -كالعقاد- ولكنه علَّم نفسه، وعلت همته، وتعلم على يد والده، واستفاد من مكتبة والده الحافلة بكتب الفقه واللغة العربية،



---

(١) أي: لولا هذان الرجلان لم تتبين بلاغة القرآن على وجهها الأتم الأكمل، والأعرج هو الزمخشري، والكوسج: هو الذي لا شعر على عارضيه، أو قليل شعر اللحية، والمراد الإمام سراج الدين السكاكي.

فاكتسب ملكة أدبية خصيبة، واتسعت ثقافته الإسلامية، وصار شاعرًا مبدعًا، وكاتبًا بارعًا، ومؤرخًا وناقدًا.

ترك تراثًا أدبيًّا وفيرًا، ويعد الرافعي بحقٍّ محاميَ الحضارة الإسلامية، واللغة العربية، وخاض معارك أدبية لا حد لها مع أعداء الدين واللغة والتاريخ[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى.

٢٠- فارس المنبر الشيخ عبد الحميد كشك (ت:١٩٩٦م):

عندما بلغ السادسة من عمره أصيب بمرض في عينه أفقده بصره، أشهر خطباء العصر، له أكثر من ألفي خطبة مسجلة، خطب مدة أربعين سنة، ولم يُؤْثَر عنه أنه لَحَنَ في كلامه قط.

حفظ كتاب الله قبل أن يبلغ العاشرة، كان أول الجمهورية في الثانوية الأزهرية، واستمر الأول على دفعته في كلية أصول الدين طوال سنوات الدراسة رغم الصعوبات الشديدة التي واجهها بسبب فقدانه بصره، وكان يكلفه بعض أساتذته وهو طالب بشرح المواد الدراسية في محاضرات عامة للطلاب، بل كان منهم من يعرض عليه مادته العلمية قبل أن يلقيها على طلابه، وبخاصة علوم النحو والصرف.

كان من أصحاب البيان واللسن وجهارة الصوت وقوة التأثير، وكان وراءه جمهور ضخم، ولقيت تسجيلاته انتشارًا وذيوعًا داخل مصر وخارجها، اهتدى كثيرون في أطراف الأرض وتابوا بسبب خطبه التي طوَّفت أرجاء الدنيا، خاصة

(١) وقد قال عنه الزعيم مصطفى كامل: «سيأتي يوم إذا ذُكِر فيه الرافعي قال الناس: هو الحكمة العالية مَصُوغة في أجمل قالَب من البيان».

شباب المسلمين المهاجرين إلى الغرب، كان أحيانًا يعتمد أسلوب القصاصين، ولا يتحرى صحة الأحاديث، رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

٢١- وكنت أعرف شابًّا في سبعينيات القرن الماضي فَقَدَ في حادثة قطارٍ رجليه، وذراعيه إلا جزءًا يسيرًا من أعلى عضديه، ومع ذلك كان يعمل بجد واجتهاد، بقي أن تعرف أن عمله الذي كان يجيده، ومهنته التي أتقنها هي مهنة «الخطاط»، فقد كان جميل الخط، وكان يكتب لافتات المحلات التجارية في منطقة محطة مصر بالإسكندرية (ميدان الجمهورية حاليًا)، وما أكثر ما كنا نمر عليه، وهو معلق على سُلَّم، وقد أمسك بإحكام بفرشاة الخط بما تبقى من عضديه، كاتبًا اللافتات بأجود خط وأحسنه.





الفشل.. يا له من مُعَلِّمٍ عظيم!

الفشل ليس نهاية العالم، بل هو خطوة على طريق النجاح، قال بعضهم: «لقد فشلت، وفشلت، وفشلت، ولهذا نجحتُ في النهاية».

إن المحاولة والخطأ (Trial and Error) إحدى وسائل التعلم المعروفة، حتى الرضيع حين يتعلم المشي يبدأ بالحبو ثم يحاول الوقوف مستندًا، ثم يحاول المشي استقلالًا، فيقع، ثم يقع، وأخيرًا يخطو خطواته الأولى بنجاح.

«إن ما نراه من نجاحات في عالم الواقع ليس وليد المحاولة الأولى، بل إن هناك مئات بل ألوف التجارب المخفقة التي سبقت النجاح الكبير، وهم يذكرون أن (أديسون) واجه في بحثه الدؤوب عن مادة (السلك) المناسب لصناعة المصباح الكهربائي ألفَ حالة إخفاق -وهي بالطبع ألفُ عقبة مؤقتة- قبل أن يتوصل إلى المادة المناسبة، بعد ألف محاولة يمكن لأي رجل عادي أن يعترف بالهزيمة، إن كان لا يتمتع بخاصة الصبر والإصرار على الظفر غير المحدود»[(١)].



(١) «الإنسان والتفكير الإيجابي» (ص١٦١)، بتصرف، ولما قيل له: «لقد فشلت ألف مرة»، أجاب: «أنا لم أفشل ألف مرة، بل اكتشفت ألف طريقة لا تؤدي إلى اختراع المصباح».

الفَصلُ الرَّابِعُ

أطفَالنَا ... وَعلُوّ الهِمَّةِ





أطفالنَا ... وَعلُوّ الهِمَّةِ



الطفل واحد من رجال الأمة إلا أنه مستتر بثياب الصبا، فلو كُشف لنا عنه، وهو كامن تحتها لرأيناه واقفًا في مصافِّ الرجال القوامين، لكن جرت سنة الله أن لا تتفتق أزرار تلك الأسرار إلا بالتربية شيئًا فشيئًا، ولا تؤخذ إلا بالسياسات الجيدة على وجه التدريج(١).

وشعار «الأطفال هم المستقبل» حقيقة لا مجاز، واقعٌ لا خيال، فمِن ثَمَّ ينبغي أن يُصرف الهمُّ الأكبر إلى تهيئتهم ليكونوا مؤتمنين على مستقبل أمة الإسلام، وينبغي أن نتخلى عن نظرتنا إلى هؤلاء البراعم على أنهم لُعبة مُلْهِية نتسلَّى بها، وننسى أن تربية الأطفال تبدأ مبكرًا جدًّا.

فينبغي على المصلحين أن يصرفوا قدرًا عظيمًا من الجهد في توجيه الآباء إلى الأساليب العلمية الصحيحة لتربية أولادهم في شتى مراحل نموهم، كي يشبوا أصحاء نفسيًّا، وإلا فما أفدح الخسائر التي تتكبدها الأمة إذا هي أهملت تربية أبنائها!

وأول قلعة يتحصن بها الطفل هي الأسرة، أقوى مؤسسة تربوية على الإطلاق، والوالدان بصفة خاصة، قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمَه نشأ عليه، وسَعِدَ في الدنيا والآخرة، وإن عُوِّد الشر، وأُهمِلَ إهمالَ البهائم شقي



---

(١) «حياة الأمة» (ص٧٦).

وهلك .... وصيانته بأن يؤدِّبه، ويهذبه، ويعلمه محاسن الأخلاق ...»، وقال الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا اعتبرتَ الفسادَ في الأولاد، رأيت عامته مِن قِبَلِ الآباء».

وفي هذا أنزل الله تعالى آية من كتابه تتلى في المحاريب إلى آخر الزمن، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]، قال أمير المؤمنين علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «علِّموا أنفسَكم وأهليكم الخير، وأدِّبوهم».

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاه: أحفظ ذلك أم ضيَّعه؟ حتى يَسأل الرجل عن أهل بيته**»[1].

وعن معقل بن يسار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يَحُطْها بنُصْحِه، إلا لم يجد رائحةَ الجنة**»[2].

وما أحسن ما قال المعري:

وينشأ ناشئُ الفتيانِ مِنا ... على ما كان عَوَّدَهُ أبوهُ
وما دانَ الفتى بِحِجًا، ولكن ... يُعَلِّمُه التديُّنَ أقربوه

ورحم الله من قال:

قد ينفع الأدبُ الأطفالَ في صِغَرٍ ... وليس ينفعهم من بعده أدبُ
إن الغصون إذا قَوَّمتَها اعتدلت ... ولا يَلِينُ ولو قَوَّمْتَه الخشبُ

(١) رواه ابن حبان، وابن عدي في «الكامل»، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ١١٣).
(٢) متفق عليه.

وقال ابن خلدون: «التعليم في الصغر أشد رسوخًا، وهو أصل لما بعده»[(١)].

ويتأكد الاهتمام بهذه التربية في زماننا الذي تتناوش فيه أطفالنا وأبناءنا فتن من كل صَوْب، يُذْكي لهيبَها دعاة على أبواب جهنم، من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، همهم كل همهم أن يُخرِجوا من أصلابنا أجيالًا من الملاحدة الذين يرضون بالعالمانية ربًّا، ودينًا، ومنهاج حياة، فإن لم يتدارك الآباء أبناءهم بالتربية الإسلامية القويمة؛ افترستهم العالمانية الملحدة، وضمتهم إلى صفوفها ليحاربوا الله ورسوله والمؤمنين كما هو مشاهد في البلدان التي سبقت إلى اعتناق هذا الدين «اللاديني» المخرِّب.

ومن رعى غنمًا في أرضِ مَسْبَعةٍ[(٢)] ... ونـام عنـهـا؛ تـولى رَعْـيَـهـا الأسَـدُ

لقد اشتد حرص السلف على مباشرة هذه المهمة الجسيمة، حتى أن المنصور بعث إلى مَن في الحبس من بني أمية، يقول لهم: «ما أشدُّ ما مَرَّ بكم في هذا المحبس؟»، فقالوا: «ما فقدنا من تربية أولادنا».

واشتد نكيرهم على مَن يصرف همه إلى الكبار فقط، ويهمل الصغار، وما ذاك إلا لأن الأمة محتاجة إليهم، وهم الأعمدة التي تُبنى لتحملَ ثِقَلَ البناءِ فيما بعد:

قال عمرو بن العاص لحلقة قد جلسوا إلى جانب الكعبة، فلما قضى طوافه جلس إليهم وقد نَحُّوا الفتيانَ عن مجلسهم، فقال: «لا تفعلوا! أوسعوا لهم،



(١) «المقدمة» (ص٣٣٤).
(٢) المَسْبَعة: الأرض الكثيرة السباع.

وأدنوهم، وألهموهم، فإنهم اليوم صغار قوم يوشك أن يكونوا كبارَ قومٍ آخرين، قد كنا صغار قومٍ أصبحنا كبار آخرين».

وقد علق الإمام ابن مُفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه العبارة قائلًا: «وهذا صحيح لا شك فيه، والعلم في الصغر أثبت، فينبغي الاعتناء بصغار الطلبة لا سيما الأذكياء المتيقظين الحريصين على أخذ العلم، فلا ينبغي أن يُجعل على ذلك صغرهم أو فقرهم وضعفهم مانعًا من مراعاتهم والاعتناء بهم»[(١)].

وكان الإمام الشاشي محمد بن الحسين الفقيه الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينشد:

تعلم يا فتى والعُودُ رَطْبٌ ... وطِينُك لَيْنٌ والطَّبْعُ قابلُ



(١) «الآداب الشرعية، والمنح المرعية» (١/ ٢٢٥).

ذُو الهِمَّة العَالِية لا يخْفَى مِنْ زمَانِ الصِّبَا

تقول العامة: «الديك الفصيح، إذ هو لا يزال في البيضة يصيح».

إن علامات النجابة ومخايل العبقرية تظهر على الطفل في الصغر، حتى لا يكاد يشك ذو فِراسة إيمانية صادقة في صيرورة صاحبها إلى تسنم ذُرَى العلا، والتربع على قمة المجد، والارتقاء إلى منصب الإمامة.

في المهد يُعرب عن سعادة جَدِّه ... أثرُ النجابة ساطع البرهانِ

آخر:

إن الهلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّهُ ... أيقنتَ أن سيصيرُ بَدْرًا كامِلا

ولما وُهِب الإمام محمد بن علي السَّنوسي رَحِمَهُ اللَّهُ ابنه محمدًا المهدي تنبأ له بمستقبل مشرق، وقال للناس: «كان رجل يخرِز طبلًا، فمر به جماعة وهو يخرز، فقالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يَبِسَ تسمعون صوته»[(١)].



(١) «الحركة السَّنوسية» للصلابي (٢/ ١٦)، وقد «تميز محمد المهدي منذ طفولته بالذكاء، وحسن الخلق، والتربية الرفيعة، ومن القصص التي تدل على صفاته الحميدة: جيئ للسيد المهدي في إحدى المناسبات بجواد مسروج ليركبه، وكان محمد المهدي لا يزال صغيرًا بحيث إنه لا يستطيع وضع رجله بدون واسطة في ركاب السرج، وتقدم أحد الإخوان مطأطئًا ليصعد المهدي على كتفه حتى تصل رجله الركاب، وكان ابن السنوسي يلاحظ هذه الحركات، وينظر إليها باهتمام من طرف خفي، ورفض المهدي أن تطأ رجله كتفي الشخص الذي تقدم لمعاونته رفضًا باتًّا، وأخذ يقود جواده بنفسه إلى أن اقترب من حجر عال مثبت بالأرض فعلاه وبذلك تمكَّن من أن تصل رجله إلى ركاب السرج، فنال هذا إعجاب واستحسان والده والإخوان الحاضرين» اهـ. نقله الصلابي في «الحركة السنوسية» (٢/ ١٨) عن «السنوسي الكبير» (ص١٣٥).

وولي الإمام العلامة الشيخ محمد الخضر التونسي مشيخة الجامع الأزهر سنة (١٣٧١هـ-١٩٥٢م)، وقد بلغ من العمر ثمانين سنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا الإمام كانت أمه تلاطفه وهو صغير في المهد، وتقول له باللهجة العامية: «لَخْضَرْ يا لَخْضَرْ، تكبر وتوْلِي شِيخْ لَزْهَرْ».

ولقد اهتم المسلمون بالاجتهاد في الاكتشاف المبكر للنابغين، ووضعوا لذلك معايير دقيقة، وأوْلَوا الصغار الذين توسَّموا فيهم النجابة رعاية خاصة ترقبًا لما تفرسوه فيهم من الصدارة.

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«تأملت الذين يختارهم الحق عَزَّوَجَلَّ لوَلايته والقرب منه، فقد سمعنا أوصافهم ومن نظنه منهم، ممن رأيناه.

فوجدته سبحانه لا يختار إلا شخصًا كامل الصورة، لا عيب في صورته، ولا نقص في خلقته، فتراه حسن الوجه، معتدل القامة، سليمًا من آفة في بدنه، ثم يكون كاملًا في باطنه، سخيًّا جوادًا، عاقلًا، غير خِبٍّ ولا خادع، ولا حقود ولا حسود، ولا فيه عيب من عيوب الباطن[1].

فذاك الذي يربيه من صغره، فتراه في الطفولة معتزلًا عن الصبيان، كأنه في الصبا شيخ، ينبو عن الرذائل، ويفزع من النقائص، ثم لا تزال شجرة همته تنمو حتى يرى ثمرها متهدِّلًا على أغصان الشباب، فهو حريص على العلم، منكمش على العمل، حافظ للزمان، مراعٍ للأوقات، ساعٍ في طلب الفضائل، خائف من النقائص.

---

(١) انظر: «أولياء الله عقلاء ليسوا بمجانين» لشيخ الإسلام ابن تيمية.





ولو رأيت التوفيق والإلهام الرباني يحوطه، لرأيت كيف يأخذ بيده إن عثر، ويمنعه من الخطأ إن همَّ، ويستخدمه في الفضائل، ويستر عملَه عنه، حتى لا يراه منه»[(١)] اهـ.

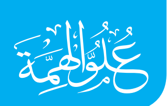
★ عن هشام بن عروة قال: إن أول ما فصح به عبد الله بن الزبير وهو صغير «السيف.. السيف»، فكان لا يضعه من فيه، وكان الزبير إذا سمع ذلك منه، يقول له: «أما والله ليكوننَّ لك منه يوم ويوم وأيام»[(٢)].

قال عروة: أسلم الزبير ابنَ ثمان سنين، ونفحتْ نفحةٌ من الشيطان؛ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخِذَ بأعلى مكة، فخرج الزبير وهو غلام، ابن اثنتي عشرة سنة بيده السيف، فمن رآه عجب، وقال: الغلام معه السيف، حتى أتى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: مالك يا زبير؟ فأخبره، وقال: «أتيتُ أضرِبُ بسيفي مَن أخذك»[(٣)].

★ عن محمد بن الضحاك أن عبد الملك بن مروان قال لرأس جالوت أو لابن رأس جالوت: «ما عندكم من الفِراسة في الصبيان؟»، قال: «ما عندنا فيهم شيء، لأنهم يُخلَقون خلقًا بعد خلق، غير أنا نرمُقهم، فإن سمعنا منهم من يقول في لعبه: «من يكون معي؟» رأيناه ذا همة وحُنُوٍّ صَدَقَ فيه، وإن سمعناه يقول: «مع من أكون؟» كرهناها منه، فكان أولُ ما عُلِم من ابن الزبير أنه كان ذات



(١) «صيد الخاطر» (ص٤٤١).
(٢) «البداية والنهاية» (٨/ ٣٤٠).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤١، ٤٢).




يوم يلعب مع الصبيان، وهو صبيٌّ، فمرَّ رجل فصاح عليهم، ففروا، ومشى ابن الزبير القهقرى، وقال: «يا صبيان اجعلوني أميركم، وشُدُّوا بنا عليه»(١).

وَمرَّ به عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو صبي يلعب مع الصبيان فَفَرُّوا ووقف، فقال له: «ما لك لم تَفرَّ مع أصحابك؟»، قال: «يا أمير المؤمنين! لم أجْرِم فأخاف، ولم تكن الطريق ضيقة، فأوسِّع لك»، وفي رواية قال: «ولِمَ أفر؟ وما أنت ظالم فأخشى ظلمك، ولا أنا مذنب فأرهب عدلَك»(٢)، فمثل هذه الشخصية «الواعدة» هي التي تستحق أن يُقال فيها:

رُفِعَتْ إليكَ وما ثُغِرْ ... تَ(٣) عيونُ مستمعٍ وناظرْ

ورأوا عليك ومنك في الـ ... ـمهدِ النُّهى ذاتَ البصائر

★ عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يعرضنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر يتوارى، فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: «إني أخاف أن يراني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيستصغرني فيرُدُّني، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة»، قال: فعُرض على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فردَّه، فكبر، فأجازه، فكان سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره»، فقُتِل وهو ابن ست عشرةَ سنة.

أما الأمير الفارس البطل المجاهد أسامة بن منقذ رَحِمَهُ اللَّهُ فقد وُلد في أسرة مجيدة في (٤٨٨هـ)، أسست إمارة شيزر، وتوارثت مُلكَها، أكثر رجالها فرسان

---

(١) «الكامل» (٤/ ٢٧).
(٢) «قصص من التاريخ» (ص١٥٨).
(٣) يقال: ثغر الغلام: إذا سقطت أسنانه الرواضع.

محاربون من الطبقة الأولى، وحين بلغ الثانية من عمره كانت الحروب الصليبية قد بدأت في بلاد الشام سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م)، ففتح عينيه على معاركها، وبلاءِ أبطال أُسرته فيها، فلا عجب أن رباه والده على الشجاعة والفتوة والرجولة، واصطحبه معه إلى الصيد، وحمله على ركوب الأخطار ليجعل منه فارسًا كاملًا، وفي هذا يقول أسامة: «.. ما رأيت الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نهاني عن قتال ولا ركوبِ خَطَرٍ مع ما كان يرى فيَّ وأرى من إشفاقه عليَّ وإيثاره لي»، ويذكر أنه رأى وهو صغير حية على حائط الدار فتسلق إليها، وأخذ يَحُزُّ رأسها بسكينه الصغير، وهي تلتف على يده، وأبوه يراه ولا ينهاه[1].

هذه هي البيئة التي نشأ فيها أسامة على الفروسية، وغُذي فيها بلبان الشجاعة، فصلب عوده وهو مرن، وألف اقتحام المخاطر وهو صغير، وكانت الأحداث من حوله تشده إلى هذا اللون من حياة الفتوة والخشونة، فالروم يتهددون أطراف بلاده، والصليبيون غاراتهم متلاحقة على بيت المقدس وبلاد الشام، ومن دون هذين كان بنو كلاب والإسماعيلية (الحشاشون) يُغِيرون على شَيْزر،

(١) ونلاحظ هنا أن مسلك والد الأمير أسامة تربويٌّ بامتياز؛ إذ إنه مارس (حماية) الطفل بأن أبقى عينه عليه، وراقبه وهو يتعامل مع الموقف بحيث يتدخل إذا تعرض لخطرٍ حقيقي، وشجَّع طفله -في الوقت نفسه- على الاستقلالية، ولم يتورط كما يتورط كثير من الآباء في آفة «الحماية الزائدة» التي تسيئ إلى شخصية الولد، وتحرمه من خبرات حياتية في مواجهة الصعاب وحل المشاكل، فينمو خائفًا من المخاطرة، ويؤثر أن يقبع -طوال حياته- في ركن «الراحة» ويقنع به، لا يغادره حتى لو احتاجت حياته البائسة إلى مغادرة ركن «الراحة» لتصبح أسعد وأفضل.
إن «الحماية الزائدة» تضعف تقديره لذاته، لأنها تشعره أنه ليس بكفء في مواجهة الصعاب بنفسه، ولن يُقدِمَ على أي فعل غير مألوف لديه لأنه سيراه غير آمن كما تلقن من سلوك والده.
إن المغامرة والمخاطرة تقوِّي في الولد رُوح المبادرة والدافعية والاستقلالية، وعلى المربي أن يفقه جيدًا: متى يتدخل ليحميه؟ ومتى يشجعه على الاستقلالية في مواجهة المشاكل؟



وكان ما حول شيزر من أماكن يقصدها أسامة للصيد مليئًا بالوحوش الضارية والحيوانات المفترسة مما جعل أسامة لا يخرج للصيد إلا وهو مسلح[(١)].

★ ونظر الحطيئة إلى ابن عباس يتكلم في مجلس عمر، فقال: «من هذا الذي نزل عن الناس في سنه، وعَلَاهم في قوله؟»، فقال ابن مسعود: «لو بلغ أسناننا ما عَشَّره[(٢)] منا رجل».

★ ورأى بُكَير بن الأخنس المُهَلَّبَ[(٣)]، وهو غلام، فقال:

خذوني به إن لم يَسُدْ سَرَواتِهم ... ويبرع حتى لا يكونَ له مِثْلُ

★ وقال حمزة بن بيض لمخلَّد بن يزيد بن المهلَّب:

بلغتَ لعشرٍ مضت من سِنيـ ... ـك ما يبلغ السيدُ الأشيبُ

فهَمُّك فيها جِسامُ الأمورِ ... وهَمُّ لِدَاتِك[(٤)] أن يلعبوا

★ ونظر رجل إلى أبي دُلَف في مجلس المأمون، فقال: «إن همته ترمي به وراء سِنِّه».

---

(١) وإذا كان الذهبي يسميه «أحد أبطال الإسلام» فإن ذلك اعتراف بالحقيقة من غير مبالغة، وأسامة نفسه يقول -حين أقعده الكبر-: «حضرت من المصافات والوقعات مَهُولَ أخطارها، واصطليت من سعير نارها، وباشرت الحرب وأنا ابن خمس عشرة سنة إلى أن بلغت التسعين، وصرتُ من الخوالف، خَدِين المنزل، وعن الحروب بمعزل، لا أُعَدُّ لُمِهمٍّ، ولا أدعى لدفع مُلِمّ، بعد ما كنت أول من تُثْنَى عليه الخناصر، وأكبر العُدَد لدفع الكبائر». وانظر مقدمة «المنازل والديار» (ص٤٠، ٤١).

(٢) كذا في «عيون الأخبار» (١/ ٢٢٩)، وعبارة اللسان: «عاشره»، وقال في بيانها: «لو كان في السن مثلنا، ما بلغ أحد منا عُشر علمه».

(٣) هو الأمير البطل قائد الكتائب أبو سعيد المهلَّب بن أبي صُفْرة، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٨٣).

(٤) **لدات**: جمع لِدة، واللِّدة: التِّرْب، من وُلِد معك.

★ قال يحيى بن أيوب العابد: حدثنا أبو المثنى قال: سمعتُهم بمَرْو يقولون: «قد جاء الثوريُّ، قد جاء الثوريُّ»، فخرجت أنظر إليه، فإذا هو غلام قد بَقَلَ[١] وجهُه.

قال الذهبي: «كان يُنَوَّهُ بذِكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه، وحدَّث وهو شاب».

وقال ابن مهدي: رأى أبو إسحاق السَّبيعُّي سفيان الثوريَّ مُقبلًا، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

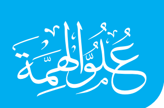
وعن سفيان بن عيينة قال: كان أبي صيرفيًّا بالكوفة فركبه الدَّيْنُ فحملنا إلى مكة، ورجعنا إلى المسجد لصلاة الظهر، وصرتُ إلى باب المسجد، إذا شيخ على حمار، فقال لي: «يا غلام، أمسِكْ عليَّ هذا الحمار حتى أدخل المسجد فأركع»، فقلتُ: «ما أنا بفاعل أو تحدثني»، قال: «وما تصنع أنت بالحديث؟» واستصغرني، فقلتُ: «حَدِّثني»، فقال: «حدثني جابر عن عبد الله وحدثنا ابن عباس»، فحدثني بثمانية أحاديث، فأمْسكتُ حماره، وجعلت أتحفَّظُ ما حدثني به، فلما صلى وخرج، قال: «ما نفعك ما حدثتك به، حبستَني»، فقلتُ: «حدثتني بكذا، وحدثتني بكذا، فرددتُ عليه جميع ما حدثني به»، فقال: «بارك الله فيك، تعال غدًا إلى المجلس»، فإذا هو عمرو بن دينار.

وقال محمد بن خلف التيمي: أخبرنا وكيعٌ قال: أتيتُ الأعمشَ فقلتُ: حدثني. قال: ما اسمُك؟ قلت: وكيع، قال: «اسمُ نبيلٍ، ما أحسبُ إلا سيكون لك نبأٌ».

(١) بقل وجهه: خرج شعره.







★ وكان البخاري ذكيًّا سريع الحفظ، فقد حفظ سبعين ألف حديث وهو صغير، وكان ينظر إلى الكتاب، فيحفظ ما فيه من نظرة واحدة، قال محمد بن حاتم:

كنت أختلف أنا والبخاري -وهو غلام- إلى الكُتَّاب، فيسمع، ولا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له يكتب مثلنا، فلما بلغ ما كتبناه خمسة عشر ألف حديث طلب منا أن نسمعها منه، وقرأها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نُحْكِمُ كتبنا على حفظه.

★ وروى الذهبي عن محمد بن أبي حاتم قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل يقول: وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي، فإذا جئت أستحيي أن أُسلم عليهم، فقال لي مؤدب من أهلها: «كم كتبتَ اليوم؟»، فقلت: «اثنين» -وأردت بذلك: حديثين- فضحك من حضر المجلس، فقال شيخ منهم: «لا تضحكوا! فلعله يضحك منكم يومًا».

وقال بكر بن منير: سمعت البخاري يقول: كنت عند أبي حفص أحمد ابن حفص، أسمع كتاب «الجامع» لسفيان الثوري، من كتاب والدي، فمرَّ أبو حفص على حرف ولم يكن عندي ما ذكر، فراجعته، فقال الثانية والثالثة، فراجعته فسكت، ثم قال: «من هذا؟» قالوا: «ابن إسماعيل»، فقال: «هو كما قال، واحفظوا أن هذا يصير يومًا رجلًا».

★ وقال الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنت يتيمًا في حجر أمي، فدفعتني إلى الكُتَّاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما جمعتُ القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء،

وكنت أسمع الحديث والمسألة فأحفظها، فلم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به القراطيس، فكنت أنظر إلى العظم فآخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جَرَّة، فاجتمع عندي حُبَّان»(١).

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقِّن الصبيَّ الآيةَ، فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: «ما يحل لي أن آخذ منك شيئًا».

قال: ثم لما أن خرجت من الكُتَّاب كنت ألتقط الخزف، والرقوق(٢)، وكَرَبَ(٣) النخل، وأكتاف الجمال، أكتب فيها الحديث، وأجيء إلى الدواوين، وأستوهب منها الظهور، فأكتب فيها، حتى كان لأمي حُبان، فملأتهما أكتافًا.

ولما قرأ الإمام الشافعي «الموطأ» على إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أُعجب مالك بحسن قراءته، وكان كلما أراد أن يمسك عن القراءة، قال له مالك: «يا فتى زِدْ».

وروى الإمام عبد الرحمن بن مهدي أنه سمع الإمام مالكًا يقول: «ما يأتيني من قرشي أفهم من هذا الفتى»، بل يتنبأ له بمستقبل علمي رائد فيقول: «إن يك أحد يُفلح، فهذا الغلام».



---

(١) **الحُبُّ**: وعاء الماء كالزير والجرَّة.
(٢) **الرقوق**: جمع رَقٍّ، جلدٌ رقيق يُكْتَب فيه، والصحيفة البيضاء.
(٣) **الكَرَب**: الأصل العريض للسعف إذا يبس.

★ وحفظ الإمام أحمد بن حنبل القرآن في صباه، وتعلم القراءة والكتابة، ثم اتجه إلى الديوان يمرن على التحرير، ويقول عن نفسه: «كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتَّاب، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربعَ عشرةَ سنة»، وكانت نشأته فيها آثار النبوغ والرشد حتى قال بعض الآباء: «وأنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم، انظروا كيف؟!» وجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته.

وكان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد ليُعْلِمَ بها الخليفة، وقد أرسلها مرة مع ابن أخيه أحمد بن حنبل، فتورع عن ذلك، ورمى بها في الماء تأثمًا من الوشاية والتسبب لما عسى أن يكون فيه ضرر بالمسلمين، وقد لفت هذا الورع وهذه النجابة كثيرًا من أهل العلم والفِراسات حتى قال الهيثم بن جميل: «إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه».

وقال الإمام عبد الرحمن بن مهدي في الإمام أحمد وهو صغير: «لقد كاد هذا الغلام أن يكون إمامًا في بطن أمه».

★ وقال الحافظ ابن عبد الهادي بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بلغني أن بعض مشايخ حلب قدم إلى دمشق، وقال: «سمعت أن في هذه البلاد صبيًّا يقال له: أحمد بن تيمية سريع الحفظ، وقد جئتُ قاصدًا لعلي أراه»، فقال له خياط: «هذه طريق كُتَّابه، وهو إلى الآن ما جاء، فاقعد عندنا الساعة يمر ذاهبًا إلى الكُتَّاب»، فلما مر قيل: «ها هو ذا الذي معه اللوح الكبير»، فناداه الشيخ، وأخذ منه اللوح، وكتب له من متون الحديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثًا، وقال له: «اقرأ هذا»،



فلم يزد على أن نظر فيه مرة بعد كتابته إياه، ثم قال: «اسمعه عليَّ»، فقرأه عليه عرضًا كأحسن ما يكون، ثم كتب عدة أسانيد انتخبها، فنظر فيه كما فعل أول مرة فحفظها، فقام الشيخ، وهو يقول: «إن عاش هذا الصبي ليكوننَّ له شأن عظيم، فإن هذا لم يُرَ مثله»، فكان كما قال[١] اهـ.

وقال البزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية فيه واضحة، أخبرني من أثق به عن جدَّته أنّ الشيخ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حال صغره كان إذا أراد المُضيَّ إلى المكتب، يعترضه يهوديٌّ كان منزله بطريقه، بمسائَل يسأله عنها لِما يلوح عليه من الذكاء والفطنة، وكان يجيبه عنها سريعًا، حتى تعجَّب منه. ثم إنه صار كلَّما اجتاز يُخبره بأشياء مما يدلُّ على بُطلان ما هو عليه، فلم يلبث أن أسلم وحَسُن إسلامه، وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنِّه»[٢].

وذكر البزار نقلًا عن شيخ لشيخ الإسلام: قال لي أبوه وهو صبي (أي: شيخ الإسلام): أُحِبُّ إليك أن توصيه وتَعِدَهُ بأنك إن لم تنقطع عن القراءة والتلقين أدفع إليك كل شهر أربعين درهمًا، قال: ودفع إليَّ أربعين درهمًا، وقال: أعطه إياها، فإنه صغير، وربما يفرح فيزداد حرصه في الاشتغال بحفظه القرآن، ودرسه، وقل له: لك في كل شهر مثلها، فامتنع من قبولها، وقال: «يا سيدي، إني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ على القرآن أجرًا»، فلم يأخذها[٣].

(١) «غاية الأماني» (٢/ ١٦٩، ١٧٠).
(٢) «الأعلام العلية» للبزار (ص٧٤٢)، مع «العقود الدرية في مناقب ابن تيمية» ط. دار عالم الفوائد.
(٣) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» المطبوع مع «العقود الدرية» (ص٧٦٥).



- الإمام محمد بن أحمد بن حمزة شمس الدين الرمليُّ المصري الأنصاري (ت:١٠٠٤هـ) الشهير بالشافعي الصغير، عدَّه جماعة من العلماء مجدد القرن العاشر، اشتغل على أبيه في الفقه والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والتاريخ، وبه استغنى عن التردُّدِ إلى غيره وحكى عن والده أنه قال: «تركت محمدًا بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا في النادر».

وقد ذكره الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «طبقاته الوسطى»، وقال: «صَحِبْتُه من حين كنتُ أحمله على كتفي إلى وقتنا هذا، فما رأيتُ عليه ما يَشينه في دينه، ولا كان يلعب في صغره مع الأطفال، بل نشأ على الدين والتقوى والصيانة وحفظ الجوارح ونقاء العرض، رباه والده فأحسن تربيته، ولما كنت أحمله وأنا أقرأ على والده في المدرسة الناصرية كنت أرى عليه لوائح الصلاح والتوفيق، فحقق الله رجائي فيه، وأقرَّ عين المحبين به، فإنه الآن مرجع أهلِ مصرَ في تحرير الفتاوى، وأجمعوا على دينه وورعه وحسن خلقه وكرم نفسه، ولم يزل بحمد الله في زيادة من ذلك» اهـ[١].



(١) «المختار المصون» (٢/ ١٠٨٧، ١٠٨٨).



سِيمَاهُم في كَلَامِهم كَمَا هِيَ في وجُوهِهم

وربما أنطق الله سبحانه الغلامَ الحدثَ بما يعجز عنه فطاحلُ الأدباء، فيصير ذلك علامةً كاشفة لما أودع الله بين جنبيه من الحكمة، وما متَّعه به من الذكاء:

★ وقد رُوي عن معمر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أن الصبيان قالوا ليحيى: «اذهب بنا نلعب»؛ فقال: «ما لِلَّعِبِ خُلِقْتُ»(١).

ورُوِيَ أن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى ولدًا له في يوم عيد، وعليه ثوب خَلَق -أي: قديم- فدمعت عيناه، فرآه ولده، فقال: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟

قال: يا بني، أخشى أن ينكسر قلبك إذا رآك الصبيان بهذا الثوب الخَلَق.

قال: «يا أمير المؤمنين، إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه، أو عقَّ أمه وأباه، وإني لأرجو أن يكون الله تعالى راضيًا عني برضاك».

★ وقال الشيخ ياسين بن يوسف المُرَّاكشي: رأيت الشيخ(٢) -وهو ابن عشر سنين- بنوى، والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، قال: فوقع في قلبي محبته، وجعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن، قال: فأتيت الذي يقرئه القرآن

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/ ٨٧).
(٢) يعني الإمام أبا زكريا يحيى بن شرف النوويَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



توصية به، وقلت له: «هذا الصبي يُرجَى أن يكون أعلم أهل زمانه، وأزهدهم، وينتفع الناس به»، فقال لي: «أمُنَجِّمٌ أنت؟»، فقلت: «لا، وإنما أنطقني الله بذلك»، فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام[(١)].

★ تقدم إياس بن معاوية[(٢)] وهو صبي إلى قاضي دمشق، ومعه شيخ، فقال: «أصلح الله القاضي، هذا الشيخ ظلمني، واعتدى عليَّ، وأخذ مالي»، فقال القاضي: «ارفِق به، ولا تستقبل الشيخَ بهذا الكلام»، فقال إياس: «أصلح الله القاضي، إن الحقَّ أكبر مني ومنه ومنك»، قال: «اسكت»، قال: «إن سَكَتُّ فمن يقوم بحُجَّتي؟»، قال: «تكلم، فوالله ما تتكلم بخير»، فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له»، فرفع صاحبُ الخبر هذا الخبر إلى الخليفة، فعزل القاضي، وولَّى إياسًا مكانه.

★ وقيل: دخل حسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب حسن أن يتكلم، فزجره الخليفة، وقال: «أصبيٌّ يتكلم في هذا المقام؟» فقال: «يا أمير المؤمنين، إن كنتُ صبيًّا فلستُ بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت أكبر من سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إذ قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾، ثم قال: ألا ترى أن الله تعالى فهَّم الحكمَ لسليمان، ولو كان الأمر بالأكبر لكان داودُ أولى».

وأُدخل على الرشيد صبي له أربع سنين، فقال له: «ما تحب أن أَهَبَ لك؟» قال: «حُسْنَ رأيك».

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٢) قاضي البصرة العلامة أبو واثلة، كان يُضرب به المثل في الذكاء والدَّهاء والسؤدد والعقل، وقد استوعب الإمام المِزِّيُّ أخباره في «التهذيب».

★ وحكى ابن الجوزي أن المعتصم ركب إلى خاقان يعوده، والفتحُ صبي يومئذ، فقال له المعتصم: «أيُّها أحسنُ: دارُ أمير المؤمنين أو دار أبيك؟» قال: «إذا كان أمير المؤمنين في دار أبي، فدارُ أبي أحسن»، فأراه فصًّا في يده، فقال: «هل رأيت يا فتحُ أحسنَ من هذا الفصِّ؟» قال: «نعم، اليد التي هو فيها».

★ وحكى الحسن العَروضي مؤدب الراضي محمد بن جعفر المقتدر بالله: أن الراضيَ كتب إلى أبيه المقتدر رقعة، فقرمط -أي: قصَّر حروف خطه- فيها خطَّه، وكان إذا مشق -أي: أسرع- في خطه ومطَّط حروفه أجاد، فقلت له:

«كأنك قصدتَ ما أرى؟!» قال: «نعم» فقلت: «ولم؟».

قال: «إنَّ مطَّ الحروف نوع من الجراءة، والقلم نائب اللسان، فهل يصلح أن أمطَّ لساني في خطاب والدي؟!» قال العَروضي: «فجعلت أنظر إليه متعجبًا»، فقال: «ما لك يا أستاذ؟» قلت: «أنَّى لك هذا؟!» قال:

«يا أستاذ، إنَّ آدابنا مولودة معنا» قلت: «أشهد أنك صادق» اهـ.

وأنت امرؤ ترجو الخير وإنما ... لكل امرئ ما ورَّثَتْه أوائلُه



★ ومر «الحارث المحاسبي» وهو صبي بصبيان يلعبون على باب رجل تمَّار، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم، وخرج صاحب الدار ومعه تمرات، فقال للحارث: «كُل هذه التمرات»، قال الحارث: «ما خبرك فيها؟»، قال: «إني بعتُ الساعةَ تمرًا من رجل فسقطت من تمره»، فقال: «أتعرفه؟»، قال: «نعم»، فالتفت الحارث إلى الصبيان يلعبون، وقال: «أهذا الشيخ مسلم؟» قالوا: «نعم»، فمرَّ وتركه، فتبعه التمار حتى قبض عليه، وقال له: «والله ما تنفلت من يدي حتى تقول لي ما في نفسك مني»، فقال: «يا شيخ! إن كنتَ مسلمًا، فاطلب صاحبَ

التمرات حتى تتخلص من تبعته، كما تطلب الماء إذا كنت عطشانَ شديدَ العطش، يا شيخ! تطعم أولاد المسلمين السُّحْتَ وأنت مسلم؟»، فقال الشيخ: «والله لا اتجرت للدنيا أبدًا».

قال الجُنيد: كنت بين يدي السَّرِيِّ ألعب -وأنا ابن سبع سنين- وبينما جماعة يتكلَّمون في الشكر، فقال لي: يا غلام، ما الشكر؟ فقلت: أن لا تعصي الله بنعمه، فقال: «يوشك أن يكون حظُّك من الله لسانَك»، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري.

★ وقال عبد الرحمن بن محمد صاحب كتاب «صفة الأولياء»: حدثني محمد ابن إبراهيم النيسابوري بإسناده أن فتحًا المَوْصِلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: خرجت أريد الحج، فلما توسطتُ البادية إذا غلام صغير لم تجر عليه الأحكام، فقلت له: «إلى أين؟»، فقال: «إلى بيت ربي»، قلت: «إنك صغير لم تجر عليك الأحكام»، فقال: «لقد رأيتُ أصغر مني مات»، فقلتُ: «إن خَطْوَكَ قصير»، قال: «عليَّ الخَطْوُ، وعليه التبليغُ إن شاء، ألم تسمع قولَهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾؟» قلتُ: «لا أرى معك زادًا»، قال: «زادي في قلبي اليقين، حيثما كنتُ أيقنت أن الله يرزقُني»، قلت: «إنما أردتُ أنك تتزود الخبز والماء»، قال: «ما اسمُك؟»، قلتُ: «فتحٌ»، قال: «يا فتح، أسألك»، قلت: «سَلْ»، قال: «أرأيت لو أن أخًا لك من أهل الدنيا دعاك إلى منزله، أما كنت تستحي أن تحمل معك طعامًا لتأكله في منزله؟»، قلت: «بلى»، قال: «فإن مولاي دعاني إلى بيته، فهو يطعمني ويسقيني»، قال فتح: «فجعلتُ أعجبُ من أمرِه، وبيانِهِ، وزهدِه، مع صِغَرِ سِنِّه».

وقيل: إن معروفًا الكَرْخِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مُؤَدِّبٍ كان يقول له: قل: «ثالث ثلاثة»، فيقول: «بل هو الواحد»، فيُضْرَب فيهرب، فكان والداه يقولان له: «ليته رجع»، ثم إن أبويه أسلما.

★ وروى أيضًا صاحبُ «صفة الأولياء، ومراتب الأصفياء» بإسناده قال: ذَكر «سَهْلٌ» اللهَ، وهو ابنُ ثلاث سنين، وصام وهو ابن خمس سنين حتى مات، وساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين، وكانت تُلقى مشكلاتُ المسائل على العلماء، ثم لا يوجَدُ جوابُها إلَّا عنده، وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وحينئذ ظهرت عليه الكرامات».

وقال حجة الدين محمد بن ظفر (ت ٥٦٧) في «أنباء نجباء الأبناء»:

وبلغني أن أبا محمدٍ سهلًا حفظ القرآن وهو ابن ست سنين، وكان يُفتي في مسائل الزهد والورع، ومقاماتِ الإرادات وهو ابن اثنتي عشرة سنة، ولما بلغ ثلاث عشرة سنة عَرَضَتْ له مسألةٌ فلم يجدْ بتُسْتَرَ من يجيبه عنها فقال لأهله: «جهزوني إلى البصرة»، فلم يجدْ بالبصرة من يستفتيه، فذُكِر له حمزة بنُ عبد الله بعبْدَانَ فقصدها، ولقي حمزةَ فوجد عنده ما يريد وصحبه.

★ وقال صاحب «أنباء نجباء الأبناء»: بلغني أن أبا الحسين أحمد بن محمد المدعوَّ بالنوريِّ لما قرأ القرآن الكريم ألزمه أبوه أن يكون معه في حانوته، فكان إذا أصبح أخذ روزمانجاً ودواة، وذهب يسأل عما جهل من كتاب الله تعالى، ويكتب ما يقال له، ثم يأتي أباه، وإذا بعثه في حاجة أخذ ألواحه ودواةً، فيسأل من مرَّ به من أهل العلم، فإذا غاب يزجره أبوه لغيبته، ويتهدده، وربما ضُرِب



على ذلك أحيانًا، وتكرر ذلك، فقال له أبوه: «ليت شعري يا بني ما تريد بعلمك هذا؟»، قال: «أريد أن أعرف الله تعالى، وأتعرف إليه»، فقال: «كيف تعرفه؟»، قال: «أعرفه بتفهم أمرِه ونهيه»، قال: «وكيف تتعرف إليه؟» قال: «أتعرَّف إليه بالعمل بما علَّمني»، قال أبوه: «يا بني! لا أعرضُ لك في أمرك هذا ما بقيت».

★ وقال علي بن الجعد: أخبرني أبو يوسف قال: تُوُفِّي أبي: إبراهيمُ بن حبيب، وخلَّفني صغيرًا في حجر أمي، فأسلمتني إلى قَصَّارٍ[١] أخدمه، فكنت أدَعُ القصَّار وأمر إلى حلقة أبي حنيفة، فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصَّار، وكان أبو حنيفة يُعنَى بي لما يَرَى من حضوري وحرصي على التعلم، فلما كثُرَ ذلك على أمي، وطال عليها هربي، قالت لأبي حنيفة: «ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبيٌّ يتيم لا شيء له، وإنما أطعمه من مِغزلي! وآمُلُ أن يكسب دانقًا يعودُ به على نفسه»، فقال لها أبو حنيفة: «مُرِّي يا رَعْناء، هو ذا يتعلَّم أكلَ الفالُوذَج بُدهْن الفُسْتَق»، فانصرفت عنه وقالت له: «أنت شيخٌ قد خَرِفْتَ، وذهبَ عقلُك».

قال أبو يوسف: ثم لَزِمتُ أبا حنيفة، وكان يتعاهدني بماله، فما ترك لي خَلَّة، فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلَّدتُ القضاء، وكنت أجالس هارون الرشيد، وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قُدم إلى هارون الرشيد فالوذج، فقال لي هارون: «يا يعقوب كُلْ منه فليس يُعمل لنا مثلُه كل يوم»، فقلت: «وما هذا يا أمير المؤمنين؟»، فقال: «هذا فالوذج بُدهْن الفستق»، فضحكت، فقال لي:

---

(١) **القَصَّار**: المُبَيِّض للثياب، وهو الذى يهيئ النسيج بعدَ نَسْجه ببلِّه ودَقِّه بالقَصَرة، وهي قطعة من الخشب.

«مِمَّ ضحكتَ؟»، فقلت: «خيرًا أبقى الله أمير المؤمنين»، قال: «لتخبرني» -وألحَّ عليَّ- فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك، وقال: «لَعمري: إن العلم ليرفع وينفع دينًا ودنيا»، وترحَّم على أبي حنيفة، وقال: «كان ينظر بعين عقله ما لا يَراه بعين رأسه».

★ وقال صاحب «أنباء نجباء الأبناء»:

بلغني أن أبا سليمان داود بن نصير الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما بلغ من العمر خمس سنين أسلمه أبوه إلى المؤدب، فابتدأه بتلقين القرآن، وكان لَقِنًا فلما تعلَّمَ سورة ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ وحفظها؛ رأته أمه يوم جمعة مقبلًا على حائط، وهو يفكر ويُشير بيده، فخافت عليه، وقالت له: «قم يا داود فاخرج والعب مع الصبيان»، فلم يجبها، فضمته إلى صدرها، ودعت بالويل، فقال: «ما لكِ يا أمَّاه؟» فقالت: «أبِكَ بَأسٌ؟» قال: «لا»، قالت: «أين ذهنك؟ كلمتُك فلم تسمع»، قال: «مع عباد الله»، قالت: «فأين هم؟»، قال: «في الجنة» قالت: «ما يصنعون؟»، قال: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴾، ومرَّ في السورة، وهو شاخص ببصره كأنه ينظر إليهم، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴾، ثم قال: «يا أماه! ما كان سعيهم؟»، فلم تَدْرِ ما تجيبُهُ به، فقال: «قومي عني حتى أتنزه عندهم ساعة»، فقامت، وأرسلت إلى والده، فجاء فأخبرته الخبر، فقال له: «يا داود! كان سعيهم مشكورًا أنهم قالوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فكان داود بعد ذلك لا يَدَعُ أن يقول: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».



★ وحكى الشيخ ابن ظفر المكي: أن أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما تحفَّظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قال لأبيه: «يا أبت من الذي يقول الله تعالى له هذا؟»، قال: «يا بني ذلك النبي»، قال: «يا أبت مالك لا تصنع كما صنع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؟»، قال: «يا بني! إن قيام الليل خُصِّصَ به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وبافتراضه دون أمته»، فسكت عنه.

فلما تحفظ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ قال: «يا أبت إني أسمع أن طائفة كانوا يقومون الليل، فمن هذه الطائفة؟»، قال: «يا بني! أولئك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ»، قال: «يا أبت: فأي خير في ترك ما عمله النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؟»، قال: «صدقت يا بني».

فكان أبوه بعد ذلك يقوم من الليل ويصلي، فاستيقظ أبو يزيد ليلة فإذا أبوه يصلي، فقال: «يا أبت: علِّمني كيف أتطهر وأصلي معك»، فقال أبوه: «يا بني ارقد فإنك صغير بعدُ»، قال: «يا أبت: إذا كان يومُ يصدر الناس أشتاتًا لِيُرَوۡا أعمالهم أقول لربي: إني قلت لأبى: كيف أتطهر لأصلي معك؟ فأبى، وقال لي: (ارقد، فإنك صغير بعد)، أتحب هذا؟»، فقال له أبوه: «لا والله يا بني ما أحب هذا»، وعَلَّمه فكان يصلي معه.



كِبارُ الهِمَّة النَّابِغُونَ
مُختَصَرُ الطَّرِيقِ إِلَى المَجْدِ

النابغون الفائقون من أبناء الأمة يختصهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمواهب واستعدادت فطرية، وخصائص ذاتية متميزة، فهم (ليسوا مجرد أشخاص ماهرين في أداء الاختبارات، ولا مجرد أشخاص ممتازين في أداء بعض المهارات فحسب، بل لديهم خصائص شخصية واجتماعية وبدنية طيبة تفوق ما عند أقرانهم العاديين.

ومن أهم الخصائص: سلامة البدن، وقوة الذاكرة، وسرعة التعلم، والتفوق في التحصيل الدراسي[(١)]، وحب الاستطلاع، والدافعية للإنجاز، والثقة بالنفس، والاستقلالية، والمثابرة، والتفوق في القيمة النظرية، وفي الميول العلمية، والنضوج الاجتماعي، والنشأة في ظروف اجتماعية طيبة)[(٢)].

إن المرء لا يولد عالمًا، وإنما تُربيه جماعة، وتصنعه بيئة، وتتعهده بالرعاية والتعليم، حتى يمتلك ناصية العلم الذي يطلبه.



---

(١) ومن أمثلة ذلك في عصرنا الطفل «سيد جلال الأفغاني» الذي التحق بجامعة البترول بالظهران وعمره عشر سنوات في العام الجامعي (١٩٨٠-١٩٨١)، وكان قد حصل على الثانوية العامة وعمره ثماني سنوات، وتعلم الأوردية والإنكليزية والروسية وعمره تسع سنوات.

(٢) «رعاية النابغين في الإسلام وعلم النفس» للدكتور كمال إبراهيم مرسي (ص١٤٣، ١٤٤).





والأمة التي تهتم بالنابغين، تصنع بهم مستقبلَها المشرق، لأنهم يُصْلِحون أمرها، ويسهمون في ازدهارها، والأمة التي تهمل رعاية نابغيها سوف تشقى حين يتولى أمورَها جهلةٌ قاصرون يوردونها المهالك، أو مرضى نفسيون معقدون يسومونها سوء العذاب، أو سَفِلَة أصحاب نفوس دنيئة وهمم خسيسة يبيعونها لأعدائها بثمن بخس.

قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

أراد اللّه بالفقراء بِرًّا	وبالأيتام حبًّا وارتبابا
فَرُبَّ صغيرِ قومٍ علموه	سما وحمى المُسَوَّمَةَ العِرابا
وكان لقومه نفعًا وفخرًا	ولو تركوه كان أذىً وعابا
فعلِّم ما استطعتَ لعل جيلًا	سيأتي يُحدِثُ العَجَبَ العُجابا
ولا تُرهق شبابَ الحَيِّ يأسًا	فإن اليأس يخترم الشبابا

ومع كون المواهب استعدادات فطرية فإنها لا تؤدي إلى النبوغ إلا إذا توفرت لأصحابها الظروف البيئية المناسبة والتربة الصالحة اللازمة لتنميتها وصقلها.

وتعد الأسرة -وبخاصة الوالدان أو من يقوم مقامهما- أهم عناصر البيئة تأثيرًا في إظهار النبوغ، وزراعة الهمة العالية في قلوب الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وهذا ما قد يفسر لنا سر اتصال سلسلة النابغين من أبناء أسرٍ معينة، كآل قدامة وآل تيمية وآل الآلوسي وآل القاسمي وآل شاكر - حيث اجتمعت الاستعدادات الفطرية الموهوبة الموروثة، والقدرات الإبداعية مع العوامل البيئية المكتسبة التي تساعد على اكتشاف المواهب مبكرًا، ثم تنميها، وتوجهها إلى الطريق الأمثل.







فرُبَّ أُمٍّ ذكيةٍ محبة للعلم[١]، أو أب عالم مشهودٍ بعلمه، كان سببًا في تيسير السبيل إلى العلم، ومجالسة العلماء، مما كان له أثر بليغ في تنمية نبوغ أبنائهم.

ويذكر العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مما يُهيئ الناشئ للنبوغ: «أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ، فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقري على سمعه، ومطالعته لبعض آثار عبقريته - يثيران همته، ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شامخة وذكر مجيد»[٢].

وهذا «الزبير بن العوام» فارس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي عدل به عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ألفًا من الرجال، يشب في كنف أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخت أسد الله حمزة، وهؤلاء الكملة العظماء عبد الله، والمنذر، وعروة أبناء الزبير، كلهم ثمرات أمهم ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يتربى على أمه فاطمة بنت أسد، وخديجة بنت خويلد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا عبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب تعاهدته أمه أسماء بنت عميس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وهذا أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أريب العرب وألمعيها، ورث عن أمه هند بنت عتبة همة تجاوز الثريا، فقد قيل لها -ومعاوية وليد بين يديها-: «إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه»، فقالت: «ثكِلتُه إذًا إن لم يَسُد إلا قومه».



---

(١) انظر: «عودة الحجاب» (٢/ ١٩١-٢١٢).

(٢) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٨٠).

ولما نُعي إليها ولدها يزيد بن أبي سفيان قال لها بعض المعزين: «إنا لنرجو أن يكون في معاوية خَلَفٌ منه»، فقالت: «أوَ مثل معاوية يكون خَلَفًا من أحد؟ والله لو جُمِعَت العربُ من أقطارها، ثم رُمي به فيها، لخرج من أيها شاء».

وقد كان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا نُوزع بالفخر بالمقدرة، وجوذب بالمباهاة بالرأي، انتسب إلى أمه، فصدع أسماعَ خصمِه بقوله: «أنا ابن هند».

وهذا سفيان الثوري الإمام الجليل، والعلم الشامخ كان ثمرةَ أم صالحة غذته بلبانها، وحاطته بكنفها، حتى صار إمام المسلمين، وأمير المؤمنين في الحديث، قالت له أمه وهو صغير: «يا بني! اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي».

وكان رجل يطلب ابنُه العلم عند ابن سحنون رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال له يومًا: «إني أتولى العمل بنفسي، ولا أشغله عما هو فيه»، فقال له ابن سحنون: «أعلمتَ أن أجرك في ذلك أعظمُ من الحج والرباط والجهاد؟».

وهذ الإمام الثقة الثبت أبو عمرو الأوزاعي نشأ يتيمًا في حجر أمه، التي تنقلت به من بلد إلى بلد، وربته تربية عجزت الملوك وأبناؤها عنها، حتى استُفتي في الفقه وله ثلاثَ عشرةَ سنة.

وكذا فعلت أم الإمام ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك، فقد كان ثمرة تربية أم فاضلة، أنفقت عليه أمه ثلاثين ألف دينار خلَّفها زوجُها عندها، وهي حامل به، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة.





وقال علي بن عاصم بن صهيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم، وقال: اذهب فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث».

وها هي ذي أم الإمام مالك إمام دار الهجرة تؤزه على طلب العلم، وتُلْبِسُه ثيابَ العلم، وتقول له: «اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه».

ومات والد الإمام الشافعي وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرقت عليه بحكمتها، وتنقلت به من «غزة» إلى «مكة» مستقر أخواله، فربته بينهم هنالك.

ونشأ الإمام الشافعي يتيمًا فقيرًا، ولم تستطع أمه دفع أجر معلِّمه، إلا أن المعلم قَبِلَ أن يعلمه بدون أجر، وتعهده بالرعاية، وجعل له منزلة خاصة بين التلاميذ، لما لمسه فيه من نباهة، وسرعة في الحفظ.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنت يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي أن يعلمني بدون أجر، وأن أخلفه في الدرس إذا قام».



وهذا إمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات أبوه إسماعيل، وهو صغير، فنشأ يتيمًا في حجر أمه، وكانت امرأة عابدة صاحبة كرامات.

وقال إبراهيم بن وكيع: «كان أبي يصلي فلا يبقى في دارنا أحدٌ إلا صلَّى حتى جارية لنا سوداء».

وكان والد الإمام عبد الله بن المبارك تركيًّا، وكان عبدًا لرجل من التجار من همذان من بني حنظلة، وكان رجلًا تقيًّا صالحًا كثير الانقطاع للعبادة مُحِبًّا للخلوة، شديد التورع، حفظ لنا التاريخ من ورعه حديثًا عجبًا:

فقد كان مبارك يعمل في بستانٍ لمولاه، وأقام فيه زمانًا، ثم إن مولاه صاحب البستان جاءه يومًا، وقال له:

- أريد رُمَّانًا حُلْوًا، فمضى إلى بعض الشجر وأحضر منها رمانًا فكسره فوجده حامضًا، فحرد عليه، وقال:

أطلب الحلو فتُحْضِر لي الحامض؟ هاتِ حلوًا، فمضى وقطع من شجرة أخرى فلما كسره وجده أيضًا حامضًا، فاشتد حَرَدُه عليه، وفعل ذلك مرة ثالثة فذاقه فوجده أيضًا حامضًا، فقال له بعد ذلك:

أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟

- فقال: لا.

- فقال: وكيف ذلك؟

- فقال: لأني ما أكلتُ منه شيئًا حتى أعرفَه.

- فقال: ولِمَ لمْ تأكل؟

- قال: لأنك ما أذنت لي بالأكل منه!!

فعجب من ذلك صاحبُ البستان، وكشف عن ذلك فوجده حقًّا، فعظم في عينه، وزاد قدره عنده، وكانت له بنت خُطِبت كثيرًا؛ فقال له:

- يا مبارك، من ترى تُزوَّج هذه البنت؟







- فقال: أهل الجاهلية كانوا يزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدين[١].

- فأعجبه عقله، وذهب فأخبر به أمها، وقال لها:

ما أرى لهذه البنت زوجًا غير مبارك.

فتزوجها فجاءت بعبد الله بن المبارك[٢]، فتمت عليه بركة أبيه، وأنبته الله نباتًا صالحًا، ورباه على عينه.

أما إمام تركيا بديع الزمان سعيد النورسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد دُهِش منه أستاذه «نور محمد» وهو غلام صغير، لفطنته وذكائه وأخلاقه وشجاعته، فقرر أن يذهب بصحبة بعض أصدقائه إلى بيته ليستعلم أهله: كيف رَبَّوْا هذا الغلام؟

فطرقوا الباب، فخرجت لهم والدة سعيد، وأخبرتهم أن والده على وشك الرجوع من المزرعة، ثم فرشت للزائرين حصيرًا أمام الدار، وسألها الشيخ:

- كيف ربيتم هذا الصغير؟

أجابت الوالدة: عندما أصبحت حاملًا بـ«سعيد» لم أطأ مكانًا دون وضوء، وعندما جاء «سعيد» إلى الدنيا لم أرضعه دون وضوء.

بعد قليل رجع والده من المزرعة، وهو يسوق بقرتين وثورين، ولكن الشيخ «نور محمد» وأصدقاءه دهشوا عندما رأوا أن أفواه هذه الحيوانات مكممة، فسألوه عن هذا المنظر الغريب، فقال لهم:



---

(١) وإلى هذا أشار قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك» متفق عليه.

(٢) انظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ٢٣٧)، «شذرات الذهب» (١/ ٢٩٦).

«إن مزرعتي بعيدة بعض الشيء، وأنا أضطر في الذهاب والإياب إلى المرور عبر مزارع الجيران، لذا أكمم أفواه هذه الحيوانات كي لا تأكل من حشائش هذه المزارع ونباتاتها، لأني أحذر أن تدخل بيتي لقمة حرام»(١).

كما جرت سنة الله تعالى في خلقه أن البلدَ الطيبَ ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ الآية [الأعراف:٥٨]، كذلك جرت هذه السنة أنه لا يخرج عالم رباني، ولا قائد فاتح، إلا وقد هيَّأته بيئة طيبة، سواء كانت الأسرة أم المربين والمعلمين الصالحين.

قال زهير بن أبي سُلمى:

وهل يُنبِتُ الخَطِّيَّ(٢) إلا وشيجُه(٣) وتُغرَسُ إلا في منابتها النَّخْلُ

يقول: إن الرماح المشهورة بالجودة والصلابة، لا تُتخذ إلا من شجرها الأصيل، ولا ينبت النخل إلا في المواطن الصالحة لإنمائه، يريد أن الكريم لا يأتي إلا من عنصر كريم، والنَّصْلُ يدل على الأصل.

ومن أمثلة ذلك: دور عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في دولة المرابطين(٤)، والقاضي الفاضل(٥) (ت:٥٩٦هـ) مع صلاح الدين في الدولة الأيوبية، وغير ذلك من الأمثلة التي يطول الكلام بذكرها، لكننا هنا نقتصر على ذكر مثالين:

---

(١) «سعيد النورسي رجل القدر» (ص١٣).

(٢) **الخطي**: الرمح المنسوب إلى الخط، والخط: جزيرة ترفأ إليها سفن الرماح بالبحرين.

(٣) **الوشيج**: العروق الملتفة من شجر الرماح.

(٤) انظر: «انتصارات يوسف بن تاشُفين» تأليف الأستاذ حامد محمد الخليفة (ص١٤-٢٦).

(٥) أحد الأئمة الكتاب، ووزير السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي قال فيه صلاح الدين: «لا تظنوا أني فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل».

الأول: أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مجدد المئة الأولى بلا نزاع.

وهل يمكن أن نغفل تأثير البيئة المحيطة ونركز فقط على ثمرة هذه البيئة في رجل مثل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهل كان يمكن لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن يمارس دوره في تجديد الدين، ويتهيأ له لولا البيئة الصالحة التي وجَّهته إلى المعالي(١)، وبذرت بذور «الهمة العالية» في قلبه منذ طفولته.

عن سعيد بن عُفير قال: حدَّثنا يعقوب، عن أبيه أن عبد العزيز بن مروان بعث ابنه عمر إلى المدينة يتأدَّبُ بها، وكتب إلى صالح بن كيسان يتعاهدُه، وكان يُلزمُه الصلواتِ، فأبطأ يومًا عن الصلاة، فقال: «ما حَبَسَكَ؟» قال: «كانت مُرَجِّلَتي تُسَكِّن شعري»، فقال: «بَلَغَ من تسكين شعرك أن تُؤثِرَه على الصلاة؟»، وكتب بذلك إلى والده، فبعث عبدُ العزيز رسولًا إليه فما كلَّمه حتى حَلَق شعره.

وعن أبي قَبيل: أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير، فأرسلت إليه أمه، وقالت: «ما يُبكيك؟» قال: «ذكرتُ الموت»، قال: وكان يومئذ قد جمع القرآن، فبكت أمُّه حين بلغها ذلك.



(١) أطلق عامة العلماء القول بأن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو مجدد القرن الأول، (ونحن نسلم بذلك، ولكننا نقول: ما كان لعمر بن عبد العزيز أن يقوم بهذه الحركة الواسعة المتعددة الجوانب لولا وجود عدد كبير من أجلاء التابعين وساداتهم، وهم كانوا ساعده الأيمن في تنفيذ مشاريعه التجديدية العظيمة) اهـ. من «البيان» (ص١٦، ١٧) العدد الثالث، وعلى رأس هؤلاء السادات رجاء بن حيوة الذي أشار على سليمان ابن عبد الملك عند وفاته باستخلاف عمر بن عبد العزيز، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٢٣).



ونقل الزبير بن بكار عن العتبي قال: إن أولَ ما استُبين من عمر بن عبد العزيز أن أباه ولي مصر، وهو حديث السن، يُشَكُّ في بلوغه، فأراد إخراجه، فقال: «يا أبتِ! أوَ غيرَ ذلك؟ لعله أن يكون أنفعَ لي ولك: تُرَحِّلني إلى المدينة، فأقعد إلى فقهاء أهلها، وأتأدب بآدابهم، فوجَّهه إلى المدينة، فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سنه.

★ **المثال الثاني**: اكتشف والدُ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ نضوجه الاجتماعي المبكر، فراح يُنَمِّي ثقتَه بنفسه، ويصقل مواهبه، ويُعِده لتحمل المسؤوليات، فقد كتب في ذلك إلى صاحبٍ له فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تحققت أنه بلغ الاحتلام قبل إكمال سن اثنتي عشرة سنة على التمام، ورأيته أهلًا للصلاة بالجماعة والائتمام، فقدمته لمعرفته بالأحكام، وزوَّجته بعد البلوغ مباشرة، ثم طلب مني الحج إلى بيت الله الحرام، فأجبته بالإسعاف إلى ذلك المرام، فحج وقضى ركن الإسلام»[١] اهـ.

وبغير هذا «النضوج الاجتماعي المبكر» والتربية الواعية -التي تنمي الملكات، وتغرس الثقة في النفس، وتحررها من التواكل والتبعية والطفولية- لا نستطيع أن نفسر ظاهرة ارتحال العلماء في سن الصبا والشباب المبكر في أقطار الدنيا طلبًا للعلم، وقد فارقوا الأهل والأوطان، وكابدوا المخاطر والمشاق دون كلل ولا ملل ولا تبرم.

★ وقد تكون البيئة المترفة عائقًا بليغ الإعاقة عن المضي في طريق المجد، ومع ذلك يترفع عليها صاحب الهمة العالية، ويسخرها لإنجاز المطالب الجسيمة،

---

(١) نقلًا من «رعاية النابغين» (ص١٦٠).

كحال الإمام أبي محمد علي بن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي نشأ نشأة مترفة، ولكنه انصرف عن مطامح الدنيا ومطامعها في سبيل طلب العلم، فقد جرت مناظرة بين الإمامين ابن حزم وأبي الوليد الباجي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، فلما انقضت قال الباجي لابن حزم: «تَعذُرُني فإن أكثر مطالعاتي كانت على سُرُج الحُرَّاس»، فأجابه ابن حزم: «وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعاتي كانت على منائر -أي: مصابيح- الذهب والفضة»(١)، قال ياقوت الحموي: «أراد أن الغنى أضيعُ لطلب العلم من الفقر!»(٢).

★ وربما نشأ كبير الهمة في بيئة معدِمةٍ قاسية تكون كفيلة بإطفاء همته، والقضاء على نبوغه، فييسر الله له من الأسباب ما يأخذ بيده، أو يقيض له من ينمي مواهبه، ويتكفل بأمره، وإذا كان المُربِّي -الذي يلتقط نابغة موهوبًا فيرعاه ويتعاهده- عظيمًا؛ فأعظم منه كبيرُ همةٍ لم يكن في بيئته ما تعطيه إياه ألبتة، وإذا به -مع الفقر وقلة ذات اليد- يبتكر الوسائل التي يدرك بها غايته، ويحقق رسالته.



(١) «معجم الأدباء» (١٢/ ٢٣٩).

(٢) وعلق الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ على اعتذار الإمامين قائلًا: «يرى ابن حزم أن كثرة المال وطيب العيش تسُدُّ مسالكَ العلم إلى النفوس، فلا تتجه إلى العلم، فإن الجِدَة قد تُسَهِّل اللهو، وتفتحُ بابه، وإذا انفتح بابُ اللهو سُدَّ بابُ النور والمعرفة، فلذائذ الحياة وكثرتها تطمس نور القلب، وتُعْمِي البصيرة، وتَذهبُ بِحِدَّة الإدراك.
أما الفقير -وإن شغله طلبُ القوت- فقد سُدَّت عليه أبواب اللهو، فأشرقت النفس، وانبثق نور الهداية، هذا نظر ابن حزم. أما نظر الباجي فإنه متجه إلى الأسباب المادية من حيث تُسهِّل الحياة المادية، من غير نظر إلى الأسباب المادية النفسية التي تضمن أن الغنى يكون في كثير من الأحوال معه الانصرافُ عن العلم إلى اللهو، وقد توفرت ذرائعه» اهـ. من كتابه «ابن حزم» (ص٥٦).



لقد نشأ المتنبي شاعر العرب الفَحْلُ في أسرة فقيرة غير متعلمة، لكن الله قيَّض له فرصة التعليم المجاني في كُتَّاب خاص بأبناء أشراف الكوفة، وشجعه أصحاب المكتبات على قراءة الكتب دون مقابل.

ويُروى أن وراقًا كان يلازمه قال: كان اليوم عندي -أي المتنبي- وقد أحضر رجل كتابًا في نحو ثلاثين ورقة لبيعه، فأخذه أبو الطيب، ونظر فيه طويلًا، فقلت له: «ما هذا؟ أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون في شهر إن شاء الله»، فقال المتنبي: «إن كنت حفظته هذه المدة؟» قلت: «أَهَبُ لك الكتابَ»، قال: «اسمعها مني»، فأخذت الدفتر من يده، وأقبل يتلوه حتى انتهى إلى آخره.

★ عوتب شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسبب كثرة ما يفرق من الأموال في البلدان دون بلده، فقال: «إني أعرف مكان قومَ -لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث، فأحسنوا طلبه، لحاجة الناس إليهم- احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمُهم، وإن أعنَّاهم بَثُّوا العلمَ لأمة محمد، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بثِّ العلم».

وجاء في ترجمة العلامة عز الدين عبد السلام القيلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه كان ربما جاءه الصغير لتصحيح لَوْحِهِ، ونحوه من الفقراء المبتدئين لقراءة درسه، وعنده من يقرأ من الرؤساء، فيأمرهم بقطع قراءتهم حتى ينتهي تصحيحُ ذاك الصغير، أو قراءةُ ذاك الفقير لدرسه، ويقول: أرجو بذلك القربة، وترغيبَهم، وأن أندرج في الربانيين[(١)]».

---

(١) أي: الذين يعلمون صغار العلم قبل كباره.



أما الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان: فما أدراك ما أبو حنيفة؟! كان كريمًا جوادًا، سخيًّا بماله، ينفق على العلماء مثلما كان ينفق على عياله، وإذا اكتسى ثوبًا فعل مثل ذلك، وإذا جاءته الفاكهة والرطب، وكلُّ شيء يريد أن يشتريه لنفسه ولعياله، لا يفعل ذلك حتى يشتري للعلماء مثله، ثمَّ يشتري بعد ذلك لعياله.

وكان إذا اشترى للصدقة أو لبرِّ إخوانه شيئًا اشترى أجود ما يقدر عليه، وكان يتساهل فيما يشتريه لنفسه ولعياله، هذا فِعلُه مع العلماء، أما مع من يُعَلِّمه، فهو يبرُّهم ويواسي فقيرهم بماله، وينفق عليه، ويزوِّج من احتاج إليه، حتى إنه كان يعول أبا يوسف وعياله عشر سنين.

قال شريك: كان أبو حنيفة يصبر على من يعلمه، وإن كان فقيرًا أغناه، وأجزل عليه وعلى عياله، حتى يتعلم، فإذا تعلَّم قال له: «قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام».

وقال الفضيل بن عياض: كان أبو حنيفة معروفًا بكثرة الأفعال، وقلَّة الكلام، وإكرام العلم وأهله.

لقد كان أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشهر من عُرِف بالعناية بالتفتيش عن النابغين، فإذا وقع على أحدهم استنقذه من ظروفه القاسية، وانتشله من عقبة الفقر، وأخذ بيده في طلب العلم.

لقد حرص الإمام أبو حنيفة -عندما تولى حلقة الدرس بعد شيخه حماد- على رعاية تلاميذه النابغين، فقد كان يواسيهم من ماله الخاص، ويعينهم على نوائب الدهر، حتى أنه كان يزوج من كان في حاجة إلى الزواج وليست عنده



مؤونته، ويرسل لكل تلميذ حاجته، وكان ينظر إلى نفوس تلاميذه، ويتعهدها بالرعاية والنصيحة، فإذا وجد مِن أحدهم إحساسًا بالعلم يمازجه الغرور، أزال عنه درن الغرور ببعض الاختبارات، التى تثبت له أنه ما زال في حاجة إلى مزيد من العلم.

★ وذكر الكردري في مناقبه بسنده إلى أبي يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: كنت أطلب الحديث وأنا مقل المال، فجاء إليَّ أبي وأنا عند الإمام، فقال لي: «يا بني لا تمدنَّ رجلك معه، فإن خبزه مشوي وأنت محتاج»، فقعدت عن كثير من الطلب، واخترت طاعة والدي، فسأل عني الإمام، وتفقدني، وقال حين رآني: «ما خلَّفَك عنا؟» قلت: «طلب المعاش»، فلما رجع الناس، وأردت الانصراف دفع إليَّ صرة فيها مائة درهم، فقال: «أنفق هذا، فإذا تمَّ أعلِمْني، والزم الحلقة»، فلما مضت مدة دفع إليَّ مائة أخرى، وكلما تنفد كان يعطيني بلا إعلام كأنه كان يُخْبَرُ بنفادها، حتى بلغْتُ حاجتي من العلم، أحسن الله مكافأته، وغفر له.

★ وذكر الكردري أيضًا أن الحسن بن زياد كان فقيرًا، وكان يلازمه -أي الإمام- وكان أبوه يقول له: «لنا بنات، وليس لنا ابن غيرك، فاشتغل بهن»، فلما بلغ الخبرُ الإمامَ أجرى عليه رزقًا، وقال: «الزم الفقه، فإني ما رأيتُ فقيهًا معسِرًا قط».

وعلى الدرب نفسه، سار الشيخ الإمام العالم الكبير المحدث اللغوي العلامة مجد الدين محمد بن طاهر بن علي الحنفي الفتني الكجراتي صاحب «مجمع بحار الأنوار في غريب الحديث» الذي سارت بمصنفاته الرفاق، واعترِفَ بفضله على الآفاق.



وورث عن أبيه مالًا جزيلًا فأنفقه على طلبة العلم الشريف، وكان يرسل إلى معلم الصبيان، ويقول: أَيُّ صبيٍّ حَسَنٍ ذكاؤه وجيِّدٍ فهمُه، أرسِلْه إليَّ، فيرسل إليه فيقول له: كيف حالك؟ فإن كان غنيًّا يقول له: «تعلَّم»، وإن كان فقيرًا يقول له: «تعلَّم ولا تهتم من جهة معاشك، أنا أتعهد أمرك وجميعَ عيالك على قدر كفايتهم، فكن فارغَ البال، واجتهد في تحصيل العلم»، فكان يفعل ذلك بجميع من يأتيه من الضعفاء والفقراء، ويعطيهم قدر ما وظفه، حتى صار منهم جماعة كثيرة علماء ذوي فنون كثيرة، فأنفق جميع ماله في ذلك.

وما هو منهمُ بالعيشِ فيهم ... ولكن معدِنُ الذهبِ الرَّغام

عود إلى سيرة أبي حنيفة في التفتيش عن النوابغ:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما لمح شخصًا عالي الهمة، تلوح من مُحَيَّاهُ أماراتُ النبوغ فضنَّ بموهبته أن تُنْفَقَ في طلب الدنيا، وشجعه على طلب العلم:

★ قال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مررتُ يومًا على الشعبي وهو جالس، فدعاني، وقال: «إلامَ تختلف؟» فقلت: «أختلف إلى فلان»، قال: «لم أعنِ إلى السوق، عنيتُ الاختلاف إلى العلماء»، فقلت له: «أنا قليل الاختلاف إليهم»، فقال: «لا تفعل، وعليك بالنظر في العلم، ومجالسة العلماء؛ فإني أرى فيك يقظة وحركة»، قال: «فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف -أي إلى السوق- وأخذت في العلم، فنفعني الله تعالى بقوله».

★ وعن مكي بن إبراهيم -أحد شيوخ البخاري- قال: كنت أتجر، فقدمت على أبي حنيفة قدمة، فقال لي: «يا مكي! أراك تتجر، التجارة إذا كانت بغير علم



دخل فيها فساد كثير، فلم لا تتعلم العلم، ولم لا تكتب؟» فلم يزل بي حتى أخذت في العلم وكتابته وتعلمه، فرزقني الله منه شيئًا كثيرًا، فلا أزال أدعو لأبي حنيفة في دبر كل صلاة وعندما ذكرته، لأن الله ببركته فتح لي بابَ العلم.

وربما كان لتجربة الإمام أبي حنيفة مع شيخه الإمام حماد أثر عظيم في مسلكه هذا، فقد اكتشف حماد نبوغ أبي حنيفة وعلو همته، فخصَّه برعايته، وقرَّبه من مجلسه مؤملًا أن يكون حسنة من حسناته يُهدِيها إلى الأمة:

يبني الرجالَ وغيره يبني القُرى   شتانَ بين قُرًى وبين رجالِ

★ انخرط أبو حنيفة النعمان في التعليم على يد شيخه حَمَّاد بالمسجد الجامع بالكوفة، وعندما لمس فيه النجابة، وسرعة الحفظ، وسلامة التفكير، أجلسه بإزائه، واحترم رأيه، وشجعه على الاجتهاد والاستقلال بالرأي، ولم يتبرم من كثرة أسئلته واستفساراته، لما فيها من عمق ودقة. فمما يُروى أن أبا حنيفة انصرف من مجلس حماد، بعد أن سأله عدة أسئلة، وألحَّ في الجدل حتى احمرَّ وجه حماد، الذي قال لجاره واصفًا صلاح تلميذه: «هذا على ما ترى منه -أي من كثرة الأسئلة- يقوم الليل كله ويحييه»، واستمر أبو حنيفة ملازمًا أستاذه ثماني عشرة سنة، ولم يستقل بالدرس والتمحيص إلا بعد وفاة حماد.

وربما كانت نصيحة عابرة من عالم مخلصٍ بدايةَ نقطة تحولٍ في حياة أحد النابغين إلى انتفاع عموم الأمة به، كذلك الإمام الذي لقي نابغة كبير الهمة وقد جاور في الحرم المكي الشريف، وخلَّى مكانه في التعليم والدعوة في بلده، فأرشده إلى تصحيح مساره بقوله: «ليس هذا مكانك».

★ وكان سبب أخذ الشافعي في العلم ما حكاه مصعب بن عبد الله الزبيري قال: «كان الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب، ثم أخذ في الفقه بعدُ» قال: وكان سبب أخذه في العلم أنه كان يومًا يسير على دابة له وخلفه كاتب لأبي، فتمثل الشافعي ببيت شعر فقرعه كاتب أبي بسوطه، ثم قال له: «مثلك يذهب بمروءته في مثل هذا؟ أين أنت من الفقه؟» فهزَّه ذلك، فقصد مجالسة الزَّنْجي مسلم بن خالد، وكان مفتيَ مكة، ثم قدم علينا فلزم مالك بن أنس.

★ وعن حسين الكرابيسي قال: سمعت الشافعي يقول: «كنت امرءًا أكتب الشعر، وآتي البواديَ فأسمع منهم، وقدمت مكة وأنا أتمثل بشعرٍ لِلَبِيد، وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعلِّمًا ما الشعر؟ الشعر إذا استحكمت فيه قعدتَ معلمًا، تَفَقَّه يُعْلِكَ الله».

قال: «فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد بن عبد الله الزنجي، ثم قدمت على مالك في المدينة، فكتبتُ موطأه».

وعن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كنت أنظر في الشعر، فارتقيت عقبةً بمنى، فإذا صوت من خلفي: «عليك بالفقه».

وعن الحميدي قال: قال الشافعي: خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالد الزنجي فقال: «يا فتى من أين أنت؟»، قلت: «من أهل مكة»،



قال: «أين منزلك؟» قلت: «شِعب بالخيف»، قال: «من أي قبيلة أنت؟» قلت: «من عبد مناف» قال: «بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة، ألا جعلتَ فهمَك في هذا الفقه فكان أحسنَ بك؟!».

ثم رحل الشافعي من مكة إلى المدينة قاصدًا الأخذ عن أبي عبد الله مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي رحلته مصنف مشهور مسموع، فلما قدم عليه قرأ عليه «الموطأ» حفظًا، فأعجبته قراءته ولازمه، وقال له مالك: «اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن»، وفي رواية أخرى أنه قال له: «إن الله عَزَّوَجَلَّ قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفه بالمعاصي»، وكان للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين أتى مالكًا ثلاثَ عشرةَ سنة، ثم وليَ باليمن.

وقد أمره بالإفتاء شيخه أبو خالد مسلم بن خالد الزنجي إمام أهل مكة ومفتيها، وقال له: «أفتِ يا أبا عبد الله! فقد -والله- آن لك أن تُفتي»، وكان للشافعي إذ ذاك خمسَ عشرةَ سنة، وأقاويل أهل عصره في هذا كثيرة مشهورة، وأُخِذَ عن الشافعي العلمُ في سن الحداثة مع توفر العلماء في ذلك العصر، وهذا من الدلائل الصريحة لعظم جلالته وعلو مرتبته، وهذا كله من المشهور المعروف في كتب مناقبه وغيرها.

★ ونقفز إلى عصرنا المتأخر لنطالع سيرة العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقد تحدث الشيخ عن طفولته الباكرة فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنت أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة، حتى حفظت الحروف الهجائية، وبدؤوا يُقْرِؤونني إياها

بالحركات، «بَ فتحة با، بِ كسرة بي، بُ ضمة بو» وهكذا (ت)، و(ث) فقلت لهم: أوكل الحروف هكذا؟ قالوا: نعم. فقلت: كفي، إني أستطيع قراءتها كلها على هذه الطريقة -كي يتركوني- فقالوا: اقرأها، فقرأت بثلاثة حروف أو أربعة، وتنقلت إلى آخرها بهذه الطريقة، فعرفوا أني فهمت قاعدتها، واكتفوا مني بذلك، وتركوني، ومن ثَمَّ حُبِّبت إليَّ القراءة».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما حفظت القرآن، وأخذت الرسم العثماني، وتفوقت فيه على الأقران، عُنِيَتْ بي والدتي وأخوالي أشد عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهَّزتني والدتي بجَمَلين: أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب، وملابس كأحسن ما تكون؛ فرحًا بي، وترغيبًا لي في طلب العلم.. وهكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل»[(١)].

وقال تلميذه الشيخ عطية سالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يصف طبيعة الحياة الدراسية التي نشأ فيها العلامة الشنقيطي:

تقوم الحياة الدراسية على أساس منع الكلفة، وتمام الألفة، سواء بين الطلاب أنفسهم أو بينهم وبين شيخهم، مع كمال الأدب، ووقار الحشمة، وقد تتخللها الطُّرف الأدبية والمحاورات الشعرية، ومن ذلك ما حدثنيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ قال:

قدمت على بعض المشايخ لأدرس عليه، ولم يكن يعرفني من قبل، فسأل عني: من أكون؟ في ملأ من تلامذته، فقلتُ مرتجِلًا:



(١) «ترجمة الشيخ الشنقيطي» للشيخ عطية سالم (ص٢٨، ٢٩).

هذا فتًى مِنْ بني جاكانَ قد نزلا ... به الصِّبا عن لسان العُرْب قَدْ عدلا

رَمَتْ به همَّةٌ علياءُ نحوَكُمُ ... إذ شامَ برْقَ علومٍ نورُهُ اشتعلا

فجاء يرجو رُكامًا من سحائبه ... تكسو لسانَ الفتى أزهارُهُ حُللا

إذ ضَاق ذَرْعًا بِجَهْلِ النحوِ ثم أبى ... ألَّا يُمَيِّزَ شكلَ العينِ مِن «فعلا»

قد أتى اليوم صَبًّا مُولَعًا كَلِفًا ... بـ«الحمد لله لا أبْغي به بَدَلا»

يريد دراسة «لامية الأفعال»(١).

وقد مضى رَحِمَهُ ٱللَّهُ في طلب العلم قُدُمًا، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقِران، أي: أن يقْرِنَ بين كل فنين؛ حرصًا على سرعة تحصيله، وتفرسًا له في القدرة على ذلك، فانصرف بهمة عالية في درس وتحصيل»(٢).

وقال الشيخ عبد الله ابن العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال لي أبي: نفعني الله بشيخ لي كان يقول لي: اعلم أن الفقهاء يقولون: «إذا كان هناك ذكي ذكاء لا يوجد مثله إلا قليل؛ تكون فروض الكفاية فرضَ عينٍ عليه»، فاتق الله في الأمة، ففروض الكفاية فرض عين(٣) عليك(٤).

(١) للإمام ابن مالك وهي تبدأ بقوله:

الحمد لله لا أبْغي به بَدَلا ... حمدًا يُبَلِّغُ من رضوانِهِ الأمَلا

(٢) «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» لتلميذه الشيخ عطية سالم (ص٢٩، ٣٠).

(٣) قال الحافظ الفقيه الزاهد الإمام سحنون بن سعيد التنوخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من كان أهلًا لتقييد العلوم ورجاء الإمامة فعليه فرضٌ أن يطلبها. واحتج بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]»، وانظر: «الزواجر» للهيتمي (٢/ ٧٤)، و«بر الوالدين» للطرطوشي (ص١٤٤).

(٤) «الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» للشيخ عبد الرحمن السديس (ص٢٢٠، ٢٢١).



★ ومن عجيب النماذج الناجحة في زراعة الهمة العالية في الأطفال ما يقال من أن الشيخ آق شمس الدين[(١)] الذي تولى تربية السلطان محمد الفاتح العثماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان يأخذ بيده، ويمر به على الساحل، ويشير إلى أسوار القسطنطينية التي تلوح من بُعْدٍ شاهقةً حصينةً، ثم يقول له: أترى إلى هذه المدينة التي تلوح في الأفق إنها القسطنطينية، وقد أخبرنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن رجلًا من أمته سيفتحها بجيشه، ويضمها إلى أمة التوحيد، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما رُوي عنه: **«لَتَفْتَحُنَّ القسطنطينية، ولَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولنعم الجيشُ ذلك الجيش»**[(٢)]، وما زال يكرر هذه الإشارة على مسمع الأمير الصبي إلى أن نمت شجرة الهمة في نفسه، وترعرعت في قلبه، فعقد العزم على أن يجتهد ليكون هو ذلك الفاتح الذي بَشَّر به الصادق المصدوق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد كان، فقد كان والده السلطان مراد الثاني –منذ صغره– يستصحبه معه بين حين وآخر إلى بعض المعارك، ليعتاد مشاهدة الحرب والطعان، ومناظر الجنود في تحركاتهم واستعداداتهم ونزالهم، وليتعلم قيادة الجيش وفنون القتال عمليًّا، حتى إذا ما ولي السلطنة، وخاض غمار المعارك خاضها عن دراية وخبرة.



---

(١) الشيخ آق شمس الدين محمد بن حمزة الدمشقي الرومي (ت:١٤٥٩م)، يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، درس القرآن الكريم، والسنة النبوية، والفقه، والعلوم الإسلامية، واللغات العربية، والفارسية، والتركية، ودرس الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وتبحَّر في علوم الطب، والصيدلة، والنباتات، ومدى مناسبتها للعلاج من الأمراض، وشاعت شهرته في ذلك حتى شاع في الناس مقولة: «إن النبات يُحدِّث آق شمس الدين»، وكان معنيًّا بدراسة الأمراض المعدية، والسرطان، وصنف فيهما.

(٢) انظر: «السلسلة الضعيفة والموضوعة» رقم (٨٨٢).



ولما جاء اليوم الموعود شرع السلطان محمد «الفاتح» في مفاوضة الإمبراطور قسطنطين ليسلمه القسطنطينية، فلما بلغه رفض الإمبراطور تسليم المدينة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«حسنًا عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر».

وحاصر السلطان «محمد الفاتح» -أنعم به من فاتح- القسطنطينية أربعة وخمسين يومًا، تعددت خلالها المعارك العنيفة، وبعدها سقطت المدينة الحصينة التي استعصت على الفاتحين قبله، على يد بطل شاب، له من العمر ثلاث وعشرون سنة، وحقق هذا الفاتح البطل للمسلمين أملًا غاليًا ظل يراودهم ثمانية قرون، حاولوا تحقيقه مرارًا فلم يفلحوا، وكأنَّ القدر كان قد ادَّخر هذا الشرف لهذا البطل المغوار.





الحاجة إلى التقدير

في داخل الإنسان حاجة متجذرة إلى التقدير، ورغبة في إشباعها، وهذه الحاجة مشروعة فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

وعلَّمنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن نشكر للناس إحسانهم وصنيعهم.

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافؤونه فادعوا**[١] **له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»[٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من لم يشكر الناس، لم يشكر الله** عَزَّوَجَلَّ»[٣].

وعن الأشعث بن قيس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ أشكرَ الناسِ لله** عَزَّوَجَلَّ **أشكرُهم للناس**»[٤].



(١) ومن أفضل الدعاء هنا ما ثبت عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**من صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الثناء**» رواه الترمذي [١٩٥٨]، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) رواه أبو داود [١٦٧٢]، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الإمام أحمد [٧٥٠٤]، ورواه البخاري في «الأدب المفرد» [٢١٨]، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي [١٩٥٤] وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان [٣٤٠٧].

(٤) رواه الإمام أحمد، وابن أبي شيبة في «المصنف»، والبيهقي في «السنن الكبرى»، وصححه الألباني، وفيه إبطال للعبارة الشائعة «لا شكر على واجب».

وعن طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أُولِيَ معروفًا، فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره**»[(١)].

يقول الدكتور محمد عز الدين توفيق حَفِظَهُ اللهُ:

«تتكون لدى الفرد من خلال التربية الحاجة إلى تقديرِ واستحسانِ الآخرين فتتجه أعماله نحو إشباع هذا الدافع الاجتماعي، بالتفوق والمنافسة والإتقان.

وفي الإسلام يجب أن يسعى الإنسان لنيل مرضاة الله أولًا، فيراعي نظر الله إلى عمله قبل نظر الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥].

وهذا لا يتعارض مع حرصه على انتزاع ثناء الناس وتقديرهم، والفرق أن الكافر والمنافق لا يهمه إلا نظر الخلق؛ فهو يتوسل إلى نيل المحمدة عندهم بكل وسيلة، بينما يجعل المؤمن مدح الناس وثناءهم ثمرة من ثمرات عمله، وتلك عاجل بشراه، إذا بلغه شيء من ثناء الناس حمد الله، وقال: اللهم اجعلني خيرًا مما يظن الناس، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون»[(٢)].

ومن هنا كان من باب «المدح التقديري» إطلاق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بعض أصحابه ألقابًا خاصة كالصِّدِّيق، والفاروق، وأمين الأمة، وسيف الله، وأسد الله، وأحيى الأمة، والطيار.

---

(١) رواه الطبراني، وحسَّنه الألباني، وفي الحديث: «ويكفرن العشير: تحسن إلى إحداهن الدهر، فإذا رأت منك شيئًا تكرهه قالت: ما رأيت منك خيرًا قط».

(٢) «التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية» (ص٥١٧، ٥١٨)، وهي أطروحة «مُبدعة» بكل جدارة، قدمها لنيل درجة الدكتوراة بكلية الآداب جامعة محمد الخامس.

التشجيع بالمدح التقديري

الأصل في الشرع الشريف كراهية المدح لأنه قد يجر المادح إلى المبالغة والكذب، ويجر الممدوح إلى العُجْبِ والغرور، وقد سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا يثنى على رجل ويطريه في المدحة فقال: «**أهلكتم، أو قطعتم ظهر الرجل**»[(١)].

وقال في موقف مماثل: «**ويحك قطعتَ عنقَ صاحبِك**»[(٢)].

وأخذ العلماء من ذلك كراهية المدح، وهو الأصل: «وفي الجملة المدح والثناء على الرجل مكروه، لأنه قلَّما يسلم المادحُ عن كذبٍ يقوله في مدحه، وقلَّما يسلم الممدوحُ من عُجْبٍ يداخله...»[(٣)].

وقد يستثنى من ذلك أحيانًا جواز مدح المربي لتلميذه، أو القائد لجنديه، إذا كان لغرض التشجيع، وأمن عليه من العجب والغرور، بل حتى التشجيع للقادة أو بين الأقران فقد جُبلت النفوس على ذلك، ولنا في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة حيث يقول في حادثة إغارة الكفار على سَرْح[(٤)] المدينة وذهاب سلمة وأبي قتادة في أثرهم:



(١) رواه البخاري.
(٢) رواه مسلم.
(٣) «شرح السنة» (١٣/ ١٥١).
(٤) وهي الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.



«كان خيرَ فرسـانِنا اليوم أبو قتادة، وخير رَجَّالتنا سلمة»[(١)]. فعلق النووي عـلى ذلـك بقوله: (وهذا يدل على جواز ثناء الإمـام على من ظهرت منه براعة في القتال)[(٢)].

واستنبط ابن حجر منه:

«استحباب الثناء على الشجاع ومن فيه فضيلة، لاسيما عند الصنع الجميل ليستزيد من ذلك، ومحله حيث يؤمن الافتتان»[(٣)].

ومن الثناء ما يكون فرديًّا، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد يوم أحد: «**ارمِ فداك أبي وأمي**»[(٤)].

وكذلك قوله للزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن لكل نبي حواريًّا، وحواريَّ الزبير**»[(٥)].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقضى أمتي علي بن أبي طالب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت**».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن مسعود لما سأله: «**إنك غلام مُعَلَّم**». وقال: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**زادك الله حرصًا**»[(٦)]، ولما أخذ زيد ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينقل التراب مع المسلمين في الخندق، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه نعم الغلام**».



---

(١) رواه مسلم.
(٢) «الأذكار النووية» (ص١٨٣).
(٣) «فتح الباري» (٩/ ٢٩٣).
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه البخاري.

وقد يكون الثناء جماعيًّا يخص مجموعة كاملة، مما يقاس عليه الثناء على مجموعة من الدعاة، أو دعاةِ مكانٍ بعينه، أو مدح رَهْطٍ معين يقومون بمهمة دعوية، ومما ورد ما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قبيلتي أسلم وغِفار: «**غِفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله...**»[(١)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتي زمزم، وهم يسقون، ويعملون فيها، فقال: «**اعملوا، فإنكم على عمل صالح**»[(٢)].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفه أسامة، فاستسقى، فأتيناه بإناءٍ من نبيذ[(٣)] فشرب، وسقى فضله أسامة، وقال: «**أحسنتم، كذا فاصنعوا**»[(٤)].

وامتدح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدةَ بني تميمٍ وشجاعتَهم، فقال: «**هم أشدُّ أمتي على الدجال**»[(٥)].

وكل ما صدر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مدح للأفراد أو الجماعات صدق مَحْض، أُمِن فيه إعجابُ الممدوحين بأنفسهم، واغترارهم بها، وكذا سائر ما ثبت من الأحاديث في مناقب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(٦)].



(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري (٣/ ٤٩١-فتح).
(٣) **النبيذ**: كل شراب نبذ، سواء تعجلوا شربه وهو حلو قبل أن يتخمر وهو الأكثر وهو المراد هنا، أو تركوه حتى يتخمر، وكل ذلك يسمى عندهم نبيذًا.
(٤) رواه مسلم، وانظر: «الأذكار» للنووي (ص٢٥٩).
(٥) متفق عليه.
(٦) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٩).



العفو والتماس العذر من صور المدح

عن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بعثًا من المسلمين إلى قومٍ من المشركين، وإنهم التقوا، فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصِدَ إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلًا من المسلمين قصد غفلته، قال: وكنا نُحَدَّث أنه أُسامةُ بن زيد، فلما رفع عليه السيف، قال: «لا إله إلا الله»، فقتله، فجاء البشيرُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله فأخبره خبرَ الرجلِ كيف صنع، فدعاه فسأله فقال: «**لِمَ قَتَلْتَه؟**» فقال: «يا رسول الله أوجع[٧] في المسلمين فقتل فلانًا وفلانًا، وسمى له نفرًا، وَإني حَمَلْتُ عليه، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قالَ: لا إله إلا الله». قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقَتَلْتَهُ؟**» قال: نَعَمْ. قال: «**فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إله إلا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيامَةِ؟**» قال: يا رسول الله! اسْتَغْفِرْ لِي. قالَ: «**وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إله إِلَّا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيامَةِ؟**»، قال: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أنْ يَقُولَ: «**كَيْفَ تَصْنَعُ بِلا إله إِلَّا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيامَةِ؟**»[٨].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: بَعَثَنَا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَرِيَّة، فصَبَّحْنا الحُرَقات من جهينة[٩]، فأدركت رجلاً، فقال: «لا إله إلا الله» فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:



(٧) أي: أوقع بهم وآلمهم.
(٨) رواه مسلم (١/ ٩٧)، رقم [١٦٠].
(٩) أي: أتيناهم صباحًا، و**الحُرُقات**: موضع ببلاد جهينة، وفي رائه الضم والفتح.



«أقال: **لا إله إلا الله، وقتلته؟**»، قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: «**أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلمَ أقالها أم لا؟**»، فما زال يكررها عَلَيَّ، حتى تمنيتُ أني أسلمت يومئذ[(١)].

والشاهد هنا أن هذا الإنكار الشديد من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمنعه من أن يُعَيِّنَه فيما بعدُ قائدًا للجيش -مع صغر سنه آنذاك- المتجهِ لغزو الروم أقوى جيوش العالم يومئذ، بل انطلق لسانه الشريف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالثناء على أسامة وإثبات أهليته للإمارة[(٢)].

وما ذاك إلا لحمايته من «عقدة الذنب»، والإحباط، والشعور بالخِذلان بسبب إنكاره الشديد عليه في تلك الواقعة، ولفتح باب الأمل والثقة فيه وفي قدراته، ولم يجعل هذا الخطأ وصمةً يلازمه أثرُها سائرَ حياتِه.

ومن هذا الباب ما حدث عند رجوع خالد بن الوليد بجيشه المنسحب في «مؤتة»، إذ لم يكد خالد يصل بجيشه إلى ضواحي المدينة حتى اصطدم بأهل المدينة الحانقين على الجيش يؤنبونهم قائلين: «يا فُرَّار! فررتم من سبيل الله».

رُوِيَ عن أبي بكر بن عبد الله بن عتبة أنه كان يقول: ما لقي جيش بُعثوا معنا ما لقي أصحابُ مؤتة من أهل المدينة، لقيهم أهل المدينة بالشر، حتى أن الرجل

(١) رواه مسلم (١/ ٩٧)، رقم [١٦٠]، وأراد بقوله: «حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»: أي: لم يكن تقدم إسلامي، بل ابتدأت الآن الإسلام ليمحو عني ما تقدم، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) انظر: (ص٧٥٩).






لينصرف إلى بيته وأهله، فيدق عليهم الباب، فيأبون أن يفتحوا له، يقولون: «ألا تقدمتَ مع أصحابك؟».

وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: كان في ذلك البعث (يعني جند مؤتة) سلمة بن هشام بن المغيرة، فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت أم سلمة: «ما لي لا أرى سلمة بن هشام؟ أشتكى شيئًا؟» قالت امرأته: «لا والله، ولكنه لا يستطيع الخروج، إذا خرج صاحوا به وبأصحابه: (يا فُرَّار! أفررتم في سبيل الله؟) حتى قعد في البيت»، فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل هم الكُرَّارُ في سبيل الله، فليخرج!**» فخرج.

هكذا دافع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جيش مؤتة: نفى عنهم الفرار، وأثبت لهم أنهم كَرَّارون في سبيل الله، وقد انحازوا إلى فئتهم(١).

وفي رواية أنهم قالوا: يا رسول الله نحن الفرارون؟ قال: «**بل أنتم العَكَّارون، وأنا فئتكم**»(٢). وقوله: «**وأنا فئتكم**» يمهد بذلك عذرهم(٣).

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي: يفر بين يدي قِرنه مكيدة، ليريَه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال:١٦]: أي فَرَّ من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونونه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة، فأما إن فرَّ لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «السبع الموبقات»: «**والتولِّي يوم الزحف**».
(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي.
(٣) «شرح السنة» (١١/ ٦٩).





التَّشجِيعُ وَأَثَره في النّهُوضِ بِالهِمَّةِ

رفع الإسلام شأن التشجيع إلى حَدِّ أنه جعله فريضة على غير القادر علي إقامة فروض الكفايات مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلم، والولاية والإمامة، وعبارة الفقهاء في مثل هذه الفروض: «أنها واجب على الكفاية، فإن قام بها البعض سقط الوجوب عن الآخرين، وإن لم يقم بها أحد أثموا جميعًا، القادرُ: لأنه قصَّر، وغيرُ القادر: لأنه قصَّر فيما يستطيعه، وهو التفتيش عن القادر وحَمْله على العمل، وحثه وتشجيعه، وإعانته على القيام به، بل إجباره على ذلك»[١].

ولقد تسابق المسلمون في شتى العصور على تشجيع الموهوبين وكبيري الهمة، بكافة صور التشجيع، فكانوا ينفقون الأموال الجزيلة لنفقة النابغين من طلاب العلم، الذين حبسوا أنفسهم على طلبه، كي يغنوهم عن سؤال الناس، أو الاشتغال عن العلم بطلب المعاش.

وهذا الإمام أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي، قال فيه الصفدي: «لم أره قط إلا يسمع أو يكتب أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك، وكان له إقبال على أذكياء الطلبة يعظمهم، ويُنَوِّه بقدرهم»[٢].



(١) انظر: «الموافقات» للشاطبي (١/ ١١٤).
(٢) «الدرر الكامنة» (٥/ ٧٠).

وكان المعلمون في الكتاتيب والمساجد والأزهر الشريف إذا لمسوا في طفلٍ النجابةَ وسرعة التعلم، احتضنوه، وساعدوه على طلب العلم، وزودوه بالمال من مالهم الخاص، أو من الأوقاف.

وكان في طليعة المشجعين لطلبة العلم الخلفاء والأمراء، روى البخاري في (صحيحه) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يدُخل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -وهو غلام حَدَث- مع أشياخ بدر، قال ابن عباس: فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: «لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟» فقال عمر: «إنه من حيث علمتم»، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رُؤيت أنه دعاني يومئذ إلا ليرِيهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾؟ فقال بعضهم: «أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرنا، وفتِح علينا»، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا: فقال لي: «أكذاك تقول يابنَ عباس؟» فقلت: «لا»، قال: «فما تقول؟»، قلت: «هو أجلُ رسولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾»، فقال عمر: «ما أعلم منها إلا ما تقول».

وهكذا كان أمير المؤمنين يقَوِّي ثقته بنفسه، ويغذي همته، ويربأ به عن احتقار الذات أو الشعور بالدونية والنقص، وقد روى البخاري في (صحيحه) أيضًا أنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل بعض الصحابة عن آية في القرآن الكريم فلم يعرفوا الإجابة، وكان بينهم عبد الله ابن عباس، وهو صغير السن، فقال: «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين»، قال عمر: «يابنَ أخي قل، ولا تحقر نفسك»، فأجابه.

وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيت أحدًا أحضر فهمًا، ولا ألبَّ لُبًّا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع علمًا من ابن عباس، ولقد رأيت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعوه للمعضلات، ثم يقول: «جاءتك معضلة»، ثم لا يجاوز قوله، وإذا أهمَّ الأمر عمر بن الخطاب دعاه، وقال له: «غُصْ غَوَّاصُ!».

على هذا السنن من التفوق وعلو الهمة سار ابن عباس منذ طفولته، غير مبالٍ بتثبيط من هو أقصر منه همة، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما قُبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلت لرجل من الأنصار: «هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم اليوم كثير»، فقال: «واعجبًا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ فيهم؟»، قال: «فتركت ذاك، وأقبلت أسأل أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان يبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، يسفي الريح عليَّ من التراب، فيخرج فيراني فيقول: «يابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء بك؟ هلا أرسلت إليَّ فآتيك؟»، فأقول: «لا، أنا أحق أن آتيك» فأسأله عن الحديث، فعاش هذا الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألونني، فيقول: «هذا الفتى كان أعقل مني».

فحيهلا إن كنتَ ذا همةٍ فقد ... حدابك حادي الشوقِ فَاطْوِ المراحلا
ولا تنتظِرْ بالسيرِ رُفْقَةَ قاعدٍ ... وَدَعْهُ، فإن العزمَ يكفيك حاملا





- وقد كان ابن شهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشجع الأولاد الصغار، ويقول لهم: «لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان، فاستشارهم، يتبع حِدَّةَ عقولهم»[(١)].

- وقال الذهبي عن شيخه علم الدين البرزالي: وهو الذي حبب إليَّ طلب الحديث، فإنه رأى خَطي، فقال: «خطك يشبه خط المحدثين»، فأثَّر قوله فيَّ، وسمعت منه، وتخرَّجت به في أشياء.

- ويحكى أن بعضهم سمع صبيًّا في مجلس بعض العلماء يذكر شيئًا، فطلب القلم، وكتبه عنه، فلما فارقه قال: «والله إني لأعلم به منه، ولكن أردتُ أن أذيقه حلاوةَ رياسةِ العلم ليبعثه على الاستكثار»[(٢)].

- وكان الخليفة «هارون الرشيد» رَحِمَهُ ٱللَّهُ يغدق العطايا والصلات لطلبة العلم والعلماء، حتى قال ابن المبارك: «فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات في أيامٍ بعدَ أيامِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه، لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن ثمان سنين، ولقد كان الغلام يستبحر في الفقه والعلم، ويروي الحديث، ويجمع الدواوين، ويناظر المعلمين، وهو ابن إحدى عَشَرةَ سنة.

وقد بلغ حب بعض الأمراء للعلم والعلماء إلى الحد الذي جعله يعتبر العلماء في رعايته الخاصة، من هؤلاء الأمراء «المعز بن باديس» -أحد أمراء دولة الصِّنهاجيين

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٨٥).

(٢) «فتح المغيث» للسخاوي (٢/ ٣٢٦).



في المغرب الإسلامي- كان لا يسمع بعالم جليل إلا أحضره إلى حضرته، وجعله من خاصته، وبالغ في إكرامه، وعوَّل على آرائه، ومنحه أسمى الرواتب.

وكذلك فعل الخليفة الموحِّدي الثالث المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الذي أنشأ «بيت الطلبة»، وأشرف عليه بنفسه، وعندما بلغه حَسَدُ بعضِ حاشيته على موضع الطلبة النابغين عنده، فزع منهم، وخاطبهم قائلًا: «يا معشر الموحدين أنتم قبائل، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء الطلبة لا قبيلة لهم إلا أنا، فمهما نابهم من أمر فأنا ملجؤهم، إليَّ فزعهم، وإليَّ يُنْسَبون».

وقد بلغت عناية المنصور بالطبيب «أبي بكر بن زهر» حدًّا عجيبًا؛ فقد كان أبو بكر يقيم عند الخليفة مُدَدًا طويلة، ولا يُرَخِّصُ له بالسفر إلى أهله، حتى قال شعرًا في شوقه إلى ولده الصغير، فلما سمع المنصور هذا الشعر، أرسل المهندسين إلى «أشبيلية»، وأمرهم بدراسة بيت أبي بكر وحارته، وتشييد مثله في «مراكش»، ففعلوا ما أمرهم، ونقلوا عيال أبي بكر إليه، فلما رآها ابن زهر اندهش، وحصل عنده من السرور ما لا مزيد عليه، ولا يستطاع التعبير عنه، فهل سُمع بمثل هذا في إكرام العلم والعلماء؟!

وفي القرن السادس عشر قامت محاولة ناجحة في عهد الخلافة العثمانية لتجميع النابغين من جميع الأمصار والقرى، وتوفير الرعاية التي جعلت كل نابغة يعطي ما عنده من فن وعلم، مما ساعد على ازدهار الدولة العثمانية حضاريًّا وعسكريًّا حتى باتت تهدد بغزو أوربا[١].



(١) انظر: «رعاية النابغين في الإسلام وعلم النفس» (ص١٧١، ١٧٢). =

قال الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

(قرأت مرة أن مجلة إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نموُّ العلوم وازدهار الآداب، وجَعَلَتْ لمن يحسن الجواب جائزة قيِّمة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: «إنه التشجيع!»، وقالت: «إنها في تلك السنِّ، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الإمام، وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير») اهـ.

= تنبيه:

(من الجدير بالذكر أن رعاية النابغين أُهملت في أوربا وأمريكا حتى بداية القرن العشرين، بسبب سوء فهم هذه المجتمعات للنابغين، ولعل سبب ذلك كان كتاب «Man of Genius» أي: «الرجل العبقري»، لمؤلفه Lambroso، وكتاب «Insanity of Genius» أي: «جنون العبقرية» لمؤلفه Nisbet، وقد نشر الكتابان في لندن ونيويورك في أواخر القرن التاسع عشر، وأثبتا فيهما العلاقة الوثيقة بين العبقرية والجنون، وقدَّما البراهين على أن النابغين مجانين.

ثم بدأت فكرة الغربيين عن النابغين تتحسن بعد أن نشر Terman كتابه «The Gifted Children Grown Up» أي: «الطفل النابغة يرشد» سنة ١٩٤٧، وقدم فيه البراهين على أن الأطفال الأذكياء أصحاء نفسيًّا، وجسميًّا، واجتماعيًّا، مما ساعد على تكوين «رأي عام» مع النابغين.

وحتى منتصف القرن العشرين كان الأمريكيون يعتبرون رعاية النابغين ترفًا تربويًّا، ولم يبذلوا جهودًا جادة في الكشف عنهم إلا بعد أن أطلق الروس أول مركبة فضاء سنة ١٩٥٧، وشعروا بالخطر من تفوق الروس عليهم، فاتجهوا إلى رعاية النابغين، واعتبروها «مسألة حياة أو موت»، وجندوا علماء التربية وعلم النفس والاجتماع، وعقدوا المؤتمرات والندوات لتخطيط وتنظيم رعاية فئات النابغين، وتشجيعها على إظهار نبوغها في جميع المجالات، وأنشأت كل ولاية العديد من المعاهد والفصول المتخصصة في رعاية النابغين في جميع المجالات، حتى بلغ عدد المعاهد حوالي ٧٠٠ معهدًا تشرف عليها حوالي ٣٠٠ جامعة في أمريكا، كما أسهمت المؤسسات التجارية والصناعية والعلمية في تمويل برامج الكشف عن النابغين ورعايتهم) اهـ من «رعاية النابغين» (ص١٧٣، ١٧٤) بتصرف.





قال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والتخذيل لا يسري في أمة إلا وتعمل على إسقاط نفسها بنفسها، وتُوجِد -من تقصيرها، وتخذيل الناصحين فيها- معاول لهدمها، وإذا نظرت في تاريخ (داء التخذيل) الطويل، منذ فجر الرسالة رأيته من سمات المسلمين ظاهرًا، لا باطنًا -المنافقين- فانظر كيف يسري على حين غفلةٍ إلى صالح المسلمين»[(١)].

- وذكر الشيخ علي الطنطاوي أثر التثبيط في خنق المواهب، وحرمان الأمة من عبقرية أصحابها وإبداعهم، وضرب مثالًا لذلك فقال: إن الشيخ محمد أمين «ابن عابدين» لما نشأ، وأنس المثبطون[(٢)] منه الميل إلى العلم، وعرفوا فيه الذكاء المتوقِّد، والعقل الراجح، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه -وكان أبوه امرءًا تاجرًا- ليسلك به سبيل التجارة، ويتنكَّب به طريق العلم، وجعلوا يكلِّمونه، ويرسلون إليه الرسل، ويكتبون إليه الكتب، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه، ولكن الله أراد بالمسلمين خيرًا، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك، ابن عابدين صاحب «الحاشية»، أوسع كتاب في فروع الفقه الحنفي.

بل أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلَّامة «محمد بن كرد علي» عن العلم، فبعثوا إليه بشقيقين من آل... بشقيقين قد ماتا فلستُ أسميهما، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالبًا -فما زالا بأبيه- ولم يكن أبوه من أهل العلم -ينصحانه أن يقطعه عن العلم، ويعلمه مهنة يتكسب منها، فما في العلم نفع،



(١) «الرد على المخالف» (ص٧٤).

(٢) وهؤلاء المثبطون كانوا -كما قال الشيخ الطنطاوى-: «أبناء عائلات معينة احتكرت الوظائف العلمية، فكانوا يخشون تحولها عنهم إلى غيرهم»، والله أعلم بسرائر عباده.

ولا منه فائدة... ويُلِحَّان عليه ويلازمانه، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا، الأستاذ «كرد علي» أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سورية الأسبق، ومفخرتها، والذى من مصنَّفاته: خطط الشام، وغرائب الغرب، والقديم والحديث، والمحاضرات، وغابر الأندلس وحاضرها، والإدارة الإسلامية، والإسلام والحضارة العربية... والمقتبس... ومن مصنفاته: «المجمع العلمي العربي بدمشق»، ومن مصنفاته هؤلاء «الشعراء والكتَّاب من الشباب»!

ولعل في الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين وككرد علي، وها هو ذا العلامة الشيخ «سليم البخاري» رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات وما له مصنَّف رسالة فما فوقها، على جلالة قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدة بيانه؛ وسبب ذلك أنه صنَّف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة في المنطق، كتبها بلغة سهلةٍ عذبة، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعرضها على شيخه، فسخر منه وأنَّبه، وقال له:

«أيها المغرور! أبلغَ مِن قدرك أن تصنف، وأنت... وأنت...» ثم أخذ الرسالة فسجَّر بها المدفأة.. فكانت هي أول مصنفات العلامة البخاري وآخرها.

- وشغلت مسألة «حكم اتخاذ القبور مساجد» بال العلامة المجدد محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وقال بشأنها:

«والحق أن هذه المسألة من أوائل الأسباب التي انفصلت بها عن معظم المشايخ: إذ كانوا فيها على طريقة والدي، فكان من بواكير ما بدأت به مما يشبه البحث العلمي أن تتبعت هذه القضية في بعض المراجع الفقهية والحديثية مما



تحتوي مكتبة والدي، فكتبت بعض الصفحات ذهبت فيها إلى كراهة الصلاة تحريميًّا في تلك المواطن، وبخاصة المساجدُ المبنية على قبور الأنبياء والأولياء، مستدلًّا على ذلك بما وقعت عليه من أقوال العلماء في تلك المراجع، وقدمتُ رسالتي إلى شيخي البرهاني في الأواخر من أيام رمضان، فوعدني بردِّ جوابها بعد العيد، فلما جئته تبسم لي، وقال: لم تصنع شيئًا، لأن المظان التي نقلتَ عنها لا تعدو حاشية ابن عابدين ومراقي الفلاح وليست بمصادر للفقه.. وقد صُدمت بهذا الجواب، وعلمت أن الشيخ لم يستوعب كل ما كتبته، إذ كانت نقولي عن (عمدة القاري) و(مرقاة المفاتيح)، و(مبارق الأزهار) و(حاشية الطحطاوي)، وهي من المراجع المعتبرة عند أهل العلم.. ولهذا رأيت أن أتابع المسألة في دائرة أوسع، وهكذا مضيت في البحوث والتنقيب حتى استكملت الفكرة بأدلتها من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة، فكان هذا كتابي المعروف (تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد)»[(١)].

وقد حكى الأديب العصامي الشهير محمود عباس العقاد أثر مُدَرِّسيه في المرحلة الابتدائية على نفسه فقال: «استفدت في مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما في طريق الإفادة، فحمدت العاقبة على الحالين.

كان أحد الأستاذين الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي، وكان يميل إلى التجديد والابتكار في التعبير، ويمنح أحسن الدرجات للتلميذ المتصرف في مناحي الكلام، وأقلَّها للتلميذ الذي يقتبس من نماذج الكتب.



(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).




وكانت دروسه تلتهب حماسةً ووطنيةً، ولها تأثيرها البليغ في نفوس التلاميذ، خصوصًا في زمن كانت تئن فيه البلاد من وطأة الاحتلال.

أما الأستاذ الثاني فمدرس الحساب»[(١)].

ثم تحدث عن مدرس الحساب فقال: «كان يؤمن بالخرافات، وشفاعات الأولياء، وكان محدود الفهم في دروسه، ولاسيما المسائل العقلية في دروس الحساب»[(٢)].

وبعد أن ذكر بعض المواقف مع ذلك الأستاذ قال: «ولكن الدرس الأكبر الذي أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس في صباي كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية. كنت شديد الولع بهذه المسائل، لا أدع مسألة منها دون حل مهما يبلغ من إعضالها.

وكان الأستاذ يحفظ منها عددًا كبيرًا محلولًا في دفتره يعيده على التلاميذ كل سنة، وقلما يزيد عليه شيئًا من عنده.

وعُرِضَتْ في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل، وقال على سبيل التخلص: إنما عرضتها عليكم؛ امتحانًا لكم؛ لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب، ومسائل الجبر؛ لأنها تشتمل على مجهولين.

لم أصدق صاحبنا، ولم أكُفَّ عن المحاولة في بيتي، وقضيت ليلةً ليلاء حتى الفجر، وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام،



(١) «ذكرياتي مع عباس العقاد» لطاهر الجبلاوي (ص٢٥).
(٢) نفسه (ص٢٥).

وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة، وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها؛ لأستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

قال الأستاذ: أية مسألة؟

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها بالحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟ تفضل، أرنا همتك يا شاطر.

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني؛ لشدة ما شغلتني، وطول ما راجعتها، وكررت مراجعتها، وانتظرت ما يُقال.

فإذا الأستاذ ينظر إليَّ شزرًا وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل؛ لأنها مسألة لن تعرض لكم في امتحان.

وإذا بالتلاميذ يُعَقِّبون على نفحة الأستاذ قائلين: ضيَّعتَ وقتنا، ما الفائدة من كل هذا العناء؟».

ثم عقب العقاد على هذا الحدث بقوله: «كانت هذه الصدمة خليقة بأن تكسرني كسرًا لو أن اجتهادي كان محل شك عندي، أو عند الأستاذ، أو عند الزملاء.

أما وهو حقيقة لا شك فيها فإن الصدمة لم تكسرني، بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح قول (نيتشه)[1]: كل ما لم يقتلني يزيدني قوة.

(١) يعني به: فريدرك نيتشه، فيلسوف ألماني. انظر: «كواشف وزيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة»، لعبد الرحمن الميداني (ص٥٦٠).



لأني لم أحفل بعدها بإنكار زميل، ولا رئيس، وعلمت أن الفضل قيمته فيه، لا فيما يقال عنه أيًّا كان القائلون»[(١)].

ويوضح الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية التشجيع وأثره فيقول:

وأول من سَنَّ سنةَ التشجيع في بلدنا هو العلامة المرحوم مربي الجيل الشيخ طاهر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفيلسوف المؤرخ الجدلي، الذي من آثاره المدارس الابتدائية النظامية في الشام، والمكتبة الظاهرية، والأستاذ (محمد كرد علي بك)، وخالي الأستاذ (محب الدين الخطيب)... ومما كتب[(٢)] في ذم التثبيط:

«... وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم، في هذا الوقت الذي يتنبَّه فيه الغافل...

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم، ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع، ولم يُرَ أحد من المثبطين قديمًا أو حديثًا أتى بأمرٍ مهم، فينبغي للجرائد الكبيرة، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها، ليخلص منها من لم تستحكم فيه، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم».

وكان الشيخ في حياته يشجِّع كل عامل، ولا يَثني أحدًا عن غاية صالحة، حتى لقد أخبرني أحد المقربين منه أنه قال له: (إذا جاءك من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام، فلا تقل له: «إن هذا غير ممكن»، فتفلَّ عزيمته، وتكسر همته، ولكن أقرئه وحبِّب إليه النحو، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته).

---

(١) «ذكرياتي مع عباس العقاد» (ص٢٧، ٢٨).

(٢) أي: العلامة طاهر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

★ ثم إن التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أكلها؛ ورُبَّ ولدٍ من أولاد الصُنَّاع أو التجار يكون إذا شُجِّع وأُخذ بيده عالمًا من أكابر العلماء، أو أديبًا من أعاظم الأدباء!

وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة، إلى منصب الإفتاء، وكرسي التدريس تحت القبَّة.

نشأ الشيخ «محمد إسماعيل» الحائك عاميًّا، ولكنه محبٌّ للعلم، محب للعلماء، فكان يحضر مجالسهم، ويجلس في حلقهم للتبرك والسماع، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول، فجعل الشيخ يؤنسه، ويلطف به لما يرى من دوامه وتبكيره، ويسأل عنه إذا غاب، فشدَّ ذلك من عزمه، فاشترى الكتبَ يُحيي ليلَه في مطالعة الدرس، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة، واستمر على ذلك دهرًا حتى أتقن علوم الآلة، وصار واحدَ زمانه في الفقه والأصول، وهو عاكف على مهنته لم يتركها؛ وصار الناس يأتونه في محلِّه يسألونه عن مشكلات المسائل، وعويصات الوقائع، فيجيبهم بما يعجز عنه فحولة العلماء، وانقطع الناس عن المفتي من آل العمادي، فساء ذلك العماديين وآلهم، فتربَّصوا بالشيخ وأضمروا له الشرَّ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلًا، فقد كان يحيا من عمله، ويحيا الناسُ بعلمه، وكان يمر كل يوم بدار العماديين في «القيمرية» وهو على أتانٍ[1] له بيضاء، فيسلِّم فيردون عليه السلام، فمر يومًا كما كان يمر، فوجد على الباب أخًا للمفتي، فردَّ عليه السلام، وقال له ساخرًا:



(١) **الأَتَان**: الحِمارة.



- «إلى أين يا شيخ، أذاهبٌ أنت إلى اسطنبول لتأتي بوِلاية الإفتاء؟» وضحك وضحك من حوله، أما الشيخ فلم يزد على أن قال:

- «إن شاء الله!»، وسار في طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقة حتى عاد إلى داره، فودَّعَ أهله، وأعطاهم نفقتهم، وسافر!

وما زال يفارق بلدًا، ويستقبل بلدًا، حتى دخل القسطنطينية فنزل في خان قريب من دار المشيخة، وكان يجلس على الباب يطالع في كتاب، أو يكتب في صحيفة، فيعرف الناس من زِيِّه أنه عربي فيحترمونه ويُجِلُّونه، ولم يكن الترك قد جُنُّوا الجِنَّة الكبرى بعدُ... فكانوا يعظمون العربي، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذي اهتدوا به، وصاروا به وبقومه ناسًا...

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم، فكانوا يجلسون إليه يحدثونه، فقال له يومًا رجل منهم:

- «إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيَّرت علماءها، ولم يجدوا لها جوابًا، والسلطان يستحثهم وهم حائرون، فهل لك في أن تراها لعلَّ الله يفتح عليك بالجواب؟».

قال: «نعم».

قال: «سر معي إلى المشيخة».

قال: «باسم الله».

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها)، فسأله الشيخ إسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلَّب بصره فيه بازدراء، ولم تكن هيئة الشيخ بالتي تُرضِي، ثم ألقاها إليه وانصرف إلى عمله، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من مِنطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التي كان يستعملها العلماء وطلبة






العلم للكتابة وللدفاع عن النفس، فاستخرج منها قصبة فبراها، وأخذ المقطع فقطعها، وجلس يكتب الجواب بخط نسخي جميل حتى سوَّد عشر صفحات ما رجع في كلمة منها إلى كتاب، ودفعها إلى الناموس، ودفع إليه عنوان منزله وذهب، فلما حملها الناموس إلى شيخ الإسلام وقرأها، كاد يقضي دهشة وسرورًا.

- وقال له: «ويحك! من كتب، هذا الجواب؟».

- قال: «شيخ شامي من صفته كَيْتَ وكَيْتَ...».

- قال: «عليَّ به».

فَدَعَوْه، وجعلوا يُعَلِّمونه كيف يسلِّم على شيخ الإسلام، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعًا يده على صدره، منحنيًا، ثم يمشي متباطئًا حتى يقوم بين يديه... إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التي نسيها الشيخ، ولم يحفظ منها شيئًا.

ودخل على شيخ الإسلام، فقال له:

- «السلام عليكم ورحمة الله»، وذهب فجلس في أقرب المجالس إليه، وعجب الحاضرون من عمله، ولكن شيخ الإسلام سُرَّ بهذه التحية الإسلامية، وأقبل عليه يسأله حتى قال له:

- «سلني حاجتك؟».

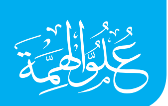
- قال: «إفتاء الشام وتدريس القبَّة».

- قال: «هما لك، فاغْدُ عليَّ غدًا!».

فلما كان من الغد ذهب إليه، فأعطاه فرمان التولية، وكيسًا فيه ألف دينار.

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب أتانه، ودار حتى مَرَّ بدار العماديين فإذا صاحبنا على الباب، فسخر منه كما سخِر، وقال:






- «من أين يا شيخ؟».

- فقال الشيخ: «من هنا، من اسطنبول، أتيت بتولية الإفتاء كما أمرتني».

ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالي بالفرمان، وسلَّم الشيخَ عملَه في حفلة حافلة.

هِممُ الرجالِ إذا مَضَتْ لم يثنِها   خِدَعُ الثناءِ ولا عوادي[(١)] الذامِ[(٢)]

- ومن هذا الباب قصة الشيخ «على كزبر»، وقد كان خياطًا في سوق المسكية على باب الجامع الأموي، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس في الحلقة التي تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه، فيشجعه ويحثه على القراءة، فقرأ ودأب على المطالعة، حتى صار يقرأ بين يدي الشيخ في الحلقة، ولبث على ذلك أمدًا وهو لا يفارق دكَّانه، ولا يدع عمله، حتى صار مقدمًا في كافة العلوم.

فلما مات الشيخ حضر في الحلقة الوالي والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرِّس الجديد، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه، ففتشوا عليه فإذا هو في دكانه يخيط، فجاؤوا به، فقرأ الدرس، وشرحه شرحًا أُعجب به الحاضرون وطربوا له، فعُيِّنَ مُدرِّسًا، ولبث خمسة عشر عامًا يدرس تحت قبة النسر، وبقيت الخطبة في أحفاده إلى اليوم[(٣)].



(١) **العوادي**: جمع عادية، وعوادي الدهر: نوائبه، وعادية فلان: ظلمه وشره.

(٢) **الذَّأم**: العيب، يقال: ذَأمه ذأمًا: عابه وحقَّره.

(٣) انظر: «فِكَر ومباحث» للشيخ علي الطنطاوي (ص١٢٨-١٣٤).

أعظم المصاب زوال نعمة الشباب

بضدها تُعرف الأشياء، وبالشيبة تُعرف نعمة الشبيبة، فإذا أردت أن تدرك قيمة الشباب، فتأمل حال من غربت شمس شبابه، فملأ النواحي بالنواح، وقد أسال الشيب عَبرته، وأشجى فؤاده، وأورثه همًّا لا ينقضي، وحسرة لا تنتهي.

لقد حفل الأدب العربي وبخاصة الشعر بكنوز من القصائد البليغة بكى فيها الشعراء شبابهم بكاءً ما بَكَوْه على سواه اللهم إلا أن يكون رثاء الأموات، وهما في الحقيقة غرض واحد، إذ يقول ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا شك أن للناس موتتين، موتة الشباب، وموتة الأجساد، وما إحداهما أعظم من الأخرى في ألم الافتقاد».

لا يرحلُ الشَّيْبُ عن دارٍ أقام بها ... حتى يرحلَ عنها صاحبُ الدارِ

فالشيب موت مُعَجَّل يُنذِر باقتراب المُؤَجَّل:

والشيب إحدى الميتتين تقدَّمت ... أُولاهما وتأخرت أُخراهما

وقال البحتري:

ويموتُ الفتى وإن كان حيًّا ... حين يستكمل النفادَ شبابُه

ولا خير في حياة تقلَّصت عنها ظلال الشباب:



قال ظافر الحداد (ت٥٢٩هـ):

فأطيب عيش المرء عصر شبابه ... ومِـن سَـعْـدِهِ لـو مـات حـين يـزولُ

فلا تحسبنَّ العمر بعد شبيبةٍ ... فـكـل حـيـاةٍ بـعـد ذاك فضول

إذا الشيخ أثرى فهو أفقر مُعْدِم ... وإن صَحَّ بعد الشيب فهو عليلُ

وقال بعضهم:

والـشـيـب مـن بـعـد الـصِّـبا ... كـالـفـقـر مـن بـعـد الـغـنـى

والمشيب علة لا تُداوى، وخطر لا يمكن درؤه:

وفي حديث أسامة بن شريك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لم يُنزل** –أو لم يضع– **داءً إلا أنزل له شفاءً، غير داءٍ واحد: الهَرَم**» الحديث[1].

قال الصَّنوبري:

أُدعَى صحيحًا وبي من شَيبتي مرض ... وذو الشيب مريضٌ ما به وَجَعُ

وقد استثقل الشعراء حمل الشيب، واشتعال الفَوْدَين بالشعر الأبيض في ليل الرأس الأسود:

عُـدْتَ يـا يـومَ مـولِـدي ... عـدتَ يـا أيـهـا الـشـقِـي

الـصِّـبـا ضـاع مـن يـدي ... وغـزا الـشـيـب مَـفْـرِقـي

وقال علي بن جبلة:

ألقى عصاه وأرخى من عمامته ... وقال: ضيف، فقلت: الشيب، قال: أجل

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٧٨)، وابن ماجه [٣٤٣٦]، وغيرهما، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تحقيق «شرح السنة» (١٢/ ١٣٩)، «**والهرم**: الكِبَر، وقد هَرِم يَهْرَم فهو هَرِم، جعل الهَرَم داءً تشبيهًا به، لأن الموت يعقبه كالأدواء» اهـ. من «النهاية» (٥/ ٢٦١).



فقلت: أخطأتَ دار الحي، قال: ولِمْ ... مضت لك الأربعون الوَفْرُ ثم نَزَلْ

فما شجيت بشيء ما شجيت به ... كأنما اعتَمَّ منه مَفْرِقي بجَبَل

آخر:

وزائــرةٍ للـشيب لاحـت بمفرقي ... فعاجلتُها خوفًا من الحتفِ بالنتفِ

فقالت: على ضعفي تقويت ووِحدتي ... رُوَيدَك حتى يلحقَ الجيشُ من خلفي

وحاول الإمام ابن دقيق العيد -إذ هو شاب فَتِيٌّ- أن ينظر للشيب من زاوية إيجابية، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تمنيتُ أن الشيب عاجَلَ لِمَّتي ... وقــرَّب مـني في صبـايَ مــزارَهْ

لآخـذَ من عصر الشباب نشاطَه ... وآخـذَ مـن عصـرِ المشيـبِ وقـاره

وكان أول ما سبق إلى خاطر ورقة بن نوفل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما لقي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول نزول الوحي أن تمنى المستحيل: تمنى عودة الشباب لينصر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فقد جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في بدء الوحي:

... فرجع بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعِين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى -ابنَ عم خديجة- وكان امرأ قد تنصر[١] في الجاهلية، وكان



(١) كان ورقة من أعيان الحنفاء في الجاهلية، وانظر بيان أنه اتبع النصرانية -غيرَ المُحَرَّفَة- في التوحيد لا التثليث، في «فطرية الدين» للمؤلف (ص١٠٠-١٠٧).

يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس(١) الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا(٢)، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودي، وإن يدركْني يومُك(٣) أنصرْك نصرًا مؤزرًا(٤). ثم لم ينشب(٥) ورقة أن تُوُفِّيَ وفتر الوحي(٦).





(١) الناموس هنا: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٢) **جذعًا**: خبر (كان) المقدرة، و«فيها» الضمير يعود على أيام الدعوة، وقال الحافظ: «والجذع بفتح الجيم والذال المعجمة هو: الصغير من البهائم، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شابًّا ليكون أمكن لنصره، وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيرًا أعمى» اهـ. من «فتح الباري» (١/ ٦٠).
(٣) **يومُك**: أي يوم الإخراج.
(٤) **مؤزرًا**: أي قويًّا، مأخوذ من الأزر، وهو القوة، أو من شد الإزار: أي التشمير في نصرته، قال الأخطل: «قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم».
(٥) **لم ينشب**: لم يلبث.
(٦) رواه البخاري [٣].

اغتنم شبابك قبل هَرَمِك

حينما تكون الشمس في كبد السماء، في رابعة النهار، تكون أقوى وأحرَّ ما تكون، إنها مرحلة العطاء والبذل والقدرة على تحمل الأعباء، مرحلة الفتوة والحيوية والبناء.

بِقَدرِ الكَدِّ تُعطى ما تروم ... فمن رام العُلا ليلًا يقوم

وأيام الحَداثة فاغتنمها ... ألا إن الحداثة لا تدوم

إن من تحدثه نفسه وقد فاته قطار الشباب بأنه سيدرك مسيرة تلكم الكوكبة الشبابية وقد انطلقت إلى ربها متمسكة بدينها؛ كأنه يريد أن يمسك بقرص الشمس، وقد بدا إشراقها، ليدرك صلاة الصبح، وقد كان نائمًا!

قال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ

لقد كذبتْك نفسُك ليس ثوب ... خَليق كالجديد من الثياب

وقال بعض السلف: «اغتنم وقت الشباب، فإنما تقبل الطينة الختم ما دامت رطبة».

وقال خلف الأحمر:

ليس عطفُ القضيبِ إذ كان رَطْبًا ... وإذا كان يابسًا بسواء



الشباب هو زمن العمل؛ لأنه فترة القوة بين ضعفين، ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة(١)، فمِن ثَمَّ قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هَرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(٢)، قال الإمام أحمد: «ما شبهتُ الشباب إلا بشيء كان في كُمِّي فسقط».

وكان محمد بن حسان يقول: «لا تطلب من نفسك العمل في هذه السنة مثلَ عملها في السنة التي قبلها، لأن الإنسان كل يوم في نقص».

إن الشباب هو وقت القدرة على الطاعة، وهو ضيف سريع الرحيل:

أذانُ المرءِ حين الطفلُ يأتي ... وتأخير الصلاة إلى المماتِ
دليلٌ أن مَحْياه يَسيرٌ ... كما بين الأذانِ إلى الصلاةِ

فإن لم يغتنمه العاقل تقطعت نفسه بعدُ حسرات:

لم أقل للشباب في ذمة الله ... ـه ولا حِفْظِه غَداةَ استقلا
زائر زارنا أقام قليلا ... سوَّد الصحفَ بالذنوب وولى

فمِن ثَمَّ يسألُ الله عَزَّ وَجَلَّ كلَّ عبد من عباده عن نعمة الشباب كيف صرَّفه، وبم أبلاه، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه، حتى**

---

(١) وقد قيل لشيخ: كيف حالك؟ فقال: «صار يسبقني من هو معي، ويدركني من هو خلفي، وصرت أنسى كل شيء سمعته من الخير، وصرت إذا قمت دنت مني الأرض، وإذا قعدت تباعدت، وصرت أبصر الواحد اثنين، واسودَّ مني ما كنتُ أحب أنه يبيض، وأبيض مني ما كنت أحب أنه يسود، واشتد مني ما كنت أحب أنه يلين، ولان مني ما كنت أحب أنه يشتد».

(٢) رواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي.

يُسأل عن خمسٍ: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟»[(١)].

وعدَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«شابًّا نشأ في عبادة الله»** الحديث[(٢)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «ما آتى الله عَزَّ وَجَلَّ عبدًا علمًا إلا شابًّا، والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى[(٣)] يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ[(٤)] ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣][(٥)]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]. اهـ.

ووصف الله تعالى أنصار كليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالشباب، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣]، وقال في طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].



(١) رواه الترمذي، وقال: «حديث غريب»، وهو حسن لشواهده، وانظر: «الصحيحة» رقم [٩٤٦].
(٢) متفق عليه.
(٣) أي: في سن الفتوة والشباب.
(٤) أي: أشداء في عقيدتهم وعزمهم، وأشداء في أجسامهم.
(٥) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: «ذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب، وهم أقبلُ للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وعسوا -أي: كبروا، يقال للعود إذا يبس: عسى يعسو- في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شبابًا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يُسلِم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر الله تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا» اهـ. من «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ١٤٦).

لقد اعتاد الناس عند ذكر الأمجاد والإنجازات أن يضربوا الأمثلة برجال من عالم الكهول والكبار(١)، في حين أن النماذج الفذة من الشباب هم الكثرة الكاثرة.

إن الشباب هم الحاضر، وهم صُنَّاع المستقبل، وهكذا نظر إليهم المسلمون دومًا:

فقد كان أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأى طلبة العلم من الشباب قال: «مرحبًا بوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أوصانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نوسِّع لكم في المجلس، وأن نفقهكم، فأنتم خُلوفنا، وأهل الحديث بعدنا».

ومَرَّ رجل على حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وحوله فتيان جلوس فقال: ما لهؤلاء الأحداث حولك؟ فقال: «وهل الخير إلا في الشباب؟ أما سمعت قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف:١٣]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢]، وإن الله لم يبعث نبيًّا إلا وهو شاب».

وقال الفريابي: كان سفيان الثوري يصلي، ثم يلتفت إلى الشباب، فيقول: «إذا لم تصلوا اليوم فمتى؟».

إذا الروضُ أمسى مُجْدِبًا في ربيعه ... ففي أيِّ حِين يستنيرُ ويُخْصِبُ

وقالت حفصة بنت سيرين: «يا معشر الشباب اعملوا، فإنما العمل في الشباب»، وقال الأحنف بن قيس: «السُّودَدُ مع السواد»(٢).

---

(١) وأعظم إنجازات الكبار -غالبًا- ما حققوه في فترة شبابهم.

(٢) السواد هنا يحتمل معاني منها: أن يراد به سواد الشعر، يقول: من لم يسُد مع الحداثة لم يَسُد مع الشيخوخة.



وهل كان صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه إلا شبابًا؟!

- فقد كان عُمُرُ الرجلِ الثاني في الإسلام أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم أسلم سبعًا وثلاثين سنة.

- وعُمُر الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سِتًّا وعشرين سنة.

- وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عشرين سنة.

- وكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون عشر سنوات، ومثله الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- وجعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثماني عشرة سنة.

- وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبع عشرة سنة.

- وصهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تسع عشرة سنة.

- وزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عشرين سنة.

- وأبي عبيدة عامر بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سبعًا وعشرين سنة.

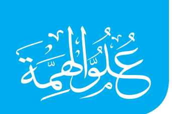
- وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثين سنة.

- وبلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثين سنة.

- والأرقم بن أبي الأرقم -الذي تأسست في داره أول دارِ علمٍ في الإسلام- كان عمره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إحدى عشرة سنة.

لقد حمل عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راية بدر وعمره عشرون سنة، وكذا حمل الراية يوم خيبر. واستشهد عمير بن أبي وقاص في بدر وله ست عشرة سنة.







واستعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عتابَ بن أَسِيد على مكة لما سار إلى حُنين، وعمره نيف وعشرون سنة، واستعمل عمرو بن حزم الخزرجي على نجران وهو ابن سبع عشرة سنة.

وخرج حنظلة «غسيل الملائكة» ليلة عرسه مُلَبيًا داعيَ الجهاد، ونال الشهادة، وفي معركة «حديقة الموت»: شهد البراء بن مالك قتال المرتدين، ولما حمي الوطيس ناداه خالد ابن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إليهم يا فتى الأنصار!».









دعني أستمتع من قوتي وشبابي!

عن عبد الله بن عمرو، قال: جمعتُ القرآن، فقرأتُه كلَّه في ليلة، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأهُ في شهر**». قلتُ: يا رسول الله، دعني أستمتع من قُوَّتي وشبابي. قال: «**اقرأه في عشرين**» قلتُ: دعني أستمتع، قال: «**اقرأه في سبع ليال**». قلتُ: دعني يا رسول الله أستمتع. قال: فأبى(١).

وعن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو، قال: دخل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتي هذا، فقال: «**يا عبد الله! ألم أُخْبَرْ أنَّكَ تكلَّفْتَ قيامَ الليل وصِيَامَ النَّهار؟**» قلتُ: إني لأفعلُ. فقال: «**إنَّ من حَسْبِك أَنْ تصُومَ من كل شهرٍ ثلاثةَ أيام، فالحسنةُ بعشر أمثالها، فكأنّكَ قَدْ صُمتَ الدَّهْرَ كُلَّه**» قلتُ: يا رسول الله، إني أجدُ قوَّةً، وإني أُحِبُّ أن تَزيدني. فقال: «**فخمسة أيام**» قلتُ: إني أجدُ قوَّةً. قال: «**سبعة أيام**». فجعل يستزيدُه، ويزيدُه حتى بلغ النصف. وأن يصوم نصفَ الدهر: «**إنَّ لأهلك عليك حقًّا، وإنَّ لعبدك عليك حقًّا، وإن لضيفك عليك حقًّا**» فكان بعد

---

(١) رواه النسائي، وقال محقق «سير أعلام النبلاء»: «رجاله ثقات غير يحيى بن حكيم بن صفوان، فلم يوثقه غير ابن حبان، وأخرج البخاري: (٩/ ٨٤) في «فضائل القرآن»، ومسلم [١١٥٩][١٨٤] من طريق أبي سلمة، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ القرآن في كل شهر**» قال: قلتُ: إني أجد قوة، قال: «**فاقرأه في عشرين ليلة**» قال: قلتُ: إني أجد قوة، قال: «**فاقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك**» اهـ (٣/ ٨٣، ٨٤).



ما كبر وأسنَّ يقول: ألا كنت قبلتُ رخصةَ النبي ﷺ أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي[١].





---

(١) «إسناده حسن، وهو في (المسند) (٢/ ٢٠٠) من طريق عبد الوهاب بن عطاء بهذا الإسناد» اهـ. من تحقيق «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٩١).





الشاب القائد
أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا

كان الحِبُّ ابنُ الحِبِّ أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مثلًا يحتذى في علو الهمة وسائر الفضائل، وقد تجلت خَصيصة الإسلام -في وزن الناس بأعمالهم لا بصورهم- في المكانة التي حظي بها أسامة وأبوه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قلب سيد ولد آدم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

لقد سوَّى الإسلام بين الناس مساواة مطلقة في الإنسانية، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

وأعلن القرآن وحدة المنشأ والأصل الإنساني: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء:١]، فلا امتياز لشعب على آخر، ولا تفاضل بين الناس في الأنساب والأصول والدماء والألوان والأحساب، وأكد النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه هذا المعنى في حجة الوداع، إذ قال: «**أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم... أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى**».

وأما فيما عدا ذلك، فإن المساواة مقيدة في الإسلام بإطار من العدل، وسياج من العاطفة والرحمة بين الناس، فلا يستوي العالم والجاهل، والمؤمن



وغير المؤمن، والتقي والفاسق أو البر والفاجر، أو المنتج والعاطل، والمجاهد والقاعد، أي أن هناك تفاوتًا في المواهب والصفات، والإنتاج والعطاء، والعمل والبناء وصالح الأعمال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ...﴾ [النساء:٩٥].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١).

كان أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كأمه الحبشية، أفطس الأنف، أسود مثل الليل.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخَّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره، فجاء غلام أسود أفطس، فقال أهل اليمن: إنما جلسنا لهذا! فلذلك ارتدوا. يعني أيام الردَّة.

لقد سوَّاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأحبه كحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبيه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأماط بيده الشريفة الدم والأذى عن جبهته، وكساه بُردته، وزوَّجه امرأة قرشية كما فعل مع أبيه حين زوجه زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا لم يغز أعطى سلاحه عليًّا أو أسامة.

---

(١) رواه مسلم.

- حرص أسامة على المشاركة في غزوة أُحُد (٣هـ) لكن الرسول ﷺ رده لصغر سنه، وفي غزوة الخندق (٥هـ) تكررت محاولته للمشاركة في الجهاد، وجعل يرفع قامته ليجيزه رسول الله ﷺ، فرقَّ له ﷺ، وأجازه بعد أن بلغ خمس عشرة سنة.

وشارك في سائر غزوات النبي ﷺ، إلا في غزوة مؤتة (٨هـ)، فتحت إمرة أبيه زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان سنه إذ ذاك ثماني عشرة سنة.

- وحين انهزم المسلمون في حنين (٨هـ شوال) ثبت أسامة ضمن من ثبت مع رسول الله ﷺ.

- وفي حادثة الإفك: استشار النبي ﷺ أسامة، فأثنى على أم المؤمنين عائشة خيرًا، ثم قال: «يا رسول الله أهلك، ولا نعلم منهم إلا خيرًا، وهذا الكذبُ والباطل».

قال عبد الله بن عمر: بعث رسول الله ﷺ بَعْثًا، وأمَّر عليهم أسامة ابن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال رسول الله ﷺ: «**إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايمُ الله، إن كان لخليقًا بالإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده**».

وكان مما أوصى به النبي ﷺ وهو ينتقل إلى الرفيق الأعلى: «**أنفذوا بعث أسامة**». لقد عيَّن رسول الله ﷺ أسامة قائدًا للجيش وسنه ثمانِ عشرة سنة، وقام خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتشييعه بنفسه، وهو ماشٍ، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر.



فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله، لتركبنَّ أو لأنزلنَّ، فقال أبو بكر: والله لا تنزل، ووالله لا أركبُ، وما عليَّ أن أغبِّر قدمي ساعة في سبيل الله، فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، ويُمحى عنه سبعمائة خطيئة.

ثم قال لأسامة: أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك، وأوصيك بإنفاذ ما أمرك به رسول الله، امض يا أسامة في جيشك للوجه الذي أُمِرتَ به، ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة، فإن الله سيكفي ما تركت، ولكن إن رأيت أن تُعينني بعمر بن الخطاب فإنه ذو رأي ومناصح للإسلام، فافعل. فأذن له بالبقاء.

وقد رُوي عن أمير المؤمنين عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لم يلق أسامة قط إلا قال: «السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله! توفي رسول الله ﷺ وأنت عليَّ أمير».

وحين عاد أسامة بجيشه الظافر المنتصر، وسمع المسلمون بقدومهم، خرج أبو بكر مع المهاجرين، وخرج أهل المدينة، حتى العواتق (أي الشابات)، وسُروا بسلامة أسامة ومن معه من المسلمين، ودخل يومئذ على فرسه «سبحة» كأنما خرج من ذي خشب (موضع)، عليه الدرع، واللواء أمامه يحمله بُرَيْدة، حتى انتهى به إلى المسجد النبوي، فدخل، فصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومعه اللواء، فمازال معقودًا في بيته حتى توفي.

وفي هذا الاستقبال الحافل ردد الناس قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسامة: «**إنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها**».

★ وقال يحيى بن معين لأحمد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بغلة الشافعي: «يا أبا عبد الله تركتَ حديثَ سفيانَ بعلوِّه، وتمشي خلف بغلة هذا الفتى وتسمع منه؟»، فقال له أحمد: «لو عرفتَ لكنت تمشي من الجانب الآخر، إنَّ علم سفيان إن فاتني بعُلُوٍّ أدركتُه بنزول، وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدركه بِعُلُوٍّ ولا نزول».

★ قدم وفد على عمر بن عبد العزيز من العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوَّز يريد الكلام، فقال عمر: «كبِّروا كبروا»، فقال الفتى: «يا أمير المؤمنين إن الأمر ليس بالسن، ولو كان كذلك كان في المسلمين من هو أسنُّ منك»، قال: «صدقتَ، فتكلم».

في حين رأى شاعر أن الأمر يجب أن يكون لكَهْل فقال:

إنما الهُلْكُ أن يُساسوا بِغِرٍّ لم تُعِرْه الأيام رأيًا وثيقا



★ وحكى المسعودي في «شرح المقامات» أن المهدي لما دخل البصرة رأى إياس ابن معاوية وهو صبي، وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة، وإياس يقدمهم، فقال المهدي: «أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟»، ثم إن المهدي التفت إليه، وقال: «كم سنك يا فتى؟»، فقال: «سني -أطال الله بقاء الأمير- سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولَّاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيشًا فيهم أبو بكر وعمر»، فقال له: «تقدم بارك الله فيك».

★ وذكر الخطيب في «تاريخ بغداد»: أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسِنُّه عشرون سنة ونحوها، فاستصغره أهلُ البصرة، فقالوا: كم سن القاضي؟، فعلِم أنه قد استُصْغِرَ، فقال: أنا أكبر من عتَّاب بن أَسِيد الذي وجَّه به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاضيًا على مكة يوم الفتح(١)، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاضيًا على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجَّه به عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاضيًا على أهل البصرة، فجعل جوابَه احتجاجًا(٢).

★ وقال أبو اليقظان: ولَّى الحجاجُ محمدَ بنَ القاسم بن محمد بن الحكم الثقفي قتال الأكراد بفارس، فأباد منهم، ثم ولَّاه السِّند، فافتتح السند والهند، وقاد الجيوش وهو ابن سبع عشرة سنة، فقال فيه الشاعر:

إن السماحةَ والمروءةَ والندى ... لمحمدِ بنِ قاسمِ بن محمدِ
قاد الجيوش لسبعَ عشرةَ حِجةً ... يا قُربَ ذلك سُوددًا من مَوْلدِ

ويُروى: يا قرب ذلك سُورة من مولد، والسورة: المنزلة الرفيعة.

★ ولما جيء بـ«حطيط الزيات» إلى الحجاج قال له الحجاج: «أنت حطيط؟»، قال: «نعم .. سل ما بدا لك، فإني عاهدتُ الله عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقن، وإن ابتُليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن»، فقال الحجاج: «فما تقول فيَّ؟»، قال حطيط: «أقول: إنك من أعداء الله في الأرض، تنتهك

---

(١) كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ولَّى عتاب بن أسيد مكة بعد فتحها وله إحدى وعشرون سنة، وقيل ثلاث وعشرون، وكان إسلامه يوم فتح مكة، وقال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أصحبك وأكون معك، فقال: «أو ما ترضى أن أستعملك على آل الله تعالى؟» فلم يزل عليهم حتى قُبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) «وفيات الأعيان» (٦/ ١٤٩).



المحارم، وتقتل بالظنة»، قال الحجاج: «فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟» قال: «أقول: إنه أعظم جُرمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه».

فأمر الحجاج بتعذيبه، حتى انتهى به العذاب إلى أن يشقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال، ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا، ولا بدا عليه جزع أو ضعف.

فأُخبر الحجاج بأمره، وأنه في الرمق الأخير، فقال: «أخرجوه فارموا به في السوق»، ووقف عليه رجل وهو بين الحياة والموت يسأله: «ألك حاجة؟» فما كان من «حطيط» إلا أن قال: «ما لي من حاجة في دنياكم إلا شربة ماء»، فأتوه بشربة شربها، ثم مات، وكان ابن ثماني عشرة سنة.

★ وولي عُبيد الله بن زياد خُراسان وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وليها لمعاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وولي معاذ اليمن وهو ابن أقل من ثلاثين سنة.

- وتوجه عبد الله بن عامر بن كريز القائد الأموي إلى فتح خراسان وعمره خمس وعشرون سنة.

- وحمل الناسُ عن إبراهيم النخعي وهو ابن ثماني عشرة سنة.

- وأفتى الشافعي وهو ابن خمس عشرة سنة.

- وبرع الإمام أحمد في الحديث وعمره ست عشرة سنة.

- وبدأ أبو الفرج ابن الجوزي مجالسه في الوعظ وله ثلاث عشرة سنة.

- وتفوق ابن تيمية في علوم عصره، وخلف أباه في درسه، وأفتى وله أقل من تسع عشرة سنة.

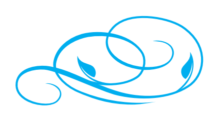


★ ومات سيبويهِ إمام النحو، وحجة العرب، وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة.

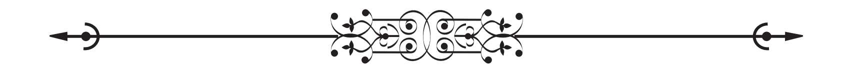
قال البحتري:

لا تنظرن إلى العباس من صِغَرٍ	**في السن، وانظر إلى المجد الذي شادا**
إن النجومَ نجومَ الأُفْـقِ أصغرُها	**في العينِ أبعدُها في الجِّو إصعادا**

إن الشباب هم الشريحة الفعالة في الأمة، وهم عمودها الفِقْرِيُّ، وجهازها العضلي، وروحها الحية، وطليعتها الوثابة، ولا يُتَصوَّرُ نجاحُ دعوةٍ لا تقوم على حماس الشباب وقوته.







الفَصْلُ الخَامِسُ

أثر عُلُوّ الهِمَّة في إصْلاحِ الفَرْدِ والأُمَّةِ



أثر عُلُوّ الهِمَّةِ في إصْلَاحِ الفَرْدِ والأُمَّةِ

قد لاح فيما مضى كيف أن الهمة العالية هي سُلَّم الرقي إلى الكمال الممكن في كل أبواب البر، لا سيما العلم والجهاد اللذَيْنِ هما سبب ارتفاع الدرجات، فمن تحلَّى بها لان له كل صعب، واستطاع أن يعيد هذه الأمة إلى الحياة مهما ضمرت فيها معاني الإيمان، إذ إن «همم الرجال تزيل الجبال»:

همم الأحرار تحيي الرِّمَما   نفخة الأبرار تحيي الأُمَمَا

إن أصحاب الهمة العالية فحسب هم الذين يقوون على البذل في سبيل المقصد الأعلى، وهم الذين يبدلون أفكار العالم، ويغيرون مجرى الحياة بجهادهم وتضحياتهم[١]، ومن ثم فهم القلة التي تنقذ الموقف، وهم الصفوة التي تباشر مهمة «الانتشال السريع» من وحل الوهن، ووهدة الإحباط.

- قال الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ مبيناً أثر «علو الهمة»:

«يسمو هذا الخُلُقُ بصاحبه، فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد، أو يُزدرى، فإذا هو عزيز كريم، وهو الذي



(١) وهؤلاء بخلاف من قال فيهم المودودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«من دواعي الأسف أن الذين عندهم نصيب من القوى الفكرية والقلبية من النوع الأعلى من أفراد أمتنا هم مولعون بإحراز الترقيات الدنيوية، جاهدون في سبيلها ليل نهار، ولا يقبلون في السوق إلا على من يساومهم بأثمان مرتفعة، وما بلغوا من تعلقهم بالدعوة إلى الاستعداد للتضحية في سبيلها بمنافعهم، بل ولا بمجرد إمكانيات منافعهم، فإذا كنتم ترجون -معتمدين على هذه العاطفة الباردة للتضحية- أن تتغلبوا في الحرب على أولئك المفسدين في الأرض الذين يضحون بالملايين من الجنيهات كل يوم في سبيل غايتهم الباطلة، فما ذلك إلا حماقة» اهـ. من «تذكرة دعاة الإسلام» (ص٥٦).

يرفع القوم من سقوط، ويُبْدِلُهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها،...

أما صغير الهمة فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حِطَّة، ثم لا يلبث أن يسير في ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم..» اهـ[(١)].

وفي جُنْحِ هذا الظلام الحالك والليل الأليل، تكاد تفتقد أمتنا البدر المنير، وتترقب مجيء «رجل الساعة»، والمصلح المنتظر، ويحدوها الأمل في طلوع فجر قريب يؤذن ببعث المجدِّد المرتقب الذي بشر به الصادق المصدوق في قوله: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها»[(٢)].

يا ليلَ أمتِنا الطويل متى نرى	فجرًا تغرد فوقَه الأمجادُ
أجدادنا كتبوا مآثرَ عِزها	فمحا مآثرَ عزِّها الأحفادُ
دعنا نسافر في دروب إبائنا	ولنا من الهمم العظيمة زاد

فيا شباب الإسلام: قد فُتح باب الترشيح، فهيًّا تسابقوا إلى العلا، وتنافسوا في جنة عرضها السماوات والأرض، واختطوا لأنفسكم طريق المجد، فتالله ما ارتفع صوت الحادي يومًا لرفقة أولي صَمَم، ولا ارتفع الفلك الأعلى لغير أهل الشموخ والشَّمَم.

(١) «من رسائل الإصلاح» (٢/ ٨٨).
(٢) رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٦٠١).



سـتـعـلـم أمـتُـنـا أنـنـا	ركِـبـنـا الـخـطـوبَ هُـيـامًـا بها
فـإن نحـن فُـزْنـا فـيـا طـالمـا	تَـذِلُّ الـصِّـعـابُ لـطُـلَّابـهـا
وإن نَـلْـقَ حـتـفًـا فـقـد قُـدِّمَـتْ	كـؤوسُ المـنـايـا لـشُـرَّابـهـا

فمن منكم ينتدب نفسه لهذه المهمة الجسيمة التي قال فيها المجدِّدُ العَلَمُ، والجبل الأشم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني أعالج أمرًا لا يُعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصُح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحقَّ غيرَه»؟!

من منكم -ممن يعرف قدر نفسه بلا وَكْسٍ ولا شطط- يراها أهْلًا لهذه الوظيفة المقدسة؟

من منكم «يوسف» هذه الأحلام، الذي يضرب صدره في ثقة وشموخ قائلًا: «أنا لها .. أنا لها»؟

فإن كنت -عن جدارة واستحقاق- حُزْتَ «مُسَوِّغات» هذا الترشيح، فامضِ على بصيرة، «ولا تلتفت إلى الوراء حتى يفتح الله عليك»، وحذارِ أن تغفل ولو «لحظة»:

لحـظـةً يـا صـاحـبي إن تغفلِ	ألـفَ مـيـلٍ زاد بُـعْـدُ المـنـزلِ
رام نـقـشَ الـشـوكِ حِـيـنًـا رجـلُ	فاختفى عن ناظريه المحْمَلُ[(١)]



(١) ومناسبة هذا الشعر (أن إنسانًا كان تائهًا في مفازة يمشي على قدميه، فشهد على بعد منه محملًا أمَّل فيه أسباب النجاة، فأسرع متعجلًا يقصده حافيًا، فأصاب الشوك قدميه، فصرف بصره عن المحمل لحظة لنزع الشوكة من قدمه، فغاب عنه المحمل! ومات أمله ولبسته الحسرات) اهـ. من «رسالة المسترشدين» للمحاسبي، بتحقيق أبي غدة (ص١١٥).

وزاحِم بكتفيك وساعِدَيْكَ قوافلَ العظماء المجددين من السلف والخلف، ولا تؤجل فـ(ليس من تأجيل، فإن مرور الزمن ليس من صالحك، وإن الطغيان كلما طال أمده، كلما تأصَّلت في نفوس المتميعين معاني الاستخذاء، ولا بد من مبادرة تنتشل، ما دام في الذين جرفهم التيار بقيةُ عِرْقٍ ينبض، وبذرة فطرة كامنة)(١).

قد هيَّؤوك لأمرٍ لو فطنتَ له   فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ

ولا يظننَّ ظانٌّ أن حديثنا عن علو همة أسلافنا العظام يعني الانطواء في الماضي وقطع الصلة بالحاضر والمستقبل، وإلا صرنا كالترجُمان الذي يتوقف أمام الآثار، ويُشِيدُ بالماضي فحسب، دون أن يقدم شيئًا للحاضر بَلْهَ المستقبل(٢).

(١) «المنطلق» (ص٥٩).

(٢) وما أحسن ما قاله الدكتور عبد الكريم بكار حفظه الله حينما انتقد الغلو في العودة إلى الماضي: «بعض الغارقين في التراث يكون موقفهم ملتبسًا، حيث إنك تجد الواحد منهم يقضي عمره وهو يسرد أمجاد السابقين وبطولاتهم دون أن يتعلم أو يبذل أي جهد في فهم كيفية توظيف دلالاتها الرمزية في النهوض بأحوالنا. إنه لم يدرك المعنى العميق لقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٣٤]. بعض هؤلاء تجده وقد أفنى زهرة شبابه وهو ينتقل من كتاب إلى كتاب، ومن شيخ إلى شيخ.. وبعد عشرين أو ثلاثين سنة من هذه الحالة، لا يعرف ماذا يفعل بما حصله من علم، لأنه يعتقد أنه ما نضج بعد، ولديه هاجس دائم من أن يتزبب قبل أن يتحصرم! إنه لا يؤلف ولا يدِّرس، ولا يوجِّه... لأنه لا يعرف أن النفع الأساسي لأي علم لا يظهر إلا إذا اتصل بحياة الناس، وساعدهم على إصلاح أمور دينهم ومعاشهم، وكثير من هؤلاء تجده غارقًا في مسائل جزئية في العقيدة والفقه والتجويد... معرضًا عن محاولة فهم كثير من النوازل التي تحتاج إلى فقه واجتهاد وفتوى. والحجة الجاهزة هي أن هذه الأمور صعبة، أو تحتاج إلى مجمع فقهي أو لجان ودعم مادي... وما درى أن عمل المجامع لا يقوم من غير الأفكار والآراء التي يقدمها الأفراد عبر جهودهم الشخصية. =





لا تـقـل قــد ذَهَــبَــتْ أربــابُــه   كــل مــن ســار عــلى الــدرب وَصَــلْ

ولا يظننَّ ظانٌّ أننا بهذا الحديث عن علو همة السلف الصالح نرجع إلى الوراء في زمن تتسابق فيه الأمم نحو المستقبل، فإن اقتداءنا بخير أمة أخرجت للناس هو ترقٍّ وصعود وارتفاع إلى مستوى ذلك الجيل الفريد الذي لم تعرف البشرية له نظيرًا، وإن إبراز هذه النماذج الحية أقرب طريق إلى إيقاظ الهمم نحو إصلاح هذه الأمة التى لا يصلح آخِرها إلا بما صلح به أولها ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء:١٠]، وباب المجد والمكرمات لم يزل مفتوحًا يرحب بكل راغب.

= وبعض الغالين في التمسك بالماضي منطوٍ على نفسه معرض عن الجديد، لأن الزمان زمان جهل وفتن ومصالح، وزمان هرج ومرج؛ والناس يحتاجون إلى إخلاص وتقوى، وليسوا في حاجة إلى اجتهادات وفتاوى جديدة.. وعلاقة هذا الفريق بالماضي مضطربة ومبهمة، إنه لا يعرف ماذا يأخذ، وماذا يدع، كما لا يعرف لماذا أخذ ما أخذه، ولماذا ترك ما تركه. والتشاؤم لديه، والشكوى من كل شيء هو سيد الموقف!

... نحن أمة ذات غنى كبير في تراثها على مقدار ما هي فقيرة في حاضرها. ولا شك في أن الفرق كبير بين أمة تقود العالم قرونًا وبين أمة تأتي في مؤخرة القافلة في أمور غير قليلة، ولهذا فإننا بحاجة إلى تواصل مستمر مع ماضينا ومع تراثنا لا لأننا أسرى الحنين للأيام الحلوة، ولا لأننا نعتقد أن الانشداد إلى الماضي أفضل أو أنفع من الانخراط في الحاضر ومعاناة شؤونه وشجونه، وإنما لأن كثيرًا من تراثنا يقدم الأصول والقواعد الأساسية للثقافة التي ينبغي أن نتشبع بها. كما أننا نريد أن نفهم جذور الواقع الذي نعيش فيه، كما نريد أن نعرف الأسباب الحقيقية وراء حركة التاريخ والصانعة لها. إننا لا نستطيع أن نفهم أي شيء على نحو دقيق إلا إذا فهمنا تاريخه. هذا يعني أن العودة إلى التراث لا ينبغي أن تكون من أجل الاهتمام بسرده وترديده والتغني به، وإنما من أجل فحصه وتحليله وفهم نقاط قوته ونقاط ضعفه.

... يلزمنا أن نتعلم متى نصغي إلى صوت الماضي، ونحتفي به، ومتى نتجاهله. ونحن قادرون على هذا بما نملكه من تعاليم الشرع الحنيف. علينا ألا نسمح للطريق القديم ومدلولاته بأن يمنعنا من شق طريق جديد يحقق الخير للأمة، ويخدم مقاصد الشريعة، ولا يتنافى في الوقت ذاته مع ثوابتها وأحكامها القطعية» اهـ. من «تجديد الخطاب الإسلامي» (ص٥٧-٥٩) بتصرف.





قال الطاهر بن الحسين:

إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ   فَكُنْهُ يَكُنْ منك ما يُعجبكْ

فليس على المجدِ والمكرُماتِ   إذا جِئْتَها حاجبٌ يَحْجُبُكْ

فيا من يروم ولوج هذا الباب واجه الحقائق، وتبصر موقع قدمك، ولا تفزع إلى انتظار خراب العالم على أمل أن ينهض المسلمون على أنقاضه[(١)]، ولا تهرب إلى افتراض حصول خوارق للسنن التي لا تحابي من لا يحترمها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وتذكر يوم بدر حين (خرج الثلاثة من كفار قريش يطلبون المبارزة، فأخرج لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة من الأنصار، فقالوا: «والله لا نطعن في أحسابهم ولا أنسابهم، ولكن أخرج لنا أكفاءنا من قريش»، فأخرج لهم عليًّا وحمزة وأبا سفيان بن الحارث، فقتلوهم، وكذلك الناس دومًا، تحب المكافأة حتى إذْ هم يُقتلون، والقرشية اليوم تتمثل في الصروح العلمية، والمجامع الأدبية،.. والمؤسسات الصحافية، والمعاهد السياسية، والدور الوثائقية، والشركات الصناعية، ..، وعلى دعاة الإسلام اليوم أن ينطلقوا منها للمبارزة)[(٢)].

هذا زمانٌ لا توسُّطَ عنده   يَبْغِي المغامرَ عاليًا وجليلا

كُنْ سابِقًا فيه أو ابْقَ بمعزلٍ   ليس التوسطُ للنبوغ سبيلا

وأنت أيها المصلح المرتقَب، والمجدد المنتظر، ستخرج إلى الحياة بإذن الله مهما حاول الفرعون أن يتقيك، ومهما وأد من الصبية كي يبدل وعد الله الذي لا يُخْلَف:

(١) انظر: «فقه أشراط الساعة» للمؤلف (ص٣٠١-٣١٠).
(٢) «صناعة الحياة» (ص٥١) (بتصرف).

فِـرْعَـونُ لا يَخـدعـكَ وهـمُـك أنني   أبصرتُ طِفلًا في حِماكَ رضيعا[١]

ويا نجمًا في سماء هذا الليل الذي طال واستطال: قد تكون الآن كامنًا في ضمير الغيب، أو حقيقة في عالم الشهادة، قد تكون رضيعًا في المهد، أو لعلك نشءٌ تقرأ الآن هذه السطور:

أنـت نَـشْءٌ وكـلامـي شُـعَـل   عَـلَّ شَـدْوي مُـضْـرِمٌ فـيك حريقا

لـيـس في قـلـبيَ إلا أن أرى   قـطـرةً فـيك غَـدَتْ بحـرًا عميقا

لا عَـرَى الـروحَ هـدوءٌ، ولتكن   بحـيـاة الـكَـدِّ والـكـدح خليقا[٢]

إن أمتك المسلمة تترقب منك جذبة «عُمَرِيَّة» توقد في قلبها مصباح الهمة في ديجور هذه الغفلة المدلهمة، وتنتظر منك صيحة «أيوبية» تغرس بذرة الأمل، في بيداء اليأس، وعلى قدر المَؤُونة؛ تأتي من الله المعونة، فاستعن بالله ولا تعجز.

يَـا نَـشْءُ أَنْـتَ رَجَـاؤُنَـا   وَبِـكَ الـصَّـبَـاحُ قَـدِ اقْـتَرَبْ

خُـذْ لِـلْـحَـيَـاةِ سِـلَاحَـهَـا   وَخُـضِ الخُـطُـوبَ وَلَا تَـهَـبْ

وَارْفَـعْ مَـنَـارَ الـعَـدْلِ وَالـ   إِحْـسَـانِ وَاصْـدُمْ مَـنْ غَـصَبْ

وَاقْـلَـعْ جُـذُورَ الخَـائِـنِـينَ   فَـمِـنْـهُـمُ كُـلُّ الـعَـطَـبْ

وَأَذِقْ نُـفُـوسَ الـظَّـالِمِـينَ   الـسُّـمَّ يُمْـزَجُ بِـالـرَّهَـبْ

وَاهْـزُزْ نُـفُـوسَ الجَـامِـدِيـنَ   فَـرُبَّـمَـا حَـيَّ الخَـشَـبْ

★★★

(١) من قصيدة «رسالة إلى فرعون» للشاعر صالح العشماوي، وقوله: (طفلًا) يعني: ليس هو في الحقيقة طفلًا، لكنه المستقبل المُنْقِذ رغم أنفك.
(٢) «المنطلق» (ص٣٨).





يَا قَومُ هَذَا نَشْؤُكُم	وَإِلَى المَعَالِي قَدْ وَثَبْ
كُونُوا لَهُ يَكُنْ لَكُمْ	وَإِلَى الأَمَامِ ابن وَأَبْ
هَذَا نِظَامُ حَيَاتِنَا	بِالنُّورِ خُطَّ وَبِاللَّهَبْ
حَتَّى يَعُودَ لِقَوْمِنَا	مِن مَجْدِهِم مَا قَدْ ذَهَبْ[١]

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: **«مثل أمتي مثل المطر، لا يُدْرَى آخِرُه خير أم أوَّله»**[٢]، وقال ﷺ: **«لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا، يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة»**[٣]، وقال ﷺ: **«إن الله زَوَى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها»**[٤]، وقال ﷺ: **«ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يبقى بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعِزِّ عزيزٍ، أو بذلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ الله به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلَّ به الكفرَ»**[٥].

ولتكن هذه المبشرات مسكَ الختام، ويا أيها الناظر في هذا السِّفْر، إن ظفرت بفائدة فادع لجامعه بالتجاوز والمغفرة، أو بزلةِ قلمٍ فافتح لها بابَ التجاوزِ والمعذرة.



(١) من قصيدة «شعب الجزائر مسلم» للإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله.
(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي، وحسنه، وكذا حسنه الحافظ.
(٣) رواه الإمام أحمد، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦/ ٢٣١).
(٤) صدر حديث رواه مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه.
(٥) رواه الإمام أحمد، والطبراني في «الكبير»، والحاكم، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا صححه ابن حبان.





فـلابـد مـن عـيـبٍ فـإن تجدنه	فسامح وكن بالستر أعظم مُفْضِلِ
فمن ذا الذي ما ساء قط ومن له الـ	محاسن قد تمت، سوى خير مرسَلِ

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الإسكندرية في

السابع من ربيع الآخر ١٤١٦هـ

الموافق ٣ سبتمبر ١٩٩٥م

وكان الفراغ من زيادته وتهذيبه في

الاثنين ٢٣ من جمادى الأولى ١٤٣٨هـ

الموافق ٢٠ من فبراير ٢٠١٧م

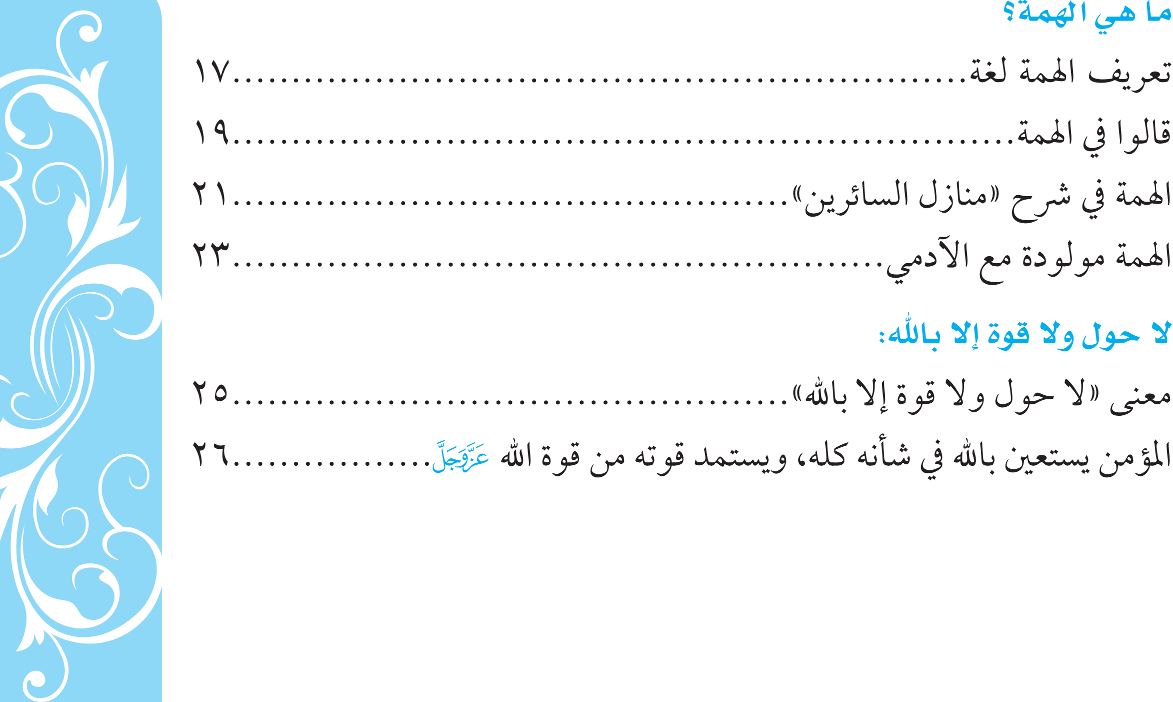
والحمد لله رب العالمين







محتويات الكتاب



الباب الثاني
خصائص كبير الهمة



فروق تمس الحاجة إلى بيانها

الباب الثالث
الحث على علو الهمة في القرآن والسنة

الباب الرابع
مجالات علو الهمة






عُلُوُّ الهِمَّة





الباب الخامس

واقع الأمة، وكيف تُصْلِحه الهمة؟





تم بحمد الله



إخراج فني
مُؤَسَّسَة الفِرْدَوْس
+201220482504